

سلسلة التراث

272

الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى

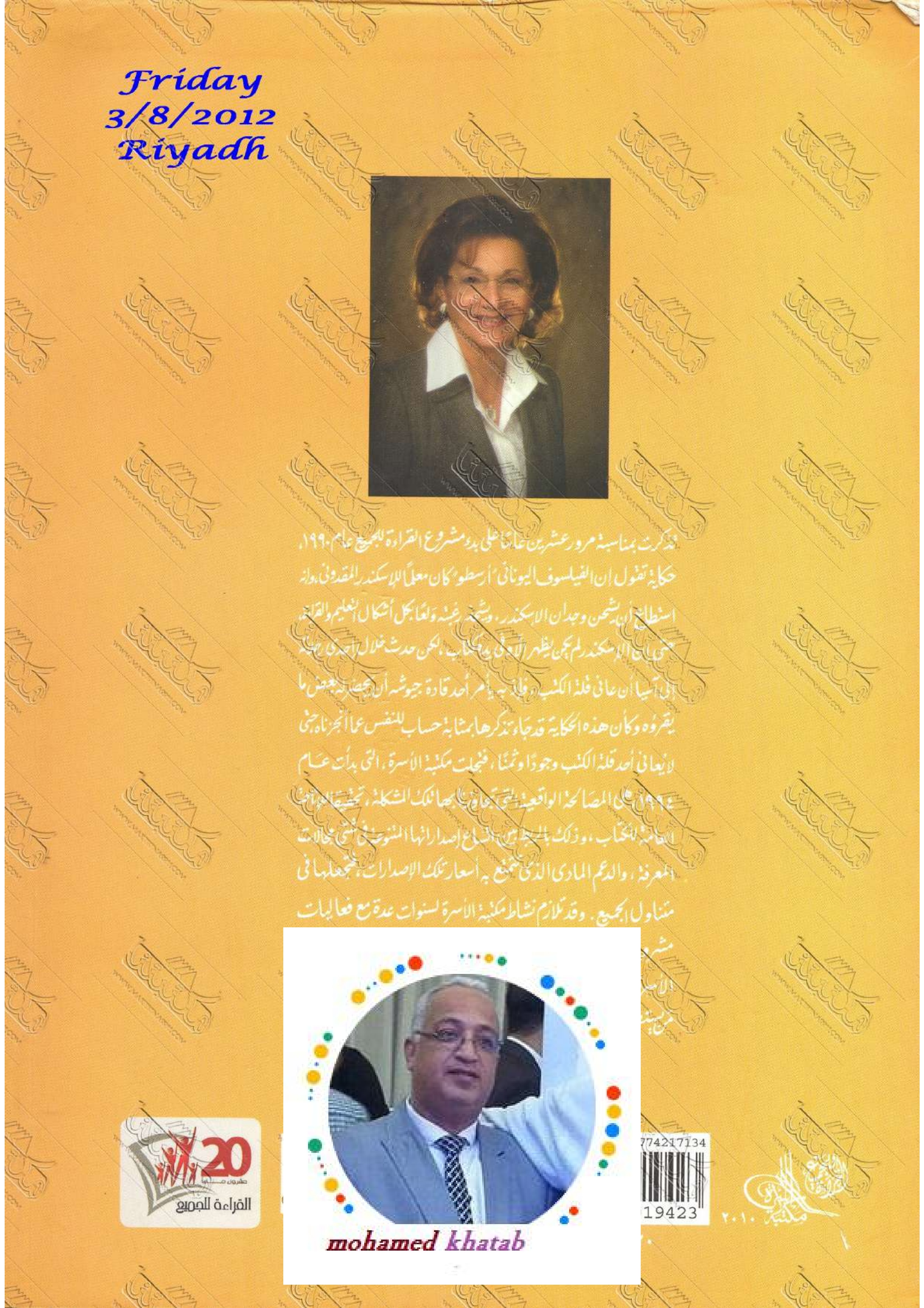
سيرة الرسول وتأسيس الدولة الإسلامية

A h m e d M a d y

الجزء الرابع

دراسة وتحقيق

د. محمد عمارة



تذكرت بمناسبة مرور عشرين عامًا على بدء مشروع القراءة للجميع عام ١٩٩٠، حكاية تقول إن الفيلسوف اليوناني "أرسطو" كان معلمًا للإسكندر المقدوني، وإنه استطاع أن يشحن وجدان الإسكندر، ويشحذ رغبته ولعًا بكل أشكال التعليم والقراءة، حتى إن الإسكندر لم يكن يظهر إلا وفي يده كتاب، لكن حدث خلال إحدى رحلاته إلى آسيا أن عانى قلة الكتب، فإذا به يأمر أحد قادة جيوشه أن يحضر له بعض ما يقرؤه وكأن هذه الحكاية قد جاء تذكرها بمثابة حساب للنفس عما أنجزناه حتى لا يعاني أحد قلة الكتب وجودًا وثمنًا، فنجحت مكتبة الأسرة، التي بدأت عام ١٩٩٤ في المصالحة الواقعية التي تجاوزنا بها تلك المشكلة، تحقيقًا [illegible] العامة للكتاب، وذلك بالجمع بين اتساع إصداراتها المتنوعة في شتى مجالات المعرفة، والدعم المادي الذي تتمتع به أسعار تلك الإصدارات، لتجعلها في متناول الجميع. وقد تلازم نشاط مكتبة الأسرة لسنوات عدة مع فعاليات



الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي

الجزء الرابع

سيرة الرسول وتأسيس الدولة الإسلامية

دراسة وتحقيق

د. محمد عمارة

مكتبة الأسرة ٢٠١٠

توطئـة

مثل كل الأحلام الكبرى التى بزغت منها مشاريع عملاقة أدت إلى تطور مجتمعاتها، ولهذا أرسى **مهرجان القراءة للجميع** جذوره الراسخة فى الأرض المصرية منذ عشرين عامًا.. لقد انطلق أهم مشروع ثقافى فى العالم العربى عام ١٩٩٠ تحقيقًا لحلم السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** راعية المهرجان، وصاحبة فكرته والتى دشنته آنذاك بافتتاح عشرات المكتبات فى جميع ربوع الوطن، وأطلقته فى سماء الواقع برؤية واضحة ومحددة تستند على الإيمان بأن الثقافة هى وسيلة الشعوب لتحقيق التقدم والتنمية بما لها من قدرة على تحويل المعارف المختلفة إلى سلوك متحضر، وإعلاء المُثل العليا، وقيم العمل والإنجاز، وإشاعة روح التسامح والحرية والسلام التى دعت إليها جميع الأديان، بهدف أن تُكوِّن ثقافة المجتمع بتأصيل عادة القراءة وحب المعرفة، لذا فإن وسيلة المعرفة الخالدة ستظل هى الكتاب الذى يسهم فى إرساء دعائم التنمية، وتحقيق التقدم العلمى المنشود.

لقد اتسعت روافد الحملة القومية **للقراءة للجميع** طوال الأعوام العشرين الماضية، وأصبحت تشكل فى مجملها دعوة حضارية للبناء الروحى والفكرى والوجدانى للإنسان المصرى نابعة من الإيمان العميق بأن الثقافة هى بكل المقاييس أفضل استثمار لبناء مجتمع المستقبل، وهى الجسر الرئيسى للشباب للحاق بركب الحضارة المعاصرة، بل تكاد تكون هى الوسيلة الوحيدة لنشر قيم العلم والتسامح والديمقراطية والسلام الاجتماعى والتطور الحضارى، وترسيخ قيم المواطنة وقيمة دور المرأة، وتعزيز قيمة التجدد الثقافى والتفكير النقدى

والحوار ومعرفة الآخر والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى، وأيضًا إبراز تواصل الإبداع المصرى من خلال نشر الآثار الأدبية لـ «مختلف أجيال المبدعين».

ومنذ العام الرابع لمهرجان **القراءة للجميع**؛ أصبحت **مكتبة الأسرة** من أهم روافده، وقدمت طوال ستة عشر عامًا دون توقف ملايين النسخ بأسعار رمزية لإبداعات عظيمة لشباب المبدعين وكبار الكتاب الذين أثروا المشروع فكريًا وثقافيًا وعلميًا ودينيًا وتراثيًا وأدبيًا، كما قدمت الموسوعات الكبرى التى تُعتبر أعمدة هذه المكتبة، والتى شكلت مسيرة فكر النهضة فبعثت فى نفوس الشباب من جديد الإحساس بالفخر بما قدمته أمتهم من كنوز إبداعية ومعرفية وفكرية للبشرية، وأقامت جسرًا يصل بين ماضيهم وحاضرهم، ويصل بين حاضرهم ومستقبلهم، كما بعثت فيهم روح الانتماء القوى لهويتهم المصرية والعربية، ولما لا وقد أطلت عليهم مكتبة باذخة الثراء تتكئ على مؤلفات حضارة مصرية قديمة ما زالت قادرة على إدهاش العالم حتى هذه اللحظة بما احتوته من تقدم فنى وفكرى وعلمى وفلسفى وأدبى شكَّل فجر «ضمير الإنسانية» وحضارة إسلامية أنارت ظلمات أفلاك البشرية لحقب طويلة من الزمان، ووضع أعلامها بعض أعمدة الحضارة المعاصرة فى مجالات الطب والفلك والرياضيات والآداب!.

لهذا كله ستواصل **مكتبة الأسرة** هذا العام نشر رسالتها بالسعى قدمًا نحو تطوير أدائها، وتحقيق حلمها الأكبر بتكوين ثقافة المجتمع كله بأيسر السبل، والتأكد من اطلاعه على جميع ما أنتجته عبقرية الأمم ممثلة فى تراثها الأدبى والعلمى والفكرى المستنير.

مكتبة الأسرة

٢٠١٠

الفهرست



الباب الأول

[في مولده الشريف إلى بعثته
صلى الله عليه وسلم..
وفيه فصول]

المقدمـة

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن أسعد نبيه بأعلى درجات الشرف، وأصعده إلى أسمى مدارج الغرف، ونسخ بشرعه الشريف ودينه المنيف شرائع من تقدمه من الأنبياء والمرسلين، وصلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وعلى آله الذين سيروا ركائب سيرته الحسنى فى سائر الآفاق، وفسروا بالوجه الأسنى مواكب شمائله الوثيقة النطاق.

(**أما بعد**) فلما صار الشروع فى (الجزء الثانى) من كتاب [توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل] عن لى أنه لا غنى عن تتويجه بالسيرة النبوية، فانتقيت ذلك من صحيح كتبه المصطفوية، فجاءت بحمده تعالى جيدة الأسلوب، تنفع أهل الوطن، وتسطع فى غرة ولى المنن، خديو مصر إسماعيل، المجدد فى مصر أحسن زمن، شكرا لإحسانه، واعترافا بفضله وامتنانه، وأداء لواجب من ألف هذا التاريخ باسمه، وأهدى برسمه، حضرة صاحب عهد مصر الوثيق، دولتلو محمد باشا توفيق..

قنعت نفسى بما رزقت ... وتمنت فى العلى هممى

فإذا ما الدهر عاتبنى ... لم يجدنى كافر النعم

وأيضا كيف تخلو التواريخ الإسلامية المنيرة من السيرة الفاخرة لسيد الدنيا والآخرة، وكيف لا يوقف اللبيب عليها عينه، ولا يقدح الأريب فى فنها ذهنه، مع أن المؤرخين فى كل وقت يتنافسون فيها، ويتسابقون إليها ويروونها بألسنتهم، ويدونونها، فى كتبهم، ويحملها متقدمهم إلى متأخرهم، ويدرسونها فى

المساجد، ويتذاكرونها فى المشاهد، ولا عجب من محب يروى مآثر حبيبه، ولا من صب يتحف معشوقه بغزله ونسيبه.

لا يطربون سوى بذكر حبيبهم أبدًا فكل زمانهم أفراح

[آخر]:

إذا تلفظت لم أنطق بغيركمو وإن سكت فأنتم عقد إضمارى

فكانت هذه السيرة كما قيل:

ميادين تهيامى ومسرح خاطرى وللشوق غايات بها ومبادى

وسميتها [نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز].

هذا، ومع أن الجزء الأول طبع بالمطبعة العامرة الكبرى، فقد بادر سعادة أفندم على باشا [1] مبارك، الغارس للنفائس، بإفراد هذه السيرة تعجيلا للفائدة بطبعها فى روضة المدارس [2]، وهذا لا يمنع من طبع الجزء الثانى بالمطبعة العامرة عند تمامه ليكون صنو الأول فى حين نظامه.

---

(١) (١٨٢٣ ـ ١٨٩٣) من أبرز مؤرخى مصر فى القرن التاسع عشر، ويعد كتابه [الخطط التوفيقية] امتدادا لخطط المقريزى، ولقد سافر فى بعثة إلى فرنسا بعد تخرجه من مدرسة «المهندسخانة»، وتولى عدة مناصب من بينها ديوان المدارس وديوان الأشغال، ومن منشآته الثقافية الكتبخانة المصرية (دار الكتب) و (دار العلوم).

(٢) الإشارة إلى نشر عدد من فصول هذا الجزء بمجلة (روضة المدارس) التى رأس المؤلف تحريرها، وذلك قبل طبعه كاملا فى شكل كتاب.

الفصل الأول

(فى مولده الشريف، ونسبه المنيف، ورضاعته، وكفالته)

هو أبو القاسم محمد، بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصى، ابن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤى، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، ابن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان، الذى قيل فيه:

وكم أب قد علا بابن له شرف … كما علا برسول الله عدنان

وهذا مما لا اختلاف فيه من الآباء، وما فوق ذلك مختلف فيه.

ولا خلاف فى أن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم، ﷺ، وإنما الخلاف فى عدد ما بين عدنان وإسماعيل من الآباء، فمن مقلّ ومكثر، وكذلك من إبراهيم إلى آدم، عليهما الصلاة والسلام، ولا يعلم ذلك على حقيقته إلا الله تعالى. وعن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ إذا انتهى فى النسب إلى معد بن عدنان أمسك، وقال «كذب النسابون»، قال الله تعالى: ﴿ **وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا** ﴾ (الفرقان: ٣٨) وقد أجمع النسّابون العدنانية والقحطانية والأعاجم على أن إبراهيم، خليل الرحمن، عليه السلام، من ولد سام بن نوح، وأن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام، فانتهاء النسب إلى إسماعيل، كثير النسل العديد، وذو النبوة العظمى والملك الشديد، متفق عليه كمال الاتفاق.

وأما أمه ﷺ فهى آمنة، بنت وهب، بن عبد مناف، بن زهرة، بن كلاب، بن

مرة، بن كعب، بن لؤى، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان. فتجتمع آمنة بنت وهب مع زوجها عبد الله بن عبد المطلب فى كلاب بن مرة، ويفترقان من ولده، فعبد الله من ولد قصى بن كلاب بن مرة، هاشمى، وآمنة بنت وهب من زهرة بن كلاب ابن مرة، فهى قرشية زهرية.

وهو ﷺ مصباح الكون وضياؤه، وخير بنى آدم، لأنه من نور الله، فإن الله عز وجل حين خلق آدم، عليه السلام، وأكمل نشأته، واستخرج فى عالم الذر[1] من ظهره ذريته، وأشهدهم على أنفسهم، لاحت أنوار الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فكان نور نبينا محمد، ﷺ، أشرقها صباحا، وأنورها مصباحا، فلم يزل نوره ﷺ رأى العيان فى كل الأزمان، ينتقل باهر الضياء من خير الآباء إلى خير الأبناء، حتى انتهى إلى كبير مكة وقريش فى الجاهلية عبد المطلب بن هاشم، ثم إلى أبيه عبد الله الذبيح الثانى، والد نبينا محمد أبى القاسم، أشرف الناس نسبا، عجما وعربا، ذى القدر العلى، والفضل الجلى، ابن الذبيحين، وصاحب النسبتين من الأبوين: بنى هاشم وبنى زهرة، الذى نقله الله من الأصلاب الشريفة إلى الأرحام الطاهرة العفيفة، كما جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «ما ولدتنى بغى قط منذ كنت فى صلب آدم، فلم تزل تنازعنى الأمم - (أى تتنازعنى) - كابرا عن كابر حتى خرجت فى أفضل حى فى العرب هاشم وزهرة». فأبوه من بنى هاشم وأمه من بنى زهرة..

ما زال نور محمد متنقلاً ... فى الطيبين الطاهرين ذوى العلا

حتى لعبد الله جاء مكملاً ... ولبنت وهب قد علا متهللا

وهو ﷺ ذو نسب إبراهيم خليل الله دعامه، وإسماعيل سنامه، وكنانة زمامه، وقريش نظامه، وهاشم تمامه. قال ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من

(١) المراد عالم الغيب، وعندما يكون الإنسان فى عالم «الممكن» وقبل أن ينتقل إلى عالم الوجود «بالفعل».

قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار». وقال الشاعر:

نسب أضاء وشمسه من هاشم ... وسماؤه من يعرب ونزار
من معشر ورثوا السيادة كابراً ... عن كابر فهم كبار كبار

ومن كلام عمه أبي طالب:

إذا اجتمعت يومًا قريش لمفخر ... فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أنساب عبد منافها ... ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يومًا فإن محمدًا ... هو المصطفى من سرها وكريمها

* * *

وولد ﷺ يوم الاثنين، حين طلع الفجر، وهو وقت البركة، كما قال ﷺ: «بورك لأمتي في بكورها»، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول على المشهور، واختلف في عام ولادته ﷺ، فالأكثرون على أنه عام الفيل، وبه قال ابن عباس وحكى الاتفاق عليه. قيل: وكل قول يخالفه وهم، والمشهور أنه بعد الفيل بخمسين يومًا وإليه ذهب السهيلي [1] في جماعة، وقيل غير ذلك.

ويوم الاثنين كانت هجرته، ووفاته، وكذا الإسراء به، قيل: وابتداء نبوته، فلهذا صارت أيامه مبتسمة الثغور، ولياليه مشرقة بالنور.

وكان › معتدل الخَلْق والخُلُق، كما هو مشهور، وكانت ولادته في زمن الملك العادل كسرى أنوشروان[2]، وهو لقب لكل من ملك الفرس، وموضوعية [3] حديث: «أنا ولدت في زمن الملك العادل كسرى أنوشروان»، لا تمنع من وصف

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الله (١١١٤ ـ ١١٨٥ م) عالم باللغة والسير، وأحد حفاظ الحديث، وهو أندلسي.. والمؤلف يشير في هذا الجزء إلى ما أورده السهيلي في كتابه [الروض الأنف] الذي شرح فيه سيرة ابن هشام.

(٢) هو كسرى الأول، حكم الإمبراطورية الفارسية سنة ٥٣١ م وتوفي سنة ٥٧٩ م.

(٣) أي كونه حديثًا موضوعًا.

كسرى بالعدل، فقد ذكر الغزالي رحمة الله تعالى فى كتاب [السير والسلوك إلى مالك الملوك]: أن الخالق جلت قدرته أرسل نبيه فى أسعد وقت وأوان، فيه خير الملوك، فكان الملك فى ذلك الزمان كسرى أنوشروان، وأنه فاق جميع الملوك بعدله وسياسته، وذلك كله ببركة قدوم سيد الكائنات وأشرف الموجودات. فوصف كسرى بالعدل، وإطلاق العدل عليه لتعريفه بالاسم الذى كان يدعى به فى زمنه، لا لوصفه بالعدل والشهادة له بذلك، فإنه كان يحكم بغير حكم الله، أو وصفه بذلك بناء على اعتقاد الفرس فيه أنه كان عادلاً، كما قال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾ (هود: ١٠١) أى ما كان عندهم آلهة، ولا يجوز أن يسمى رسول الله، ﷺ، من يحكم بغير حكم الله عادلاً، وهذا على فرض صحة الحديث والحق أنه كذب لا أصل له كما نقله الحفاظ من المتقدمين والمتأخرين.

وكان مولده ﷺ بالشِّعْب، وهو شعب بنى هاشم، مكان معروف عند أهل مكة يخرجون إليه فى كل عام، يحتفلون بذلك أكثر من احتفالهم يوم العيد إلى يومنا هذا، فى الدار التى كانت لمحمد بن يوسف أخى الحجاج، وهو ﷺ دعوة إبراهيم عليه السلام حين بنى الكعبة، دعا لأهل مكة فقال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ (البقرة: ١٢٩) وبشرى عيسى عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف: ٦) وأخرج من حديث عمرو بن مرة قال: خمسة تسموا قبل أن يكونوا: محمد، بقوله ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، ويحيى، بقوله ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ (مريم: ٧)، وعيسى، بقوله ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٣٩)، وإسحاق، ويعوب، بقوله ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (هود: ٧١) وإنما سمى فى بشارة عيسى باسم أحمد، مع أن اسمه الذى سماه به جده عبد المطلب: محمد، رجاء أن يحمد فى السموات والأرض، وقد حقق الله رجاءه كما سبق فى علمه، لأن أحمد فى الحقيقة أبلغ من محمد، كما أن أحمر وأصفر أبلغ من محمر ومصفر، قال ﷺ: «لى خمسة أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى، الذى يمحو الله بى الكفر، وأنا الحاشر، الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب، الذى ليس بعدى نبى». وقد سماه الله رؤوفًا رحيمًا، وقد ذكر الحافظ

ابن سيد الناس اليعمرى [1] فيما وافق من أسماء الله الحسنى لأسماء رسول الله ﷺ من قصيدة له فقال:

وجلاه من حسنى أساميه جملة	**أتى ذكرها فى الذكر ليس يبيد**
وفى كتب الله المقدس ذكرها	**وفى سنة تأتى بها وتفيد [2]**
رؤوف رحيم فاتح ومقدس	**أمين قوى عالم وشهيد**
ولى شكور صادق فى مقاله	**عفو كريم بالنوال يعود**
ونور وجبار وهاد من اهتدى	**ومولى عزيز ليس عنه محيد**
بشير نذير مؤمن ومهيمن	**خبير عظيم بالعظيم يجود [3]**
وحق مبين آخر أول سما	**إلى ذروة العلياء وهو وليد**
فآخر أعنى آخر الرسل بعثة	**وأول من ينشق عنه صعيد**
أسام يلذ السمع إذ هى عددت	**نعوت ثناء والثناء عديد**

ومن أسمائه ﷺ: طه، ويس، والمزمّل، والمدثر، وعبد الله، فى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ ﴾ (الجن: ١٩) ونبى التوبة، ونبى الرحمة، ومذكر فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (الغاشية: ٢١) إلى غير ذلك من الأسماء.

روى الترمذى عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: جلس ناس من أصحاب رسول الله، ﷺ وهم ينتظرون خروجه، قال: فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون، فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجبًا، إن الله تبارك وتعالى اتخذ من خلقه خليلاً، اتخذ إبراهيم خليلاً وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليمًا، وقال آخر: ماذا بأعجب من جعله عيسى كلمة الله وروحه، وقال آخر:

---

(١) محمد بن محمد بن محمد بن أحمد (١٢٧٣ ـ ١٣٣٤ م) أندلسى، توفى بالقاهرة، وهو من حفاظ الحديث، والمؤرخين وعلماء الأدب، ومن بين آثاره فى السيرة [عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير].

(٢) الشطر الأول لهذا البيت هكذا فى الأصل * وفى كتب الله المقدس من ذكرها *

(٣) الشطر الأول من هذا البيت فى الأصل: * بشير نذير مؤمنين ومهمين *

ماذا بأعجب من آدم اصطفاه الله عليهم وخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، فسلم رسول الله ﷺ على أصحابه وقال: «قد سمعت كلامكم وعجبكم، إن إبراهيم خليل الله، وهو كذلك، وإن موسى نجى الله، وإن عيسى روح الله وكلمته، وإن آدم اصطفاه الله وهو كذلك، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا سيد الأولين والآخرين ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يحرك حَلَق الجنة فيفتح الله لى فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر» انتهى.

فقوله ﷺ: «ألا وأنا حبيب الله» أراد ﷺ المحبة العامة التى منها توحيد المحبة وهى الخلة الخاصة، فهو ﷺ حبيب وخليل حيث تخللت المحبة الموحدة فى جميع أجزاء روحه، ﷺ كما قيل:

قد تخللت موضع الروح منى وبهذا سمى الخليل خليلا

لا سيما وأنه قد صح أن الله اتخذ نبينا خليلاً، فحصل له من الإنعام الحب العام، على الخاص والعام، كما قيل:

خللت بهذا خلة بعد خلة بذلك طاب الواديان كلاهما

فلا نظر لزعم من لا علم عنده أن الحبيب أفضل من الخليل محتجًا بأن محمدًا حبيب الله وإبراهيم خليل الله، وقد علمت ما يفيد خلاف ذلك، لما صح عنه ﷺ أنه قال: «إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»، وفى الحديث: «لو كنت متخذًا خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلاً»، فلم يتخذ أبا بكر إلا حبيبًا، على أن المحبة فى ذاتها أفضل من الخلة، كما هو التحقيق، لما أن الحبيب من يحب بلا امتحان، والخليل من يمتحن ليحب، ولأنه ﷺ يوصف بالحبيب وإن كان خليلاً، وإبراهيم عليه السلام يوصف بالخلة وهو حبيب، لصدق تعريف الحبيب عليه.

ولأهل الإشارات[1] مشرب آخر حسن فى مغايرة المحبة والخلة وتفضيل الأولى

---

(١) أى المتصوفة.

على الثانية، حيث قالوا: إنما اتصل الخليل بواسطة ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الأنعام: ٧٥) والحبيب بدونها ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم: ٩) وقد علمت أنه لا حاجة إلى ذلك لعموم المحبة ودخوله فيها، وإن هذه الإشارة الصوفية مطمح النظر فيها سيدنا محمد وسيدنا إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام.

وقد خص الله تعالى كل واحد من أنبيائه بكرامة، فأكرم آدم عليه السلام بسجود الملائكة له ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ (البقرة: ٣٤) ونوحًا عليه السلام بإجابة الدعوة ﴿لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح: ٢٦) وموسى عليه السلام بالكلام ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٤) وإبراهيم عليه السلام بالخلة ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء: ١٢٥) ونبينا محمد ﷺ بالصلاة عليه بالآية ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦).

وقوله «أنا سيد الأولين والآخرين»، إخبار عما أكرمه الله به من الفضل والسؤدد، وتحدث بنعمة الله تعالى عليه، وإعلام لأمته ليكون إيمانهم به على حسب موجبه، ولذا أتبعه بقوله: «ولا فخر» والمعنى: هذه الفضيلة التى نلتها كرامة من الله لم أنلها من قبل نفعى ولا بلغتها بقوتى فليس لى أن أفتخر بها. ولا يعارض هذا ما فى الحديث: أنه جاءه رجل فقال له: أنت سيد قريش، فقال: «السيد الله»، أى هو الله الذى يحق له السيادة، إذ هو محمول على أنه كره أن يحمد فى وجهه، وأحب التواضع، وكذلك ما روى عنه عليه الصلاة والسلام: «لا تفضلونى على يونس بن متى»، أى تفضيلا يودى إلى تنقيصه، وإلا فهو ﷺ سيد ولد آدم على الإطلاق، وقد روى عن على، رضى الله عنه، قال: سمعت حبيبى رسول الله، ﷺ، يقول: «هبط على جبريل عليه السلام فقال: يامحمد، إن لكل شىء سيدا، فسيد البشر آدم، وسيد ولد آدم أنت، وسيد الروم صهيب، وسيد فارس سلمان، وسيد الحبش بلال، وسيد الشجر السدر، وسيد الطير النسر، وسيد الشهور رمضان، وسيد الأيام يوم الجمعة، وسيد الكلام العربية، وسيد العربية القرآن، وسيد القرآن سورة البقرة».

وقد اختصه الله سبحانه وتعالى من أطيب العشائر نكاحا، وحماه من دنس الفواحش والسفاح، ونقله من أصلاب طاهرة إلى أرحام متنزهة بشهادة (وتقلبك فى الساجدين) فكان نور النبوة ظاهراً فى آبائه، لم يشركه فى ولادته من أبويه أخ ولا أخت لانتهاء صفوتهما إليه، وقصر سرهما عليه، ليكون مختصًا بنسب جعله الله للنبوة غاية، ولتفرده نهاية، فلا يشارك فيه ولا يماثل، فلذلك مات أبواه فى صغره، فهو سلالة آباء كرام ليس فيهم مسترذل ولا مستبذل، بل كلهم سادة قادة، وشرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة ولبعضهم:

تنقل أحمد نوراً مبينا تلألأ فى وجوه الساجدينا
تقلب فيهم قرنا فقرنا إلى أن جاء خير المرسلينا

روى عن هشام بن محمد السائب الكلبى عن أبيه قال: كتبت للنبى ﷺ خمسمائة أم فما وجدت فيهن سفاحًا ولا شيئًا مما كان فى الجاهلية. انتهى. ولعل هؤلاء الأمهات من جهة الأصلين، أى أمهات أبيه وأمه، وأمهات آبائهم وأمهاتهم، لإمكان السنين التى تحسب فيها فيها الأجيال.

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى ولدنى أبى وأمى، لم يصبنى من سفاح الجاهلية شيء»، ومن ثم ورد عن ابن عباس، مرفوعًا، «لم يلتق أبواى قط على سفاح، ولم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبًا لا يتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما»، وبالجملة، فكان نكاح أصول النبى ﷺ كنكاح الإسلام فى أنه بإيجاب وقبول وإن لم يكن مستجمعًا للشروط التى اعتبرت فيما بعد فى نكاح الإسلام، لأن استيفاء شروطه الإسلامية كان على سبيل الاتفاق دون القصد، أو المراد: كنكاح الإسلام فى الجملة، لأن إسلام الولى أو عدالته أمر متعذر قبل الإسلام، خصوصًا أيام الجاهلية، فنكاح أصوله ﷺ منزه عن السفاح أى الزنا واتخاذ الأخدان وما كانوا عليه فى الجاهلية من نحو نكاح زوجة الأب، حيث إنهم كانوا فى الجاهلية إذا مات الرجل منهم وخلف أولادًا كبارًا وصغارًا

فالكبار يتزوجون بزوجة أبيهم. وبالجملة فهو ﷺ مبرأ عما كانت تستعمله العرب في الجاهلية من أنواع السفاح التي لا تعد في الإسلام نكاحًا.

فقد كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء:

* **الأول**: نكاح كنكاح الناس اليوم، أي بإيجاب وقبول.

* **الثاني**: نكاح البغايا، وهو أن يطأ البغيّ جماعة متفرقون، واحدًا بعد واحد، فإذا حملت وولدت ألحقت الولد بمن غلب عليه شبهه منهم.

* **الثالث**: نكاح الاستبضاع، وذلك أن المرأة كانت في الجاهلية إذا طهرت من حيضها يقول لها زوجها: أرسلي إلى فلان استبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدًا حتى يتبين حملها، فإذا حملت أصابها زوجها إذا أحب.

* **الرابع**: نكاح الجمع، وهو أن تجمع جماعة دون العشرة، ويدخلون على امرأة من البغايا ذوات الرايات، كلهم يطؤونها، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فيقول بهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمى من أحبت منهم، فيلحق به ولدها، فلا يستطيع أن يمتنع منه الرجل، وإن لم يكن شبهه عليه.

فنكاح آباء النبي ﷺ وأمهاته كان من قبيل القسم الأول، ومنزها عما عداه، فقد طهره الله من أدناس الجاهلية، ومنحه الأخلاق الجميلة العلية، حتى أنه ما كان يدعى في قومه إلا بالأمين. وكيف لا وهو حبيب الله وخليله المختار من العالمين، المسدد المعصوم في البداية والنهاية، وكم قد ذكر له في الصغر، وقبل النبوة وبعدها، من آية، وهذا من أعظم العناية به ﷺ حيث أجرى سبحانه وتعالى نكاح آبائه، عليه السلام، إلى أن أخرجه ﷺ من بين أبويه على نمط واحد وفق شريعته، ولذلك قال الإمام السبكي [1]: «إن الأنكحة الواقعة في نسبه ﷺ كلها

(١) تقي الدين، علي بن عبد الكافي (١٢٨٤ ـ ١٣٥٥ م) شيخ الإسلام في عصره، برز في حفظ الحديث وتفسير القرآن والمناظرة والحجاج، وهو مصري تنقل في الوظائف ما بين مصر والشام، وخلف عدة آثار فكرية، وابنه هو التاج السبكي صاحب الطبقات.

مستجمعة لشروط الصحة، كأنكحة الإسلام»، قال: «فاعتقد هذا بقلبك، وتمسك به، ولا تزل عنه فتخسر».

وما نقل عن أبي المنذر أنه قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ ذكر «العزى[1]» يومًا فقال:

«لقد أهديت للعزى شاة عفراء وأنا على دين قومي»، فكذب على رسول الله ﷺ وافتراء عليه، حيث قد أطبق الإجماع على أنه ﷺ لم يتدنس هو ولا آباؤه مما كانت عليه الجاهلية، وما أقبح من يروم التصنيف ويجعل في مصنفه مثل هذا الكذب والقبيح، فإنه ينادي على نفسه بعدم المعرفة والاتصاف بالجهالة والسفه، ولم يكن شيء مثل ذلك إلا لكفار قريش، حيث كانوا يطوفون بالكعبة ويقولون (و«اللات» و«العزى» و«مناة» الثالثة الأخرى، فإنهن الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى) ولم يثبت شيء من ذلك في حق أحد من آبائه ﷺ على عمود النسب، وقد فسر العلماء قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٨، ٢١٩) أي يرى تقلبك وأنت نور في أظهر الساجدين، بمعنى في أصلاب وأرحام المؤمنين من لدن آدم وحواء إلى عبد الله وآمنة، فعلى هذا جميع أصوله، رجالا ونساء، مؤمنون. ثم أورد على هذا آزر، أبو إبراهيم، فإنه على دين قومه بمقتضى الآيات، وأجابوا عنه بجوابين: أحدهما: أنه كان عم إبراهيم لا آباءه، وتسميته أبًا على عادة العرب من تسمية العم أبا. وثانيهما: أن آباءه ﷺ لم يدخلهم الشرك ذكورًا وإناثًا ما دام النور المحمدي في الذكر والأنثى، فإذا انتقل منه لمن بعده أمكن أن يعبد الله وغيره، وآزر ما عبد الأصنام إلا بعد انتقال النور منه لإبراهيم عليه السلام، وأما قبل فلم يعبد غير الله. وهذا الجواب الثاني المفيد لتنزه النور المحمدي عن أن يكون قد حل في أصل غير طاهر ما دام ساكنًا فيه، فهو وإن استحسنه بعض العلماء إلا انه لايخلو من إخلال بالنسب، إذ كيف يسكن النور المحمدي في صلب طاهر ورحم نقي ثم يخبث

(١) من أصنام العرب في الجاهلية، كانت تعبدها غطفان، وهدمها خالد بن الوليد بأمر من رسول الله ﷺ.

الأصل بانتقال النور، فهذا مما لا يليق بلفظ الساجدين، الذى عبر به عن المؤمنين بكمال البلاغة فى التجوز عن المؤمنين إلى المصلين ثم إلى الساجدين، ولو فسر قوله وتقلبك فى الساجدين بما مشى عليه بعض المفسرين بقوله إنه أراد تعالى تقلبك فى أصلاب الأنبياء من نبى إلى نبى حتى أخرجك فى هذه الأمة، لما ورد على هذاالقول كفر آزر، وإنما يكون المراد بالساجدين آباؤه الأنبياء فقط، مع أن القصد التعميم.

ولكن لا مانع من أن يكون المراد بالآباء الساجدين الذين أولهم إبراهيم عليه السلام، صاحب الملة الحنيفية، ويؤيده ﴿ **مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ** ﴾ (الحج: ٨٧) وقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** ﴾ (إبراهيم: ٣٥) وقوله تعالى: ﴿ **رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي** ﴾ (إبراهيم: ٤٠) فلن يزال من ذرية إبراهيم ناس على الفترة يعبدون الله.

وورد عن ابن عباس ومجاهد وقتادة فى قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ** ﴾ (الزخرف: ٢٨) قال: «الإخلاص والتوحيد، لا يزال فى ذريته من يوحد الله ويعبده» انتهى.

وهذا كله إذا فسرنا الآية بهذا التفسير المعقول المعنى الذى نسبه الفخر الرازى، عنتا، للشيعة، مع أنه منقول من أهل السنة، كما يعلم ذلك من اطلع على التفاسير الأخرى القرآنية، ويا ليت ذلك الإمام عضد تفسير الآية بخبر: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات»، بل قال: إنه خبر آحاد فلا يعارض القرآن.

فالذى يجب اعتقاده طهارة نسبه ﷺ، ولا يرد على ذلك قوله ﷺ لعمه أبى طالب، الذى نزل فيه قوله تعالى: ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** ﴾ (القصص: ٥٦) الآية «ياعم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله تعالى»، فقال: «يا بن أخى، قد علمت إنك الصادق، ولكن أكره أن يقال: جزع عند الموت! ولولا أن يكون عليك وعلى بنى أبيك غضاضة بعدى لقلتها، ولأقررت بها عينيك عند الفراق، لما أرى من شدة وجدك ونصيحتك ثم أنشد:

ولقـد علمت بـأن دين مـحـمـد	من خـيـر أديان البـرية دينا
لولا الملامـة أو حـذار مـسـبـة	لوجـدتـنـى سـمـحًـا بذاك مبـينا
ودعـوتنى وعـرفـت أنك ناصـحى	ولقـد صـدقت وكنـت فـيـه أمـينا

ولكن سوف أموت على ملة أشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف. انتهى.

لأنه لايبعد أن تكون ملة عبد المطلب وهاشم وعبد مناف هى ملة إبراهيم حيث هم من أصوله وحكى عن هشام بن الكلبى أنه قال: لما احتضر أبو طالب جمع إليه وجوه قريش، فأوصاهم فقال: «يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه، إلى أن قال: وإنى أوصيكم خيرًا، فإنه الأمين فى قريش، والصديق فى العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به، وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وآيْم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الوبر والأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وأعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابًا، ودورها خرابًا، وضعفاؤها أربابا، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأصفت له فؤادها، وأعطته قيادها. يا معشر قريش، كونوا له ولاة، ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسى هذه مدة والأجل تأخر لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهى». ثم مات. وكان موته قبل الهجرة بثلاث سنين وأربعة أشهر، قبل موت خديجة رضى الله عنها بثلاثة أيام، وله من الولد: طالب، ومات على دين قومه، وعقيل، وجعفر، وعلى، ومن الإناث أم هانئ، واسم أم هانئ فاختة، وقيل هند، وقيل فاطمة، وجمانة، أسلموا، ولهم صحبة، وأمهم جميعًا فاطمة بنت أسد بن هاشم، والعقب من أبى طالب فى ثلاثة أبطن وهم العلويون أولاد على، والجعفريون أولاد جعفر، والعقيليون أولاد عقيل.

وعلى كل حال فالحذر كل الحذر من ذكر أبوى النبى ﷺ بما فيه نقص، فإن ذلك قد يؤذى النبى ﷺ، لأن العرف جار بأنه إذا ذكر أبو الشخص بما ينقصه

تأذي ولده بذلك عند المخاطبة، كيف وقد روى ابن مندة وغيره عن أبي هريرة قال: جاءت سبيعة بنت أبي لهب إلى النبي ﷺ فقالت: يارسول الله، إن الناس يقولون: أنت بنت حطب النار، فقام رسول الله ﷺ، وهو مغضب، فقال: «ما بال أقوام يؤذونني في قرابتي، ومن آذاني فقد آذى الله». وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات». ولا ريب أن إيذاءه كفر، يقتل فاعله إن لم يتب، خصوصًا وأن أبويه ﷺ ناجيان لأنهما من أهل الفترة، وأهل الفترة ناجون ولو عبدوا الأصنام إلا أفراد علم الله فيهم أمرًا فحكم عليهم بالكفر كحاتم الطائي، وامرؤ القيس. والفترة ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وقد دلت القواطع على أنه لا تعذيب حتى تقوم الحجة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء: ١٥) أو بإحيائهما له عام حجة الوداع حتى آمنا بالله ورسوله، ونفع الإيمان بعد الموت من خصائصه ﷺ، وليس بممتنع عقلا وشرعًا، فقد ورد في الكتاب العزيز إحياء قتيل بني إسرائيل وإخباره عن قاتله، وقصته مشهورة، وفي الكتب مسطورة، وكان عيسى عليه السلام يحيي الموتى بنص القرآن، فأحيا عازر بعد موته بثلاثة أيام، وابن العجوز وهو محمول على نعشه، وابنة العاشر، فعاشوا مدة وولد لهم، وكذلك نبينا ﷺ أحيا الله على يديه جماعة من الموتى، ولا غرو فهو أحق بذلك، والظن بالله جميل، وليس تعجز قدرته عن ذلك، فإذا ثبت هذا فما يمتنع المدّعَى أي إيمانهما بعد إحيائهما - ويكون ذلك زيادة في كرامته وفضله، فقول من قال: إنهما ماتا كذا، لأن الإيمان بعد الموت غير نافع مردود بما روى في الخبر أن الله تعالى رد الشمس على نبيه ﷺ بعد مغيبها، فلو لم يكن رجوع الشمس نافعًا، وأنه لا يتجدد الوقت لما ردها عليه، فكذلك يكون إحياء أبويه نافعًا لإيمانهما وتصديقهما بالنبي ﷺ.

ولا بدع أن يكون الله كتب لأبوى النبي ﷺ عمرا، ثم قبضهما قبل استيفائه، ثم أعادهما، أي أحياهما، لاستيفاء تلك اللحظة الباقية بالمدة الفاصلة بينهما لاستدراك الإيمان، من جملة ما أكرم الله به نبيه عليه الصلاة والسلام.

وقال بعض الأفاضل في حل هذه المسألة ما ملخصه: إن أهل الفترة ثلاثة أقسام:

الأول: من أدرك التوحيد ببصيرته، ومن هؤلاء من لم يدخل في شريعة كقس بن ساعدة[1]، وزيد بن عمرو بن نفيل[2]، ومنهم من دخل في شريعة حق قائمة الرسم كتبع[3] وقومه من حمير وأهل نجران، وورقة بن نوفل[4]، وعمه عثمان بن الحويرث.

القسم الثاني: من أهل الفترة من بدل وغير فأشرك ولم يوحد، وشرع لنفسه فحلل وحرم، وهم الأكثر كعمرو بن لحي[5] وهو أول من سن للعرب عبادة الأصنام، وشرع الأحكام، فبحر البحيرة[6] وسيب السائبة[7] ووصل الوصيلة[8] وحمى الحام[9]، وتبعته العرب في ذلك.

---

(١) توفي حوالي سنة ٦٠٠ م من أشهر مشاهير الشعراء والخطباء العرب في عصره. وكانت مساكن قومه بأرض الجزيرة.

(٢) توفي سنة ٦٠٦ م، أحد حكماء العرب في الجاهلية، وكان - إلى جانب فكره التوحيدي - عدوا لوأد البنات، باحثا عن الدين الصحيح، يتعبد على شريعة إبراهيم، الحنيفية، وهو ابن عم عمر بن الخطاب.

(٣) وهم الذين ورد ذكرهم في القرآن في آيتي: (أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم) (الدخان: ٣٧) و﴿ أصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾ (ق: ١٤).

(٤) توفي في السنة الثالثة من البعثة (سنة ٦١٣ م) وهو ابن عم خديجة بنت خويلد، تنصر ودرس ديانة اليهود والنصارى..

(٥) هو عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي، وكنيته أبو ثمامة، وتاريخ ميلاده غير معروف، والمروي أنه نقل الأصنام إلى مكة من أرض «موآب» بوادي الأردن، فكان أول من غير دين إسماعيل.

(٦) البحيرة: الناقة التي بحرت أذنها، أي شقت، وكانوا يصنعون بها ذلك ويخلون سبيلها، لا تركب ولا تحلب، إذا أنتجت خمسة أبطن آخرها ذكر.

(٧) والسائبة: الناقة، ينذر الرجل تخلية سبيلها - مثل البحيرة - إذا شفي مثلا، فإذا تحقق شفاؤه جعلها سائبة.

(٨) والوصيلة: الناقة إذا ولدت ذكرا وأنثى، لقولهم، وصلت الأنثى أخاها.

(٩) والحام: هو فحل الإبل إذا أنتجت الأنثى منه عشرة أبطن، وكانوا يخلون ما بينه وبين كل ماء ومرعى، ويحرمون ظهره، ويقولون: قد حمى ظهره.

القسم الثالث: من أهل الفترة وهم من لم يشرك ولم يوحد ولا دخل فى شريعة نبى ولا ابتكر لنفسه شريعة ولا اخترع دينا، بل بقى طول عمره على حال غفلة من هذا كله، وفى الجاهلية من كان على ذلك.

وحيث انقسم أهل الفترة إلى الثلاثة الأقسام، وقد ورد فى الأحاديث الصحيحة ما يدل على تعذيب أهل الفترة، كحديث: «رأيت عمرو بن لحى يجر قصبة فى النار»، ونحو ذلك، فيحمل على القسم الثانى من أهل الفترة، لكفرهم بما تعدوا به من الخبائث، حيث إن الله سبحانه وتعالى سمى جميع هؤلاء من هذا القسم كفارا ومشركين، فإنا نجد القرآن كلما حكى حال أحد سجل عليهم بالكفر والشرك، كقوله تعالى: ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ**﴾ (المائدة: ١٠٣) ثم قال **(ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب)**. . وأما أهل القسم الأول كقس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقد قال عليه الصلاة والسلام فى كل منهما: «إنه يبعث أمة وحده»، وأما عثمان بن الحويرث، وتبع وقومه، وأهل نجران، فحكمهم كحكم أهل الدين الذين دخلوا فيه، ما لم يلحق أحد منهم بالإسلام الناسخ لكل دين، وأما أهل القسم الثالث، الذين هم أهل الفترة حقيقة، فهم غير معذبين.

وقال الجلال السيوطى[1]: إن أبوى النبى ﷺ كانا على التوحيد ودين إبراهيم كما كان كذلك طائفة من العرب، كزيد بن عمرو بن نفيل، كما يدل عليه قوله:

أربا واحدا أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور

تركت اللات والعزى جميعا ... كذلك يفعل الرجل البصير

وقس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وعمير بن حبيب الجهينى، وعمرو بن عنيسة، وجماعة آخرين. وهذه طريقة الفخر الرازى، وزاد: إن آباء النبى ﷺ، كلهم، إلى آدم، على التوحيد، لم يكن فيهم شرك، وقال الجلال السيوطى أيضا: إنى لم أدع المسألة إجماعية، بل هى مسألة ذات خلاف، فحكمها كحكم سائر

(١) (١٤٤٥ ـ ١٥٠٥ م) من أبرز مصنفى العصر المملوكى، جمع الكثير من أخبار السابقين، وأعمل فيها الاختصار أو التهذيب أو التصنيف، ثم نسبها إلى نفسه، وذلك مع بعض الإضافات. والمؤلفات المنسوبة إليه تعد بالمئات.

المسائل المختلف فيها، غير أني اخترت أقوال القائلين بالنجاة، لأنه أنسب بهذا المقام، وما أحسن كلام الحافظ شمس الدين محمد بن ناصر الدين بن عبد الله بن محمد الدمشقي، المولود سنة سبع وسبعمائة، حيث قال في كتابه [مورد الصادي بمولد الهادي] بعد أن أخرج الحديث في إحياء أمه من طريق الخطيب، فصرح بضعف الحديث، ولم يلتفت لزعم وضعه، وكفى به حجة.

حبا الله النبي مزيد فضل — على فضل وكان به رؤوفا

فأحيا أمه وكذا أباه — لإيمان به فضلا منيفا

فسلم فالقديم بذا قدير — وإن كان الحديث به ضعيفا

وقد رد بعضهم على هذه الأبيات بقوله:

أيقنت أن أبا النبي وأمه — أحياهما المولى الكريم الباري

حتى له شهدا[1] بصدق رسالة — سلم فتلك كرامة المختار

هذا الحديث ومن يقول بضعفه — فهو الضعيف عن الحقيقة عاري

ولئن سلم أنه من قسم الضعيف فهو الذي تجوز روايته في الفضائل والمناقب، لا بمعنى الموضوع.

وقال أبو القاسم السهيلي في أوائل كتابه [الروض الأنف] بعد إيراد حديث: أنه ﷺ سأل ربه أن يحيي أبويه فأحياهما له فآمنا به ثم أماتهما: «والله تعالى قادر على كل شيء، ونبيه ﷺ أهل لأن يخصه بما شاء من إكرامه». انتهى.

وقد أيد بعضهم هذا الحديث بالقاعدة التي اتفق عليها الأئمة: أنه ما أوتي نبي معجزة إلا أوتي نبينا ﷺ مثلها.

ولا يبعد على من أنجى الله به الثقلين أن ينجي به الأبوين، ولا عبرة باحتجاج المنكر في هذا المقام العظيم بأنه نزل فيهما ﴿ **وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ** ﴾

---

(١) في الأصل: شهيدا.

(البقرة ١١٩)، فقد تقرر فى علوم الحديث أن سبب النزول حكمة حكم الحديث المرفوع، لا يقبل منه إلا الصحيح المتصل الإسناد، لا الضعيف، ولا المقطوع، وسبب النزول لا يعرف له، كما قال السيوطى، إسناد صحيح متصل، ولا ينكر ذلك أحد من المحدثين، مع ما ينضم إلى ذلك من بلاغة الخطاب، وأن الآيات من قبل ومن بعد كلها فى أهل الكتاب، فدلت الآية على أن المراد بأصحاب الجحيم: كفار أهل الكتاب، ويؤيد ذلك أن السورة مدنية، خوطب فيها من بنى إسرائيل الذرية، وأكثر ما خوطب فيها اليهود الناقضون ما فى التوراة من العهود، على أنه قد قيل بصحة الأحاديث الدالة على أن العرب لم يكفر منهم أحد من عهد إبراهيم إلى عهد عمرو بن لحى الخزاعي، فهو أول من عبد الأصنام وغير دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ورآه النبى ﷺ، بسبب ذلك، يجر قصبة فى النار ـ أى أمعاءه ـ.

وقد أخرج ابن حبيب[1] فى تاريخه عن ابن عباس قال: كان عدنان ومعد وربيعة ومضر وخزيمة وأسد على ملة إبراهيم، فلا تذكروهم، إلا بخير، وفى [الروض الأنف] لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمنا، وفى [دلائل النبوة] لأبى نعيم[2]: أن كعب بن لؤى أوصى ولده بالإيمان بالنبى، قاله السيوطى، وقال أيضا: وأما كلاب وقصى وعبد مناف وهاشم فلم أظفر فيهم بنقل جازم، وأما عبد المطلب ففيه خلاف، والأشبه أنه من أهل الفترة، وممن لم تبلغه الدعوة، وقد استشهد القبيل القائل بإيمانه بقوله في قصة أصحاب الفيل:

لا هم إن المرء يمنع حله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم .. ومحالهم غدوا محالك[3]

---

(١) هو طاهر بن الحسن بن عمر بن حبيب (المتوفى سنة ١٤٠٦ م) ولد ونشأ بحلب، وتوفى فى القاهرة، وعمل بالكتابة فى ديوان الإنشاء بحلب، وله آثار فى التاريخ وأصول الفقه، كما خلف عدة منظومات، وشرحا وتخميسا للبردة سماه (وشى البردة).

(٢) أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهانى (٩٤٨ ـ ١٠٣٨ م) مؤرخ، ومن حفاظ الحديث، ولد ومات فى أصبهان، خلف عدة آثار منها (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) وهو فى عشرة أجزاء، و(معرفة الصحابة) و(طبقات المحدثين) و(دلائل النبوة) و(ذكر أخبار أصفهان) و(الشعراء).

(٣) وقوله: «حلالك» قال الخشنى: بكسر الحاء المهملة، جمع حلة، وهى جماعة البيوت، والذى فى (النهاية): الحلال ـ بالكسر ـ القوم المقيمون المتجاورون، يريد بهم سكان الحرم ـ وقوله: ومحالهم ـ =

جروا جموع بلادهم .. والفيل كي يسبوا عيالك

عمدوا حماك بكيدهم .. جهلا وما رقبوا جلالك

إن كنت تاركهم وكعبتنا فأمر ما بدلك

ولا يشكل على ذلك قصة الذبيح، فإن النذر لا يقتضي عدم الإيمان ولا عدم نجاة أهل الفترة، وكذلك إرادة الذبح عند الأصنام الموجودة فى الكعبة، فإن هذه محض عوائد لا عقائد كما سيأتى ذكره .

وبيانها أن عبد المطلب لما أراد حفر زمزم منعته قريش منه، وآذاه بعض سفهائهم، ولم يكن له ولد إلا الحارث، فنذر لئن جاء له عشرة بنين وصاروا له أعوانا ليذبحن أحدهم قربانا لله تعالى عند الكعبة، وقيل سبب ذلك أن عدى بن نوفل بن عبد مناف، أبو المطعم، قال: ياعبد المطلب، أتستطيل علينا وأنت فذ ولا ولد لك؟ فقال عبد المطلب: أتقول هذا وإنما كان نوفل أبوك فى حجر هاشم ؟ فقال عدى: فأنت أيضا كنت عند أخوالك من بنى النجار حتى ردك عمك المطلب. قال: أبالقلة تعيرنى ! فوالله لئن أتانى الله عشرة من الولد . . إلى آخره .

واحتفر عبد المطلب زمزم هو والحارث فكانت له فخرا وعزا، وكثر أولاده، واختلف فى عدد أولاد عبد المطلب، فقيل: ثلاثة عشر، وقيل: اثنا عشر، وقيل: عشرة، وقيل: تسعة، فمن قال ثلاثة عشر قال: هم الحارث، وأبو طالب، والزبير، وعبد الكعبة، وحمزة، والعباس، والمقوم، وحجل، وضرار، وقثم، وأبو لهب، والغيداق، فهؤلاء اثنا عشر، وعبد الله، أبو النبى ﷺ الثالث عشر، ومن جعلهم عشرة أسقط عبد الكعبة، وقال: هو المقوم، وجعل الغيداق وحجلا وضرارا واحدا، ومن جعلهم تسعة أسقط قثم أيضا، وقد أسلم حمزة والعباس، وإن أبا لهب وأبا طالب أدركا النبوة فمات أبو لهب على دين قومه، وذهب الأكثرون إلى أن أبا طالب مات أيضا على دين قومه.

= بكسر الميم ـ القوة والشدة، وقوله: غدوا ـ بالغين المعجمة ـ هو أصل الغد، وهو اليوم الذى يأتى بعد يومك، فحذفت لامه، ولم يستعمل تاما إلا فى الشعر، ولم يرد عبد المطلب الغد بعينه وإنما أراد القرب من الزمان. [الطهطاوى].

ولما حفر عبد المطلب زمزم، ودله الله عليها، وخصه بما زاده بها خطرا وشرفا في قومه، وعطلت كل سقاية كانت بمكة حين ظهرت، وأقبل الناس عليها لالتماس بركتها ومعرفة فضلها، لمكانها من البيت، وأنها سقاية الله عز وجل لإسماعيل عليه السلام، وتكامل بنوه عشرة، وقرت عينه بهم، نام ليلة عند الكعبة فرأى في المنام قائلا يقول ياعبد المطلب، أوف بنذرك لرب هذا البيت، فاستيقظ فزعا، وأمر بذبح كبش وأطعمه للفقراء والمساكين، ثم نام فرأى: أن قرِّب ما هو أكبر من ذلك، فانتبه، وقرب جملا وأطعمه للمساكين، ثم نام فنودى: أن قرِّب ما هو أكبر من ذلك، فقال: وما هو أكبر من ذلك ؟ فقيل له: أحد أولادك الذى نذرته، فاغتم غما شديدا، وجمع أولاده وأخبرهم بذلك، وطلب منهم الوفاء بالنذر، فأطاعوه، وقالوا: كيف تصنع؟ قال: ليأخذ كل واحد منكم قدحا[1] وليكتب اسمه عليه ثم ليأتنى به، ففعلوا، ثم أتوه فدخل بهم على «هُبَل» فدفع عبد المطلب القداح إلى القَيِّم، فلما أخذ ليضرب قام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله ويقول: اللهم إنى نذرت لك نحر أحدهم، وإنى أقرع بينهم فأصب بذلك من شئت، ثم ضرب السادن القدح فخرج القدح على عبد الله، وكان أحب ولده إليه، فقبض عبد المطلب يده عليه، وأخذ الشفرة وأقبل به إلى إساف ونائلة[2]، فقام إليه سادة قريش من أنديتها وقالوا له: ما تريد أن تصنع؟! قال: أوفى بنذرى، فقالوا: لا ندعك تذبحه حتى تعذر فيه إلى ربك، ولئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه، ويكون سنة، ولكن انطلق به إلى قطية الكاهنة[3]، وقيل اسمها سجاح، على ما ذكر ابن إسحاق، فلعلها أن تأمرك بأمر فيه فرج لك، فانطلقوا حتى أتوها بخيبر، وقص عبد المطلب عليها القصة فقالت لهم؛ كم الدية فيكم؟ فقالوا: عشرة من الإبل، قالت: فارجعوا إلى بلادكم، ثم قربوا صاحبكم وقرّبوا عشرة من الإبل، ثم اضربوا عليه وعليها القداح، فإن خرجت القداح على صاحبكم فزيدوا في الإبل عشرة أخرى وهكذا حتى يرضى ربكم ويخلص صاحبكم، فإذا خرجت على الإبلى

(١) بكسر القاف، أى سهما بغير نصل [الطهطاوى]. والتعليقات التى نختمها باسم [الطهطاوى] هى التى كان قد وضعها فى صلب المتن، فنقلناها للتعليقات.

(٢) صنمين عند الكعبة، تذبح عندهم الهدايا. [الطهطاوى].

(٣) والكاهنة: التى تخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان وتدعي معرفة الأسرار. [الطهطاوى].

فانحروها فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم، فرجع القوم إلى مكة وقربوا عبد الله وعشرة من الإبل، وقام عبد المطلب يدعو فقال: اللهم أهو أحب إليك أم مائة من الإبل؟ والذى فى [الإمتـاع] اللهم أهو أحب إليك أم مـائة من تلاد إبلى[1]؟ فخرجت القداح على عبد الله، ولم يزل يزيد عشرا عشرا حتى بلغت الإبل مائة فخرجت القداح على الإبل، ففداه بمائة من الإبل، ولذلك صارت الدية مائة من الإبل، فنحرت المائة كلها وتركت، لا يصد عنها إنسان ولا طائر ولا سبع. وأول من سن الدية مائة من الإبل عبد المطلب، ولهذا قال ﷺ: «أنا ابن الذبيحين»، ويعنى بهما: والده عبد الله، وجده إسماعيل بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وروى الحاكم أن أعرابيا قال للنبى ﷺ يا ابن الذبيحين، فتبسم ولم ينكر عليه.

فدخول عبد المطلب بالقداح على «هبل» ودفعها إلى القيم، وإقباله على «إساف» و«نائلة» قصدا للتذكية والذبح، كل هذا لا يقدح فى تبرئته من عبادة الأصنام، فهذه الحركات الصادرة من قبيل العوائد لا العقائد، بدليل قوله: اللهم إنى نذرت لك نحر أحدهم، وإنى أقرع بينهم فأصب بذلك من شئت، فإن هذا أدل دليل على اعترافه بالألوهية، مع ما ينقل عنه (من أنه)[2] كان مجاب الدعوة، محرم الخمر على نفسه، وأنه أول من تحنث بحراء، وكان إذا استهل رمضان صعده وأطعم المساكين، وكان يرفع من مائدته للطير والوحوش فى رؤوس الجبال، وذكر ابن إسحاق[3] أن عبد المطلب وجد فى زمزم غزالين من ذهب، وهما الغزالان اللذان دفنتهما جرهم حين خرجت، ووجد فيها أسيافا قلعية وأدراعا، فقالت له قريش: ياعبد المطلب، لنا معك فى هذا شرك وحق، قال: لا، ولكن هلموا إلى أمر نصف بينى وبينكم، يضرب عليها بالقداح، قالوا: وكيف تصنع؟ قال: أجعل للكعبة قدْحين ولى قدْحين ولكم قدْحين، فمن خرج قدْحاه على شىء كان له،

---

(١) وتليد المال وتلاده: قديمه ونفيسه. [الطهطاوى].

(٢) فى الأصل: أن.

(٣) هو محمد بن إسحاق بن يسار (المتوفى ٧٦٨ م) مدنى، من أقدم مؤرخى العرب، وكتابه عن (السيرة النبوية) الذى رواه عنه ابن هشام من أشهر مصادر السيرة النبوية.. وله أيضا (كتاب الخلفاء) و(كتاب المبدأ) وكان ابن إسحاق ممن يقول بالاختيار ويناهض الفكر الجبرى.

ومن تخلف قدحاه فلا شيء له، فقالوا: أنصفت، فجعل قدحين أصفرين للكعبة، وقدحين أسودين لعبد المطلب، وقدحين أبيضين لقريش، ثم أعطوها صاحب القداح الذى يضرب بها عند «هبل»، وقام عبد المطلب يدعو وصاحب القداح يضرب بها، فخرج الأصفران على الغزالين، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع، وتخلف قدحا قريش، فضرب عبد المطلب الأسياف بابا للكعبة، وضرب فى الباب الغزالين، فكان أول ذهب حليته الكعبة.

وهبل ـ بضم الهاء وفتح الباء ـ صنم اتخذته قريش على بئر فى جوف الكعبة، وكانت تلك البئر هى التى يجمع فيها ما يهدى للكعبة، وكان عنده قداح[1] سبعة كل قدح منها فيه كتاب، قدح فيه العقل[2]، إذا اختلفوا فى العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة، فإن خرج العقل فعلى من خرج حمله، وقدح فيه نعم للأمر إذا أرادوه، يضرب به فى القداح فإن خرج قدح نعم عملوا به، وقدح فيه لا إذا أرادوا أمرا ضربوا به فى القداح فإذا خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الأمر، وقدح فيه منكم، وقدح فيه ملصق، وقدح فيه من غيركم، وقدح فيه المياه، إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح، فحيثما خرج عملوا به، وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاما أو ينكحوا منكحا أو يدفنوا ميتا أو شكوا فى نسب أحدهم ذهبوا[3] به إلى هبل وبمائة درهم وجزور فأعطوها صاحب القداح الذى يضرب بها، ثم قربوا صاحبهم الذى يريدون به ما يريدون، ثم قالوا: يا إلهنا، هذا فلان ابن فلان قد أردنا به كذا وكذا فاخرج لنا الحق فيه ثم يقولون لصاحب القداح: اضرب، فإن خرج عليه منكم كان منهم وسيطا، وإن خرج عليه من غيركم كان حليفا، وإن خرج عليه ملصق كان على منزلته فيهم لا نسب له ولا حلف، وإن خرج فى شيء

---

(١) والقداح جمع قدح ـ بكسر القاف وسكون الدال ـ هو السهم الذى كانوا يستقسمون به، يقال للسهم أول ما يقطع قطع ـ بكسر القاف وسكون الطاء ـ ثم ينحت ويبرى فيسمى بريا، ثم يقوم قدحا، ثم يراش ويركب نصله فيسمى سهما، والقداح صانعها وهى الأزلام المذكورة فى قوله عز وجل (وإن تستقسموا بالأزلام) جمع زلم، كجمل، وزلم، كصرد. انتهى. [الطهطاوى].

(٢) أى الدية، بمعنى تحمل الديات.

(٣) فى الأصل: وذبوا.

مما سوى هذا مما يعلمون به نعم عملوا به، وإن خرج لا أخروه عامه ذلك حتى يأتوا به مرة أخرى، ينتهون فى أمورهم إلى ذلك مما خرجت به القداح . وهذا ما ذكره ابن هشام [١] .

والذى ذكره غيره أنهم كانوا إذا قصدوا فعلا ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها : أمرنى ربى، وعلى الآخر : نهانى ربى، والثالث غُفْل، فإن خرج الآمر مضوا على ذلك، وإن خرج الناهى تجنبوا عنه، وإن خرج الغفل أجالوها ثانيا . انتهى .

وأما عبد الله فكان أيضا صاحب أمانة وصيانة كما يفهم ذلك من واقعته مع الخثعمية، وذلك أنه مر بامرأة من خثعم، بعد انصرافه مع أبيه عبد المطلب من نحر الإبل، يقال لها فاطمة بنت مرة، وكانت من أجمل النساء وأعفهن، وكانت كاهنة قد قرأت الكتب فرأت نور النبوة فى وجه عبد الله، فقالت له حين نظرت إلى وجهه، وكان أحسن رجل رؤى فى قريش : لك مثل الإبل التى نحرت عنك وقع علىَّ الآن [٢] ! لما رأت فى وجهه من نور النبوة، ورجت أن تحمل بهذا النبى الكريم ﷺ، فأجابها بقوله :

أما الحرام فالممات دونه [٣] والحل لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذى تبغينه يحمى الكريم [٤] عرضه ودينه

---

(١) عبد الملك بن هشام (المتوفى سنة ٨٢٨ م) مؤرخ وعالم باللغة والأنساب، نشأ بالبصرة وتوفى بمصر، وهو راوى السيرة النبوية لابن إسحاق، وله غيرها (القصائد الحميرية) و (التيجان) . . ألخ . . الخ . .

(٢) تطلب منه مواقعتها، أى وطأها وجماعها .

(٣) وفى لفظ : فالحمام دونه ـ بكسر الحاء المهملة ـ بمعناه، وقيل : هو قدر الموت وقضاؤه، من قولهم : حم كذا، أى قدر، بالبناء للمفعول، والمعنى : الموت أيسر من فعل المحرم ـ وقوله : «أما الحرام»، سماه حراما وإن لم يكونوا أهل شرع، لأن الزنا مما علموا حرمته من بقايا دين إبراهيم، عليه السلام، إذ يحتمل أن حرمة الزنا وحل النكاح من الأحكام التى كانت باقية من شريعة إبراهيم، عليه السلام، لم تغير ـ وقد صرح بذلك السهيلى . [الطهطاوى] .

(٤) وقوله : «يحمى الكريم» إلى آخره . . أى لو لم يكن فى هذا الفعل مؤاخذة فالمروءة تمنع منه، وكرم الكريم وعرضه يمنعانه من مثل ذلك . [الطهطاوى] .

ويقال إن التى[1] عرضت من بنى أسد بن عبد العزى، واسمها قتيلة[2] وقيل: رُقَيقة[3] تكنى أم قتال، وهى أخت ورقة بن نوفل، رضى الله عنه، ويقال إن الذى عرضت عليه ليلى العدوية، والجمع ممكن لاحتمال أن يكون مر عليهن كلهن ودعوته، لما رأين فى وجهه، كما لا يخفى، والجمهور على أنها قتيلة.

ولما أراد الله إظهار السر المصون، السارى فى الظهور والبطون، من عالم الخفاء إلى عالم الظهور، ليتم بذلك كمال الصفا ومزيد السرور، ألهم عبد المطلب أن يذهب إلى وهب بن عبد مناف، وهو سيد بنى زهرة يومئذ نسبا وشرفا، فخطب منه ابنته آمنة، أفضل امرأة فى قريش حسبا ونسبا وجمالا، لولده عبد الله، فزوجه إياها، ودخل بها مكانه، فحملت برسول الله ﷺ من ليلتها، ثم ذكر فاطمة الخثعمية وجمالها وما عرضت عليه، ودعته نفسه فأتاها فقال لها: هل لك فيما كنت عرضت على؟ وليس المراد أنه دعاها[4] إلى طلب الزنا والميل البتة، فقد علم انتفاء ذلك من قوله: «يحمى الكريم عرضه»، وإنما المراد أن نفسه دعته ليختبر السبب الحامل لها على أن طلبت منه ما طلبت مع جعل المائة من الابل فى ذلك الطلب فقالت:

لا تطلبن الأمر إلا مقبلا قد كان ذاك مرة فاليوم لا

- فذهبت - أى الجملة - مثلا، أى سارت مثلا، وهو كلام شُبِّه مضربه بمورده، ويقال لكل من أذن له فى شئ لنيل غرض منه ففوت المأذون له الغرض فامتنع الآذن من تمكين المأذون له من فعل المأذون فيه.

وقالت: أى شىء صنعت بعدى؟ قال وقعت على زوجتى آمنة، فقالت: والله لست بصاحبة ريبة، ولكنى رأيت نور النبوة فى وجهك فأردت أن يكون ذلك فىّ فأبى الله إلا أن يجعله حيث جعله.

(١) فى الأصل الذى.

(٢) بضم القاف وفتح المثناة الفوقية. [الطهطاوى].

(٣) بضم الراء وفتح القاف، بعدها مثناة تحتية، ثم قاف أخرى بعدها تاء تأنيث تقلب فى الوقف هاء - [الطهطاوى].

(٤) فى الأصل: أنها دعته.

فكان يرضى الخلاق، ويتمسك بمكارم الأخلاق، ويدل على ذلك كله واستمرار التوحيد فى ذرية إبراهيم ﴿ واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ فقد تحققت دعوته لا سيما فى آباء النبى ﷺ .

حفظ الإله كرامة لمحمد ... آباءه الأمجاد صونا لاسمه

تركوا السفاح فلم يصبهم عاره ... من آدم وإلى أبيه وأمه

ومات أبوه ﷺ وله سنتان، وقيل غير ذلك، ودفن بالأبواء[1] على الراجح، وكفلته أمه آمنة، وماتت بالأبواء.

وتقدم نسبها من جهة الأب فى أول (الفصل)، وأما نسبها من جهة الأم فهى بنت برة، بنت عبد العزى، بن عثمان، عبد الدار، بن قصى، بن كلاب، فتلتقى هى وزوجها وهب، بن عبد مناف، بن زهرة، بن كلاب، فى كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤى، بن غالب، بن فهر، ويفترقان فى ولد كلاب فبرة من ولد قصى بن كلاب، ثم من ولد عبد الدار، فهى قرشية عبدرية، وزوجها من ولد زهرة بن كلاب، فهو قرشى زهرى.

ولما ولدت السوداء بنت زهرة بن كلاب، وهى عمة وهب، أبى آمنة، أرسل بها أبوها من يئدها، فخرج الوائد حتى أتى بها الحجون[2]، فحفر لها ووضعها فى حفرتها، فصاح صائح من الجبل يا وائد الصبية، رب فرس ردود، ومطعم يجود فى السنة الجلمود، من الصبية الوثيدة؟ فرفع رأسه فلم ير أحدا، فعاد لأن يئدها، فصاح به: يا وائد الصبية، امض ودعها عنك فى البربة، إن لها علما فى الإنسية، فرجع بها إلى أبيها فأخبره الخبر، فقال: دعها فإن لها شأنا، فغمرت، وكانت تقول: يابنى زهرة، إن فيكم لنذيرة أو والدة نذير، فأعرضوا على نساؤكم، فعرضن عليها، حتى مرت بها الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف، فقالت: ليست بها، ولتلدن، فولدت عبد الرحمن، وعرضت عليها بنت عبد بن الحارث، أم عبد

---

(١) محل بين مكة والمدينة. [الطهطاوى].

(٢) مكان بأعلى مكة.

الله بن مسعود، فقالت ليست بها، ولتلدن، فولدت عبد الله بن مسعود، وعرضت عليها هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة، فقالت: ليست بها، ولتلدن، فولدت حمزة وصفية والمقوم بنى عبد المطلب، وعرضت عليها آمنة بنت وهب، فقالت: إنها لنذيرة، ولتلدن نذيرا، فولدت رسول الله ﷺ.

ولم يتزوج عبد الله غير آمنة، لا قبلها ولا بعدها، كما أنها لم تتزوج بغير عبد الله، لا قبله ولا بعده، ولم تلد غير النبى، فهو بكر أبويه ﷺ.

ولما مات أبوه لم يترك له ﷺ سوى جاريته أم أيمن بركة الحبشية مع أمه، وبعد أمه زوجها لحبه زيد بن حارثه فولدت لزيد أسامة الذى قال فيه ﷺ: «أسامة أحب الناس إلى».

وكفله جده عبد المطلب وأكرمه غاية الإكرام وأجله، لعلمه أنه سيصير له إقبال عظيم يحقق، ثم كفله عمه أبو طالب، وكان موظفا بوظيفة الرفادة، وهى إطعام الطعام لسائر الحجاج أيام الموسم، فكانت تمد لهم الأسمطة حيث هم ضيوف بيت الله الحرام، وكان أبو طالب يحبه حبا شديدا زائدًا على أولاده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج معه متى خرج. وجاءت قريشا سنة شديدة القحط فخرج أبو طالب ومعه النبى ﷺ يستسقى به، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ بإصبعه ﷺ فأقبل السحاب مترا كما ونزل المطر كأفواه القرَب، فأخصب الوادى والنادى، وفى ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[1]

وهى أكثر من ثمانين بيتا، ذكرها ابن إسحاق، وأنشأ أبو طالب فى مدح النبى ﷺ أبياتا منها هذا البيت:

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

---

(١) والثمال ـ بكسر المثلثة ـ اللجأ، وعصمة الأرامل: أى يمنعهم من الضياع والحاجة، والأرامل المساكين من الرجال والنساء، ويقال لكل واحد من الفريقين على انفراده أرمل، وهو بالنساء أخص وأكثر استعمالا، والواحد أرمل وأرملة. [الطهطاوى].

وحسان بن ثابت ضمن شعره هذا البيت فقال :

ألم تر أن الله أرسل عبده … بآياته والله أعلى وأمجد

أغر عليه للنبوة خاتم … من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه … إذا قال في الخمس المؤذن: أشهد

وشق له من اسمه ليجلّه … فذو العرش محمود وهذا محمد

نبي أتانا بعد يأس وفترة … من الدين والأوثان في الأرض تعبد

وأرسله ضوءا منيرا وهاديا … يلوح كما لاح الصقيل المهند

وكان رسول الله ﷺ يبغض حضور الأصنام مع قومه، ولم يأكل مما ذبح على النُّصُب، وما عبد غير الله، وما شرب خمرا، وكذلك الأنبياء لم يعبدوا سوى الله قبل أن يوحى إليهم، فإنهم معصومون عن الكبائر والصغائر وعن الكفر قبل البعثة بالاتفاق[1]، واختلف في تعبده، هل كان بشريعة مَنْ قبله أو لا، فقيل إنه كان متعبدا بشريعة موسى وقيل بشريعة عيسى، وقيل بشريعة إبراهيم، وقيل بشريعة نوح، عليه السلام، وقيل إنه لم يكن متعبدا، والمختار أنه كان متعبدا قبل البعث، لأنه ثبت أنه كان متعبدا في غار حراء، والتعبد لا يكون إلا بشريعة، لأن الحاكم هو الشرع عند أهل الحق، وعلى مذهب المعتزلة القائلين بحكم العقل : الأمر أظهر، إذ العبادة لا تتوقف على هذا التقدير على شريعة.

وأرضعته أمه سبعة أيام، ثم أرضعته ثويبة الأسلمية بابن ابنها مسروح، وكانت أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وكان أسن من النبي ﷺ بأربع سنين، على الصحيح وقيل بسنتين، فهو عمه من النسب وأخوه من الرضاع، وأمه بنت عم أمه، لأن حمزة أمه هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة، وآمنة هي بنت وهب بن عبد مناف، وكان عبد المطلب تزوج هالة أم حمزة بعد نحر الإبل فداء لعبد الله،

---

(١) ليس الأمر كذلك، ففي إتيانهم للصغائر خلاف كبير بين المتكلمين، وفي (المغني في أبواب التوحيد والعدل) للقاضي عبد الجبار حديث مطول في هذا الموضوع. انظر الجزء الخامس عشر، الخاص بالنبوات والمعجزات.

قبل عام الفيل بخمس سنين، فلم يكن حمزة داخلا فى القرعة، فلا يبعد كون حمزة أسن من النبى ﷺ بأربع سنين، وأنه أرضعته ثويبة قبله، لجواز أن تكون أرضعت النبى ﷺ فى آخر رضاع ابنها وأرضعت حمزة فى أوله، وأما على القول بأن حمزة، رضى الله تعالى عنه، أسن منه ﷺ بسنتين فلا إشكال فى الرضاع، وكان النبى ﷺ يبعث إلى ثويبة من المدينة بصلة وكسوة، واختلف فى إسلامها، وأثبته ابن منده، وكذلك أرضعته ثويبة مع أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى القرشى المخزومى، زوج أم سلمة، أسلم بعد عشرة أنفس، وهاجر مع امرأته أم سلمة إلى أرض الحبشة، وهو أول من هاجر إليها، وشهد بدرا، واستخلفه رسول الله ﷺ على المدينة فى غزوة العشيرة، وتوفى سنة ثلاث من الهجرة، وقال لما احتضر: اللهم اخلفنى فى أهلى بخير، فخلفه رسول الله ﷺ على زوجه أم سلمة، رضى الله عنهما، وله من الولد سلمة وعمر ودرة وزينب، أمهم أم سلمة، وكانت ثويبة جارية أبى لهب فاعتقها حين بشرته بولادته ﷺ عتقا منجزا ثم جعلها ترضعه بعد ولادته أياما.

وذكر عروة بن الزبير أن أبا لهب رؤى بشر حيبة [1] فقيل له: ماذا لقيت؟ فقال له: لم ألق بعدكم رخاء، غير أنى سقيت فى هذه منى بعتاقتى [2] ثويبة وأشار إلى النقيرة التى بين الإبهام والتى تليها من الأصابع، وفى رواية: إن الرائى له كان من أهله، وأنه أخوه العباس بن عبد المطلب، قال: مكثت حولا بعد موت أبى لهب لا أراه فى نوم ثم رأيته فى شر حال، فقال ما لقيت بعدكم راحة، إلا أن العذاب يخفف عنى كل يوم اثنين، وذلك أن رسول الله ﷺ ولد يوم الاثنين، وكانت ثويبة مولاته قد بشرته بمولده.

قال ابن حجر [3] واستدل على أن الكافر قد ينفعه العمل الصالح فى الآخرة،

---

(١) أى بشر حالة.

(٢) وقوله: «بعتاقتى» ـ بفتح العين ـ أحد مصادر عتق العبيد، الذى هو فعل لازم، فما الحكمة فى التعبير به دون التعبير بالإعتاق، وإن كان هو الأنسب، لأن العتاقة أثر الإعتاق، فلذلك أضافها لنفسه، قال ابن بطال: ومعنى قوله: سقيت فى هذه الخ أن الله سقاه ماء فى مقدار نقرة إبهامه لأجل عتقه ثويبة. [الطهطاوى].

(٣) ابن حجر العسقلانى، أحمد بن على (١٣٧٣ ـ ١٤٤٩ م) مؤرخ وفقيه ومحدث، تولى بمصر منصب قاضى القضاة، ومن مؤلفاته الشهيرة (فتح البارى فى شرح البخارى) و(الإصابة فى تمييز الصحابة).

وهو مردود بظاهر قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ (الفرقان: ٢٣) لاسيما والخبر مرسل، أرسله عروة، ولم يذكر من حدثه به، وعلى تقدير أن يكون موصولا فلا يحتج به، إذ هو رؤيا منام لا يثبت به حكم شرعي، لكن يحتمل أن يكون ما يتعلق بالنبي ﷺ مخصوصا بذلك بدليل التخفيف عن أبي طالب المروى في الصحيح، وعلى هذا جرى جمع، قال البيهقي[١]: ما ورد من بطلان الخبر للكفار معناه أنهم لا يكون لهم التخلص من النار ولا دخول الجنة، ويجوز أن يخفف عنهم من العذاب الذي يستوجبونه على ما ارتكبوه من الجرائم، سوى الكفر، بما عملوه من الخيرات، والذي قاله القاضي عياض[٢]: انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم، ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب، وإن كان بعضهم أشد عذابا من بعض. قال الحافظ: وهذا لا يرد الاحتمال الذي ذكره البيهقي، فإن جميع ما ورد من ذلك فيما يتعلق بذنب الكفر، وأما ذنب غير الكفر فما المانع من تخفيفه، وقال القرطبي[٣]: هذا التخفيف خاص بهذا وبمن ورد النص فيه، وقال ابن المنير[٤]: هما فضيلتان، إحداهما محال، وهي اعتبار طاعة الكافر مع كفره، لأن شرط الطاعة أن تقع بقصد صحيح، وهذا مفقود من الكافر، وإثبات ثواب على بعض الأعمال تفضلا من الله تعالى، وهذا لا يحيله العقل، فإذا تقرر ذلك لم يكن عتق أبي لهب لثويبة قربة معتبرة، ويجوز أن يتفضل الله عليه بما شاء كما تفضل على أبي طالب، والمتبع في ذلك التوقيف نفيا وإثباتا. قال الحافظ: فوقوع التفضيل المذكور إنما هو إكرام لمن وقع من الكافر البر لأجله، وهو النبي ﷺ. انتهى.

---

(١) أحمد بن علي بو جعفر (١٠٧٧ ـ ١١٥٠ م) لغوى غلب الزهد على حياته، عاش ومات في نيسابور.

(٢) (١٠٨٣ ـ ١١٤٩ م) أندلسي، ولد في سبتة، واشتهر بالفقه والتاريخ، وله (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) و(مشارق الأنوار في اقتفاء صحيح الأخبار). ومن أساتذته ابن رشد، واشتهر بالقاضي عياض لتوليه القضاء في سبتة وقرطبة.

(٣) محمد بن أحمد بن أبي بكر (المتوفى سنة ١٢٧٣ م) أندلسي، رحل إلى صعيد مصر ومات فيه، وكان زاهدا متعبدا، ومن أشهر آثاره تفسيره المسمى (الجامع لأحكام القرآن) والمعروف بتفسير القرطبي.

(٤) لم يضبط المؤلف ـ كما هي العادة ـ أعلامه، ومن هنا لا ندري مراده بابن المنير، فهناك «ابن المنير» ـ بفتح النون وكسر الياء مشددة ـ وهو أحمد بن محمد بن منصور (١٢٢٣ ـ ١٢٨٤ م) وهو من علماء الإسكندرية كذلك، ولكل منهما «تفسير» إلى جانب آثار أخرى.

وقال ابن الجوزى[1] : فإذا كان حال أبى لهب، الذى مات على دين قومه، ونزل القرآن بذمه، جوزى بعد موته جزاء بفرحه بمولد محمد ﷺ، فما حال المسلم الموحد من أمته يفرح ويسر بمولده ﷺ، ويبذل ما تصل إليه قدرته فى محبته ﷺ من الصدقات، لعمرى إنما يكون جزاؤه من المولى الكريم أن يدخله بفضله وكرمه جنات النعيم، ولله در حافظ الشام شمس الدين محمد بن ناصر الدمشقى حيث قال:

إذا كان هذا كافرا جاء ذمه ... وتبت يداه فى الجحيم مخلدا

أتى أنه فى يوم الاثنين دائما ... يخفف عنه للسرور بأحمدا

فما الظن بالعبد الذى كان عمره ... بأحمد مسرورا ومات موحدا

مات أبو لهب بداء العَدَسة فى مكة على دين قومه بعد بدر بسبعة أيام ـ والعدسة بثر كانت تخرج على الناس تزعم العرب أنها تعدى شبيهة بالطاعون ـ وكان قد بلغه خبر بدر ولم يشهدها.

* * *

وعلى ذكر الطاعون فقد ورد النهى عن دخول بلد فيها الطاعون، لأن الدخول إلى موضوع النقم تعرض للهلكة، فالمقام بالموضع الذى لا طاعون فيه أسكن للقلب، فليتأدب الشخص بأدب الحكمة وهى الفرار من الهلاك، ولا يعارضها بالقدر الذى تضمنته آية ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ (التوبة: ٥١) ولهذا قال عمر لأبى عبيدة، رضى الله عنهما، حين قال: أتفر من قدر الله يا أبا عبيدة ؟: لو غيرك قالها ـ جواب الشرط محذوف يدل عليه السياق ـ نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله.

* * *

ولما رمى أبو لهب بالعَدَسة تباعد عنه بنوه، فبقى ثلاثا لا تقرب جنازته ولا يدفن، فلما خافوا السبة دفعوه بعود فى حفرته ثم قذفوه بالحجارة من بعد حتى

---

(١) سبط شمس الدين (١١٨٦ ـ ١٢٥٧ م) مؤرخ، بغدادى، من آثاره (مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان).

واروه، وذكر أن عائشة كانت إذا مرت بموضعه غطت وجهها. وله من الولد ثلاثة، عتبة، وعتيبة، ومعتب، ومن الإناث: درة، وسبيعة، أسلم منهم اثنان يوم فتح مكة، ولم يهاجرا من مكة حتى ماتا، ولهما بها عقب، ودرة وسبيعة أسلمتا، وكان عتبة ومعتب قد هربا من الإسلام فأرسل إليهما عمهما العباس فقدما وأسلما فسرَّ بذلك عليه السلام وشهدا معه حنينا والطائف، وأما عتيبة فإنه لما أسلمت أم كلثوم، ابنة رسول الله ﷺ، فارقها وقال: يامحمد فارقت ابنتك وتركت دينك فلا تحب لى خيرا أبدا، فدعا عليه رسول ﷺ أن يسلط الله عليه كلبا من كلابه، فخرج إلى الشام تاجرا، فلما كان فى بعض الطريق جاءه الأسد ففزع وقال: أترى ابن أبى كبشة قاتلى، وهو بمكة وأنا بالشام؟ فأدخله أصحابه بينهم وتوسطوا به جميعهم، فلما كان فى بعض الليل أتاهم الأسد فتعداهم رجلا رجلا حتى أتى إليه فشدخه من بينهم، وفيه قال حسان:

من يرجع العام إلى أهله ... فما أكيل السبع بالراجع

وأما أبوهما أبو لهب وأمهما أم جميل حمالة الحطب فيكفيهما ما أنزل الله فيهما من قوله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد: ١) السورة، وقال بعض العلماء فى أولاد أبى لهب:

كرهت عتيبة إذْ أجرما ... وأحببت عتبة إذا أسلما

كذلك معتب أسلم فاحترز ... أن تسب فتى مسلما

ومثل عتبة وعتيبة فى الصلاح والفحش عبد الله وعبيد الله ابنا جحش، فإن عبد الله تبين وتبصر فأسلم، وعبيد الله افتتن وتنصر فأجرم، وإن الأكبر هو الأفضل والأصغر هو الأرذل.

ثم أرضعت النبى ﷺ حليمة السعدية بنت أبى ذؤيب ـ تصغير ذئب ـ واسمه عبد الله بن الحارث، ومن سعادتها توفيقها للإسلام هى وزوجها الحارث بن عبد العزى ابن رفاعة السعدى، وبنوها عبد الله والشيما وأنيسة، وقد ألف الحافظ أبو سعيد علاء الدين بن مُغَلطاى[1] فى إسلامها جزءا وسماه [التحفة الجسيمة فى

---

(١) هو مغلطاى بن قليج بن عبد الله البكجرى (١٢٩٠ ـ ١٣٦١ م) مصرى، مستعرب، من أصل تركى، له تصانيف تبلغ المائة، كثير منها فى الحديث والسيرة والرجال.

إسلام السيدة حليمة] وقال في سيرته: وبقيت حليمة حتى قدمت على رسول الله ﷺ بمكة، وقد تزوج خديجة، فشكت إليه جدب البلاد وهلاك الماشية، فكلم لها خديجة فأعطتها أربعين شاة وبعيرا وانصرفت إلى أهلها، وقدمت عليه أيضا فى يوم حنين فقام لها وبسط رداءه فجلست عليه وقضى حاجتها، فلما توفى ﷺ قدمت على أبى بكر الصديق فصنع لها مثل ذلك، ثم جاءت عمر ففعل ذلك، وأنشد فى آخر الجزء المذكور:

أضحت حليمة تزدهى بمفاخر ... ما نالها فى عصرها ذو شان

منها الكفالة والرضاع وصحبة ... والغاية القصوى رضى المنان

ومضمون قصتها، مع اختصار: أنها قدمت مكة من البادية، فى سنة قحط شديدة لم تبق لهم شيئا، صحبة عشر نسوة من قومها يلتمسن الرضعاء، ومعها ابن لها رضيع مجهود وزوجها أبو أولادها الحارث، وكلاهما من بنى سعد بن بكر بن هوازن، فلم يبق منهن امرأة إلا وقد عرض المبارك عليها فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، ثم أخذته هى إذ لم تجد غيره، فرأته مدرجا فى ثوب صوف أبيض يفوح منه المسك، وكان راقدا على قفاه، فهابت أن توقظه، فوضعت يدها على صدره فتبسم ضاحكا وفتح عينيه، فقبلته وأعطته ثديها الأيمن فقبله، وحولته إلى الأيسر فأبى، لأن الله ألهمه العدل وأعلمه أن له شريكا هو ابنها فترك له ثديها الأيسر، وكانت هى وناقتها فى أشد الجوع والهزال وعدم اللبن، فبمجرد أن وضعته فى حجرها أقبل، أى در، عليه ثديها، فروى وروى أخوه، ودرت ناقتهم فأشبعتهم تلك الليلة لبنا، فلما أصبحت ودعت أمه آمنة وركبت أتانها، فلما خرجت مع قومها أسبقت أتانها الكل بعد أن كانت لاتنهض بها، فأنكر صويحباتها أنها هى، فلما علمنها قلن: إن لها شأنا عظيما، ولما وصلوا منازلهم كانت أجدب أرض الله، فكان غنم حليمة ترجع ملآى بخلاف غنمهم مع أنها كلها بمحل واحد، فلله درها من بركة كثرت بها مواشى حليمة ونمت، وارتفع قدرها به وسمت، ولم تزل حليمة تتعرف الخير والسعادة، وتفوز منه بالحسنى وزيادة، وقيل:

لقد بلغت بالهاشمى حليمة مقامًا علا فى ذروة العز والمجد
وزادت مواشيها وأخصب ربعها وقد عم هذا السعد كل بنى سعد

ولا يخفى أن قدوم نساء بنى سعد للرضعاء إنما كان لطلب الأجر على الرضاع، قال السهيلى، رحمه الله تعالى: والتماس الأجر على الرضاع لم يكن محمودا عند أكثر العرب، حتى جرى المثل: تجوع الحرة ولا تأكل بثديها، أى ولا تهتك نفسها وتبدى منها مالا ينبغى أن تبدى. وتعقبه فى [الزهر] بأن المثل غير مسوق لذلك، وكان عند بعضهم لا بأس به، فقد كانت وسيطة فى بنى سعد، كريمة من كرائم قومها، بدليل اجتباء الله تعالى إياها برضاع نبيه ﷺ، كما اختار له أشرف البطون والأصلاب، والرضاع كالنسب، ويحتمل أن تكون حليمة ونساء قومها طلبن الرضاع اضطرارا للأزمة التى أصابتهم والسنة الشهباء[1] التى أقحمتهم.

فلما تم له ﷺ عند حليمة سنتان عادت به إلى أمه ثم فطمته، قال بعضهم: وتجوز الزيادة على الحولين والنقص عنهما، لكن قال الحناطى فى فتاويه: يستحب قطع الرضاعة عند الحولين إلا لحاجة، وقال ابن كثير[2] فى تفسيره: ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد فى بدنه وعقله، ومما ينسب إلى حليمة مما كانت ترقص به النبى ﷺ.

يارب إذ أعطيته فأبقه * وأعله إلى العلى ورقه * وادحض أباطيل العدا بحقه.
ويظهر أنه مفتعل وإن كان معناه جَيِدا.

وروى أنه أرضع النبى ﷺ ثمان نسوة، غير آمنة، ثويبة، وحليمة، وخولة بنت المنذر، وأم أيمن، والمعروف أنها من الحواضن، وامرأة سعدية، غير حليمة، وثلاث نسوة اسم كل واحدة منهن عاتكة، فى قوله ﷺ يوم حنين: «أنا ابن العواتك من سليم»، والعواتك ثلاث نسوة كن أمهات النبى ﷺ، إحداهن:

---

(١) السنة الشهباء، هى المجدبة التى لا خضرة فيها ولا مطر، وكذلك السنة الكثيرة الثلج.

(٢) هو إسماعيل بن عمر (١٣٠٢ - ١٣٧٣ م) نشأ بالبصرة، ثم ذهب إلى دمشق، وهو حافظ ومؤرخ وفقيه، وله فى التاريخ (البداية والنهاية) وفى التفسير (تفسير القرآن الكريم)، وغيرهما فى الحديث والطبقات.. الخ.. الخ..

عـاتكة بنت هلال، وهى أم عـبـد مناف بن قـصى، والثـانيـة: عـاتكة بنت مـرة بن هلال، وهى أم هـاشم بن عـبـد مناف، والثـالثـة: عـاتكة بنت الأوقص بن مـرة بن هلال، وهى أم وهب أبى آمنة أم النبى ﷺ، فالأولى من العواتك عـمـة الثانية والثانية عـمة الثالثة، وبنو سليم تفتخر بهذه الولادة، ولم يرد ﷺ بقوله أنا ابن العواتك الفخر، وإنما أراد به تعريف منازل المذكورات ومراتبهن، كرجل يقول: كان أبى فقيها، ولا يريد الفخر، وإنما يريد به تعريف حاله دون ما عداه، وقد يكون أراد به التحدث بنعمة الله تعالى فى نفسه وآبائه وأمهاته على وجه الشكر، وليس ذلك من الاستطالة والفخر فى شىء، ولبنى سليم مفاخر أخرى، منها: أنها ألفت معه يوم فتح مكة، أى شهده منهم ألف، وأن رسول الله ﷺ قدم لواءهم يومئذ على الألوية، وكان أحمر، ومنها أن عمر كتب إلى أهل الكوفة والبصرة ومصر والشام: أن ابعثوا إلىَّ من كل بلد أفضله رجلا، فبعث أهل الكوفة عتبة بن فرقد السلمى، وبعث أهل البصرة مجاشع بن مسعود السلمى، وبعث أهل مصر معن بن يزيد السلمى، وبعث أهل الشام الأعور السلمى.

وسبب دفع أمه إياه لمن ترضعه أن هذا كان عادة قريش وأشراف العرب فى أولادهم ولو كانت الأم حية ولها لبن، لأن نساءهم كن يرين إرضاع أولادهن عارا عليهن، وأيضا إذا نشأ الرضيع غريبا كان أنجب له، مع ما يضاف إلى ذلك من تفرغ النساء للأزواج، وإن كان هذا منتفيا هنا لأن أباه ﷺ توفى وهو حمل، على الصحيح، والأولى فى التعليل أن ينشأ غريبا، على أن هذه العادة عادة أشراف الدنيا قديما وحديثا، لا سيما بالأقطار الحجازية بالنسبة للحواضر، فإنهم يبعثون بأبنائهم إلى البوادى للتربية بها، مع ما ينضم إلى ذلك من خاصية فصاحة العربية العريقة بالبادية القليلة المخالطة بما يفسد اللغات، فهذه هى حالته ﷺ حيث من الله على حليمة السعدية فأرضعته مع ابنها الذى شرب النبى ﷺ من لبنه، وهو عبد الله بن الحرث، وكان له ﷺ أختان: أنيسة والشيما، بنتا الحرث، واسمها حذافة، وإنما غلب لقبها فلا تعرف فى قومها إلا به، وسبيت يوم حنين فقالت: ياقوم، اعلموا أنى أخت نبيكم فلما أتوا بها النبى ﷺ قالت له إنى أختك وكنت عضضتنى وأنا أحضنك مع أمى! فعرف ذلك وبسط لها رداءه وأجلسها عليه

ودمعت عيناه وقال لها: إن أحببت فأقيمى عندى مكرمة محببة، وإن أحببت أن ترجعى إلى قومك وصلتك، قالت: بل أرجع إلى قومى، فأسلمت، وأعطاها النبى ﷺ جارية وغلاما اسمه مكحول، فزوجت الجارية من الغلام، وكانت تحضنه ﷺ وترقصه وتقول:

هذا أخ لى لم تلده أمى * فديته من مُخْوِل مُعِمّ * فأنمه اللهم فيما تُنْمِى

ولعل هذا الرجز مصطنع بعد أو مما كان يرقص به الأطفال فى ذلك الزمن.

وكان رسول الله ﷺ عرض على كثير من النساء فلم يرضين رضاعه ليتمه وفقره، ويقلن: ماذا عسى أن يكون من أمه وجده إلينا؟ إنما يكون الإحسان من الأب، فأخذته حليمة السعدية وقالت: لعل الله أن يجعل لنا فيه البركة، فحقق الله رجاءها.

واليتم والفقر نقص فى حق الخلق، فلما صار محمد عليه الصلاة والسلام، مع هذين الوصفين، أكرم الخلق، كان ذلك قلبا للعادة، فكان من جنس المعجزات، وقد قيل لجعفر الصادق: لم يتم ﷺ من أبويه؟ قال: لئلا يكون عليه حق لمخلوق، وأيضا لينظر ﷺ إذا وصل إلى مدارع عزه لأوائل أمره، ليعلم أن العزيز من أعزه الله تعالى، وأن قوته ليست من الآباء والأمهات ولا من المال، بل قوته من الله تعالى، وأيضا ليرحم الفقراء والأيتام، وقد قال ﷺ: «ارحموا اليتامى، واكرموا الغرباء، فإنى كنت فى الصغر يتيما وفى الكبر غريبا».

وبعد ذلك مضت به إلى بلادها عند سعد بن بكر، فأتاه الملكان هناك وشقا صدره الشريف وأخرجا قلبه فغسلاه بماء الثلج فى طست من ذهب وملآه حكمة وإيمانا واستخرجا حظ الشيطان منه، وهى مضغة سوداء، وفى رواية علقة، فلما علمت حليمة بذلك رجعت به إلى مكة لأهله بعد أن أقام نحو أربعة أعوام فردته إلى أمه، وشق صدره الشريف أيضا وهو ابن عشر سنين، ثم عند مبعثه، ثم عند الإسراء. والشق الأول، الذى عند حليمة، كان فى السنة الثالثة من مولده ﷺ، وقيل كان فى الرابعة، ولكل من الثلاث حكمة، فالأولى التى كانت فى زمن الطفولية لتطهيره عن حالات الصبا حتى يتصف فى سن الصبا بأوصاف الرجولية،

ولذلك نشأ عليه السلام على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان، والتى عند المبعث زيادة فى الكرامة ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوى فى أكمل الأحوال من التطهير، والتى عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة، وسكت عن حكمة شق صدره وهو ابن عشر سنين، فيحتمل أن يقال لما كان العشر قريبا من سن التكليف شق صدره عليه السلام وقدس حتى لا يتلبس بشىء مما يعاب على الرجال، وقد نظم بعضهم المواطن التى شق صدره فيها ﷺ فقال:

أيا طالبا نظم الفرائد فى عقد	**مواطن فيها شق صدر لذى رشد**
لقد شق صدر للنبى محمد	**مرارا لتشريف وذا غاية المجد**
فأولى له التشريف فيها مؤثل	**لتطهيره من مضغة فى بنى سعد**
وثانية كانت له وهو يافع	**وثالثة للمبعث الطيب الند**
ورابعة عند العروج لربه	**وذا باتفاق فاستمع يا أخا الرشد**
وخامسة فيها خلاف تركتها	**لفقدان تصحيح لها عند ذى النقد**

والحكمة فى غسله بماء الثلج والبرد هى مع ما فيهما من الصفا وعدم التكدر بالأجزاء الترابية التى هى محل الأرجاس وعنصر الأكدار الإيماء إلى أن الوقت يصفو له ولأمته، ويروق لشريعته الغراء وسنته، والإشارة إلى ثلوج صدره، أى انشراحه بالنصر على أعدائه والظفر بهم، والإيذان ببرودة قلبه، أى طمأنينته على أمته بالمغفرة لهم والتجاوز عن سيآتهم، وقال ابن دحية: إنما غسل قلبه بالثج لما يشعر به الثلج من ثلج اليقين إلى قلبه، وقد كان ﷺ يقول بين التكبير والقراءة «اللهم اغسلنى من خطاياى بالثلج والبرد»، خصهما بالذكر تأكيدا للطهارة ومبالغة فيها لأنهما ما آن مفطوران على خلقتهما لم يستعملا ولم تنلهما الأيدى ولم تخضهما الأرجل كسائر المياه التى خالطت التراب وجرت فى الأنهار وجمعت فى الحياض، فكانا أحق بكمال الطهارة، وأراد تعالى أن يغسل قلبه بماء حمل من الجنة وطست ملىء حكمة وإيمانا ليعرف قلبه طيب الجنة ويجد حلاوتها فيكون فى الدنيا أزهد وعلى دعوة الخلق إلى الجنة أحرص، ولأنه كان له أعداء يتقولون عليه فأراد

الله تعالى أن ينفى عنه طبع البشرية من ضيق الصدر وسوء مقالات الأعداء فغسل قلبه ليورث ذلك صدره سعة ويفارقه الضيق كما قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ** ﴾ (الحجر : ٩٧) فغسل قلبه غير مرة فصار بحيث إذا ضرب أو شج رأسه وشظيت رباعيته كما فى أحد يقول اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون .

ولما أكمل ست سنين توجهت أمه مع أم أيمن حاضنته عليه الصلاة والسلام لزيارة أخوال أبيه بني النجار ، وأقاموا شهرا ، ورجعوا ذاهبين إلى مكة ، فلما نزلوا بالأبواء [١] ماتت أمه ، فدخلت به أم أيمن مكة ، وكان يقول لها : أنت أمى بعد أمى ، أى فى الاحترام ، لأنها قامت مقام أمه فى تربيته ، فضمه جده عبد المطلب ، وكان يرق عليه ويعلى منزلته ويقول : إن لولدى هذا شأنا عظيما ، وكان أبوه عبد الله مات وله سنتان ، وقيل وهو حمل ، لأن عبد المطلب كان يبعثه إلى غزة من الشام يمتار لهم طعاما مع تجار من قريش ، فلما رجعوا مرض عبد الله ، فلما دخلوا إلى المدينة تخلف بها عند أخواله بنى النجار ثم مات بها وله ثلاثون سنة ، ولما بلغت وفاته عبد المطلب وجد عليه وجدا شديدا ، والصحيح أن النبى ﷺ كانت وفاة أبيه بعد شهرين من حمل أمه به ، وخلف عبد الله جاريته أم أيمن وخمسة أجمال وقطعة غنم فورث ذلك رسول الله ﷺ من أبويه ، وكفله جده عبد المطلب حتى مات ، والمصطفى ﷺ ابن ثمان سنين ، ولا خلاف أن جده المذكور وأبويه ماتوا فى الجاهلية فإنه ما جاء الإسلام ونبىء حتى بلغ الأربعين وكان الناس قبل بعثته كما قال تعالى فى ضلال مبين ، وقد أشار إلى ذلك العراقى صاحب السيرة بقوله :

مات أبوه وله عامان	**وثلث وقيل بالنقصان**
عن قدر ذابل صح كان حملا	**وأرضعته حين كان طفلا**
مع عمه حمزة ليث القوم	**ومع أبى سلمة المخزومى**
ثويبة وهى إلى أبى لهب	**أعتقها وأنه حين انقلب**

---

(١) محل بين مكة والمدينة ، وهو إلى المدينة أقرب . [الطهطاوى] .

هلكا رئى يوما بشر حيبة لكن سقى بعتقه ثويبه
وبعدها حليمة السعدية فظفرت بالدرة السنيه
نالت به خيرا وأى خير من سعة ورغد وسير
أقام في سعد بن بكر عندها أربعة الأعوام تجنى سعدها
وحين شق صدره جبريل خافت عليه حدثا يؤل
ردته سالما إلى آمنة وخرجت به إلى المدينة
تزور أخوالا له فعرضت راجعة فقبضت ووفيت
هناك بالأبواء وهو عمره ست سنين مع شيء بقدره
ضابطه بمائة أياما وقيل بل أربعة أعواما
وحين مات حملته بركة لجده بمكة المباركة
كفله إلى تمام عمره ثمانيا ثم مضى لقبره

الفصل الثانى

(فى ذكر عمر مولده الشريف، وإشهاره كل سنة، وفيما جرى فى مولده وفيما بعده من الوقائع)

فى الأخبار المشهورة أن الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ ارتج إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرافة، إشارة إلى أنه لم يبق من ملوكهم المستبدين بالملك إلا أربعة عشر ملك فهلك عشرة فى أربع سنين وهلك أربعة إلى زمن عثمان رضى الله عنه وزال ملكهم بالكلية ورأى فى تلك الليلة أنوشروان رؤيا أفزعته فجمع الكهنة والسحرة والمنجمين فقصها عليهم فدلوه على سطيح الكاهن ليعبرها له، وكان مشهوراً بالكهانة، فأرسل إليه وزيره، وكان سطيح يخرجه قومه على رأس كل سنة مستلقياً فيتكلم بأحكام السنة الآتية، فلما خرج بدأ الكلام بالرؤيا قبل القص عليه فقال: إن كسرى رأى رؤيا هالته، رأى خيولاً عربية ملأت مدينته تسوق إبل العراق وتخرجها من البلاد، فالخيول العربية أصحاب النبى القرشى الهاشمى المكى المدنى الخاتم الذى يختم الله به الأنبياء ويأتيه الوحى من الملك الواحد الأحد الفرد الصمد وسيفتح له البلاد والمدائن بالعراقين وغيرهما على عدد شرافات بقين من الإيوان حين سقوطه ليلة ميلاده الحذر الحذر من مخالفته من كل من وصل إلى زمن دعوته ثم بكى سطيح فقال ما بقى من عمرى إلا قليل لا أدرك بعثة النبى الجليل، قال: فرجع وزير كسرى القهقرى فأخبر الملك بما أخبره به سطيح فوقع ما قال مما قدره القادر المتعال.

وقد سبق لنا فى (الفصل الأول) من (الباب الأول) من (المقالة الخامسة) أن ثويبة جارية أبى لهب لما بشرته بولادته ﷺ أعتقها عتقًا منجزًا، ثم جعلها ترضعه بعد ولادته أيامًا، فخفف الله عنه العذاب كل يوم اثنين الذى هو يوم مولده، ولعل تخفيف عذابه بالنظر لذنب غير الكفر حيث لا مانع من تخفيفه، أو هذا التخفيف خاص به وبمن ورد فيه النص وهذا إكرام لمن وقع البر لأجله، وهو النبى ﷺ فلا غرابة فى أن مولده الشريف على تداول الأيام صار متبعًا من جميع الناس، أكابر وأصاغر، وإن كان بدعة فهو من البدع المحمودة، وابتداعه مبنى على قاعدة الشكر للمولى فى إيجاده، والواقع أن الأصل فى حسن البدعة وقبحها أن تعرض على قواعد الشريعة فما تدخل فى قواعده من الأحكام الخمسة تنسب إليه وكم من سنن ابتدعت على طريق القربى إلى الله تعالى وصارت ملحقة بالسنة الشريفة، والمولد النبوى منها إذ لا ضرر ولا ضرار فى فعله لمن أراد ذلك فى ربيع الأول أو غيره، بل نص ابن الجوزى: إنه مما جرب أن فعله يورث الأمان التام فى ذلك العام، كما سيأتى، وإن قال ما قال فيه تاج الدين الفاكهانى[1] المالكى من الإنكار، وتعقبه جلال السيوطى، ورد عليه الرد التام بسلوك طريق الاستدلال والاستظهار، وحكم بينهما العلامة الشيخ عبد السلام اللقانى[2] المالكى وقضى بينهما بقول فصل وحكم عدل يشهد له بالفضل أشبع فى مقاله بالنصوص القاطعة والحجج الداحضة بما يقنع من الدليل ويشفى الغليل ويكشف عن وجوه البدع قناع التأويل، فلنذكر كلامه فى هذا المعنى برمته مع بعض تصرف فى العبارة، وإن كان فيه تكرار شىء مما سبق حيث هو مؤكد له ومزيل الغطاء عن غمته.

ونص عبارته المنقولة من مسوّدة حاشية له على بعض السير النبوية، وقد أردت إيراد بعض فوائد تتعلق بالمولد الشريف مما ذكره النجم وغيره فأقول مستعينًا به سبحانه:

---

(١) هو عمر بن سالم بن صدقة اللخمى الإسكندرى (١٢٥٦-١٣٣٤م)، من علماء الإسكندرية، ترك آثارًا فى النحو والفقه والحديث.

(٢) هو عبد السلام بن إبراهيم اللقانى المصرى (١٥٦٣-١٦٦٨م) شيخ المالكية فى عصره بالقاهرة، وله مؤلفات فى التوحيد والعقائد.

«إعلم أن الناس اختلفوا فى عمل المولد واجتماع الناس له، والذى صرح به العلامة تاج الدين الفاكهانى المالكى، رحمه الله، أنه بدعة مذمومة، وألف فى ذلك كتابًا صدَّر ديباجته بقوله بعد البسملة والحمدلة وما يطلب له الإتيان به، أما بعد، فقد تكرر سؤال جماعة عن الاجتماع الذى يعمله بعض الناس فى شهر ربيع الأول ويسمونه المولد هل له أصل فى الشرع أو هو بدعة حدث فى الدين، وقصته؟ والجواب عن ذلك مبينًا، والإيضاح عنه معينا؟ قلت، وبالله التوفيق؛ «لا أعلم لهذا المولد أصلا فى كتاب ولا سنة، ولم ينقل علمه عن أحد من علماء الأمة، الذين هم القدوة فى الدين، المستمسكون بآثار المتقدمين، بل هو بدعة أحدثها البطالون، وشهرة اعتنى به الأكالون، بدليل أنا أدرنا عليه الأحكام الخمسة، قلنا: إما أن يكون واجبًا، أو مندوبًا، أو مباحًا، أو مكروهًا، أو محرمًا. وليس بواجب إجماعًا ولا مندوبًا، لأن حقيقة المندوب ما طلبه الشارع من غير ذم على تركه، وهذا لم يأذن فيه الشرع، ولا فعله الصحابة ولا التابعون المتدينون، فيما علمت، وهذا جوابى عنه بين يدى الله إن سئلت عنه، ولا جائز أن يكون مباحًا، لأن الابتداع فى الدين ليس مباحًا بإجماع المسلمين، فلم يبق إلا أن يكون مكروهًا أو حرامًا، وحينئذ يكون الكلام فيه فى فصلين، والتفرقة بين حالين:

إحداهما: أن يعمله رجل من عين ماله لأهله وأصحابه وعياله، لا يجاوزون فى ذلك الاجتماع على أكل الطعام، ولا يقترفون شيئًا من الآثام، وهذا الذى وصفناه بأنه بدعة مكروهة وشناعة، إذ لم يفعله أحد من متقدمى أهل الطاعة، الذين هم فقهاء الإسلام، وعلماء الأنام، سُرج الأزمنة، وزين الأمكنة.

والثانى: أن تدخله الجباية[1] وتقوى به العناية، حتى يعطى أحدهم الشىء ونفسه تتبعه، وقلبه يؤلمه ويوجعه، لما يجد من ألم الحيف، وقد قال العلماء: آخذ المال بالحياء كآخذه بالسيف، لا سيما إن انضاف إلى ذلك الغناء من البطون الملآى بآلات الباطل كالدفوف والشبَّابات، واجتماع الرجال مع الأحداث والنساء الفاتنات، والرقص بالتثنى والانعطاف، والاستغراق فى اللهو ونسيان يوم

---

(١) فى الأصل: الجناية.

المخاوف، وكذلك النساء إذ اجتمعن على انفرادهن، رافعات أصواتهن بالتهتك والتطريب فى الإنشاد، والخروج في التلاوة والذكر المشروع والأمر المعتاد، غافلات عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (الفجر: ١٤)، وهذا هو الذى لا يختلف فى تحريمه إنسان، ولا يستحسنه ذوو المروءة والفتيان، وإنما يحلو ذلك بنفوس موتى القلوب، وغير المستقلين من الآثام والذنوب. وأزيدك: إنهم يرونه من العبادات، لا من الأمور المنكرات المحرمات، فإنا لله وإنا إليه راجعون، بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ. ولقد أحسن الإمام أبو عمرو بن العلاء[1] حيث يقول: لا يزال الناس بخير ما تُعُجِّبَ من العَجَب! هذا مع أن الشهر الذى ولد فيه ﷺ، وهو ربيع الأول، هو بعينه الشهر الذى توفى فيه، فليس الفرح فيه بأولى من الحزن فيه، وهذا ما علينا أن نقول، ومن الله تعالى حسن القبول».

وتعقبه العلامة الحلال، مؤلف هذا الكتاب فى فتاويه، فقال: «أما قوله: لا أعلم لهذا المولد أصلاً فى كتاب ولا سنة. يقال عليه: نفى العلم لا يلزم منه نفى الوجود، وقد استخرج له العلامة ابن حجر العسقلانى، رحمه الله، أصلاً من السُّنة، وهو ما ثبت فى الصحيحين من أن النبى ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم، فقالوا: هذا يوم أغرق الله فيه فرعون ونجى موسى، فنحن نصومه شكرًا لله تعالى، فقال: «أنا أحق بموسى منكم»، فصامه، وأمر بصيامه، قال: فيستفاد منه فعل الشكر لله تعالى على ما مَنّ به فى يوم معين من إسداء نعمة أو دفع نقمة، ويعاد ذلك فى نظير ذلك اليوم من كل سنة، والشكر لله تعالى يحصل بأنواع العبادات كالسجود والصيام والتلاوة، وأى نعمة أعظم من النعمة ببروز هذا النبى، نبى الرحمة ﷺ، فى ذلك اليوم، وعلى هذا فينبغى أن يتحرى الوقت بعينه، فإن كان ولد ليلا فليقع الشكر بما يناسب الليل، كالإطعام، وإن كان ولد نهاراً، وهو الأصح، فيما يناسبه، كالصيام والصدقة، ولابد أن يكون ذلك اليوم بعينه من عدد أيام ذلك الشهر بعينه حتى يطابق قصة موسى عليه الصلاة والسلام فى يوم عاشوراء، ومن لم يلاحظ ذلك لا يبالى بعمل المولد فى أى يوم من

(١) هو زبان بن عمار التميمى المازنى البصرى (٦٩٠ - ٧٧١م) أحد المبرزين فى اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة لقراءة القرآن.

الشهر، بل توسع قوم فنقلوه إلى يوم من السنة، وفيه ما فيه، وينبغى أن يقتصر فيه على ما يفهم الشكر لله تعالى من نحو ما ذكروا، أما السماع واللهو وغيرهما فما كان مباحًا لعين السرور بذلك اليوم فلا بأس به، وما كان حرامًا أومكروها فيمنع، وكذا ما كان خلاف الأول[1] انتهى.

فيفهم من ذلك أن أصل ابتداع عمل المولد الشريف مبنى على قاعدة الشكر[2] وعلى النعمة بإيجاد الذات المحمدية الواسطة في خيرى الدنيا والآخرة، فلهذا خالفت هذه السنة الحسنة اتخاذ يوم عاشوراء مأتمًا ومظهرًا للحزن، كما يفعله بعض الأعاجم لأجل قتل الحسين بن الإمام على، رضى الله تعالى عنهما، فكانت هذه من البدع السيئة، ومن عمل الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، إذ لم يأمر الله سبحانه، ولا رسوله ﷺ، باتخاذ أيام مصائب الأنبياء وموتهم مأتمًا، فكيف بمن دونهم! والقاص الذى يذكر للناس قصة القتل يوم عاشوراء، ويخرق ثوبه، ويكشف رأسه، ويأمرهم بالقيام والتشنيع تأسفًا على المصيبة يجب أن يمنع، والمستمعون له لا يعذرون فى الاستماع.

قال الإمام الغزالى[3] وغيره: «يحرم على الواعظ وغيره رواية مقتل الحسين، رضى الله عنه، وحكاية ما جرى بين الصحابة من التشاجر والتخاصم، فإنه يهيج على بغض الصحابة والطعن فيهم، وهم أعلام الدين الذين تلقى عنهم أئمة الدين وتلقينا عنهم، والطاعن فيهم طاعن فى نسبه ودينه».

وقال الإمام الشافعى وجماعة من السلف: «تلك دماء طهر الله منها أيدينا فلنطهر منها ألسنتنا» انتهى.

فليس لاتخاذ يوم عاشوراء مأتمًا مستند يتخرج عليه بخلاف المولد الشريف، فقد فهمت مستنده، بل هو متعدد، فقد قال الحافظ الجلال السيوطى، رحمه الله: «وقد ظهر لى تخريجه، يعنى عمل المولد، على أصل آخر، يعنى ما ذكره الحافظ ابن

(١) فى الأصل: الأول.

(٢) فى الأصل: وعلى.

(٣) أبو حامد، محمد بن محمد (١٠٥٨ - ١١١١ م) من أشهر مفكرى الإسلام.

حجر، وهو ما أخرجه البيهقى عن أن أنس أن النبى ﷺ عق عن نفسه بعد النبوة مع أنه قد ورد أن جده عبد المطلب عق عنه فى سابع ولادته، والعقيقة [1] لا تعاد مرة ثانية، فيحمل ذلك على أن هذا الذى فعله النبى ﷺ إظهار للشرك على إيجاد الله إياه رحمة للعالمين، وتشريع لأمته، كما كان يصلى على نفسه، لذلك فيستحب لنا أيضًا إظهار الشكر بمولده بالاجتماع وإطعام الطعام ونحو ذلك من وجوه القربات وإظهار المسرات». انتهى.

قال شيخ مشايخنا النجم الغيطى [2] رحمه الله: وما ذكره الحافظ ابن حجر من التخريج أنسب وأظهر مما ذكره الحافظ الجلال، كما هو الظاهر، لأن فعل صوم عاشوراء يتكرر كل عام، وفى وقت معين، فكان عمل المولد المذكور مثله، بخلاف العقيقة فإنها لا تتكرر، وليست مختصة بوقت معين لا تتقدم عليه ولا تتأخر، ولأن ما فعله جده عبد المطلب من العقيقة لم يقع عنه، لأن ذلك كان قبل الشروع فلا يتعلق به حكم، والعقيقة التى فعلها النبى ﷺ عنه بعد النبوة، على تقدير صحتها، كانت بعد الشرع، فهى المشروعة والواقعة عنه، لأنه بعد ولادته لم يقع عنه عقيقة مشروعة، وقد قال أئمتنا إن من بلغ ولم يعق عنه فحسن أن يعق عن نفسه، على أن ما ورد من أنه ﷺ عق عن نفسه بعد النبوة حديث منكر، كما قاله ابن حجر وغيره، بل قال النووى [3] فى [شرح المهذب]: إنه فى حديث باطل، فعليه يسقط التخريج المذكور أيضًا بالأولى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قلت: وما ذكره النجم من أن العقيقة لا تتكرر، إنما هو بالنسبة للمولود الواحد، أما إذا تعدد فإنها تتعدد أيضًا، كما هو مذهبنا، وما ذكره أيضًا من أنها ليست مختصة بوقت معين، فليس مذهبنا، بل المذهب أنها مختصة به، فتكون فى سابع الولادة لا قبله، اتفاقا، ولا بعده، فإن فات فاتت عل المشهور كما علمته آنفًا.

---

(١) العقيقة: الشاة تذبح عن المولود يوم أسبوعه عند حلق شعره.

(٢) محمد بن أحمد بن علي السكندري (١٥٠٤ - ١٥٧٣م) مصري، خلف آثارًا في الفقه والعقائد والحديث.

(٣) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني (١٢٣٣ - ١٢٧٧م) من علماء الفقه والحديث، له آثار كثيرة في الفقه والحديث.. الخ.

قال الجلال: «وأما قول الفاكهاني: «بل هو بدعة أحدثها البطالون». . الخ. . يقال عليه: إنه أحدث من غير نكير منهم، وارتضاه ابن دحية [1] وصنف من أجله كتابًا، فهؤلاء علماء متدينون رضوه وأقروه ولم ينكروه، وقوله: «ولا مندوبًا، لأن حقيقة المندوب ما طلبه الشرع، يقال عليه: إن الطلب فى المندوب تارة يكون بالنص وتارة يكون بالقياس، وهذا وإن لم يرد فيه نص ففيه القياس على الأصلين، يعنى السابقين فى التخريج، وقد علمتهما، وقوله: «ولا جائز أن مباحًا، لأن الابتداع فى الدين ليس مباحًا بإجماع المسلمين»، كلام غير مستقيم لأن البدعة لم تنحصر فى الحرام والمكروه بل قد تكون أيضًا مباحة ومندوبة وواجبة». انتهى.

وحاصل القول فى البدعة أنها، لغة: ما كان مخترعًا على غير مثال سابق، وشرعًا: ما أحدث على خلاف أمر الشارع ودليله الخاص أو العام، بل يكون الحامل عليه مجرد الشهوة والإرادة، أما ما أحدث مما له أصل فى الشرع ما يحمل النظير على النظير أو بغير ذلك فإنه حسن، إذ هو سنة الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين، ومن ثم قال عمر، رضى الله عنه، فى التراويح: نعمت البدعة هى، وليس ذلك مذمومًا بمجرد لفظ مُحْدَث أو بدعة، فإن القرآن باعتبار لفظه وإنزاله وصف بالمُحْدَث أول سورة الأنبياء، وإنما منشأ الذم ما اقترن به من مخالفة السنة ودعايته إلى الضلالة، وهى من حيث هى منقسمة إلى خمسة أقسام:

واجب: وهو ما تناولته قواعد الوجوب وأدلته من الشرع، كتدوين القرآن والشرائع إذا خيف عليها الضياع، فإن التبليغ لمن بعدنا من القرون واجب إجماعًا، وإهمال ذلك حرام إجماعًا، زاد بعض المتأخرين: ومن البدع الواجبة على الكفاية الاشتغال بالعلوم العربية المتوقف عليها فهم الكتاب والسنة، كالنحو والصرف والمعانى والبيان واللغة، بخلاف العروض والقوافى ونحوهما، وكالجرح والتعديل، وتمييز صحيح الأحاديث من سقيمها، وتدوين نحو الفقه وأصوله

---

(1) عمر بن الحسن بن على بن محمد (١١٥٠ - ١٢٣٥م) مؤرخ وأديب ومحدث، أندلسى رحل للمشرق واستقر بمصر، والمؤلف يشير إلى كتاب ابن دحية (التنوير فى مولد السراج المنير).

وآلاته، والرد على نحو القدرية[1] والجبرية[2] والمرجئة[3] والمجسمة[4]، لأن حفظ الشريعة فرض كفاية فيما زاد على المتعين، كما دلت عليه القواعد الشرعية، ولا يتأتى حفظها إلا بذلك، وما لا يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب.

وحرام: وهو كل بدعة تناولتها قواعد التحريم وأدلته من الشريعة، كالمحدثات من المظالم التى اخترعتها الأهواء بغيًا، ولا ينبغى أن تلتبس هذه البدع بالحقوق التى تقررها الحكام على الرعايا بمقتضيات الأحوال عند تعطيل أموال الزكاة لإقامة شعائر الممالك، زاد بعضهم من البدع المحرمة: الاشتغال بمذاهب سائر أهل البدع المخالفة لما عليه أهل السنة والجماعة.

ومندوب إليه: وهو ما تناولته قواعد الندب وأدلته، كصلاة التراويح وإقامة أبهة الأئمة والقضاة والحكام، على خلاف ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، بسبب أن المصالح والمقاصد الشرعية لا تحصل إلا بعظمة الولاة فى نفوس الناس، وكان تعظيم الناس فى زمن الصحابة رضوان الله عليهم إنما هو بالدين وسابق الهجرة، ثم اختل النظام وذهب ذلك القرن وحدثت قرون أخر لا يعظمون إلا بالصور، فتعين تفخيم الصور حتى تحصل المصالح.

وقد كان عمر رضى الله عنه يأكل خبز الشعير والملح، ويفرض لعامله نصف شاة فى كل يوم، لعلمه بأن الحالة التى هو عليها لو عملها غيره لهان فى نفوس الناس ولم يحترموه وتجاسروا عليه بالمخالفة، فاحتاج إلى أن يضع غيره فى صورة

---

(١) المراد بهم المتكلمون الذين يثبتون للإنسان قدرة على الفعل والترك، أى يقولون بالاختيار، وضد الفكر الجبرى، وخصوم المعتزلة يسمونهم القدرية، بينما يسمى المعتزلة خصومهم بهذا الاسم، وكل ينفى عن نفسه اسم «القدرية» الحديث: «القدرية مجوس هذه الأمة».

(٢) هم الذين يقولون بالجبر، وهم: مجبرة خالصة ـ (الجهمية) ـ ومجبرة متوسطون ـ (الأشعرية) ـ انظر كتابنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية) طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

(٣) هم الذين يكتفون من الإيمان بالتصديق القلبى حتى ولو لم يكن العمل موافقًا لهذا التصديق، ويرجئون الحساب والحكم على مرتكبى الكبائر إلى يوم القيامة.

(٤) هم الذين يقدمون للخالق تصورًا تشبيهيًا يجسده ويجسمه، ومنهم القائلون بالحلول، وفكرهم على النقيض من فكر أهل التنزيه والتجريد الذين كان فكر «الوحيد» عند المعتزلة نموذجًا راقيًا لوجهة نظرهم.

أخرى لحفظ النظام، ولذلك لما قدم الشام ووجد معاوية بن أبى سفيان قد اتخذ الحُجّاب وأرخى الحجَاب واتخذ المراكب النفيسة والثياب الهائلة العلية وسلك ما يسلكه الملوك، سألهَ عن ذلك، فقال له: إنا بأرض نحن فيها محتاجون لهذا، فقال له: لا آمرك ولا أنهاك! ومعناه: أنت أعلم بحالك، هل أنت محتاج إلى هذا فيكون حسنًا، أو غير محتاج إليه فلا يسوغ لك التخلق به. فدل ذلك من عمر، رضى الله عنه، وغيره على أن أحوال الأئمة وولاة الأمور تختلف باختلاف الأمصار والأعصار والقرون والأحوال، فكذلك يحتاجون إلى تجديد زخارف وسياسات لم تكن قديمًا، وربما وجبت فى بعض الأحوال.

زاد بعض المتأخرين: ومن البدع المندوبة إحداث نحو الربط [1] والمدارس وكل إحسان لم يعهد فى العصر الأول، والكلام على دقائق التصوف والجدل، وجمع المحافل والاستدلال فى المسائل العلمية إن قصد بذلك وجه الله تعالى.

ومكروه: وهو ما تناولته أدلة الكراهة من الشريعة وقواعدها، كتخصيص الأيام الفاضلة أو غيرها بنوع من العبادة، وكذلك فى الصحيح خرجه مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ نهى عن تخصيص يوم الجمعة بصيام أو ليلتها بقيام، ومن هذا الباب الزيادة فى المندوبات المحدودات، كما ورد فى التسبيح عقب الفريضة ثلاثة وثلاثين فيفعل مائة، وورد صاع [2] فى زكاة الفطر فيجعله عشرة أصْوُع، بسبب أن الزيادة فيها إظهار الاستظهار على الشارع وقلة أدب معه، بل شأن العظماء إذا حددوا شيئًا وُقفَ عنده، وعد الخروج عنه قلة أدب، والزيادة فى الواجب أو عليه أشد فى المنع لأنه يؤدى إلى أن يعتقد أن الواجب هو الأصل والمزيد عليه، ولذلك نهى مالك [3]، رحمه الله، عن اتصال صيام ستة أيام من شوال برمضان، لئلا يعتقد أنها من رمضان، وخرج أبو داود أن رجلاً دخل إلى مسجد رسول الله ﷺ فصلى الفرض وقام ليصلى ركعتين فقال له عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: اجلس حتى تفصل بين فرضك ونفلك فبذا هلك من كان قبلنا! فقال له رسول الله

(١) المعاهد المبنية الموقوفة للفقراء.

(٢) الصاع: مكيال قديم، قدره بالمكيال المصرى الحالى قدح وثلث: أى سدس كيلة.

(٣) هو مالك بن أنس (المتوفى سنة ٧٩٥م) صاحب المذهب الفقهى المنسوب إليه.

ﷺ : «أصاب الله بك يا ابن الخطاب»، يريد عمر : أن من قبلنا وصلوا النوافل بالفرائض فاعتقدوا الجميع واجبًا، وذلك تغيير للشرائع، وهو حرام إجماعًا.

زاد بعضهم : ومن البدع المكروهة زخرفة المساجد وتزويق المصاحف. انتهى.

ولكن قياسًا على ما ذكره القليوبى(1) من أن الاحتفال بالجنائز كان بدعة، ثم بعد أن دل على التعظيم صار مقبولاً، فلا مانع أن يقاس عليه زخرفة المساجد والمصاحف، والمدار على النية وتحكيم الأحوال.

واعلم أن حكمنا على الزائد على التسبيح بالكراهة إنما هو من حيث زيادته، فلا ينافى قول النووى وغيره أنه يثاب عليه، يعنى من حيث أنه ذكر والله أعلم.

ومباح : وهو ما تناولته الإباحة وقواعدها من الشريعة، كاتخاذ المناخل للدقيق، ففى الآثار : أول شىء أحدثه الناس بعد رسول الله ﷺ اتخاذ المناخل، لأن ليس العيش وإصلاحه من المباحات، فوسائله مباحة. زاد بعضهم : ومن البدع المباحة التوسع فى لذيذ المآكل والمشارب والملابس، وتوسيع الأكمام، وبما تقرر علم أن قوله ﷺ «إياكم ومُحْدَثات الأمور»، عام أريد به خاص، إذ سنة الخلفاء الراشدين منها، مع أنا أمرنا باتباعها لرجوعها إلى أصل شرعى. قال بعض المتأخرين، وكذلك سنتهم عام أريد به خاص، إذ لو فرض خليفة راشد فى عامة أمره سن سنة لا يعضدها دليل شرعى امتنع اتباعها، ولا ينافى ذلك رشده، لأنه قد يخطئ المصيب ويزيغ المستقيم يومًا ما، ففى الحديث : «لا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة»، ولنا قاعدة وهى : كل حكم أجازه الشارع أومنعه وأمكن رده إلى أحدهما فهو واضح، فإن أجازه مرة ومنعه أخرى فالثانى ناسخ للأول، وإن لم يرد عنه إجازته ولا منعه ولا أمكن ردهما إليه بوجه ففيه الخلاف قبل ورود الشرع، والأصح أن لا حكم فلا تكليف فيه بشىء، وقيل يرجع فيه إلى المصلحة والسياسة فما وافقهما منه أخذ به وما لا يوافقهما ترك. كذا قال بعض المتأخرين، ولا شك فى حسنه.

---

(1) أحمد بن أحمد بن سلامة (المتوفى سنة ١٦٥٩م) فقيه ومتأدب، مصرى، خلف مجموعة من الرسائل والحواشى والشروح.

وقد تكلم الإمام أبو عبد الله ابن الحاج [1] في كتابه [المدخل] على عمل المولد فأتقن الكلام فيه جدا، وحاصله: مدح ما كان فيه من إظهار شعار وشكر، وذم ما احتوى عليه من محرمات ومنكرات.

وقال الحافظ: أصل عمل المولد بدعة لم ينقل عن أحد من السلف الصالح من القرون الثلاثة، ولكنها مع ذلك قد اشتملت على محاسن وضدها، فمن تحرى في عمله المحاسن وتجنب ضدها كان بدعة حسنة، ومن لا فلا.

وقال العلامة صدر الدين موهوب بن عمر الجزرى الشافعي: هذه بدعة لا بأس بها، ولا تكره البدع إلا إذا راغمت السنة، وأما إذا لم تراغمها فلا تكره، ويثاب الإنسان بحسب قصده في إظهار السرور والفرح بمولد النبي ﷺ. وقال في موضع آخر: هذه بدعة لا بأس بها، ولكن لا يجوز له أن يسأل الناس، بل إن كان يعلم أو يغلب على ظنه أن نفس المسؤول تطيب بما يعطيه فالسؤال لذلك مباح أرجو أن لا ينتهي إلى حد الكراهة.

وقال العلامة نصير الدين المبارك، الشهير بابن الطباخ: ليس هذا من السنين، ولكن إذا أنفق المنفق في هذا اليوم أو تلك الليلة، وأظهر السرور فرحًا بمولده ﷺ ودخوله في الوجود، وجمع جمعًا أطعمهم ما يجوز، واتخذ السماع الخالي عن اجتماع الأحداث وإنشاد ما يثير نار الشهوة من العشقيات والمشوقات للشهوات الدنيوية، كالقد والخد والعين والحاجب، وأنشد ما يشوق إلى الآخرة ويزهد في الدنيا، ودفع للمسمع ملبوسًا، فهذا اجتماع حسن جائز يثاب قاصد ذلك وفاعله إذا أحسن القصد، ولا يختص ذلك بالفقراء دون الأغنياء إلا أن يقصد مواساة الأحوج، فالفقراء أكثر ثوابًا، إلا أن سؤال الناس ما في أيديهم لذلك فقط بدون ضرورة وحاجة مكروه، واجتماع الصلحاء فقط ليأكلوا ذلك الطعام ويذكروا الله تعالى ويصلوا على رسوله ﷺ يضاعف القربات والمثوبات، أما إذا كان الاجتماع مما ينهى عنه شرعا فإنه مجمع آثام.

---

(١) محمد بن محمد بن محمد ابن الحاج (المتوفى سنة ١٣٣٦م) مغربي، قدم مصر وتوفي بها، وهو فقيه، واسم كتابه الذي يشير إليه المؤلف (مدخل الشرع الشريف).

وقال الحافظ أبو الخير فى فتاويه : عمل المولد الشريف لم ينقل عن أحد من السلف الصالح فى القرون الثلاثة الفاضلة ، وإنما حدث بعد ، ثم لا زال أهل الإسلام فى سائر الأقطار والمدن الكبار يحتفلون فى شهر مولده ﷺ بعمل الولائم البديعة المشتملة على الأمور البهيجة الرفيعة ، ويتصدقون فى لياليه بأنواع الصدقات ، ويظهرون السرور ويزيدون فى المبرات ، ويعتنون بقراءة مولده الكريم ، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم . انتهى .

وقال العلامة أبو الخير بن الجزرى المقرى [1] : على خواصه أنه أمان فى ذلك العام ، وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام ، ولو لم يكن فى ذلك إلا إرغام الشيطان ، وسرور أهل الإيمان لكفى ، وإذا كان قوم عيسى اتخذوا ليلة مولده عيداً أكبر ، فكذلك أهل الإسلام أولى بالتكريم وأجدر ، وأكثر الناس عناية بذلك أهل مكة المشرفة ، ثم أهل المدينة المنورة ، ثم أهل مصر فى السنين المتقدمة والمتأخرة ، ثم غيرهم ، تقبل الله عملهم ، وأول من فعل ذلك بالموصل الشيخ عمر بن محمد الملا ، أحد الصالحين المشهورين به ، وبه اقتدى فى ذلك السلطان الملك المظفر صاحب إربل [2] ، بانى الجامع المظفرى الذى للحنابلة بصالحية دمشق ، فكان يعمل المولد الشريف فى ربيع الأول ويحتفل به احتفالاً هائلاً ، يكثر فيه من الصدقات والمعروف ، وإظهار الزينة والسرور مما يجل عن الوصف ، وإنفاقه بسببه ألوفًا من المال الطيب الحلال ، وكان يحضر عنده فى المولد أعيان العلماء والصوفية فيخلع عليهم ويطلق لهم ، يعنى الأعطية ، وكان يصرف عل المولد فى كل سنة ثلاثمائة ألف دينار .

ولما اجتاز الحافظ ابن دحية بإربل ووجد ملكها المظفر يعتنى بالمولد الشريف عمل له [كتاب التنوير فى مولد البشير النذير] وقرأه عليه بنفسه ، فأجازه على ذلك بألف دينار .

---

(١) محمد بن محمد أحمد بن أبى بكر (المتوفى سنة ١٣٥٧م) فقيه مالكى ، ومتصوف وأديب ، مغربى ، ولى القضاء ، وهو جد المقرى صاحب (نفح الطيب) .

(٢) وإربل : مدينة بقلعة ، على مرحلتين من الموصل . (الطهطاوى) .

وقال الشيخ جلال الدين المعروف بالمخلص [1]: مولده ﷺ مُجَمل مُكرّم، قدس يوم ولادته وشرف وعظم، وكان وجوده مبدأ سبب النجاة لمن اتبعه، وتقليل حظ جهنم ممن أعد لها الفرحة بولادته ﷺ، وتمت بركاته على من اهتدى به، فشابه هذا اليوم يوم الجمعة من حيث أن يوم الجمعة لا تسعر فيه جهنم، هكذا ورد عنه ﷺ، فمن المناسب إظهار السرور وإنفاق الميسور.

قال العلامة الشمس ابن الجوزى فى آخر كتابه [التعريف بالمولد الشريف] فإن قيل: فلم لم تتخذ أمته ﷺ يوم مولده عيداً كما اتخذت أمة عيسى عليه السلام ليلة مولده عيداً؟ فالجواب: إنه لما كان يوم مولده ﷺ هو يوم وفاته تكافأ السرور بالعزاء، وهذا أحسن ما خطر لى فى ذلك، وقد يقال: إنه لما اختلف فيه لم يتعين، أو يقال: الأعياد توقيفيه، ولم يشرع غير هذين اليومين، أو يقال: سداً للذريعة، وما أشرت إليه أولا ألطف، وإلا ففى الحقيقة مولده ﷺ عيد وأى عيد، يشمل القريب من أمته والبعيد، وبالجملة فالاعتناء بوقت مولده الشريف ﷺ، والإنشاد للمدائح النبوية والزهدية والعرفانية، وإطعام الطعام والصدقات السنية، أمر حسن منيف، يثاب فاعله الثواب الجزيل، بقصده الجميل، وإن كان عمله لم ينقل عن أحد من السلف الصالح، والقرون الثلاثة الفاضلة، وإنما حدث بعدها، فلذلك كان بدعة حسنة، عند من تحقق العلم وأتقنه، ثم لا زال أهل الإسلام، فى سائر الأقطار والمدن العظام، يحتفلون فى شهر مولده، خصوصًا فى ليلته، بعمل المولد بما ذكر، وإظهار السرور بذلك، والحبور بتلك المسالك، وبعضهم يزيد على ذلك بقراءة ما صنف فى المولد الشريف، وما ورد فيه من الخير الثابت المنيف، على أنه ليس قيداً فى استحباب عمل المولد المذكور، وإنما هو لزيادة الأجور.

وقد جرت العادة أنه إذا ساق الوعاظ والمداح مولده ﷺ، وذكروا وضع أمه له ﷺ، قام أكثر الناس عند ذلك تعظيمًا له ﷺ، وهذا القيام بدعة لا أصل لها، لكن لا بأس به لأجل التعظيم، بل هو فعل حسن ممن غلب عليه الحب والإجلال

---

(1) محمد بن عبد الرحمن بن العباس (٩١٨ - ١٠٠٣م) من حفاظ الحديث، كان مبرزاً فى ذلك ببغداد على عصره.

لذلك النبى الكريم، عليه أفضل الصلاة والتسليم، وما أحسن قول الإمام أبى زكريا يحيى الصرصرى [1] الحنبلى فى بعض قصائده النبوية :

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب	على فضة من خط أحسن من كتب
وإن ينهض الأشراف عند سماعه	قياما صفوفا أو جثيًا على الركب
ما الله تعظيما له كتب اسمه	على عرشه يا رتبة سمت الرتب

وقد اتفق أن منشدًا أنشد هذه القصيدة فى ختم درس شيخ الإسلام تقى الدين أبى الحسن على بن السبكى [2] رحمه الله، وكان القضاة والاعيان مجتمعين عنده، فلما وصل المنشد إلى قوله :

وإن ينهض الأشراف عند سماعه

إلى آخر البيت قام الشيخ فى الحال على قدميه امتثالاً لما ذكره الصرصرى، وقام الناس كلهم، وحصلت ساعة طيبة، ذكر ذلك ولده التاج السبكى [3] فى ترجمته من طبقاته.

قال أبو أمامة ابن النقاش [4] رحمه الله : وليلة مولده ﷺ أفضل من ليلة القدر من وجوه ثلاثة :

أحدها : أن ليلة المولد ليلة ظهوره ﷺ، وليلة القدر معطاة له، وما شرف بظهور ذات المشرف من أجله أشرف مما شرف بسبب ما أعطيه، ولا نزاع فى ذلك، فكانت ليلة المولد بهذا الاعتبار أفضل.

---

(١) يحيى بن يوسف بن يحيى الأنصارى (١١٩٢ ـ ١٢٥٨م) شاعر وفقيه وناظم للسيرة النبوية من «صرصر» ـ قرب بغداد ـ استشهد عندما غزا التتار بغداد.

(٢) على بن عبد الكافى (١٢٨٤ ـ ١٣٥٥م) مصرى، ولى قضاء الشام، وهو من مبرزى فقهاء الشافعية فى عصره، وله آثار فكرية كثيرة فى الفقه والعقائد.

(٣) عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى (١٣٢٧ ـ ١٣٧٠م) مؤرخ وباحث، مصرى، تولى منصب قاضى القضاة، له مؤلفات كثيرة من أشهرها (طبقات الشافعية الكبرى).

(٤) الدكالى، محمد بن على بن عبد الواحد (١٣٢٠ ـ ١٣٦١م) مفسر وفقيه، عاش ومات بمصر، وله آثار فكرية منها تفسير للقرآن، و(شرح العمدة) و(تخريج أحاديث الرافعى).. الخ.. الخ..

الثانى: أن ليلة القدر شرفت بنزول الملائكة فيها، وليلة المولد شرفت بظهوره ﷺ فيها، ومن شرفت به ليلة المولد أفضل ممن شرفت بهم ليلة القدر، على الأصح المرتضى من تفضيل الأنبياء على الملائكة، فتكون ليلة المولد أفضل.

الثالث: أن ليلة القدر وقع التفضيل فيها على أمة محمد ﷺ، وليلة المولد الشريف وقع التفضيل فيها على سائر الموجودات، فهو الذى بعثه الله رحمة للعالمين، فعمت به النعمة على جميع الخلائق، فكانت ليلة المولد أعم نفعًا، فكانت أفضل، كذا قيل.

وقوله فى الوجه الأول: ولا نزاع فى ذلك، يوهم أن ما ذكر قاعدة متفق عليها، قال أستاذنا: ولا أعلم من قالها، ويمكن دفع الفساد عنها بأن المراد ما كان شرفه لإعطائه، أعنى فقط، فلا يرد القرآن والنبوة والإيمان والإسلام مثلاً، لأن شرفها لذاتها لا لإعطائها فقط، والمراد ما كانت جهة شرفه محصورة فى الإعطاء.

وقوله فى الوجه الثالث: وقع التفضيل فيها على سائر الموجودات، أى فساوتها وزادت عليها، والأزيد بالتفضيل فيه أزيد فضلاً من غيره، وقد يقال إن المراد أمة الدعوة لا أمة الإجابة، وغير المكلفين لا نظر إليهم لا إعطاء ولا منعا، لتعذر ظهور الثمرة فيهم.

واعلم أن المراد على ليلة المولد خصوص تلك الليلة مع خصوص ليلة القدر التى نزل فيها القرآن، وأما النظائر فينبغى أن تكون [1] نظائر ليلة القدر أفضل من نظائر ليلة الولادة من جميع الأعوام. ويبقى النظر فى ليلة الولادة وليلة الإسراء، وينبغى على القول بأن ليلة القدر أفضل منها أن تكون ليلة المولد[2] أفضل منها، وانظر على

(١) غير موجودة فى الأصل.

(٢) يكفى فى تفضيل ليلة المولد على ليلة الإسراء أنه لم تقع مفاضلة بينها وبين ليلة الإسراء، وإنما وقع التفضيل بين ليلة الإسراء وليلة القدر، وبين ليلة المولد وليلة القدر، حتى لو قيل بتفضيل ليلة الإسراء على ليلة القدر لا ينتج منه فضل ليلة الإسراء على ليلة الولادة، وسيأتى فى كلامه ما يؤيد ذلك فى الكلام على تفضيل الليل على النهار، وسيأتى أيضًا فى كلام الشيخ الرحمانى ما يؤيده. (الطهطاوى).

القول بأنها أفضل من ليلة القدر وحَرِّرهُ، فإنى لا أعلم من سبقنى إلى هذا المبحث بالخوض والتحرير.

ثم ههنا تنبيه، وهو أنهم لم يتكلموا على ليلة حمله ﷺ، بحسب المفاضلة، مع أنها أول زمان ظهوره الخارجى، وتنبيه آخر: وهو أنهم لم يخصوا ذلك باللحظة التى خرج فيها من الرحم، مع أنه ينبغى أن يقصر عليها، لأنها لحظة الظهور، وباقى الليلة خال عنه، حكمه حكم باقى أيام وجوده. وأما ليلة القدر فجميعها ظرف لنزول القرآن وقسم الأرزاق، ونزول الملائكة، ومحق الذنوب، وإعطاء المطلوب. وانظر على القول بأنه ولد نهاراً وينبغى أن تلك اللحظة أو جميع اليوم أفضل من ليلة القدر ومن يوم ليلة القدر، وإن كان العمل فى يومها كالعمل فى ليلتها، فإن قلت فما معنى أفضليته فى نفسه والزمان لا يفضل بعضه على بعض، فقد قال إمام العلماء العز بن عبد السلام: «إن الأزمنة والأمكنة كلها متساوية ويفضلان بما يقع فيهما لا بصفات قائمة بهما، ويرجع تفضيلهما إلى ما ينيل الله العباد فيهما، وإن التفضيل الذى فيهما أن الله يجود على عباده بتفضيل أجر العاملين فيهما». قلت: بل الأزمنة والأمكنة يفضل بعضها على بعض بتفضيل الله تعالى، ولا مانع أن يخص الله تعالى بعض مخلوقاته من زمان أو مكان بفضل ليس فى الآخر، كما خص الله بعض الآدميين والملائكة. وقال الإمام تقى الدين السبكى، عقب حكايته لكلام ابن عبد السلام: وأنا أقول: قد يكون التفضيل لذلك، وقد يكون لأمر آخر فيهما وإن لم يكن عملا، فإن القبر الشريف ينزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة وله عند الله من المحبة ولساكنه ما تقصر العقول عن إدراكه، وليس ذلك لمكان غيره، فكيف لا يكون أفضل الأمكنة وليس محل عمل لنا، فهذا معنى غير تضعيف الأعمال فيه. انتهى.

ولكن تفضيل الزمان والمكان إنما يظهر أثره غالبًا باعتبار ما يقع فيه، ذكره النجم الغيطى فى بعض تعاليقه. انتهى.

قال الشيخ الرحمانى فى حاشيته على (التحرير): أفضل الليالى ليلة المولد، ثم ليلة الإسراء، فعرفة، فالجمعة، فنصف شعبان، فالعيد، وأفضل الأيام يوم عرفة، ثم يوم نصف شعبان، ثم الجمعة، والليل أفضل من النهار.

وعلى ذكر المولد الشريف فقد ذكر الإمام العلامة عبد العزيز الزمزمى فى همزيته المفتوحة التى عارض بها همزية البوصيرى [1] المضمومة التى أولها:

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماء

وهمزية القيراطى [2] المكسورة التى أولها:

ذكر الملتقى على الصفراء ... فبكاه بدمعة حمراء

المولد الشريف فناسب أن نذكر من هذه القصيدة طرفًا قال فى المطلع:

أثغور منها الصباح أضاء ... أم بروق على النقا تتراء

إلى أن قال:

يوم ميلاده وليلة مسرا ... ازدهى الليل والنهار ازدهاء

وسما القدر منهما بفخار ... طبق الأرض سؤددا والسماء

ملئت مكة سرورا ولم لا ... يملأ البشر قطرها سراء

وهى أرض بها الولادة والمو ... لود فيها منها ابتدا الإسراء

كان ترداده ومرباه فيها ... فجلا نور شمسه البطحاء

وعلا الأنس والوقار جبالا ... راسيات بها خصوصا حراء

كان مبدا ظهوره من حراء ... حين أنهى الخلو فيه خفاء

شق صدر له هناك وشق البـ ... ـدر فالشرط كان ثم جزاء

أرضعته حليمة بلباها ... فغدا الحلم وصفها والحياء

---

(١) محمد بن سعيد الصنهاجي (١٢١٢ ـ ١٢٩٦م) شاعر مصرى. اشتهر بقصيدته (البردة)، وينسب إلى «بوصير» من أعمال محافظة بنى سويف بصعيد مصر.

(٢) إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر (١٣٢٦ ـ ١٣٧٩م) شاعر مصرى، اشتغل بالفقه والأدب، وخلف ديوان شعر أسماه (مطلع النيرين) ومجموعات فى الأدب أسماه (الوشاح المفصل). ولقد جاور بمكة أخريات حياته ومات بها.

وعلا جدها وأسعد سعدا إذ سقت بنته النبى الغذاء

فتعجب لجدها ولها كيف حكى الوصف منهما الأسماء

تتعاطى رضاعه وهو فى كل قليل ينمو بذاك نماء

حاويًا من جزالة البدو ما حـ ـير مبداه عربها العرباء

فبنى قوله على حسن وضع رفع اللفظ رتبة علياء

أفصح الناطقين بالضاد لما أن يجارى من نطقها الفصحاء

إلى أن قال:

جاء فى محكم الكتاب مديح بالغ فيه أخرس البلغاء

حسدته أهل الكتابين من فا تحة الأمر فامتلت شحناء [1]

بقرت عن جحوده من ساد قدما آل عمران قومهم والنساء

فغدت بالضلال مائدة الر أس تحاكى أنعامهم والشاء

أنكرته أعرافهم فأباح السـ ـيف أنفالهم له والدماء

منه نلنا براءة من لظى النا ر بها يونس الغريق النجاء

شيبته هود ويوسف تحكيـ ـه مع الشيب منظرًا وبهاء

خفق الرعد فى قلوب الأعادى فرقًا منه فانثنوا أصدقاء

أظهر المصطفى إلى دين إبرا هيم فى الحجر والمقام الدعاء

إن يلاقى أذى فللنحل لسع لم يضر من أراد منه اجتناء

همّ قوم به فسبحان مولى صرف السوء عنه والفحشاء

لم يخف قط إذ أوينا إليه نعم كهفًا منه لنا وإواء

---

(١) يذكر الناظم فى الأبيات الآتية أسماء سور القرآن حسب ورودها مرتبة فى المصحف.

إن تسد مريم بعيسى فطه ... ساد عيسى والرسل والأنبياء

شرع الحج فاجتلى المؤمنون النـ ... ـور إذ تم نورهم والضياء

قام يتلو الفرقان فى حسن نظم ... جمعه اللفظ حير الشعراء

نطق النمل مفصحا عن معانى ... قصص فيه أسكت الخطباء

قصد المصطفى العدا فكسته ... نسجها العنكبوت منهم وقاء

غلب الروم فارسا مثل ما قا ... ل وحاشاه أن يقول الخطاء

حكم تاه فهم لقمان عنها ... عندما فات سرها الحكماء

أوجب الشكر سجدة فى المصلى ... حين سيل الأحزاب صار جفاء

صيرتهم أيدى سبا نفخة من ... فاطر العالمين جل ثناء

حاط يس بالملائكة الصا ... فات ممن أراده الأسواء

صادهم نصره وأهلك منهم ... زمرًا أظهروا له البغضاء

أفسدت ذات بينهم حيلة المؤ ... من فيهم فخالفوا الحلفاء

أجمل المخبر القضية لكن ... فصلت حين أظهروا الأنباء

حيلة بينت من الليل شورى ... زادها زخرف الحديث انطلاء

أضمرت نارها بغير دخان ... زعزع تملأ المعى أقذاء

أكفأت فى القدور جاثية الأحقـ ... ـاف ريح تكافئ الأكفاء

فكفاه القتال رب البرايا ... ثم بالفتح بعد ذلك جاء

ليت شعرى أرى له حجرات ... خلفها حَرّم الإله النداء

كل قاف سبيله ليس يخشى ... ذاريات الضلال والأهواء

طور مرقاه قاب قوسين يهوى ... دون النجم لو أراد ارتقاء

طاعة فى السمالة القمر انشـ ... ـق لنصفين ثم عاد سواء

قـد حـبـاه الرحـمـن فى هذه الوا   قـعـة السـؤال منـه والإرضـاء
بالحـديد اقـتـضـت مـجادلة القـو   ل لـه أن يجـالد الأعـداء
احكم الرعب حشرهم فى حصون   حكم الامـتـحـان فـيـه الجـلاء
يقـدم الـصف إن أتـى الرجـف   والجـمـعـة ثيـتـا أعظم به إيتـاء
خـادعـتـه المنافـقـون فـصـاروا   فى نهـار التـغـابن الأشـقـيـاء
حـين بت الـطـلاق مـن زهرة الـد   نيـا بتـحـريمها استـتم التـقـاء
مـا ارتضى الملك بـل تواضع حـتى   خـال ذا النـون قـد حكاه اعـتـلاء
ترفـع الحـاقـة المعـارج إذ نو   ح يـنادى نـفس ويـغـدو بـراء
آمـن الجـن بالـنـبـى وألقـوا   الاسـتـمـاع المزمل الإصـغـاء
سـوف يأتـى مـدثرا بالمزايا   وتميـز القـيـامـة الإيـتـاء
نال هـذا الإنسـان كـل كـمـال   نشـرت مـرسـلاته الآلاء
نبـأ جـاءه عظـيم رمى الأعـد   اء فى النـازعـات والبـغـضـاء
عـبس المقـتـفى العـمى منه لما   كـورّت شـمـس نوره إطفـاء
كـبـتت عـصـبـة النفـاق به وانفطـ   ـرت وانتـكـت أشـدّ انـتـكـاء
طفـفـوا كـيـلهم له فـغـد الويـ   ـل غـدا للمـطفـفـين جـزاء
فـزعـوا لانشـقـاق إيوان كـسـرى   والبـروج التـى أشـيـدت بـنـاء
اسـتـعـذ بالـنبى من طارق الـليـ   ـل وسـبـح لربـك الأسـمـاء
هديـه كم أزال غـاشـيـة عن   ذى ضـلال والفجـر يجلو الغشـاء
كـسـيـت منه هـذه البلـد الأنوا   ر والشـمـس توضح البطحـاء
للـحـبـيـب الإله بالـليـل آلى   والضـحـى مـا نوى له بغـضـاء
رفـع الله ذكـره فى ألـم نشـ   ـرح وأعلـى به مـكان حـراء

فـتـمـنـى منالـه جـبـل الـتين … وطـور الكـلـيم مـن سـيـنـاء

عـلق مـنـه يـرفع الـقـد ممن … لم يكـن قط يعـرف اسـتـعـلاء

زلزلـت من خـيـولـه الأرض لما … مـيلت عـادياتـهـا الأرجـاء

كم بدت مـن سطاة قـارعـة فى … من حـبـاه التكاثر الالـهـاء

طيب العـصـر ذكـره والـعـدا كم … همـزة بـاغـتـيـابهـم مـشـاء

ردت الطـيـر عن أقـاربه الـفـ … ـيل وجـيـشـا لـه يسـد الفـضـاء

أودع اللـه سـره فـى قـريش … فـرعـوا سـره فـصـان وعـاء

أرأيت الذى يـكذب فى تفـضـيـ … ـلـهم كـيف أعظم الافـتـراء

كـوثـر المصطفى غـدا وردهم إذ … يصـدر الكافـرون عنه ظمـاء

جـاءه الـنصـر والفـتـوح فـتـبـت … يد مـن عـاندت يـداه القـضـاء

نور إخـلاصـنا بخـيـر الـبـرايا … فلق الصـبـح من سنـاه أضـاء

بك صـرنـا يا خـاتم الرسل لـلمـر … سل علـى الناس بالأدا شـهـداء

إلى أن قال:

فـاز بـالرفع مـفلق لـك وشى … كـيف ترقى وأفـحم الشـعـراء [1]

وبخـفض الجناب جـوزى منشى … ذكـر الملـتـقى جـزاء وفـاء [2]

جـئت مـن بعـد ذا وذا أخـيـرا … فلهـذا نظـمى على الفـتح جـاء

ركـضـت حلبـة السـبـاق فكانا … سـابقـيـهـا وخلـفـا الأكـفـاء

لهـمـا تاليـا أتيـت وإن لم … أك ممـن يرى لـذاك كـفـاء

وبفكرى فى بحـر شعـرهما غـصـ … ـت وإن كـان الغوص ليس سـواء

---

(١) الإشارة إلى همزية البوصيرى المرفوعة، وأولها: كيف ترقى..

(٢) الإشارة إلى همزية القيراطى المكسورة، وأولها: ذكر الملتقى..

بهما قد شرفت إذ صرت اسما ... ثالث اثنين أعجزا النظراء

أمنا أن يعززا منذ حين ... بمثيل تفردا واعتلاء

فهما النيِّران ما خال طرف ... لهما ثالثا يحل السماء

بعد دلويهما رميت بدلوى ... عل لى حمأة تجيء وماء

وبزعمى زاحمت هذين أبغي ... بهما اليمن لا الريا والمراء

سعدا فارتجيت أسعد لما ... سرت فى الإثر أقتفى السعداء

حركات الهجاء عكس لسعدى ... فغدا الفتح مبتداها انتهاء

فلعلى أجاز منك بفتح ... حين أنهى الإنشاد والإنشاء

فأنلنى مناى واشمل قريضى ... بقبول يكسو القريض السناء

واجزنى على الصراط إذا ما ... صاح هول الجواز أن لانجاء

يا ملاذى إذا الموازين رازت [1] ... عملى وهو لا يوازى الهباء

يا عياذى إذا تطايرت الصحف ... يمينا ويسرة ووراء

وبدت لى يوم الحساب أمور ... ضل عنى حسابها وتنباء

وتلوت قوائمى عندما الأو ... صال صارت من رعدتى أشلاء

يا أمانى من خيفتى هدر وعى ... أن روعى أغرى بها العُرَواء [2]

يا غبائى إذا دنا لهب الشمـ ... ـس وأذكى لعابها الرمضاء

أنت لى جُنّت هناك ودرع ... سابغ نتقى به اللأواء

يا عزيز الجناب دعوة عبد ... لك فى الرق يستحق الولاء

كيف عبد العزيز عبدك يلقى ... ذلة أو إضاقة أوشقاء

---

(١) رازت الموازين : أى وزنت .

(٢) العرواء : مس الحمى فى أول رعدتها .

أو يخاف الظما غدا وهو منسـ ـوب لسقيا أبيك نعمت سقاء

إنه قارف الذنوب وأخطا وبك الله عنه يمحو الخطاء

فيك ظني أن لا تخيب ظني وبهذا اكتفيت نعم اكتفاء

فسلام عليك ثم صلاة بقضاء الفروض قامت أداء

وسلام عليك ثم صلاة تمنح النفس من رضاك الرضاء

وعلى آلك الذين ولاهُم (١) من يد الكرب ينقذ الأولياء

عدتي عند شدتي وملاذي عندما ترسل الخطوب البلاء

عقد ديني ودادهم وهواهم منه قلبي امتلا أتم امتلاء

هم إلى جودك الوسيلة إن ردّ تي الذنب دونه إقصاء

وعلى صحبك الجميع خصوصًا من حوى السبق وابتدا الخلفاء

الذي جيش الجيوش وقوى عزمه يوم أمَّر الأمراء

الصديق الصديق أفضل من آ من بالله ما عدا الأنبياء

ثم من بعده على مقتفيه سننا ينتهي إليك انتماء

ترجمان المحدثين فكم فا ه بكشف فوافق الإيحاء

ثم من طال في بناء المعالي عندما شاد بابنتيك البناء

الحيي الذي استحت منه أملا ك السما مذ سما وزاد حياء

وعلى المرتضى وليك وابن العم من حاز بالخصوص الإخاء

خير صهر وعاصب زوجته خيرة الله بنتك الزهراء

أصل ريحانتيك بورك أصلاً طاب فرعاه مغرسًا ونماء

أي سبطين قد علا بك جدا لهما طيب النماء والزكاء

---

(١) أي ولاءهم.

خيـر نجلين ينميان لأم أنجبت من كليهما الشرفاء

سادت الأم فى الجنان وسادا فأعزوا شبانها والنساء

وسلام عليك ثم عليهم وعلى كل من تسجى الكساء

وعلى عمك الذى طيب الله بأنفاس روحه الشهداء

وعلى صنوه الذى بك أبقى لبنيه الخلافة القعساء

وسلام عليك ثم على أز واجك اللاء نلن منك الحياء

وسلام عليك ثم صلاة بشذا المسك يختمان الثناء

ما ابتدا مدحك امرؤ عند كرب فانجلى حين وافق الانتهاء

ولما بلغ ﷺ اثنى عشرة سنة عرض لأبى طالب شخوص إلى الشام فى تجارة، وكان النبى ﷺ يألفه، فسأله إخراجه معه فأبى عليه صيانة له، فاغتم وبكى، فأخرجه، فرآه راهب من الأحبار يقال له «بحيرا»، وقد أظلته غمامة، فقال لأبى طالب: من هذا منك: قال: ابن أخى، قال: أما ترى هذه الغمامة كيف تظله، وتنتقل معه؟ والله إنه لنبى كريم، وإنى لأحسبه الذى بشر به عيسى عليه السلام، فإن زمانه قد قرب وينبغى أن تتحفظ به خشية أن تقتله اليهود. فرده أبو طالب إلى مكة.

ولما جاوز سنور رسول الله ﷺ العشرين قال له أبو طالب: يا ابن أخى، إن خديجة بنت خويلد امرأة موسرة ذات تجارة عريضة، وهى محتاجة إلى مثلك فى أمانتك وطهارتك ووفائك، فلو كلمناها فيك فوكلتك ببعض أمرها وتجارتها؟ فقال رسول الله ﷺ: إفعل يا عم ما رأيت، فسعى أبو طالب إليها فكلمها فى توكيل النبى ﷺ ببعض تجارتها، فسارعت إلى ذلك، ورغبت فيه، ووجهته إلى الشام ومعه غلام لها قيّم يقال له ميسرة، فلما فرغ مما توجه إليه وقدم مكة أخبرها ميسرة بأمانته وطهارته ويمن طائره، وما يقول أهل الكتاب فيه، وما ظهر له من البركة وكثرة الأرباح وسهولة الأمور، وكانت خديجة امرأة حازمة عاقلة بَرْزَة [1]، مرغوبًا فيها لشرفها ويسارها، فدست إلى رسول الله ﷺ من عرض عليه أن يتزوجها، فرغب فى ذلك.

---

(١) أى فائقة لأقرانها..

الفصل الثالث

(فى زواجه بخديجة بنت خويلد، رضى الله تعالى عنها، وما رزقه الله من الذرية منها)

ولما كانت خديجة رضى الله تعالى عنها رئيسة شريفة، وهى يومئذ من أزكى قريش نسبًا وأعظمهم شرفًا، وأكثر مالاً، كان كل من قومها حريصًا على الزواج بها لو يقدر عليه، إلا أنها اجتمعت به ﷺ وقالت له: يا ابن العم، إنى قد رغبت فيك لقرابتى منك، وشرفك فى قومك، وأمانتك فيهم، وحسن خلقك، وصدق حديثك، فاخطبنى من عمى عمرو بن أسد، وكان شيخًا كبيرًا، فذكر ﷺ ذلك لأعمامه، فخرج معه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على عمرو بن أسد فخطبها إليه فقبل، فأمرت بشاة فذبحت، واتخذت طعامًا، ودعت عمها عمرا، وبعثت إلى رسول الله ﷺ فأتى ومعه حمزة بن عبد المطلب وأبو طالب ورؤساء مضر فأكلوا، فخطب أبو طالب فقال: «الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء[1] مَعَدّ وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وشوكة حرمه، وجعل لنا بيتًا محفوظًا وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح، وإن كان فى المال قلّ فالمال ظل زائل وأمر حائل، ومحمد ممن قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله كذا من مالى، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم». فتزوجها رسول الله ﷺ.

---

(١) أى أصل. [الطهطاوى].

وقال فى [المنتقى] فلما أتم أبو طالب خطبته تكلم ورقة بن نوفل فقال: «الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا علىّ معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار. ثم سكت ورقة وتكلم أبو طالب وقال: «قد أحببت أن يشركك عمها». فقال عمها: «اشهدوا علىّ يا معشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد». وشهد على ذلك صناديد قريش، وقال فى [السمط الثمين] وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بَكرة، ويمكن الجمع بتقويم الثمن بذلك أو أن أحد الشيئين[1] مهر والآخر هدية من عمه لخديجة رضى الله تعالى عنها. أو أنه ﷺ زاد ذلك فى صداقها على صداق أبى طالب فكان الكل صداقا. انتهى.

وهذه الخطب بهذه المثابة تدل على أن قريشًا فى ذلك الزمن كانت على حظ وافر من التأنس، ولها نصيب جسيم من المهابة.

ولما تزوج خديجة رسول الله ﷺ نحر جزورًا أو جزورين وأطعم الناس، وهى أول وليمة أولمها ﷺ، وقال فى [المنتقى]: فأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن بالدفوف، وعاشت خديجة بعد النكاح أربعا وعشرين سنة وخمسة أشهر وثمانية أيام، خمس عشرة سنة قبل الوحى والباقية بعده، وكانت وفاتها فى السنة العاشرة من النبوة، وكان تزوجه بها بعد قدومه من الشام بشهرين وأيام، وكان سنه ﷺ يومئذ نحو خمس وعشرين سنة، وسنها أربعون سنة، فكان زواجها بأشرف العرب على الإطلاق زواج كفاءة حليلة وحسن تراض ووفاق، وولدت له ﷺ، وبقى الخلف منهما ما تكون منه المجد فى الآفاق.

ولما تزوج الرسول ﷺ خديجة بنت خويلد بنت أسد بن عبد العزى ابن قصى، قبل الإسلام، ولدت منه القاسم ابن رسول الله ﷺ، وبه كان يكنى، وقد مشى

---

(١) فى الأصل: شيئين، بدون أداة التعريف.

وهو ابن سنتين، وهل يجوز أن يكنى غيره ﷺ بأبي القاسم أولا؟ خلاف، وإليه أشار بعضهم بقوله:

فى كنية بقاسم خُلفٌ وقع ... فالشافعى مطلقًا لها منع

ومالك جَوَّز والنهى حمل ... على الحياة، والنواوى جعل

هذا هو الأقرب أما الرافعى ... يمنع من سُمِّى محمدًا فعى

وقد روى الشيخان عن أنس رضى الله عنه: كان رسول الله ﷺ يمشى بالبقيع فسمع قائلا يقول: يا أبا القاسم، فرد رأسه إليه، فقال الرجل: يا رسول الله، إنى لم أعنك، إنما دعوت فلانا، فقال رسول الله ﷺ: «تسموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى، فإنى جعلت قاسمًا أقسم بينكم»، ويكنى أيضًا بأبى إبراهيم وأبى الأرامل، ذكره ابن دحية، وأبى المؤمنين، من قراءة أبى بن كعب: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**﴾ (الأحزاب: ٦) وهو أب لهم.

وولدت له أيضًا زينب، وهى أكبر بناته ﷺ، تزوجها أبو العاص بن الربيع، واسمه لقيط بن الربيع، وهو ابن خالتها، وأمه هالة بنت خويلد بن أسد، وكان تزويجها إياها قبل الإسلام، فلما أكرم الله رسوله ﷺ بالرسالة أسلمت [١] خديجة، كما سيأتى، وبناته، وصدقته زينب، وثبت أبو العاص على دين قريش، وكان من معدودى قريش ورجال مكة مالا [٢] وأمانة وتجارة، فمشت إليه وجوه قريش فقالوا: اردد على محمد بنته ونحن نزوجك أية امرأة أحببت من قريش، فقال: لا والله، إذا لا أفارق صاحبتى فإنها خير صاحبة، وكانت هاجرت قبله وتركته على شركه، وقد أسلم أبو العاص بعد أمور طويلة فرد رسول الله ﷺ زينب عليه بنكاح جديد، ويقال بل ردها بالنكاح الأول بعد سنتين، وقيل قبل انقضاء العدة، وكان ذلك فى المحرم سنة سبع من الهجرة.

ولما أسلم أبو العاص أتى مكة ثم رجع إلى المدينة فكان بها، فلما فتحت مكة

---

(١) فى الأصل: هاجرت.

(٢) فى الأصل: إلا.

أقام بها، ولم يقاتل مع النبى ﷺ، وتوفى سنة اثنتى عشرة، وأوصى إلى الزبير بن العوام، وهو ابن خاله. وكان لأبى العاص بن الربيع من زينب على وأمامة، فأما على فمات وهو غلام ولم يعقب، وأما أمامة فتزوجها على بن أبى طالب بعد وفاة فاطمة رضى الله تعالى عنها فولدت له محمد بن الحنفية، وقتل على رضى الله عنه وهى عنده فحملها ابن عمها عبد الرحمن بن محمد إلى المدينة، وكتب معاوية رضى الله عنه إلى مروان بن الحكم يأمره أن يخطبها عليه ففعل، فجعلت أمرها إلى المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وهو الذى كان الحسن بن على استخلفه على الكوفة حين سار إلى المدائن، فأشهد المغيرة عليها برضاها بكل ما يصنع، فلما استوثق منها قال: قد تزوجتها وأصدقتها أربعمائة دينار، فكتب مروان بذلك إلى معاوية فكتب إليه: هى أملك بنفسها فدعها وما اختارت، ثم إنه بعد ذلك سير المغيرة إلى الصفراء فمات وماتت بالصفراء، وولدت للمغيرة ولدًا اسمه يحيى، كان يكنى به، ولم يعقب، وتوفيت زينب بنت رسول الله ﷺ سنة ثمان من الهجرة بالمدينة، وصلى عليها رسول الله ﷺ، ونزل فى قبرها ومعه أبو العاص، وجعل لها نعشًا، فكانت أول من اتخذ لها النعش، والتى أشارت باتخاذه أسماء بنت عيسى، رأته بالحبشة وهى مع زوجها جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه.

وولدت خديجة لرسول الله ﷺ رقية، وهى أكبر بناته بعد زينب، تزوجها عتبة ابن أبى لهب، فلما نزلت (تبت يدا أبى لهب) قالت أمه أم جميل، حمالة الحطب: هجانا محمد، وعزمت على ابنها عتبة أن يطلق رقية، وعزم عليه أبوه أيضًا، ففعل، فزوجها رسول الله ﷺ من عثمان بن عفان بمكة فولدت له بأرض الحبشة عبد الله، وبه كان يكنى، مات عبد الله سنة أربع فى جمادى الأولى وهو ابن ست سنين، نقر عينه ديك فورم وجهه فمرض من ذلك ومات، وصلى عليه النبى ﷺ، وقبره أبوه، ولما مات عبد الله بن عثمان وضعه رسول الله ﷺ فى حجره ودمعت عليه عيناه وقال: إنما يرحم الله من عباده الرحماء. وتوفيت رقية فى أيام بدر وهى عند عثمان، ودفنت بالبقيع، وصلى عليها عثمان، وغسلتها أم أيمن،

ولم يحضرها رسول الله ﷺ لكونه كان غائبًا ببدر، ولما عزي بها قال: الحمد لله، دفن البنات من المكرمات.

وولدت خديجة رضي الله تعالى عنها لرسول[1] الله ﷺ أم كلثوم، ولا يعرف لها اسم وإنما تعرف بكنيتها، تزوجها عتيبة بن أبي لهب، فلما نزلت (تبت يدا أبي لهب) أمر ابنه بفراقها ففعل، فلما توفيت رقية زَوَّج رسول الله ﷺ أم كلثوم من عثمان أيضًا فلم تزل عنده حتى توفيت في سنة تسع، وصلى عليها أبوها ﷺ، ولم تلد من عثمان، فبكا عثمان فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك؟» قال: انقطاع صهري منك يا رسول الله، فقال: «كلا إنه لا يقطع الصهر الموت، إنما يقطعه الطلاق، ولو كانت عندنا ثالثة لزوجناك».

وولدت خديجة لرسول الله ﷺ فاطمة، وهي أصغر بناته، وولدت قبل النبوة بخمس سنين أيام بناء البيت، وتوفيت بعده عليه السلام بستة أشهر، وتلقب بالبتول، من البتل وهو القطع لانقطاعها عن نساء الأمة فضلاً ودينًا وحسبًا ونسبًا، وتلقب أيضًا بالزهراء، وسماها رسول الله ﷺ فاطمة بإلهام من الله تعالى لأن الله تعالى فطمها وذريتها من النار، وكانت أحب أولاده ﷺ، فكانت إذا دخلت عليه ﷺ قام لها إجلالا، والأحاديث في فضلها كثيرة، ولما بلغت خمسة عشرة سنة تزوجها علي بن أبي طالب بالمدينة فولدت له الحسن والحسين، رضي الله عنهما، ومحسن درج [2] صغيراً، وولدت له من البنات زينب وأم كلثوم ورقية، وسيأتي الكلام عليهن.

وقد اختص ولداها السبطان بمزايا لا توجد في غيرهم، فنسبوا إليه ﷺ خصوصية لهم، فلم تكن الأشرفية المطلقة إلا لعقب الحسنين فقط لاختصاص ذريتهما بشرف النسب، وقد انقرض نسبه ﷺ إلا من فاطمة رضي الله عنهما، طاب أصلها أما وأبًا، وانتشر نسبه الشريف منها من جهةالسبطين، ويقال لأولهما حسني وللثاني حسيني، وانعقد الإجماع بأن المراد بآل البيت في الآية الشريفة على وفاطمة والحسن والحسين وذريتهما، وهم أهل العباءة، وعن عائشة رضي الله

---

(١) في الأصل: رسول.

(٢) درج، أي مات ولم يعقب ولدا.

تعالى عنها خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه مرط [1] مرجل من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله ثم فاطمة ثم على ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣) وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، ثم قال: أنا حرب لمن[2] حاربهم وسلم لمن سالمهم وعدو لمن عاداهم، وهذه الآية دلت على منبع فضائل أهل البيت النبوى لاشتمالها على غرر من مآثرهم والاعتناء بشأنهم حيث ابتدئت بإنما المفيدة لحصر إرادته تعالى فى إذهاب الرجس، أى الإثم، عنهم وتطهيرهم من سائر الأخلاق والأحوال المذمومة، وتحرميهم على النار، الذى هو فائدة ذلك التطهير وغايته إذ منه الإلهام والإنابة إلى الله وإدامة الأعمال الصالحة، ومن ثم لما ذهبت عنهم الخلافة الظاهرة، لكونها صارت ملكًا عضوضًا، ولم تتم للحسن، عوضوا عنها الخلافة الباطنة، وهى القطبية، فلم يكن قطب إلا منهم فى كل زمان، وهو المختار خلافًا للمرسى[3]، ومن تطهيرهم أيضًا تحريم الصدقة عليهم فرضًا بالإجماع ونفلاً على قول للإمام مالك، لأنها أوساخ الناس، مع أنها تنبئ عن ذل الآخذ وعز المأخوذ منه، وعوضوا عنها خمس الخمس من الفيء والغنيمة المنبئ عن عز الآخذ وذل المأخوذ منه، فاختصوا بمشاركته ﷺ فى تحريم الصدقات، ولما أخذ الحسن بن على رضى الله عنهما تمرة من تمر الصدقة ووضعها فى فيه قال له النبى ﷺ: «كخ كخ إرم بها، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة؟» وفى رواية: «إن آل محمد لا يأكلون الصدقة». وحكمة ختم الآية به المبالغة فى

---

(١) المرط - بالكسر - كساء من صوف أوخز، والجمع مروط، وربما أطلق على ما نسج من الشعر، قال بعضهم: وهو خاص بالإزار والخمار. [الطهطاوى].

(٢) فى الأصل: إن.

(٣) المرسى، نسبة إلى مرسية ببلاد الأندلس.. وليس واضحًا من هو «المرسى» الذى يشير إليه المؤلف، فهناك:

- المرسى: محمد بن جعفر (١١١٩ - ١١٩٠م) وهو عالم بالعربية والقراءات..

- والمرسى: الحسن بن عضد الدولة (ابن هود) (١٢٣٥-١٢٩٩م) الفيلسوف المتصوف المؤمن بوحدة الوجود..

- والمرسى: محمد بن عبد الله (١١٧٤-١٢٥٧م) العالم بالأدب والحديث والتفسير.. والمرسى: أحمد بن عمر، أبو العباس (المتوفى بالإسكندرية سنة ١٢٨٧م) صاحب المزار الشهير هناك.

وصولهم لأعلاه، ودلت هذه الآية أيضًا على نبوته ﷺ وعلى فضل أهل الكساء رضى الله تعالى عنهم، وقد قيل فى ذلك:

إن النبى محمدًا ووصيه ... وابنيه وابنته البتول الطاهرة

أهل العباءة إننى بولائهم ... أرجو السلامة والنجا فى الآخرة

وقال غيره:

هم القوم من أصفاهم الود مخلصًا ... تمسك فى أخراه بالسبب الأقوى

هم القوم فاقوا العالمين مناقبًا ... محاسنها تحكى وآياتها تروى

موالاتهم فرض وحبهم هدى ... وطاعتهم حزم وودهم تقوى

فلا خفاء أن من انتسب إلى رسول الله ﷺ بأم أو أب ففيه سريان لحمه ودمه الكريمين، فالمنتمى إليه هو بعضه فى وجوب الإجلال والتعظيم والتعزيز والتوقير والبر والنصيحة، فبعضه ﷺ كجميعه كما قيل فى مدح شريف:

هو بعض النبى والله قد صا ... غ جميع النبى والبعض طهرا

وتوضيح ذلك أن فاطمة رضى الله عنها بضعته ﷺ، وأولادها بضعة منها، فهم بضعة من تلك البضعة فيكونون بعضه بواسطة تلك البضعة، وهكذا بنوهم وبنو بنيهم وهلم جرا، فكل من يوجد منهم فى كل زمان بضعة منه بالواسطة، فأقيم وجودهم مقام وجوده ﷺ، وفى هذا من مزيد الكرامة والتشريف ما لا يخفى، وحرمته ﷺ ميتا كحرمته حيا، وقد قال تعالى: ﴿**قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾ (الشورى: ٢٣) أى أن تودوا قرابتى، ويطلق أهل البيت إطلاقًا آخر على كل حسنى وحسينى وعلوى من ذرية محمد بن الحنفية أو غيره من أولاد على بن أبى طالب أو جعفر أو عقيلى أو عباس، فيطلق عليه اسم الشريف، ولذلك تجد تاريخ الحافظ الذهبى [1] مشحونًا فى التراجم بذلك، يقول: الشريف

(١) محمد بن أحمد (١٢٧٤-١٣٤٨م) مؤرخ عربى من أصل تركمانى، ولد ومات بدمشق، ورحل إلى بلاد كثيرة، ومن مؤلفاته [تاريخ الإسلام] و[دول الإسلام] و[سير النبلاء]، و [الكاشف فى تراجم رجال الحديث].

العباسى، الشريف العقيلى، الشريف الجعفرى، الشريف الزينبى، فلما ولى الخلافة الفاطميون بمصر قصروا اسم الشريف على ذرية الحسن والحسين فقط، لكونهم علويين، فاستمر بذلك إلى الآن. قال الحافظ ابن حجر فى [كتاب الألقاب]: الشريف ببغداد لقب لكل عباسى، وبمصر لقب لكل علوى. انتهى، قال العلامة الصبان [1]: ولا شك أن المصطلح القديم أولى، وهو إطلاقه على كل علوى وجعفرى وعقيلى وعباسى، كما صنعه الذهبى وكما أشار إليه الماوردى [2]، ومثله قول ابن مالك [3] فى الألفية:

وآله المستكملين الشرفا

وقد يقال - على اصطلاح أهل مصر - الشرف أنواع: عام لجميع أهل البيت، وخاص بالذرية فيدخل فيه الزينبيون وجميع أولاد بناته، وأخص منه وهو شرف النسبة، وهذا مختص بذرية الحسن والحسين. انتهى.

وبالجملة فيجب تعظيم الجميع لأنهم جميعًا قربى وأشراف بالمصطلح العام وقد أراد بعض العلماء أن يقبل يد بعض كبار الأشراف فمنعه من ذلك فأنشده:

أتمنعنى اللثم من راحة ... نماها إلى الهاشمى الكرام

كأنى إذا أنا قبلتها ... لثمت يديه عليه السلام

وحسب أهل البيت من الكرامة قوله ﷺ «وعدنى ربى فى أهل بيتى من أقر منهم بالوحدانية ولى بالبلاغ أن لا يعذبه. ومن الآثار الواردة عن سيدنا الحسين بن على رضى الله عنهما أنه قال الزموا مودتنا أهل البيت فإن من لقى الله عز وجل وهو يودنا دخل الجنة بشفاعتنا، ولنا أبيات فى ذلك وهى:

---

(١) محمد بن على الصبان (المتوفى سنة ١٧٩٢م) مصرى، عالم بالعربية والأدب، ومؤلف فى السيرة النبوية، والمنطق، والبلاغة.. وله فى السيرة [إتحاف أهل الإسلام بما يتعلق بالمصطفى وأهل بيته الكرام] و[إسعاف الراغبين]...

(٢) على بن محمد بن حبيب (٩٧٤-١٠٥٨م) بصرى، عاش ببغداد، وتولى القضاء، وبرز فى البحث والتأليف، وكان معتزليًا، ومن أشهر آثاره [الأحكام السلطانية].

(٣) محمد بن عبد الله (١٢٠٣-١٢٧٤م) أندلسى عاش بدمشق وتوفى بها، وله - غير الألفية - عدة تصانيف لغوية.

انتمائي لكم بصفو صفاتي ... بآل بيت الزهراء أزهى صفاتي

جدكم في الوجود شمس وأنتم ... أنجم زهر غير منكسفات

أنتم بضعة النبي نشأتم ... عن صفي من بضعة مصطفاة

سيد الكونين أصلاً وفرعًا ... في شعاب على العلى مشرفات

أبطحي لولاه ما فاح من مك ... ـة عرف التعريف في عرفات

لا ولا كان أهل بدر بدورا ... يتبوأن في عليّ الغرفات

لسواكم ما رمت قط التفاتا ... وإليكم صرفت كل التفاتي

حاش الله أن أضام وأنتم ... ملجأ اللائذين كهف العفاة

ويقيني أرجو به أن يقيني ... من عظيم الأهوال والآفات

كم مجير منكم حمى مستجيرا ... وأغاث الملهوف بالمرهفات

كم لكم بالنوال دنيا وأخرى ... من أياد على الورى عاطفات

بخلوص المديح أرجو خلاصي ... من مساوي أيامي السالفات

إن نظمتم رفاعة في ولاكم ... حاز أمنا من سطوة المرجفات

فأماني من حادثات زماني ... انتمائي لكم بصفو صفاتي

ومن خصوصيات السيدة فاطمة، رضي الله تعالى عنها، أنه يحرم التزوج عليها مخافة إيذائها بالغيرة، التي هي من طبع النساء، للأحاديث الدالة على تحريم نكاح عليها حتى تأذن، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ (الأحزاب: ٥٣). وليس ذلك شاملا لجميع بناته ﷺ بل هو خاص، كما استصوبه الحافظ ابن حجر، بفاطمة الزهراء، لأنها أصيبت بأمها وأخواتها واحدة واحدة، ولم يبق لها من تستأنس به ممن يخفف عنها ألم الغيرة، وتوفيت رضي الله عنها من ثالث رمضان، ولها من العمر تسع وعشرون سنة، بعد وفاته ﷺ بستة أشهر، وصلى عليها العباس رضي الله عنه.

وولدت السيدة فاطمة، رضى الله عنها، زينب وأم كلثوم ورقية، فأما زينب فقد تزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، فولدت له عليًا وعونًا الأكبر وعباسًا ومحمدًا وأم كلثوم، وأما أم كلثوم فإنه تزوجها عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فولدت له زيدًا ورقية، ولم يعقبا، وقتل عنها، ثم تزوجها بعده ابن عمها عون بن جعفر ابن أبى طالب، فمات عنها، ثم تزوجها بعده أخوه عبد الله، فماتت عنده، ولم تلد لأحد من الثلاثة شيئًا، وتوفيت أم كلثوم وابنها زيد فى يوم واحد، وصلى عليهما عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، وأما رقية فماتت قبل البلوغ.

وولدت السيدة خديجة لرسول الله ﷺ عبد الله وهو الملقب بالطيب والطاهر، سمى بهذين الاسمين لأنه ولد بعد المبعث، وتوفى بمكة، فقال العاص بن وائل: قد انقطع ولد محمد فهو أبتر، فأنزل الله عزل وجل ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر: ٣). وانكسفت الشمس يوم موته فقالوا: كسفت لموته، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة»، وسبب ذلك إذا أراد الله أن يرى عباده آية يخوفهم بها أظهر لهم شيئًا من عظمته وسلطانه، ولما مات بكى عليه ﷺ، وقال: «البكاء من الرحمة، والصراخ من الشيطان»، وقال: «من لا يَرْحم لا يُرْحم»، ورأى ﷺ وسلم خللاً فى قبر إبراهيم فقال: «إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه».

فهؤلاء أولاده ﷺ، كلهم من خديجة الكبرى أم المؤمنين، رضى الله عنها، وأما ابنه إبراهيم فمن مارية بنت شمعون القبطية، ومات جميع أولاده ﷺ فى حياته إلا فاطمة فبعده بستة أشهر، ولم يكن له ﷺ أولاد من غيرهما، وقيل إن عائشة أسقطت سقطًا، ولم يثبت. توفى إبراهيم صغيراً مرضعًا، وكان مولده فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة بالعالية [1]، وعق عنه رسول الله ﷺ بشاة، وفى رواية بكبشين، يوم سابعه، وحلق رأسه وتصدق بزنة شعره فضة على المساكين، وأمر بشعره فدفن فى الأرض، وسماه يومئذ، ودفعه رسول الله ﷺ إلى أم بردة

(١) وهى مال من أموال بنى النضير كان لرسول الله ﷺ. [الطهطاوى].

خولة بنت المنذر، زوج البراء بن أوس أحد بنى النجار، فكانت ترضعه، والعقيقة هذه إحدى الولائم، الثانية: وليمة العرس، الثالثة: الخُرس[1]. الرابعة: الإعذار[2]، للختان، الخامسة: الوكيرة لبناء الدار، السادسة: النقيعة[3] للمسافر، وقيل إن المسافر يصنع الطعام، وقيل يصنعه له غيره، السابعة: الوضيمة[4] طعام عند المأتم، الثامنة: المأدبة[5] طعام يتخذ ضيافة بلا سبب، ونظمها العلامة بهرام المالكى رحمه الله فقال:

ثمانية أسماء أطعمة أتت ... عن العرب نقلاً لا ترى بقياس

وليمة عرس ثم إعذار خاتن ... نقيعة سفر ثم خُرس نفاس

ومأدبة فى دعوة ووكيرة ... لأجل بناء محكم بأساس

عقيقة مولود كذاك حذاقه ... إذا حذقه حاذى وُقِيْتَ من الباس

لكنه جعل الحذاق بدل الوضيعة فهى حينئذ تسعة، وزيد أيضًا الإملاك للعقد، والعتيرة ذبيحة لأول شهر رجل وعلى هذا فأسماء الأطعمة أحد عشر وذيل الشمس التتائى بالثلاثة.

وتاسعة الإملاك للعقد قد أتت ... عتيرة ذبح للأصب مواسى

وحادية للعشر فعل وضيمة ... بميت حماك الله شر أناس

وقد ورد فى حديث أنس عند البيهقى أنه ﷺ، عقيقة لم يُعِدْها النبى ﷺ ويعق عن نفسه، وأجيب عنه بأن ما فعله النبى ﷺ بعد النبوة ليس إعادة للعقيقة، وإنما هو إظهار للشكر على إيجاد الله إياه رحمة للعالمين، وتشريع لأمته، كما كان ﷺ يصلى على نفسه كذلك، والجواب المشهور أن ما فعله جده عبد المطلب من

---

(١) بضم الخاء المعجمة، ويقال بالصاد المهملة: طعام الولادة، وهى غير العقيقة. [الطهطاوى].

(٢) بكسرة الهمزة، وبالعين المهملة والذال المعجمة. [الطهطاوى].

(٣) من النقع، وهو الغبار. [الطهطاوى].

(٤) بفتح الواو وكسر الضاد المعجمة. [الطهطاوى].

(٥) بضم الدال وفتحها. [الطهطاوى].

العقيقة لم يقع عنه لأن ذلك كان قبل الشرع فلا يتعلق به حكم، والعقيقة التي فعلها ﷺ عنه بعد النبوة، على تقدير صحتها، كانت بعد الشرع، فهي المشروعة والواقعة عنه، لانه بعد ولادته لم تقع عنه عقيقة مشروعة، على أن ما ورد من أنه ﷺ عق عن نفسه بعد النبوة إنما هو حديث منكر، كما قال بعضهم، وقد نظم بعضهم عدة أولاد النبي ﷺ بقوله:

فأول ولد المصطفى القاسم الذي ... به كنية المختار فافهم وحصلا

وزينب تتلوه رقية بعدها ... وفاطمة الزهراء جاءت على الولا

كذا أم كلثوم تعدو بعدها ... في الإسلام عبد الله جاء مكملا

وكلهم كانوا أتوا من خديجة ... وقد جاء إبراهيم في طيبة تلا

وتوفيت السيدة خديجة، رضي الله عنها، في سنة عشرة من المبعث، قبل الهجرة بثلاث سنين، وبعد مضي عشر سنين من مبعثه ﷺ ودفنت بالحجون، وهي ابنة خمس وستين سنة وستة أشهر، وللنبي ﷺ عند وفاتها تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يومًا، وذلك قبل موت أبي طالب بثلاثة أيام، فعظمت المصيبة على رسول الله ﷺ بموتهما، وقال: «ما نالتني قريش بشيء أكرهه حتى مات أبو طالب»، وذلك أن قريشا وصلوا من إيذائه بعد موت أبي طالب إلى ما لم يكونوا يصلون إليه في حياته، وكان عليه الصلاة والسلام يسمى ذلك العام عام الحزن، ونزل رسول الله ﷺ في قبر السيدة خديجة، وكانت قبل رسول الله ﷺ عند أبي هالة هند بن النباش بن زرارة، فولدت له هند بن أبي هالة، سمي اسم أبيه، ثم خلف عليها بعده عتيق بن عائذ بن عبد الله، فطلقها فتزوجها النبي ﷺ، كما تقدم، كانت مسماة لورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كعب بن لؤي، وهو ابن عم خديجة، لأنها بنت خويلد بن أسد، فأثر الله عز وجل بها نبيه ﷺ، وكانت خديجة ولدت لعتيق السابق ذكره جارية فتزوجها صيفي بن أمية فولدت له محمدا، فيقال لبني محمد بن صيفي بالمدينة: بنو الطاهرة، قالت عائشة، رضي الله عنها: إني لأغار على خديجة وإن

كنت بعدها لما كنت أسمع من ذكر رسول الله ﷺ لها، ولقد سمعته يقول: «كانت خديجة خير نساء العالمين»، وقال: «إن لخديجة بيتًا في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب[1]، وإني لأعرف فضلها، رحمها الله».

قال بعض الصوفية: إن أربعة من النساء أحببن أربعًا من الأنبياء عليهم السلام فوجدن بذلك المغفرة:

أولاهن: خديجة بنت خويلد، أحبت رسول الله ﷺ، فوجدت بذلك المغفرة والقربة والإسلام والنجاة من عبادة الأصنام، وكانت أول امرأة أسلمت من نساء عصرها وبشرها جبريل بقصرها.

والثانية: آسية بنت مزاحم، أحبت موسى الكليم، فأوردها حبه جنة النعيم، وبنى الله لها بيتًا في الجنة: وأعظم لها المنة.

والثالثة: بلقيس، أحبت سليمان بن داود عليهما السلام، فكان حبها إياه سببًا لدخولها في الإسلام، وكانت تعبد الشمس من دون الخالق، حتى بانت لها الحقائق، ووصل إليها ﴿ **كِتَابٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** ﴾ (النمل: ٢٩). ولما صح عندها ما يدعو إليه سليمان من الإيمان خالفت رأى قومها الظالمين، وقالت ﴿ **رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (النمل: ٤٤).

والرابعة: زليخا، أحبت يوسف الصديق، فبانت لها أبواب التحقيق، وآل أمرها أن دعاها إلى الإسلام فأسلمت بين يديه ودخلت في حظيرة أنسه، فكان دخولها في الملة سببًا للدنو والوصلة.

وكان ﷺ محترمًا في قومه، معظمًا في عشيرته، رئيس قبيلته، وأرادوا تجديد بناء الكعبة لكونها كانت قصيرة البناء، فأرادوا رفعها وسقفها، فهدمتها قريش ثم بنوها، فلما وصلوا في البناء إلى الموضع الذي يوضع فيه الحجر الأسود اختلفوا في

---

(١) أي قصب اللؤلؤ. والصخب: الضجة واضطراب الأصوات للخصوم، ولا نصب أي لا تعب. [الطهطاوي].

وضعه، وقالت كل قبيلة: نحن أحق بوضعه، حتى هموا بالقتال، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا انقطع الخلاف بينهم برضى قريش بحكمه، وكان قد بلغ خمسًا وثلاثين سنة، وذلك أنهم اجتمعوا وتشاوروا، فقال أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان يومئذ أسن قريش: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم حكمًا فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب الحرم ليقضى بينكم، ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، هذا محمد، رضيناه، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ: «هلموا، إلىّ ثوبًا» فأتىَ به، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده، ثم قال: «لتأخذ[1] كل قبيلة بطرف من الثوبَ، ثم ارفعوه جميعًا»، ففعلوا ذلك، فلما بلغوا به موضعه وضعه النبى ﷺ بيده الشريفة، ثم بنى عليه حتى أتموا بناء الكعبة، فأرضى الكل صلوات الله عليه، وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ، قبل أن ينزل عليه الوحى: الأمين، وفى [الجامع الصغير] عن الطبرانى عن أبى رافع أن النبى ﷺ قال: «أما والله إنى لأمين فى السماء وأمين فى الأرض»، وكان بناؤها قبل الهجرة بثمان عشرة سنة، وفى قضية التحكيم قال هبيرة بن وهب المخزومى:

تشاجرت الأحياء فى فصل خطة ... جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد

تلاقوا بها بالبغض بعد مودة ... وأوقد ناراً بينهم شر موقد

فلما رأينا الأمر قد جد جده ... ولم يبق شىء غير سل المُهَنّد

رضينا وقلنا العدل ول طالع ... يجىء من البطحاء من غير موعد

ففاجأنا هذا الأمين محمد ... فقلنا رضينا بالأمين محمد

بخير قريش كلها أمس شيمة ... وفى اليوم مع ما يحدث الله فى غد

فجاء بأمر لم ير الناس مثله ... أعم وأرضى فى العواقب والبد

أخذنا بأطراف الرداء وكلنا ... له حصة من رفعها قبضة اليد

فقال ارفعوا حتى إذا ما علت به ... أكفهم وافى به غير مسند

---

(١) فى الأصل: ليأخذ.

وكل رضـينا فـعله وصنيعـه فـأعظم به من رأى هاد ومـهـتـدى

وتلـك يد منـه علينا عظيـمـة يروح بهـا هذا الزمـان ويغـتـدى

وكانت كسوة الكعبة فى زمن الجاهلية المسوح والأنطاع فإن أول من كساها الأنطاع [1] تُبّع الحميرى، ثم كساها الثياب الحبرة، وفى رواية كساها الوصائل [2]، وكانت قريش تشترك فى كسوة الكعبة حتى نشأ أبو ربيعة بن المغيرة فقال لقريش: أنا أكسو الكعبة سنة وحدى وجميع قريش سنة، واستمر يفعل ذلك إلى أن مات، فسمته قرش العدْل، لأنه عدل قريشًا وحده فى كسوة الكعبة، ويقال لبنيه بنو العدْل، وكانت كسوتها لا تنزع، فكان كلما تجدد كسوة تجعل فوق فاستمر ذلك إلى زمَنه ﷺ، ثم كساها النبى ﷺ الثياب اليمانية، وكساها أبو بكر وعمر وعثمان وعلى، رضى الله عنهم، القُبَاطىّ، وكساها معاوية، رضى [الله] عنه [3]، الديباج يوم عاشوراء والقباطى [4] فىَ آخر رمضان، وكساها المأمون الديباج الأحمر والديباج الأبيض والقباطى أيضًا، فكانت تكسى الديباج الأحمر يوم التروية والقباطى يوم هلال رجب والديباج الأبيض يوم سبع وعشرين من رمضان. قال بعضهم: وهكذا كانت تكسى فى زمن المتوكل العباسى، ثم فى زمن الناصر العباسى كسيت السواد من الحرير، واستمر ذلك إلى الآن، فى كل سنة، وكانت كسوتها من غلة قريتين يقال لهما بسوس وسندبيس من قرى القاهرة بإرصاد الملك الصالح ابن الناصر محمد بن قلاوون فى سنة سبعمائة وإحدى وخمسين إلى أن صارت الكسوة من القاهرة المعزية على طرف الخزينة المصرية الخديوية.

وقد سئل الإمام البُلْقينى [5] هل يجوز كسوة الكعبة بالحرير المنسوج بالذهب، ويجوز دورانها فى المحمل الشريف؟ فأجاب يجوز ذلك، قال: «لما فيه من التعظيم

(١) مفردها نطع، وهو بساط الجلد

(٢) وهى برود حمر فيها خطوط خضر، تعمل باليمن. [الطهطاوى].

(٣) غير موجودة فى الأصل.

(٤) مفردها: قبطية بضم القاف وكسرها. وسكون الباء، ثياب من الكتان، صناعة مصرية.

(٥) هناك البلقينى «عمر بن سلامة» (١٣٢٤-١٤٠٣م) والبلقينى - ابنه - «صالح بن عمر» (١٣٨٩-١٤٦٤م) وكلاهما كان إمامًا وفقيهاً شافعيًا وقاضيًا بمصر فى عصره. ولعل المؤلف يشير إلى الثانى، فهو الملقب بشيخ الإسلام.

لكسوتها الفاخرة التي يرجى لمن يكسوها الخلَع السنية في الدنيا والآخرة، ويجوز إظهارها في دوران المحمل الشريف فإن في ذلك من التفخيم المناسب للمحل المنيف ما يليق بالحال». هذا كلامه.

وأول من حَلى بابها بالذهب جده، ﷺ، عبد المطلب، فإنه لما حفر بئر زمزم وجد فيها الأسياف والغزالين من الذهب، فضرب الأسياف بابًا وجعل في ذلك الباب الغزالين، فكان أول ذهب حليت به الكعبة، وقد سبق ذلك في حفر زمزم في (الفصل الأول) من (الباب الأول) من (المقالة الخامسة).

وأول من ذَهَّب الكعبة في الإسلام عبد الملك بن مروان، وقيل عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، جعل على أساطينها صفائح الذهب، وجعل مفاتيحها من الذهب، وجعل الوليد بن عبد الملك الذهب على الميزاب، يقال إنه أرسل لعامله على مكة ستة وثلاثين ألف دينار يضرب منها على باب الكعبة وعلى الميزاب وعلى الأساطين التي داخلها وعلى أركانها من داخل، وذكر أن الأمين بن هارون الرشيد أرسل إلى عامله بمكة ثمانية عشر ألف دينار ليضربها صفائح الذهب على باب الكعبة، فقلع منها ما كان على الباب من الصفائح وزاد عليها ذلك وجعل مساميرها وحلقتي الباب والعتبة من الذهب، وأن أم المقتدر، الخليفة العباسي، أمرت غلامها لؤلؤًا أن يلبس جميع اسطوانات البيت ذهبًا، ففعل، وقد سبق التنويه إلى ذلك في (الفصل الثاني) من (الباب الثالث) من (المقالة الرابعة) من (الجزء الأول)[1].

ولما بلغ ﷺ الأربعين، وأرسل بخصوصه إلى الإنس والجن أجمعين، أتاه جبريل من الله بالوحي وهو بغار حراء العظائم[2]، الذي كان يخلو فيه للمجاورة والعبادة، وخاطبه بالرسالة الآتية بالشريعة المطهرة والحنيفة السمحة إلى كافة الخلق، فكان ذلك سببًا لإسعادهم، وموجبًا لصلاح معاشهم ومعادهم، وكان ذلك على فترة من الرسل، ليس للناس شرائع ولا أحكام، ولا علم بالتوحيد، ولا أمر شرعي يحفظ دماءهم وأموالهم، فجاءت شريعته جامعة للأحكام والحكَم التي لا تحصى، والنعم التي لا تستقصى، فيا له من بعث محا الضلالة والوعث.

---

(١) انظر ذلك في الجزء الثالث من هذه الأعمال.

(٢) الجبل المشهور بأعلى مكة، على ثلاثة أميال منها. [الطهطاوي].

البـــاب الثانى

[فى مبـعثه صلى اللـه عليه وسلم،
ودعــاته الناس إلى الـدين الحق،
وهجرته إلى الحبشة وإلى الطائف

وفيـــــه فصـــول]

الفصل الأول

(فى رسالته صلى الله عليه وسلم على رأس الأربعين إلى كافة الناس بشيرا ونذيراً)

كان ﷺ له الرياسة المؤثلة على قومه الذين أصابوا الملك وأطاعتهم العرب واجتمع لهم ما لم يجتمع لغيرهم من مناصب الشرف فى ذلك الوقت، وهى الحجابة، والسقاية، والرفادة، والندوة، واللواء، والقيادة.

فالحجابة: هى سدانة البيت الشريف، أى تولية مفتاح بيت الله تعالى.

والسقاية: إسقاء الحجيج كلهم الماء العذب، وكان نادراً بمكة يجلب إليها من الخارج ليسقى الحجاج منه، بل وينتبذ لهم التمر والزبيب للشراب أيضًا.

والرفادة: هى إطعام الطعام لسائر الحجاج، فكانت تمد لهم[1] الأسمطة فى أيام الحج.

والندوة: هى المشورة، وكان يجتمع فيها من قريش ومن غيرهم من سنه أربعون سنة، فلا يعقد عقد نكاح الرجل من قريش إلا فيها.

وأما اللواء: فراية معقودة على رمح ينصبونه علامة لاجتماع الجيش لحرب الأعداء، فيجتمعون تحت هذه الراية، ويقاتلون عندها.

والقيادة: إمارة الجيش ورياسة الحرب، فكان ﷺ شهير الاسم شريف النعت

(١) فى الأصل: تمدهم.

فى مكة المشرفة، التى هى أم القرى، وكان له ﷺ محاسن سنية، كقضائه حين حكموه فى بناء الكعبة، وكإعانته ﷺ على إبطال ما كان نواه عثمان بن حويرث لما تنصر وأراد أن يجعل الكعبة تحت ولاء الروم، فببركته ﷺ وبتوسطه فى المنع خاب سعى الحويرث.

ومن محاسنه أيضًا ومكارم أخلاقه كفالته ابن عمه على بن أبى طالب، ومنها فديته زيدًا القضاعى بن حارثة بن شرحبيل الذى وقع اسيرًا عند أعدائه، فاشتراه ﷺ وأعتقه، فظهر لقريش حكمه وكرمه وأنه فاق فى ذلك آباءه وأجداده.

قـــريش خـــيـــار بـنى آدم   وخـــيـــر قـــريش بنو هـاشم

وخـــيـــر بنى هاشـم كلـهم   نـبـى الإلـه أبـو الـقـــاســم

وكان ﷺ أميًا لا يكتب ولا يقرأ، وفى وجوده بهذه الصفة تنبيه على أن كمال علمه مع حالة الأمية من معجزاته، ونسبته إلى الأم كأنه على حاله التى ولد عليها لا يعرف كتابة ولا قراءة، وفى الحديث: «إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب»، وكانت الأمية فى حقه ﷺ معجزة، وإن كانت فى حق غيره غير ممدوحة، قال القاضى عياض: «لأن معجزته العظمى القرآن العظيم إنما هى متعلقة بطريقة المعارف والعلوم، مع ما منح ﷺ وفضل به من ذلك، ووجود مثل ذلك ممن لم يقرأ ولم يكتب ولم يدرس ولم يلقن مقتضى العجب ومنتهى الصبر ومعجز للبشر، فليس فيه إذ ذاك نقيصة، إذ المطلوب من القراءة والكتابة والمعرفة، وإنما هى آلة وواسطة موصلة إليها غير مرادة فى نفسها، فإذا حصلت الثمرة والمطلوب استغنى عن الواسطة». وقال أيضا: «إن من وصفه ﷺ بالأمية أو نحوها من اليتم وما جرى عليه من الأذى، فإن قصد بذلك مقصده من التعظيم والدلالة على نبوته ونحو ذلك كان حسنا، ومن أراد ذلك على غير وجهه، وعلم منه سوء مقصده، لحق بالسباب، فيقتل أو يؤدب بحسب حاله». انتهى.

وكان ﷺ يختلى فى كل سنة شهرًا مع أهل بيته فى غار حراء، بقرب مكة، فيتعبد فيه الليالى ذوات العدد، غريقا فى بحار الأفكار، ملازمًا للصمت آناء الليل

وأطراف النهار، حتى أتاه الوحى على رأس الأربعين سنة فى محل العبادة بالنبوة، فأول ما بدئ به من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، فكانت تلك المنامات مقدمات للوحى، قيل مدتها ستة أشهر، ابتداؤها شهر ربيع الأول، ثم فاجأه جبريل وهو بالغار المذكور فى شهر رمضان، فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فغطه حتى بلغ منه الجهد، ثم قال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فغطه كذلك، ثم أعاد جبريل فقال له: اقرأ، وأعاد محمد ﷺ فقال: ما أنا بقارئ، فقال له جبريل، بعد المرة الثالثة: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾ حتى بلغ ﴿ **عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ (الفتح: ٨) فقرأها. و«ما» فى قوله: ما أنا بقارئ، نافية فى الكل، أو الأولى للامتناع، والثانية للإخبار بالنفى المحض، والثالثة استفهامية، وكرر عليه الغط ليقبل بكليته ويتم توجهه لما سيلقى عليه.

ولما عاد إلى خديجة وأخبرها الخبر قالت: والله لا يحزنك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتقرى الضيف، وتحمل الكَلّ، وتعين على نوائب الدهر. ثم انطلقت به حتى أتت ابن عمها ورقة بن نوفل، فأخبرته خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذى أنزله الله على موسى، ياليتنى فيها جَذَع [1]، ليتنى أكون حيًا إذ يخرجك قومك! فقال رسول الله ﷺ: أو مُخْرجيَّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومكَ أنصرك نصرًا مؤزرًا! ثم لم يلبث ورقة أن توفى، وفتر الوحى نحو ثلاث سنين.

وإنما كان بدء الوحى بالرؤيا الصادقة لئلا يفجأه المَلَك ويأتيه بصريح النبوة بغتة فلا تقبلها القوى البشرية، فبدئ بأول تباشير النبوة وخصال الكرامة تأنيسًا وتمرينًا له، فلما تمرّن على ذلك فى المنام جاءه المَلَك فى اليقظة بصريح النبوّة والكلام، ثم بعد ذلك فتر الوحى نحو ثلاث سنين، فيما جزم به ابن إسحاق، وقيل سنتين ونصفًا، ليذهب عنه ما وجده من الروع وليزيد تشوقه إلى العود، ومن ثم حزن لذلك حزنًا شديدًا، ثم نزل عليه جبريل بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ** ﴾ (المدثر: ١، ٢) وتتابع الوحى، فهى أول ما نزل عليه بعد فترة الوحى،

---

(١) الجذع - بفتح الجيم والذال - الشاب الحدث.

ونزولها ابتداء رسالته ﷺ، فهى متأخرة عن نبوته بثلاث سنين، وقيل مقارنة لنبوته، وأما ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فهى أول ما نزل مطلقًا، والقول بأن ما نزل مطلقًا ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ باطل، كما قاله النووى، وظهر من نزول ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أولا، ونزول ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ بعد فترة الوحى أن نبوته ﷺ كانت متقدمة على رسالته، كما صرح به أبو عمر (١) وغيره، وعلى ذلك يحمل قول صاحب [جامع الأصول]: «الصحيح عند أهل العلم بالأثر أنه بعث على رأس ثلاث وأربعين سنة، فكان فى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ نبوته وفى ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ رسالته بالنذارة والبشارة والتشريع، والاقتصار على الإنذار فى هذه السورة، مع أنه ﷺ بعث مبشراً أيضًا، لأن ذلك كان فى أول الإسلام، فمتعلق الإنذار محقق، فلما أطاع من أطاع أنزل الله قوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (الفتح: ٨) فانقطعت الفترة بدعوته ﷺ عموم الناس للإيمان.

ثم أول شىء فرض الله عليه من شرائع الإسلام، بعد الإنذار بالتوحيد والبراءة من الأوثان: الصلاة، أتاه جبريل فعلّمه الوضوء والصلاة ركعتين، ثم فارقه، وعاد النبى ﷺ إلى خديجة فأخبرها، فغشى عليها من الفرح، ثم أخذ بيدها وعلمها الوضوء فتوضأت، ثم قام فصلى [ركعتين] وصلت معه، فكان ذلك أول فرضها ركعتين، ثم إن الله تعالى أقرها فى السفر وأتمها فى الحضر، وقال النووى: «أول ما وجب الإنذار والدعاء إلى التوحيد ثم فرض الله من قيام الليل ما ذكر فى أول سورة المزمل بقوله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ① قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ ثم نسخه بما فى آخرها بقوله ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ إذ المراد صلوا ما تيسر لكم، وفرض عليه ركعتين بالغداة وركعتين بالعشى، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس ليلة الإسراء بمكة». انتهى.

وقد اختلف العلماء فى أول من أسلم، والصحيح خديجة، ثم أبو بكر، ثم على، وكان عمره إحدى عشر سنة، ثم زيد بن حاثة، قال الثعلبى: إجماع العلماء أن أول من أسلم من الرجال أبو بكر، ومن الصبيان على، ومن النساء خديجة،

---

(١) أبو عمر عبد الله بن عبد البر (المتوفى سنة ١٠٧٠ م) مؤرخ ومحدث وعالم بالأنساب، من آثاره [الدرر فى اختصار المغازى والسير] و[الاستيعاب لأسماء الأصحاب] و[التمهيد لما فى الموطأ من معان وأسانيد].

ومن الموالى زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، وكان قد تبناه وصار يقال له زيد بن محمد، ولم يذكر فى القرآن أحد من الصحابة باسمه إلا هو، كما أنه لم يذكر امرأة باسمها فى القرآن إلا مريم، وأول من أسلم من العبيد الباقين على الرق بلال المؤذن، فأول فائز بالإسلام من الرجال الصديق على التحقيق وإن قال شيخ الإسلام السراج عمر البلقينى، وتبعه الحافظ العراقى : إن أول من آمن به من الرجال ورقة بن نوفل، لنزول الوحى على النبى ﷺ فى حياته، وإيمانه بالنبى وتصديقه برسالته صريحًا، أى بعدها، بناء على أنهما متقارنان، أو قبلها لعلمه من الكتب القديمة كما جاء فى أحاديث قصة بدء الوحى وغيرها فى [الصحيح] وغيره، وإن مشى على ذلك أيضًا جماعة من الأئمة وعدوه فى الصحابة.

واتسع الإسلام بعد أن أسلم أبو بكر فأسلم عثمان بن عفان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، فهؤلاء الخمسة دعاهم أبو بكر فأجابوا، ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن الجراح، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى، وهو ابن عم عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، فهؤلاء هم الذين سبقوا الناس إلى الإسلام.

وأول ما وجب الإنذار والدعاء إلى الله بالتوحيد بقوله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أقام ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلى الله سرًا، لعدم الأمر بالإعلان، وكان لا يظهر دعوته إلا لمن يثق به، وتبعه ناس عامة ضعفاء، من الرجال والنساء، كما يشير إلى ذلك حديث : «إن هذا الدين بدأ غريبًا وسيعود كما بدأ» حق أنه ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه على بن أبى طالب مستخفيًا من عمه أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات، فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا، ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان فقال لرسول الله ﷺ : يا ابن أخى، ما هذا الدين الذى أراك تدين به؟ قال : «أى عم ! هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم، بعثنى الله رسولاً إلى العباد، وأنت، أى عم! أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابنى إليه، وأعاننى عليه»! فقال أبو طالب : أى ابن أخى إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشئ تكرهم ما بقيت.

وكان مما أنعم الله به على عليّ بن أبي طالب، رضى الله عنه، وأراده من الخير أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة فقال رسول الله ﷺ للعباس، وكان من أيسر بنى هاشم: ياعباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، قد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله، آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ رجلا فنكفيهما عنه، قال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ما شئتما، ويقال عقيلاً وطالبًا، وكان لأبى طالب على وجعفر وعقيل وطالب، وكان على أصغر من جعفر بعشر سنين، وجعفر أصغر من عقيل بعشر سنين، وعقيل أصغر من طالب بعشر سنين، أسلم منهم على وجعفر وعقيل، ومات طالب على دين قومه، فأخذ رسول الله ﷺ عليًا فضمه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه، فلم يزل على مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبيًا فاتبعه وآمن به وصدقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه.

واختلف العلماء فى مقامه بمكة بعد أن أوحى إليه، فقيل عشر سنين، وقيل ثلاث عشرة سنة، وهو الصحيح، ولعل الذى قال عشر سنين أراد بعد إظهار الدعوة، فإنه بقى ثلاث سنين يسرها ثم نزل عليه ﷺ بعد ذلك الأمر بالإعلان وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (الحجر: ٩٤) فأعلن ﷺ بالدعوة، وجاهر قومه بالعداوة، واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين حتى أذن لهم فى الهجرة إلى الحبشة، كما سيأتى.

ولما نزل قوله تعالى ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ (الشعراء: ٢١٤) دعا عليًا فقال: اصنع لنا صاعًا من طعام، واجعل لنا عليه رجل شاة، واملأ لنا عسا [١] من لبن، واجمع لى بنى المطلب حتى أكلمهم وأبلغهم ما أمرت به، ففعل، ودعاهم، وهم أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون، فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس، وأحضر علىّ الطعام فأكلوا حتى شبعوا، قال على: لقد كان الرجل

---

(١) أى قدحًا عظيمًا. [الطهطاوى].

الواحد منهم ليأكل جميع ما شبعوا كلهم منه، فلما فرغوا من الأكل، وأراد النبي ﷺ أن يتكلم، بدره أبو لهب إلى الكلام فقال: سحركم محمد صاحبكم، فتفرق القوم، ولم يكلمهم رسول الله ﷺ، ثم قال: يا علي، قد رأيت كيف سبقني هذا الرجل إلى الكلام، فاصنع لنا في غد كما صنعت اليوم واجمعهم ثانيًا، فصنع علي في الغد كذلك، فلما أكلوا وشربوا اللبن قال لهم ﷺ: «ما أعلم إنسانًا في العرب جاء قومه بأفضل ما جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم عليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر ويكون أخي ووصي وخليفتي فيكم»؟ فأحجم القوم عنها جميعًا، قال عليّ: فقلت، وإني أحدثهم سنًا، وأرمصهم عينًا، وأعظمهم بطنًا، وأحمشهم ساقا، أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليهم، قال فأخذ برقبتي ثم قال: «إن هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم، فاسمعوا وأطيعوا»، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لعليّ وتطيع.

واستمر ﷺ على ما أمره الله تعالى، لم يبعد عنه قومه، ولم يردوا عليه حتى سب آلهتهم وعابها ونسب قومه وآباءهم إلى الكفر والضلال، فأجمعوا على عداوته إلا من عصمه الله بالإسلام، وذب عنه عمه أبو طالب، فجاء أبا طالب رجال «من أشراف قريش فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد عاب ديننا وسفه أحلامنا وضلَّل آباءنا، فانهه عنا أو خلِّ بيننا وبينه! فردهم أبو طالب ردًا حشيًا، واستمر ﷺ على ما هو عليه، فعظم عليهم، وأتوا أبا طالب ثانيًا، وقالوا: إن لم تنهه وإلا نازلناك وإياه حتى يهلك أحد الفريقين! فعظم عليه، وقال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي، إن قومك قالوا لي كذا وكذا، فظن ﷺ أن عمه خاذله، فقال: ياعم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الأمر، ثم استعبر فبكى! وقام ﷺ فناداه أبو طالب: أقبل ياابن أخي، وقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا. فأخذت كل قبيلة تعذب كل من أسلم منها، فمن لا عشيرة له تمنعه يعذبونه بأنواع التعذيب، ويقال له: لا نزل هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى! ومن المسلمين من مات من تعذيب المشركين، وكان

بعض المشركين يؤذى رسول الله ﷺ بقولهم: إن ما جاء به من الآيات سحر يُؤْثَر، ومن قول البشر، وأساطير الأولين.

ومنع الله رسوله بعمه أبى طالب، ومع ذلك فلا زال أذاهم شديداً عليه ﷺ حتى أسلم عمه حمزة فقل أذاهم، وكان إسلامه سنة خمس من النبوة، قبل إسلام عمر بن الخطاب بثلاثة أيام، وفى [المواهب اللدنية] قال حمزة حين أسلم:

حمدت الله حين هدى فؤادى	**إلى الإسلام والدين الحنيفى**
لدين جاء من رب عزيز	**خبير بالعباد بهم لطيف**
إذا تليت رسائله علينا	**تحدر دمع ذى اللب الحصيف**
رسائل جاء أحمد من هداها	**بآيات مبينة الحروف**
وأحمد مصطفى فينا مطاع	**فلا تغشوه بالقول العنيف**
فلا والله نسلمه لقوم	**ولما نقض فيهم بالسيوف**

وفى هذه السنة أعز الله الإسلام أيضاً بإسلام عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كما سيأتى، وسبب إسلام حمزة أن النبى ﷺ كان عند الصفا فمر به أبو جهل بن هشام فشتم النبى ﷺ، فلم يكلمه وكان حمزة فى القنص، وكان على دين قومه، فلما حضر أنبأته مولاة لعبد الله بن جدعان بشتم أبى جهل لابن أخيه ﷺ فغضب حمزة، وقصد البيت ليطوف به وهو متوشح قوسه، فوجد أبا جهل بن هشام قاعداً مع جماعة فضربه حمزة بالقوس فشجه، ثم قال: أتشتم محمداً؟ أنا على دينه! فكان إسلامه ببركته ﷺ فقامت رجال من بنى مخزوم لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوه فإنى سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا، ودام حمزة على إسلامه، وعلمت قريش أن النبى ﷺ قد عز وامتنع بإسلام حمزة، فكفوا عن بعض ما كانوا يتناولون منه، وبقيت عداوتهم له، وكانوا يسمونه صابئًا لكونه خرج عن دين قومه، لأن الصابئ عند العرب من مال عن دين قومه إلى غيره.

حكى ابن الجوزى فى بعض مجالس وعظه فقال: «ما خلق الله رئيسا فى الخير

إلا وله مقابل من أهل الشر، خلق الله آدم وإبليس، والخليل والنمرود، وموسى وفرعون، ومحمداً ﷺ وأبا جهل، وهكذا أبدا». وكانت كنية أبى جهل: أبا الحكم، فكناه النبى ﷺ: أبا جهل، وهو عمرو بن هشام، وقد قال ﷺ: «إن لكل أمة فرعونًا، وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل».

ويحكى بمناسبة ذلك أن السلطان محمود الأول الغازى[1] ذهب إلى قطب الأقطاب أبى الحسن الخرقاني ليزوره، فقال: حدثنا حديثًا عن أبى يزيد لنسمعه منك، فقال الشيخ: كان أبو يزيد رجلاً من أبصره نجا، ومن نظر إليه اهتدى. فقال السلطان محمود: أهو أعظم من حضرة محمد ﷺ، فقد كان أبو جهل وغيره من الكفار يبصرونه وينظرون إليه كمال النظر ولم ينجوا، بل ماتوا على الكفر! فأجابه الشيخ، قدس سره، «بأن هؤلاء كانوا لا يبصرون تلك الحضرة، بل كانوا يبصرون محمد بن عبد الله، وينظرون إليه بالنظر إلى أنه رجل من بنى آدم حتى لو كانوا أبصروه بوصف كونه محمداً رسول الله لفازوا بالسعادات ونجوا من الشبهات وتنحوا عن الضلالات. ومصداق ذلك قوله جل ذكره: ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٩٨) وتحقيق ذلك أن الجنة الإنسانية والصورة البشرية الجسمانية يشترك فيها الأنبياء والأولياء والعلماء، وتستوى فيها الخاصة والعامة، وإنما الذى يناط به مراتب الرجال ويظهر تفاوت الأقدار هو المعانى والكمالات الحاصلة للإنسان، مع تفاوتها وتكثرها، المتعلقة بالقرب الإلهى، ولا يعرف صاحب هذه الأوصاف إلا الكاملون، فمن غرق فى بحار الضلالات، وانغمس فى تيه الجهالات، كيف يعرف كمية المتصف بصفات الكمالات...

فكيف يدرك فى الدنيا حقيقته   قوم نيام تسلوا عنه بالحلم»

أهـ

فغير الاستمرار على الإيذاء لجسمة الشريف تعرضوا دائمًا لرميه بالسحر والكهانة والجنون، بعد ما سبق منهم قبل النبوة أنهم كانوا ينظرون إليه نظر كمال وإجلال حتى سموه بالأمين قبل النبوة، واشتهر عندهم بهذا العنوان، ولم يجربوا

(١) سلطان عثمانى حكم من سنة ١٧٣٠ حتى سنة ١٧٥٤م، وهو السلطان العثمانى الرابع والعشرون.

عليه بعد إشهاره بذلك خللاً ولا نقصًا، فتناقض أمرهم فيه واختل اعتقادهم بعد النبوة، لعمى بصيرتهم، ورجعوا وصفوه بالجنون مثلاً، ولم يكن لهم شبهة فى ذلك إلا ما رأوه منه عند نزول الوحى من الاستغراق لتلقيه، ومن حمرة الوجه، وكثرة الغطيط، فعميت قلوبهم عن إدراك الفرق بين حالة نزول المَلَك وحالة الجنون، مما لا يخفى على أدنى عاقل، فكانوا ينظرونه كأنه رجل من بنى آدم، ولا يلتفتون إلى أمانته ولا إلى وصف النبوة، فالمبالغة فى أذى قريش للمسلمين هى التى أوجبت الهجرة إلى الحبشة مرتين، كما أن المبالغة خصوصًا فى إيذائه ﷺ هى التى أوجبت الهجرة إلى الطائف ثم إلى المدينة .

الفصل الثانى

(فى الهجرتين إلى الحبشة)

ولما رأى ما يصيب أصحابه من البلاء والتعذيب فى الإسلام والفتنة، ورأى ما هو من العافية من الله تعالى ثم من عمه أبى طالب، وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، أذن ﷺ لأصحابه فى الهجرة إلى الحبشة فى رجب سنة خمس من النبوة، وقال لهم: إن بها ملكا لا يُظْلَم الناس ببلاده فَتحَوَّزُوا[1] عنده حتى يأتيكم الله بفرج منه، وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش، فخرجوا متسللين سرا، وعدتهم اثنا عشر رجلا وأربع نسوة، وكان فيهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، فنزلوا بسفينتين للتجارة **كانتا** مسافرتين لذلك، حتى وصلوا للنجاشى ملك الحبشة، فكانت[2] هذه هى أول هجرة فى الإسلام، وكان قد خرج إثر المهاجرين جعفر بن أبى طالب مع أصحابه وزوجته أسماء بنت عميس، فتتابع المسلمون إلى الحبشة، فمنهم من هاجر بأهله ومنهم من هاجر بنفسه، ولهذا صح للمسلمين قديما وحديثا الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام، ومن ديار الفسق إلى ديار الطاعة، فعلى المسلم أن ينتقل إلى الأرض التى يخف فيها الفسق أو الكفر إذا لم يجد دارا محضة لأهل الإسلام والتقوى، ويشهد لذلك هجرة المسلمين من مكة وهى إذ ذاك دار كفر وجاهلية إلى أرض الحبشة وهى دار كفر وأهل كتاب، وإنما تجب المهاجرة من أرض البدعة ما لم يتمكن المقيم بها من

---

(١) تحوزوا عنده، أى تنحوا عنده.

(٢) فى الأصل: فكان.

وظيفة حسنة، كالإرشاد والهداية، فالمقام بهذا القصد أولى، لأن الخروج سلامة والمقام كرامة، ولهذا لم يهاجر إلى الحبشة إلا البعض ممن حسنت هجرته، لا سيما المستضعفين.

وفى أثناء مكث المهاجرين بالحبشة، فى الهجرة الأولى، أسلم عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، سنة خمس من النبوة، بعد إسلام حمزة، رضى الله عنه، بثلاثة أيام، قال ابن عباس: لما أسلم عمر بن الخطاب قال جبريل للنبى ﷺ: يامحمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر، فإن المشركين قالوا: قد انتصف القوم اليوم منا، وأنزل الله تعالى على المصطفى ﷺ ﴿ **يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الأنفال: ٦٤) وكان أمر المسلمين قبله على غاية من الخفاء وبعده على غاية من الظهور.

وسبب إسلامه أنه وجد مع أخته بعض آيات من القرآن من سورة الأنبياء، وكانت خبأتها عنه، فسلبها من يدها غصبا فقرأها، فحلت فى قلبه محل الإعجاب، وأفحمه لفظها ومعناها، فذهب إلى النبى ﷺ وأسلم على يديه، وكان ذلك إجابة لدعوة النبى ﷺ بقوله: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: عمر بن الخطاب، أو بعمرو بن هشام»، اسم أبى جهل، فكان أحبهما إليه عمر بن الخطاب، فكان عز الإسلام بعمر بن الخطاب.

وذكر الدار قطنى[1] أن عائشة قالت: إنما قال النبى ﷺ: «اللهم عز عمر بالإسلام»، لأن الإسلام يعز ولا يعز، وكان دعاؤه ﷺ بذلك يوم الأربعاء فأسلم عمر يوم الخميس، وكان عمر لا يرام ما وراء ظهره فامتنع به وبحمزة الصحابة.

وفى البخارى لما أسلم عمر اجتمع الناس عند داره وقالوا: صبأ عمر، فبينما عمر فى داره خائفا إذ جاءه العاص بن وائل وقال له: مالك؟ قال: زعم قومى أنهم

(١) على بن عمر أحمد بن مهدى (٩١٩ - ٩٩٥ م) فقيه شافعى، كان إمام عصره فى الحديث، وهو بغدادى رحل إلى مصر وعاش بها زمن الدولة الإخشيدية ثم عاد إلى بغداد وتوفى بها. ومن مصنفاته فى الحديث [السنن] و[المجتبى من السنن المأثورة].. الخ.. الخ..

يقتلوننى إن أسلمت! قال: أمنت، لا سبيل إليك، فخرج العاص فلقى الناس قد سال بهم الوادى، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد عمر بن الخطاب الذى صبأ، فقال: لا سبيل إليه، فأنا له جار! فكسر الناس، وتصدعوا عنه، وكان ابن مسعود يقول: ما كنا نقدر أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر، رضى الله عنه، وقال أيضا: كان إسلامه فتحا، وهجرته نصرا، وإمامته رحمة. وروى ابن شريح بن عبيد عنه أنه قال: خرجت أتعرض رسول الله ﷺ فوجدته قد سبقنى إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، قال: فقلت: هذا والله شاعر، كما قالت قريش، قال: فلما قرأ (إنه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون) قال: قلت كاهن، كأنه علم ما فى نفسى، فقرأ (ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين) إلى آخر السورة، فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع، ولعل واقعة سماع القرآن تعددت قبل إسلامه.

ولما قرأ عليه الصلاة والسلام سورة (والنجم)، وكان يرتل قراءته، فلما بلغ (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) ارتصده الشيطان فى سكتة من سكتاته فألقى عندها: «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى»، محاكيا نغمته، بحيث سمعه من دنا إليه فظنها من قول النبى ﷺ، وأشاعها، فوقعت فى قلب كل مشرك بمكة، وذلت منها ألسنتهم، وتباشروا بها، وقالوا: إن محمدا قد رجع إلى ديننا، فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد وسجد معه كل مشرك غير الوليد بن المغيرة، كان شيخا كبيرا لا يقدر على السجود، ملأ كفه ترابا فسجد عليه، فعجب الفريقان كلاهما فى السجود بسجود النبى ﷺ وعجب المسلمون بسجود المشركين معهم، ولم يكن المسلمون سمعوا ما ألقى الشيطان، كما قاله موسى بن عقبة [1]، وأما المشركون فاطمأنوا إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وفشت تلك الكلمة فى الناس، وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من

(١) موسى بن عقبة بن أبى عياس (المتوفى سنة ٧٥٨ م) من أهل المدينة، من رجال الحديث، وعالم بالسيرة النبوية، وله فيها [كتاب المغازى].

المسلمين، ثم بعد مكثهم هناك دون ثلاثة أشهر رجع كثير منهم عند ما بلغهم عن المشركين بسجودهم مع رسول الله ﷺ عند قراءته سورة (والنجم) وظنوا إسلامهم.

ولما بلغ رسول الله ﷺ تلك الكلمة التى فشت فى الناس ساءه ذلك، فأنزل الله عز وجل: (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ـ (قرأ) ـ ألقى الشيطان فى أمنيته) ـ (أى قراءته) ـ كما قال الفراء، ويؤيده ما رواه ابن جرير وألقاه الشيطان فيها أن يتكلم بذلك رافعا صوته بحيث يظن السامعون أنه من قراءة النبى ﷺ، وعلقه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) (قال إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه) ـ فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته ـ (ينشيها) ـ والله عليم (بإلقاء الشيطان ما ذكر) ـ حكيم ـ (فى تمكينه منه يفعل ما يشاء).

ويؤيد ذلك ما سبق فى (الفصل الأول) من هذا الباب من أن كفار قريش لما كانوا يطوفون بالكعبة كانوا يقولون: واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن غرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى. فكانت هذه العبارة مركوزة فى أذهانهم، هاجسة فى خواطرهم، يخيل لهم سماعها، وأن الشيطان نطق بها عند انقطاع نفس النبى ﷺ فى التلاوة، فحاكى بها صوته.

* * *

واللات والعزى ومناة: أصنام من حجارة، كانت فى جوف الكعبة يعبدونها، وقيل غير ذلك. والغرانيق هى فى الأصل الذكور من طير الماء الأبيض الطويل العنق، وقيل أسود كالكركى، وقيل إنه الكركى، ويتجوز به عن الشاب الناعم، والمراد بها الأصنام حيث كانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله وتشفع لهم فشبهت بالطيور التى تعلو فى السماء وترتفع، والفرق بين الصنم والوثن أن الصنم الصورة بلا جثة، والوثن كل ماله جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمى تعمل وتنصب وتعبد، ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقهما على المعنيين، وقد يطلق الوثن على غير الصورة.

وقد اختلف المفسرون فى المراد بالنجم على أقوال: أحدها: أنه الجملة من

القرآن إذا نزلت، وكلما نزل منه شيء في وقت فهو نجم، ثانيها: أنه عنى بالنجم الثريا، والعرب تطلق اسم النجم على الثريا خاصة فلا يذكرونه في الإطلاق إلا لها، قال قائلهم:

طلع النجم عشيا ابتغى الراعى كسيا

وقال أيضا:

طلع النجم غديه ابتغى الراعى شكيه

يعنى الثريا وهى تطلع العشا في الثلث الأخير من فصل الخريف قبل الشتاء بشهر، وذلك مبادى قوة البرد، لأن آخر كل فصل شبيه بالذى بعده، فلهذا طلب الراعى الكساء، وتطلع بالغداة فى الصيف وقت أوان اللبن، فلهذا طلب الشكية، تصغير شكوة، وهى جلد الرضيع يتخذ اللبن، أصغر من الوطب، الذى هو جلد الجَذَع، وفى الحديث: «ما طلع النجم قط وفى الأرض من العاهة شيء إلا ارتفع». رواه الإمام أحمد.

قال ابن دريد[1]: هى سبعة أنجم، ستة أنجم منها ظاهرة، وواحد خفى يمتحن الناس به أبصارهم، وعلى قول ابن دريد قول الشاعر:

خليلىّ إنى للثريا لحاسد وإنى على ريب الزمان لواجد

أيبقى جميعًا شملها[2] وهى سبعة وأفقد من أحببته وهو واحد

وذكر القاضى عياض فى [الشفاء] أنه ﷺ كان يرى فى الثريا أحد عشر نجما، وذكر السهيلى أنه ﷺ كان يرى فيها اثنى عشر نجما، والقول بأن المراد بالنجم الثريا قاله ابن عباس ومجاهد فى رواية عنهما واختاره ابن جرير والزمخشرى وقال السمين إنه الصحيح. انتهى. وهى أشبه شيء بعنقود العنب، ومن شعر سيدى عبد العزيز الديرينى، رحمه الله.

---

(١) محمد بن الحسن (٨٣٧-٩٣٣م) بصرى، مات فى بغداد، كان أديبًا وعالمًا باللغة، كما كان أشعر علماء عصره، وله «أحاديث» تعتبر الشكل الأولى «للمقامة».. ومؤلفاته اللغوية من أهم المراجع فى بابها.

(٢) فى الأصل: سملها، بالسين المهملة.

وصُـــغِّـــرَت ثريـة لكثـــره   والخصب فى طلوعهـا واليسـره

وقال ابن قتيبة[1] فى [كتاب الأنواء] جاءت أى الثريا مصغرة لاجتماعها، ولم يتكلم بها إلا كذلك، وأصلها من الثروة وهى كثرة العدد، وهى ستة أنجم ظاهرة فى خلالها نجوم كثيرة خفية، ويسمونها نجما وأنواء.

ومع ما قيل فى هذه الآية، وهى قوله تعالى: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته** ﴾ وأنه حين قرأ سورة (والنجم) وبلغ فيها (ومناة الثالثة الأخرى) ارتصده الشيطان فى سكتة من سكتاته فألقى عندها «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى» محاكيا نغمته، إلى آخره، فقد رد بعضهم هذا كله وقال: إنه موضوع، وضعه الزنادقة، ولا أصل له، لأن الشيطان لا يلقى على الرسل والأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، شيئا، حيث هم معصومون. وحل هذه المسألة تفهم مما كتبه البيضاوى[2] والشهاب والخفاجى[3] والشيخ زاده فى هذا المحل، يعنى قوله تعالى: (إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) فإنه يفهم من كلام البيضاوى: إنه هيأ فى نفسه ما يهواه ـ (ألقى الشيطان فى أمنيته) ـ أى فى تشهيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله سبعين مرة»، قال الشهاب: حديث صحيح، والغين قريب من الغيم لفظا، والمعنى أنه يعرض لقلبى ويغشاه بعض أمور من أمور الدنيا والخواطر البشرية مما يلزم للتبليغ، لكنها لإشغالها عن ذكر الله يعدها كذنوب فيفزع إلى الاستغفار منها، وسبعين للتكثير لا للتخصيص. انتهى كلام الشهاب.

قال البيضاوى فى قوله تعالى (فينسخ الله ما يلقى الشيطان): فيبطله ويذهب به بعصمته عن الركون إليه والإرشاد إلى ما يريحه. انتهى كلام البيضاوى.

---

(١) عبد الله بن مسلم (٨٢٨ ـ ٨٨٩م) عراقى، اشتغل بالتدريس والقضاء، وله آثار فى التاريخ والكلام واللغة والأدب. ومن أشهر كتبه التاريخية [المعارف] و [عيون الأخبار].

(٢) عبد الله بن عمر (١٢٢٦ ـ ١٢٨٢ م) مفسر ومتكلم. انظر ص ٤٧٥ من تفسيره [أنوار التنزيل وأسرار التأويل] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦م.

(٣) شهاب الدين المصرى (١٥٧١ - ١٦٥٩م) فقيه وطبيب، اشتغل بالقضاء. . . شرح تفسير البيضاوى فى كتابه [عناية القاضى]، وله كتاب [ريحانة الألباب] و [طراز المجالس].

فقوله : «بعصمته عن الركون إليه» إلى آخره، وهو محل الإشارة إلى الجواب كما يفهم بالتأمل .

(ثم يحكم الله آياته) قال البيضاوى : ثم يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق فى أمر الآخرة، (والله عليم) بأحوال الناس، (حكيم) بما يفعله بهم، قال البيضاوى : حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت، وقيل تمنى لحرصه على إيمان قومه أن ينزل عليه ما يقربهم إليه، واستمر به ذلك حتى كان فى ناديهم ونزلت عليه سورة (والنجم) فأخذيقرأها فلما بلغ (ومناة الثالثة الأخرى) وسوس إليه الشيطان حتى سبق لسانه سهوا إلى أن قال «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى»، ففرح به المشركون حتى تابعوه بالسجود لما سجد فى آخرها، أى آخر سورة (والنجم) بحيث لم يبق فى المسجد مؤمن ولا مشرك إلا سجد، ثم نبأه جبريل عليه السلام فاغتم لذلك فعزاه أى سلاه الله بهذه الآية ـ وهو (أى ما ذكر من قوله : سبق لسانه سهوا، وقوله : تلك الغرانيق الخ) مردود عند سائر المحققين، وإن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الإيمان عن المتزلزل فيه، وقيل تمنى : قرأ، كقول حسان رضى الله عنه :

تمنى كتاب الله أول ليلة ... تمنى داود الزبور على رِسْل[1]

وأمنيته قراءته، وإلقاء الشيطان فيها أن يتكلم بذلك رافعا صوته بحيث يظن السامعون أنه من قراءة النبى ﷺ، وقد رد أيضا بأنه يخل بالوقوف على القرآن، ولا يندفع بقوله (فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته) لأنه أيضا يحتمله، وبأن الآية على هذا التفسير تدل على جواز السهو على الأنبياء، وتطرق الوسوسة إليهم سيأتى رده فى عبارة الشهاب (ليجعل ما يلقى الشيطان) علة لتمكين الشيطان منه، وذلك يدل على أن الملقى أمر ظاهر عرفه المحق والمبطل (فتنة للذين فى قلوبهم مرض) شك ونفاق (والقاسية قلوبهم) المشركين (وإن الظالمين) يعنى

---

(١) الرسل : الترتيل فى القراءة بتؤدة وسكينة من غير سرعة، وضمير تمنى فى البيت لعثمان رضى الله عنه [الطهطاوى]. وهكذا نقل المؤلف ولكن الشطر الثانى من بيت حسان ليس هكذا فهو :

* وآخره لاقى حمام المقادر *

انظر [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٥ ص ٢٩١ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.

الفريقين فوضع الظاهر موضع ضميرهم قضاء عليهم بالظلم (لفى شقاق بعيد) عن الحق أو عن الرسول والمؤمنين. أهـ كلام البيضاوى.

قال الشهاب: قوله: «سبق لسانه سهوا»، هذا غير صحيح، لأنه ﷺ محفوظ عن السهو بما يخالف الدين والشرع، لأن التكلم بما هو كفر، سهوا أو نسيانا، لا يجوز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإذا سها ﷺ فى صلاة ونحوها كان تشريعا، حتى قال بعض العلماء: إن سجدة السهو فى حقه ﷺ سجدة شكر.

وقول البيضاوى فى عبارته المتقدمة: «وهو مردود عند المحققين»، قال الشيخ زاده: يعنى أن جماعة من المفسرين وإن قالوا إن هذه الآية نزلت تسلية له عليه الصلاة والسلام فى اغتمامه بما سبق لسانه سهوا من حديث الغرانيق إلا أن رؤساء أهل السنة والجماعة ردوا هذا القول، وقالوا: هذه الرواية باطلة موضوعة، واحتجوا عليه بالقرآن العظيم والسنة والمعقول، أما القرآن فمنه قوله تعالى (ولو تَقَوَّل) أى النبى ﷺ بأن كلف نفسه أن يقول مرة فى الدهر كذبا (علينا بعض الأقاويل) أى التى لم نقلها، أو قلناها ولم نأذن له فيها (لأخذنا منه باليمين) أى بالقوة والقدرة (ثم لقطعنا منه الوتين) أى نياط القلب، وهو يتصل من الرأس، إذا انقطع مات صاحبه، ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ**﴾ (يونس: ١٥) ومنه قوله تعالى ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ (النجم: ٣) فلو أنه عليه الصلاة والسلام قرأ عقيب هذه الآية قوله: «تلك الغرانيق العلى»، لما ظهر صدق الله تعالى فى جميع ذلك، وذلك لا يقول به مسلم، وأما السنة فهو أنه روى عن محمد بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال: هذا من وضع الزنادقة، وصنف فيه كتابا. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل وإن رواة هذه القصة مطعونون. وأيضا فقد روى البخارى فى صحيحه أنه ﷺ قرأ سورة (والنجم) وسجد المسلمون والمشركون والإنس والجن، وليس فيه حديث الغرانيق، وأما المعقول فما ذكره الإمام النسفى فى تفسيره [1] بقوله:

---

(١) انظر تفسير النسفى جـ٣ ص ٧٩، ٨٠ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٣هـ

والصحيح المعتمد عليه أن النبي ﷺ لم يتكلم بها، فلا يخلو الأمر من أحد ثلاثة أوجه.

إما أن يجرى ذلك على لسانه عمدا باختياره، وهذا لا يجوز، لأنه كفر، وهو ﷺ جاء داعيا إلى الإيمان ناهيا عن الكفر طاعنا فى الأصنام، فكيف يمدحها ويعظمها باختياره.

وإما أن يجرى الشيطان ذلك على لسانه ﷺ جبرا، بحيث لم يقدر على الامتناع عنه، وهذا أيضا لا يجوز، لأن الشيطان لا يقدر على ذلك فى حق غيره ﷺ لقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحجر: ٤٢) وقوله تعالى، حكاية عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ (إبراهيم: ٢٢) فكيف يقدر على ذلك فى حقه ﷺ.

وإما أن يقع ذلك على لسانه ﷺ سهوا وغفلة من غير قصد، وهو أيضا مردود، لأنه ﷺ كان أعقل الخلق وأعلمهم فكيف تجوز عليه هذه الغفلة، خصوصا فى حالة تبليغ الوحى، ولو جاز ذلك لبطل الاعتماد على قوله والثقة به لقيام احتمال الغلط والخطأ فى كل واحد من الأحكام والشرائع، فلما بطلت هذه الوجوه كلها لم يبق إلا احتمال واحد وهو أنه عليه الصلاة والسلام وقف وسكت عند قوله (ومناة الثالثة الأخرى) والشيطان حاضر عنده، فتكلم الشيطان بهذه الكلمات، متصلا بقراءته ﷺ، ووقع عند بعضهم أنه ﷺ هو الذى تكلم بهذا، وتكون هذه إلقاء فى قراءة النبى ﷺ، وكان الشيطان يتكلم فى زمن الوحى كما ذكر أنه ظهر فى صورة شيخ نجدى على المشركين الذين اجتمعوا فى دار الندوة على قضية المكر بالنبى ﷺ، وتكلم فى شوارهم، واستصوب رأى بعضهم وخطا آخرين، وذكر أيضا أنه نادى يوم أحد: إن محمدا قد قتل، وقال يوم بدر: ﴿لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٨) وهذا الاحتمال غير مستحيل عقلا وشرعا، فتنة من الله وابتلاء لعباده، لكنه إنما يجوز فى غير مقام تبليغ الوحى وأداء الرسالة له، لأننا لوجوزنا ذلك لارتفع الأمان عن شرعه، ولجوزنا فى كل ما بلغه إلينا عن الله تعالى أن ينضم إليه غيره بخلط الشيطان، فظهر

مما ذكرنا أن هذه القصة موضوعة، غاية ما في الباب أن جمعا من المفسرين، رحمهم الله، ذكروها، لكنهم ما بلغوا في الكثرة حد التواتر، وخبر الواحد لا يعارض الدلائل العقلية والنقلية والمتواترة، فلذلك قال البيضاوي في تفسير الآية: (ألقى الشيطان) في تشهيه ما يوجب اشتغاله في الدنيا، ولم يقل ما يوافق تشهيه من الكلام، ثم قال البيضاوي: وإن صح فالظاهر أن مبنى الصحة أن يتكلم به الشيطان عند سكوته عليه الصلاة والسلام عند قوله تعالى (ومناة الثالثة الأخرى) فإنه أقرب بالاحتمالات المذكورة إلى الصحة فيكون المعنى ما من رسول ولا نبي قبلك إلا مكنا الشيطان أن يلقي في قراءتهم مثل ما ألقى في قراءتك عندما تمنيت، فلا تهتم بذلك فإنا نجعل ذلك لإضلال قوم وهداية آخرين، والتمييز بين الثابت على الإيمان والمتزلزل عنه. انتهى كلام البيضاوي[1].

وعبارة العلامة الشهاب الخفاجي في قوله: «وهو مردود عند المحققين وإن صح»، قد ذكرنا فيها ما قاله الشيخ زاده، وقال الشهاب الخفاجي فيها: قوله وهو مردود عند المحققين وإن صح، إشارة إلى عدم صحته رواية ودراية، أما **(الأول)** فلما قاله القاضي عياض: إنه لم يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة بسند صحيح معتمد عليه، وبالغ بعضهم فقال إنه من وضع الزنادقة، وأكثر المحدثين على عدم صحته. وأما **(الثاني)** فلما مر، فعلى تقدير صحته يكون خرج مخرج الكلام الوارد على زعمهم، أو على الإنكار لاغير، أو المراد بالغرانيق الملائكة، وإجماله للابتلاء به، وأما كونه ابتلاء من الله ليختبر به الناس، كما ذكره البيضاوي، رحمه الله تعالى، فلا يليق به، لأنه إن كان بسهو منه فقد علمت أنه محفوظ عن مثله، وإن كان يتكلم الشيطان وإسماعه لهم فكذلك لما يلزمه من عدم الوثوق بالوحي. انتهى كلام الشهاب.

قال الشيخ زاده عند قوله فيما تقدم: «وقيل تمنى قرأ كقول حسان» الخ: إن التمني في اللغة بمعنيين، تمني القلب والقراءة، قال الله تعالى ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ** ﴾ (البقرة: ٧٨) أي إلا قراءة، لأن الأمي لا يعلم القرآن

(١) انظر تفسير البيضاوي ص ٤٧٥، طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦م.

من المصحف وإنما يعلمه قراءة، وقال رواة اللغة: الأمنية القراءة، واحتجوا عليه ببيت حسان رضي الله عنه:

• تمنى كتاب الله أول ليلة •

وقيل الأولى في تأويل الآية أن يقال: التمني بمعنى القراءة، فقوله تعالى (ألقى الشيطان في أمنيته) أي عند تلاوته القرآن في قلوب المشركين ما يجادلون به الرسول ويحاجون به ويوقعون به شبهة في قلوب أتباعه ليمنعوهم عن اتباعه، كقولهم عند سماع قول الرسول ﴿ **حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ** ﴾ (النحل: ١١٥) إنه يحل ذبيحة نفسه ويحرم ذبيحة الله تعالى ﴿ **فينسخ الله ما يلقي الشيطان** ﴾في قلوب المشركين بإنزال قوله ﴿ **وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ** ﴾ (الأنعام: ١٢١) وقوله ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنعام: ١١٨) فبين به إنما أحل هذا بذكر اسم الله عليه وحرم الآخر بعدم ذكر اسم الله عليه، وكقولهم عند سماع ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ** ﴾ (الأنبياء: ٩٨) أن عيسى عليه الصلاة والسلام والملائكة عبدوا من دون الله تعالى، مع أنه تعالى لا يخزيهم يوم القيامة، فنسخ قولهم هذا بقوله تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** ﴾ (الأنبياء: ١٠١) فبين الله تعالى استثناء عيسى والملائكة من قوله ﴿ **وما تعبدون من دون الله** ﴾، وذلك لأن «ما» لغير العاقل، وأن المراد الأصنام فقط. انتهى عبارة الشيخ زاده.

وهذا زبدة ما قيل في قوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول** ﴾ إلى آخره.

وقد سبق أن من جملة المنكرين قصة ما في النجم القاضي عياض، فإنه قال: هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به المفسرون والمؤرخون. انتهى.

ولا ينظر لرد ابن حجر على القاضي عياض بأنه لا فائدة فيما قاله، ولا يعول على كلامه، لا سيما مع قول البيهقي: إن رواة هذه القصة كلهم مطعون فيهم،

ومع قول النووى، نقلا عن البيهقى، ونصه: «وأما ما يرويه الإخباريون والمفسرون أن سبب سجود المشركين مع رسول الله ﷺ ما جرى على لسانه من الثناء على آلهتهم فباطل لا يصح منه شىء، لا من جهة النقل ولا من جهة العقل، لأن مدح إله غير الله كفر، ولا يصح نسبة ذلك إلى رسول الله ﷺ، ولا أن يقوله الشيطان على لسانه ﷺ، ولا يصح تسليط الشيطان على ذلك وإلا لزم [1] عدم الوثوق بالوحى. وقال الفخر الرازى: هذه القصة باطلة موضوعة لا يجوز القول بها، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ (النجم: ٣) والشيطان لا يجترئ أن ينطق بشىء من الوحى.

وفى [الإبريز] للعارف بالله تعالى سيدى عبد العزيز الدباغ ما يفيد تصحيح قول القاضى عياض من أن حديث الغرانيق لا أصل له، ورد قول ابن حجر المحتاج للتأويلات فى تفسير هذه الآية، ثم فسرها صاحب [الإبريز] بتفسير بديع وأقرب للعقول، وعبارته: «إن الله تعالى ما أرسل من رسول ولا بعث نبيا من الأنبياء إلى أمة من الأمم إلا وذلك الرسول يتمنى الإيمان لأمته، ويحببه لهم، ويرغب فيه، ويحرص عليه غاية الحرص، ويعالجهم عليه أشد المعالجة، ومن جملتهم فى ذلك نبينا ﷺ الذى قال له الرب سبحانه: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾ (الكهف: ٦) وقال تعالى ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ (يوسف: ١٠٣) إلى غير ذلك من الآيات المتضمنة لهذا المعنى. ثم الأمة تختلف كما قال تعالى: ﴿ **وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ** ﴾ (البقرة: ٢٥٣) فأما من كفر فألقى إليه الشيطان الوساوس القادحة فى الرسالة، الموجبة لكفره، وكذا المؤمن أيضا لا يخلو من وساوس، لأنها لازمة للإيمان بالغيب فى الغالب، وإن كانت تختلف فى الناس بالقلة والكثرة، وبحسب المتعلقات، وإذا تقرر هذا فمعنى (تمنى) أنه يتمنى الإيمان لأمته ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح، فهذه أمنية كل رسول ونبى، وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه فى قلوب أمة الدعوة [1] من الوساوس لكفر بعضهم، ويرحم الله المؤمنين

---

(١) فى الأصل: الدعوى.

فينسخ ذلك من قلوبهم ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة، ويبقى ذلك عز وجل فى قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به. فخرج من هذا أن الوساوس تلقى أولا فى قلوب الفريقين معا، غير أنها لا تدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين. وهذا التفسير من أبدع ما يسمع لأنه يوفى بثلاثة أمور: العموم الذى فى أولها، والتعليل الذى فى آخرها، ويعطى الرسالة حقها». انتهى كلام صاحب [الإبريز][1].

ومنه يفهم أن إلقاء الوسوسة إنما هو فى المُتَمَنَّى للأمة من أنبيائهم لهم، وهو إيمانهم وطاعتهم وتوفيقهم، مما هو وصفهم، وليست الوسوسة متوجهة على الأنبياء المعصومين الذين خاتمهم وأكملهم ﷺ، فإن من عرف ما يجب للرسل وما يستحيل عليهم وما يجوز لهم علم وجوب العصمة واستحالة ضدها.

* * *

وبيان ذلك أنه يجب فى حقهم الأمانة، والصدق، والتبليغ، والفطانة.

فأما الأمانة: فهى عصمة ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهى عنه، ولو نَهْى كراهة، أو خلاف الأولى، فهم محفوظون من منهيات الظاهر ومن منهيات الباطن، كالحسد والكبر والرياء، وغير ذلك، والمراد المنهى عنه ولو صورة، فيشمل ما قبل النبوة ولو فى حال الصغر، حتى إن المباح أو المكروة إذا وقع منهم كان صورة للتشريع فيصير واجبًا أو مندوبًا فى حقهم، فأفعالهم دائرة بين الواجب والمندوب، بل والأولياء الذين هم من أتباعهم من يصل منهم لمقام تصير حركاته وسكناته طاعات بالنيات، فقد ثبت أنه ﷺ توضأ مرة أو مرتين وشرب قائمًا. وأما المحرم فلم يقع منهم إجماعًا، وما أوهم المعصية فمؤول من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، ولا يجوز النطق به فى غير مورده إلا فى مقام البيان. ودليل وجوب الأمانة لهم أنهم لو خانوا بفعل محرم أو مكروه أو خلاف الأولى لكنا مأمورين به

---

(١) وانظر فى عرض هذه الآراء ونقد الخاطىء منها تفسير الإمام محمد عبده لهذه الآيات بالجزء الخامس من أعماله الكاملة ص ٢٨٣ ـ ٢٩٧.

لأن الله تعالى أمرنا باتباعهم فى أقوالهم وأفعالهم، وهو تعالى لا يأمر بمحرم ولا مكروه ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ (الأعراف: ٢٨).

وأما الصدق: فهو مطابقة خبرهم للواقع فى دعوى الرسالة والأحكام الشرعية والأخبار العادية، لأنهم لو لم يصدقوا لما كان معنى لتصديقه تعالى لهم بالمعجزة النازلة منزلة قوله تعالى: صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى، وأيضًا صدقهم فى الأخبار العادية دليله داخل فى دليل الأمانة. وأما التبليغ: فهو تأدية ما أتوا به مما أمروا بتبليغه للخلق، بخلاف ما أمروا بكتمانه، وما خير وافيه، ودليله أنهم لو كتموا شيئًا مما أمروا بتبليغه للخلق لكنا مأمورين بكتمان العلم، لأن الله تعالى أمرنا بالاقتداء بهم، وكاتم العلم ملعون، ولو جاز عليهم الكتمان لكتم رئيسهم الأعظم ﷺ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ (الأحزاب: ٣٧) وأصح محامله ما نقله من يعول عليه فى التفسير عن على ابن الحسين[1] من أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه، فلما شكاها إليه زيد قال (أمسك عليك زوجك واتق الله) وأخفى فى نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها، والله مبدى ذلك بطلاق زيد لها وتزويجها ﷺ، ومعنى الخشية استحياؤه ﷺ من الناس أن يقولوا تزوج زوجة ابنه، أى من تبناه، فعاتبه الله تعالى على هذا الاستحياء، لعلو مقامه، وما قيل من أنه ﷺ تعلق قلبه بها وأخفاه فلا يلتفت إليه وإن جل ناقلوه، فإن أدنى الأولياء لا يصدر عنه مثل هذا الأمر فما بالك به ﷺ[2].

وأما **الفطانة**: فهى التيقظ لإلزام الخصوم، إبطال دعاويهم الباطلة، ودليلها الآيات كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنعام: ٨٣) والإشارة بتلك عائدة على ما احتج به على قومه من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ (الأنعام: ٧٦) إلى قوله ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وكآية: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾

(١) زين العابدين (٦٥٨ ـ ٧١٢م) وهو ابن الحسين بن علي بن أبي طالب.

(٢) انظر [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق محمد عمارة ـ جـ ٥ ص ٣٠٠ ـ ٣٠٦.

(هود: ٣٢) وكآية: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥) أي بطريق تشتمل على نوع من الإرفاق بهم، ومن لم يكن فطنًا لا تمكنه الحجة ولا المجادلة، وما ثبت لبعضهم من الكمال ثبت لغيره فتثبت الفطانة لجميعهم.

ويستحيل فى حقهم ضد هذه الصفات الأربعة، فضد الأمانة الخيانة، وضد الصدق الكذب، وضد التبليغ كتمان شئ مما أمروا به، وضد الفطانة الغفلة.

وأما الجائز فى حقهم فهو سائر الأعراض البشرية التى لا تؤدى إلى نقص فى مراتبهم العلية كالأكل والشرب والنوم، وما يكون من توابع الصحة، ومما يستغنى عنه كالجماع للنساء حلالا، سواء كان بالنكاح أو بالملك، فيجوز لهم الوطء بالنكاح لها عدا الكتابية والمجوسية ونحوهما، وما عدا نكاح الأمة ولو مسلمة لأنها إنما تنكح لخوف العنت ولعدم المهر وكل منهما منتف، أما الأول فللعصمة وأما الثانى فلأنه يجوز للنبى أن يتزوج بدون مهر، ويعلم من تقييد النكاح بالحلال أنهم لا يطؤن صائمات صومًا مشروعًا، ولا معتكفات كذلك، ولا حائضات، ولا نفساء، ولا مُحْرِمات بحج ولا عمرة، ولا يجوز الاحتلام، كما صححه النووى، لأنه من الشيطان، وقد ورد: ما احتلم قط، وأما جواز وطئهم بالملك فيكون للأمة الكتابية معللا بأنه ﷺ شريف عن أن يضع نطفته فى رحم غير مسلمة وبأنها تكره صحبته، وأما الأمة المسلمة بالملك فجائز باتفاق.

ويجوز عليهم المرض الغير المنفر، والإغماء الغير الطويل، بخلاف الجنون، قليله وكثيره، وأما سحر لبيد بن الأعصم له ﷺ فى مشط سنة سبع من الهجرة بإغراء اليهود للبيد على ذلك بإعطائهم دنانير جعلتها له فى مقابلة ذلك، فلم يُؤَثِّر هذا السحر إلا فى بعض جوارحه ﷺ لا فى عقله، فلم يكن قادحًا فى منصبه النبوى، وأما ما فى بعض الروايات من أنه ﷺ صار يخيل إليه أن يفعل الشئ ولا يفعله، فقال أبو بكر بن العربى [1] لا أصل له، وأما السهو فممتنع عليهم فى الأخبار البلاغية، كقولهم: الجنة أعدت للمتقين وعذاب القبر حق، وغير البلاغية

---

(١) محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى ١٠٧٦-١١٤٨م أديب ومجتهد وأحد حفاظ الحديث، اشتغل بالقضاء، وله آثار فى الفقه والتاريخ والأصول. والأدب والتفسير.

كقام زيد وقعد عمرو وهكذا، وجائز عليهم السهو فى الأفعال البلاغية وغيرها كالسهو فى الصلاة للتشريع، ولكن لم يكن سهوهم ناشئًا عن اشتغالهم بغير ربهم، ولذلك قال بعضهم:

يا سائلى عن رسول الله كيف سها والسهو عن كل قلب غافل لاهى

قد غاب عن كل شيء سره فها عما سوى الله فالتعظيم لله

ومن السهو الفعلى حديث ذى اليدين لما قال له: أقصرت الصلات أم نسيت يا رسول الله؟ حين سلم من ركعتين، فقال: «كل ذلك لم يكن»، فقال ذو اليدين: بل بعض ذلك كان، فقوله ﷺ: «كل ذلك لم يكن»، لم يخل عن مطابقة الواقع بحسب اعتقاده ﷺ، وقول ذى اليدين: بل بعض ذلك كان، فيه مطابقة الخبر للواقع بحسب مارآه، وكل ذلك للتشريع وتعريف سجود السهو، وأما النسيان فهو ممتنع فى البلاغيات قبل تبليغها، قولية كانت أو فعلية، فالقولية كالجنة أعدت للمتقين، والفعلية كصلاة الضحى إذا أمر بها ليقتدى به فيها، فلا يجوز نسيان كل منهما قبل تبليغ الأولى بالقول والثانية بالفعل، وأما بعد التبليغ فيجوز نسيان ما ذكر، من الله، وأما نسيان الشيطان فيستحيل عليهم، إذ ليس للشيطان عليهم سبيل، وقول يوشع ﴿ **وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ** ﴾ (الكهف: ٦٣) فكان قبل نبوته وعلمه بحال نفسه وإلا فهو رحمانى.

وبالجملة، فيجوز على ظواهر الأنبياء ما يجوز على البشر مما لا يؤدى إلى نقص، وأما بواطنهم فمنزهة عن ذلك متعلقة بربهم. هذا تحقيق المقام، فالتأويل اللائق بمقامهم هو الجدير بالقبول و المطابق للحق عند المحققين فى فن الكلام من المتكلمين، كالإمام شرف الدين التلمسانى [(١)]، وكالإمام السنوسى [(٢)]، المغترف

(١) إبراهيم بن أبى بكر الأنصارى (١٢١٢ ـ ١٢٩١م) أديب، ولد بتلمسان بالجزائر وتوفى بسبتة، وله عدة آثار فى السيرة والمغازى.

(٢) محمد بن على الإدريسى (١٧٨٧ ـ ١٨٥٩ م) زعيم الطريقة السنوسية ومؤسسها، ولد فى الجزائر، ثم أقام بالجبل الأخضر فى ليبيا.

من بحر الله، وقد سبق الكلام على أن مدح أصنام المشركين لا ذكر لها فى سورة والنجم وأن هذا إلقاء من الشيطان فى قلوبهم ليجادلوا به .

* * *

وأما الهجرة الثانية فإنه لما تبين للمشركين عدم ذكر آلهتهم غضبوا ورجعوا إلى العداوة أشد من الأول، فلما بلغ ذلك القادمين حين دنوهم من مكة، وكانوا قد خرجوا فى رجب إلى الحبشة، وأقاموا بها شعبان ورمضان، وقدموا فى شوال، كما سبق، لم يدخل أحد منهم إلا بجوار مجير أو مستخفيًا، إلا عبد الله بن مسعود فإنه دخل بدون جوار أحد، ثم خرج وهاجر، وممن دخل فى الجوار عثمان بن مظعون، فإنه دخل بجوار الوليد بن المغيرة، وكان قد اشتد الحال على من قدم مكة ولم يدخل فى الجوار، حتى إن عشائره تفعل به الأذى الشديد فلما وجد عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء، وهو يغدو ويروح فى أمان الوليد بن المغيرة، قال: الله إن غدوى ورواحى آمنا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى لنقص كبير فى نفسى، فمشى إلى الوليد فقال: يا أبا عبد شمس، وفت ذمتك، وقد رددت إليك جوارك، قال: لم يا ابن أخى؟ لعله آذاك أحد من قومى وأنت فى ذمتى فأكفيك ذلك؟! قال: لا والله، ما اعترض لى أحد ولا آذانى، ولكنى أرضى بجوار الله عز وجل ولا أريد أن أستجير بغيره، قال: انطلق إلى المسجد فاردد لى جوارى علانية كما أجرتك علانية، فانطلقا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يرد علىَّ جوارى، فقال عثمان: صدق، قد وجدته وفيًا كريم الجوار، ولكنى لا أستجير بغير الله عز وجل، قد رددت عليه جواره، فقال الوليد: أشهدكم أنى برئ من جواره إلا أن يشاء، ثم انصرف عثمان ولبيد بن ربيعة بن مالك فى مجلس من قريش ينشدهم قبل إسلامه فجلس عثمان معهم فقال لبيد: * ألا كل شئ ما خلا الله باطل * فقال عثمان: صدقت، فقال لبيد * وكل نعيم لا محالة زائل * فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول، قال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذيكم جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه فمن

سفاهته فارق ديننا فلا تجدن فى نفسك من قوله، فرد عليه عثمان، فقام ذلك الرجل فلطم عينه، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا ابن أخى كانت عينك عما أصابها لغنية، ولقد كنت فى ذمة منيعة فخرجت منها، وكنت عن الذى لقيت غنيًا، فقال عثمان، رضى الله عنه: بل كنت إلى الذى لقيت فقيراً، والله إن عينى الصحيحة التى لم تلطم لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله عز وجل، ولى فيمن هو أحب إلىّ منكم أسوة، وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس، فقال له الوليد: هلم يا ابن أخى إن شئت إلى جوارك فعد فقال: لا . . .

وصار الأمر يشتد على أصحاب رسول الله ﷺ القادمين لقصد مكة من الهجرة الأولى، وغيرهم، وسطت بهم عشائرهم ولقوا منهم أذى شديدًا، فأذن لهم رسول الله ﷺ فى الهجرة إلى أرض الحبشة مرة ثانية، فخرج ابن مسعود ومعه عدد كثير من الناس، فكانت خرجتهم الثانية أعظم مشقة، ولقوا من قريش تعنيفًا شديدًا ونالوهم بالأذى واشتد على قريش ما بلغهم عن النجاشى من حسن جواره للمهاجرين فقال عثمان بن عفان يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة ولست معنا فقال ﷺ: «أنتم مهاجرون إلى الله وإلىّ، لكم هاتان الهجرتان جميعًا» قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله.

وبهذه الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة كانت عدة من بأرض الحبشة من المهاجرين مائة نفس وواحدًا، إن حسب عمار بن ياسر فيهم، الذكور منهم ثلاثة وثمانون والإناث ثمانى عشرة وخرج أبو بكر رضى الله عنه مهاجرًا إلى الحبشة حتى بلغ موضعًا يقال له برك الغُماد [١] ثم رجع أبو بكر فى جوار سيد القاره [٢] مالك بن الدغنة، فلما رأت قريش استقرار المهاجرين فى الحبشة وأمنهم أرسلوا فيهم إلى النجاشى عمرو بن العاص وعبد الله ابن ابى ربيعة بهدايا وتحف من بلادهم والتمسوا منه رد من هاجر إلى بلاده من المسلمين فأبى ذلك وردهما

---

(١) بفتح الباء وكسرها، والغماد ـ بكسر الغين المعجمة وضمها ـ محل فى أقاصى هجر أو باليمن، ويقال هو مدينة الحبشة [الطهطاوى].

(٢) اسم قبيلة، ومنهم مسعود بن ربيعة القارئ. [الطهطاوى].

خائبين، ثم بعد ذلك وقع من الحبشة تعصب على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا له إن هؤلاء لهم دين غير ديننا، فأرسل وراءهم وقال لهم: ما تقولون فى عيسى بن مريم؟ فقالوا: نؤمن به ونصدقه فيما جاء به، فقال للحبشة: ما تقولون فى نبيهم؟ فلم يؤمنوا به، فقال النجاشى لهم: هؤلاء يؤمنون بنبيكم وأنتم لا تؤمنون بنبيهم؟ فأنتم الآن ظلمة، فكل منكم على دينه ولا أحد منكم يعارض هؤلاء، فاستمروا فى بلاده مدة وعادوا إلى أوطانهم، وكان إسلامه فى سنة سبع من الهجرة، ويدل على صحة إسلامه أنه لما توفى فى رجب سنة تسع من الهجرة قال النبى ﷺ مات اليوم رجل صالح فصلوا على أخيكم أصحمة فصلى عليه النبى ﷺ وأصحابه صلاة الغائب، ولما صلى عليه رسول الله ﷺ طعن المنافقون فى ذلك فنزلت هذه الآية (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) إلى آخرها قال ابن جريج وقال آخرون نزلت فى عبد الله بن سلام، وسيأتى بيان ما صنعه النجاشى من كلام المهاجرين وغير ذلك مما يتعلق به فى (الفصل السابع) فى ظواهر السنة السابعة من الهجرة عند ذكر قدوم جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه من الحبشة وذلك الفصل المذكور من (الباب الثالث) من (المقالة الخامسة) من الجزء الثانى.

ولما رأت قريش عزة النبى ﷺ بمن معه، وعزة أصحابه بالحبشة، وإسلام عمر ابن الخطاب، وإسلام عمه حمزة، رضى الله عنهم، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على معاداة بنى هاشم وبنى المطلب، أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ويقطعوا عنهم الأسواق، ولا يقبلوا منهم صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وكان اجتماعهم وتحالفهم فى خَيْف[1] بنى كنانة بالأبطح، ويسمى محصبًا، بأعلى مكة، عند المقابر، وكتبوا بذلك صحيفة بخط منصور بن عكرمة، وقيل بخط بغيض بن عامر، وعلقوا الصحيفة فى جوف الكعبة الشريفة، هلال المحرم سنة سبع من مبعثه ﷺ، فانحاز الهاشميون إلى أبى طالب مسلمهم حتى إن كافرهم فعل ذلك حمية على عادة الجاهلية، فدخلوا معه فى شعْبه، وخرج من بنى هاشم أبو لهب بن عبد العزى ابن عبد المطلب إلى قريش

(١) الخيف - بفتح الخاء وسكون الياء - كل هبوط وارتفاع فى الجبل ويطلق كذلك على ما ارتفع عن مسيل الماء.

مظاهرًا لهم[1]، وكانت امرأته، أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان، على رأيه فى عداوة رسول الله ﷺ، كانت تحمل الشوك فتضعه فى طريقه ﷺ، فسماها الله تعالى (حمالة الحطب) وأقام بنو هاشم فى الشعب ومعهم رسول الله ﷺ، نحو ثلاث سنين، وكان بنو هاشم محصورين فى الشعب لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم حتى جهدوا، وكان لا يصل إليهم ممن أراد صلتهم إلا سرًا، وهذا رسول الله ﷺ مقبل على شأنه من الدعاء إلى الله، والوحى عليه يتتابع.

ثم إن النبى ﷺ أخبر عمه أبا طالب بأن الله سلط الأَرَضَةَ على الصحيفة فلم تدع فيها غير اسم الله تعالى، الذى كانت قريش تستفتح به كتابها، وهو لفظ «باسمك اللهم»، ونفت منها الظلم وقطع الرحم، فانطلق أبو طالب فى عصابة حتى أتوا المسجد فلما رأتهم قريش ظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ليسلموا رسول الله ﷺ، فقال أبو طالب: إنما أتيت فى أمر هو نَصَف فيما بيننا وبينكم، إن ابن أخى أخبرنى بأمر، فإن كان الحديث كما يقول فلا والله لا نسلمه حتى نموت عن آخرنا، وإن كان الذى يقول باطلاً دفعنا لكم صاحبنا فقتلتم أو استحييتم. وأخبرهم الخبر، فقالوا: قد رضينا الذى تقول، ففتحوا الصحيفة فوجدوها كما قال، فقالوا: هذا سحر ابن أخيك! وزادهم ذلك بغيا، ثم مشى فى نقض الصحيفة قوم من قريش وأخرجوا بنى هاشم وبنى المطلب من الشِّعْب، وذلك فى السنة العاشرة من مبعثه ﷺ.

ثم قدم الطفيل بن عمرو الدوسى، وكان شريفًا فى قومه، فأسلم، ثم استأذن النبى ﷺ ورجع إلى قومه فأسلم منهم على يده ناس قليل، فرجع إلى النبى ﷺ فشكا ذلك إليه، وسأله أن يدعو عليهم، فقال: «اللهم أهد دوسًا، ارجع إلى قومك فادعهم وأرفق بهم» قال الطفيل: فلم أزل أدعوهم حتى مضى الخندق، ثم قدمت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتًا من دوس بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين.

وقدم عليه ﷺ عشرون رجلاً من نصارى نجران[2]، حين بلغهم خبر من هاجر من المسلمين إلى الحبشة، فوجدوه ﷺ فى المسجد، فجلسوا إليه وسألوه

(١) فى الأصل: إليهم.

(٢) مدينة بالحجاز من شق اليمن، معروفة، سميت بنجران بن زيد بن يشجب بن يعرب، وهو أول من نزلها. وقال فى [النهاية]: موضع معروف بين الحجاز والشام واليمن. [الطهطاوى].

وكلموه، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ينظرون إليهم، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ كما أرادوا، دعاهم رسول الله إلى الله تعالى، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وعرفوا منه ما هو موصوف به فى كتابهم فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب! بعثكم من وراء كم من أهل دينكم ترتادون ـ أى تنظرون ـ الأخبار لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم فصدقتموه بما قال! لا نعلم ركبًا أحمق منكم! فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نجادلكم[1] لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه. ويقال نزل فيهم قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ** ﴾ (القصص: ٥٥) ونزل قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ** ﴾ (المائدة: ٨٣)، وكان من القادمين على رسول الله ﷺ أميرهم العاقب عبد المسيح، من كندة.

ثم هاجر ﷺ إلى الطائف.

قال الحافظ ابن عبد البر، وغيره: أول موروث فى الإسلام عدى بن نضلة، وأول وارث نعمان بن عدى، وكان عدى قد هاجر إلى أرض الحبشة فمات بها فورثه ابنه نعمان، واستعمله عمر على «ميسان»، ولم يستعمل من قومه غيره، فراود امرأته على الخروج فأبت فكتب إليها يقول:

فمن مبلغ الحسناء أن حليلها ... بميسان يسقى فى زجاج وحنتم[2]

إذا شئت غنتنى دهاقين قرية ... وصناجة[3] تحدو على كل ميسم

إذا كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى ... ولا تسقنى بالأصغر المتثلم

---

(١) فى الأصل: نجاهلكم.

(٢) والحنتم: واحدة الحناتم، وهو فى الأصل جرار مدهونة خضر، كانت تحمل فيها الخمر إلى المدينة، ثم اتسع فيها فقيل للخزف كله حنتم. [الطهطاوى].

(٣) والصناجة: آلة لهو، وهى الطبل المعروف المذكورة فى قول الحريرى: أحسنت بالعيش يا صناجة الجيش. [الطهطاوى].

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فكتب إليه يقول : بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿ حمٓ ① تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ② غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ (غافر : ١ ، ٣) الآية . أما بعد ، فقد بلغنى قولك :

• لعل أمير المؤمنين يسوءه •

إلى آخره . . وأيم الله لقد ساءنى» . ثم عزله ، فلما قدم عليه سأله فقال : ما كان من هذا شيء ، وما كان إلا فضل شعر وجدته ، وما شربتها قط . فقال عمر : أظن ذلك ولكن لا تعملُ لى عملاً أبدًا . فنزل البصرة ، ولم يزل يغزو مع المسلمين حتى مات ، وشعره فصيح تستشهد به أهل اللغة على ندمان بمعنى نديم ، وهذا مصداق قوله تعالى ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ (الشعراء : ٢٢٤) الآية ، قال الشاعر :

يقولون ما لا يفعلون مذمة من الله مذموم بها الشعراء

وما ذاك فيهم وحده بل زيادة يقولون ما لا يفعل الأمراء

الفصل الثالث

(فى هجرته ﷺ إلى الطائف قبل هجرته إلى المدينة المشرفة)

لما توفى عمه أبو طالب فى السنة العاشرة من البعثة، بعدما خرج من الحصار بالشعب بثمانية أشهر وأحد وعشرين يوما، وله بضع وثمانون سنة، نالت قريش من النبى ﷺ ما لم تكن نالته فى حياته، فهاجر إلى الطائف فى شوال سنة عشر من البعثة، وهو مكروب مشوَّش الخاطر مما لقى من قريش ومن قرابته وعترته، خصوصا من أبى لهب وزوجته حمالة الحطب من الهجوم والسب والتكذيب، فكانت تتجاذبه قريش وتقول له: أنت الذى جعلت الآلهة إلها واحدا؟! فخرج إلى الطائف مع زيد بن حارثة يلتمس من ثقيف الإسلام رجاء أن يسلموا وأن يناصروه على الإسلام ويقوموا معه على من خالفه من قومه، لأنهم كانوا أخواله، فلم يجد منهم ذلك، ومن هجرته ﷺ إلى الطائف عند ضيق صدره وتعب خاطره جعل الله الطائف مستأنسا لأهل الإسلام ممن بمكة إلى يوم القيامة.

ولما انتهى ﷺ إلى الطائف عمد إلى سادات ثقيف وأشرافهم، وكانوا إخوة ثلاثة، أولاد عمرو بن عمير بن عوف الثقفى، وهم عبد ياليل، واسمه كنانة وعبد كلال [1] ولم يعرف لهما إسلام، وحبيب، قال الذهبى وفى صحبته نظر، وجلس ﷺ إليهم وكلمهم فيما جاءهم به من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فلم يجيبوه إلى شىء من ذلك، فقام ﷺ من عندهم وقد أيس، وقال لهم: «اكتموا علىَّ»، وكره أن يبلغ قومه ذلك فيشتد أمرهم عليه، وقالوا له:

(١) بضم الكاف وتخفيف اللام. [الطهطاوى].

اخرج من بلدنا والحق بمنجاتك من الأرض، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمونه بالحجارة حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة، فلما دخل الحائط رجعوا عنه، فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما، فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له عَدَّاس، معدود في الصحابة، مات قبل الخروج إلى بدر، فقالا: خذ قطْفًا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، فأقبل عداس بالطبق حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله فيه يده الشريفة قال: بسم الله، ثم أكل، فنظر عداس فى وجهه وقال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له ﷺ :من أى البلاد أنت! وما دينك يا عداس؟ فقال: نصرانى، وأنا من أهل نينوى، فقال ﷺ أنت من مدينة الرجل الصالح يونس بن متى! فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فإنى خرجت والله من نينوى وما فيها عشرة يعرفون ما متى! فمن أين عرفت ابن متى، وأنت أمى وفى أمة أمية؟! فقال رسول ﷺ :ذلك أخى، كان نبيا، وأنا نبى أمى! فقام عداس وأكب على رسول ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه، فقال أحد الأخوين عتبة وشيبة للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك! فلما جاءهما عداس قال له أحدهما: ويلك! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ فقال: ياسيدى ما فى الأرض شيء خير من هذا، لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبى! فقال: ويحك ياعداس! ليصرفنك عن دينك، وليفتننك عن نصرانيتك، فإنه رجل خَدَّاع، ودينك خير من دينه.

فأقام ﷺ بالطائف عشرة أيام وشهرا لا يدع أحدا من أشرافهم ـ أى زيادة على عبد ياليل وأخويه إلا جاء إليه وكلمه، فلم يجبه أحد، ثم ذهب إلى نخلة وهى موضع على ليلة من مكة أقام بها أياما.

وحضر إليه سبعة من جن نصيبين [1]، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فحين رجعوا إلى قومهم قالوا: ﴿ **إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا** ﴾ (الجن: ١) فأوحى الله إلى

(١) وهى مدينة بالشام، بوادى نخلة، موضع على ليلة من مكة. [الطهطاوى].

نبيه ﷺ ما قالوه لقومهم. وعن ابن مسعود أنه ﷺ قال: «أمرت أن أتلو القرآن على الجن فمن يذهب؟ فسكتوا، ثم قال الثانية فسكتوا، ثم قال الثالثة، فقلت: أنا أذهب معك يا رسول الله، قال: فانطلق حتى جاء الحجون، عند شعْب ابن أبى ذئب، خط عليّ خطا فقال «لا تجاوزه» ثم مضى إلى الحجون، فانحدروا عليه أمثال الحجل كأنهم رجال الزط [(١)] وكأن وجوههم المكاكى [(٢)] يقرعون فى دفوفهم كما تقرع النسوة دفوفهن، حتى غشوه فغاب عن بصرى، فقمت، فأومأ إلى بيده أن اجلس، ثم تلا القرآن فلم يزل صوته يرتفع ولصقوا بالأرض حتى صرت لا أراهم، فلما عاد إليّ قال: أردتَ أن تأتينى؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: ما كان ذلك لك، هؤلاء الجن أتوا يستمعون القرآن، ثم ولوا إلى قومهم منذرين، فسألونى الزاد فزودتهم العظْم والبَعْر فلا يستطيبن أحدكم بعظم ولا بعر، وذكر فى [كتاب القرى] أن بأعلى مكة مسجدا يقال له مسجد الجن ومسجد البيعة أيضا، يقال إن الجن بايعوا رسول ﷺ هناك.

ولما أراد الدخول إلى مكة قال له زيد بن حارثة: كيف تدخل على قريش وهم السبب فى خروجك لتستنصر فلم تنصر؟ فقال: «يازيد، إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه»، فسار رسول الله ﷺ إلى حراء، ثم بعث إلى الأخنس بن شريق، رضى الله عنه، ليجيره، وكان ذلك قبل إسلامه، وليدخل ﷺ مكة فى جواره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير، فبعث ﷺ إلى مطعم بن عدى، الذى مات على دين قومه قبل بدر بنحو سبعة أشهر، يقول له: إنى داخل مكة فى جوارك؟! فأجابه إلى ذلك، فدخل ﷺ مكة، ثم تسلح المطعم بن عدى وأهل بيته وخرجوا حتى أتوا المسجد، فقام المطعم ابن عدى على راحلته ونادى: يا معشر قريش، إنى قد أجرت محمدا فلا يؤذيه أحد

---

(١) قال ابن الأثير فى [النهاية]: والزط قوم من السودان والهنود. [الطهطاوى]. . والحجل - بفتح الحاء وسكون الجيم - لون من المشى يشبه مشى المقيد يقفز على الرجلين معا، أو مشى من يرفع رجلا ويمشى متربثا على الأخرى.

(٢) المكاكى نوع من الطيور، واحدها مكاء - بضم الميم وتشديد الكاف المفتوحة - ويقال: مكا يمكو إذا صفَّر.

منكم، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ : أن ادخل فدخل ﷺ المسجد وطاف بالبيت وصلى عنده، ثم انصرف إلى منزله والمطعم بن عدى وولده مطيفون به ﷺ ، وأقبل أبو سفيان على المطعم فقال: إذن قد آجرنا من أجرت!

ولا بدع فى دخوله ﷺ فى أمان مشرك، لأن حكمة الحكيم القادر قد تخفى.

وهذا السياق يدل على أن قريشا كانوا أزمعوا على عدم دخوله ﷺ بسبب ذهابه إلى الطائف ودعائه إلى أهله.

ولما بعث الله رسوله ﷺ وأنزل عليه الوحى وأمره بإظهار دينه وأيده بالمعجزات الظاهرات والآيات الباهرات، أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس من «إبليا» وقد فشا الإسلام فى قريش وفى القبائل كلها، وكان الإسراء به ﷺ والمعراج ليلة سبع وعشرين من رجب، وقال بعضهم: إنهما كانا يوم الاثنين، فهما موافقان للمولد والمبعث والهجرة والوفاة، لأنه ﷺ ولد يوم الاثنين وبعث يوم الاثنين وهاجر من مكة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وتوفى يوم الاثنين.

الفصل الرابع

(فى الإسراء به ﷺ ليلاً من المسجد الحرام، وعروجه من المسجد الأقصى إلى السماوات العلى)

ولما بلغ ﷺ إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر، قبل الهجرة بسنة، أسرى به من حجْر مكة المعظم ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو أول القبلتين[1]، وثانى المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدى هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى».

ثم عرج به من المسجد الأقصى، إلى السموات العلى، إلى سدرة المنتهى، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام[2]. قال الماوردى: كل موضع ذكر الله فيه المسجد الحرام فالمراد به الحرم إلا فى قوله تعالى: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ (البقرة: ١٤٤) فإنه أراد به الكعبة. ولم يرد فى أحاديث المعراج الثابتة أنه ﷺ عرج به إلى العرش تلك الليلة، بل لم يرد فى حديث أنه ﷺ جاوز سدرة المنتهى، بل انتهى إليها، وقد سئل الشيخ رضى الدين القزوينى[3] رحمة الله، عن وطء النبى ﷺ العرش بنعله، وقول الرب جل جلاله: لقد شرف العرش بنعلك

---

(١) فى الأصل: قبلتين، بدون أداة التعريف. (٢) صريف الأقلام: صريرها وصوتها.

(٣) أحمد بن إسماعيل بن يوسف الطالقانى (١١١٨ - ١١٩٤ م) واعظ وعالم بالحديث من أهل قزوين، اشتغل بالتدريس، وكان إماما فى فقه الشافعية، ومن آثار [التبيان فى مسائل القرآن] فى الرد على أهل الحلول والجهمية الجبرية.

يامحمد، هل ثبت ذلك أم لا؟ فأجاب بما نصه: «أما حديث وطء النبى ﷺ العرش بنعله فليس بصحيح، وليس بثابت، بل وصول النبى ﷺ ذروة العرش لم يثبت فى خبر صحيح ولا حسن ولا ثابت أصلا، وإنما صح فى الإخبار انتهاؤه إلى سدرة المنتهى فحسب، وأما إلى ما وراءها فلم يصح، وإنما ورد ذلك فى أخبار ضعيفة أو منكرة». قال النجم العيطى، رحمه الله: «وقد رأيت بخط بعض المحدثين، بعد نقله كلام الشيخ رضى الدين رحمه الله: «هو الصواب».

وقد وردت قصة الإسراء والمعراج مطولة ومختصرة عن نحو أربعين صحابيا، وليس فى حديث أحد منهم أنه ﷺ كان تلك الليلة فى رجله نعله، وإنما وقع ذلك فى نظم بعض القصاص الجهلة، إلى أن قال: وهذا باطل لم يذكر فى شىء من الأحاديث بعد الاستقراء التام، ولم يرد فى حديث صحيح ولا حسن ولا ضعيف أنه رقى العرش، وما وقع فى بعض الأحاديث التى افتراها بعضهم لا يلتفت إليه، ولا أعلم خبرا ورد فيه أنه ﷺ رأى العرش، إلا ما رواه ابن أبى الدنيا عن ابن أبى المخارق أن النبى ﷺ قال: «مررت ليلة أسرى بى برجل مغيب فى نور العرش، قلت: من هذا أملك؟ قيل: لا، قلت: نبى؟ قيل: لا، قلت: من هو؟ قيل: هذا رجل كان فى الدنيا لسانه رطبا من ذكر الله، وقلبه معلق بالمساجد، ولم يستسب لوالديه». وهو خبر مرسل لا تقوم به الحجة فى هذا الباب، وما ذكر فى السؤال، يعنى المتقدم، من أنه ﷺ رقى العرش بنعله، فقاتل الله من وضعه، ما أعدم حياءه وأدبه، وما أجرأه على اختلاق الكذب على سيد المتأدبين ورأس العارفين، ﷺ».

وحدث ﷺ عن ليلة أسرى به، كما رواه البخارى ومسلم وغيرهما، فقال: «بينما أنا فى الحطيم»، وربما قال فى الحجر، «مضطجع». وفى رواية بين النائم واليقظان، «إذ أتانى آت» قال: «فسمعته»، يقول: «فشق ما بين هذه إلى هذه»، يعنى من ثغرة نحره إلى عانته، «فاستخرج قلبى، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة حكمة وإيمانا، فغسل قلبى، ثم حشى». والحديث فيه اختصار، والأصل: فاستخرج قلبه، ثم شق، واستخرج منه علقة، وقيل هذا حظ الشيطان منك، ثم غسل بماء زمزم، كما يدل عليه حديث آخر، وفى رواية علقتين سوداوين، وفى لفظ: مضغة.

وقد اختلف فى تفسير الحكمة فقيل: هى العلم المشتمل على معرفة الله تعالى مع نقاء البصيرة وتهذيب النفس وتحقيق الحق للعمل به والكف عن ضده، والحكيم من حاز ذلك.

قال الإمام النووى فى [شرح مسلم]: وليس فى هذا ما يوهم جواز استعمال الذهب لنا، فإن هذا فعل الملائكة واستعمالهم، وليس يلازم أن يكون حكمهم حكمنا، ولأنه كان قبل تحريم أوانى الذهب والفضة، والتحريم إنما وقع بالمدينة، كما نبه عليه الحافظ بن حجر. قال الشيخ محمد بن أبى جمرة[1]: الحكمة فى شق صدره، مع القدرة على أن يمتلئ قلبه ﷺ إيمانا وحكمة بغير شق، الزيادة فى قوة اليقين، لأنه أعطى برؤية شق بطنه وعدم تأثره بذلك ما أمن معه من جميع المخاوف العادية، فلذلك كان أشجع الناس حالا ومقالا، ولذلك وصف بقوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ (النجم: ١٧) انتهى.

وكل هذه الأمور يجب الإيمان بها، والقدرة صالحة لذلك، وقد انخرقت العادات لكثير من أولياء الله تعالى المتطفلين على جناب هذا السيد العظيم، المحبوب الأكبر، فكيف به عليه الصلاة والسلام.

وقد سئل الإمام تقى الدين السبكى، رحمة الله، عن العلقة السوداء التى أخرجت من قلبه ﷺ حين شق فؤاده، وقول الملائكة: هذا حظ الشيطان منك؟ فأجاب، رحمه الله، بأن تلك العلقة خلقها الله تعالى فى قلوب البشر قابلة لما يلقيه الشيطان فيها، فأزيلت من قلبه ﷺ، فلم يبق فيه مكان لأن يلقى الشيطان فيه شيئا، وهذا معنى الحديث، قيل له: فلم خلق الله هذا القابل فى هذه الذات الشريفة، وكان يمكنه أن لا يخلقه الله تعالى فيه؟ فقال: إنه من جملة الأجزاء الإنسانية، فخلقه تكملة للخلق الإنسانى، ولا بد منه، ونزعه كرامة ربانية طرأت» وقال غيره: «لو خلق نبيه ﷺ سليما منها لم يكن للآدميين اطلاع على حقيقته،

---

(١) محمد بن أحمد بن عبد الملك (١١٢٤ - ١٢٠٢) أندلسى، فقيه مالكى، تولى القضاء، وله آثار فى الفقه وتراجم الرجال.

فأظهره الله تعالى على يد جبريل عليه السلام ليتحققوا كمال باطنه بإخباره ﷺ عما شاهده فى نفسه كما برز لهم مكمل الظاهر». انتهى.

وفى غسل قلبه بماء زمزم دون غيره: إنه أفضل المياه بعد النابع من أصابعه الشريفة ويليه ماء الكوثر، ثم نيل مصر، ثم باقى الأنهر، ونظم السبكى ذلك بقوله:

وأفضل المياه ماء قد نبع ... بين أصابع النبى المتبع

يليه ماء زمزم فالكوثر ... فنيل مصر ثم باقى الأنهر

وقيل لأن ماء زمزم يقوى القلب ويسكن الروع، وقال الحافظ الزين العراقى[1]: ولذلك غسل قلبه، عليه السلام، ليلة الإسراء ليقوى على رؤية الملكوت، وقيل: لأنه لما كان ماء زمزم أصل حياة أبيه إسماعيل ﷺ، وقد ربى عليها، ونما عليه قلبه وجسده، وصار هو صاحبه، وصاحب البلدة المباركة، ناسب أن يكون ولده الصادق المصدوق كذلك، ولما فيه من الإشارة إلى اختصاصه بذلك. فإنه قد صارت الولاية إليه فى الفتح فجعل السقاية للعباس ولولده، وحجابة البيت لعثمان بن شيبة وعقبة إلى يوم القيامة. وروى الطبرانى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام طعم وشفاء سقم» وصححه ابن حبان، وروى مرسلا من حديثه، أيضا، قال: قال رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لما شرب له». ورجاله ثقات.

قال ابن عباس، رضى الله عنهما: كنا نسميها - يعنى زمزم - شباعة، ونجدها نعم العون على العيال. وروى فيه إنه شراب الأبرار، كما عند الأزرقى[2]، وكان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يتحف الرجل بتحفة سقاه من ماء زمزم، كما رواه فى

---

(١) عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن (١٣٢٥ - ١٤٠٤ م) باحث، ومن كبار حفاظ الحديث، عراقى رحل عنه وعاش بمصر وتوفى بها، وله آثار كثيرة فى الحديث وعلومه ومنظومات فى السيرة النبوية، ومؤلفات فى الأصول، ورسائل فى محبة العرب. وهو منحدر من أصل تركى.

(٢) محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق (المتوفى سنة ٨٦٥ م) مؤرخ، أصله من اليمن ونشأته وحياته بمكة، ومن آثار [أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار].

[الحلية]، وقال عباد بن عبد الله بن الزبير، لما حج معاوية: حججنا معه، فلما طاف بالبيت صلى عند المقام ركعتين، ثم مر بزمزم وهو خارج إلى الصفا فقال: انزع لى منها دلوا ياغلام، قال: فنزع له منها دلوا فأتى به فشرب وصب على وجهه ورأسه وهو يقول: زمزم شفاء، وهى لما شرب له. قال الحافظ: إسناده حسن، وهو أحسن من كل إسناد وقفت عليه لهذا الحديث. وقد جربه جماعة من العلماء والأئمة فوجدوه صحيحا.

وأما ما يذكر على بعض الألسنة من أن فضيلته ما دام فى محله، فإذا نقل تغير، فقال الحافظ السخاوى [1]: إنه شىء لا أصل له، فقد كتب النبى ﷺ إلى سهيل ابن عمرو: «إن جاءك كتابى ليلا فلا تصبحن، أو نهارا فلا تمسين حتى تبعث إلىّ بماء زمزم» فبعث له بمزادتين، وكان حينئذ بالمدينة قبل أن تفتح مكة، وقد حملت عائشة رضى الله عنها فى القوارير، وقالت حمله رسول الله ﷺ فى الأداوى والقرب، وكان يصب منه على المرضى ويسقيهم، وكذا حمله الحسن والحسين، رضى الله عنهما، ونقله جائز باتفاق الأئمة الأربعة. وفى ماء زمزم خواص، منها أنه لا يرفع ولا يغور إذا رفعت المياه وغارت قبل يوم القيامة، ومنها أنه يذهب الصداع ويبرد الحمى.

قال القَسْطلاَّنى [2]: «وقد وقع فى شق صدره الشريف من الخوارق ما يدهش السامع، فسبيلك الإيمان والتسليم، من غير أن تتكلف إلى التوفيق بين المنقول والمعقول للتبرى مما يتوهم أنه محال من شق البطن وإخراج القلب المؤديين إلى الموت لا محالة، ونحن بحمد الله لا نرى العدول عن الحقيقة إلى المجاز فى خبر الصادق إلا فى الأمر المحال على القدرة». انتهى.

ثم بعد طهارة باطنه وظاهره بالوضوء لمناسبة شهود الحضرة القدسية أتى بالبراق، مسرجا ملجما، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع

(١) محمد بن عبد الرحمن بن محمد (١٤٢٧ - ١٤٩٧ م) مؤرخ معتمد، وعالم بالحديث والتفسير والأدب، مصرى، له آثار كثيرة أشهرها [الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع].

(٢) أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك (١٤٤٨ - ١٥١٧ م) مصرى، من علماء الحديث، وكُتَّاب السيرة من آثاره [إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى] و[المواهب اللدنية فى المنح المحمدية].

حافره عند منتهى طرفه، وهو مأخوذ من البرق لسرعة سيره، أرسله الله تعالى من الجنة إجلالا وتعظيما على عادة الملوك إذا استدعوا عظيما بعثوا إليه النجيب، مهيأ مع أعز خواصهم للحضور، فهو من عالم الغيب، لا يوصف بذكورة ولا أنوثة، كالملائكة، فحمل عليه، فانطلق به جبريل عليه السلام حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبا به، فنعم المجيء جاء. الحديث بطوله، ورأى الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم، وصلى بهم.

واختلف في صلاته ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء، قيل قبل عروجه، وقيل بعده والأول استظهره ابن حجر، وصحح الثاني ابن كثير، قال بعضهم: ولا مانع من أنه ﷺ صلى بهم قبل العروج وبعده وكانت صلاته بهم ركعتين، والظاهر أنها كانت فريضة لأنها كانت بأذان وإقامة، وهل كانت بالفاتحة أو غيرها؟ لم يثبت ذلك، وفي [الاتقان] ما يفيد أنه قرأ فيها بأم القرآن، قال النري: واختلف في هذه الصلاة، فقيل: إنها اللغوية، وهي الدعاء والذكر، وقيل: الصلاة المعهودة، وهذا أصح، لأن اللفظ يحمل على الحقيقة الشرعية قبل اللغوية، وإنما يحمل على اللغوية إذا تعذر حملة على الشرعية، ولم يتعذر هنا، فوجب الحمل على الصلاة الشرعية. وهل صلى بأرواحهم متشكلة بصور أجسادهم؟ أو هي وأجسادهم؟ احتمالان، وفي الحديث ما يدل لكل منهما، وأما ما رآه في السموات فأرواحهم متشكلة بصور أجسادهم إلا عيسى وإدريس، وصلى أيضا بالملائكة عند سدرة المنتهى.

ورأى من آيات ربه الكبرى، ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، قال أبو بكر: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: (فأوحى إلى عبده ما أوحى)؟ قال: فقال الله عز وجل: «لولا أني أحب العتاب لم أحاسب أمتك» قال: و«ذكر عن أمتي خصالا، **أولها**: قال: لم أكلفهم عمل الغد، وهم يطلبون مني رزق الغد، **وثانيها**: قال: لا أدفع أرزاقهم إلى غيرهم وهم يدفعون عملهم إلى غيري، **وثالثها**: قال: إنهم يأكلون رزقي ويشكرون غيري، ويحرنون معي وبصالحون خلقي، **ورابعها**: قال: أنا المعز وهم يطلبون العز من سواي،

وخامسها: قال: إنى خلقت النار لكل كافر وهم يجتهدون أن يوقعوا أنفسهم فيها».

وفرض الله عليه وعلى أمته تلك الليلة كل يوم وليلة خمسين صلاة فى أول الأمر، فما زال يراجع حتى صارت خمسا فى الفعل وخمسين فى الأجر، والحكمة فى تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء أنه ﷺ لما عرج به إلى اسماء رأى تلك الليلة تعبد الملائكة، منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد، فجمع الله تعالى له ولأمته تلك العبادات فى ركعة واحدة يصليها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص، وفى اختصاص فرضها فى السماء، دون سائر الشرائع فإنها فرضت فى الأرض، التنبيه على مزيتها على غيرها من الفرائض، وفى فرضها تلك الليلة ـ كما قال السهيلى ـ التنبيه على فضلها، حيث لم تفرض إلا فى الحضرة المقدسة المطهرة، ولذلك كانت الطهارة من شأنها ومن شرائطها، والتنبيه على أنها مناجاة الرب عز وجل، وأن الله تبارك وتعالى يقبل بوجهه على المصلى يناجيه ويقول: حمدنى عبدى، أثنى علىّ عبدى، إلى آخر سورة الفاتحة، وهو المشاكل لفرضها عليه فوق السماء السابعة حين سمع كلام الرب عز وجل وناداه، ولم يعرج به حتى طهر ظاهره وباطنه بماء زمزم كما يتطهر المصلى الصلاة، وأخرج عن الدنيا بجسده كما يخرج المصلى عن الدنيا بقلبه، ويحرم عليه كل شيء إلامناجاة ربه، وتوجهه إلى قبلته فى ذلك الحين وهو بيت المقدس، ورفع إلى السماء كما يرفع المصلى يديه إشارة إلى القبلة العليا، وهو البيت المعمور، وإلى جهة عرش من يناجيه ويصلى له سبحانه وتعالى.

قال بعض المفسرين: الأفعال التى كلفنا الله بها على قسمين، منها ما يُعْقَل معناه ووجه حكمته فيه، كالصلاة والصوم والزكاة، فإن الصلاة تضرع محض وتواضع وتذلل للخالق، والزكاة سعى فى دفع حاجة الفقير، والصوم سعى فى كسر الشهوة، ومنها ما لا يُعقل معناه ولا يعرف وجه الحكمة فيه، كأفعال الحج، فإنا لا نعرف بعقولنا وجه الحكمة فى رمى الجمار والسعى بين الصفا والمروة والرمل، ثم اتفق المحققون على أنه كما يحسن منه تعالى أن يأمر عباده بالنوع الأول فكذا يحسن

منه الأمر بالنوع الثانى، لأن الإطاعة فى النوع الأول لا تدل على كمال الانقياد، لاحتمال أن المأمور إنما أتى به لما عرف بعقله من وجه المصلحة فيه، بخلاف الطاعة فى النوع الثانى، فإنها لا تدل إلا على كمال الانقياد وكمال نهاية التسليم، لأنه لما لم يعرف منه وجه المصلحة إليه لم يكن وجه إتيانها إلا محض الانقياد والتسليم، وهذا معنى قولهم: يجب علينا الإيمان والتصديق بكل ما جاءت به الرسل وإن لم نفهم حكمته، كذلك يجب علينا الإيمان والتصديق بكلام الأئمة وإن لم نفهم علته حتى يأتينا عن الشارع ما يخالفه، ومن شعائر الإسلام الصلوات والجماعات وقراءة القرآن والمساجد والمحاريب فى زماننا أكثر إذ النبى ﷺ خرج من الدنيا والإسلام لم يبلغ غير جزيرة العرب.

ولما أصبح قص على قريش ما رأى، فقال له المطعم بن عدى: كل أمرك قبل اليوم كان أمما - يعنى خفيفا - أنا أشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس، مصعدا شهرا، ومنحدرا شهرا تزعم أنك أتيته فى ليلة! واللات والعزى لا أصدقك! فقال أبو بكر، رضى الله عنه: يا مطعم، بئس ما قلت لابن أخيك، جبهته، وكذبته، وأنا أشهد أنه صادق، فقالوا: يامحمد، صف لنا بيت المقدس، كيف بناؤه؟ وكيف هيأته؟ وكيف قربه من الجبل؟ وفى القوم من سافر إليه، فذهب ينعت لهم: بناؤه كذا، وهيأته كذا، وقربه من الجبل كذا، وسألوه أمارة، فأخبرهم بالعير، وأنهم يقدمون يوم الأربعاء، فلما كان ذلك اليوم لم يقدموا حتى كادت الشمس أن تغرب، فدعا الله فحبس الشمس[1]، وكان كما وصف ﷺ فما زال ينعت لهم حتى التبس عليه النعت، فكرب كربا ما كرب مثله، فجيء بالمسجد وهو ينظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو عقال، فقالوا له كم للمسجد من باب؟ ولم يكن عدها، فجعل ينظر إليها ويعدها بابا بابا، وأبو بكر رضى الله عنه يقول: صدقت، صدقت، أشهد أنك رسول الله! فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب! ثم قالوا لأبى بكر: أتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟! قال: نعم، إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة! فلذلك سمى أبو بكر الصديق، رضى الله عنه.

---

(١) واختلف فى حبس الشمس، فقيل: وقوفها عن السير، عن الحركة بالكلية، وقيل: بطء حركتها، وقيل غير ذلك. [الطهطاوى].

وحكمة تخصيص الإسراء إلى المسجد الأقصى أن قريشا تعرفه، فيسألونه عنه، فيخبرهم بما يعرفونه، مع علمهم أنه ﷺ لم يدخل بيت المقدس قط، فتقوم الحجة عليهم، وكذلك وقع.

وقد اختلف الناس في كيفية الإسراء، فالأكثرون من طوائف المسلمين متفقون على أنه بجسده ﷺ ، والأقلون قالوا: بروحه، فالإسراء بالروح محكي عن حذيفة وعائشة ومعاوية، رضي الله عنهم، فقد قالوا: إن ذلك كله كان رؤيا، وهناك قول ثالث: إن الإسراء كان بجسده إلى بيت المقدس، وبروحه من بيت المقدس إلى السموات السبع. والصحيح عند الجمهور أن الإسراء والمعراج كانا يقظة لا رؤيا، لأنه قد صح أن قريشا كذبته، وارتد جماعة ممن كان أسلم، وسألوه أمارة فأخبرهم بقدوم العير يوم الأربعاء، فلما كان ذلك اليوم لم يقدموا حتى كادت الشمس أن تغرب فدعا الله تعالى فحبس الشمس حتى قدموا كما وصف، وكذلك تجلي البيت المقدس له ونظره إليه وإخبار قريش، فهذا يدل على أن ذلك كله لم يكن رؤيا، ولو قال رسول الله ﷺ رأيت رؤيا لما كُذِّب ولا أنْكرَ ذلك على غيره فضلا عن إنكاره عليه، لأن آحاد الناس يرون في منامهم أنهم ارتقوا إلى السموات، وليس ذلك بعجيب، وأيضا الظاهر من قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ (الإسراء: ١) أنه يقظة، فإن العبد - كما في المحكم - الإنسان، حرا كان أو عبدا، لأنه مملوك لربه، وهو في الأصل صفة، لكنه استعمل استعمال الأسماء، والمراد به هنا محمد ﷺ ، ففي قوله (بعبده) دليل على أن الإسراء كان بروحه وجسده، لا بروحه فقط، إذا العبد اسم للجسد والروح، وتعجب قريش من ذلك لاستحالتهم إياه مدفوع، كما قال أهل الهيأة: إن الفلك الأعظم في مقدار ما يتلفظ الإنسان بلفظة واحدة يقطع ألفًا واثنين وثلاثين فرسخا، وكما قاله البيضاوي، بما ثبت في الهندسة، إن ما بين طرفي قرص الشمس ضعف ما بين كرة الأرض مائة ونيفا وستين مرة، ثم إن طرفها الأسفل يصل موضعها الأعلى في أقل من ثانية، وهي جزء من ستين جزأ من الدقيقة وقد برهن في [الإحكام] أن الأجسام متساوية في قبول الأعراض، فالله قادر على كل الممكنات، فيقدر أن يخلق مثل هذه الحركة

السريعة فى بدن النبى ﷺ، أو فيما يحمله، والتعجب من لوازم المعجزات.
انتهى قال مُحَشِّيه [1]: وأيضا كما يستبعد فى العقل صعود الجسم الكثيف من مركز العالم إلى ما فوق العرش، فكذلك يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحانى من فوق العرش إلى مركز العالم، فإن كان معراجه ﷺ فى ليلة واحدة ممتنعا كان نزول جبريل من العرش إلى مكة فى لحظة واحدة ممتنعا، ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعنا فى نبوة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والقول بثبوت المعراج متفرع على نحو تسليم جواز أصل النبوة، فثبت أن القائلين بامتناع صعود حركة جسمانية سريعة إلى هذا الحد يلزمهم القول بامتناع نزول جبريل فى لحظة واحدة من العرش إلى مكة، وإن كان ذلك باطلا كان ما ذكر أيضا باطلا، فإن قالوا نحن لا نقول: إن جبريل جسم ينفصل من مكان إلى مكان، وإنما نقول: المراد من نزوله هو زوال الحجب الجسمانية عن روحه ﷺ حتى يظهر فى روحه من المكاشفات والمشاهدات بعض ما كان حاضرا متجليا فى ذات جبريل، قلنا: تفسير الوحى بهذا الوجه هو قول الحكماء، وأما جمهور المفسرين فيقرون بأن جبريل جسم، وأن نزوله عبارة عن انتقاله من عالم الأملاك إلى مكة، وإذا كان كذلك كان الإلزام المذكور قويا.

وهذا تقرير ما ذهب إليه الأكثرون من المسلمين، وإن ذهب الأقلون إلى أنه عليه الصلاة والسلام ما أسرى إلا بروحه. انتهى.

فقد ذهب أهل التحقيق أنه تعالى أسرى بروح محمد ﷺ وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى. انتهى.

قال بعضهم فى هذا المعنى، مخاطبا له ﷺ.

أسرى إلى الأقصى بجسمك يقظة ... لا فى المنام فيقبل التأويلا

إذ أنكرته قريش قبل ولم تكن ... لترى المهول من المنام مهولا

وقال آخر:

---

(1) أى صاحب «الحاشية»، وهى التعليقات على «المتن».

ألم تـر أن الله أسـري بعبـده إلى المسجد الأقصى من البيت ذى الحجر

وطاف به الكونين فـى ليلة السـرى وعلمـه ذو مـرة كل مـا يـجـرى

دنا فـتـدلى قـاب قـوسين فَـاتْلَهـا وعلمـه مـا لم يكـن قـبلـه يدرى

خليـل، ولم يعلـم كليم، ولـم ينل مـسيح ولا خلق إلى منتهى الحشـر

وقوله وعلمه مالم يكن قبله يدرى خليل، إلى آخره، إشارة إلى أن معراجهم لم يكن كـمعراجه مشتـملا على تعليم كتعليمه، وذلك لأن المعراج كان لستة من الأنبياء: خليفة الله تعالى آدم أبو البشر، وإدريس، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وصفوتهم نبينا ﷺ ، فمعراج آدم كان إلى الجنة، ومعراج موسى إلى الطور، ومعراج عيسى إلى سماء الدنيا، ومعراج المصطفى ﷺ إلى العرش، فقد اشتركت الستة فى أصل المعراج، ولكن ما كل بيضاء شحمة! وفى الخبر عنه ﷺ «أعطيت تفاحة ليلة المعراج فأكلتها فصارت ماء فى ظهرى، فلما رجعت واقعت خديجة فحملت بفاطمة، فإذا هى حورية إنسية، سماوية أرضية».

وفى وقوع الإسراء ليلا فوائد، منها ليزداد الذين آمنوا إيمانا بالغيب، ويفتتن الذين كفروا زيادة على فتنتهم، ومنها أنه وقت الخلوة والاختصاص عرفا، فإن بين جليس الملك نهارا وجليسه ليلا فرقا واضحا، ولله در القائل:

الليـل لى ولأحـبـابى أنـادمـهم قـد اصطفيـتهم كـى يسمـعوا ويعـوا

وقول الآخر:

قلـت ياسـيـدى أتؤثـر حب الليـل عن بـهـجـة النهـار المنيـر

قـال لا أستطيع تغيـيـر رسـمى هكـذا الرسـم فى طـلوع البـدور

إنما زرت فـى الظلام لـكيـمـا يشـرق الليـل من أشـعـه نورى

ولأنه وقت الصلاة التى كانت مفروضة عليه فى قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ (المزمل: ٢) وليكون أبلغ للمؤمن فى الإيمان بالغيب، كما تقدم، وفتنة للكافر، وقال بعض أهل الإشارات: لما محا الله آية الليل وجعل آية النهار مبصرة انكسر

الليل، فجبر بأن أسرى فيه بمحمد ﷺ ! قال ابن دحية : أكرم نبينا محمد ﷺ بأمور، منها : انشقاق القمر، وإيمان الجن به، وخروجه إلى الغار ليلا، والليل أصل، ولهذا كان أول الشهر، وسواده يجمع ضوء البصر، ويستلذ فيه بالسمر، وكان ﷺ أكثر أسفاره ليلا، وقال : «عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل»، والليل وقت الاجتهاد للعبادة، فلما كانت عبادته ليلا أكرم بالإسراء فيه، وليكون أجر المصدّق به أكثر ليدخل فيمن آمن بالغيب دون من عاينه نهارا، وصح أنه ﷺ قال : «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حتى يبقى الثلث الأخير فيقول : من يدعونى فأستجيب له، ومن يسألنى فأعطيه، ومن يستغفرنى فأغفر له» . الحديث . وهذه الخصوصية لم تجعل للنهار، نبه بها ﷺ لما فى ذلك الوقت من الليل من سعة الرحمة ومضاعفة الأجر ولإبطال كلام الفلاسفة أن الظلمة من شأنها الإهانة والشر، وقد ذكر ﷺ بعد عوده الأنبياء الذين رآهم فى بيت المقدس والسماء وذكر الجنة والنار وسدرة المنتهى والأنهار الأربعة وفرض الصلوات الخمس وأنه رأى ربه عز وجل بعينى رأسه بلا كيف ولا أين ولا زمان .

* * *

ولنذكر هنا مسألة الرؤية على وجه الاختصار فنقول : أجمع العلماء على أن رؤية الله تعالى بالأبصار، يقظة، فى الدنيا، جائزة عقلا، إذ كل موجود رؤيته جائزة، وليس دليل قاطع على استحالتها شرعا، فرؤية النبى ﷺ ليلة المعراج ببصره جائزة عقلا، بمعنى أن العقل إذا خُلِّىَ ونفسه لم يحكم بامتناع رؤيته تعالى بالبصر، ورؤية الله تعالى فى الدنيا من خصوصياته ﷺ مستحيلة شرعا على غيره، وإنما اختلاف الصحابة فى وقوعها، لا فى إمكانها وجوازها، ومما يدل على جوازها فى الدنيا سؤال موسى عليه السلام إياها، إذ لا يجوز على نبى جهل شىء مما يجوز لربه أو يمتنع عليه أو يجب له .

وكيفية الخلاف فى وقوعها أن جمهور المتكلمين، وغيرهم من السلف والخلف، قالوا : إنها لا تقع فى الدنيا، وهو أحد قولى الأشعرى، كما حكاه عنه القشيرى، وهو قول عائشة رضى الله عنها بإنكار رؤيته ﷺ ربه ليلة الإسراء حين قالت لمسروق، وكان متكئا عندها : ياأبا عائشة، ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم

على الله الفرية فقال: ما هن؟ فقالت[1]: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، فجلس وقال: أنظريني يا أم المؤمنين ولا تعجليني، ألم يقل الله: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ (التكوير: ٢٣). ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ (النجم: ١٣)؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «إنما هو جبريل، لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطا من السماء سادا عظَمُ خَلْقه ما بين السماء والأرض»، ثم قالت: أو لم تسمع أن الله تعالى يقول: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: ١٠٣). أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ (الشورى: ٥١) إلى قوله ﴿ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿ يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (المائدة: ٦٧) قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ (النمل: ٦٥)، كما رواه مسلم، ووافقها أبو هريرة وجماعة، وهو المشهور عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه.

والذى جزم به صاحب [التحرير] كما نقله عنه النووى وأقره: إثبات رؤيته ﷺ ربه ببصره، قال: والحجج فى هذه المسألة وإن كانت كثيرة ولكنا لا نتمسك إلا بالأقوى منها وهو حديث ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ؟ وعند الطبرانى من حديثه: نظر محمد إلى ربه، قال عكرمة: فقلت له: نظر محمد إلى ربه؟ فقال: قد جُعلَ الكلام لموسى، والخلّة لإبراهيم، والنظر لمحمد ﷺ. وأخرجه البيهقى بلفظ: إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة، واصطفى موسى بالكلام، واصطفى محمدا بالرؤية. وعن عكرمة: سئل ابن عباس هل رأى محمد ربه؟ قال: نعم. وقد روى، بإسناد لا بأس به، عن شعبة، عن قتادة، عن أنس، قال: رأى محمد ﷺ

(١) فى الأصل: فقال.

ربه، والأصل فى الباب حديث ابن عباس، حبر الأمة، والمرجوع إليه فى المعضلات، وقد راجعه ابن عمر فى هذه المسألة وراسله: هل رأى محمد ﷺ ربه؟ فأخبره أنه رآه، فالعقيدة على مذهب ابن عباس رضى الله تعالى عنه.

وأما ما قاله الإمام مالك، رضى الله عنه، من أن الله سبحانه وتعالى لم يُرَ فى الدنيا لأنه باق، والباقى لا يُرَى بالفانى، فإذا كان فى الآخرة، ورزقوا أبصارا باقية، رأوا الباقى بالباقى، ومقتضاه أنه يقول بعدم رؤيته لأحد فى الدنيا، فيكون مذهبه مذهب من قال: إن محمدا لم ير ربه، فقد تأوله بعض المتأخرين بقوله: هو كلام حسن مليح، ليس فيه دلالة على استحالة الرؤية فى الدنيا إلا من حيث ضعف القوة الباصرة، فإذا قوى الله من شاء من عباده وأقدره من حمل أعباء الرؤية فى أى وقت كان فلا مانع من ذلك، وهو الحق، فيجوز أن يقال: إن الله تعالى أودع البصر الشريف قوة قدر بها على رؤيته تعالى، كما كان ﷺ يرى جبريل، والصحابة عنده لا يرونه، للقوة التى أمدها الله دونهم.

قال الحافظ ابن حجر ووقع فى صحيح مسلم ما يؤيد التفرقة فى الرؤية بين الدنيا والآخرة فى حديث مرفوع فيه: «وأعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»، وأخرجه أيضا ابن خزيمة من طريقين، وهذا ظاهر فى انتفاء الرؤية عنه ﷺ، والجواب عن ذلك عن أثبتها له ﷺ فى الدنيا ما قاله ابن حجر: إن المتكلم لا يدخل فى عموم كلامه، يعنى أن النبى ﷺ نفاها عن غيره.

وأما ما تمسكت به عائشة، رضى الله عنها، فقد أجاب عنه صاحب [التحرير]، كما نقله عنه النووى وأقره، من قوله، بعد نقله حديث ابن عباس وأنس السابقين: ولا يقدح فى هذا حيث عائشة، لأن عائشة لم تخبر أنها سمعت النبى ﷺ يقول: لم أر ربى، وإنما ذكرت ما ذكرت متأولة لقول الله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً** ﴾ ولقوله تعالى: ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** ﴾ والصحابى إذا قال قولا خالفه غيره من الصحابة لم يكن قوله حجة اتفاقا، وإذا صحت الروايات عن ابن عباس فى إثبات الرؤية وجب المصير إلى إثباتها، فإنها ليست مما يدرك بالعقل ويؤخذ بالظن، وإنما تُتلقى بالسماع، ولا

يستجيز أحد أن يظن بابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه تكلم فى هذه المسألة بالظن والاجتهاد، وقد قال معمر بن راشد[1] حين ذكر اختلاف عائشة وابن عباس: ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس، ثم إن ابن عباس أثبت شيئا نفاه غيره، والمثبت مقدم على النافى. هذا كلام صاحب [التحرير] قال النووى: والحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعينى رأسه ليلة الإسراء، لحديث ابن عباس وغيره مما تقدم، وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسماع من رسول الله ﷺ، وهذا مما لا ينبغى أن يشك فيه.

ثم إن عائشة رضى الله تعالى عنها لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله ﷺ، ولو كان معها فيه حديث لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط من الآيات، فأما احتجاجها بقوله تعالى: ﴿ **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** ﴾ فجوابه ظاهر، فإن الإدراك هو الإحاطة، والله تعالى لا يحاط به، وإذا ورد النص بنفى الإحاطة لا يلزم منه نفى الرؤية بغير إحاطة، وأما احتجاجها بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ** ﴾ الآية، فالجواب عنه من أوجه:

أحدها: أنه لا يلزم من الرؤية وجود الكلام حال الرؤية، فيجوز وجود الرؤية من غير كلام.

الثانى: أنه عام مخصوص بما تقدم من الأدلة.

الثالث: ما قاله بعض العلماء: إن المراد بالوحى الكلام من غير واسطة، وإن كان مذهب الجمهور أن المراد بالوحى هنا الإلهام أو الرؤيا فى المنام، وأما قوله تعالى ﴿ **أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ** ﴾ فقال الواحدى[2] وغيره: معناه غير مجاهر لهم بالكلام، بل يسمعون كلامه سبحانه وتعالى من حيث لا يرونه، وليس المراد أن هناك حجابا

---

(١) معمر بن راشد بن أبى عمرو الأزدى (٧١٣ ـ ٧٧٠ م) فقيه وحافظ للحديث، بصرى عاش باليمن، وهو أول من صنف باليمن فى علوم الحديث.

(٢) على بن أحمد بن محمد بن على بن متوية (المتوفى سنة ١٠٧٦ م) مفسر وعالم بالأدب، مولده ووفاته بنيسابور، وإلى جانب مؤلفاته فى التفسير وأسباب النزول وشرح أسماء الله الحسنى، فلقد شرح ديوان المتنبى.

يفصل موضعا من موضع، ويدل على تحديد المحجوب، فهو بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب، حيث لم ير المتكلم.

وما قدمناه من أنه ﷺ رأى ربه بعيني رأسه هو قول أنس وعكرمة والحسن والربيع وجماعة من المفسرين، وقال ابن عباس وأبو ذر وإبراهيم التيمي: رآه بقلبه، قال ابن عطية: وعلى هذا رأى ربه بقلبه رؤية صحيحة، وهو أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده، أو خلق لفؤاده بصرا حتى رأى ربه رؤية صحيحة. أخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس أنه كان يقول: نظر محمد إلى ربه مرتين: مرة ببصره، ومرة بفؤاده. وعليه فلابن عباس مذهب كون الرؤية بالبصر وبالفؤاد وما قاله ابن عطية في الرؤية بالفؤاد وأقره النووي وارتضاه ابن حجر، ثم قال: وليس المراد برؤية الفؤاد مجرد حصول العلم، لأنه ﷺ كان عالما بالله على الدوام، فليس المراد بالرؤية المعروفة، لأن غيره ﷺ من الأولياء إذا أطلقوا الرؤية والمشاهدة وأسندوا ذلك لأنفسهم إنما يريدون بها المعرفة فقط، قال بعضهم:

دنا ليلة الإسراء ممن أحبه ... وثانيه روح القدس والناس هجد

دنو اصطفاء لا دنو مسافة ... وإن كان في حالاته ليس يبعد

وقيل أيضا:

نَجِيّ لرب العالمين مقرب ... حبيب فيدنو كل حين ويستدني

نأى ليلة الإسراء عنا ترقيا ... فكان دنُوًا قاب قوسين أو أدنى

نقلنا له عن صحة ألف آية ... وهل تُنكر الأزهار في الروضة الغنّا

ولم تثبت الرؤية في الدنيا لغيره ﷺ، حتى لموسى عليه السلام، كما قيل:

ولو قابلت لفظة: لم تراني ... بما كذب الفؤاد، فهمت معنى

خلافا لمن قال غير ذلك.

والحاصل أنه على القول بوقوع الرؤية في الدنيا لم تحصل لبشر غير نبينا ﷺ، ومن ادعاها في الدنيا يقظة فهو ضال بإطباق العلماء، بل قيل بتكفيره، وقد نقل

جماعة على أنها لا تحصل للأولياء فى الدنيا، والصواب أنه مختلف فيها، وأن المنع أرجح قولى الأشعرى [١]، وذهب ابن الصلاح [٢] وغيره إلى تكذيب مدعيها يقظة فى الدنيا، فإن صح عن أحد من المعتبرين وقوع ذلك يؤول بأن غلبات الأحوال تجعل الغائب كالمُشاهَد، حتى إذا كثر اشتغال السربشىء واستحضاره له صار كأنه حاضر بين يديه، كما هو معلوم، بالوجدان، لكل أحد، وعليه يحمل ما نقل عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، أنه كان يطوف حول البيت فسلم عليه إنسان فلم يرد عليه فشكاه إلى عمر، رضى الله عنه، فقال: كنا نرى الله فى ذلك المكان، وهذا يدل على أنه قد تتفق فى زمان دون زمان ومكان دون مكان، وسيأتى قريبا لذلك بعض تحقيق.

ولم يستدل القوم بآيتى النجم لاحتمالهما رؤية المولى وجبريل، وقد وردت الآثار بمستند كل من الاحتمالين فى الآيتين، وإنما الراجح كما قاله بعض المتأخرين أن الرؤية بالبصر، وأن المرئى هو الله تعالى لاجبريل، وقد ذهب جماعة إلى الوقف فى هذه المسألة، ولم يجزموا بنفى ولا إثبات، لتعارض الأدلة، ورجحه أبو العباس القرطبى [٣] فى [المفهم] وعزاه لجماعة من المحققين، وقوّاه بأنه ليس فى الباب دليل قاطع، وغالب ما استدل به الطائفتان ظواهر متعارضة قابلة للتأويل، قال القرطبى: وليست المسألة من العمليات حتى يكتفى فيها بالأدلة الظنية، وإنما هى من المعتقدات التى يطلب فيها الدليل القطعى. ورده السبكى فى [السيف المسلول] بأنه ليس من شرط جميع مسائل الاعتقاد الثبوت بالدليل القطعى، بل متى كان حديثا صحيحا، ولو ظاهرا، وهو من رواية الآحاد، جاز أن يعتمد عليه فى بعض تلك المسائل، حيث لم يكن من مسائل الاعتقاد التى يشترط فيها القطع، على أنّا لسنا مكلفين بذلك.

---

(١) أبو الحسن بن أبى موسى (٨٧٣ـ ٩٤١ م) بصرى، نشأ معتزليا ثم خرج على المعتزلة وكون فرقة وسطى بين الجبرية والمعتزلة. ومن آثاره [الإبانة عن أصول الديانة] و[اللمع] و[مقالات الإسلاميين] . . الخ . .

(٢) عثمان بن عبد الرحمن بن موسى (١١٨١ ـ ١٢٤٥ م) من المبرزين فى الفقه والتفسير والحديث والتراجم، اشتغل بالتدريس، وله آثار كثيرة فى الطبقات والفتاوى وعدد من الأمالى والشروح.

(٣) أحمد بن عمر بن إبراهيم (١١٨٢ ـ ١٢٥٨ م) فقيه مالكى، من رجال الحديث. والكتاب الذى ينقل عنه المؤلف اسمه [المفهم فى شرح صحيح مسلم].

وقد اختلف في رؤيته في المنام، ومعظم المثبتين للرؤية في الدنيا على جوازها من غير كيفية وجهة، ونقل عن القاضي عياض اتفاق العلماء على جواز رؤية الله تعالى في المنام وصحتها، إن ادعاه من هو أهله كولي يوثق به ويكون ذلك تخصيصا للعموميات كقوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ وأما إن ادعاه من ليس من أهله كالعاصي والمقصر فإنا نكذبه، ومع ذلك فالرؤية المنامية ليست من قبيل المشاهدة البصرية الحقيقية وإنما هي من قبيل نوع مشاهدة بالقلب دون العين، وهي أيضا غير الرؤية القلبية التي في اليقظة، فرؤيته ﷺ لربه ليلة الإسراء كانت يقظة، بصرية أو قلبية، يعني رؤية صحيحة، حيث جعل الله تعالى بصره ﷺ في فؤاده، أو خلق لفؤاده بصرا، حتى رأى ربه رؤية صحيحة، كما سبق، لا في جهة ولا بانحصار، منزها عن صفات الحوادث، والمحققون على أنه رآه بعينه وبقلبه، وإسراؤه ومعراجه ﷺ كان يقظة أيضا على الصحيح، كما قيل:

أعلمت من ركب البراق عتيما [1]	وتلاه جبريل الأمين نديما
حتى سما فوق السماء قدوما	ودنا فكلم ربه تكليما
أم من على الرسل الكرام تقدما	ونوى الصلاة بهم وكبر محرما
وسرى إلى ذي العرش فردا بعدما	بلغ الأمين مكانه المعلوما
أم من كقاب القوس آية قربه	بعلوه ودنوه من ربه
ورأى الإله بعينه وبقلبه	وحوى من الغيب الخفي علوما

ولذلك لما أفحم قريشا بالدلائل القوية التي تفيد اليقين من وصف بيت المقدس، ووصف العير التي مر بها في طريقه، وأنها تصل إليهم وقت كذا، فكان كما أخبر، لم يجدوا طريقة إلا أن رموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد.

ولوقوع الإسراء ليلا فوائد، منها: ليزداد الذين آمنوا إيمانا بالغيب ويفتتن الذين كفروا زيادة على فتنتهم، وقد قال تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك - أي التي

---

(١) أي مساء في العتمة والظلمة.

شاهدتها ليلة الإسراء ـ (إلا فتنة للناس) ـ أي امتحانا واختبارا ـ لأنه ﷺ لما ذكر لهم قصة الإسراء كذبوه، وكفر به كثير ممن كان قد آمن به، وازداد المخلصون إيمانا، فلهذا السبب كانت امتحانا، والمراد بالرؤيا في الآية الرؤيا البصرية، حيث إن الإسراء كان في اليقظة بجسمه الشريف، وأنه لما وقع ذلك ليلا، وكان خارقا للعادة، أشبه الرؤيا المنامية، فعبر عنه بالرؤيا مجازا، وأدل دليل على أن الرؤيا كانت بصرية قوله تعالى: (فتنة للناس) كما ذهب إليه ابن عباس والمحققون وأرباب البصائر، إذ لو كانت منامية لما حصل افتتان، كما سبق، إذ العاقل لا يستبعد الرؤيا المنامية ولا ينازع ولا يستعظم ذلك، خصوصا مع إنسان لم يعهد عليه إلا الصدق من صغره إلى كبره ﷺ (١).

* * *

وأما رؤية المؤمنين للنبي ﷺ في الدنيا فقد ورد: «من رآني في المنام فقد رآني حقا، فإن الشيطان لا يتمثل بي». رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي عن أنس، وهو متواتر، وفي رواية: «من رآني فقد رأى الحق، فإن الشيطان لا يتزيا بي». رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أبي قتادة، وفي رواية: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي». رواه البخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة، أي أن رؤيته ﷺ في المنام حق ولو رآه الرائي على غير صفته الحقيقية التي هو عليها، خلافا للحكيم الترمذي، لأن إدراكه على صفته الأصلية إدراك لذاته، وإدراكه على غير صفته الأصلية إدراك لمثاله، وعدم تمثل الشيطان به لئلا يجعل ذلك وسيلة للكذب عليه في النوم، وقوله: «فسيراني في اليقظة»، أي في الآخرة رؤية خاصة بصفة القرب والشفاعة، وفيه بشرى بموته على الإيمان، وهذا عام في أهل الطاعة، محتمل في أهل العصيان، فقد تخرق لهم العادة إغواء، وقولنا فيما تقدم: «رؤية خاصة»، أي وإلا فجميع أمته يرونه في الآخرة، أو هذا قبل موته ﷺ ، أي من رآه في المنام فسيوفقه الله تعالى للهجرة إليه ويراه بعيني

---

(١) ما عرضه المؤلف هنا من آراء حول رؤية الله مقصور على دائرة متكلمي السنة، أما المعتزلة فهم ينكرونها، ولهم أدلة عقلية ونقلية على مذهبهم فيها وعلى بطلان آراء خصومهم، انظر الجزء الرابع من [المغني في أبواب التوحيد والعدل] للقاضي عبد الجبار، فهو معقود جميعه لرؤية الباري.

رأسه أو فسيراه فى الدنيا حقيقة كرامة له كما وقع لكثير من الأولياء وسألوه فأرشدهم، ورد هذا بأنه يلزم عليه بقاء الصحبة وبأن جمعا ممن رأوه مناما لم يروه يقظة وخبره لا يختلف، وأجيب بأن شرط الصحبة أن يراه فى عالم الدنيا قبل موته، وبأن من لم يبلغ درجة الولاية يراه قرب موته عند الاحتضار، ورؤيته فى اليقظة نص جمع من الأئمة على إمكانها ووقوعها، وقيل المرئى مثاله لا حقيقة جسده الشريف.

ثم اعلم أن الرائين للنبى ﷺ مختلفون فى الدنو منه والبعد، فمنهم من يدنو منه حتى لا يبقى بينه وبينه حجاب، ومنهم من يراه على بعد رفع الحجاب رفعا غير تام، وهذا الدنو معنوى لا حسى بحيث إن النبى ﷺ ينتقل إلى الرائى بأن يجىء إليه راجلا أو راكبا أو نحو ذلك إذ لا دليل عليه. انتهى.

وقد رفع سؤال للعلامة كمال الدين بن أبى شريف[1] صورته: رؤيا للنبى ﷺ فى النوم، هل هى صحيحة ولوكانت على أى حال من الأحوال، حتى لو رؤى على لون أسمر أو رؤى بلا لحية أو نحو ذلك؟ أم كيف الحال؟ وهل يشترط بصحة الرؤيا شىء أم لا؟ وما معنى قوله ﷺ: «من رآنى فقد رآنى حقا، فإن الشيطان لا يتمثل بى»؟ أو كما قال، وما حكم الله فى ذلك؟؟ فأجاب رحمه الله: بأن قوله ﷺ: «من رآنى فى المنام فقد رآنى حقا، فإن الشيطان لا يتمثل بى» ورد فى الصحيحين وغيرهما، من رواية غير واحد من الصحابة، بألفاظ متقاربة المعنى، ويتعلق البحث فيه بقوله ﷺ: «من رآنى فى المنام»، هل هو خاص[2] بمن رآه ﷺ بحليته وصفته أو هو لمن[3] رآه على أى صفة رآه؟ وبقوله ﷺ: «فقد رآنى»، هل هو على ظاهره بمعنى فقد رأى ذاتى حقيقة أو هو مؤول؟ فذهب جمع، منهم ابن سيرين، إمام أهل التعبير، إلى اختصاصه بمن رآه ﷺ على صفته، ثم من هؤلاء من ضيق فقال: على صفته التى توفى عليها، حتى راعى عدد الشعرات البيض فى رأسه ولحيته ﷺ، ومنهم من اكتفى بما تَصْدُق عليه صفته ﷺ فى

---

(١) محمد بن محمد بن أبى بكر بن أبى شريف المقدسى (١٤١٩ ـ ١٥٠١ م) فقيه شافعى وعالم بالأصول، وله آثار فى الأصول والعقائد والتوحيد.

(٢) فى الأصل: قاض.

(٣) فى الأصل: كمن.

وقت من أوقاته، كحال شبابه، أو رجولته، أو كهولته، أو ما بعد ذلك، فهؤلاء يشترط عندهم فى رؤياه ﷺ أن يرى على صفته، على اختلاف قولهم فى المراد بالصفة، وذهب آخرون، منهم القاضى أبو بكر الباقلانى [1] إلى أنه لا يختص بذلك، وإلى أن المعنى فى قوله: «فقد رآنى»، على التأويل، فقال القاضى أبو بكر المذكور، كما نقله عنه الماوردى وغيره: يعنى فقد رآنى، فرؤياه حق ليست أضغاث أحلام ولا من شبهات الشيطان، بل مما له تعبير صحيح، أى وليس المعنى أنه رأى ذاته حقيقة، قال: فقد يراه الرائى على خلاف صفته المعروفة، كمن رآه أبيض اللحية، وقد يراه شخصان فى زمن واحد فى مكانين مختلفين فيراه أحدهما فى منزله وهو بالمشرق والآخر بمنزله وهو بالمغرب، وعلى التأويل مشى الغزالى أيضا، فقال: ليس معناه فقد رأى جسمى وبدنى، قال: بل المرئى مثال حقيقة روحه المقدسة التى هى محل النبوة، لا نفس روحه ولا شخصه.

وذهب طائفة إلى أن الحديث على ظاهره من أن المرئى حقيقة ذاته، إذ لا مانع من ذلك، والعقل لا يحيله ليحتاج إلى تأويله، إذا الرؤيا أمر يخلقه الله تعالى فى الحى، ولا يتوقف على مقابلة ولا تحديق بصر ولا كون المرئى ظاهرا، بل الشرط كونه موجودا فقط، وقد دلت الأحاديث الصحيحة على بقاء جسمه الشريف، وأنه لا يبلى، ففى حديث أوس بن أوس عن أبى داود والنسائى وغيرهما أن النبى ﷺ قال: «إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء»، وعن أبى داود من حديث أبى هريرة أنه ﷺ قال: «ما من أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام»، وقد نصر القرطبى مذهب القاضى الباقلانى، وشنع على القول برؤية الذات الشريفة حقيقة بأنه يلزم عليه أمور، منها: أنه لا يراه أحد على غير صفته التى مات عليها، وأن لا يراه رائيان فى آن واحد فى مكانين متباعدين، مع أن ذلك واقع، ولا مانع منه عقلا ولا عادة، وقد أجيب من طرف القائل عن رؤيته على غير صفته وفى مكانين مختلفين بأن ذلك من غلط الرائى وأن كلا من الصفة والمكان متخيل غير مرئى، وذلك التخيل بحسب حال الرائى يستدل به على التعبير بالنسبة

(١) محمد بن الطيب (٩٥٠ - ١٠١٣ م) فقيه ومتكلم، عراقى، كان أكبر دعاة المذهب الأشعرى فى عصره، عمل بالتدريس والقضاء، وخلف آثارا هامة.

إليه، وقد نصر النووى فى [شرح مسلم] القول بأن الرؤية للذات حقيقة، وحكى مذهب القاضى أبى بكر الباقلانى أولا، ثم حكى مذهب القائل بأن الرؤية للذات على ظاهرها، ثم حكى عن القاضى عياض أنه يحتمل أن يكون معنى الحديث إذا رآه على صفته المعروفة له فى حياته، فإن رؤى على خلافها كانت رؤيا تأويل لا رؤيا حقيقة، قال النووى: وهذا الذى قاله القاضى ضعيف، بل الصحيح أنه يراه حقيقة، ثم قاله النووى: سواء على صفته المعروفة أو غيرها، كما ذكره البارزى. [1] انتهى كلام النووى.

وقد تعقبه العلامة ابن حجر فى [فتح البارى] بأن الذى قاله القاضى توسط حسن يمكن الجمع بينه وبين ما قاله البارزى بأن يكون رؤياه على الحالين حقيقة، لكن إذا كانت على غير صورته كان النقص لتخيله الصفة على غير ما هى عليه، ويحتاج ما يراه فى ذلك المنام إلى التعبير. أهـ.

* * *

وبمناسبة ليلة الإسراء وليلة القدر ونحوهما ذكر العلماء اختلافا فى التفضيل بين الليل والنهار، وممن ذهب إلى تفضيل الليل النيسابورى [2]، لوجوه، أحدها: أن الليل راحة والنهار تعب، وأيضا فالليل حظ الفراش والنهار المعاش، ولأن الله تعالى سمى ليلة القدر خير من ألف شهر وليس فى الأيام مثلها. وقيل النهار أفضل لأنه نور نافع للمعاد والمعاش.

قال الحافظ السيوطى، رحمه الله: وقد وقفت على تأليف فى التفضيل بين الليل والنهار لأبى الحسين [3] بن فارس اللغوى [4] صاحب [المجمل] فذكر فيه وجوها

(١) هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم (١٢٤٨ - ١٣٣٨ م) من أكابر فقهاء الشافعية، من أهل حماة تولى القضاء بها، وله آثار كثيرة فى الفقه والسيرة.

(٢) لم يحدد المؤلف أى عالم من علماء نيسابور الذى نقل عنه. وفى [الأعلام] للزركلى أربعة عشر عالما كلهم يطلق عليه النيسابورى؟

(٣) فى الأصل: الحسن.. والتصحيح عن [الأعلام] للزركلى.

(٤) أحمد بن فارس بن زكريا القزوينى الرازى (٩٤١ - ١٠٠٤ م) من أئمة اللغة والأدب، ممن قرأ عليه الصاحب بن عباد والبديع الهمذانى. وله آثار كثيرة فى اللغة والتفسير والسيرة.

في تفضيل هذا ووجوها في تفضيل هذا، فمما ذكره في تفضيل الليل: أن الله تعالى ذكر فيه سورة مسماة بسورة الليل ولم ينزل في النهار سورة تسمى بسورة النهار، وأن الله تعالى قدم ذكره على النهار في أكثر الآيات، كقوله: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ (الليل: ١، ٢)، ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ (الإسراء: ١٢)، ﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ (يونس: ٦٧)، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ (القصص: ٧١) وأن الله خلقه قبل النهار، وأن ليالي الشهر سابقة على أيامه، وأن في الليالي ليلة خيرا من ألف شهر وليس في الأيام مثلها، وأن في كل ليلة إجابة وليس ذلك في النهار إلا في يوم الجمعة خاصة، وأنه وقت الخلوة والاختصاص عرفا، فإن بين جليس الملك نهارا وجليسه ليلا فرقا واضحا، وأن النهار فيه أوقات تكره فيها الصلاة وليس في شيء من ساعات الليل وقت كراهة، والصلاة من أشرف العبادات، وأن فيه التهجد والاستغفار بالأسحار وهما أفضل من صلاة النهار واستغفاره، وأنه أصح لتلاوة الذكر، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ (المزمل: ٦) وقال، ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ (الزمر: ٩) وأن الإسراء وقع بالليل، قال الله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ (الإسراء: ١) وقال الله تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ (هود: ٨١) وقال أهل العلم: في الليل تنقطع الأشغال، وتجم الأذهان، ويصح النظر، وتؤلف الحكم، وتدر الخواطر، ويتسع مجال القلب، ومؤلفو الكتب يختارونه على النهار، لأن القلب بالنهار طائر وبالليل ساكن، وكذلك مدبرو الملوك، وقديما كان يقال: الليل نهار الأريب، وقال القائل:

ولم أر مثل الليل جُنَّة فاتك ... إذا هَمَّ أمضى أو غنيمة ناسك

وعارضه صاحب النهار بأن الله قدم ذكره في قوله ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ (الشمس: ٤)، وبأن التقديم لا يدل على فضيلة، فقد قدم الله الموت على الحياة والجن على الإنس والأعمى والأصم على البصير والسميع في قوله ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ (الملك: ٢). ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا

لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ (هود: ٢٤) والمتأخر مما ذكر أفضل من المتقدم قطعا، وبأن النور قبل الظلمة، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥) وبأن الناس والشعراء ما زالوا يذمون الليل ويشكونه، كقول امرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازا وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فيالك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل

وقد استعاذوا بالله من الأبهمين، ويقال الأعميين: السيل والليل، وبالليل تدل الهوام وتثور السباع وتنتشر اللصوص وتشن الغارات وترتكب المعاصي، ولذلك قيل: الليل أخفى للويل، وقد قال ﷺ: «أقلوا الخروج إذا هدأت الرِّجْل فإن لله دواب ينشرها»، وقد شبه الله تعالى به وجوه أعدائه فقال: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ (يونس: ٢٧) وكان الحسن[1] يقول: ما خلق الله خلقا أشد سوادا من الليل، وقال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ (الفلق: ٣) قيل: هو الليل اذا أظلم، وتقول العرب للمكثار: حاطب ليل، لما يخشى عليه من نهش الهوام، ونهى النبى ﷺ عن صوم الليل، وأمر بغلق الأبواب وكف الصبيان بالليل.

وافتخرت العرب بالأيام دون الليالي، فقالوا: يوم ذي قار، ويوم كذا، والأسبوع أيامه مسماة دون الليل، وإنما تذكر بالإضافة إلى الأيام، فيقال ليلة الأحد، وليلة كذا، وليس المضاف كالمضاف إليه، والأيام النبيهة أكثر من الليالي، كيوم الجمعة، ويوم عرفة، ويوم عاشوراء، والأيام المعلومات والمعدودات، وليس في الليل إلا ليلة القدر، وليلة نصف شعبان، وقال ﷺ: «اللهم بارك لأمتى فى بكورها»، ولم يقل ذلك في شيء من الليالي.

(١) هو الحسن البصرى، وعندما يقال: الحسن، بإطلاق، فإنه هو المراد.

هذا ما ذكره الحافظ ببعض رسائله.

وأما أفضلية ليلة الإسراء على ليلة المولد فقد قال أبو أمامة ابن النقاش، رحمه الله: إن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر فى حق النبى ﷺ، وليلة القدر أفضل فى حق الأمة لأنها لهم خير من عمل أكثر من ثمانين سنة ممن كان قبلهم، وأما ليلة الإسراء فلم يأت فى أرجحية العمل فيها حديث صحيح ولا ضعيف، والمأخوذ من كلام البُلقينى، رحمه الله، أن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر، ولعل الحكمة فى ذلك كما قاله فى [الاصطفاء] اشتمالها على رؤيته سبحانه التى هى أفضل من كل شىء، ولذا لم يجعلها ثوابا عن عمل من الأعمال مطلقا، بل مَنَّ بها على عباده المؤمنين يوم القيامة تفضلا منه تعالى، وهذا مما يؤيد القول بتفضيل الليل على النهار، وظواهر كلامهم أن الخلاف بين الليلة المعينة التى أسرى فيها بالنبى ﷺ وبين ليلة القدر التى أنزل فيها القرآن، وأما الليلة المعينة التى أسرى به ﷺ فيها وليلة القدر فى كل عام فينبغى أن يكون فيها قول أبى أمامة ابن النقاش السابق، وأما نظائر الليلة المعينة فى كل عام فلا شك فى أن ليلة القدر أفضل منها، كما لا يخفى؛ وبالجملة فما أحسن قول ابن الفارض [1]:

وخير الليالى ليلة القدر إن دنت … كما أن أيام اللقا يوم جمعة

فالأزمان متكافئة فى حد ذاتها؛ والفضل إنما هو بالخصوصيات المنسوبة إليها، فقد ذهب العز ابن عبد السلام إلى أن التفضيل إنما هو بين العقلاء، ولا يجرى فى غيرهم من الأماكن والأزمان إلا باعتبار ما يقع فيها من الأعمال والعبادات، لا فى ذواتها، ومذهب غيره أن التفضيل يكون بالذات كتفضيل العلم على الظن، وبالصفة كتفضيل القادر على العاجز، وبالطاعة كتفضيل الولى على غيره من المؤمنين، وبالثواب كتفضيل الجماعة على المنفرد، وبالشرف كتفضيل الشريف على العامى، وبالمجاورة كتفضيل جلد المصحف على سائر الجلود، وبما حل فيه كتفضيل مزاره ﷺ على سائر البقاع، وبالإضافة كبيت الله وحزب الله، وبالانتساب

---

(١) عمر بن أبى الحسن (١١٨١ - ١٢٣٤ م) متصوف مصرى، وهو شاعر يلقّب بشاعر الحب الإلهى، كما يلقب بسلطان العاشقين.

كزوجاته ﷺ وذريته، وبالثمرة والجدوى كتفضيل الرسالة على النبوة، وبتفاوت الثمرة وتحقيقها كما في العلوم المدونة، وبما يفيضه الله تعالى على الأماكن والأزمان بفيضه وكرمه، كاختصاص عرفة بالوقوف فلا عبرة بمذهب من سوى بين الأعيان والأزمان والأماكن وزعم أنه لا مزية لشيء على شيء، وإنما هو مجرد ترجيح بلا مرجح، فإن قوله باطل، ويكفي في فساده أنه يقتضي أن ذوات الرسل كذوات أعدائهم، وأن البيت الحرام كغيره من البيوت، والحجر الأسود كغيره من الأحجار، من غير فرق ولا قائل بذلك، بل التفضيل له معان وأسباب، ومن هذا يعلم أيضا أن التفضيل بين العقلاء ليس بكثرة الثواب والعمل فقط، وهو الحق، فالتفضيل للأنبياء بقرب المنزلة من الله، وعلو المرتبة، وكثرة الخصائص والمعجزات، كخاصة الإسراء لنبينا ﷺ، وإضافته إليه في قوله ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ** ﴾ (الإسراء: ١) قال أبو سلمان القاسم الانصاري [١]: لما وصل ﷺ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المعارج أوحى الله إليه: بم أشرفك؟ فقال: يارب بنسبتي إلى نفسك بالعبودية، فأنزل الله تعالى فيه سبحان الذى أسرى بعبده، ولذلك قيل:

يا قوم قلبي عند أسماء … يعرفه السامع والرائي

لا تدعني إلا بيا عبدها … فإنه أشرف أسمائي؟!

وقال الشيخ أحمد الغزالي [٢]:

وهان على اللوم في جنب حبها … وقول الأعادي أنه لخليع

أصم إذا نوديت باسمي وإنني … إذا قيل لي: يا عبدها، لسميع؟!

---

(١) قاسم بن إبراهيم بن قاسم بن يزيد (٩٩٣ - ١٠٥٤ م) أندلسي من أهل قرطبة، كان مشتغلا بالقراءة والحديث.

(٢) أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد (المتوفى سنة ١١٢٦ م) واعظ، وهو أخو الإمام الغزالي من آثاره [الذخيرة في علم البصيرة].

قال القاضي عياض :

وبما زادني شـــرفـــا وتيـــهـــا وكـــدت بأخـــمـــصى أطأ الثـــريا

دخـولى تحت قـولـك: يا عـبـادى وأن صـيـرت أحـمـد لـى نبـيـا

وقال آخر :

وكنت قــديما أطلب الوصــل منهم فلمــا أتاني العــلم وارتفع الجـــهل

تيــقــنت أن العـــبـــد لا طلـبــا له فإن وصلوا فضل وإن هجروا عدل

وإن أحسنوا لم يحسنوا غـير وصفهم وإن بخلوا فالبخل من أجلهم يحلو

ثم أقام عليه الصلاة والسلام بعد الإسراء بمكة، على الأذى صابرا، وعلى نصح الأمة مثابرا، يوافى موسم الحج فيعرض نفسه الشريفة، حتى بايعه بنى الأنصار على أن يؤووه إذا أتاهم، وينصروه على الكفار، ثم أذن له فى الهجرة إلى المدينة، ثم فى القتال، فقابل ذلك بالقبول والامتثال، وأقام بالمدينة عشر سنين كوامل، وفيها أنزل بقية القرآن وشرع غالب الأحكام التى بهرت الأواخر والأوائل .

الباب الثالث

[في هجرته ﷺ إلى المدينة،
وما ترتب على ذلك من المظاهر الإسلامية
والظواهر التعليمية.

وفيه فصول]

الفصل الأول

(فى الأسباب الباعثة على هذه الهجرة والتمهيد لها)

قد أخفى ﷺ رسالته ثلاث سنين، كما تقدم فى (الفصل الأول) من (الباب الثانى)، ثم أعلن بها فى الرابعة، ودعا إلى الإسلام عشر سنين يوافى الموسم كل عام، يتبع الحجاج فى منازلهم بمنى والموقف ويسأل عن القبائل قبيلة قبيلة، وقد تقدم الكلام على سوق عكاظ فى (الفصل الثالث) من (الباب الثانى) من (المقالة الرابعة) من (الجزء الأول[1]) وأن العرب كانت إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال، ثم تجيء إلى سوق مجنة تقيم فيه عشرين يوما من ذى القعدة، ثم تجيء سوق ذى المجاز فتقيم به إلى أيام الحج، وكان ﷺ يدعوهم إلى أن يمنعوه ويناصروه حتى يبلغ رسالة ربه، فكان يقول بمنى: أيها الناس، إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وكان وراءه أبو لهب يقول: يأيها الناس، إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم، وقد عرض على بنى حنيفة وبنى عامر بن صعصعة المبايعة فقال له رجل منهم أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظفرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال: الأمر إلى الله يضعه حيث شاء، فقال له ذلك الرجل: أنقاتل العرب دونك، فإذا أظفرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك! وأبوا عليه، فلما رجعت بنو عامر إلى منازلهم، وكان فيهم شيخ أدركه السن حتى لا يقدر أن يوافى معهم الموسم، فقدموا عليه، سألهم عما كان فى موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش، أحد بنى عبد المطلب، يزعم أنه نبى،

---

(١) انظره فى الجزء الثالث من هذه الأعمال.

يدعونا أن نمنعه، ونقوم معه، ونخرج إلى بلادنا، فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال: يابنى عامر، هل لها من تلاف؟ هل لها من مطلب؟! والذى نفسى بيده ما يدعى النبوة كاذبا أحد من بنى إسماعيل قط، وإنها لحق، وإن رأيكم غاب عنكم، وقد بشر بظهوره وهجرته ﷺ من ملوك حمير الملك الحارث الرايش أبو التبابعة فى أبيات يقول فيها:

أنا الملك المتوج ذو العطايا	جلبت الخيل من أوطان شام
لنوطنها البلاد إلى بلاد	تدوالها الملوك من آل رام
لأنا الأغلبون إذا بطشنا	وإنا المنقمون لكل دام
وأنا يوم نغضب أو نسامى	تكاد الأرض ترجف بالأنام
ولن نرضى نقر بمن عليها	ويشرق وجهها بعد الظلام
وفينا الملك والأملاك منا	ونحن الأكرمون بنو الكرام
أبونا يعرب وبه تسامى	فنقهر من يفاخر أو يسامى
فإن أهلك فقد أملت ملكا	لكم يبقى إلى وقت التهامى
ويملك بعدنا منا ملوك	يديمون الأنام بغير دام
ويخرج بعدهم رجل عظيم	نبى لا يرخص فى الحرام
يفارق أهله وله كتاب	يوافق خطه رجع الكلام
وأحمد اسمه ياليت أنى	أؤخر بعد مخرجه بعام
ويخلف بعده خلفاء بر	وتملك بعده أولاد عام

أى أولاد عامر، وهو سبأ الأكبر.

فبينما كان ﷺ فى بعض المواسم عند عقبة الجمرة، سنة إحدى عشرة من النبوة، إذ لقى رهطا من الخزرج، وكانوا ستة، وقيل ثمانية، أراد الله بهم خيرا، فقال لهم: «من أنتم؟» فقالوا: نفر من الخزرج، قال: «أفمن موالى يهود؟» قالوا:

لا، قال: «أفلا تجلسون أكلمكم»؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه ﷺ فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام، ورأوا أمارات الصدق عليه ﷺ لائحة، فقال بعضهم لبعض والله إنه لَلنبى الذى يوعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه! فإن الله يجمعهم عليك فلا رجل أعز منك. وكان الأوس والخزرج أخوين الأب والأم فوقعت بينهما العداوة وتطاولت بينهما الحروب، فمكثوا على المحاربة والمقاتلة نحو مائة وعشرين سنة.

ولما آمنوا به ﷺ وصدقوه قالوا: إنا نشير عليك أن تمكث على حالك بسم الله حتى نرجع إلى قومنا فنذكر لهم شأنك، وندعوهم إلى الله عز وجل ورسوله ﷺ ولعل الله يصلح ذات بينهم، ونواعدك الموسم من العام المقبل، فرضى بذلك رسول الله ﷺ. ويسمى هذا ابتداء إسلام الأنصار، فإنهم أجابوه وانصرفوا راجعين إلى بلدهم من غير مبايعة، ويقال هم أهل العقبة الأولى.

فلما كان العام المقبل قدم من الأوس والخزرج اثنا عشر رجلا، فاجتمعوا به ﷺ عند العقبة أيضا، منهم خمسة من أهل العقبة الأولى، فبايعهم وعاهدهم، وهذه المبايعة فى الحقيقة يقال لها العقبة الأولى، وإن كانت هى الثانية، فلما انصرفوا راجعين إلى بلادهم بعث رسول الله ﷺ معهم ابن أم مكتوم، وهو ابن خال خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضى الله عنها، وكذلك بعث مصعب بن عمير، رضى الله تعالى عنه، يعلمان من أسلم منهم القرآن ومن أراد أن يسلم الإسلام ويفقهانهم فى الدين، ويدعوان من (لم) [1] يسلم منهم إلى الإسلام، وكان مصعب يؤم الأوس والخزرج، وجمع بهم أول جمعة جمعت فى الإسلام حين بلغ المسلمون منهم أربعين رجلا بإرساله ﷺ بالتجميع قبل قدومه ﷺ المدينة، وتسمية الأنصار إياها بيوم الجمعة لاجتماعهم فيه هداية من الله تعالى، وإلا فكانت تسمى فى الجاهلية يوم العروبة، أى الرحمة، ولم يجمع ﷺ بمكة، مع فرض الجمعة وهو بها، لعدم التمكن من فعلها هناك، ولم يأمر بها مصعبا عند إرساله إلى المدينة لعدم وجود شرطها من العدد المذكور حينئذ.

---

(١) غير موجودة فى الأصل، والسياق يتطلبها.

وفشا الإسلام بالأنصار، وأسلم سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، وفي عام سنة اثنتي عشرة من النبوة أسرى بالنبي ﷺ، وقيل سنة إحدى عشرة من النبوة كما سبق.

وهناك عقبة ثالثة، وهو أنه خرج جماعة من الأنصار المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم غير المسلمين، حتى إذا قدموا على مكه فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما مضى ثلث الليل اجتمعوا في الشِّعْب، وهم ثلاثة وتسعون رجلا وامرأتان: أم عمارة، إحدى بني مازن ابن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي، فجاءهم النبي ﷺ ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو على دين قومه إلا أنه أحب أن يظهر على أمر ابن أخيه ويتوثق به، فلما جلس كان أول متكلم فقال: يامعشر الخزرج، إن محمدا منا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا، فمن هو على ما رأينا فيه فهو في عز قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة في قومه وبلده. فقالوا: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فتلا رسول الله ﷺ القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم»، فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: والذي بعثك بالحق لنمنعك مما منه أزرنا [1]. فبايعوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: يارسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول ﷺ، ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم [2] أنا منكم وانتم مني،

---

(١) الأرز ـ بضم الهمزة والزاي ـ مثل كتب، جمع إراز ـ ككتاب ـ هي الثياب المعروفة، وهي هنا كناية عن النساء، فلقد كانوا يسمونها ـ كناية ـ الثياب، والفراش والأرز.

(٢) الهدم ـ بفتح الدال ـ من معانيه: المنزل ـ أي منزلي هو منزلكم ـ ومن معانيه: القبر ـ أي أقبر في مقابركم. . . أما بسكون فمن معانيه: الدم، أي إن من يطلب دمكم فقد طلب دمي. . . والمراد وحدة المستقبل والمصير بينه عليه السلام وبين الذين بايعوه.

أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم، أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم»، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وانتهت البيعة فى العقبة.

فهذه بيعة العقبة الثالثة، التى هى فى الحقيقة بيعة ثانية، لأن الأولى لم تكن بيعة، كما تقدم، ولعل من عد البيعات ثلاثا اعتبر أن العقبة الأولى الذى اجتمع فيها الخمسة من الخزرج كانت بيعة سكوتية، لأنها كالبيعتين الأخيرتين لم يصدر مما حصل فيها مخالفة، حيث إن أهل الأولى عادوا فى العقبة الثانية وبايعوا مع من حضر معهم من الأنصار على نصرته ﷺ على عدوه والإيمان بما جاء به، وهذا من أعظم درجات الإيمان، فبهذا استحق أهل العقبة الأولى الستة فضل المبايعة، وعدت مبايعة العقبات ثلاثة.

قيل: أحسن أصحاب رسول ﷺ ظنهم بالله، وبايعوا نبيهم ﷺ على الموت، فعوجلوا بالأمن والسلامة من الموت، ولهذا قيل: ليس فى خصال الخير، وإن جلت، ولا فى أنواع البر، وإن عظمت، أعلى من حسن الظن بالله تعالى.

ولما تم أمر البيعة بين النبى ﷺ وبين أهل المدينة، وبقى أصحابه فى ضنك من إيذاء المشركين، شكوا إلى رسول الله ﷺ، ثم استأذنوه فى الهجرة، فمكث أياما، وخرج إلى أصحابه وهو مسرور، وقال: «قد أخبرت بدار هجرتكم، ألا وهو يثرب، فمن أراد منكم الخروج فليخرج»، فصار القوم يتجهزون ويترافقون، ثم صاروا يرحلون من مكة أرسالا ـ أى قطائع ـ سرا، إلا عمر بن الخطاب فإنه أعلن بالهجرة، ولم يمنعه أحد من المشركين ولا قصده بسوء.

فلما قدموا المدينة أنزلهم الأنصار فى دورهم، وواسوهم، ولم يبق بمكة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلى، رضى الله عنهما، وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذنه فى الخروج فيقول له لا تعجل، لعل الله أن يجعل لك صاحبا، فرجا أبو بكر أن يكون ذلك الصاحب، وترصد رفاقته وانتظر صحبته ﷺ، وورد فى حق أبى بكر حديث عن النبى ﷺ أنه قال: «رحم الله أبا بكر، زوجنى ابنته، وحملنى إلى دار الهجرة، وصحبنى فى الغار، وأعتق بلالا من ماله، وما نفعنى مال فى

الإسلام ما نفعني مال أبي بكر». ولما قدم [المهاجرون][1] المدينة أظهروا الإسلام إظهارا كليا.

ثم لما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيع وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج شيعة أصحابه من المهاجرين إليهم تحذروا خروجه ﷺ، فاجتمعت قريش في دار الندوة للمشاورة في إخراجه أو حبسه أو قتله وهي دار قصي بن كلاب، وهو أول من بناها، وكانت قريش لا تقضي أمرا إلا فيها، ومنعوا الناس من الدخول إليهم لئلا يدخل أحد من بني هاشم فيطلع على حالهم، فلما قعدوا للتشاور تزيا لهم إبليس بصورة شيخ نجدي متطيلس [2] فوقف على الباب، فلما رأوه قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم، ولن تعدموا مني رأيا ونصحا! قالوا: ادخل، فدخل، وكان قد اجتمع فيها أشراف قريش من كل قبيلة، فزعم ابن دريد في [الوشاح] أنهم كانوا خمسة عشر رجلا، وقال ابن دحية في مولده إنهم كانوا مائة رجل، ثم شرعوا في الكلام فقال بعضهم: إن هذا الرجل، يعني محمدا ﷺ، قد كان من أمره ما كان، وإنا لا نأمن منه الوثوب علينا بمن اتبعه، فأجمعوا فيه رأيا. فقال بعضهم: رأيي أن تحبسوه في بيت، وتشدوا وثاقه، وتسدوا بابه، غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها، وتربصوا به ريب المنون حتى يهلك فيه كما هلك من الشعراء من كان قبله، كزهير والنابغة. فصرخ الشيخ النجدي ـ عدو الله ورسوله ـ فقال: بئس الرأي! والله لو حبستموه لخرج أمره من وراء الباب إلى أصحابه فوثبوا وانتزعوه من أيديكم. قالوا: صدق الشيخ، وقال بعضهم: رأيي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم، فلا يضركم ما صنع، واسترحتم. فقال الشيخ: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، فوالله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يبايعوه، ثم يسير بهم حتى يطأكم بهم. فقالوا: صدق الشيخ، فقال أبو جهل: أرى أن يعطى خمسة رجال من خمسة قبائل سيفا

(١) في الأصل: الأنصار، وهو خطأ، إذ القادمون إلى المدينة هم المهاجرون، لا الأنصار.

(٢) أي لابس الطيلسان.

سيفا، فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في هذه البطون فلا يقدر بنو هاشم على حرب قومهم جميعا! فصوب الشيخ النجدى قول أبي جهل، فتفرقوا على رأيه، مجمعين على قتله، فأخبر جبريل بذلك رسول الله ﷺ، وكان مما أنزل عليه في ذلك اليوم ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠)، وقوله عز وجل ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ (الطور: ٣٠).

ولما استقر رأى قريش بعد المشاورة على قتله، ﷺ، أتاه جبريل وأخبره بذلك، وقال: لاتبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه، وقال له: إن الله يأمرك بالهجرة إلى المدينة، ثم سأل جبريل عمن يهاجر معه قال: أبو بكر الصديق، فمن ذلك سماه الله: صديقا، وقد سبق أن سبب تسميته صديقا فى المعراج بقوله لرسول الله ﷺ: صدقت فى كل ما تخبر به، فلعل هذا سبب ثان لتأكيد التسمية بالصديق وتحقيقها.

فلما كان الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبوا - أي ينهضوا ويقوموا - عليه، وهو إذ ذاك داخل الدار، فأمر عليه الصلاة والسلام عليا فنام مكانه، وغطى ببرد أخضر، وكان أول من شرى نفسه، ونزل فيه قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٠٧) وذكر الغزالى فى [الإحياء] أن الله تعالى أمر جبريل وميكائيل أن يهبطا إلى الأرض ويحفظاه من عدوه، فنزلا، فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجليه، وأنشد على بن أبى طالب رضى الله عنه قصة مبيته على فراش رسول الله ﷺ فقال:

وقيت بنفسى خير من وطئ الثرى ... ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر

رسول إله خاف أن يمكروا به ... فنجاه ذو الطول الإله من المكر

وبات رسول الله فى الغار آمنا ... مرقى وفى حفظ الإله وفى ستر

وبت أراعيهم وما يثبتوننى ... وقد وطنت نفسى عن القتل والأسر

وخرج رسول الله ﷺ فرصدوا له، وقد أخذ الله على أبصارهم فلم يره أحد، ونثر على رؤوسهم كلهم ترابا فى يده وهو يتلو (يس) إلى قوله تعالى: ﴿ **فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾ (يس: ٩) كما قيل:

وقريش إذ عزم الرحيل مهاجرا ... ملؤوا المسالك راصدا ومشاجرا

فمضى لحاجته ولم ير حاجرا ... والقوم يقظى والبصائر نوم

* * *

نثر التراب على رؤوس الحسد ... وسرى وقد وقفوا له بالمرصد

قولوا لأعمى العين مغلول اليد ... أنف الشقى ببغض أحمد مرغم

ثم انصرف حيث أراد، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: ما تنظرون هنا؟ قالوا: محمدا، قال: قد خيبكم الله! والله قد خرج محمد عليكم ما ترك منكم رجلا إلا وضع عليه ترابا، وانطلق لحاجته، فما ترون ما بكم؟! فوضع كل رجل يده على رأسه فإذا عليه تراب.

فقال أبو بكر: الصحبة بأبى أنت وأمي يارسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: نعم فجهز زوجات النبى ﷺ وغيرهن جهاز السفر أحسن جهاز وصنعن لهن سُفْرة - أي زادا - فى جراب، وكان فى السفرة - أي الزاد - شاة مطبوخة.

فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به فم الجراب المشتمل على الزاد وأبقت الأخرى نطاقا لها، فبذلك سميت ذات النطاقين، كما روى فى صحيح مسلم عن أسماء بنت أبى بكر الصديق، زوج الزبير بن العوام، من كبار الصحابة، روى عنها ابناها عبد الله وعروة وجماعة، أسلمت قديما بمكة، وهاجرت إلى المدينة، وتوفيت بمكة بعد ابنها عبد الله بيسير، سنة ثلاث أو أربع وسبعين، وقد جاوزت المائة، ويروى أنها قالت للحجاج: بلغنى أنك تعير ابنى عبد الله بن الزبير بابن ذات النطاقين! أنا والله ذات النطاقين، أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ وطعام أبى بكر الصديق، رضى الله عنه وأما الآخر فنطاق المرأة التى لا تستغنى عنه عند أشغالها.

وفى حديث أم إسماعيل: أول ما اتخذ الناس النُّطُق من قبل أم إسماعيل اتخذت مِنْطَقا ـ المنطق النطاق وجمعه مناطق ـ وهو أن تلبس المرأة ثوبها ثم تشد وسطها بشيء، وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها، ومنه سميت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها: ذات النطاقين لأنها كانت تطارق [1] نطاقا فوق نطاق، وقيل: كان لها نطاقان، تلبس أحدهما وتجعل فى الآخر الزاد إلى النبى ﷺ وأبى بكر وهما فى الغار، وقيل: شقت نطاقها نصفين فاستعلمت أحدهما وجعلت الآخر شدادا لزادهما.

وخرج رسول الله ﷺ من مكة ووقف على الحَزْوَرَة [2] ونظر إلى بيت الله الحرام وقال، حين خروجه من أم القرى: «والله إنك لأحب أرض الله إلىّ، وإنك خير بقعة على وجه الأرض، وأحبها إلى الله تعالى، ولولا أهلك أخرجونى لما خرجت منك»، وقال ﷺ «إن خير بلدة على وجه الأرض وأحبها إلى الله مكة»، وسميت أم القرى لأنها قبلة أهل الدنيا، فصارت هى كالأصل وسائر البلاد تبعا، وأيضا الناس يجتمعون إليها للحج والتجارة كما يجتمع الأولاد للأم، وقيل لأن الكعبة أول بيت وضع للناس، وما أحسن ما قاله بعض الشعراء:

لا تنكرن لأهل مكة قسوة ... والبيت فيهم والحطيم وزمزم

آذوا رسول الله وهو نبيهم ... حتى حمته أهل طيبة منهم

خاف الإله على الذى قد جاءه ... سلبا فلا يأتيه إلامحرم!!

ـ أى خاف الله أن يسلب أهل مكة القادم إلى الحرم فصار يقصد مكة الناس بالإحرام ـ وأما حديث «اللهم كما أخرجتنى من أحب البقاع إلى فأسكنى أحب البقاع إليك» فلم يصح عنه ﷺ، لأن مكة أفضل من غيرها بوجوه: منها أنه تعالى أوجب قصدها للحج والعمرة الواجبين، وقصد المدينة سنة، وإن فضلت بإقامة النبى ﷺ بعد النبوة فمكة أفضل، لأنه أقام بها ثلاث عشرة أو خمس عشرة

---

(1) أى تتابع وتكرر.

(2) الحزروة ـ بفتح الحاء وسكون الزاى وفتح الواو والراء ـ كانت سوق مكة، ثم دخلت فى المسجد الحرام بعد توسيعه.

وبالمدينة عشرا، فإن فضلت بكثرة الطارقين فمكة أفضل لكثرة من طرقها من الأولياء والصالحين والأنبياء والمرسلين، فما من نبى إلا حجها، وهى متبوأ إبراهيم وإسماعيل ومولد سيد المرسلين، وليست المدينة كذلك، وإن ذهب إلى تفضيلها على مكة الإمام مالك. ولو صح الحديث السابق فهو مجاز، لوصف المكان بما يقع فيه، كبلد آمن أو خائف، فوصف بأنه محبوب لما فيه مما يحبه الله من إقامة الرسول به إلى القيامة، وتكميل إرشاد الأمة والدين به. وأحسن من هذا أن يكون المعنى: كما أخرجتنى من أحب البقاع إلىّ فى أمر معاشى فاسكنى الأحب إليك فى أمر معادى، وهو ظاهر، فإنه لم يزل فى زيادة من دينه وبلوغ أمره إلى أن تكامل، وبشر بذلك فى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة: ٣) الآية، وسيأتى قريبا ذلك على وجه أوضح.

الفصل الثانى

(فى سيره مهاجرا إلى المدينة مع صاحبه صديقه رضى الله تعالى عنه، وهو ابتداء التاريخ الإسلامى)

لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ على ما ذكر، أمر أصحابه فهاجروا إلى المدينة، وبقى هو وأبو بكر وعلى، فخرج هو وأبو بكر مستخفين من قريش، فلما فقدت قريش رسول الله ﷺ طلبوه بمكة، أعلاها وأسفلها، فلم يجدوه، فشق عليهم خروجه، وجعلوا مائة ناقة لمن يرده.

ولما خرج أبو بكر مع رسول الله ﷺ متوجها إلى الغار جعل طورا يمشى خلفه وطورا عن يمينه وطورا عن شماله، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما هذا ياأبا بكر»؟ فقال: يارسول الله، أذكر الرصد فأحب أن أكون أمامك، وأتخوف الطلب فأحب أن أكون خلفك، وأحفظ الطريق يمينا وشمالا! فقال: «لا بأس عليك يا أبا بكر، الله معنا».

وكان رسول الله ﷺ غير لابس شيئا فى رجليه، فحفى، لأنه لم يتعود الحفا، فحمله أبو بكر رضى الله عنه على كاهله حتى انتهى إلى الغار، فلما أراد النبى ﷺ أن يدخل قال أبو بكر: والذى يعثك بالحق نبيا لا تدخله حتى أدخله فأسبره قبلك، فدخل أبو بكر رضى الله عنه فجعل يلتمس الغار بيده فى ظلمة الليل مخافة أن يكون فيه شىء يؤذى رسول الله ﷺ، فلما لم ير فيه شيئا دخل ﷺ الغار،

وجعل رأسه في حجره، ونام، ورأى أبو بكر رضى الله عنه حُجْرا فألقمه عَقبَه فَلُدغَ أبو بكر رضى الله عنه في رجله فلم يتحرك، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ ، فقال: «ما هذا»؟ قال له لُدغْتُ! فتفل عليه، فذهب ما يجده. وباتا في الغار، وأمر الله العنكبوت فنسجت على فم الغار، وأمر حمامتين فعشتا وباضتا! وما أحسن ما قيل:

وخافت عليك العنكبوت من العدا — فأرخت بباب الغار مكرا بها سترا

ووافقها في الذب عنك حمائم — أتين سراعا فابتنين به وكرا

فلما أتى الكفار طرن خديعة — فحيا الحيا تلك الخديعة والمكرا

وأقبل فتيان قريش بسهامهم وسيوفهم، ومعهم من يقص الأثر، حتى انتهى إلى الغار فقال لهم: هنا انتهى أثره، فما أدرى بعد ذلك أصعد إلى السماء أم غاص في الأرض! فقال لهم قائل: ادخلوا الغار، فقال أمية بن خلف: ما تنظرون إلى الغار، وإن عليه لعنكبوتا قبل ميلاد محمد؟! فسمع رسول الله ﷺ حديثهم، فقال ﷺ : «اللهم اعم بصرهم»، فجعلوا يترددون حول الغار لا يرون أحدا، ويقولون: لو دخلا هذا الغار تكسر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت، فعلما أن الله تعالى حمى حماهما بالحمام وصرف عنهما كيد الأعداء بالعنكبوت.

ولقد حصل للعنكبوت الشرف بذلك، روى ابن وهب أن حمام مكة أظلت النبي ﷺ يوم فتحها، فدعا لها بالبركة، ونهى عن قتل العنكبوت، وقال: «هي جند من جنود الله، إلا أن البيوت تطهر من نسجها، لأنه يورث الفقر»، وإلى ذلك يشير صاحب [البردة [بقوله:

وما حوى الغار من خير ومن كرم — وكل طرف في الكفار عنه عمى

فالصدق في الغار والصديق لم يَرِ مَا — وهم يقولون ما بالغار من إرم[1]

---

(١) الأرم ـ الإرم ـ بفتح الهمزة وكسرها ـ معناه: أحد.

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أعنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم [1]

وقيل في هذا المعنى :

والعنكبوت أجادت حوك حلتها فما تخال خلال النسج من خلل

وما أحسن قول ابن النقيب [2] :

ودود القز إن نسجت حريرا يجمل لبسه في كل شيء
فإن العنكبوت أجلّ منها بما نسجت على رأس النبي

وروى : لما اطلع المشركون فوق الغار ، وأشفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ ، وقال : إن تُصَب اليوم ذهب دين الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» ؟! وقال حسان بن ثابت :

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صاعد الجبلا
وكان حب رسول الله قد علموا من الخلائق لم يعدل به بدلا

قال أبو بكر ـ كما في الصحيحين ـ : نظرت إلى أقدام المشركين من الغار على رؤوسنا ، فقلت : يارسول الله ، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا ! فقال : «يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما» ؟!

وكان مكثه ﷺ وأبي بكر في الغار ثلاث ليال ، وقيل بضع عشر يوما ، وروى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما رأى القافة ـ أي القائد ـ وقال : إن قُتلتُ فإنما أنا رجل واحد ، وإن قتلت أنت هلكت الأمة ، قال ﷺ : «لا تحزن إن الله معنا» ، أي بالمعونة والنصرة ، فأنزل الله سكينته عليه ، أي على أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، لا على رسول الله ﷺ ، لأن السكينة لا تفارقه ، وهي أمنة تسكن عندها القلوب ، وأيده ؛ أي رسول الله ﷺ ، بجنود ، أي ملائكة ، يصرفون

---

(١) الأطم ـ بضم الهمزة ـ الحصن ، وجمعها : آطام .

(٢) عبد الرحمن بن محمد (١٦٣٨ ـ ١٦٧٠) أديب وشاعر دمشقي ، كان أديب دمشق في عصره .

أبصار الكفار عنه. وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبي بكر: «أنت صاحبي في الغار، وصاحبي على الحوض» قال الحسن بن الفضيل: من قال إن أبا بكر رضي الله عنه لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر، لإنكار نص القرآن، وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعا لا كافرا.

قال بعض النقاد ما معناه: ولما غار الحق تعالى على نبيه وصاحبه من أعدائهما أدخلهما غار الحفظ والأمان، وأذهب عنهما الهموم بجميل رعايته والأحزان، كما صرح بذلك القرآن ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ (التوبة: ٤٠) فكشف في تلك الخلوة لصديقه الحجاب، ودعا له بالبركة من عقبه إلى يوم الحساب، وكان الله معهما في هاتيك الخُلْوة، والمتجلي عليهما في تلك الجَلْوة، فصحبها اسم الجلالة لفظا ومعنى، فإنه من حيث اللفظ يقال: رسول الله وخليفة رسول الله، ولم يكن ذلك إلا للصديق رضي الله عنه، ومن حيث المعنى: فإنه معهما بالإمداد والإسعاد.

واستأجر رسول الله ﷺ هو وأبو بكر رضي الله عنه عبد الله بن الأرقط دليلا، وهو على دين كفار قريش، ولم يعرف له إسلام، فدفعا إليه راحلتهما، ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال فأتاهما براحلتهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فساروا على طريق السواحل، ونزل ﷺ بقديد[1] على أم معبد عاتكة بنت خالد، فمسح ضرع شاة مجهودة، وشرب من لبنها وسقى أصحابه، واستمرت تلك البركة فيها، فلما جاء زوجها أكثم بن الجون ورأى ما بالشاة من اللبن سألها فقالت: رأيت رجلا ظاهر الوضاءة متبلج الوجه حسن الخلق، وصارت تصفه بأوصافه، إلى أن قالت: له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر يبادرون إلى أمره، فقال: والله هذا صاحب قريش! ثم هاجرت بعد ذلك هي وزوجها فأسلما، وكان أهلها يؤرخون بيوم نزول الرجل المبارك. ولما مرت قريش سألوها عنه، ووصفوه، فقالت: ما أدرى ما تقولون، قد ضافني حالب الحائل، فقالوا: ذاك الذي نريد.

---

(١) موضع قرب مكة.

وبعد أن خرج من مكة سمع صوت لا يرى صاحبه :

جزى الله رب الناس خير جزائه	رفيقين قالا [1] خيمتي أم معبد
هما نزلا بالهدى واهتديا به	وقد فاز من أمسى رفيق محمد
فما حملت من ناقة فوق رحلها	أبر وأوفى ذمة من محمد
فيا لقصي ما زوى الله عنكم	به من فعال لا تجارى وسودَد
ليهنِ بنى كعب مكان فتاتهم	ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها [2]	فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت	له بصريح [3] ضرة الشاة مُزْبِدَ
فغادرها رهنا لديها لحالب	تزودها في مصدر ثم مورد

فعرف الناس توجهه إلى المدينة ، ولما سمع حسان بن ثابت قال في جوابه هذه الأبيات :

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم	وقدس من يسرى إليهم ويغتدى
ترحل عن قوم فزالت عقولهم	وحل على قوم بنور مجدَّد
هداهم به بعد الضلالة ربهم	وأرشدهم، من يتبع الحق يرشد
وهل يستوى ضلال قوم تسفهوا	عمى، وهداة يهتدون بمهتد
لقد نزلت منه على أهل يثرب	ركاب كتاب الله فى كل مشهد
نبى يرى ما لا يرى الناس حوله	ويتلو كتاب الله فى كل مشهد

(١) أى نزلا بها وقت القيلولة .

(٢) فى الأصل : إنائها . . وهو خطأ، إذ الإشارة للإناء الذى حلبت فيه الشاة . انظر [نهاية الأرب] . للنويرى جـ١٦ ص ٣٣٧ . طبعة القاهرة .

(٣) فى الأصل : به من صريح . . وهو خطأ، والتصحيح من المصدر السابق، والصريح هو اللبن الخالص . وللأبيات روايات تختلف بعض الاختلافات .

وإن قــال في يوم مـقــالة غــائب فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد

ثم تعرض للنبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه سراقة بن مالك المدلجي، وعلم أنهما اللذان جعلت فيهما قريش ما جعلت لمن أتى بهما، فركب فرسه وتبعهما بزعمه، فبكى أبو بكر وقال: يارسول الله، أوتينا، قال: كلا، فلما دنا سراقة صاح وقال: يا محمد، من يمنعك مني اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «يمنعك العزيز الجبار، الواحد القهار»! ودعا رسول الله ﷺ بدعوات، وقال: «اللهم اكفنا أمر سراقة بما شئت وكيف شئت، فساخت قوائم فرسه، فطلب الأمان، وقال: أعلم أن قد دعوتما عليّ، فادعوا لي ولكما أن أرد الناس عنكما ولا أضركما، قال سراقة: فوقفا لي، ثم ركبت فرسي حتى جئتهما، قال: فوقع في نفسي حين لقيت ما لقيت أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فأخبرتهما بما يريد الناس منهما، وعرضت عليهما الزاد والمتاع فلم يقبلا، وأنشد بعضهم لأبي بكر رضي الله عنه قصيدة مطلعها:

قــال النبي ولم يجـــزع يوقــر بي ونحن في سُـدُف من ظلمـة الغـار

لا تخـشى شــيــئـا فـإن اللـه ثالثنا .. ..

إلى آخر القصيدة المذكورة في بعض السير.

قال: ومع أن مثل هذه القصيدة الساقطة لا يسمح الذوق السليم بنسبتها إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه، على فرض كونه يقول الشعر، فقد ذكر ابن عبد البر في ترجمة الصديق رضي الله عنه ما لفظه: «روى سعيان بن حسين، عن الزهري، قال: سألني عبد الملك بن مروان، قال: رأيت هذه الأبيات التي تروى عن أبي بكر رضي عنه؟ فقلت له: حدثني عروة عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر لم يقل شعرا في الإسلام حتى مات. انتهى.

فحينئذ يحتمل أن تكون هذه الأبيات نظمت على لسانه، وأنه أنشدها، كما قيل فيما نسب إليه من قوله بعض أبيات منها قوله:

كل امـــرىء مـــصـــبح في أهـلـه والموت أدنى من شـــــراك نـعلـه

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : إن أبا بكر لم يقل شعرا فى الإسلام، ولا فى الجاهلية، كما فى رواية عنها، أى لم ينشئ الشعر حتى مات، وأما ما روى عن أنس ابن مالك رضى الله تعالى عنه أنه قال : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه إذا رأى النبى ﷺ يقول :

أمين مصطفى بالخير يدعو ... كضوء البدر زايله الظلام

فمحمول على أنها لم تسمع ذلك منه، على فرض أنه من إنشائه، وكذلك ما ذكره صاحب [الينبوع] فى قوله : ليس عمل الشعر رذيلة، فقد كان الصديق وعمر وعلى، رضوان الله عليهم، يقولون الشعر، وعلىّ كرم الله وجهه أشعر من أبى بكر وعمر. ولو أنه بظاهره مناف لقول عائشة إلا أنه يحمل على الإنشاد، كثرة وقلة، فإن عليا رضى الله عنه دُوِّن باسمه ديوان، ولا مانع أن يكون كله مما تمثل به، إن لم يثبت عنه إنشاء الشعر.

ولما بلغ أبا جهل أمر سراقة أنشد يقول :

بنى مدلج إنى أخال سفيهكم ... سراقة يستغوى بنصر محمد

عليكم به أن لا يفرق جمعكم ... فيصبح شتى بعد عز وسودَد

فأجابه سراقة :

أبا حكم واللات لو كنتَ شاهدا ... بأمر جوادي حيث ساخت قوائمه

علمت ولم تشكك بأن محمدا ... نبى وبرهان فمن ذا يكاتمه

عليك بكف الناس عنه فإننى ... أرى أمره يوما ستبدو معالمه

بأمر تود النصر فيه بأنها ... لو أن جميع الناس طُرًا تسالمه

وأسلم سراقة عند رسول الله ﷺ حين انصرف من حنين والطائف، وكان شاعرا مجيدا، رضى الله عنه.

فلما بلغ خروج النبى ﷺ حيى بن ضمرة الجمدى قال : لا عذر لى فى مقامى

بمكة، وكان مريضا، فأمر أهله فخرجوا به الى التنعيم [1] فمات، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ (النساء: ١٠٠) فلما رأى ذلك من كان بمكة، ممن يطيق الخروج، خرجوا، فطلبهم أبو سفيان وغيره من المشركين فردوهم وسجنوهم، فافتتن منهم ناس، وأقام على رضى الله عنه بعد مخرجه عليه الصلاة والسلام بمكة ثلاثة أيام حتى أدى ما كان عنده من الودائع وأدركه بقباء [2]، وقد نزل على كلثوم بن الهدم، وقيل سعد بن خيثمة، يوم الاثنين سابع، وقيل ثامن، ربيع، وكانت مدة مقام على هناك مع النبى ﷺ ليلة أو ليلتين.

وأمر عليه الصلاة والسلام بالتأريخ من الهجرة لدولة الإسلام. قال ابن الجزار[3]: ويعرف بعام الإذن، وقيل إن عمر رضى الله عنه أول من أرخ، وجعله من المحرم، وقيل يعلى بن أمية، إذ كان باليمن، وقيل بل أرَّخَ بوفاته ﷺ .

ومن فوائد التاريخ معرفة الآجال وحلولها، وأوقات التواليف، ووفيات الشيوخ ومواليدهم والرواة عنهم، فيعرف بذلك كذب الكذابين وصدق الصادقين، قال الله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ (البقرة: ٢٨٢)وأخرج البخارى فى الأدب والحاكم عن ميمون بن مهران قال: رفع إلى عمر صك محله شعبان، فقال: أى شعبان؟ الذى نحن فيه؟ أو الذى مضى؟ أو الذى هو آت؟ ثم قال: أصحاب النبى ﷺ، ضعوا للناس شيئا يعرفونه من التاريخ، فقال بعضهم: اكتبوا على تاريخ الروم، فقال: إن الروم يطول تاريخهم، يكتبون من ذى القرنين فقال: اكتبوا على تاريخ فارس، فقال: إن فارس كلما قام ملك طبع [4]من كان قبله، فاجتمع رأيهم أن الهجرة كانت عشر سنين، فكتبوا التاريخ من هجرة النبى ﷺ .

(١) موضع خارج حرم مكة على طريق المدينة، وهو ميقات إحرام المكيين بالعمرة، وهو على ثلاثة أميال من مكة.

(٢) على ميلين من المدينة، على يسار القاصد إلى مكة.

(٣) أحمد بن إبراهيم بن أبى خالد (المتوفى سنة ٩٦١م) طبيب ومؤرخ، مغربى من أهل القيروان، له آثار عدة فى الطب والدواء والتاريخ.

(٤) أى غطى.

وكانت الأنصار لما بلغهم خروج النبى ﷺ يخرجون كل يوم لتلقيه، فإذا اشتدت الهاجرة [1] رجعوا، فلما كان يوم قدومه فعلوا ذلك فرآه رجل من يهود، فنادى بأعلى صوته: يابنى قَيْلَة [2]، هذا جدكم، أى حظكم ومطلوبكم، قد أقبل، فخرج إليه بنو قيلة، وهم الأنصار: الأوس والخزرج، بسلاحهم، فتلقوه ونصروه على أعدائه، وآووه وواسوه، وآووا أصحابه وواسوهم، وهم الذين قال تبارك وتعالى فيهم: ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ** ﴾ (الحشر: ٩) الآية، وقال ﷺ فى حقهم، «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»، وقال ﷺ للأنصار: «أنتم شعار والناس دثار»، والشعار: الثوب الذى يلى الجسد، والدثار: الثوب الذى يكون فوق ذلك الثوب، فهم ألصق به وأقرب إليه ﷺ من غيرهم. والأنصار لقب إسلامى لهم، لنصرتهم النبى ﷺ، وإنما كانوا يسمون أولا أولاد قَيْلة، والأوس والخزرج، إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الواردة فى فضلهم وفضل المهاجرين الذين آثروا رضوان الله ورضوان رسوله ﷺ على حظوظ أنفسهم، فتركوا بلادهم ومهادهم وهاجروا مع المصطفى من مكة إلى المدينة، التى هى مهاجرة، وقال حسان رضى الله عنه فى مدح الأنصار:

سماهم الله أنصارا بنصرهم ... دين الهدى وعوان[3] الحرب تستعر

وسارعوا فى سبيل الله واقترفوا ... للنائبات وما خافوا وما ضجروا

وكان خروج النبى ﷺ من مكة يوم الاثنين ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وله ﷺ من العمر ثلاث وخمسون سنة، فأقام بقبا ـ موضع بالمدينة ـ فى بنى عمرو بن عوف، على فرسخ من المسجد النبوى، أربعة أيام: الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجد قبا الذى نزل فيه. ﴿ **لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ**

---

(١) ويقال: الهجير، وهو اشتداد نصف النهار، وهو المراد بالعليا، والهاجرة السفلى هى التى بعد الضحى وقبل الزوال. [الطهطاوى].

(٢) يريد الأنصار، وقيلة اسم جدة كانت للأنصار.

(٣) الحرب العوان بفتح العين والواو ـ هى أشد أنواع الحرب، وكذلك الحرب التى قوتل فيها المرة بعد المرة.

مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ (التوبة: ١٠٨) الآية وهو أول مسجد صلى فيه جماعة، ظاهرا، وأول مسجد بنى لجماعة المسلمين عامة، وإن كان قد تقدم بناء غيره من المساجد، لكن لخصوص الذى بناه، ثم خرج ﷺ من قبا ضحى يوم الجمعة فأدركته صلاة الجمعة فى الطريق، فى بنى سالم بن عوف، فصلاها فى مسجدهم الذى فى بطن وادى نوناء [(١)] وهو مسجد صغير مبنى بحجارة قدر نصف القامة بمن كان معه من المسلمين [(٢)] وهم مائة، فكانت هذه أول جمعة صلاها بالمدينة» وخطب بها، وهى أول خطبة خطبها فى الإسلام.

وكان ﷺ يخطب قائما وكان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول: صَبَّحكم ومسَّاكم! ولعل اشتداد غضبه كان عند إنذاره أمرا عظيما، ويقول: بعثتُ أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى ويقول: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهَدْى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور مُحْدَثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار».

وكان إذا قام يخطب أخذ عصا فتوكأ عليها، وكان أحيانا يتوكأ على قوس، ولم يحفظ عنه أنه توكأ على سيف، وعند الإمام أحمد وغيره من حديث سعد بن عائذ وسعد القرظ، مؤذن رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ كان إذا خطب فى الحرب خطب على قوس، وإذا خطب فى الجمعة خطب على عصا. وفى حديث عائشة رضى الله عنها قالت: كان لرسول الله ﷺ ثوبان يلبسهما يوم الجمعة، فإذا انصرف من الجمعة طواهما ورفعهما، وفى حديث عمرو بن أمية عن النسائى قال: كأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ على المنبر وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه.

ومن جملة خطبته ﷺ: «فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإنها تجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة».

---

(١) بنون مضمومة وأخرى بعدها ألف ممدودة. [الطهطاوى].

(٢) فى الأصل: بالمسلمين، والأولى: من المسلمين.

ثم توجه بعد صلاة الجمعة على راحلته متوجها إلى المدينة، فلما أشرف عليها قال: «هذه طابة، أسكنيها ربى، تنفى خبث أهلها كما ينفى الكير خبث الحديد، من أخاف أهل المدينة ظلما أخافه الله عز وجل، وعليه لعنة الله والملائكة والناس، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا».

وكيف لا تطيب بالحبيب حسا ومعنى وهى معمورة أيضا بالطيبين، ملائكة وإنسا [1] وجنا، ولا يدخلها ببركته الطاعون، ولم يُصَب عليه الصلاة والسلام قط بالطاعون ولا بذات الجنب، ولا جُنَّ نبى ولا سلب ولا احتلم ولا تثاءب، لأن هذه من الشيطان، وقد عصمهم الله ذلك، ولا تسمى مدينته الشريفة العلية فى الإسلام يثرب، كما كانت تسمى فى الجاهلية، لكراهة لفظ التثريب الذى هو كالتعنيف والتعيير والاستقصاء فى اللوم، ومنه ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ (يوسف: ٩٢) قال ﷺ: «يقولون يثرب، وهى المدينة»، قال النووى فى [شرح مسلم] يعنى أن بعض الناس، من المنافقين وغيرهم، يسمونها يثرب، وإنما اسمها المدينة. انتهى.

ومع ذلك فمادحوه ﷺ كثيرا ما يذكرون يثرب فى مديحهم كقول سيدى عبد الرحيم البرعى [2].

يا ساكن القبر المنير بيثرب   يا منتهى أملى وغاية مطلبى

فلعل قرائن المديح يحسن معه هذا التعبير، والعبرة فى مثل هذا بالنية. وعن ابن عمر أن رسول ﷺ قال: «من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت، فإنى أشفع لمن يموت بها، لا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله تعالى ذوب الملح فى الماء».

وكان عليه الصلاة والسلام كلما مرَّ على دار من دور الأنصار يدعونه إلى المقام عندهم، يقولون: يارسول الله، هلم إلينا، إلى القوة والمنعة، فيقول رسول الله

---

(١) فى الأصل: إنسا، بدون واو العطف.

(٢) عبد الرحيم بن أحمد بن على البرعى (المتوفى سنة ١٤٠٠م) شاعر يمنى متصوف، أكثر شعره فى المدائح النبوية، كما اشتغل بالإفتاء والتدريس.

ﷺ : «خلوا سبيل الناقة، فإنها مأمورة من قبل الله تعالى!» وقد أرخى زمامها وما يحركها وهى تنظر يمينا وشمالا حتى إذا أتت دار مالك بن النجار بركت، حيث مسجده الشريف الآن، ثم سارت، وهو ﷺ ، ومشت حتى بركت على باب أبى أيوب الأنصارى، رضى الله عنه، من بنى مالك بن النجار، من كبار الصحابة، شهد بدرا والمشاهد، ثم قامت ومشت والتفتت خلفها ثم رجعت إلى منزلها أول مرة بمحل باب المسجد وبركت فيه، ثم تَجَلْجَلَت [1] وألقت عنقها بالأرض وصوتت من غير أن تفتح فاها، فنزل عنها ﷺ وقال: «هذا المنزل إن شاء الله وتعالى، اللهم أنزلنا منزلا مباركا»، ولما بركت الناقة على باب أبى أيوب خرج جَوَارٍ من بنى النجار يضربن بالدفوف يقلن:

نحن جَوَارٍ من بنى النجار   يا حبذا محمد من جار

فقال ﷺ «أتحببنني» ؟ قلن: نعم يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «الله أعلم أن قلبى يحبكم»، وفى هذا دليل لسماع الغناء على الدف من المرأة لغير العرس، وسيأتى بسط الكلام على السماع فى (الفصل الثالث) من (الباب الثانى [2] عشر) من (المقالة الخامسة) من (الجزء الثانى) قال البيهقى، رحمه الله: وهذا يذكره بعضهم عند مقدمه ﷺ المدينة من مكة، لا أنه عند مقدمه المدينة من تبوك، هذا كلامه. ولا مانع من تعدد ذلك.

واحتمل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى، رضى الله عنه، رحله، بإذنه ﷺ ، وأدخله بيته، ومعه زيد بن حارثة، وكانت دار بنى النجار أوسط دور الأنصار وأفضلها، وهم أخوال عبد المطلب جد النبى ﷺ ، وأراده قوم فى النزول عليهم فقال: «المرء مع رحله»، فأقام ﷺ عند أبى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه، وكان بناؤه من آخر ربيع الأول إلى شهر صفر من السنة القابلة، أى

---

(١) تجلجلت، أى تحركت. [الطهطاوى].

(٢) فى الأصل: الحادى، وهو خطأ، إذ الباب الحادى عشر ليس فيه فصل ثالث، والحديث عن الغناء والسماع سيأتى فى الفصل الثالث من الباب الثانى عشر.

وذلك اثنا عشر شهرا، وقيل مكث ببيت أبي أيوب سبعة أشهر، وكان قبله يصلى حيث أدركته الصلاة، وبناه هو والمهاجرون والأنصار رضوان الله عليهم أجمعين، وكان موضع المسجد مرْبدا ـ أى محلا لتجفيف التمر ـ لسهل وسهيل ابنى عمرو، يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة، أو معاذ ابن عفرا، فدعا الغلامين فساومهما المرْبد ليتخذه مسجدا، فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى أن يقبله منهما هبة، حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير أداها من مال أبى بكر الصديق رضى الله عنه. ولعل إطلاق اليتم عليهما باعتبار ما كان، إن كان صدور البيع منهما، وقيل بل كان الموضع لبنى النجار، وكان فيه قبور المشركين وخُرَب [1] ونخل، فأراد النبى ﷺ أن يشتريه من بنى النجار، فقال لهم: «ثامنونى حائطكم» فقالوا: لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت وبالخرب فسويت وبالنخل فقطع، فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتها [2] حجارة، ثم بناه باللبِن وسقفه بالجريد وجعل عمده من خشب النخل، وكان ﷺ ينقل اللبن معهم فى ردائه حتى اغبر صدره الشريف، وصار يقول:

هذا الجمال لا جمال خيبر ... هذا أبرّ ربنا وأطهر

ـ أى هذا المحمول من الطين أبر وأطهر ياربنا مما [3] يحمل من خيبر من نحو التمر والزبيب ـ وعمل فيه المسلمون.

والمحرم عليه ﷺ من الشعر إنما هو إنشاؤه، أى الإتيان بالكلام الموزون عن قصد وزنه، وهذا هو المعنى بقوله تعالى: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ**﴾ (يس: ٦٩). فإن فرض وقوع الكلام موزونا منه ﷺ لا يكون ذلك شعرا متعارفا، لعدم قصد وزنه، فليس من الممنوع منه، والغالب عليه ﷺ أنه إذا أنشد بيتا من الشعر متمثلا أو مسندا لقائله لا يأتى به موزونا.

---

(١) الخرب ـ بضم الخاء وفتح الراء ـ مفردها خربة، وتطلق ـ ضمن ما تطلق ـ على الموضع الغامر.

(٢) من معانيها: ناحيتاه، وعضادتا الباب: خشبتاه من جانبيه، وأعضاد الشيء: ما شد حواليه من البناء وغيره، وهو ما نسميه إطار الباب والنافذة المثبت أو المستكن فى الجدار.

(٣) فى الأصل: ما لا يحمل.

وعن عائشة رضى الله عنها لما قيل لها: هل كان رسول الله ﷺ يأتى بشىء من الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه الشعر، غير أنه كان يتمثل، ويجعل أوله آخره وآخره أوله، أى غالبا، كأن يقول: ويأتيك من لم تزود بالأخبار، ويقول: كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا، أى وذلك قول سحيم عبد بنى الحسحاس - شاعر مشهور مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام -:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

ولما غير ذلك رسول الله ﷺ قال له الصديق رضى الله عنه: إنما قال الشاعر كذا، فأعاد ﷺ كالأول، فقال الصديق: أشهد أنك رسول الله (وما علمناه الشعر) وقد قيل له ﷺ: من أشعر الناس؟ قال الذى يقول:

ألم تريانى كلما جئت طارقًا وجدت بها وإن لم تطيب طيبا

الأصل:

وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

وعن الخليل: كان الشعر أحب إليه ﷺ من كثير من الكلام، وهذا لا يخالف قول عائشة رضى الله عنها: كان أبغض الحديث إليه ﷺ، لأن المراد بالشعر الذى يحبه ما كان مشتملا على حكمة أو وصف جميل من مكارم الأخلاق، والذى يبغضه ما كان مشتملا على ما فيه هُجْنة أو هجو ونحو ذلك، ومن ثم قيل: الشعر كلام: حسنه حسن، وقبيحه قبيح!

وقد كان له ﷺ شعراء مثل عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت، وفى [الجامع الصغير]: الشعر بمنزلة الكلام، فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام، وقد كان ﷺ يسمع الشعر ويستنشده، فقد ذكر بعضهم أنه ﷺ كان يستنشد الخنساء [1] - أخت صخر لأمه - ويعجبه شعرها، فكانت تنشده

(١) تماضر بنت عمرو (المتوفاة سنة ٦٤٥م) أشهر شواعر العرب، مخضرمة، أدركت الإسلام وأسلمت، لقيت الرسول وأنشدته واستزادها، ولقد حرضت أبناءها الأربعة على القتال يوم القادسية، وعندما استشهدوا قالت: الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم؟!

وهو يقول هيه ياخناس، ويومئ بيده، وكذلك سمع من النابغة الجعدى[1] حين دخل عليه وأنشده:

ولا خير فى حِلْم إذا لم يكن له   بوادر تحمى صفوه أنْ يُكدَّرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له   حليم إذا ما أَوْرَدَ القوم أصدرا

فقال له النبى ﷺ: «لا فض الله فاك». وسماعه ﷺ قصيدة كعب بن زهير وإجازته عليه بالبردة الشريفة أدل دليل على عدم كراهته للشعر المباح، وقال بعضهم: أجمع أهل العلم بأنه لم تكن امرأة قبل الخنساء ولا بعدها أشعر منها، ومن شعرها فى أخيها المذكور:

أعينى جودا ولا تجمدا   ألا تبكيان لصخر الندى

طويل النجاد عظيم الرماد   وساد عشيرته أمْرَدَا

وللجلال السيوطى كتاب سماه [نزهة الجلساء فى أشعار الخنساء].

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: إذا خفى عليكم شىء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر، فإن الشعر ديوان العرب. وفى كلام عمر رضى الله عنه: أفضل صناعات الرجل، نعم الأبيات من الشعر يقدمها فى صدر حاجته، فيستعطف بها قلب الكريم، ويستميل بها لؤم اللئيم.

وفى كتاب [تحقيق النصرة] للزين المراغى[2]: قيل وضع ﷺ رداءه وهو فى يثرب فوضع الناس أرديتهم، وهم يقولون:

لئن قعدنا والنبى يعمل   ذاك إذن للعَمَل المضلل

وآخرون يقولون:

---

(١) قيس بن عبد الله (المتوفى سنة ٦٧٠م) من كبار الشعراء المخضرمين، أدرك الإسلام وأسلم، وعمر طويلاً، ومات زمن معاوية.

(٢) أبو بكر بن الحسين بن عمر (١٣٢٧ ـ ١٤١٤م) مؤرخ، ولد بالقاهرة وعاش بالمدينة، وله آثار فى التاريخ والسيرة النبوية.

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائمًا وقاعدا
ومن يُرَى عن التراب حائدا

ويروى عن عثمان بن مظعون رضى الله عنه أنه كان رجلا متنظفا أى مترفها، فكان إذا حمل اللبنة يجافى بها عن ثوبه لئلا يصيبه التراب، فإن أصابه شيء من التراب نفضه، فنظر إليه علىّ بن أبى طالب رضى عنه وأنشد يقول - أى مباسطة مع عثمان بن مظعون لا طعنا فيه -:

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها .. الخ

وكان عثمان هذا ممن حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية، وقال: لا أشرب شرابا يذهب عقلى ويضحك بى من هو أدنى منى.

وجعل قبلة المسجد لبيت المقدس إلى أن حولت فى السنة الثانية، وجعل طوله مما يلى القبلة وإلى مؤخره مائة ذراع، وفى الجانبين مثل ذلك أو دونه، وجعل أساسه قريبا من ثلاثة أذرع بالحجارة، وجعل له أربعة أبواب من جهتى المشرق والمغرب، فمن جهة المشرق باب جبريل وباب النساء، ومن جهة المغرب باب السلام وباب الرحمة، وبنى بيتين إلى جنبه باللبن، وسقفهما بجذوع النخل والجريد.

ثم تحول عليه الصلاة والسلام من دار أبى أيوب إلى مساكنه التى بناها، وبعث النبى ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع ببعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة فقدما بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة وأسامة بن زيد وأم بركة، المكناة أم أيمن، وخرج عبد الله بن أبى بكر رضى الله تعالى عنه معهم بعيال أبيه.

وأما علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فكان أقام بعد خروج النبى عليه الصلاة والسلام بثلاثة أيام ثم أدركه بقباء.

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه - كما أخرجه عنه ابن عساكر -: ما علمت أحدا هاجر إلا مختفيا، إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما اهتم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يده سهما، وأتى الكعبة، وأشراف قريش بفنائها، فطاف سبعا، ثم صلى ركعتين عند المقام، ثم أتى خلفهم وقال: شاهت الوجوه، من أراد

أن تثكله أمه وييتم[1] ولده وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادى! فما تبعه منهم أحد، لأنهم كانوا يردون من أراد الهجرة ويسجنونه، وكان صحيح الإيمان يجتهد فى اللحاق بالنبى ﷺ كما وقع ليحيى بن ضمرة الجندعى لما بلغه خروج النبى ﷺ قال: لا عذر لى فى مقامى بمكة، وكان مريضا، فأمر أهله فخرجوا به إلى التنعيم فمات، فأنزل الله تعالى ﴿ **وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ (النساء: ١٠٠).

وأول كلمة سمعت منه ﷺ لما قدم المدينة: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

وكان ﷺ يخطب يوم الجمعة إلى جذع نخلة، وفى لفظ: يسند ظهره إليه إذا تكلم يوم الجمعة أو حَدَث أمر يريد أن يكلم الناس فيه، فقال له الناس: يارسول الله، قد كثر الناس، يعنى المسلمين، وإنهم يحبون أن يروك، فلو اتخذت منبرا لقدر قيامك تقوم عليه فيراك الناس؟ قال: نعم، قال: من يجعل لنا هذا المنبر؟ فقام إليه رجل، فقال: أنا، قال: تجعله؟ قال: نعم، ولم يقل إن شاء الله، قال: ما اسمك؟ قال: فلان، قال: اقعد، فقعد، ثم عاد فقال: من يجعل لنا هذا المنبر؟ فقام إليه رجل فقال: أنا، قال: تجعله ؟ قال: نعم، ولم يقل إن شاء الله، قال: ما اسمك؟ قال: فلان، قال: اقعد، فقعد، ثم عاد فقال: من يجعل لنا هذا المنبر؟ فقام إليه رجل فقال: أنا، فقال: تجعله ؟ قال: نعم إن شاء الله، قال: ما اسمك؟ قال: يا قوم، وكان قبطيا[2]، قال: اجعله، فجعله، فصنع له المنبر ثلاث درجات بينه وبين الحائط ممر الشاة. فلما كان أيام معاوية جعل المنبر ست درجات، وحوله عن مكانه فكسفت الشمس يومئذ. وحنين الجذع الذى يخطب عليه ﷺ حديثه متواتر رواه من أصحاب رسول الله ﷺ الجمع الكثير، وإلى حنين الجذع أشار الإمام السبكى فى تائيته بقوله:

وحن إليك الجذع حين تركته ... حنين الثكالى عند فقد الأحبة

---

(١) فى الأصل: يؤتم.

(٢) قبطيًا: أى مصريًا، والقبطى هو المصرى بصرف النظر عن دينه..

وأشرقت المدينة بقدومه ﷺ فيها، وسرى السرور بحلوله ﷺ ، قال أنس بن مالك رضى الله عنه : لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شىء، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء . وعن البراء بن عازب قال : ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء كفرحهم برسول الله ﷺ ، وصعدت ذوات الخدور على الأسطحة من قدومه ﷺ يقلن :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داعى

أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

وسميت ثنية الوداع لأن المسافر من المدينة كان يُشَيَّع إليها ويودع عندها قديما، وهى موضع بين مكة والمدينة .

وقال ﷺ : «اللهم حبب لنا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا فى صاعها ومُدّها»، والبركة حاصلة لها لأنها النمو والزيادة فى نفس المكيل بحيث يكفى المد بها ما لا يكفى فى غيرها، وهذا محسوس لمن سكنها، ولمسلم : «اللهم بارك لنا فى صاعنا، اللهم بارك لنا فى مُدّنا، اللهم اجعل مع البركة بركتين»، وله أيضا : «اللهم بارك لنا فى ثمرنا، وبارك لنا فى مدينتنا، وبارك لنا فى صاعنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإنه دعا لمكة، وأنا أدعو للمدينة بمثل ما دعاك لمكة»، وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه : كان ﷺ يُؤتى بأول التمر فيقول : «اللهم بارك لنا فى مدينتنا، وفى ثمارها وفى مُدِّنا وفى صاعنا بركة مع بركة»، ثم يعطيه أصغر من يحضر من الولدان، وجاء الإيمان ليأزر على المدينة كما تأزر (١) الحية إلى جحرها . وفى رواية : «إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، يأزر كما تأزر الحية إلى جحرها» .

ومكة أفضل من المدينة لأن مكة تشرف بفضل العبادة فيها على غيرها مما تكون العبادة فيه مرجوحة، وهذا قول الجمهور، وعند الإمام الشافعى : مكة أفضل من

(١) ويأزر ـ بكسر الزاى ـ أى ينضم ويجتمع بعضه إلى بعض . [الطهطاوى] .

المدينة، وحكى عن مالك ومطرف وابن حبيب من أصحابه، لكن المشهور عن مالك وأكثر أصحابه تفضيل المدينة، وقد رجع عن هذا القول أكثر المصنفين من المالكية، واستثنى القاضي عياض البقعة التي دفن فيها النبي ﷺ فحكى الاتفاق على أنها أفضل بقاع الأرض، وأنشد بعضهم:

جزم الجميع بأن خير الأرض ما ... قد حاط ذات المصطفى وحواها

ونعم لقد صدقوا بساكنها علت ... كالنفس حين زكت زكا مأواها

وزاد بعضهم بعد هذين البيتين:

وبهذه ظهرت مزية طيبة ... فغدت وكل الفضل في مغناها

حتى لقد خصت بروضة جنة ... الله شرفها بها وحباها

ما بين قبر للنبي ومنبر ... حيا الإله رسوله وسقاها

ورجح بعضهم المدينة لأن ميل كل نفس حيث حل حبيبها، كما قال بعضهم:

عليّ لربع العامرية وقفة ... ليملي عليّ الشوق والدمع كاتب

ومن مذهبي حب الديار لأهلها ... وللناس فيما يعشقون مذاهب

ولما هاجر ﷺ، وأكثر اليهود يستقبلون بيت المقدس، وأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، فرحت اليهود، فاستقبل بيت المقدس سبعة عشر شهرا، وكان يحب أن يستقبل قبلة إبراهيم، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فنزلت الآية ﴿**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ (البقرة: ١٤٤).

* * *

ثم إن اليهود افترقوا فرقا كثيرة، ولكن المشهور من فرقهم ثلاث: الربانيون، والقراؤون، والسامريون، وهؤلاء مجمعون على نبوة موسى وهارون ويوشع عليهم السلام، وعلى التوراة وأحكامها، وإن كان فيها تحريف الكلم عن مواضعه، لكنهم يستخرجون منه ستمائة وثلاثة عشر فريضة يتعبدون بها.

وينفرد الربانيون والقراؤون عن السامرة بنبوات أنبياء غير الثلاثة المذكورة، وينقلون عنهم تسعة عشر كتابا، ويضيفونها إلى خمسة أسفار التوراة، ويعبرون عن الأربعة وعشرين كتابا بالنبوات، وهى على مراتب:

الأولى: التوراة وهى خمسة أسفار، **الأول**: يذكر فيه بدء الخليقة والتاريخ من آدم إلى يوسف عليهما السلام، **والثاني**: يذكر فيه استخدام المصريين لبنى إسرائيل، وظهور موسى عليه السلام، وهلاك فرعون، ونصب قبة الزمان، وأحوال التيه، وإمامة هارون عليه السلام، ونزول العَشْر كلمات، وسماع القوم كلام الله سبحانه وتعالى، **والثالث**: يذكر فيه تعليم القرابين بالإجمال، **والرابع**: يذكر فيه عدد القوم وتقسيم الأرض عليهم بالقرعة، وأحوال الرسل الذين بعثهم موسى عليه السلام إلى الشام، وأخبار المَنّ[1] والسلوى[2] والغمام، **والخامس**: إعادة أحكام التوراة، بتفصيل المجمل، وذكر وفاة هارون ثم موسى، وخلافة يوشع عليه وعليهما السلام.

المرتبة الثانية: أربعة أسفار تدعى الأولى، **أولها**: ليوشع عليه السلام، يذكر فيه ارتفاع المن وأكلهم الغلال بعد تقريب القربان، ومحاربة يوشع الكنعانيين، وفتحه البلاد وتقسيمها بالقرعة، ووفاته، **وثانيها**: يعرف بسفر الحكام، فيه أخبار قضاة بنى إسرائيل فى البيت الأول، **وثالثها**: لشمويل عليه السلام، فيه نبوته، وملك طالوت، وقتل داود جالوت، **ورابعها**: يعرف بسفر الملوك، فيه أخبار ملك داود وسليمان عليهما السلام وغيرهما، وانقسام الملك بين الأسباط، والملاحم، والجلاء الأول، ومجى بختنصر وخراب بيت المقدس.

المرتبة الثالثة: أربعة أسفار تدعى الأخيرة، **فأولها**: لشعيا عليه السلام، يذكر فيه توبيخ الله تعالى لبنى إسرائيل، والإنذار بما يقع، وبشرى الصابرين، وإشارة إلى البيت الثاني والخلاص على يد كورش الملك، وثانيها: لأرميا عليه السلام، يذكر فيه خراب البيت بالتصريح، والهبوط إلى مصر، وثالثها: لحزقيل عليه السلام، يذكر فيه حكم طبيعية وفلكية ومرموزة، وشكل بيت المقدس وأخبار يأجوج

---

(١) المن: مائية تنعقد على بعض الأشجار عسلا وتجف كما يجف الصمغ على شجر السنط.

(٢) السلوى: العسل.

ومأجوج، **ورابعها**: اثنا عشر سفرا، فيها إنذارات بجراد وزلازل وغيرها، وإشارة إلى المنتظر والمحشر، ونبوة يونس عليه السلام وغرقه وابتلاع الحوت له، وتوبة قومه، ومجيء عدو، وصلاة حبقوق، ونبوة زكريا عليه السلام، وإشارات إلى اليوم العظيم، وبشارة بورود الخضر عليه السلام.

المرتبة الرابعة: تدعى الكتب، وهي أحد عشر سفرا، **أولها**: تاريخ من آدم إلى البيت الثاني، ونسب الأسباط وقبائل العالم، **وثانيها**: مزامير داود عليه السلام، وعدتها مائة وخمسون مزمورا ما بين طلبات وأدعيه عن موسى عليه السلام وغيره، **وثالثها**: قصة أيوب عليه السلام، وفيه مباحث كلامية، **ورابعها**: أمثال حكْمية عن سليمان عليه السلام، **وخامسها**: أخبار الحكام قبل الملوك، **وسادسها**: نشائد عبرانية لسليمان عليه السلام، مخاطبات بين النفس والعقل. **وسابعها**: يدعى جامع الحكمة لسليمان عليه السلام، فيه الحث على طلب اللذات العقلية الباقية وتحقير الجسمية الفانية، وتعظيم الله تعالى والتخويف منه، **وثامنها**: يدعى النواح لأرميا عليه السلام، فيه خمس مقالات على حروف والمعجم، وندب على البيت، **وتاسعها**: فيه ملك ذي النون، **وعاشرها**: لدانيال عليه السلام، فيه تفسير منامات بختنصر وولده ورموز على ما يقع في الممالك، وحال البعث والنشور، **والحادي عشر**: لعُزَيْر عليه السلام، فيه صفة عود القوم من أرض بابل إلى البيت الثاني، وبناؤه.

وينفرد الربانيون بشروح لفرائض التوراة وتفريعات عليها ينقلونها عن موسى عليه السلام، ولله در ابن سهل الإسرائيلي الأسلمي [1] حيث يقول:

تسليت عن موسى بحب محمد هديت ولولا الله ما كنت أهتدي

وما عن قِلًى [2] قد كان ذاك وإنما شريعة موسى عطلت بمحمد

* * *

(1) إبراهيم بن سهل الأشبيلي (١٢٠٨ ـ ١٢٥١م) أندلسي سكن سبتة، وكان شاعرا جيد الشعر: ولقد أسلم بعد أن كان يهوديًا.

(2) القلى ـ بكسر القاف ـ البغض.

ثم لما استقر ﷺ بالمدينة، وأظهرت أحبار اليهود العداوة للنبي ﷺ بغيا وحسدا، وانضم إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج منافقون، منهم عبد الله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين، واجتمع عليه أصحابه ﷺ ، وقاموا بنصرته، وصارت المدينة لهم دار إسلام شرع الله جهاد الأعداء، ومن هذا الوقت ظهرت الغزوات.

الفصل الثالث

(في ذكر الظواهر الحادثة بعد الهجرة اجمالا)

ولما مكث ﷺ بضع عشرة سنة يدعو إلى الله تعالى بغير قتال: صابرا على إيذاء العرب بمكة واليهود بالمدينة له ولأصحابه، لأمر الله له بالصبر، ووعده له بالفتح، أذن بالقتال، لكن لمن قاتله، بقوله تعالى ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا**﴾ (الحج: ٣٩) الآية، ولما نزلت أخبر ﷺ بقوله «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله [١] فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى»، قيل. وما حقها؟ قال: «زنًا بعد إحْصان، وكفر بعد إسلام، أو قتل نفس»، وهي الكلمة العالية؟ والشريعة الغالية، من استمسك بها فقد سلم، ومن اعتصم بعصمتها فقد عصم، لقوله ﷺ: «فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها»، هذا توقيع العصمة الدنيوية، وأما توقيع العصمة الأخروية «فمن قال لا إله إلا الله دخل حصنى، ومن دخل حصنى أمن من عذابى».

والأمر الذى أخبر عنه ﷺ هو قوله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) قال بعضهم: وهى أول آية نزلت فى شأن القتال، وظاهر

---

(١) المراد: مع محمد رسول الله، قد يكتفى بالجزء الأول عن كلمتى الشهادة، أى عن التعبير بجميعها، لأنه صار شعارا لجميعها، فحيث قيل كلمة الشهادة أو كلمة الإخلاص أو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله. وفى لفظ: حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى محمد رسول الله. [الطهطاوى].

هذا السياق يقتضى أن الآية فيها الأمر له ﷺ بالقتال المذكور، وقد يُتوقَّف فى ذلك، ولعله أُمِر بذلك بغير الآية المذكورة، لأن الآية ظاهرها الإباحة، والمباح ليس مأمورا به.

ثم أبيح الابتداء بالقتال حتى لمن يُقَاتَل، لكن فى غير الأشهر الحرم، التى هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، بقوله تعالى؟ ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ (التوبة: ٥). الآية.

ثم أمر به وجوبا بعد فتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة مطلقا. من غير تقييد بشرط ولا زمان، بقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ (التوبة: ٣٦) أى جميعا فى أى زمن، فعلم أن القتال كان قبل الهجرة وبعدها إلى صفر من السنة الثانية محرّما، لأنه ﷺ كان فى أثناء ذلك مأمورا بالتبليغ، وكان التبليغ إنذارا بلا قتال، لأنه نُهِىَ عنه، قيل فى نيف وسبعين آية، ثم صار مأذونا فى قتال من قاتل، ثم أبيح قتال مَن لم يبدأ بالقتال فى غير الأشهر الحرم، ثم أمر بالقتال مطلقا لمن قاتل ومن لم يقاتل فى أى زمن، سواء فى الأشهر الحرم وغيرها، وقيل إن القتال فى الحالة الثانية كان مأمورا به لا مباحا كالحالة الأولى.

ثم استقر أمر الكفار معه ﷺ بعد نزول (براءة) على ثلاثة أقسام:

الأولى: محاربون له ﷺ، وهؤلاء المحاربون إذا كانوا ببلادهم يجب قتالهم، على الكفاية، فى كل عام مرة، أى يكفى ذلك فى إسقاط الحرج، كأحياء الكعبة[1]، واستدل لذلك بقوله تعالى ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ (التوبة: ١٢٢). أى فهلا نفر، وقيل كان فرض كفاية فى حق الأنصار وفرض عين فى حق المهاجرين.

الثانى: أهل عهد، وهم المُؤَمَّنون[2] من غير عقد الجزية، أى الذين صالحهم ووادعهم على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه عدوه، وهم على كفرهم آمنون على

(١) لعل مراده أحياء العرب المقيمين بمكة حيث الكعبة.

(٢) أى الذين أخذوا الأمان.

دمائهم وأموالهم وأنفسهم، لأنه ﷺ قال: «من ظلم معاهدا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة».

الثالث: أهل ذمة، وهم من عقدت الجزية.

وهناك قسم آخر: وهو من دخل في الإسلام تقية من القتال، وهم المنافقون، وكان ﷺ يأمر أن تقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، فكان معرضا عنهم إلا فيما يتعلق بشعائر الإسلام الظاهرة، كالصلاة. فلا يخالف ما رواه الشيخان: «لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلا فيصلي بالناس، ثم أنطلق ومعي رجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرِّق عليهم بيوتهم بالنار»، فإن هذا الحديث ورد في قوم منافقين يتخلفون عن الجماعة ولا يصلون أصلا، بدليل السياق، لأن صدر الحديث: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء والعشاء والفجر، ـ (أي جماعتهما) ـ ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا، ولقد هممت» إلى آخره.

وكان الجهاد في عهده ﷺ فرض عين، وقيل فرض كفاية، وكان إذا غزا بنفسه يجب على كل أحد الخروج معه، لقوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ**﴾ (التوبة: ١٢٠) ومن ثم وقع لمن تخلف عنه في غزوة تبوك ما وقع، وأما بعده ﷺ فللكفار حالان مذكوران في كتب الفقه، وقد غزا ﷺ بنفسه.

الباب الرابع

[في تفاصيل الظواهر التي حدثت بعد هجرته
عليه الصلاة والسلام إلى وفاته ﷺ
وفيه فصول]

الفصل الأول

(فى ظواهر السنة الأولى من الهجرة وما فيها من الغزوات)

قدم رسول الله ﷺ المدينة لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، ظهر يوم الاثنين، فنزل قبَاء، وأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجد قباء الذى نزل فيه: ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ (التوبة: ١٠٨) وخرج من قباء يوم الجمعة، فما مر على دار من دور الأنصار إلا قالوا: هلم يا رسول الله إلى العدد والعدة، ويعترضون ناقته، فيقول: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة»، ثم سارت حتى انتهت إلى موضع مسجده، فبنى مسجده الشريف ومساكنه كما سبقت الإشارة إلى ذلك آنفًا.

فلم يزد فيه أبو بكر فى أيام خلافته شيئًا، وزاد فيه عمر، وبناه على بنائه فى عهده عليه الصلاة والسلام، ثم غيره عثمان بن عفان فى خلافته، فزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جدرانه بالحجارة المنقوشة، وجعل عُمُدَه من حجارة منقوشة أيضًا وسقفه بالساج، ثم لما صارت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك، الذى عمر جامع دمشق، استعمل على المدينة عمر بن عبد العزيز، وكتب إليه فى سنة سبع وثمانين من الهجرة يأمره بعمارة مسجده ﷺ، وبإدخال بيوت أزواجه فيه حتى تصير مساحة المسجد مائتى ذراع فى مائتى ذراع، فأجابه أهل المدينة إلى ذلك، ففعل عمر بن عبد العزيز كذلك، وقد عمر المسجد الشريف جماعة من ملوك الإسلام. وقد احترق هذا المسجد فى زمن الملك الأشرف قايتباى الظاهرى، فعمره، ووضع

الدرابزينات حول الحجرة الشريفة، وعمل فيه منبراً، وسَقَّفَه وذَهَّب سقفه، ثم فى سنة ست وثمانين وثمانمائة وقعت صاعقة بالليل على منارة المسجد النبوى احترق منها سقوف المسجد الشريف النبوى وجميع ما فيه من المصاحف والكتب وغير ذلك، ولم يبق سوى الجدران، ووردت الأخبار بذلك إلى السلطان المذكور فجدد عمارته فجاءت فى غاية الحسن.

ولما تمت العمارة التى صرف عليها أكثر من مائة ألف دينار أرسل إلى المدينة المنورة خزانة كتب، وجعل مقرها بمدرسته التى عمرها هناك، وأرسل عدة مصاحف وأوقف عليها ما يلزم وقفه، والمدرسة باقية عامرة على يسار الداخل للحرم النبوى، وينزل بها أمير الحاج المصرى.

وقد اعترض أهل الزيغ والشقاق، ومن فى قلبه مرض ونفاق، بحلول هذه الحادثة بالحرم الشريف، وإن لم يصب الحجرة الشريفة ما يخل بالمقام المنيف، فكان الرد على المنافقين وعصبة الضلال الفاسقين، بأنه ليس فى هذا أدنى نقص فى حقه ﷺ، وأن حرمه لم يزل عند الله تعالى وعند أهل الإيمان فى أعلى درجات المقام الأعظم، وإنما لما مال من مال من أهل طيبة عن سنته، رماهم الله تعالى بهذا الأمر فتلقاها عنهم ﷺ بمسجده، لكمال رحمته بهم ورأفته. قال الشريف السمهودى[1]: وفى ذلك عبرة تامة، وموعظة عامة، أبرزها الله تعالى للإنذار، فخص بها النذير الأعظم، ﷺ، وقد ثبت أن أعمال أمته تعرض عليه، فلما ساءت الأعمال المعروضة، ناسب ذلك الإنذار بإظهار النار المُجَازَى بها يوم القيامة والعرض، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا** ﴾ (الإسراء: ٥٩). وقال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ** ﴾ (الزمر: ١٦)، وقال الشاعر فى هذا المعنى:

---

(١) على بن عبد الله بن أحمد (١٤٤٠ - ١٥٠٦م) مصرى استوطن المدينة المنورة وأصبح مؤرخها ومفتيها، وله آثار فى السيرة والفقه والفتاوى والحديث، ومن مؤلفاته فى السيرة [وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى].

لم يحـتـرق حـرم النبى لريبـة	يخـشى عليـه ولا هنـالك عـار
لكنمـا أيدى الروافض[1] لامـست	ذاك البنـاء فطـهـرتـه النـار

وفى هذه السنة دخل بعـائشـة رضى الله تعـالى عنهـا، بعـد ثمـانيـة أشـهـر من الهـجرة، وهى بنت تسع، وتوفى عنهـا وهى بنت ثمـانى عشـرة سنة، وكـان عـقد عليـها قبل الهـجرة، بعـد وفاة خـديجة. وفيـهـا آخى بين المسلمين من المهـاجرين والأنصار، وكانوا تسعين رجلاً، من كل طائفة خمسة وأربعون، وقيل مائة، فاتخذ ﷺ عليًا أخًا له، وآخى بين أبى بكر وخارجة بن زيد الأنصارى، وبين أبى عبيدة وسعـد بن معـاذ الأنصارى، وبين عـمر وعتبـان بن مـالك الأنصـارى، وبين عـبد الرحمن بن عوف وسعـد بن الربيع الأنصـارى، وبين عثـمان بن عـفان وأوس بن ثابت الأنصـارى، وبين طلحة بن عبد الله وكعب بن مالك الأنصارى، وبين سعيد بن زيد وأُبَىّ بن كعب الأنصارى.

وأول مـولود للمـهـاجـرين بعـد الهـجـرة: عـبـد الله بن الزبيـر، وأول مـولود للأنصار: النعمان بن بشير، رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

وكـان المقـصـود من المؤاخـاة أن يكون بعضـهم مُعَظِّمًا لبعض، مـهتمًا بشأنه، مخـصـوصًا بمعـاونته ومناصـرته ومواسـاته، حـتى يكونوا يدًا واحدة على الأعداء بالنسبـة للهيئة الاجتـمـاعيـة، وأن يكون حب كل أحد لأخيه جاريًا مجرى حبه لنفسه، حتى قال بعضـهم: إن هذه المؤاخاة كـان فيـها حكم التوارث، وأنهم كـانوا كذلك إلى أن نزل بعد غزوة بدر: ﴿ **وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ** ﴾ (الأنفال: ٧٥).

وقبل الهجرة آخى ﷺ بين المهاجرين بلا توارث، فالإخاء وقع مرتين.

---

(١) الروافض: فرق من غلاة الشيعة، رفضوا إمامة أبى بكر وعمر وعثمان، وقيل: هم الذين رفضوا إمامة زيد بن على، إمام الشيعة الزيدية.

غزوة الأبواء

(وفى هذه السنة الأولى من الهجرة كانت غزوة الأبواء)

وهى أول غزواته عليه الصلاة والسلام، ثم غزوة بواط، ثم غزوة العشيرة، موضع بناحية ينبع، وكانت بعد بواط بأيام قلائل، وقيل إن هذه الغزوات كانت فى السنة الثانية وغزوة الأبواء تسمى غزوة وَدَّان، وذلك أنه ﷺ خرج غازيًا حتى بلغ وَدَّان [1]، وهى قرية كبيرة بينها وبين الأبواء نحو ثمانية أميال، والأبواء قرية بين مكة والمدينة.

وكان خروجه ﷺ بالمهاجرين يتعرض عير قريش ويريد بنى ضمرة، كان عدد من معه سبعين رجلاً من أصحابه. وفى هذه الغزوة صالح بنى ضمرة فعقد الصلح مع سيدهم حينئذ، وهو مخشى [2] بن عمرو الجهنى أن لا يغزوهم ولا يغزونه، ولا يُكَثِّروا عليه جمعًا، ولا يعينوا عليه عدوًا، وكتب بينه وبينهم كتابًا نسخته:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد، رسول الله ﷺ، لبنى ضمرة، بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصرة على رامهم، إلا أن يحاربوا فى دين الله، ما بل بحر صوفة» ـ أى ما بقى فيه ما يبل الصوفة ـ «وأن النبى ﷺ إذا دعاهم لنصرة أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله» ـ أى أمانهما ـ انتهى.

وكان لواؤه أبيض، مكتوبًا عليه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وكان اللواء مع عمه حمزة، واستعمل على المدينة سعد بن عبادة، وانصرف إلى المدينة. وكانت غيبته خمس عشرة ليلة. هذا ما قاله بعض أهل السير، والصحيح أنها كانت فى الثانى عشر من شهر صفر من السنة الثانية من الهجرة.

---

(١) بفتح الواو وتشديد الدال المهملة، آخره نون. [الطهطاوى].

(٢) يسميه المؤلف «مجدى». وهو خطأ. انظر طبقات ابن سعد. جـ٢ ق١ ص ٣ طبعة القاهرة، وانظر كذلك [الدرر فى اختصار المغازى والسير] لابن عبد البر ص ١٠٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م.

غزوة بواط

وأما غزوة بُوَاط[1] فالصحيح أيضًا أنها كانت في شهر ربيع الأول، وقيل في ربيع الآخر، من السنة الثانية وبُوَاط جبل بالينبع، وسبب هذه الغزوة أن النبي ﷺ بلغه أن عير قريش، نحو ألفين وخمسمائة بعير ومائة رجل من قريش معهم أمية بن خلف، ذاهبة إلى مكة، فخرج ﷺ لاعتراضها في مائتين من أصحابه، وحمل اللواء سعد بن أبي وقاص، وهو العلم الذي يحمل في الحرب، يعرف به موضع أمير الجيش، وكان أبيض. واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون، وقيل سعد بن معاذ، فانتهى إلى بواط فلم يلقَ كيدًا، أي حربًا، فرجع إلى المدينة بدون حرب.

غزة ذي العشيرة

وأما غزوة العُشَيْرة[2]، موطن ببطن الينبع، وهو منزل الحاج المصري، لبني مدلج، فكانت، على الصحيح في جمادى الأولى[3] سنة اثنين، لقصد إدراك عير قريش المتوجهة إلى الشام، وذلك أن قريشًا جمعت أموالها في تلك العير، ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعدًا إلا بعث به في تلك العير، إلا حويطب بن عبد العزى، ويقال إن في تلك العير خمسين ألف دينار وألف بعير، وكان قائدها أبا سفيان، وكان معه سبعة وعشرون رجلاً، وقيل تسعة وثلاثون رجلاً، منهم مخرمة بن نوفل، وعمرو بن العاص، وهي العير التي خرج إليها رسول الله ﷺ حين رجعت من الشام، وكانت سببًا لوقعة بدر الكبرى.

---

(١) بضم الموحدة وفتحها وتخفيف الواو، آخرها طاء مهملة. [الطهطاوي].

(٢) بالعين المهملة، الشين المعجمة وبالمهملة أيضًا، على صيغة التصغير. [الطهطاوي].

(٣) في الطبقات أنها كانت في جمادى الآخرة (جـ٢ ق١) ص ٤، وفي الدرر في اختصار المغازي والسير أنها كانت في أواخر جمادى الأولى وأوائل جمادى الثانية. انظر ص ١٠٦.

خرج ﷺ في مائتين من المهاجرين، خاصة، حتى بلغ العُشَيْرة [1] واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وحمل اللواء عمه حمزة بن عبد المطلب، وكان اللواء أبيض، خرجوا على ثلاثين بعيراً يتعقبونها فوجدوا العير قد مضت قبل ذلك بأيام، ورجع ولم يلق حربًا.

ووادع ﷺ فيها بني مُدْلج، وكنى فيها عليًا بأبي تراب حين وجده نائمًا هو وعمار بن ياسر وقد علق به التراب الذي سَفَتْه عليه الريح، فأيقظه عليه الصلاة والسلام برجله، وقال له: قم أبا تراب، فلما قام قال له: ألا أخبرك بأشقى الناس أجمعين؟ عاقر الناقة، والذي يضربك على هذا ـ ووضع يده على قرن رأسه ـ ووضع يده على لحيته.

وفي السنة الأولى من الهجرة وادع ﷺ يهود، وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم.

---

(1) بالتصغير، وأما التي بغير تصغير فهي غزوة تبوك. [الطهطاوي].

الفصل الثانى

(فى ظواهر السنة الثانية من الهجرة وما فيها من الغزوات)

وفى هذه السنة تحويل القبلة من صخرة بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وعن ابن عباس أنه قال: أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أنه ﷺ وأصحابه كانوا يصلون بمكة إلى الكعبة، فلما هاجروا إلى المدينة أمره الله تعالى أن يصلى نحو صخرة بيت المقدس ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إياه إذا صلى إلى قبلتهم، مع ما يجدون من نعته في التوراة، وصلى بعد الهجرة ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس، وكان يحب أن يوجه إلى الكعبة لأنها كانت قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** ﴾ (البقرة: ١٤٤).

وروى الليث عن يونس عن الزهرى قال: لم يبعث الله منذ هبط آدم إلى الأرض نبيًا إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس - وقد سبق التنويه إلى ذلك قريبًا - فلما حولت القبلة كان النبى عليه الصلاة والسلام فى مسجد القبلتين فى بنى سلمة، فكان يصلى فيه الظهر إلى بيت المقدس، وقد صلى بأصحابه ركعتين من الظهر فتحول فى الصلاة واستقبل الميزاب، وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، فوقع نصفها إلى بيت المقدس ونصفها إلى الكعبة، فسمى ذلك المسجد مسجد القبلتين.

وفيها، في شعبان، فرض صوم رمضان، وأمر الناس بإخراج زكاة الفطر عن الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والأنثى صاع من تمر أو من زبيب أو من بُر[1]، وقال: أغنوهم - يعني المساكين - عن ذل السؤال في هذا اليوم.

قال ابن حجر: وثواب الصوم الناقص كالكامل في الفضل المرتب على رمضان من غير نظر لأيامه، أما ما يترتب على صوم الثلاثين من ثواب، واجبه - أي فرضه - ومندوبه، عند سحوره وفطوره، فهو زيادة يفوق بها الناقص، وكأن حكمته أنه عليه السلام لم يكمل له رمضان إلا سنة واحدة والبقية ناقصة زيادة طمأنينة نفوسهم على مساواة الناقص للكامل، وقوله من غير نظر لأيامه تعقبه ابن قاسم[2] بقوله: قد يقال: الفضل المرتب على رمضان ليس إلا مجموع الفضل المرتب على أيامه، وأجيب بمنع الحصر وأن لرمضان فضلاً من حيث هو بقطع النظر عن مجموع أيامه، كما في مغفرة الذنوب لمن صامه إيمانًا واحتسابًا، والدخول من باب الجنة المعد لصائمه، وغير ذلك مما ورد أنه يكرم به صُوَّام رمضان، وهذا لا فرق فيه بين كونه ناقصًا أو تامًا، وأما الثواب المرتب على كل يوم بخصوصه فأمر آخر فلا مانع أن يثبت للكامل بسببه ما لا يثبت للناقص، وقوله وكأن حكمته الخ قال الشويرى كذا وقع لابن حجر هنا ووقع له في محلين آخرين أنه قال لم يصم شهراً كاملاً إلا سنتين، وجرى عليه المنذرى في سننه وقال: فما وقع له هنا غلط سببه اعتماده على حفظه. انتهى.

أقول: لا يلزم أن ما هنا غلط، بل يحتمل أن ما قال المنذرى مقالة لم يعرج عليها لشيء ظهر له، ثم رأيت العلامة الأجهورى استوعب ما ذكر فقال:

وفرض الصيام ثاني الهجرة	فصام تسعة نبي الرحمة
أربعة تسع وعشرون وما	زاد على ذا بالكمال اتسما
كذا لبعضهم وقال الهيتمي	ما صام كاملاً سوى شهر أعلم
وللدميري أنه شهران	وناقص سواه خذ بياني

(1) قمح.

(2) محمد بن قاسم بن محمد بن محمد (١٤٥٥-١٥١٢م) فقيه شافعي، أصله من غزة، وأقام بالقاهرة وعمل بالأزهر، وله آثار في الفقه.

وفى هذه السنة أُرِىَ عبد الله بن زيد صورة الأذان فى النوم، ورد الوحى بذلك، والذى قاله النووى فى [الروضة] إن الأذان شرع فى السنة الأولى من الهجرة، وفيها تزوج علىّ فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وقال إن الله تعالى عقد على فاطمة لعلىّ فى السماء فنزل الوحى بذلك، وقيل كان ذلك ـ (أى الأذان) ـ فى السنة الثانية عندما شاور عليه الصلاة والسلام أصحابه فيما يجمعهم به للصلاة، إذ كان اجتماعهم بمنادى: الصلاة جامعة، والأذان على المنابر من خصائص هذه الأمة، وليس لمن سواهم منابر يؤذنون عليها، بل ولا هذا الأذان المخصوص.

غزوة سفوان «بدر الأولى»

ولما قدم ﷺ من غزوة العُشَيْرة لم يقم بالمدينة إلا ليال حتى غزا غزوة سفوان فى السنة الثانية ويقال لها غزوة بدر الأولى، فخرج خلف كُرْز بن جابر الفهرى وقد أغار، قبل أن يسلم، على سرح المدينة ـ أى على النَّعَم والمواشى التى تسرح بالغداة ـ فسعى رسول الله ﷺ فى طلبه حتى بلغ وادى سفَوان من ناحية بدر، ولذا قيل لها بدر الأولى، وفاته كُرْز بن جابر ولم يدركه.

وكان قد ـ استعمل على المدينة زيد بن حارثة، وحمل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه اللواء، وكان أبيض.

وفى هذه السنة (١) أيضًا بعث عبد الله بن جحش فى ثمانية أنفس (٢) إلى نخلة (٣)، بين مكة والطائف، ليتعرفوا أخبار قريش، فمر بهم عير لقريش فغنموها وأسروا اثنين وحضروا بذلك إليه ﷺ، وهى أول غنيمة غنمها المسلمون.

---

(١) فى شهر رجب، كما فى الطبقات جـ ٢ ق ١ ص ٥.

(٢) فى الطبقات أنهم كانوا اثنى عشر رجلاً من المهاجرين، وفى الدرر أنهم ثمانية، ويسميهم صاحب الدرر. انظر ص ١٠٧.

(٣) بستان ابن عامر، على بعد ليلة من مكة.

غزوة بدر الكبرى

وفى سنة اثنتين من الهجرة كانت غزوة بدر الكبرى، وبدر اسم للوادى، أو لغيره، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وعدة المشركين ألف رجل، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير، وهى أفضل غزواته ﷺ، لأنهم بذلوا فى نصرته الأرواح والأجسام، وقاموا على قدم الإخلاص فاستحقوا مزيد الإكرام، وظفروا بالشهادة الكبرى، والمنزلة الرفيعة فى الدنيا والأخرى، ونطق بفضلهم أشرف الكتاب، فكان الدعاء بذكرهم يستجاب، وعدت تلاوة أسمائهم لدفع كل مهمة، رضى الله عنهم، وعن جميع الأمة، وليس فى غزواته ما يعدل بها فى الفضل ويقرب منها إلا غزوة الحديبية، حيث كانت بيعة الرضوان، ويقال لها بدر القتال، وبدر الفرقان، لأن الله تعالى فرق فيها بين الحق والباطل، وأظهر الله بها الدين من يومئذ، وقتل فيها صناديد قريش.

وذلك أن العير التى خرج ﷺ فى طلبها حتى بلغ العُشَيْرة، ووجدها سبقته بأيام، لم يزل مترقبًا قفولها من الشام، فلما سمع برجوعها من الشام دعا المسلمين، وقال: «هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن يُنَفِّلَكُمُوها[1]»، فانتدب ناس للإجابة وآخرون لم يجيبوا لظنهم أن رسول الله ﷺ لم يلق حربًا ولم يحتفل لها رسول الله ﷺ ولا اهتم بها، بل قال: «من كان ظهره حاضراً فليركب معنا».

فكان أبو سفيان حين دنا بالعير من أرض الحجاز يتحسس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان تخوفًا من رسول الله ﷺ، فبلغه أن رسول الله ﷺ قد استنفر أصحابه للعير، وأنه تركه عقيمًا ينتظر رجوع العير فخاف خوفًا شديداً، فاستأجر ضمضم بن عمرو[2] الغفارى بعشرين مثقالاً ليستنفر قريشًا ويخبرهم أن محمداً قد عرض لعيرهم هو وأصحابه، فخرج ضمضم سريعًا إلى مكة وقال: يا معشر

(١) أى يغنمكوها.

(٢) فى الأصل: عمر، والتصحيح من الطبقات. جـ٢ ق ١ ص ٧.

قريش، اللطيمة اللطيمة، أى أدركوا اللطيمة، وهى العير التى تحمل الطيب والبز، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه، لا أرى أن تدركوها.

فتجهز الناس سراعًا حيث أقام أشراف قريش يحضون الناس على الخروج، ولم يتخلف من أشرافهم إلا أبو لهب، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، استأجره بأربعة آلاف درهم كانت له عليه دينًا أفلس بها، وكانوا خمسين وتسعمائة، وقيل ألفًا، وقادوا مائة فرس عليها مائة درع سوى دروع المشاة، ومعهم القَيْنات يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين.

وخرج رسول الله ﷺ من المدينة في ثلاثمائة رجل وثلاثة عشر، من المهاجرين سبعة وسبعون وباقيهم من الأنصار، وما فيهم سوى فارسين: المقداد بن عمرو الكندى والزبير بن العوام، ونزل فى بدر، وبنى له عريش وجلس فيه ومعه أبو بكر رضى الله عنه.

وكان قد بعث ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد يتحسسان خبر العير فرجعا بخبر العير إلى المدينة على ظن أنه ﷺ بالمدينة، فلما علما أنه ببدر خرجا إليه فلقياه منصرفًا من بدر، وأسهم لكل منهما ولو لم يحضر القتال، ورفع ﷺ اللواء، وكان أبيض، إلى مصعب بن عمير، وكان أمامه ﷺ رايتان سوداوتان، إحداهما مع على بن أبى طالب، ويقال لها العُقَاب، والأخرى مع بعض الأنصار، قيل هو سعد بن معاذ، وقيل الحُباب بن المنذر، ولبس ﷺ درعه ذات الفضول وتقلد سيفه العضب ولما سار وادى دفران ـ بكسر الفاء ـ وهو واد قريب من الصفراء[1] أتاه الخبر عن سفر قريش ليمنعوا عيرهم، فاستشار النبى ﷺ أصحابه وأخبرهم الخبر وقال لهم: إن القوم قد خرجوا من مكة مسرعين، فماذا تقولون؟ فقالت طائفة منهم: العير أحب إلينا من لقاء العدو، فهلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهل له إذا خرجنا للعير؟ فعند ذلك تغير وجه رسول الله ﷺ، قال بعضهم: وهذا سبب نزول قوله تعالى: ﴿ **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ**

---

(١) واد فوق ينبع مما يلى المدينة، بينه وبين بدر مرحلة.

﴿الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ (الأنفال : ٥) فعند ذلك قام أبو بكر فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن الأسود فقال : يا رسول الله، امض لما أمرك الله به، فنحن معك، فوالله لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة : ٢٤). ولكنا نقول : إنا معكما مقاتلون! فلما سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك تابعوهم، فأشرق عند ذلك وجهه ﷺ، ثم قال : أشيروا عليّ، فقال عمر : يا رسول الله، إنها قريش، والله ما ذلت منذ عزت، ولا آمنت منذ كفرت، والله لتقاتلنك، فتأهب لذلك أهبته، وأعد لذلك عدته.

ثم استشارهم ثالثًا فقال : أشيروا عليّ أيها الناس؟ ففهمت الأنصار أنه يعنيهم لأنهم أكثر الناس عددًا، فقال له سعد بن معاذ، سيد الأوس : لعلك تريدنا معاشر الأنصار، يا رسول الله، فقال : أجل، قال : فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، وإنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم، فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وسالم من شئت، وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمرنا فأمرنا تبع لأمرك، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لصُبُر فى الحرب صُدُق فى اللقاء، لعل الله أن يريك منامًا تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فنحن عن يمينك وعن شمالك وبين يديك ومن خلفك. فسر النبى ﷺ وأشرق وجهه بقول سعد، ونشطه ذلك، وقال : أبشروا فإن الله تعالى قد وعدنى ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ (الأنفال : ٧) والطائفتان العير ونفير قريش، والعير هو المعبر عنه فى الآية بغير ذات الشوكة، لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسًا، وأما الشوكة فهى فى النفير لعددهم وعدتهم، فقوله تعالى ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ يعنى تتمنون أن يكون لكم العير، لأنها الطائفة التى لا شوكة

لها، أى لا حدة لها ولا شدة، ولا تريدون الطائفة الأخرى، ولكن الله يريد الطائفة الأخرى، وهى نفير قريش الذى يريد حماية تلك العير، وهى المرادة من قوله تعالى ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ الآية، ومعنى إحقاق الحق تنجيز الوعد من النصر والظفر بالأعداء، ومعنى إحقاق الحق الثانى تقوية القرآن والدين ونصرة هذه الشريعة، لأن الذى وقع من المؤمنين يوم بدر بالكافرين كان سببًا لعزة الدين وقوته، ولهذا السبب قرنه بقوله ﴿ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾ الذى هو الشرك، وذلك فى مقابلة الحق الذى هو الدين والإيمان، فقد أعلمه الله تعالى، بعد وعده، بالظفر بالطائفة الثانية، وأراه مصارعهم، فعلم القوم أنهم ملاقو القتال، وأن العير لا تحصل لهم.

ثم ارتحل رسول الله ﷺ حتى نزل قريبًا من بدر، فلما أمسى بعث عليّ بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه إلى بدر يلتمسون الخبر، فأصابوا راوية لقريش معها غلام لبنى الحجاج وغلام لبنى العاص فأتوا بهما رسول الله ﷺ، وهو قائم يصلى، فقالوا؛ لمن أنتما؟ وظنوا أنهما لأبى سفيان، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فضربوهما، فلما أوجعوهما ضربًا قالا: نحن لأبى سفيان، فتركوهما، فلما فرغ رسول الله ﷺ من صلاته قال: إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما! صدقا، والله، إنهما لقريش، أخبرانى عن قريش، قالا: هم وراء هذا الكثيب الذى يرى بالعدوة القصوى - (أى جانب الوادى المرتفع) - فقال لهما رسول الله ﷺ: كم القوم؟ قالا هم والله كثير عددهم شديد بأسهم، قال: ما عدتهم؟ قالا: لا ندرى، وجهد النبى ﷺ أن يخبراه كم هم فأبيا، قال: كم ينحرون من الجزر كل يوم؟ قالا[1]: يومًا تسعًا ويومًا عشرًا، فقال ﷺ: القوم ما بين التسعمائة والألف - أى لكل جزور مائة - ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ فعدا له من فيهم من الأشراف، وهم كثير، وفيهم أبو جهل، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها - (أى أشرافها وعظماءها) -.

(١) فى الأصل: قال.

ثم بعث ﷺ عدى وبسبس، رضى الله عنهما، إلى بدر يتحسسان[1] الأخبار قبل وصوله ﷺ، وقبل وصول قريش إليها أيضًا، فنزلا قريبًا من بدر عند تل هناك ثم أخذا شنا لهما[2] يستقيان فيه، وكان مجدى بن عمرو على الماء وإذا جاريتان تتخاصمان وتمسك إحداهما الأخرى على الماء، والممسكة الملزمة تقول لصاحبتها: إنما يأتى العير غدًا أو بعد غد، فأعمل لهم وأقضيك الذى لك، فقال مجدى بن عمرو الذى على الماء: صدقت، ثم خلص بينهما، فلما سمع بذلك عدى وبَسْبَس جلسا على بعيرهما ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا.

ثم إن أبا سفيان تقدم على العير حذرًا حتى ورد الماء، فلقى ذلك الرجل الذى على الماء، فقال له: هل أحسست أحدًا؟ قال: ما رأيت أحدًا أنكره، إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا فى شَنّ لهما، ثم انطلقا، فأتى أبو سفيان مناخهما فأخذ من أبعار بعيريهما شيئًا ففتته فإذا فيه كسيرات النوى، فقال: والله علائف يثرب، فرجع إلى أصحابه سريعًا فصرف وجه عيره عن الطريق، وترك بدرا بيسار وانطلق حتى أسرع، فلما علم أنه قد أحرز عيره أرسل إلى نفير قريش، وكان قد بلغه مجيئهم ليحوزوا العير، وكانوا حينئذ بالجُحْفَة: إنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم، وقد نجاها الله تعالى فارجعوا. فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نحضر بدرا فنقيم عليه ثلاثة أيام، فلابد أن ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان أى تضرب بالدفوف ـ وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها. وأراد بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل، وقال: لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع.

ثم لم يزالوا سائرين حتى نزلوا بالعدوة القصوى، قريبًا من الماء، ونزل رسول الله ﷺ بعيدًا من الماء، بينه وبين الماء مسافة، فظمئ المسلمون وأصابهم ضيق شديد، وأجنب غالبهم، فحزنوا حزنًا شديدًا، وأشفقوا، وكان الوادى لينًا كثير

---

(١) التحسس للأخبار ـ بالحاء المهملة ـ أن يفحص الشخص عن الأخبار بنفسه. وبالجيم: أن يفحص عنها بغيره، وجاء: تحسسوا ولا تجسسوا. [الطهطاوى].

(٢) الشن: القربة الخلق الصغيرة.

التراب تدخل فيه الأقدام، فأمطرت السماء ببركة النبى ﷺ وأصحابه، وتلبدت الأرض وزال غبارها وشدتها، وشربوا وملئوا الأسقية وسقوا الركائب واغتسلوا من الجنابة وطابت نفوسهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ (الأنفال: ١١) وأصاب قريش منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا منه ويصلوا إلى الماء، فكان المطر نعمة وقوة للمؤمنين وبلاء ونقمة للمشركين.

وأصاب المسلمين تلك الليلة نعاس شديد وبات النبى ﷺ من بينهم يصلى تحت شجرة، وقد حصل النعاس لهم، وهو دليل على الطمأنينة، فلما أن طلع الفجر نادى رسول الله ﷺ: الصلاة عباد الله، فجاء الناس من تحت الشجر والجحف فصلى بهم رسول الله ﷺ وحرض على القتال فى خطبة خطبها فقال: بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد، فإنى أحثكم على ما أحثكم الله عليه، إلى أن قال: وإن الصبر فى مواطن اليأس مما يفرج الله به الهم، وينجى به من الغم.

ولما رأى رسول الله ﷺ قريشًا وقد أقبلت بالدروع الساترة، والجموع الوافرة، والأسلحة البارقة، قال: «اللهم إن هذه قريش قد أقبلت بخيلائها[1] تجادلك وتخالف أمرك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى به أنجزه، اللهم أمرتنى بالثبات ووعدتنى إحدى الطائفتين، وإنك لا تخلف الميعاد».

وكان من حكمة الله تعالى أن جعل المسلمين، قبل أن يلتحم القتال، فى أعين المشركين قليلا، استدراجًا لهم ليقدموا، ولما التحم القتال جعلهم فى أعين المشركين كثيرا ليحصل لهم الرعب، وجعل المشركين عند التحام القتال فى أعين المسلمين قليلا ليقوى جانبهم على مقاتلتهم، وأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ (الأنفال: ٤٤) ومن ثم قال الله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ﴾ (آل عمران: ١٣).

وحين رأى المسلمون نار القتال قد شبت عجوا[2] بالدعاء إلى الله تعالى،

---

(١) أى بكبرها وعجبها وفخرها. [الطهطاوى].

(٢) صاحوا ورفعوا أصواتهم.

فأنزل الله تعالى، عند ذلك ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال: ٩) ـ (أى متتابعين) ـ فكان جبريل عليه السلام فى خمسمائة ملك على الميمنة، وفيها أبو بكر، وميكائيل عليه السلام فى خمسمائة على الميسرة، وفيها على رضى الله عنه، فى صور الرجال، عليهم عمائم وثياب بيض قد أرخوا أذنا بها بين أكتافهم، وعلى جبريل عليه السلام عمامة صفراء أرسلها من خلفه. وعن عروة بن الزبير: كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء فأمده الله تعالى بالملائكة ألف مع جبريل وألف مع ميكائيل، وقيل أيضًا: أمده بألف مع إسرائيل فزيد فى الوعد بثلاثة آلاف لقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٥) فوقع الوعد بإكمالهم خمسة آلاف، وكان ذلك معلقًا على شرط، وهو الصبر والتقوى عن حوز الغنائم، فلم يصبروا، ففات الإمداد مما زاد على الثلاثة آلاف، وقيل كان الإمداد يوم بدر بالخمسة آلاف، وإنما كانت الملائكة شركاء لهم فى بعض الفعل ليكون الفعل منسوبًا للنبى ﷺ ولأصحابه، وإن الملائكة مدد على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب التى أجراها الله تعالى فى عباده وإلا فجبريل وحده قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، وليهابهم العدو بعد ذلك، فاتضح أن الملائكة قاتلت يوم بدر، ولم تكن لتكثير السواد فقط.

وعند ابتداء الحرب نادى منادى قريش: يا محمد، أخْرِج لنا أكفاءنا من قومنا. فقال النبى ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزةَ، وقم يا علىّ، أو قال: قوموا يا بنى هاشم فقاتلوا. فلما قدم عبيدة بن الحارث وحمزة وعلى دنوا منهم، وقالوا: من أنتم؟ لأن هؤلاء الثلاثة كانوا ملتبسين لا يُعْرَفون من السلاح، قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علىّ. علىّ: قالوا: نعم، أكفاء كرام، فبارز عبيدة بن الحارث عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز عل الوليد، فأما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة، وأما علىّ فلم يمهل أن قتل الوليد، واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين، كلاهما طعن صاحبه، وكر حمزة وعلىّ بسيفهما على عتبة

فذففا عليه[1] واحتملا صاحبهما فجراه إلى أصحابه واضجعوه إلى جنب موقعه ﷺ ، فأفرشه رسول الله ﷺ قدمه الشريف فوضع خده عليها ، فقال له عبيدة : ألست شهيداً يا رسول الله؟ فقال له رسول الله ﷺ : «أشهد أنك شهيد» . قيل : هذه أول مبارزة وقعت فى الإسلام ، وفى الصحيحين عن أبى ذر أنه كان يقسم قسمًا أن آية ﴿ **هذان خصمان اختصموا فى ربهم** ﴾ (الحج : ١٩) نزلت فى حمزة وصاحبيه يوم بدر .

ثم تزاحم الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، وقد كان عدل رسول الله ﷺ صفوف أصحابه بقِدْح[2] فى يده ، فمر بسواد بن غَزِيَّة ، حليف بنى النجار ، وهو خارج من الصفَ فطعنه ﷺ بالقِدْح فى بطنه ، وقال : استويا سواد ، فقال : يا رسول الله ، أوجعتنى وقد بعثكَ الله بالحق والعدل ، فأقِدْنى من نفسك[3] فكشف رسول الله ﷺ عن نفسه ، وقال : اسْتَقِد ، أى اقتَص ، فاعتنقه وقبل بطنه ، فقال : ما حملك على هذا يا سواد؟ فقال : يا رسول الله حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك! فدعا له ﷺ بخير . ثم لما عدل الصفوف قال لهم : «إن دنا القوم منكم ، فادفعوهم عنكم بالنبل ، واستبقوا نبلكم لا ترموهم على بعد ، لأن النبل مع البعد يخطئ ، ولا تسلّوا السيوف حتى يغشوكم» ، ثم رجع ﷺ إلى العريش يناشد ربه ما وعده به من النصر ، ويقول «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد فى الأرض» ، وأبو بكر يقول : دع بعض مناشدتك ربك ، إن الله منجز لك ما وعدك ، فكان المصطفى فى مقام الخوف ، وهو هنا أعلى ، والصديق فى مقام الرجاء ، وهو هنا دونه .

ولما اصطف الناس للقتال رمى قطْبة بن عامر حجرًا بين الصفين وقال لا أفر إن فر هذا الحجر .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم بدر : «قوموا إلى جنة

(١) ذففا عليه ، أى أجهزا عليه .
(٢) أى سهم . [الطهطاوى] .
(٣) أى مكنى من القصاص من نفسك . [الطهطاوى] .

عرضها السموات والأرض؟» فقال عمير بن الحُمام [1] **بن الجموح الأنصارى: بَخ** بَخ [2]، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بَخ بَخ»؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها»، قال: فأخرج تمرات من جعبته فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة! فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل حتى قُتل، وكان رسول الله ﷺ آخى بينه وبين عبيدة بن الحرث المُطَّلبىّ فقتلا يوم بدر جميعًا. وقال بن إسحاق: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «لاَ يقاتل أحد فى هذا اليوم فيقتل صابرًا محتسبًا، مقبلاً غير مدبر إلا دخل الجنة». وكان عمير واقفًا فى الصف بيده تمرات يأكلهن فسمع ذلك فقال: بَخ بَخ، ما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء، وألقى التمرات من يده، وأخذ السيف وقاتل القوم وهو يقول:

ركضا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد

والصبر فى الله على الجهاد إن التقى من أعظم السداد

وخير ما قاد إلى الرشاد وكل حى فإلى نفاد

وبعد تعديل الصفوف كان أول من خرج من المسلمين مهْجع [3] مولى عمر بن الخطاب، فقتله عامر بن الحضرى بسهم أرسله إليه، فقيل إنه أول من يدعى من شهداء هذه الأمة، وأنه ﷺ قال يومئذ: «مهْجع سيد الشهداء». قاتل فى ذلك اليوم المؤمنون، ثم أخذ رسول الله ﷺ حفنةَ من الحصباء ناولها له علىّ رضى الله عنه فاستقبل بها قريشًا ثم قال: «شاهت وجوه القوم [4]»، ثم نفحهم بها فلم يبق من المشركين رجل إلا ملئت عينه وأنفه وفمه فلا يدرى أين يتوجه يعالج التراب لينزعه من عينه، وقال لأصحابه: «شدوا عليهم»، فكانت الهزيمة على المشركين، وردفهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وأنزل الله تعالى: ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ** ﴾ (الأنفال: ١٧).

---

(١) بضم الحاء المهملة وتخفيف الميم. [الطهطاوى].

(٢) كلمة تقال لتعظيم الأمر والتعجب منه، مع التنوين وعدمه. [الطهطاوى].

(٣) بكسر الميم وإسكان الهاء، فجيم مفتوحة، فعين مهملة. [الطهطاوى].

(٤) أى قبحت وذلت. [الطهطاوى].

وقد ورد عن عمر رضى الله عنه أنه لما كان يوم بدر انهزمت قريش، نظرت إلى رسول الله ﷺ فى آثارهم مصلتا السيف يقول ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾ (القمر : ٤٥).

وكان من جملة من خرج مع المشركين يوم بدر عبد الرحمن بن أبى بكر، وكان اسمه قبل الإسلام عبد الكعبة فسماه النبى ﷺ عبد الرحمن، وكان من أشجع قريش، وأسن ولد أبيه، فلما أسلم فى هدنة الحديبية وهاجر إلى المدينة قال لأبيه لقد هدفتَ لى يوم بدر مراراً فأعرضت عنك، فقال أبو بكر : لو هدفتَ لى لم أعرض عنك!

وكان حرسه ﷺ ببدر سعد بن معاذ وذكوان بن عبد الله، ويوم أحد حرسه محمد ابن مسلمة الأنصارى، وحرسه يوم الخندق الزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعباد بن بشر، وحرسه ليلة خيبر أبو أيوب الأنصارى، وحرسه بلال بوادى القرى، فلما أنزل الله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾ (المائدة : ٦٧) ترك الحرس.

وفى يوم بدر قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه، وكان مشركًا، وأنزل الله تعالى : ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ (المجادلة : ٢٢) الآية، وقال رسول الله ﷺ : من له علم بنوفل ابن خويلد؟ فقال علىّ : أنا قتلته، فكَبَّر رسول الله ﷺ، وقال : الحمد لله الذى أجاب دعوتى فيه! فإنه لما التقى الصفان نادى نوفل بصوت رفيع : يا معشر قريش، اليوم يوم الرفعة والعلا، فقال رسول الله ﷺ : اللهم اكفنى نوفل بن خويلد، ثم أمر رسول الله ﷺ بأبى جهل أن يُلْتَمَس فى القتلى، وقال : إن خفى عليكم انظروا إلى أثر جرح فى ركبته فإنى ازدحمت يومًا وهو على مائدة لعبد الله بن جدعان، ونحن غلمان، وكنت أسن منه، فدفعته فوقع على ركبتيه فجُحش [1] جحشًا على إحديهما لم يزل أثره به، فحمل عبد الله بن مسعود رأس أبى جَهل ابن هاشم إليه ﷺ، فسجد شكراً لله تعالى لراحة المسلمين من هذا الفاجر، وكان يكنى أبا الحكم فكناه النبى ﷺ أبا جهل، وهو عمرو بن

(١) أى خدش خدشًا. [الطهطاوى].

هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وأمه أسماء بنت مخزومة ابن نهشل.

* * *

كان المغيرة بن عبد الله بن المعرض[1]، الملقب بالأقيشر، تزوج بابنة عم له يقال لها الرباب، على أربعة آلاف درهم، فأتى قومه فسألهم فلم يعطوه شيئًا، فأتى ابن رأس البغل، وهو دهقان الصين، وكان مجوسيًا، فسأله فأعطاه الصداق كاملاً فقال:

كفاني المجوسي بمهر الرباب	فدى للمجوسيّ خال وعم
شهدت عليك بطيب الأروم	فإنك بحر جواد خضم
وإنك سيد أهل الجحيم	إذا ما ترديت في من ظلم
تجاور هامان في قعرها	وفرعون والمكتني بالحكم

فقال المجوسي: ويحك! سألت قومك فلم يعطوك شيئًا، وجئتني فأعطيتك، فجزيتني هذا القول؟! فقال: أما ترضى أن جعلتك مع الملوك وفوق أبي جهل!

* * *

واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وقتل من المشركين سبعون، وأسر سبعون، وانهزم الباقون، وغنم عليه الصلاة والسلام متاعهم، وكان من جملة الأسرى العباس عم رسول الله ﷺ، ولما انقضى القتال أمر النبي ﷺ بسحب القتلى إلى القليب، وكانوا أربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقذفوا فيه، ثم وقف رسول الله ﷺ فقال: «يا أهل القليب، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعد

(1) هذه الفقرة تعترض سياق الحديث، ولقد قدم لها المؤلف بكلمة (استطراد).

ربكم حقًا، فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا»! فقال له أصحابه: أتكلم قومًا موتى؟! قال: «لقد علموا ما وعدهم ربهم حق»!

وعاد النبي ﷺ إلى المدينة، وكانت غيبته تسعة عشر يومًا، وأرسل زيد بن حارثة بشيرًا فوصل إلى المدينة وقد نفضوا أيديهم من تراب رقية بنت النبي ﷺ، وكان عثمان تخلف في المدينة بأمره ﷺ لسببها.

وفيها هلك أبو لهب. وكانت وقعة بدر المذكورة صبيحة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان في السنة الثانية من الهجرة.

* * *

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى الصفراء، راجعًا من بدر، وأمر عليًا بضرب عنق ابن علقمة بن كَلَدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي القرشي العبدري، وكان شديد العداوة للنبي ﷺ، وإذا تلا ﷺ يقول لقريش: ما يأتيكم محمد إلا بأساطير الأولين.

فلما قتل النضر أنشدت أخته النبي ﷺ وهي قُتَيْلَة [1] هذه الأبيات:

يا راكبًا إن الأُثَيْل مظنة ... من صبح غادية وأنت موفّق [2]

أبلغ بها ميتًا بأن تحية ... ما إن تزال بها النجائب تعنق [3]

مني إليه وعبرةً مسفوحةً ... جادت بواكفها وأخرى تخنق [4]

هل يسمعني النضر إن ناديته ... إن كان يسمع ميت لا ينطق [5]

---

(١) في [الدرر] أن قتيلة هذه هي ابنة النضر وليست أخته، والمشهور أنها كتبت بهذه الأبيات إلى الرسول عندما نعي لها أبوها. انظر ص ١١٥، وكذلك في [نهاية الأرب] جـ ١٧ ص ٤٧. أما صاحب [الأغاني] فيقول إنها أخته.

(٢) الأثيل: موضع قرب المدينة. وفي [الدرر] و [نهاية الأرب] «خامسة» بدلاً من «غادية».

(٣) في [الدرر] و[نهاية الأرب] «تخفق» بدلاً من «تعنق».

(٤) في [نهاية الأرب] «لمانحها» بدلاً من «بواكفها». وواكف الدمع: سائله.

(٥) في [نهاية الأرب]: بل كيف يسمع ميت لا ينطق. والبيت غير مذكور في [الدرر].

ظلت سيوف بنى أبيه تَنُوشُه | لله أرحام هناك تَشَقَّق
قسرًا يقاد إلى المنية متبعًا | رسف المُقَيَّد وهو عان موثق [1]
أمحمد ولأنت صنو نجيبة | فى قومها والفحل فحلٌ مُعْرِق [2]
ما كان ضرك لو مننت وربما | مَنّ الفتى وهو المغيظُ المُحْنَق
فالنضر أقرب من تركت وسيلة | وأحقهم إن كان عتق يعتق [3]
أو كنتَ قابلَ فدية فليفدين | بأعز ما يغلى به من يُنْفِق [4]

ذكر أنه ﷺ قال: لو سمعت شعرها قبل ذلك لما قتلته! وقيل إن الذى أمر بقتله المقداد بن الأسود، وقال بعضهم: إن الزبير بن بكار قال: سمعت بعض أهل العلم يغمز فى أبيات قُتَيْلَة بنت الحارث، ويقول: إنها مصنوعة. انتهى.

وقال بعضهم: الصحيح أن قُتَيْلة ابنة النضر هى جدة الثريا ابنة علىّ بن عبد الله ابن الحارث، الموصوفة بالجمال، وهى صاحبة عمر بن عبد الله بن ربيعة بن المغيرة ابن عمرو بن مخزوم، الشاعر المشهور، لم يكن فى قريش أشعر منه، وكان يتغزل فى شعره بالثريا المذكورة، فتزوجها سهيل بن عبد الرحمن الزهرى، ونقلها إلى

---

(١) فى [نهاية الأرب] «متعبًا» بلاً من «متبعًا». . وفى [الأغانى] «صبرًا يقاد».

(٢) البيت فى [نهاية الأرب]:

أمحمد أو لست ضنء نجيبة | فى قومها والفحل فحل معرق

أما فى [الدرر] فإنه:

أمحمد يا خير ضنء كريمة | من قومها والفحل فحل معرق

والضنء: هو الأصل، والمعرق: كريم الأصل.

(٣) الشطر الأول من هذا البيت فى [نهاية الأرب]: *النضر أقرب من قتلت قرابة *

أما فى [الدرر] فإنه: * والنضر أقرب من قتلت قرابة *

(٤) البيت فى [نهاية الأرب].

أو كنت قابل فدية فلينفقن | بأعز ما يغلو به ما ينفق

أما فى [الأغانى] فإنه:

أو كنت قابل فدية فلنأتين | بأعز ما يغلو لديك وينفق

قصره، فقال عمر المذكور فى زواجهما مُوريًا بالثريا وسهيل النجمين المعروفين بيتين يضرب بهما المثل فى تعذر الاجتماع.

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

هى شامية إذا ما استقلت وسهيلٌ إذا استقل يمانى

ثم بعد قتل النضر بن الحارث أمر بضرب عنق عقبة بن أبى معيط بن أمية. ثم بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة بشيرًا لأهل العالية (1)، وزيد بن حارثة بشيرًا لأهل السافلة بما فتح الله على رسوله ﷺ والمسلمين، فجعل عبد الله بن رواحة يقول فى أهل العالية: يا معشر الأنصار، أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ وقتل المشركين وأسرهم، ونادى زيد بن حارثة فى أهل السافلة بمثل ذلك، ويقولون: قُتل فلان وفلان، وأسر فلان وفلان من أشراف قريش. وصار عدو الله كعب بن الأشرف يكذبهما ويقول: إن كان محمد قتل هؤلاء القوم فبطن الأرض خير من ظهرها!

* * *

قال ابن إسحاق وجلس عمير بن وهب الجمحى مع صفوان بن أمية بعد مصاب قريش فى بدر تجاه الكعبة، فتذاكرا قومهما وما نزل بهم من القتل والأسر، وكان عمير بن وهب ممن يؤذى رسول الله ﷺ وأصحابه بمكة قبل الهجرة، وكان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر، فقال صفوان: والله ما فى الحياة بعد اليوم خير! فقال له عمير: صدقت، أما والله لولا دَين علىّ ليس له عندى قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى، لركبت إلى محمد حتى أعمل الحيلة وأقتله وأفتك ابنى من أيديهم. وكان عمير شجاعًا، وكان صفوان ذا مال كثير، فانتهز الفرصة صفوان وقال له: أما دَيْنك فعلىّ قضاؤه، وأما عيالك فهم مع عيالى أوسيهم ما بقوا ولا يكون فى يدى شىء فيحرمون منه. فعاهده عمير على ذلك وقال: اكتم شأنى وشأنك، فقال صفوان: أكتم ذلك.

(1) محل قريب من المدينة، على عدة أميال. [الطهطاوى].

ثم إن عميراً شحذ سيفه وسممه وانطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر وما أكرمهم الله تعالى فيه وما فعل بأعدائهم، ويشكرون الله تعالى، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد ناقته، متوشحًا سيفه «فقال: هذا عدو الله عمير بن وهب، ما جاء إلا بشر، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ المسجد فقال: يا نبى الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه، قال أدخله علىّ، فأقبل عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى عمير، فأخذ بحمائل سيفه، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا إلى رسول الله ﷺ، فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون، ثم دخل على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذ بحمائل سيفه فى عنقه قال: ارسله يا عمر، ادْنُ يا عمير، فدنا عمير، وقال للنبى ﷺ: أنْعم صباحًا، وكانت هذه تحية العرب فى الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: أكرمنا اللَّه بتحية خير من تحيتك يا عمير، أكرمنا بالسلام، تحية أهل الجنة، ما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذى عندكم، قال: فما للسيف فى عنقك؟ قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت شيئًا! قال: أصدقنى يا عمير، ما الذى جئت به؟ قال: ما جئت إلا لذلك، قال: يا عمير، قعدت أنت وصفوان بن أمية تجاه الكعبة، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دَين علىّ وعيال لى لخرجت حتى أقتل محمدا، فَتَحَمَّل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له، والله تعالى حائل بينك وبين ذلك! قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا، يا رسول الله، نكذبك بما يأتى من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى، وهذا أمر لم يعلمه أحد ولم يحضره إلا أنا وصفوان، ووالله إنى لأعلم أنه ما أتاك إلا من الله تعالى، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام، وساقنى هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، رضى الله تعالى عنه، فقال رسول الله ﷺ: «فقهوا أخاكم فى دينه، واقرئوه القرآن، واطلقوا له أسيره»، ففعلوا ذلك، ثم قال: يا رسول الله، إنى كنت جاهداً فى إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وأنا أحب أن تأذن لى فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله تعالى، إلى الإسلام، لعل الله يهديهم، فأذن له رسول الله ﷺ فألحق بمكة وأظهر الإسلام وأسلم ولده وهب أيضًا، رضى الله تعالى عنهما.

قال ابن اسحاق وأسلم بعد فك الأسر جماعة منهم أبو وداعة السهمى، وعبد الله بن خلف الجمحى، ووهب بن عمير الجمحى، وقيس بن السائب المخزومى، وأسلم السائب بن عبيد، وهو الأب الخامس للإمام الشافعى رضى الله عنه، وكان صاحب راية بنى هاشم يوم بدر من كفار قريش، وكان صاحب الراية أبا سفيان لكن لغيبته فى العير حملها السائب، لشرفه، وأما الأب الرابع فهو شافع بن السائب الذى ينسب إليه الإمام الشافعى رضى الله عنه، لقى النبى ﷺ وهو مترعرع فأسلم، فإن الإمام الشافعى رضى الله عنه هو محمد بن أدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، جد النبى ﷺ، فيجتمع الإمام الشافعى رضى الله عنه مع النبى ﷺ فى جد الإمام الشافعى التاسع، الذى هو جد النبى ﷺ الثالث، وهو عبد مناف.

* * *

ولما قدم عليه الصلاة والسلام المدينة، وكانت وقعة بدر، وأسر فيها من أسر من أهل مكة، قال عليه الصلاة والسلام لأهل بدر: «إن بكم عَيْلة [1]، فلا يفلت منهم - يعنى الأسارى - أحد إلا بفداء أو ضربة عنق»، وقال: «استوصوا بهم خيراً». وكان فداؤهم أربعين أوقية عن كل إنسان، إلا العباس عم النبى ﷺ فإن فداءه كان مائة أوقية، فكان من لا مال له من الأسارى يقبل منه أن يعلم عشرة من أهل المدينة الكتابة فإذا حذقوا كان فداءه، فيومئذ تعلم زيد بن ثابت الكتابة فى جماعة من الأنصار. ومن هنا تعلم أن النبى ﷺ كان حريصًا على تعلم الكتابة، التى هى التمدن الأوَّلىّ للنوع البشرى - وسيأتى بيان الوظائف والتعليمات التى كانت جارية فى عهده ﷺ.

وقد مَنّ النبى ﷺ على نفر من أسراء بدر وخلى سبيلهم من غير شىء، ولما طلب ﷺ من العباس أن يفدى نفسه، قال: علام يؤخذ منى الفداء، وقد كنت أسلمت أنا وأم الفضل وبقية آل بيتى، ولكن القوم أكرهونى على الخروج؟! فقال النبى ﷺ: «كان ظاهر أمرك أنك كنت علينا، ولكن الله تعالى يجزيك عما أخذ

(١) أى فاقة وفقراً.

منك»، وأنزل الله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٧٠) وقد أعطى الله العباس خيرًا مما أخذ منه، وفي هذه الآية بشرى عظيمة للعباس إذ أخذ أكثر مما أعطى، وغفر له ما أخطأ، ولما نزلت قال العباس: يا رسول الله، وددت أنك أخذت منى أضعافًا.

وفي البخاري: أنه أتى بمال من البحرين[1] فأمر بصبه في المسجد، وكان أكثر مال أتى به، فخرج إلى المسجد ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فما كان يرى أحدًا إلا أعطاه إذ جاءه العباس فسأله، فقال: خذ، فحثا في ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال: يا رسول الله، مر بعضهم يرفعه إليّ! فقال: لا، فقال: ارفعه أنت عليّ، فقال: لا، فنثر منه ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال: كالأول، فقال: لا، ثم نثر منه ثم احتمله، فأتبعه ﷺ بصره عجبًا من حرصه. وذكر السهمي في الفضائل أن أبا رافع لما بشر النبي ﷺ بإسلام العباس أعتقه.

ولما فدى العباس نفسه ورجع إلى مكة وأظهر إسلامه وجمع أمواله هاجر إلى المدينة، ولازمه ﷺ في غزواته، كان ﷺ يكرمه ويعظمه، ووصفه عليه الصلاة والسلام فقال: أجود الناس كفًا وأحناه عليهم، وروى السهمي من حديث ابن عباس أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ألا أبشرك يا عم؟» قال: بلى، بأبي أنت وأمي! فقال عليه الصلاة والسلام: «إن من ذريتك الأصفياء وعترتك الخلفاء».

وكان الذي أسر العباس أبو اليسر، واسمه كعب بن عمرو، وكان قصيرًا دميمًا، وكان العباس عظيم الخَلْق طويل القامة من مُقَبِّلي الظعن[2]، وفي مسند البزار قيل للعباس: كيف أسرك أبو اليسر، ولو أخذته بكفك لوسعته؟ فقال: ما هو إلا أن لقيته فظهر في عيني كالخندمة[3]! وذكر أبو عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لقد

---

(١) أي خراجها، وهو أول خراج حمل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان مائة ألف. [الطهطاوي].
(٢) يعني أنه كان يدرك فم الظعينة وهي راكبة على البعير وهو على قدميه في الأرض. [الطهطاوي].
والظعينة هي المرأة ما دامت في الهودج.
(٣) والخندمة: جبل حول مكة. [الطهطاوي].

أعانك عليه ملك كريم». ولما فدى العباس نفسه وابن أخيه عقيل بن أبى طالب قال لرسول الله ﷺ : لقد تركتنى أتكفف قريشًا، فقيرًا معدمًا، فقال له رسول الله ﷺ : فأين ما دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة، وقلت لها : ما أدرى ما يصيبنى، فإن حدث بى حادث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقثم؟ فقال العباس : وما يدريك يا ابن أخى؟! قال : أخبرنى به ربى، فقال العباس : أشهد أنك صادق، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبده ورسوله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها فى سواد الليل، ولقد كنت مرتابًا فى أمرك، فأما إذ أخبرتنى بذلك فلا ريب. انتهى.

وأم الفضل هذه لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية، أخت ميمونة زوج النبى ﷺ ، وأختها لبابة الصغرى أم خالد بن الوليد، وولدت أم الفضل للعباس سبعة نجباء : عبد الله بن عباس، صاحب التفسير الذى قال فيه عليه الصلاة والسلام : «اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل»، وإخوته الستة : عبيد الله، وعبد الرحمن، والفضل، وقثم، ومعبد، وكثير، واختلف فى كثير فقيل إن أمه رومية، وأختهم أم حبيب، وفى أم الفضل يقول الشاعر :

ما ولدت نجيبة من فحل ... بجبل نعرفه وسهل

كسبعة من بطن أم الفضل ... أكرم بها من كهلة وكهل

عم النبى المصطفى ذى الفضل ... وخاتم الرسل وخير الرسل

وكان له أيضًا سوى هؤلاء ثلاثة من غير أم الفضل : عون، والحارث، وتمام، وكان أصغرهم تمام وأمه رومية تسمى سبأ، ويقال شقيقة كثير المتقدم الذكر وكان العباس يحمل تمامًا هذا ويقول :

تموا بتمام فصاروا عشره ... يا رب فاجعلهم كرامًا برره

واجعل لهم ذكرا وأنم الثمره

وقد أجاب الله دعاء العباس فى بنيه الأكياس[1]، كانوا كما أراد أبوهم

(١) جمع كَيِّس ـ بفتح الكاف وكسر الياء المشددة ـ الذكى الفطن.

واشتهى، كلهم له رواية ونُهَى، ومع ذلك فيقال ما رؤيت قبور أشد تباعدًا بعضها من بعض من قبور بنى العباس بن عبد المطلب، ولدتهم أم الفضل فى دار واحدة، استشهد الفضل بأجنادين، ومات معبد وعبد الرحمن بإفريقية، وتوفى عبد الله بالطائف، وعبيد الله باليمن، وقثم بسمرقند، وكثير وأمه سبأ المذكورة أخذته الذبحة بينبع، رضى الله عنهم أجمعين.

وخَرَّج محمد بن يزيد فى [الكامل] أن العباس كان إلى منكب عبد المطلب، وكان عبد الله بن عباس إلى منكب العباس، وكان على بن عبد الله إلى منكب أبيه عبد الله، وطاف هذا بالبيت، وهناك عجوز قديمة، وعلىّ قد فرّع الناس كأنه راكب والناس مشاة، فقالت: من هذا الذى فرّع الناس؟ فقيل: هو علىّ بن عبد الله بن العباس فقالت: لا إله إلا الله، إن الناس ليرذلون، عهدى بالعباس وهو يطوف بالبيت كأنه قرطاس أبيض! انتهى. وقال بعضهم أدرك الإسلام من العرب عشرة أنفار طوال جدًا، منهم عبادة بن الصامت.

ومن جملة الأسارى أيضًا نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، تأخر إسلامه إلى عام الخندق، وقيل بل أسلم حين أُسر، وذلك أن رسول الله ﷺ قال له: افد نفسك بأرماحك التى بجَدّه، قال: والله ما علم أحد أن لى بجدّة أرماحًا غير الله! أشهد أنك رسول اللهَ، ثم شهد معه حُنَيْنًا وأعانه عند الخروج إليها بثلاثة آلاف رمح، فقال له رسول الله ﷺ كأنى أنظر إلى أرماحك هذه تقصف ظهور المشركين. توفى نوفل بالمدينة سنة خمس عشرة، وصلى عليه عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنهما.

وقيل إن العباس أسلم قبل وقعة بدر وكان يخفى إسلامه، ولما طلب منه ﷺ أن يفدى نفسه قال: علام يؤخذ منى الفداء وقد كنت أسلمت أنا وأم الفضل وبقية آل بيتى، ولكن القوم أكرهونى على الخروج؟ فقال النبى ﷺ: كان ظاهر أمرك أنك كنت علينا، ولكن الله تعالى يجزيك على ما أخذ منك، وأنزل الله تعالى ﴿ **يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا** ﴾ الآية ولما نزلت قال العباس: يا رسول الله، لوددت أنك كنت أخذت منى أضعافًا، والمأخوذ منه مائة أوقية من الذهب كما سبق آنفًا، وقد مَنّ النبى ﷺ على نفر من أُسراء بدر

وخلى سبيلهم من غير شيء، وفدى نفراً كالعباس رضى الله تعالى عنه، ولما فدى العباس رجع إلى مكة وأظهر إسلامه وجمع أمواله وهاجر إلى المدينة ولازمه ﷺ في غزواته، وكان النبي ﷺ يعظمه وكانت الصحابة تعظمه وتقدمه وتشاوره وتأخذ برأيه، ولما قيل له: أيما أكبر؟ أنت؟ أو النبي ﷺ؟ قال هو أكبر مني، وأنا ولدت قبله!

* * *

قال ابن إسحاق ولما بلغ النجاشي نصرة النبي ﷺ ببدر فرح فرحًا شديداً، قال جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، وكان جعفر إذ ذاك بأرض الحبشة: فأرسل إليّ النجاشي وإلى أصحابي ذات يوم، فدخلنا عنده فوجدناه جالسًا على التراب، لابسًا أثوابًا خَلقَة، فقال: إني أبشركم بما يسركم، إنه قد جاءنا من نحو أرضكم عين لي فأخبرنَي أن رسول الله ﷺ مع أعدائه بمحل يقال له بدر، فكانت النصرة لرسول الله ﷺ. فقال له جعفر: مالك جالس على التراب، وعليك هذه الثياب؟ قال: إنا نجد فيما أنزل الله تعالى على عيسى عليه السلام: أنْ حقًا على عباد الله تعالى أن يحدثوا له تواضعا إذا أحدث لهم نعمة!

قال: ولما أوقع الله تعالى بالمشركين يوم بدر واستأصل رؤساءهم قالوا: إنا ثارنا بأرض الحبشة، فلنرسل إلى ملكها ليدفع إلينا من عنده من أتباع محمد فنقتلهم بمن قتل منا، فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة، رضى الله تعالى عنهما ـ فإنهما أسلما بعد ذلك ـ ومعهما طائفة من كفار قريش إلى النجاشي ليدفع إليهما من عنده من المسلمين، وأرسلوا معهما هدايا وتحفا للنجاشي، فلما وصلا إليه ردهما خائبين، ولما بلغ ﷺ ذلك بعث إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري، رضى الله تعالى عنه، بكتاب يوصيه فيه على المسلمين الذين عنده بالحبشة.

وقد سبق التنويه إلى ذلك في الفصل الثاني في الهجرتين إلى الحبشة، من (الباب الثاني) من (المقالة الخامسة) من (الجزء الثاني)[1]، وسيأتي الكلام على ذلك في قدوم جعفر من الحبشة في غزوة خيبر.

(١) أي هذا الجزء ـ الرابع ـ من هذه الأعمال.

ويقال إن عمرو بن العاص أسلم حينئذ على يد النجاشي، ولهذا يُلْغَز ويقال: ما هو الصحابي الذي أسلم على يد تابعي؟! ومنشأ هذا ما قاله بعض أهل السير، حكاية عن عمرو بن العاص عن نفسه، من أنه قال: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق، جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلموا والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، وإني قد رأيت أمراً فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي، فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد، وإن ظهر قومنا فنحن مَنْ قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير! قالوا: إن هذا الرأي، قلت: فاجمعوا ما نهدي له، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم [1]، فجمعنا له أدما كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو ابن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل إليه ثم خرج من عنده، قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري، لو قد دخلت على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد، قال: فدخلت عليه فسجدت له، كما كنت أصنع، فقال: مرحبا بصديقي، أهديت إليّ من بلادك شيئًا قال: قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت لك أدمًا كثيراً، قال: ثم قربته إليه، فأعجبه واشتهاه، ثم قلت: أيها الملك، إني قد رأيت رجلا خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال: فغضب، ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقا منه، ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننتُ أنك تكره هذا ما سألتكه! قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى عليه السلام لتقتله؟! قال: قلت: أيها الملك، أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو! أطعني واتبعه، فإنه واللهِ لعلى حق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال نعم، فبسط يده فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي وقد

(١) الأدم ـ بفتح الهمزة والدال، وبضمهما ـ جمع، مفرده أديم، ومعناه هنا: الجلد.

حال[1] رأيي عما كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي، ثم خرجت عامدًا إلى رسول الله ﷺ لأُسْلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام الميسَم[2]، وإن الرجل لنبي، أذهب والله أسلم، فحتى متى؟ قال: قلت: والله ما جئت إلا لأسلم! قال: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول الله، إني أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي: ولا أذكر ما تأخر، قال: فقال رسول الله ﷺ: يا عمرو، بايع، فإن الإسلام يجب ما كان قبله، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها، قال، فبايعته ثم انصرفت اهـ.

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم أن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة كان معهما أسلم حين أسلما.

* * *

واختلفت الصحابة فيما يفعل بالأسارى، فمنهم من أشار بقتلهم، ومنهم من أشار بفدائهم، قال في [المواهب] وقد استقر الحكم في الأسارى عند الجمهور من العلماء أن الإمام يخير فيهم، إن شاء قتل، كما فعلى النبي ﷺ ببني قريظة، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسارى بدر، وإن شاء استرق من أسر، وإن شاء مَنّ وأطلق من غير شيء، وهذا مذهب الشافعي وطائفة من العلماء.

ولما أقبل رسول الله ﷺ راجعًا إلى المدينة، وخرج من مضيق الصفراء، ثم قسم النَّفْل[3]، وكانت إبلاً وأفراسًا ومتاعًا وسلاحًا وأنطاعًا وثيابًا وأدما كثيرًا كان قد حمله المشركون للتجارة صحبة قريش، ونادى النبي ﷺ: «من قتل قتيلا فله سَلَبُه»، وأنزل الله تعالى في أصحاب بدر ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ**﴾ (الأنفال: ١) الآية، وأول من حل له أكل الغنائم واتخذها حرفة رسول الله ﷺ، وكانت الأنبياء من قبل يجاهدون ويقاتلون ويسترقون الأرقاء، ولكن ما كانت الغنائم يحل

(١) تغير وتحول.
(٢) الحديدة أو الآلة التي يوسم أو يكوى بها.
(٣) أي الغنيمة. [الطهطاوي].

أكلها لهم، وإذا ما غنموا من أموال المجاهدة شيئًا كانت تنزل نار فتحرقه، وكان ذلك علامة قبولهم.

وفى الطبرانى، بسند جيد، عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اطلع الله على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، أو قال: «فقد وجبت لكم الجنة»، ويضرب بأهل بدر المثل فى عدم المؤاخذة، قال بعض الشعراء:

يا بدر أهلك جاروا وعلموك التجرى
وقبحوا لك وَصْلى وحسنوا لك هجرى
فليصنعوا كيف شاؤوا فإنهم أهل بدر

وقال ابن الفارض:

فليصنع القوم ما شاؤوا لأنفسهم هم أهل بدر فلا يخشون من حرج

وأول أبيات الشاعر السابق فيها من المحسنات البديعية، غير التلميح، نوع يقال له: غريب الاتفاق، لا سيما إذا كان المخاطب اسمه بدر، وهو أن يتفق للشاعر أو الناثر وقعة أو نكتة يستخرجها من الكلام أو من الوقائع، وهو عزيز الوقوع، وإن حصل للشاعر أو الناثر فى ذلك قران سعد سارت الركبان بقوله، كما اتفق لابن خصينة المصرى حسام الدين لؤلؤ، صاحب الملك الناصر يوسف [1]، حين غزا الفرنج الذين قصدوا الحجاز من بحر القلزم، وظفر الحاجب بهم، فقال ابن خصينة يخاطب الفرنج:

عدوكم لؤلؤ والبحر مسكنه والدر فى البحر لا يخشى من الغير

ومنه قول الصفى الحلى [2] فى بديعته:

---

(١) (١١٣٧-١١٩٣م) مؤسس الدولة الأيوبية بمصر سنة ١١٧١م وصاحب الانتصارات الشهيرة ضد الكيانات الصليبية وحملاتها الحربية.

(٢) عبد العزيز بن سرايا الطائى (١٢٧٨-١٣٤٩م) أديب ولد وعاش بالعراق، كان أكبر شعراء عصره، وله تخميسات على شعر من سبقه، كما نظم الشعر العامى بمختلف فنونه.

ومن غـدا اسـم أمـه نعـتًـا لأمــتـه　　فــتـلـك آمنة مـن ســائـر النـقـم

ومنه قول ابن الساعاتي[1]، وقد قصد الملك الناصر يوسف، المتقدم ذكره، بيت يعقوب، من حصون الشام، مخاطبًا للإفرنج:

* دعوا بيت يعقوب فقد جاء يوسف *

ومن غريب الاتفاق ما قيل من أن المأمون صنع تابوتًا بديعًا يحمله حسَان الغلمان على أكتافهم ويطوفون به في خلال البستان، والمأمون جالس فيه ومعه جواري أبيه هارون الرشيد وَجدّه موسى الهادي، فدعا الشعراء ذات يوم ليقولوا في ذلك شيئًا، فأنشدوا ما عندهم إلا أبا نواس[2]، فسأله المأمون، فتلا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ (البقرة: ٢٤٨)، فلمح بالسكينة لهيبة الخليفة المأمون، وبالبقية للجواري، وبموسى وهارون لأبيه وجده. وهذا وإن كان من غريب الاتفاق إلا أنه لا يخلو عن التهور والخروج عن اللائق.

والمراد بأهل بدر، في الحديث، الذين حضروا وقعتها مع النبي ﷺ، استشهدوا فيها أم لا، لأنهم ارتقوا إلى مقام يقتضي الإنعام عليهم بمغفرة ذنوبهم السابقة واللاحقة، فلا يؤاخذهم بها، لبذلهم مهجتهم في الله ونصرهم دينه، والمراد إظهار العناية بهم لا الترخيص لهم في كل فعل، والخطاب لقوم منهم على أنهم لا يقارفون ذنبًا وإن قارفوه لم يصروا. وقال القرطبي: هذا خطاب إكرام وتشريف تضمَّن أن هؤلاء حصلت لهم حالة غفرت بها ذنوبهم السالفة، وتأهلوا لأن يغفر لهم ما يستأنف من الذنوب اللاحقة، ولا يلزم من وجود الصلاحية لشيء وقوعه، ولقد أظهر الله تعالى صدق رسول ﷺ في كل ما أخبر عنه بشيء من

---

(١) بهاء الدين علي بن محمد (١١٥٨-١٢٠٨م) شاعر، نشأ بدمشق وعاش بمصر، واهتم بمدح رجال الدولة الأيوبية وتميز شعره بالاهتمام بالمحسنات البديعية.

(٢) الحسن بن هانئ (٧٦٣-٨١٤م) من أبرز شعراء العربية في العصر العباسي، برز في الغزل ورفق في شعر الخمر واللهو والهوى، وله دور في تجديد وتطوير الشعر العربي كي يواكب تطور المجتمع العربي في ذلك الحين.

ذلك، فإنهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنة إلى أن فارقوا الدنيا، وإن قُدِّرَ صدور شيء من أحدهم بادر إلى التوبة.

والشهداء ثلاثة أقسام:

الأول: شهيد في حكم الدنيا والآخرة، في ترك الغسل والصلاة عليه، وهو من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

والثاني: شهيد في الدنيا دون الآخرة، وهو من قاتل رياء وسمعة وقتل، فلا يغسل ولا يصلى عليه.

والثالث: شهيد في الآخرة فقط، وهو المطعون والمبطون والغريق والحريق والمحموم وطالب العلم إذا مات عل طلبه والمرأة تموت بسبب الولادة ومن قتله مسلم أو ذمي أو باغ في غير القتال، فكل هؤلاء يغسلون ويصلى عليهم، وهم شهداء في الدار الآخرة لا في الدنيا، قاله الإمام الرافعي، لأن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان غسلا، وهما شهيدان بالإجماع. استطراد لمناسبة.

* * *

قال [1] عمر بن عبد العزيز: كان أبي إذا خطب ونال من عليّ يلجلج في كلامه، فقلت: يا أبت، إنك تمضي في خطبتك، فإذا أتيت إلى ذكر عليّ عرفت منك تقصيرها! قال: أوفطنت لذلك؟ قلت: نعم، قال: يا بني، إن الذين حولنا لو يعلمون من عليّ ما نعلم لتفرقوا عنا إلى أولاده! فلما ولي عمر الخلافة لم يكن عنده من الرغبة في الدنيا ما يرتكبه في هذا الأمر العظيم لأجله، فكتب بتركه، وقرأ عوضه: إن الله يأمر بالعدل والإحسان، فحل هذا الأمر عند الناس محلاً عظيمًا، وأكثروا مدحه، حتى قال كُثَيِّر [2] في أبياته في حق عمر بن عبد العزيز:

وليت ولم تشتم عليًا ولم تخف ... بريا ولم تتبع مقالة مجرم

---

(1) هنا استطراد، ذكر المؤلف قبله كلمتي (استطراد لمناسبة)؟!

(2) كثيرة عزة (المتوفى سنة ٧٢٣م) وهذه هي شهرته، أما اسمه فهو: أبو صخر كثير بن عبد الرحمن الخزاعي، عاش بالمدينة، وكان من أبرز الشعراء في العصر الأموي، وتميز شعره بالاهتمام بمدح آل البيت والتشيع لهم، وأيضًا بالغزل الذي قاله في عزة بنت أبي بصرة الضمرية.

وقيل إنه قال: إن سبب محبتي عليًا أني كنت بالمدينة أتعلم العلم، وكنت ألزم عبيد الله بن عبد الله بن مسعود، فبلغه عني شيء من ذلك، أي في سب بني أمية لعليّ، فأتيته يومًا وهو يصلي فأطال الصلاة، فقعدت أنتظر فراغه، فلما فرغ التفت إليّ وقال: متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم؟ قلت: لم أسمع[1] بذلك، قال: فالذي بلغني عنك في عليّ؟ فقلت: معذرة إلى الله وإليك، والله لا أعود. فما سُمِع بعد ذلك يذكر عليا إلا بخير. اهـ.

ولا مانع أن يقال إنه لحسن سريرته السرية، وسيرة عدله العمرية، لما رأى الحق للإمام عليّ أبطل من نفسه مثلبة سبه على المنابر، وهذا ما يقضي به حسن الظن في حق هذا الخليفة الموصوف بالعدل في الباطن والظاهر، بدليل استبدال ذلك بالآية الشريفة وهي ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ (النحل: ٩٠) فمن جملة ذلك الأمر بعدم السب، والنهي عنه، إذ هو من الفحشاء والمنكر، لا سيما وأن الغالب في الخلفاء والسلاطين والملوك إنما يأمرون بما يأمرون به من تلقاء أنفسهم، كأمر الخليفة المعتضد العباسي بسب معاوية على المنابر، كما حكاه ابن جرير عنه، وإن صح أنه أمسك عن ذلك بعد أن أنشأ كتابًا ليقرأ على المنبر فيه مثالب معاوية ومعايبه، حيث قيل له إن أهل بيت علي منهم الخارجون عليك في كل ناحية، فإذا سمعوا سب معاوية مال إليهم كثير من الناس وخرجوا عن طاعة العباسية! فيكون عمر بن عبد العزيز بادر بإزالة المنكر من بداية الأمر به بدون أن ينتظر نصح ناصح، وهذا بفضله أكمل. روى أنه لما سئل عن عليّ ومعاوية قال: دماؤهم قد طهر منها سيوفنا أفلا يطهر من الخوض فيها ألسنتنا؟!

غزوة بني قينقاع

(وفي منتصف شوال من هذه السنة الثانية كانت غزوة بني قينقاع[2])

بطن من يهود المدينة، لهم شجاعة وصبر، وكانوا حلفاء عُبادة بن الصامت، رضي الله تعالى عنه، وعبد الله بن أُبَيّ بن سلول الخزرجي، المنافق، وحلفاء

---

(١) في الأصل: ولم أسمع.

(٢) بفتح القاف وإسكان الياء وتثليث النون. [الطهطاوي].

للخزرج، فلما كانت وقعة بدر أظهروا البغي والحسد، ونبذوا العهد الذي كان ﷺ عاهدهم به وعاهد بني قريظة والنضير أن لا يحاربوه ويظاهروا عليه عدوه، وقيل على أن لا يكونوا معه ولا عليه، وقيل على أن ينصروه ﷺ على من دهمه من عدوه، فكانوا أول من غدر من يهود، وتبرأ عبادة بن الصامت من حلفهم، وتشبث به عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وفيه نزلت ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى** ﴾ (المائدة ٥١) الآية، فجمعهم ﷺ وقال لهم: «يا معشر يهود، احذروا من الله أن ينزل عليكم مثل ما نزل بقريش من النقمة ـ (أي ببدر) ـ أسلموا فإنكم قد عرفتم أني مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله تعالى إليكم»، فقالوا: يا محمد، إنك تظننا مثل قومك، ولا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت لهم فرصة، إنا والله لو حاربناك لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا! وقد قالوا ذلك لأنهم كانوا أشجع اليهود وأكثر أموالا وأشدهم بغيًا، فأنزل الله تعالى: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ** ﴾ (آل عمران: ١٢) الآية، فبينما هم على بغيهم ومجاهرتهم بكفرهم إذ جاءت امرأة كانت تحت رجل من الأنصار إلى سوق بني قينقاع فجلست عند صائغ منهم في أمر حَلْي لها فجاء رجل من بني قينقاع فجلس من ورائها، وهي لا تشعر، فَخَلَّ[1] درعها إلى ظهرها بشوكة فلما قامت تكشفت، فضحكوا منها، فقام إليه رجل من المسلمين فاتبعه فقتله، فقتل اليهود المسلم، ونبذوا العهد إلى رسول الله ﷺ، فنزل فيهم: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً** ﴾ (الأنفال: ٥٨) الآية، فتحصنوا في حصونهم، فسار إليهم رسول الله ﷺ ولواؤه، كان أبيض، بيد حمزة بن عبد المطلب، رضي الله تعالى عنه، وحاصرهم خمس عشرة ليلة أشد الحصار، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وكانوا سبعمائة نفس، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع، فسألوا رسول الله ﷺ أن يخلي سبيلهم، وأن يجلوا من المدينة، وإن لهم نساءهم والذرية، وله ﷺ الأموال والسلاح، فَخُمِّسَتْ أموالهم، وأمر ﷺ أن يجلوا من المدينة، ووكل بإجلائهم

---

(١) أي ثقبه.

عبادة بن الصامت، رضى الله تعالى عنه، وأن يمهلهم فوق الثلاث، فقال: ولا ساعة واحدة! وتولى إخراجهم بنفسه، وذهبوا إلى أذرعات - بلدة بالشام - ولم يدر الحول عليهم حتى هلكوا أجمعين بدعوته ﷺ حيث قال لابن أُبَىّ بن سلول: «لا بارك الله لك فيهم».

ووجد ﷺ فى منازلهم سلاحًا كثيراً، وأخذ ﷺ من سلاحهم ثلاث قسىّ، منها القوس الكتوم التى لا يسمع لها صوت إذا رمى بها، وهى التى رمى بها ﷺ يوم أحد، وأخذ ﷺ درعين، منهما الدرع المسماة بالسُّغْديّة[1]، ويقال إنها درع داود التى لبسها حين قتَل جالوت، وأخذ ﷺ ثلاثة أرماح وثلاثة أسياف، وقبض رسول الله ﷺ أموالهم، وكانوا صاغة لا أرض لهم، وكان خليفة رسول الله ﷺ على المدينة أبا لبابة [2].

غزوة السويق

(وفى هذه السنة الثانية من الهجرة كانت غزوة السويق)

لما أصاب قريش فى بدر ما أصابهم نذر أبو سفيان أن لا يمس النساء والطيب حتى يغزو محمداً ويثأر منه ومن أصحابه بمن أصيب من المشركين يوم بدر، فخرج فى مائتى راكب من قريش لوفاء نذره حتى نزل بمحل بينه وبين المدينة نحو بريد [3]، ثم أتى لبنى لنضير، وهم حى من يهود خيبر، ينسبون إلى هارون بن عمران، تحت الليل، فأتى حُيَىّ بن أخطب، وهو من رؤساء بنى النضير، وهو أبو صفية أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها، ليخبره من أخبار رسول الله ﷺ بما أحب معرفته، فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له، لأنه خافه، وجاء إلى سلام بن مشكم، سيد بنى

---

(١) بسين مهملة وغين معجمة. [الطهطاوى]. وفى [نهاية الأرب]: «السفدية» - بالصاد - انظر جـ ١٧ ص ٧٠.

(٢) فى الأصل: أبا البابة. والتصحيح عن [الدرر] و[نهاية الأرب] و[طبقات ابن سعد] وهو: أبو لبابة بشير بن عبد المنذر.

(٣) مسافة البريد تساوى اثنى عشر ميلا، تقريبا.

النضير وصاحب كنزهم[1]، فاستأذن عليه فأذن له، واجتمع به، وسقاه خمراً، فلما كان السحر خرج أبو سفيان ومن معه فلقى رجلاً من الأنصار فى حرث له فقتله وقتل أجيراً كان معه وحرق حرثهما[2]، ورأى أن يمينه قد حُلّت، فمضى هاربًا، وقد خاف الطلب. وبلغ رسول الله ﷺ خبره، فخرج رسول ﷺ فى مائتين من المهاجرين والأنصار فى طلبهم، وكان خروجه لخمس من ذى الحجة من السنة الثانية من الهجرة، وجعل أبو سفيان وأصحابه يخففون للهرب فيلقون جُرُب السويق من قمح أو شعير مطحون ـ وهو عامة أزوادهم ـ فيأخذه المسلمون، ولم يلحقوا بهم، وانصرف رسول الله ﷺ راجعًا إلى المدينة، وكانت غيبته خمسة أيام، ولإلقاء السويق من رحالهم لتخفيفها وأخذ المسلمين لذلك سميت غزوة السَّويق، ولم يلق فيها كيداً.

* * *

وفى هذه السنة مات عثمان بن مظعون، رضى الله تعالى عنه، وفيها أيضًا هلك أمية ابن أبى الصلت[3]، من رؤساء الكفار، وقرأ الكتب واطلع على البعثة فكفر حسدًا لأنه رجا أن يكون هو المبعوث، ونزل فى حقه قوله تعالى ﴿ **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها** ﴾ (الأعراف: ١٧٥) وكان سافر إلى الشام ورجع عقيب وقعة بدر السابقة فمر بالقليب، وفيه قتلى بدر، وكان ممن فى القليب عتبة وشيبة ابنا خالى أمية، فجدع أذنى ناقته وقال قصيدة:

هلا بكيت على الكرا ... م بنى الكرام أولى الممادح
كَبُكا الحمام على فرو ... ع الأيك فى الغصن الجوانح[4]

---

(١) أى المال الذى كانوا يجمعونه ويدخرونه للنوائب وما يعرض لهم، وكان حليًا يعيرونه لأهل مكة. [الطهطاوى].

(٢) فى [نهاية الأرب] أن ذلك وقع بمكان اسمه «العريض» بضم العين وفتح الراء ـ على بعد ثلاثة أميال من المدينة، انظر جـ ١٧ ص ٧١.

(٣) انظر ترجمته وأخباره فى [الأغانى] جـ ٤ ص ١٣٣٤ وما بعدها. طبعة الشعب، القاهرة سنة ١٩٦٩.

(٤) الجوانح: الجوانب.

يبكين حزنى مستكينات يرحن مع الروائح[1]
أمثالهن الباكيات المعولات من النوائح
ماذا ببدر والعقنقل من مرازبة جحاجح[2]
شُمْط وشبان بهاليل مغاوير دحادح[3]
إن قد تغير بطن مكة فهى موحشة الأباطح

وهي قصيدة نهى رسول الله ﷺ عن روايتها، لأن أمية كان يحرض قريشًا بعد وقعة بدر على المسلمين، ومع ذلك فله أشعار يفهم منها ميله إلى اعتقاد أن دين الإسلام حق، فمن ذلك قوله :

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور

ولما أنشد لدى النبي ﷺ قوله :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربى ومسانا
رب الحنيفة لم تنفد خزائنها مملوءة طبق الآفاق سلطانا
ألا نبى لنا يأتى فيخبرنا ما بعد غايتنا من رأي محيانا
بينا يربوننا آباؤنا هلكوا وبينما نقتنى الأولاد أفنانا
وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا أن سوف يلحق أخرانا بأولانا

قال النبي ﷺ : «إن كاد أمية ليسلم»، ويروى أن أمية بن أبى الصلت ـ واسم أبى الصلت عبد الله بن ربيعة بن عوف الثقفي ـ لما مرض مرضه الذى مات فيه جعل يقول : قد دنا أجلى، وهذه المرضة منيتى، وأنا أعلم أن الحنيفية حق، ولكن الشك

---

(١) الأمطار أو السحب التى تجيء رواحا، أى عند العشى.
(٢) العقنقل : كثيب رمل ببدر، والمرازبة : الفرسان الشجعان، واحدها مرزبان، وأصله فارسى معرب، والجحاجح : واحدها جحجح، وهو السيد المسارع إلى المكارم.
(٣) الشمط ـ بضم الشين ـ واحدها أشمط، وهو الذى تخلل سواد شعر رأسه البياض، والبهاليل : واحدها بهلول ـ بضم الباء ـ السيد الجامع لكل خير، والدحادح : القصير.

يداخلني في محمد! ولما دنت وفاته أغمي عليه قليلا حتى ظن من حضره من أهله أنه قد قضى، ثم أفاق وهو يقول: لبيكما لبيكما، ها أنا ذا لديكما، لا بريء فأعتذر؛ ولا قوى فأنتصر. ثم إنه بقي يحدث من حضره ساعة ثم أغمي عليه ثانيًا حتى يئسوا من حياته، وأفاق وهو يقول: لبيكما لبيكما، ها أنا ذا لديكما..

إن تغفر اللهم تغفر جما ... وأي عبد لك لا ألما

ثم أقبل على القوم فقال: قد جاء وقتي، فكونوا في أهبتي، وحدثهم قليلاً حتى يئس القوم منه.

وكان أمية يتعبد في الجاهلية، ويؤمن بالبعث، وأدرك الإسلام ولم يسلم، وأنه لما غشي عليه وأفاق قال:

كل عيش وإن تطاول دهرا ... صائر أمره إلى أن يزولا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي ... في رؤوس الجبال أرعى الوعولا

إن يوم الحساب يوم عظيم ... شاب فيه الوليد يومًا ثقيلا

إجعل الموت نصب عينك واحذر ... غولة الدهر إن للدهر غولا

ثم قضى نحبه، ولم يؤمن بالنبي ﷺ، وذكر عن سهل أن النبي ﷺ لما سمع قول أمية:

لك المجد والنعماء والفضل ربنا ... فلا شيء أعلى منك حمدا وأمجدا

قال: «آمن شعره، وكفر قلبه» وكُفْرُ قلبه عدم إيمانه بالنبي ﷺ.

وما سلف ذكره في (الفصل الثاني) من (الباب الثالث) من (المقالة الرابعة[1]) من عده ممن آمن به ﷺ، كقس بن ساعدة، فالقصد منه اعتقاد نبوته ﷺ قبل مبعثه، لا الإذعان بعد المبعث، حيث حمله على عدم الإيمان الحسد والحمية الجاهلية، وغلبة الشقاء.

---

(١) انظره في الجزء الثالث من هذه الأعمال.

وكان خليفة رسول الله ﷺ في غيبته أبا لبابة، كما في غزوة بني قينقاع.

وقعة ذي قار

(وفي هذه السنة الثانية من الهجرة كانت وقعة ذي قار بين بكر بن وائل وبين جيش كسرى پرويز، والغلبة على الهرمزان، وانهزمت الفرس وقتل الهرمزان)

وسبب هذه الوقعة المشهورة في أيام العرب «بيوم ذي قار» أن كسرى برويز غضب على النعمان بن المنذر وحبسه فهلك في الحبس، وكان النعمان قد أودع حلقته، وهي السلاح والدرع، عند هانئ بن مسعود البكري، فأرسل برويز يطلبها من هانئ المذكور، فقال: هذه أمانة، والحر لا يسلم أمانته، وكان برويز لما أمسك النعمان قد جعل موضعه في مُلْك الحيرة إياس بن قبيصة الطائي، فاستشار برويز إياسًا المذكور، فقال إياس: المصلحةَ التغافل عن هانئ بن مسعود المذكور حتى يطمئن، ونتبعه فندركه! فقال برويز: إنه من أخوالك، ولا تألوه نصحا، فقال إياس: رأي الملك أفضل، فبعث برويز الهرمزان في ألفين من الأعاجم، وبعث ألفًا من بهرا - قبيلة - فلما بلغ بكر بن وائل خبرهم أتوا مكانًا من بطن ذي قار، فنزلوه، ووصلت إليهم الأعاجم، واقتتلوا ساعة، وانهزمت الأعاجم هزيمة قبيحة، وأكثرت العرب الأشعار في ذكر هذا اليوم، وقيل إن هذه الوقعة كانت في سنة أربعين من مولد النبي ﷺ ولم تكن في عام وقعة بدر، وهذا القول هو الأقوى والأصح [1].

---

(١) انظر تاريخ الطبري جـ ٢ ص ١٩٣ وما بعدها، طبعة دار المعارف، بالقاهرة.

غزوة بنى سليم

(وفى هذه السنة كانت غزوة قرقرة الكدر)

وهى أرض مما يلى جادة العراق إلى مكة، بها طيور فى ألوانها كُدْرة عرف بها ذلك الموضع، وذلك أنه ﷺ بلغه أن قومًا من بنى سليم وغطفان يريدون الإغارة على المدينة، فسار إليهم فى مائتين من أصحابه، وحمل اللواء علىّ بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه، فوصل إلى ذلك الموضع فلم يجد به أحدًا منهم، وأرسل نفرًا من أصحابه إلى أعلى الوادى، واستقبلهم فى بطن الوادى فوجد خمسمائة بعير مع رعاة لهم، فَخَمَّس الإبل، فخص كل واحد بعيران، ورجع إلى المدينة.

وقيل كانت هذه الغزوة فى المحرم سنة ثلاث، ويمكن أن يجمع بين القولين بأنها ابتدأت فى أواخر شهر الحجة وبقيت إلى أول المحرم سنة ثلاث.

وفى هذه السنة ولد عبد الله بن الزبير، وكان خليفة رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم.

الفصل الثالث

(فى ظواهر السنة الثالثة من الهجرة وما فيها من الغزوات)

غزوة غطفان

(وفى هذه السنة الثالثة من الهجرة كانت غزوة أمرّ)

ويقال لها غزوة غطفان، وغزوة أنمار وإمرّ[1] اسم ماء، وذلك أنه ﷺ بلغه أن رجلا يقال له دُعْثور[2] بن الحارث الغطفانى، من بنى محارب، جمع جمعًا من ثعلبة ومحارب بموضع من ديار غطفان يسمى بذى أَمَرّ، باسم الماء الذى فيه، يريدون الإغارة على أطراف المدينة، فخرج إليهم ﷺ فى أربعمائة وخمسين رجلا من أصحابه، لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر بيع الأول فى السنة الثالثة من الهجرة، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان، فلما سمعوا بمسير رسول الله ﷺ هربوا فى رؤوس الجبال.

وفى هذا المحل أصاب ﷺ المطر الكثير فبل ثيابه وثياب أصحابه، فنزع ﷺ ثوبيه ونشرهما على الشجرة ليجفا، واضطجع بمرأى من المشركين، فبعث المشركون دُعثور، الذى هو سيد القوم وأشجعهم، المُجَمِّع لهم، قالوا له: قد انفرد

---

(١) بكسر الهمزة وفتح الميم وتشديد الراء. [الطهطاوى]. ولكنها مضبوطة فى [الدرر] و [نهاية الأرب] بفتح الهمزة، وهى كذلك ـ بفتح الهمزة ـ فى [مراصد الاطلاع] لعبد المؤمن البغدادى.

(٢) بضم الدال وسكون العين ثم ثاء مضمومة. [الطهطاوى].

محمد، فعليك به، فجاء ومعه سيفه حتى قام على رأس رسول الله ﷺ، ثم قال: من يمنعك مني اليوم؟ فقال ﷺ: الله! ودفعه جبريل في صدره فوقع على ظهره، فوقع السيف من يده، فأخذ السيف رسول الله ﷺ، وقال: من يمنعك مني اليوم يا دُعثور؟ قال: لا أحد، كن خير آخذ: فتركه وعفا عنه، فقال: أشهد أن لا إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والله لا أجمع الناس لحربك أبدًا. فدفع له النبي ﷺ سيفه، فقال دعثور: والله إنك لخير مني!

ثم أتى قومه فجعل يدعوهم إلى الإسلام، وأخبرهم أنه رأى رجلاً طويلاً دفعه في صدره فوقع على ظهره، فقال: علمت أنه مَلك فأسلمت، فنزلت هذه الآية ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ (المائدة: ١١) الآية.

ثم أقبل رسول الله ﷺ إلى المدينة، ولم يلق حربًا، وكانت مدة غيبته إحدى عشرة ليلة.

* * *

وفي هذه السنة، في شهر رمضان، ولد الحسن بن عليّ، رضي الله عنهما، وكانوا قد سموه حربًا فسماه النبي ﷺ الحسن، وحنّكه [١] بتمر.

وفيها قتل محمد بن مسلمة الأنصاري كعب بن الأشرف اليهودي.

وفيها تزوج النبي ﷺ حفصة بنت عمر، رضي الله عنهما، وذلك أن عثمان بن عفان خطب حفصة بنت عمر منه بعد وفاة رقية فرده عمر، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: يا عمر، أدلك على خير لك من عثمان، وأدل عثمان على خير له منك؟ قال: نعم يا نبي الله، قال تزوجني ابنتك، وأزوج عثمان ابنتي، فكان ذلك، حيث تزوج ﷺ بحفصة وتزوج عثمان بأم كلثوم.

---

(١) دلك أعلى باطن فمه، وهو الحنك.

غزوة بنى سُلَيْم

(وفى هذه السنة كانت غزوة بُحْران [1])

وهو موضع بالحجاز بينه وبين المدينة ثلاثة برد وتسمى هذه الغزوة بغزوة بنى سُلَيْم.

لما بلغه ﷺ أن بُحْران اجتمع فيه كثير من بنى سُلَيْم خرج فى ثلاثمائة من أصحابه، لست خلون من جمادى الأولى من السنة الثالثة من الهجرة، أحث السير حتى بلغ بُحْران، وكان قبل أن يصل إلى ذلك بليلة لقى رجلاً من بنى سليم فأخبره أن القوم تفرقوا، فحبسه إلى أن وصل فوجدهم كذلك قد تفرقوا ورجعوا إلى مياههم، فأقام ﷺ ولم يلق حربًا. وكانت غيبته عشر ليال، وكان قد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم.

غزوة أحد

(وفى هذه السنة كانت غزوة أحد)

وكانت فى شوال سنة ثلاث من الهجرة باتفاق الجمهور، وأُحُد [2] جبل من جبال المدينة على نحو ميلين، يُقْصَد لزيارة مشهد سيدنا حمزة ومن معه من الشهداء ويقال إنه أفضل الجبال.

لما أصاب قريش يوم بدر ما أصابها مشى عبد الله بن ربيعة وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية، رضى الله تعالى عنهم، ـ فإنهم أسلموا بعد ذلك ـ ورجال أخر من أشراف قريش إلى أبى سفيان، رضى الله تعالى عنه، ـ فإنه أسلم بعد ذلك أيضًا ـ وإلى من كان له تجارة فى تلك العير التى كان سببها وقعة بدر ـ كانت تلك العير موقوفة فى دار الندوة لم تعط لأربابها ـ فقالوا: إن محمدا قد وتركم ـ أى قتل

(١) بفتح الباء الموحدة، وقيل بضمها ثم حاء مهملة ساكنة. [الطهطاوى].
(٢) بضمتين ومهملتين. [الطهطاوى].

رجالكم ـ ولم تدركوا دماءهم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأرًا عمن أصابه منا، وقالوا: نحن طيبو النفوس إن تجهزوا بأرباح تلك العير جيشًا إلى محمد. فقال أبو سفيان: وأنا أول من يجيب إلى ذلك وبنو عبد مناف معى، فجمع لأهل العير رؤوس أموالهم، وكانت خمسين ألف دينار، وأخرجوا أرباحها، وكان الربح لكل دينار دينارًا، وقيل نصف دينار، وأنزل الله فى تلك الحادثة آية ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** ﴾ (الأنفال: ٣٦).

وتجهزت قريش ومن والاهم من قبائل كنانة تهامة، وكان عددهم ثلاثة آلاف، فيهم سبعمائة دارع ومائتا فارس، وقائدهم أبو سفيان بن حرب، وساروا من مكة حتى نزلوا بذى الحُلَيْفَة [(١)]، مقابل المدينة، يوم الأربعاء لأربع مضين من شوال.

وقد أخرج أحمد فى مسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «يوم أحد رأيت كأنى فى درع حصينة، ورأيت بقرًا تنحر، فأوّلت أن الدرع المدينة، فإن شئتم أقمنا بالمدينة فإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها، فقالوا والله ما دخلت علينا فى الجاهلية أفتدخل علينا فى الإسلام؟ قال: فشأنكم إذًا، فذهبوا، فلبس رسول الله ﷺ لأمته [(٢)] فقالوا: ما صنعنا؟! رددنا على رسول الله ﷺ رأيه! فجاؤوا فقالوا: شأنك يا رسول الله، قال: الآن؟ إنه ليس لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل».

وأخرج أحمد والبزار والطبرانى والبيهقى فى [دلائل النبوة] عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما جاء المشركون يوم أحد كان رأى رسول الله ﷺ أن يقيم بالمدينة يقاتلهم فيها، فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدرا: لتخرج بنا يارسول الله نقاتلهم بأحد، ورجوا أن يصيبوا من الفضيلة ما أصابه أهل بدر، فما زالوا برسول الله ﷺ حتى لبس أداته، ثم ندموا، فقالوا: يارسول الله أقم فالرأى رأيك، فقال: فما ينبغى لنبى أن يضع أداته إذا لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه.

---

(١) وذو الحليفة هو ميقات أهل المدينة الذى يحرمون منه. [الطهطاوى].

(٢) اللأمة ـ بسكون الهمزة ـ الدرع أو السلاح كله.

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم.

وخرج ﷺ فى ألف من الصحابة، وصار بين المدينة وأحد، ونزل الشِّعْب من أحد، وجعل ظهره إلى أحد، ثم كانت الوقعة يوم السبت لسبع مضين من شوال، ويقال عدة أصحابه ﷺ تسعمائة، وفيهم مائة دراع، ولم يكن معهم من الخيل سوى فرسين، فرس لرسول الله ﷺ وفرس لأبى بردة، ولواء رسول الله ﷺ مع مصعب بن عمير، من بنى عبد الدار، وعلى ميمنة المشركين خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم عكرمة ابن أبى جهل، ولواؤهم مع بنى عبد النور، وجعل ﷺ الرماة، وهم خمسون، وراءه، فالتقى الناس، ودنا بعضهم من بعض، وقامت هند بنت عتبة زوج أبى سيفان، رضى الله تعالى عنها، ـ فإنها أسلمت بعد ذلك ـ وأم حكيم بنت طارق، زوج عكرمة، رضى الله عنها، فى النسوة المصاحبات لجيش المشركين يضربن بالدفوف خلف الرجال يحرضن المشركين على القتال لحرب المسلمين، ويقلن:

نحن بنات طارق ... نمشى على النمارق[1]

إن تقتلوا نعانق ... أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق [2]

يردن نحن بنات الكواكب، وأنه لا ينال، ويقال إن رملة بنت طارق وأم حكيم بنت طارق قالتا ذلك وقاله النساء معهن، وكان النبى ﷺ إذا سمع قولهن هذا قال: «اللهم إنى بك أجول وأصول وفيك أقاتل، حسبى الله ونعم الوكيل».

واستمر القتل فى أصحاب لواء المشركين، ورأى النساء برجالهن أمرا عظيما حتى ولولن وتركن ما كن فيه، وانهزم المشركون حتى انهزمت هند بنت عتبة وصواحبها متحيرات ما دونهن مانع ولا دافع، وحتى لو شاء المسلمون لأخذوهن، ودخل المسلمون عسكر المشركين.

---

(١) المراد بـ «طارق»: النجم، والنمارق: واحدها نمرقة، وهى الوسادة الصغيرة والطنفسة فوق الرمل.

(٢) فى تاريخ الطبرى و [الطبقات الكبرى] و [نهاية الأرب] «فراق غير وامق» ـ والوامق: المحب ـ ولكن المؤلف ذكرها فى الأصل: «فراق غير مالق».. وهو خطأ.

وقاتل حمزة عم النبي ﷺ يومئذ قتالا شديدا، وقتل أرطاة [1] حامل لواء المشركين إلى أن قتل، ضربه وحشي عبد جبير بن مطعم، وكان حبشيا، بحربة، فقتله، وكان حمزة مشغولا عنه بقتال سباع بن عبد العزى، وفي قتل وحشي حمزة يقول حسان:

ما لشهيد بين أرماحكم   شلت يدا وحشي من قاتل

وقتل أيضا مصعب بن عمير حامل لوائه ﷺ، فظن قاتله أنه رسول الله ﷺ، فقال لقريش: إني قتلت محمدا، وشاع ذلك، وانتهى النضر بن أنس إلى جماعة من الصحابة، وقد دهشوا، وقالوا: قُتل رسول الله ﷺ فقال: فما تصنعون في الحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه، فاجتهدوا في القتال. ثم إن كعب بن مالك الشاعر عرف رسول الله ﷺ فنادى بأعلى صوته يبشر الناس ورسول الله ﷺ يقول له أنصب فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشِّعب، فيهم أبو بكر وعمر وعلي والزبير والحارث بن الصِّمة الأنصاري وغيرهم، وأدركه أُبيّ بن خلف في الشِّعب فتناول ﷺ الحربة من الحارث بن الصِّمة وطعنه بها في عنقه فكرّ أبي بن خلف منهزما، وقال له المشركون: ما بك من بأس!! فقال: والله لو بصق على لقتلني، فمات بسرف وهم قافلون. وقال المصطفى ﷺ اشتد غضب الله على رجل قتل نبيا أو قتله نبي، فمات عدو الله في مرجعهم إلى مكة.

وكان أبو عزة الجمحي، أحد رؤساء حزب المشركين، وقع أسيرا في بدر، فمن عليه رسول الله ﷺ وأحلفه أن لا يُكثِّر عليه جمعا، وأرسله بغير فدية، فلما كانت غزوة أحد طلبه رؤساء قريش ليتوجه معهم للحرب فامتنع من النفوذ لما وجهوه إليه، وقال: إن بلاء محمد عندي حسن، أطلقني يوم بدر، فلم يزالوا به حتى خرج معهم، فأسر يوم أحد، فضرب عنقه.

وكان معاوية بن الغيرة بن أبي العاص، الذي جدع أنف حمزة ومثَّل به فيمن مثل، قد انهزم يوم أحد فمضى على وجهه فبات قريبا من المدينة، فلما أصبح

(1) هو أرطاة بن شرحبيل.. وفي [نهاية الأرب] - جـ١٧ ص ٩١ - أن قاتله هو علي بن أبي طالب أما صاحب لواء المشركين الذي قتله عثمان بن أبي طبحة.

دخلها فأتى منزل عثمان بن عفان بن أبي العاص فضرب بابه، فقالت له امرأته، أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، ليس هو ههنا: فقال ابعثى إليه فإن له عندى ثمن بعير ابتعته منه عام الأول وقد جئته به، فأرسلت إليه، وهو عند رسول الله ﷺ، فلما جاء قال لمعاوية: أهلكتني ونفسك، ما جاء بك؟ قال: يا ابن عم، لم يكن أحد أقرب إليَّ ولا أمس رحما بى منك، فجئتك لتجيرنى، فأدخله عثمان داره، وصيره فى ناحية منها، ثم خرج إلى رسول الله ﷺ ليأخذ له منه أمانا، فسمع رسول الله ﷺ أن معاوية بالمدينة وقد أصبح بها، وقال: اطلبوه، فقال بعضهم: ما كان ليَعْدُوَ منزل عثمان، فاطلبوه به، فدخلوا منزل عثمان فأشارت أم كلثوم إلى الموضع الذى صيره عثمان فيه فاستخرجوه من تحت حمارة لهم، فانطلقوا به إلى النبى ﷺ، فقال عثمان حين رآه: والذى بعثك بالحق ما جئت إلا لأطلب له الأمان، فهبه لى، فوهبه له، وأجَّله ثلاثا، وأقسم لئن وجد بعدها بشئ من أرض المدينة وما حولها لُيقْتَلنَّ، وخرج عثمان فجهزه، واشترى له بعيرا، وقال: ارتحل. وسار رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد، وأقام معاوية إلى اليوم الثالث ليعرف أخبار النبى ﷺ ويأتى بها قريشا، فلما كان اليوم الرابع قال ﷺ إن معاوية قد أصبح قريبا، لم ينفذ، فاطلبوه واقتلوه، وأصابوه على ثمانية أميال من المدينة، وقد أخطأ الطريق، فأدركوه، وكان اللذان أسرعا فى طلبه زيد بن حارثة وعمار بن ياسر فرمياه بالنبل حتى مات، ومعاوية هذا أبو عائشة بنت معاوية أم عبد الملك بن مروان.

ولما قتل مصعب أعطى النبى ﷺ الراية لعلى بن أبى طالب، وانهزم المشركون، فطمعت الرماة فى الغنيمة، وفارقوا المكان الذى أمرهم النبى ﷺ بملازمته، فأتى خالد مع خيل المشركين من خلف، وصرخ ابن قميئة: إن محمدا قتل، وانكشف المسلمون، وأصاب فيهم العدو وكان يوم بلاء على المسلمين، وصلى رسول الله ﷺ الظهر يومئذ قاعدا وكان عدة الشهداء منهم سبعين رجلا، وعدة قتلى المشركين اثنان وعشرون رجلا، ووصل العدو إلى رسول الله ﷺ وأصابته حجارتهم حتى وقع وأصيبت رباعيته وشج فى وجهه وكُلمَت شفتاه، والذى كسر رباعيته عتبة بن أبى وقاص، والذى شج وجهه عبد الله بن شهاب

الزهري في جبهته، وجعل الدم يسيل على وجهه الشريف، وهو يقول: كيف تفلح أمة خضبت وجه نبيها؟! اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون! وإلى ذلك أشار من قال:

وأهلك قومه في الأرض نوح بدعوة: لا تذر ربي، فأفني
ودعوة أحمد: رب اهد قومي فهم لا يعلمون كما علمنا

فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ (آل عمران: ١٢٨) وضرب بالسيف على شقه الأيمن فجرح وجنته ودخلت حلقتان من المغفر في وجهه الشريف من الشجة، ونزع أبو عبيدة عامر بن الجراح إحدى الحلقتين من وجهه ﷺ فسقطت ثنية أبي عبيدة الواحدة ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى.

ومثلت هند وصواحبها بالقتل من الصحابة، فجَدَعْنَ الآذان والأنوف، وبقرت هند عن كبد حمزة ولا كتها، وصعد زوجها أبو سفيان على الجبل وصرخ بأعلى صوته: الحرب سجال، يوم بيوم، يوم أحد بيوم بدر، اعل هبل!! أي زد علوا، فقال ﷺ قم ياعمر فأجبه، فقال: الله أعلى وأجل لا سواه، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. وفي الصحيح أن أبا سفيان قال: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم! فقال النبي: قولوا له: الله مولانا ولا مولى لكم، ثم نادى أبو سفيان عند منصرفه: إن موعدكم بدر العام المقبل، فقال رسول الله ﷺ لرجل أصحابه: قل: نعم، بيننا وبينكم موعد.

ثم التمس رسول الله ﷺ عمه حمزة فوجده وقد بُقر بطنه وجُدع أنفه وأذناه، فقال: «لئن أظهرني الله عز وجل على قريش لأمثلن بثلاثين منهم». فلما رأى المسلمون حزنه وغيظه على ما فُعل بعمه قالوا: لنمثلن بهم إن أظهرنا الله عليهم مُثْلة ما يمثل بها أحد، فأنزل الله تعالى: ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ** ﴾ (النحل: ١٢٦) الآية، فكفر عن يمينه ونهى عن المثلة.

وروى ابن شاذان عن ابن مسعود: ما رأينا المصطفى باكيا قط أشد من بكائه على

حمزة، وصعد في القبلة ثم وقف على جنازته وبكى حتى كاد يغشى عليه، يقول: يا حمزة، يا عم، يا أسد الله وأسد رسوله، يا حمزة، يا فاعل الخيرات، ياحمزة يا كاشف الكربات! وليس هذا نوح ولا تعدد بشمائل، بل إخبار بفضائله وشمائله، ثم أمر فسجى ببردة، ثم أتى بالقتلى يوضعون إلى حمزة، فصلى عليهم وعليه. وهذا دليل لأبى حنيفة، فإنه يرى الصلاة على الشهيد، خلافا للشافعي وأحمد رحمهم الله تعالى، ثم أمر بحمزة فدفن واحْتُمل أناس من المسلمين إلى المدينة فدفنوا بها، ثم نهاهم ﷺ عن مثل ذلك، وقال: ادفنوهم حيث صرعوا، ويقال دفن معه في قبره عبد الرحمن بن جحش.

وأصيبت عين قتادة فردها رسول الله ﷺ بيده، فكانت بعد ذلك أحسن عينيه، وكانت إصابتها بسهم خرجت بحدقتها على وجنته وهو يقى السهام بوجهه عن وجه رسول الله ﷺ واستشهد أنس بن النضر، عم أنس بن مالك، وقد أبلى بلاء حسنا، وفيه نزلت ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأحزاب: ٢٣) الآية.

ونزل في شهداء أحد، كما رواه الحاكم، وكانوا سبعين رجلا، أربعة من المهاجرين: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وعثمان بن شاس، وعبد الله بن جحش، وسائرهم من الأنصار قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** - (أي لأجل دينه، والخطاب للنبى ﷺ، أو لكل أحد) - **أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ (آل عمران: ١٦٩) من ثمار الجنة، قال البيضاوى: وقيل نزلت في شهداء بدر، وكانوا أربعة عشر رجلا، ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين، قال القاضي زكريا: وهو غلط، إنما نزل فيهم سورة البقرة.

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت للنبى ﷺ هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيته يوم العقبة، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا مَلَك الجبال، وقد

بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت، إن شئت أطبقتُ عليهم الأخشبين! قال النبي ﷺ : أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به».
متفق عليه.

فكان دأبه ﷺ الصفح الجميل، وكان يجعله شكراً للنصر والظفر، كما قال عند فتح مكة لأهلها، وكانوا قد أخرجوه منها وهي أحب البقاع إليه: «أقول لكم كما قال أخي يوسف ﴿ **لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ (يوسف: ٩٢)».

وكان ممن استشهد في أُحُد سعد بن الربيع، وأخذ ميراثه أخوه، وكان لسعد ابنتان، وكانت امرأته حاملاً، وكانت المواريث على مواريث الجاهلية، ولم تكن الفروض نزلت، فنزلت على رسول الله ﷺ حينئذ، فدعا أخا سعد فقال: اعط ابنتي أخيك ثلثي الميراث وادفع إلى زوجته الثمن والباقي لك، ولم يورث الحمل يومئذ، ثم ورث بعد ذلك.

* * *

قال النووي في [الروضة]: إن تحريم الخمر كان بعد غزوة أحد، وذكر أرباب السير أنه كان في حصار بني النضير في ربيع الأول سنة أربع.

ولم يباشر ﷺ القتال في غزوة من الغزوات إلا في أحد، ولم يقاتل معه ﷺ من الملائكة إلا في بدر وإلا في حنين، قيل وأحد، ولم يرم ﷺ بالحصباء في وجوه القوم في شيء من الغزوات إلا في هذه الثلاث، على خلاف في الثالثة، ولم يجرح، أي لم يصبه ﷺ جراحة في غزوة من الغزوات إلا في أحد، ولم ينصب ﷺ المنجنيق في غزوة من الغزوات إلا في غزوة الطائف، وفيه أنه نصبه على بعض حصون خيبر، ولم يتحصن بالخندق في غزوة إلا في غزوة الأحزاب.

غزوة حمراء الأسد

(وفى هذه السنة الثالثة من الهجرة كانت غزوة حمراء الأسد [(١)])

وذلك أنه لما كان صبيحة يوم أحد، وهو سادس عشر شوال من هذه السنة، أذن مؤذن الرسول ﷺ بالخروج لطلب العدو، وأن لا يخرج إلا من حضر معه بالأمس، فخرج وخرجوا على ما بهم من الجهد والجراح، حتى كان بأسيد بن حضير تسع جراحات يريد أن يداويها فلما سمع النداء ترك المداواة سمعًا وطاعة لله ورسوله، وسار عليه الصلاة والسلام متجلدًا مرهبًا للعدو، وانتهى إلى حمراء الأسد، وكان المشركون قد صاروا إليها من أُحد، ودفع لواءه، وهو معقود لم يحل، إلى عليّ أو إلى أبى بكر، إظهاراً للقوة وإرهابًا للعدو، وأقام بها ثلاثًا، ومر برسول الله ﷺ بحمراء الأسد سعيد بن أبى معبد الخزاعى سائرًا إلى مكة ولقى أبا سفيان وكفار قريش بالروحاء [(٢)] فأخبرهم بخروج رسول الله ﷺ فى طلبهم، فقالوا: لقد أجمعنا الكرة على المسلمين لنستأصل بقيتهم، فقال سعيد الخزاعى: إنى أنهاكم عن ذلك، فلا ترجعوا إلى المدينة، فثبط عزم أبى سفيان عن الرجعة، وكَبُر عليهم خروج رسول الله ﷺ، وقد قذف الله فى قلوبهم الرعب، فانصرفوا سراعًا على ظفر منهم حيث لم يأمنوا أن تكون الدولة للمسلمين حتى أتوا مكة، فلما بلغ النبى ﷺ ذلك قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، فأنزل الله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ** ﴾ (آل عمران: ١٧٢) الآية. وكان خليفته على المدينة ابن أم مكتوم.

(١) وهو جبل بناحية العقيق، بينه وبين المدينة ثمانية أميال. [الطهطاوى].

(٢) بينها وبين المدينة نحو أربعين ميلاً، وقيل ستة وثلاثين، وقيل ثلاثين. انظر [مراصد الاطلاع].

الفصل الرابع

(فى ظواهر السنة الرابعة من الهجرة وما فيها من الغزوات)

غزوة بنى النضير

(وفى هذه السنة كانت غزوة بنى النضير)

ونقل عن النووى فى [الروضة] أن غزوة بنى النضير كانت سنة ثلاث، وأن تحريم الخمر كان بعد غزوة أحد، وكلامه يميل إلى أن تحريم الخمر كان سنة ثلاث. ورجح الدمياطى أيضًا فى سيرته أن التحريم كان فى السنة الثالثة، والقول بأن التحريم كان فى السنة الرابعة مشهور، وهناك قول آخر راجح وهو أنها كانت فى غزوة الحديبية سنة ست من الهجرة، بدليل أن أنسًا كان ساقيًا لها ولما ورد النهى فى ذلك أراقها، ولو كان ذلك سنة أربع لكان أنس يصغر عن ذلك، ويرجحه قولهم: إن تحريم الخمر كان قبل الفتح، وربما يُجْمَع بين الأقوال بما رواه أحمد عن أبى هريرة أنها حرمت ثلاث مرات، قال: قدم المصطفى المدينة وهم يشربونها ويأكلون الميسر، فسألوه عنهما، فأنزل الله تعالى ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ** ﴾ (البقرة: ٢١٩) الآية، قال الناس: ما حرم علينا، إنما قال ﴿ **فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** ﴾، وكانوا يشربون الخمر حتى صلى يومًا رجل من المهاجرين وأم أصحابه فى المغرب فخلط فى قراءته فأنزل الله تعالى الآية التى فى النساء ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** ﴾ (النساء: ٤٣)، وكان الناس

يشربونها في وقت دون وقت، ثم نزلت الآية التي في المائدة بالتأكيد وهي قوله تعالى: ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ** ﴾ (المائدة: ٩٠) إلى قوله تعالى ﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾ قالوا: انتهينا ربنا.

* * *

قال المفسرون: لما أنزل الله تعالى ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ** ﴾ (المائدة: ٨٧) وقوله ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا** ﴾ (الأنفال: ٦٩) وقوله تعالى ﴿ **وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا** ﴾ (النحل: ٦٧) وكانت الخمر والميسر مما يستطاب عندهم، بين الله في هذه الآية أن الخمر والميسر غير داخلين في جملة الطيبات والحلال، بل هما من جملة المحرمات، وروى أبو ميسرة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: اللهم بَيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية التي في سورة البقرة ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ** ﴾ الآية، فَدُعِيَ عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بَيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية التي في النساء ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** ﴾ الآية، فَدُعِيَ عمر فقرئت عليه، ثم قال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا فنزلت الآية التي في المائدة ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾. فَدُعِي عمر فقرئت عليه فقال: قد انتهينا. أخرجه الترمذي من طريقتين، وقال: رواية أبي ميسرة هذا أصح، وأخرجه أبو داود والنسائي.

وروى مصعب بن سعد عن أُبَيّ قال: صنع رجل من الأنصار طعامًا، فدعانا فشربنا، وذلك قبل أن تحرم الخمر، حتى انتشينا، فتفاخرت الأنصار وقريش، فقالت الأنصار: نحن أفضل منكم، فقال سعد بن أبي وقاص: المهاجرون خير منكم، فأخذ رجل من الأنصار لَحْيَ[1] جمل فضرب رأس سعد فشجه موضحة،

---

(١) اللحي: عظم الحنك الذي عليه الأسنان.

فأتى سعد لرسول الله ﷺ فأخبره، فنزلت هذه الآية ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ**﴾ إلى قوله ﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾.

وقال ابن عباس: نزل تحريم الخمر فى قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا حتى ثملوا، وعبث بعضهم ببعض، فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ولحيته فيقول: فعل بى هذا أخى فلان! وكانوا أخوة ليس فى قلوبهم ضغائن، فأنزل الله تحريم الخمر فى هذه الآية ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ**﴾ إلى قوله ﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾، وقوله ﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾ لفظة استفهام، ومعناه الأمر، أى انتهوا، وهذا من أبلغ ما ينهى به، لأنه تعالى ذم الخمر والميسر وأظهر قبحهما للمخاطبين، كأنه قيل: قد تلى عليكم فيها من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم منتهون مع هذه الأمور أم أنتم على ما كنتم عليه، كأنكم لم توعظوا، أو لم تنزجروا؟

وفى هذه الآية دليل على تحريم شرب الخمر، لأن الله تعالى قرن الخمر والميسر بعبادة الأصنام، وعدد أنواع المفاسد الحاصلة بهما، ووعد بالفلاح عند اجتنابهما، وقال فى آخر الآية ﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾، ومعناه الأمر. وقال بعضهم: الحكمة فى وقوع التحريم على هذا الترتيب أن القوم كانوا ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم به كثيراً، فعلم الله تعالى أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق عليهم، فاستعمل فى التحريم هذا التدريج والرفق.

* * *

وسبب تلك الغزوة على بنى النضير أنه ﷺ ذهب إليهم ليستعين بهم فى دية رجلين من بنى كلاب بن ربيعة موادعين له كان عمرو بن أمية الضمرى قتلهما غلطًا فى رجوعه من بئر معونة ظانًا أنهما حربيان، وكان النبى عقد لهما أمانًا ولم يُشْعِر به ضمرة، وكان ﷺ قد تعاهد مع بنى النضير على ترك القتال، وعلى أن يعينوه فى الديات، فحضر إليهم وكان معه من أصحابه جماعة دون العشرة، منهم أبو بكر وعمر وأسيد بن حضير، فأجلسوهم بجانب دار من بيوتهم، وأرادوا الغدر به

ﷺ، وأمروا أن يصعد رجل إلى الجدار ويلقى عليه رحى، فلما علم ذلك انصرف عنهم إلى المدينة، حيث كان ذلك منهم نقضًا للعهد، وأرسل إليهم أن أخرجوا من بلدى، لأن ضياعهم كانت من أعمال المدينة، فأبوا الخروج وأذنوا بالمحاربة، فتجهز إليهم وغزاهم وحاصرهم فى ربيع الأول.

وبعد مضى ليال من الحصار سألوه ﷺ أن يجليهم إلى خيبر على أن لهم ثلث ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، ولرسول الله ﷺ نخلهم وأرضهم، فأجابهم إليه، فخرجوا ومعهم الدفوف والمزامير تجلدا، فمضى من بنى النضير إلى خيبر ناس، وناس إلى الشام، وبقيت أموالهم فيئًا لرسول الله ﷺ خالصة له دون المسلمين، لأن المسلمين لم يوجفوا[1] عليها بخيل ولا ركاب، يقسمها كيف شاء وحيث شاء إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة فذكرا فَقْرًا فأعطاهما منه شيئًا.

ويرى أن النبى ﷺ لما ظهر على أموال بنى النضير قال للأنصار: «إن إخوانكم من المهاجرين ليست لهم أموال، فإن شئتم قسمت هذه الأموال بينكم وبينهم جميعًا، وإن شئتم أمسكتم أموالكم فقسمت هذه فيهم»، قال السعدان: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة: بل أقسم هذه فيهم، وأقسم لهم من أموالنا ما شئت! فقال بقية الأنصار مثل ذلك تبعًا للسعدين، ففرح ﷺ وقال: «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»، فأنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ (الحشر: ٩) أى فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون. فلهذا قسم ﷺ الأموال على المهاجرين بحسب ما اقتضته المصلحة، فعين لأبى بكر وعبد الرحمن بن عوف وصهيب وأبى سلمة ابن عبد الأسد المخزومى ضياعًا معروفة، ومن الأنصار أعطى سهل بن حنيف وأبا دجانا شيئًا لفقرهما.

وفى بنى النضير نزلت سورة الحشر، التى سماها ابن عباس، رضى الله عنه، سورة النضير، كما رواه سعد بن جبير.

* * *

---

(١) وجف الفرس أى عدا عدوًا سريعًا، والمعنى أنهم لم يحاربوا ويقتحموا هذه الحصون فتحًا.

وفى سنة أربع قُصرَت الصلاة الرباعية إلى ركعتين فى السفر، وهذا مبنى على أن هذه الصلاة أربعة تَامة ثم قصرت فى السفر، وقيل إنها فرضت فى الحضر أربعًا وفى السفر ركعتين، وهو قول ابن عباس، رضى الله عنه، قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم فى الحضر أربعًا وفى السفر ركعتين. رواه مسلم وغيره، كذا فى [المواهب اللدنية] وفى [الوفا]: الذى عليه الأكثر أن الصلاة نزلت بتمامها من بدء الأمر، والله أعلم. وقد سبق التنويه إلى ذلك فى (الفصل الأول) من (الباب الثانى) فى مبعثه ﷺ.

* * *

وفى هذه السنة الرابعة نزلت آية التيمم، وهى قوله تعالى: ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ (النساء: ٤٣) قال فى [معالم التنزيل]: وكان بدء التيمم ما روى عن عائشة، قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيدا ونزل الجيش انقطع عقْد لى، فأقام رسول الله ﷺ وأقام الناس معه، وليس معهم ماء، فأتى الناس إلَى أبى بكر فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة برسول الله ﷺ وبالناس معه؟ فجاء أبوبكر رضى الله عنه، ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذى، قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء! فقالت عائشة: فعاتبنى أبو بكر، ثم قال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعننى بيده، فلا يمنعنى من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذى، فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله عز وجل آية التيمم فتيمموا، فقال أسيد بن حضير، وهو أحد النقباء، وكان رئيسًا فى الجاهلية والإسلام: ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر، قالت عائشة: فبعثنا البعير [1] الذى كنت عليه فوجدنا العقْد تحته.

والتيمم من خصائص هذه الأمة، لتسهل عليهم أسباب العبادة، ويدل على ذلك ما يروى عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت الأرض كلها لنا مسجدًا، وجعلت تربتها لنا طهورًا إذا لم نجد الماء». أخرجه مسلم.

---

(١) وقوله: فبعثنا البعير، أى أثرناه. [الطهطاوى].

وفى السنة الرابعة فى ذى القعدة كان رجم اليهوديين اللذين زنيا، ونزل قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (المائدة: ٤٧) وفى [العمدة] عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن امرأة منهم ورجلاً زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم، ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم، وجعل يقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدقت يا محمد، فأمر بهما النبى ﷺ فرجما. قال: فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقيها الحجارة! والذى وضع يده على آية الرجم عبد الله بن صوريا.

واختلف العلماء فى أن الإسلام هل هو شرط فى الإحصان أم لا فذهب الشافعى إلى أنه ليس شرطًا، فإذا حكم الحاكم على الذمى المحصن رجمه، ومذهب أبى حنيفة أن الإسلام شرط فى الإحصان، واستدل الشافعى بهذا الحديث ورجم النبى ﷺ اليهوديين، واعتذر السادة الحنفية عنه بأن قالوا رجمهما بحكم التوراة، فإنه سألهم عن ذلك، وأن ذلك عند قدوم النبى ﷺ المدينة، وقالوا: إن حد الزنا نزل بعد ذلك، فكان ذلك الحديث منسوخًا. وهذا يحتاج إلى تحقيق التاريخ، أعنى القول بالنسخ. وقوله: فرأيت الرجل يحنى على المرأة، الجيد فى الرواية: يَجْنأ[1] ـ أى يميل، ومنه الجنأ ـ وفى كلام بعضهم ما يشعر بأن اللفظة بالحاء المهملة، يقال: حنى الرجل يحنى حنوًا إذا أكب على الشىء.

فتحصل من هذا أن السادة الحنفية يشترطون فى الرجم الإسلام، وقد استدلوا على ذلك بما فى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ رجل من الناس، وهو فى المسجد، فناداه: يا رسول الله، إنى زنيت، فأعرض عنه النبى ﷺ فتنحى لشق وجهه الذى أعرض قبله فقال: يا رسول الله، إنى زنيت، فأعرض عنه حتى ثنى ذلك أربع مرات، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبى ﷺ

---

(١) بفتح المثناة تحت، وسكون الجيم، وفتح النون، والهمز. [الطهطاوى].

فقال: «أبك جنون؟» قال: لا يا رسول الله، فقال: «أحصنت؟» قال: نعم يا رسول الله، قال: «اذهبوا فارجموه». انتهى. والرجل ماعز بن مالك رضى الله عنه.

ويروى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: كنت فيمن رجمه، فرجمناه بالمصلى، فلما أذْلَقَتْه[1] الحجارة هرب فأدركناه بالحرة فرجمناه. ويستدل للرجم أيضًا بما روى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى أنهما قالا: إن رجلا من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أنشدك الله إلا ما قضيت بيننا بكتاب الله تعالى فقال الخصم الآخر، وهو أفقه منه، نعم، فاقض بيننا بكتاب الله تعالى وائذن لى، فقال رسول الله ﷺ قل، قال: إن ابنى كان عسيفا على هذا فزنى بامرأته، وإنى أخبرت أن على ابنى الرجم فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبرونى إنما على ابنى جلد مائة وتغريب عام وإن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى، أما الوليدة والغنم فرد عليك، وأما ابنك فإن عليه جلد مائة وتغريب عام»، ثم قال لرجل من أسلم: «اغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها». قال فغدا إليها فاعترفت، فرجمت.

قوله: إلا قضيت بيننا بكتاب الله، تطلق هذا اللفظة على القرآن خاصة، وقد يطلق كتاب الله على حكم الله مطلقا، والأولى حمل هذه اللفظة على هذا، لأنه ذكر فيه التغريب، وليس ذلك منصوصا فى كتاب الله، إلا أن يوجه ذلك بواسطة أمر الله بطاعة الرسول وأتباعه، وفى قوله: ائذن لى، حسن الأدب فى المخاطبة للأكابر، وقوله: كان عسيفا، أى أجيرا، وقوله: فافتديت منه، أى من الرجم، وقوله: رد عليك، أى مردود عليك، أطلق اسم المصدر على اسم المفعول.

وقال فى [التبيين]: وجه الرجم لأنه ﷺ أمر برجم الغامدية وماعز وكانا محصنين، وأخرج ماعز إلى الحرة، وقيل إلى البقيع، ففر إلى الحرة، فرجم بالحجارة حتى مات.

---

(١) بالدال المهملة والفاء، أى أوجعته وأوهنته [الطهطاوى].

ومما رواه الجماعة أنه عليه الصلاة والسلام رجم المرأة التى زنى بها العسيف، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، وزنا بعد إحصان، وقتل النفس بغير حق». وقال عمر رضى الله عنه، وهو على المنبر: مما أنزل فى القرآن: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، وسيأتى قوم ينكرون ذلك، ولولا أن الناس يقولون: إن عمر زاد فى كتاب الله، لكتبتهما فى حاشية المصحف. وعليه إجماع الصحابة رضى الله عنهم، فوصل إلينا إجماعهم بالتواتر، ولا معنى لإنكار (الخوارج) الرجم، لأنهم ينكرون القطع برجم النبى ﷺ فيكون مكابرة وعنادا، وقوله تعالى ﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ** ﴾ (النور: ٢) عام فى المحصن وغيره، إلا أنها نسخت فى المحصن بما ذكر، فبقيت معمولا بها فى غيره. ويزاد على المائة لغير المحصن بالسنة تغريب عام، والرقيق على النصف مما ذكر، ولا رجم عليه، لأنه لا يتنصف. وفى [البحر الرائق]: قوله تعالى: ﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ** ﴾ انتسخ فى حق المحصن فبقى فى حق غيره معمولا به. ويكفينا، فى تعيين الناسخ القطع برجم النبى ﷺ، فيكون من نسخ الكتاب بالسنة الفعلية، لأنه ﷺ رجم ماعزا، وكان قد أحصن، وثبوت الرجم عن رسول الله ﷺ متواتر المعنى.

غزوة ذات الرِّقاع

(وفى هذه السنة، فى جمادى الأولى، كانت غزوة ذات الرقاع)

وقال النووى فى [الروضة]: إنها كانت لعشر خلون من المحرم سنة خمس، والرِّقاع - بكسر الراء - جبل سميت به، لأن فيه بقعا حمرا وسودا، أو لأن خيلهم كان بها سواد وبياض، أو لأن صلاة الخوف كانت بها فسميت بذلك لترقيع الصلاة فيها، أو لأنها نقرت فيها أقدام الصحابة وسقطت أظفارهم حتى كانوا يلفون على أرجلهم الخرق، ويقال للخرق رقاع. وتسمى غزوة الأعاجيب لما وقع فيها من الأمور العجيبة، وغزوة بنى محارب وبنى ثعلبة.

وذلك أنه لما بلغه ﷺ أن بني محارب وبني ثعلبة أجمعوا جموعا من غطفان لمحاربته خرج في أربعمائة من أصحابه، رضي الله عنهم، فغزا نجدا يريد بني محارب وبني ثعلبة، ولما بلغ ﷺ نجدا لم يجد بها أحدا غير نسوة فأخذهن، وفيهن جارية وضيئة، ثم لقي جمعا من غطفان، فتقارب الجمعان، ولم يكن بينهما حرب حيث خاف المسلمون أن يغير المشركون عليهم وهم غافلون، حتى صلى النبي ﷺ بالناس صلاة الخوف، وكانت أول صلاة للخوف، فهم بهم المشركون فقال قائلهم: دعوهم فإن لهم صلاة، التي هي الظهر، وهي أحب إليهم من أبنائهم! فنزل جبريل عليه السلام عليه ﷺ فأخبره، فصلى صلاة العصر صلاة الخوف، صلى بطائفة ركعتين وبالأخرى أخريين، ونزل بها القرآن وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ (النساء: ١٠٢) الآية وكفى الله المؤمنين شرهم بعد أن تعرض لهم من المشركين من يقتلهم فلم يقدروا. فمن ذلك أنه جاء رجل من غطفان وهو غورث[1] فقال: يا محمد، أريد أن أنظر إلى سيفك هذا، وكان محلى بفضة، فدفعه إليه، فاستله وهم به، فكبته الله، ثم قال: يا محمد، أما تخافني؟ فقال له: ما أخاف منك! ثم رد سيفه إليه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ (المائدة: ١١) والمفسرون على أن هذه الحادثة كانت في غزوة أنمار المتقدمة، ولا مانع من تعدد النزول لتعدد الأسباب، كما استظهره بعضهم.

ورجع ﷺ إلى المدينة، وكانت مدة غيبته خمس عشرة ليلة.

غزوة بدر الموعد

(وفي هذه السنة كانت غزو بدر الموعد، وتسمى غزوة بدر الصغرى، ويقال الصفراء بالفاء وبدر الثانية والثالثة)

وسميت بدر الموعد لأن أبا سيفان نادى يوم أحد: الموعد بيننا وبينكم بدر العام المقبل، فخرج ﷺ ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه، فأقاموا ببدر ثمانية أيام،

(١) بالغين المعجمة والثاء المثلثة. [الطهطاوي].

مدة الموسم، وكان أبو سفيان قد خرج من مكة فى ألفين من قريش حتى نزل خارج مكة، وقد قام به رعب من النبى ﷺ، فجمع قريشا وقال لهم: إنه لا يصلح هذا العام المجدب لقتال محمد، فارجعوا، ورجعوا، وباع المسلمون ما كان معهم من التجارة وربحوا ربحا كثيرا، وفيه نزل ﴿ **فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ** ﴾ (آل عمران: ١٧٤) الآية، وانصرف ﷺ إلى المدينة.

وفيها ولد الحسين رضى الله عنه.

غزوة الخندق

(وفى هذه السنة كانت غزوة الخندق، ويقال لها غزوة الأحزاب)

وهى الغزوة التى ابتلى الله تعالى فيها عباده المؤمنين، وثبت الإيمان فى قلوب أوليائه المتقين، وأظهر ما كان يبطنه أهل النفاق والشقاق المعاندين.

ولم تكن هذه الغزوة فى شوال أو فى ذى القعدة من السنة الخامسة كما ذكره أرباب السير، بل حقق النووى فى [الروضة] أن الأصح أنها كانت فى الرابعة، ويقويه أن ابن عمر رضى الله عنه يقول: ردنى رسول الله ﷺ يوم أُحد وأنا ابن أربع عشرة سنة، ثم أجازنى يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة، فليس بينهما إلا سنة واحدة، وغزوة أحد كانت سنة ثلاث، فتكون غزوة الخندق سنة أربع، فهى قبل غزوة «دومة الجندل».

وقال الحافظ ابن حجر: ولا حجة فيه، لاحتمال أن يكون ابن عمر رضى الله تعالى عنه فى أحد كان أول ما طعن فى الرابعة عشر، وكان فى الأحزاب، التى هى غزوة الخندق، قد استكمل الخمسة عشر، وحينئذ يكون بين أحد والخندق سنتان، كما هو الواقع، لا سنة واحدة، فعلى ذلك لا مانع أنها كانت فى الخامسة [1].

---

(١) فى طبقات ابن سعد ـ جـ ٢ ق ١ ص ٤٧ ـ أنها كانت فى ذى القعدة سنة ٥ هـ وتبعه النويرى فى [نهاية الأرب] ـ جـ ١٧ ص ١٦٦ ـ وفى [الدرر] أنها كانت فى شوال سنة ٥ هـ ـ ص ١٧٩ ـ أما البخارى =

وسبب هذه الغزوة أنه لما وقع إجلاء بنى النضير من أما كنهم سار منهم جمع من كبرائهم، منهم سيدهم حُيَيّ بن أخطب، أبو صفيه أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها، وعظيمهم سلام بن مشكم، ورئيسهم كنانة بن أبى الحُقَيق وهَوذة[1] بن قيس إلى أن قدموا مكة على قريش يدعونهم ويحرضونهم ليحزبوا الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ وكانت الأحزاب عشرة آلاف، وكان المدبر لأمرها والقائم بشأنها أبو سفيان، وأنزل الله تعالى فى ذلك صدر سورة الأحزاب.

فلما بلغه ﷺ ما أجمعوا عليه ندب الناس وأخبرهم خبر عدوهم، وشاورهم فى أمرهم، وقال لهم: هل ننزل من المدينة؟ أو نكون فيها؟ فأشار عليه سلمان الفارسى، رضى الله تعالى عنه، بالخندق، حيث قال: يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا عليهم، فأمر ﷺ بحفر الخندق حول المدينة.

وعند ذلك ركب رسول الله ﷺ فرسًا له، ومعه عدة من المهاجرين والأنصار، وأمرهم بالجد، ووعدهم النصر إن صبروا، فَعَمَلُ الخندق من مكايد الفرس لا من مكايد العرب، ولما نظر المشركون إلى الخندق قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها!

وفى أمره ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، بمعرفة سلمان الفارسى، وفى التماس عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أبى لؤلؤة، غلام المغيرة، أن يعمل له رحى تطحن بالريح دلالة على استحباب حصول الإسلام على أدوات الأشياء النافعة الموجودة بالممالك الأجنبية كما هو جار الآن بالبلاد الإسلامية الراغبة فى تجديد المنافع للحرب والسلم.

وعمل ﷺ بنفسه فى حفر الخندق، ولما بدأ ﷺ قال: بسم الله، وبه بُدينا[2]
*ولو عبدنا غيره شقينا * يا حبذا ربا وحب دينا *

= وابن حزم فيقولان إنها كانت سنة ٤ هـ (فى شهر شوال) انظر صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٣٧. طبعة الشعب القاهرة.

(١) فى الأصل: هودة - بالدال المهملة - والصحيح: هوذة - بالذال المعجمة - انظر (الدرر) ص ١٧٩ و(نهاية الأرب) جـ ١٧ ص ١٦٦.

(١) بضم الباء وكسر الدال. [الطهطاوى].

وقال ﷺ، متمثلا بقول ابن رواحة، وهو ينقل التراب وقد وارى الغبار عن جلده بطنه الشريف:

لا هم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

والمشركون قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا [(١)]

يمد بها صوته مكرراً لها: «أبينا، أبينا».

وروى أن حفر الخندق كان فى زمان عسرة ومجاعة، حتى أن الأصحاب رضى الله عنهم كانوا يشدون على بطونهم الحجر من الجهد والجوع الذى بهم، ولبثوا ثلاثة أيام لا يذوقون زاداً، وعن أبى طلحة: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه حجرين! ذكره الترمذى فى الشمائل، ولهذا أشار صاحب البردة بقوله:

وشد من سغب أحشاءه وطوى ... تحت الحجارة كشحا مترف الأدم[(٢)]

وهذا منه ﷺ تعليم للأمة للصبر على الجوع وإلا ففى الحقيقة هو مطعم شبع من فيض مولاه، لأنه كان يطعم ويسقى من ربه، وإنما العادات الظاهرية قد تجرى مجراها ولو فى حق الأنبياء، حتى أنه ﷺ فى الصوم كان يصير كالطاعم الريان مكرمة له ﷺ، وإذا حصل له فى النادر إذاقة جوع فإنما كان ذلك على وجه الابتلاء الذى كان يحصل لإخوانه من الأنبياء والمرسلين، تعظيمًا لثوابهم، وإظهاراً لجواز الأعراض البشرية عليهم صلوات الله وسلامه عليهم.

وعن أنس رضى الله عنه خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار فى غداة باردة، ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

---

(١) يروى ابن سعد هذا البيت هكذا:

إن الأولى لقد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا (جـ ٢ ق ١ ص ٥١)

(٢) الكشح ـ بفتح الكاف ـ من الجسم ما بين السرة ووسط الظهر. والأدم، مفردها: أديم، والمراد الجلد.

اللهم لا خيـر إلا خيـر الآخرة فـبـارك فـى الأنصـار والمهـاجـره

وفى رواية: فأكرم الأنصار والمهاجره. فقالوا مجيبين له:

نحن الـذين بايعـوا مـحـمـدًا على الجـهـاد مـا بقـينـا أبدًا

وفى رواية: ما حيينا أبدًا

ولما خط رسول الله ﷺ الخندق قطع لكل عشرة أربعين ذراعًا، فاختصم المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى، وكان رجلاً قويًا، فقال المهاجرون: سلمان منا ونحن أحق به، وقال الأنصار: سلمان منا ونحن أحق به، فقال رسول الله ﷺ: سلمان منا أهل البيتّ! ولذلك يشير بعضهم:

لقـد رقى سلمـان بعـد رقـه منـزلة شـامـخـة البنيـان

وكـيف لا والمصطفى قـد عـده من أهـل بيـتـه العظيم الشـان

وإنما وقع التخاصم فى سلمان، رضى الله عنه، لأنه كان رجلا قويا يعمل عمل عشرة رجال، وفى رواية كان يحفر كل يوم خمسة أذرع من الخندق فى عمقها أيضًا خمسة أذرع، فعانه [1] قيس بن صعصعة فصرع وتعطل من العمل، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فأمر أن يتوضأ قيس لسلمان ويجمع وضوءه فى ظرف ويغتسل سلمان بتلك الغسالة ويكفى الإناء خلف ظهره، ففعل فنشط فى الحال كما ينشط البعير من العقال، وهو أول مشهد شهده سلمان الفارسى مع رسول الله ﷺ.

ومكث ﷺ فى عمل الخندق خمسة عشر يومًا، وجعل النساء والذرارى فى الآطام [2]، وعلى حصن بعض النساء حسان بن ثابت الأنصارى رضى الله تعالى عنه.

وكان من دأبه أن لا يقتحم المخاوف، إما لمانع حسى كأن تكون يداه لا تطيقان حمل القناة ومسك عنان الجواد، لأنه كان معداً للتحريض على القتال بحماس

---

(١) أى أصابه بالعين.

(٢) الآطام: الحصون، ومفردها أطم - بضم الهمزة والطاء -

شعره الذى هو أحدٌ من آلات النضال، وكانت وظيفته هجاء المشركين وتأييد الدين، ومع ذلك لم ينسبه أحد من أعدائه إلى الجبن ولم يهجه به كما قلت:

حسان كان هماما بطعنة الشعر يوجع
وكيف يجبن شهم وسط الحروب يُشَجِّع

فكان عليه مدار عظيم فى الحروب وقوة الإسلام، وإن لم يخض فى بحر المعامع ولا كان له فيها اقتحام، ومما يدل على ذلك أنه فى بعض الليالى، وهو مع النساء، اتفق أن يهوديًا جعل يطوف بذلك الحصن، فقالت صفية لحسان: لا آمن هذا اليهودى أن يدل على عورة الحصن فيأتون إلينا، فانزل، فاقتله، فقال حسان رضى الله عنه: يا بنت عبد المطلب، قد عرفت ما أنا بصاحب هذا، أى ليس دأبى الحرب! فلما أيست منه أخذت عمودًا ونزلت ففتحت باب الحصن وأتته من خلف فضربته بالعمود حتى قتلته، وصعدت الحصن، فقالت: يا حسان، انزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل، فقال: يا ابنة عبد المطلب، ما لى بسلبه حاجة، يعنى أنه لم يقتله فليس سلبه له، لا أنه جبن عن سلب قتيل كل إنسان يستطيع أن يسلب ما عليه. فمن سمع هذه الحكاية نسبه إلى الجبن الذى لا يليق بحال الصحابة رضوان الله عليهم، مع أن هذا لا ينتج عن جبنه، وإنما لا يدل على شجاعته. وليست الشجاعة فى الحروب صفة لكل إنسان.

وعرض الغلمان وهو يحفر الخندق وكانوا بأجمعهم، من بلغ ومن لم يبلغ، يعملون فيه، فلما التحم الأمر أمر من لم يبلغ خمس عشرة سنة أن يرجع إلى أهله، وأجاز من بلغ خمس عشرة سنة، فممن أجازه عبد الله بن عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدرى، والبراء بن عازب، رضى الله عنهم، وشبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية، فصارت كالحصن، وكان لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة ولواء الأنصار بيد سعد بن عبادة، رضى الله عنهما.

ولما فرغ منه ﷺ أقبلت قريش ومن معها من بنى قريظة وقبائل العرب المشركين، واشتد البلاء حتى ظن المؤمنون كل الظن، وأقام رسول الله ﷺ

والمشركون بعضًا وعشرين ليلة لم يكن بينهم حرب إلا الرمى بالنبل والحصار، وكان جماعة من المنافقين، مثل أوس القيظى ومتابعيه ينفرون جيش الإسلام ويقولون: ارجعوا إلى منازلكم، واعْتلُّوا بأن منازلك عورة خالية عن المحافظة، فإنها خارج المدينة، ونحن نخاف أن يظفر بها جيش العدو، كما أخبر عنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ (الأحزاب: ١٣) وكان المشركون يتناوبون الحرب، لكن الله تعالى لم يمكنهم عبور الخندق، فإن شجعان الصحابة كانوا يمنعونهم بالنبال والأحجار، وكان النبى ﷺ بنفسه فى الليالى يحرس بعض مواضع.

ثم نصر الله نبيه على المشركين، واختلفت كلمتهم، وهبت ريح الصَّبا [1] عاصفة فى ليال شديدة البرد، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ (الأحزاب: ٩) فجعلت الريح تقطع أطناب خيامهم، وتكفىء قدورهم، وتقلبهم على بعض أمتعتهم، ولا تجاوز عسكرهم، وسفت عليهم التراب، ورمتهم بالحصا، وانقلبوا خاسئين، فكان نصره ﷺ بالصَّبا، وكان إهلاك عاد بالدبور، وهى الريح الغربية.

ووقع بينهم الاختلاف، فرحلت قريش مع أبى سفيان، ورحلت غطفان وهم يقولون: الرحيل الرحيل، لا مقام لكم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «الآن نغزوهم ولا يغزونا»! وكان كذلك، حتى فتح مكة.

وظهرت للنبى ﷺ فى حفر الخندق معجزات منها أن كُدْية ـ (أى صخرة) ـ اشتدت عليهم، فدعا بماء وتفل فيه ونضحه عليها فانهالت تحت المساحى. روى البيهقى وغيره أنه ﷺ لما خط الخندق وقطع لكل عشرة أربعين ذراعًا، وأخذوا يحفرون ظهر فيه صخرة عظيمة لم تعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره، فجاءه وأخذ المعول منه فضربها ضربة فصعدها، وبرق منها برق

---

(١) الصبا: ريح مهبها جهة الشرق، أما التى تهب من جهة الغرب فإنها تسمى: ريح الدبور.

أضاء ما بين لابتيها [1] - (أي المدينة) - فكأن بها مصباحًا في جوف بيت مظلم، فكبر وكبر المسلمون، وقال: أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب، أي في بياضها وصفرتها وانضمام بعضها إلى بعض، ثم ضرب الثانية، فقال: أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم، ثم ضرب الثالثة، فقال: أضاءت لي قصور صنعاء، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة على كلها، أي الأراضي التي أضاءت، فأبشروا، فقال المنافقون: ألا تعجبون من محمد يمنيكم أيها المؤمنون ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب أي المدينة - قصور الحيرة، وأنها تفتح لكم، وأنكم إنما تحفرون الخندق من الفَرَق - أي الخوف -؟ ونزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾ (الأحزاب: ١٢).

ومنها أن بنت بشير بن سعد أتت بقليل تمر إلى أبيها وخالها عبد الله بن رواحة، فمرت برسول الله ﷺ فدعاها وقال: «هات ما معك يا بنية» فصبته، في كفيه فما امتلأتا، ثم دعا بثوب فبسط له، وبدد ذلك التمر عليها، ثم قال لإنسان: اصرخ في أهل الخندق أن هلموا إلى الغداء، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه وإنه ليسقط من أطراف الثوب!

ومنها ما رواه جابر قال: كانت عندي شويهة غير سمينة فأمرت امرأتي أن تخبز قرص شعير وأن تشوي تلك الشاة لرسول الله ﷺ، وكنا نعمل في الخندق نهاراً وننصرف إذا أمسينا، فلما انصرفنا من الخندق قلت: يا رسول الله، صنعت لك شويهة ومعها شيء من خبز الشعير، وأنا أحب أن تنصرف إلى منزلي، فأمر رسول الله ﷺ من يصرخ في الناس معه: إلى بيت جابر، وأقبل رسول الله والناس معه، فقدم له ذلك فبرك وسمى الله ثم أكل، وتواردها الناس، كلما صدر قوم جاء قوم، حتى صدر أهل الخندق عنها.

وقال سلمان الفارسي: كنت قريبًا من رسول الله ﷺ وأنا أعمل في الخندق، فتغلظ عليّ الموضع الذي كنت أعمل فيه، فلما رأى رسول الله ﷺ شدة المكان

---

(١) واللابتان: حرتان يكتنفانها، والحرة كل أرض ذات حجارة سوداء كأنها محترقة من الحر. [الطهطاوي].

أخذ المعول وضرب بيديه ضربة لمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب أخرى فلمعت برقة أخرى، ثم ضرب أخرى فلمعت برقة أخرى، قال فقلت: بأبى أنت وأمى! ما هذا الذى لمع تحت المعول؟ فقال: أرأيت ذلك يا سلمان، فقلت: نعم، فقال: أما الأولى فإن الله فتح بها عليّ اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح بها عليّ الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح بها عليّ المشرق!

وفرغ رسول الله ﷺ من عمل الخندق، وأقبلت قريش فى أحابيشها، أى حلفائها، ومن تبعها من كنانة، فى عشرة آلاف، وأقبلت غطفان ومن تبعها من أهل نجد.

وكان بنو قريظة وكبيرهم كعب بن أسيد قد عاهدوه ﷺ، فما زال عليهم أصحابهم من اليهود حتى نقضوا العهد وصاروا مع الأحزاب، فعظم الخطب حتى ظن المؤمنون كل الظن، كما سبق، ونجم النفاق بين بعض المنافقين حتى قال معتب بن قشير: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على أن يذهب إلى قضاء الحاجة! كما قال تعالى: ﴿ **إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ⁽١٠⁾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً** ﴾ (الأحزاب: ١٠) وقال ابن عباس كان الذين جاؤوهم من فوقهم بنو قريظة، ومن أسفل منهم قريش وغطفان. انتهى. والمراد من فوقهم من جهة المدينة، ومن أسفل منهم من جانب أسفل الوادى.

وأقام المشركون بضعًا وعشرين ليلة، ورسول الله مقابلهم، وليس بينهم قتال غير المراماة بالنبل والحصار، كما سبق، ثم خرج عمرو بن عبد وُدّ، من ولد لؤى بن غالب يريد المبارزة، فبرز إليه عليّ رضى الله عنه، فقال عمرو: يا ابن أخى، والله ما أحب أن أقتلك، فقال عليّ: لكننى والله أحب أن أقتلك: فحمى عمرو، ونزل من على فرسه، وسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو عليّ مغضبًا، ثم التقيا، فاستقبله عليّ بدرقته [1] فضربه فقدها وأثبت فيها السيف، وأصاب رأسه فشجه،

---

(١) الدرقة: ترس تتخذ من الجلود.

وضربه عليّ على حبل عاتقه فسقط، وثار العَجَاج، وسمع النبى ﷺ التكبير فعرف أن عليًا قتله، وانكشفت الغَبَرة وإذا عليّ علا صدره يذبحه [1]! ثم أقبل عليّ وجهه يتهلل، ولم يكن فى العرب درع مثل درع عمرو. فخرجت خيولهم منهزمة، وألقى عكرمة بن أبى أبى جهل رمحه يومئذ وهو منهزم عن عمرو، وخرج فى إثرهم الزبير وعمر فناوشوهم ساعة، وحمل الزبير على رجل منهم فشقه نصفين. وقطع سرجه حتى وصل إلى كاهل الفرس، فقيل له: ما رأينا مثل سيفك! فقال: ما هو السيف، إنه الساعد!

ثم اتفق الكفار على أن يحملوا جميعًا. ولم يتخلف منهم أحد، فوافوا رسول الله عند طلوع الشمس، وأحدقوا بالخندق من كل وجه، ووجهوا نحو خيمته كتيبة عظيمة فيها خالد بن الوليد، فقاتلوهم يومئذ إلى هُوِى الليل [2] حتى كشفهم الله وتفرقوا، وشغل المصطفى عن العصرين والعشاءين فأقام لكل إقامة، وقال: شغلونا عن الصلاة الوسطى، ملأ الله قلوبهم نارًا». ولم يكن لهم بعد ذلك قتال جمعًا. وتفرق الأحزاب بتخذيل نعيم بن مسعود الأشجعى الذى أتى إلى رسول الله ﷺ مسلمًا، ولم يعلم قومه، وأمره ﷺ بالتخذيل حيث قال له: خَذِّل عنا ما استطعت، فإن الحرب خَدْعة [3] وقال ضرار بن الخطاب بن مرداس، أخو بنى محارب بن فهر، فى يوم الخندق يمدح قومه ويعتذر عن الهزيمة:

ومشفقة تظن بنا الظنونا	وقد قدنا عَرَنْدَسَة طحونا [4]
كأن زُهاءَها [5] أُحُدٌ إذا ما	بدت أركانه للناظرينا
ترى الأبدان [6] فيها مسبغات	على الأبطال واليلب [7] الحصينا

---

(1) هنا يذكر المؤلف عبارة: «ثم أهب الله ريح الصبا، إلى آخر ما سبق ذكره».. وذكرها هنا يقطع اتصال العبارة والمعنى.

(2) هوى الليل سقوطها وحلولها.

(3) بفتح الخاء وسكون الدال، أى ينقضى أمرها بالمخادعة. [الطهطاوى].

(4) الطحون: الكتيبة العظيمة، والعرندسة: وصف للطحون، أى ثابتة، أو هى كالسيل الكثير.

(5) زهاءها: أى مقدارها. (6) الأبدان هنا معناها: الدروع القصيرة.

(7) اليلب: من معانيها: الترسة أو الدروع اليمانية من الجلود، أو غطاء الرأس المصنوع من الجلود المخروزة بعضها إلى بعض، ومن معانيها كذلك: الفولاذ، والحديد الخالص، والشىء العظيم على الإطلاق.

وجُرْدًا[1] كالقداح [2] مسومات　　　تؤم بها الغواة الخاطئينا

كأنهم إذا صالوا وصلنا　　　بباب الخندقين مصافحونا

أناس لا ترى فيهم رشيدا　　　وقد قالوا ألسنا راشدينا

وأحجرناهم شهرا كريشًا [3]　　　وكنا فوقهم كالقاهرينا

نراوحهم ونغدو كل يوم　　　عليهم فى السلاح مدججينا

بأيدينا صوارم مرهفات　　　تقد بها المفارق [4] والشؤونا [5]

كأن وميضهن معريات　　　إذا لاحت بأيدى مصلتينا

وميض عقيقة [6] لمعت بليل　　　ترى فيها العقائق مستبينا

فلولا خندق كانوا لديه　　　لدمرنا عليهم أجمعينا

ولكن حال دونهم وكانوا　　　به من خوفنا متعوذينا

فإن نرحل فإنا قد تركنا　　　لدى أبياتكم سعداً رهينا [7]

إذا جن الظلام سمعت نوحًا　　　على سعد يرجعن الحنينا

وسوف نزوركم عما قريب　　　كما زرناكم متوازرينا

يجمع من كنانة غير عُزْل　　　كأسد الغاب قد حمت العرينا

فأجابه كعب بن مالك، رضى الله عنه، فقال:

---

(١) الجرد، مفردها أجرد، وهو السباق من الخيل.

(٢) القداح: السهام.

(٣) لعلها بمعنى مجتمعين.

(٤) أى مفارق شعر الرأس، موضع افتراقه.

(٥) الشؤون هنا معناها ملتقى قبائل الرأس، أى أنسجتها.

(٦) العقيقة هنا هى الخرزة الحمراء.

(٧) الإشارة إلى إصابة سعد بن معاذ بسهم فى عرقه الأكحل ـ عرق فى الذراع يكثر فصده ـ رماه به حبان بن قيس بن العرقة.

وسائلة تسائل ما لقينا ... ولو شهدت رأتنا صابرينا
صبرنا لا نرى لله عدْلاً[1] ... على ما نابنا متوكلينا
وكان لنا النبى وزير صدق ... به نعلو البرية أجمعينا
نقاتل معشراً ظلموا وعقوا ... وكانوا بالعداوة مُرْصِدينا
نعالجهم إذا نهضوا إلينا ... بضرب يعجل المتسرعينا
ترانا فى فضافض سابغات ... كغدران الملامة سربلينا
وفى أيماننا بيض خفاف ... بها نشفى مراح الشاغبينا
بباب الخندقين كأن أسداً ... شوابكهن[2] تحمين العرينا
فوارسنا إذا بكروا وراحوا ... على الأعداء شوسًا معلمينا
لننصر أحمداً والله حتى ... نكون عباد صدق مخلصينا
ويعلم أهل مكة حين ساروا ... وأحزاب أتوا متحزبينا
بأن الله ليس له شريك ... وأن الله مولى المؤمنينا
فأما تقتلوا سعداً سفاهًا ... فإن الله خير القادرينا
سيدخله جنانًا طيبات ... تكون مقامة للصالحينا
كما قد ردكم فَلاًّ[3] شريداً ... بغيظكم خزايا خائبينا
خزايا لم تنالوا ثَمَّ خيراً ... وكدتم أن تكونوا دامرينا[4]
بريح عاصف هبت عليكم ... فكنتم تحتها متكمهينا[5]

(١) أي معادلا .
(٢) الطرق المتداخلة .
(٣) منهزمين .
(٤) هالكين .
(٥) ذاهبين فى الأرض على غير هدى لا تدرون إلى أين تتوجهون .

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم الخندق وبني قريظة (حم حم لا ينصرون . .) كذا في سيرة ابن هشام .

غزوة بني قريظة

(وفي شهر ذي القعدة وصدر ذي الحجة، من هذه السنة، كانت غزوة بني قريظة)

وهم قوم من اليهود بالمدينة ، من حلفاء الأوس ، وسيد الأوس حينئذ سعد بن معاذ ، رضي الله تعالى عنه .

لما رجع ﷺ من الخندق ، وكان وقت الظهيرة ، ودخل بيت عائشة رضي الله تعالى عنها ، فبينما هو يغتسل ودعا بالمجمرة ليتبخر ، أتاه جبريل عليهما السلام بعد صلاة الظهر فقال : أوَقَدْ وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال : نعم ، فقال جبريل : ما وضعت ملائكة الله السلاح منذ نزل بك العدو ، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة ، فإني عامد إليهم بمن معي من الملائكة ، فمزلزل بهم الحصون . فقال ﷺ : إن في أصحابي جَهْدًا فلو أنظرتهم أيامًا؟ فقال جبريل عليه السلام : انهض إليهم ، فوالله لأدقنهم كدق البيض على الصفا! وكان جبريل على فرس أبلق ، فقال : ولأدخلن فرسي هذا عليهم في حصونهم ، ثم لأضعضعنها! فأدبر جبريل عليه السلام ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بني غنم ، وهم طائفة من الأنصار ، فأبرز رسول الله ﷺ بلالاً فأذن في الناس : من كان سميعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة . وأعطى الراية عليّ بن أبي طالب ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم .

ونادى مناد بأمره ﷺ : يا خيل الله اركبي! ثم سار إليهم ﷺ وقد لبس سلاحه ، وركب فرسه ، والناس حوله قد لبسوا السلاح وركبوا الخيل ، وهم ثلاثة آلاف ، والخيل ستة وثلاثون فرسًا له ﷺ منها ثلاثة .

وقدم ﷺ عليّ بن أبى طالب كرم الله وجهه برايته إلى بنى قريظة، ومر ﷺ بنفر من التجار قد لبسوا السلاح، فقال: هل مر بكم أحد؟ قالوا: نعم، دحية الكلبى مر على فرس أبيض عليه اللأمة (١)، وأمرنا بحمل السلاح، وقال لنا: رسول الله ﷺ يطلع عليكم الآن، فلبسنا سلاحنا وصففنا. فقال ﷺ: ذاك جبريل عليه السلام، بُعث إلى بنى قريظة ليزلزل حصونهم، ويقذف الرعب فى قلوبهم!

فلما دنا على بن أبى طالب رضى الله عنه من الحصن، ومعه نفر من المهاجرين والأنصارن وغرز اللواء عند أصل الحصن، سمع من بنى قريظة مقالة قبيحة فى حق النبى ﷺ، فسكت المسلمون وقالوا: السيف بيننا وبينكم، فلما رأى عليّ رضى الله عنه رسول الله ﷺ مقبلاً أسلم اللواء لأبى قتادة الأنصارى، ورجع إليه ﷺ فقال: يا رسول الله، لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأجانب، قال: لعلك سمعت منهم أذى؟ فقال: نعم، يا رسول الله، قال: لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئًا، فكان كما قال ﷺ.

وحاصر رسول الله ﷺ وسلم بنى قريظة خمسًا وعشرين ليلة، وقيل دون ذلك، وكان طعام الصحابة رضى الله عنهم التمر، يرسله به إليهم سعد بن عبادة رضى الله عنه، فلا زال يحاصرهم حتى جَهَدهم الحصار، وقذف الله فى قلوبهم الرعب، فلما أيقنوا أنه ﷺ غير منصرف عنهم حتى يقاتلهم قال كبيرهم كعب بن أسيد: يا معشر يهود، نزل بكم من الأمر ما ترون، وأنا عارض عليكم خلالاً ثلاثًا أيها شئتم، قالوا: وما هى؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم، فإذا آمنتم به أمنتم على أموالكم ودمائكم ونسائكم وأبنائكم، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب، حيث لم يكن هذا النبى من بنى إسرائيل، وكان يهود بنى قريظة يدرسون ذكر رسول الله ﷺ فى كتبهم، وأن دار هجرته المدينة، بل كان هذا غير خاص ببنى قريظة، إذ غيرهم كان كذلك، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كانت يهود بنى

---

(١) السلاح.

قريظة وبنى النضير وفدك وخيبر يجدون فى كتبهم صفة النبى ﷺ قبل أن يبعث، وأن دار هجرته المدينة. قال كعب: فإن أبيتم علىّ هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف ولم نترك وراءنا نسلاً يخشى عليه، وإن نظفر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء.

قالوا: نقتل هذه المساكين؟ فما خير العيش بعدهم؟

قال كعب: فإن أبيتم علىّ هذه فإن الليلة ليلة السبت وأن عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه - غِرَّة - فقالوا نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن يحدث فيه من كان قبلنا؟!

وقال لهم عمرو بن سعد: قد خالفتم محمدا فيما عاهدتموه عليه، ولم أشرككم فى غدركم، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية، واعطوا الجزية، فوالله ما أدرى أيقبلها أم لا؟ قالوا: نحن لا نقر للعرب بخراج فى رقابنا يأخذونه، القتل خير من ذلك. قال: فإنى برىء منكم.

وبعد الحصار أرسلوا بنباش بن قيس إلى رسول الله ﷺ أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير من أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة، أى الدرع، فأبى ﷺ، فأرسلوه ثانيًا بأنه لا حاجة لهم بشىء من الأموال لا من الحلقة ولا من غيرها، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فعاد نباش إليهم بذلك، ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ، أن ابعث إلينا أبا لبابة، وهو رفاعة بن المنذر، لنستشيره فى أمرنا لأنه كان من حلفاء الأوس، وبنو قريظة من الأوس، وكان مناصحًا لهم، لأن ماله وولده وعياله كانت فى بنى قريظة، فأرسله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال وأسرع إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه من شدة المحاصرة وتشتيت مالهم، وقام كعب بن أسيد فقال لأبى لبابة: قد عرفت ما بيننا، وقد اشتد علينا الحصار، وهلكنا، ومحمد لا يفارق حصننا حتى ننزل على حكمه، فلو زال عنها لحقنا بالشام أو خيبر ولم نطأ له أرضًا ولم نكَثِّر عليه جمعًا أبدًا، ما ترى؟ قد اخترناك على غيرك، أننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، فانزلوا، وأشار بيده إلى حلقه، إشارة إلى الذبح، ومعناه لا تفعلوا لئلا يذبحكم.

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله، لأن فى قولى تنفيرًا لهم عن الانقياد له ﷺ، ومن ثم أنزل الله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ (الأنفال: ٢٧) الآية [1]، وسالت عين أبى لبابة بالدموع وانطلق على وجهه فلم يأت رسول الله ﷺ وربط نفسه إلى عمود بالمسجد يقال له أسطوانة التوبة، كان أكثر نفله ﷺ عنده، وقال والله لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموت أو يتوب الله علىّ مما صنعت، وعاهد الله أن لا يطأ أرض بنى قريظة أبدًا ولا يرى فى بلد خان الله ورسوله فيه أبدًا، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، وكان قد استبطأه، قال: أما لو جاءنى لاستغفرت له وأما بعد أن فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه حتى يتوب الله عليه فنزلت توبته فى قوله تعالى ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا﴾ الآية (التوبة: ١٠٢) فتولى النبى ﷺ إطلاقه بيده بعد أن أقام مرتبطًا بالجذع ست ليال لا يحل إلا للصلاة.

ثم إن بنى قريظة نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فأمر بهم فكُتِّفوا وجُعلوا ناحية، بين الستمائة والسبعمائة، وأخرج النساء والذرارى من الحصون، وجعلوا ناحية، وكانوا ألفًا، واستعمل عليهم عبد الله بن سلام، فتواثبت الأوس وقالوا: يا رسول الله، موالينا وحلفاؤنا، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد فعلت، يعنون بنى قينقاع، لأنهم كانوا حلفاء الخزرج، ومن الخزرج عبد الله بن أبىّ بن سلول، وكانوا قد نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فكلمه فيهم عبد الله بن أبىّ بن سلول فوهبهم له على أن يجعلوا، فظنت الأوس من رسول الله ﷺ أن يهب لهم بنى قريظة كما وهب بنى قينقاع لإخوانهم من الخزرج، فلما كلمته الأوس أبى أن يفعل ببنى قريظة ما فعل ببنى قينقاع، ثم قال لهم: ما ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منهم؟ قالوا: نختار حكم سعد بن معاذ، رضى الله عنه، فرضى بذلك رسول الله ﷺ، وأذن لسعد بن معاذ.

---

(١) هنا يذكر المؤلف العبارة التالية: «وقيل وهو أولا» وهى عبارة لا معنى ولا مكان لها فى السياق.. ثم يذكر بعدها مباشرة: «ثبت أنه نزل فى ذلك (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحًا) الآية..» ونحن نرى أن مكانها الطبيعى بعد أسطر قليلة تكمل حكاية أبى لبابة، ولقد صححنا السياق بنقلها هناك.

وليس إذنه ﷺ لسعد بن معاذ فى ذلك لكونه لا يجوز له ﷺ الحكم بينه وبين محاربه، بل هو جائز له، فإن من خصائصه ﷺ أن يحكم لنفسه فَلأن يحكم بينه وبين محاربه من باب أولى، ومعنى الحكم بينه وبين محاربه أن يقول للمحارب: أتركُ قتالك على التزام كذا وكذا، أو على ما يقتضيه رأى فلان ويحكم به فيك، ومن هذا القبيل تحكيم سعد بن معاذ فى بنى قريظة بأمر النبى ﷺ فالتحكيم [1] فى المحاربين من خصائص الإمام الأعظم ومن حقوقه، فلا يجوز لأحد أن يفتات عليه ولا أن يفعله بغير إذنه، فالحكم فى الحقيقة حقه ﷺ، وقد رده إلى سعد وفوض له فيه، وكان سعد بن معاذ رضى الله عنه حين أصابه السهم بالخندق وضع فى خيمة فى المسجد تداوى فيها الجرحى من الصحابة، فأتاه قوم فحملوه على حمار وساروا به وهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن فى مواليك فإن رسول ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم، فقد رأيت عبد الله بن أبى بن سلول وما صنع فى حلفائه، كل ذلك وسعد بن معاذ ساكت، فلما أكثروا عليه قال، رضى الله عنه: لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم! فقال بعضهم: وا قوماه! فأتى سعد على حمار، فلما دنا قريبًا من باب المسجد، وانتهى رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين وهم حوله جلوس قال رسول الله ﷺ للأنصار: قوموا إلى سيدكم فقاموا صفين، كل رجل منهم يحيى سعداً، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: احكم يا سعد، فقال: الله ورسوله أحق بالحكم، قال: قد أمرك الله أن تحكم فيهم، فقال سعد لبنى قريظة: أترضون بحكمى؟ قالوا: نعم، فأخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن الحكم ما حكم به سعد، قال سعد: فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذرارى والنساء، فقال رسول الله ﷺ لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات. وما أحسن قول من قال:

ليت دهرى حاكم لى	فى عدوى ليغيظه
وهو قد يحكم يومًا	حكم سعد فى قريظه

وأخرج أحمد عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما، قال: رمى يوم الأحزاب سعد بن معاذ فقطع الجلد فحسمه [2] رسول الله ﷺ بالنار، فانتفخت

(١) فى الأصل: فالتحكم.
(٢) أى قطعه ثم كواه حتى لا يسيل دمه.

يده، فنزفه، فلما رأى ذلك قال: اللهم لا تخرج نفسي حتى تَقَرَّ عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه فما قطر قطرة حتى نزلوا على حكم سعد فأرسل إليه فحكم أن تقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذراريهم ليستعين بهم المسلمون، فقال رسول الله ﷺ: أصبت حكم الله فيهم، فلما فرغ منهم انفتق عرقه فمات رضى الله عنه، كما سيأتي قريبًا، وينسب لحسان بن ثابت في رثائه قوله:

لقد سحمت[1] من دمع عيني عبرة ... وحق لعيني أن تفيض على سعد

قتيل ثوى في معرك فجعت به ... عيون ذوارى الدمع[2] دائمة الوجد

على ملة الرحمن وارث جنة ... مع الشهدا وفدها أكرم الوفد

فإن تك قد ودعتنا وتركتنا ... وأمسيت في غبراء مظلمة اللحد

فأنت الذي يا سعد بت بمشهد ... كريمًا وأثواب المكارم والحمد

بحكمك في حيي قريظة والذي ... قضى الله فيهم ما قضيت على عمد

فوافق حكم الله حكمك فيهم ... ولم تعف إذ ذكرت ما كان من عهد

فإن كان ريب الدهر أمضاك في الألى ... شروا هذه الدنيا بجناتها الخلد

فنعم مصير الصادقين إذا دعوا ... إلى الله يومًا للوجاهة والقصد

ثم أمر ﷺ أن يجمع ما وجد في حصونهم فقسمه ﷺ، فجعل للفارس ثلاثة أسهم، سهما له وسهمين لفرسه، وللراجل سهمًا، وكانت خيل المسلمين يومئذ ستة وثلاثين فرسًا، ووقع في سهم النبي ﷺ من سبيهم ريحانة بنت عمر بن حذافة من بني عمرو بن قريظة، ويقال ريحانة بنت شمعون، فلم تزل في ملكه حتى مات رسول الله ﷺ، وأمر بالأسارى أن يكونوا في دار زيد بن أسامة رضى الله عنه، والذرية في دار ابنة الحارث النجارية، لأن تلك الدار كانت معدودة لنزول الوفود من العرب، وأمر بالمتاع أن يحمل، وترك المواشي هناك ترعى الشجر، ثم

(١) يقال: أسحمت السماء، أي صبت ماءها.

(٢) ذوارى الدمع، أي تلقى الدمع.

غدا ﷺ سائراً إلى المدينة، ثم خرج إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق، أي حفر فيها حفائر، ثم أمر بقتل كل من أثبت، أي بلغ، فجاؤوا إليه أرسالا تضرب أعناقهم ويلقون في تلك الخنادق، وقتلت فيهم امرأة واحدة وهي بنانة، امرأة الحكم القرظي، وكانت طرحت على خلاد بن سويد ابن الصامت رحى من فوق الحائط فاستشهد وحده في هذه الغزوة، فقال رسول الله ﷺ: له أجر شهيدين، وقتلها به قصاصا لا لكونها كانت في قتال المشركين، ومما يستشهد به الفقهاء في كتب الفقه في قتال المشركين على أن المرأة لا تقتل كما قاله اليافعي قول أبي الخطاب عمر بن ربيعة القرشي المخزومي:

إن من أكبر الكبائر عندي قتل بيضاء خودة عطبول[1]

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

انتهى.

ثم أتي بكعب بن أسد، سيد بني قريظة، فقال له كعب، بعد أن عرض عليه الإسلام: لولا أن تعايرني يهود بالجزع من السيف لاتبعتك! فأمر ﷺ بضرب عنقه. وكان المتولي لقتل بني قريظة عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام، رضي الله تعالى عنهما، وينسب لحسان بن ثابت قوله:

لقد لقيت قريظة ما أساها وما وجدت لذل من نصير

غداة أتاهم يهوى إليهم رسول الله كالقمر المنير

له خيل مجنبة تغادى بفرسان عليها كالصقور

تركناهم وما ظفروا بشيء دماؤهم عليهم كالغدير

فهم صرعى يحوم الطير فيهم كذاك يُدان ذو العَنَد الفَجُور[2]

فأنذر مثلها نصحًا قريشًا من الرحمن إن قبلت نذيري

(١) الخودة: المرأة الشابة. والعطبول: المرأة الجميلة الفتية الطويلة العنق.

(٢) العند: المائل عن الحق، والفجور: المنبعث في المعاصي.

وقوله:

لقد لقيت قريظة ما أساها	**وحل بحصنها ذل ذليل**
وسعد كان أنذرهم بنصح	**بأن إلهكم رب جليل**
فما برحوا بنقض العهد حتى	**غزاهم فى بلادهم الرسول**
أحاط بحصنهم منا صفوف	**له من حر وقعهم صليل**

ولما انقضى شأن بنى قريظة قال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم»، فكان كذلك.

وانفجر جرح سعد بن معاذ الذى فى يده وسال الدم، واحتضنه ﷺ فجعلت الدماء تسيل على رسول الله ﷺ، فمات سعد منه، وحمل إلى منزله ولم يعلم ﷺ بموته، فأتى جبريل فقال: يا محمد، من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش فرحًا به؟ فقام رسول الله ﷺ سريعا إلى سعد بن معاذ فوجده قد مات! ولما دفن سعد رضى الله عنه وشيعه النبى ﷺ ومن معه من الصحابة والملائكة سبح ﷺ وسبح الناس معه، فقالوا: يا رسول الله، لم سبحت؟ قال: «لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرجه الله عنه»، وسئل ﷺ عن ذلك فقال: كان يقصر فى الطهور من البول بعض التقصير.

ثم بعث رسول الله ﷺ بسبايا بنى قريظة إلى نجد أو الشام لتباع ويشترى بها سلاح.

ونهى رسول الله ﷺ أن يفرق بين الأم وولدها فى السبايا من بنى قريظة، وقال: «لا يفرق بين أم وولدها حتى يبلغ»، فكانت أم الولد تباع من المشركين هى وولدها وهو مَحَمْل قوله ﷺ: «من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة».

* * *

وفى هذه السنة الرابعة، فى صفر، قدم عليه ﷺ قوم من عَضَل[1] والقارَة[2] وطلبوا منه أن يبعث معهم من يفقه قومهم فى الدين فبعث معهم ستة، وهم: ثابت ابن أبى الأفلح، وخبيب بن عدى، ومرتد بن أبى مرتد الغنوى، وخالد بن البكير الليثى، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق، وأمَّر عليهم مرتد بن أبى مرتد، فلما وصلوا إلى الرجيع، ماء لهذيل على أربعة عشر ميلا من عسفان، غدروا بهم وقاتلوهم، فقتل ثلاثة وأسر ثلاثة، وهم: زيد وخبيب وعبد الله بن طارق، فأخذوهم إلى مكة، فهرب عبد الله بن طارق فى الطريق وقاتل إلى أن قتلوه بالحجارة، فلما وصلوا إلى مكة فى ذى القعدة حبسوا كل واحد منهما حتى تخرج الأشهر الحرم، ولما انسلخ الأشهر الحرم أخرجوا خبيبًا وزيدًا من الحرم إلى التنعيم ليقتلوهما فى الحلّ، واجتمع خبيب وزيد فى الطريق فتواصوا بالصبر والثبات على ما يلحقهما من المكاره، وقال لهم خبيب: دعونى أصلى ركعتين، فتركوه فصلى ركعتين، وقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بى من جزع لزدت! وعند موسى بن عقبة أنه صلاهما فى موضع مسجد التنعيم، وقال: اللهم احصهم عددًا واقتلهم بَددًا - يعنى متفرقين - ولا تبق منهم أحدًا، فلم يحل الحول ومنهم أحد حى، ثم أنشأ خبيب يقول:

فلست أبالى حين أقتل مسلمًا ... على أى شق كان لله مضجعى

وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلْو مُمَزَّع[3]

إلى الله أشكو غربتى بعد كربتى ... وما أرصد الأحزاب لى عند مصرعى

قال أبو هريرة كان خبيب أول من سن الركعتين عند القتل لكل مسلم قتل صبرًا، لأنه فعلهما فى حياته ﷺ فاستحسن ذلك من فعله وقررهما واستحسن المسلمون فبقى سنة، والصلاة خير ما ختم به عمل العبد.

(١) عضل - بفتح المهملة والمعجمة - بعدها لام: بطن من بنى الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس، ابن مضر، ينسبون إلى عضل بن الديش. [الطهطاوى].

(٢) والقارة، بالقاف وتخفيف الراء - بطن من الهون أيضًا، ينسبون إلى الديش المذكور. وقال «ابن دريد»: القارة أكمة سوداء فيها حجارة كأنهم نزلوا عندها فسموا بها. كذا فى [المواهب اللدنية].

(٣) والأوصال جمع وصل، وهو العضو، والشلو - بكسر الشين المعجمة - الجسد، ويطلق على العضو، ولكن المراد بها هنا الجسد. [الطهطاوى].

وفى هذه السنة أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بتعليم السريانية وسيأتى ذلك موضحًا فى تراجمة النبى عليه الصلاة والسلام فى (الفصل الرابع) من (الباب السادس) من (الجزء الثانى) من (المقالة) الخامسة [1].

* * *

وفى هذه السنة الرابعة، وقيل فى الخامسة، نزلت آية الحجاب، والمراد بالآية الطائفة من القرآن نزل فيها الأمر بالستر، وهى قوله تعالى (وقرن فى بيوتكن) أى إلزمن بيوتكن (ولا تبرجن) قيل: هو التكسّر والتبختر، وقيل: هو إظهار الزينة وإبراز المحاسن للرجال ﴿ **تبرج الجاهلية الأولى** ﴾ (الأحزاب: ٣٣) قيل: إن الجاهلية الأولى ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وقيل: هى زمن داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، كانت المرأة تلبس قميصًا من الدرع [2] غير مخيط من الجانبين فيرى خَلْفها [3] منه، وقيل: الجاهلية الأولى ما قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى يفعلون مثل فعلهم آخر الزمان، وقيل: قد تذكر الأولى ولا تستلزم أخرى، كقوله تعالى: ﴿ **وأنه أهلك عادا الأولى** ﴾ (النجم: ٥) ولم تكن لها أخرى.

ونزل فيها أيضًا قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم** ﴾ (الأحزاب: ٥٣) الآية، قال أكثر المفسرين: نزلت هذه الآية فى شأن وليمة زينب بنت جحش حين بنى بها رسول الله ﷺ، قال أنس بن مالك رضى الله عنه: كنت ابن عشر سنين مَقْدم رسول الله ﷺ المدينة، فخدمته عشر سنين وتوفى رسول الله ﷺ وأنا ابن عشرين سنة، فكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل، وكان أول نزل ما فى مبتنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، حين أصبح الرسول بها عروسًا، فدعا القوم فأصابوا من الطعام، ثم خرجوا وبقى رهط

---

(١) أى فى هذا الجزء.

(٢) درع المرأة: قميصها أو ثوب تلبسه فى بيتها، والثوب الصغير تلبسه الجارية الصغيرة.

(٣) الخلف، من معانيه المرادة هنا: الجهة الخلفية، ضد الجهة الأمامية. ويطلق كذلك على أقصر أضلاع الجنب.

عند النبى ﷺ فأطالوا المكث، فقام رسول الله ﷺ وخرج وخرجت معه لكى يخرجوا، فمشى النبى ﷺ ومشيت حتى جاء عَتَبةَ حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها، وظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه حتى إذا دخل على زينب فإذا هم جلوس لم يقوموا، فرجع النبى ﷺ ورجعت معه حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة، وظن أنهم خرجوا فرجع ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا، فضرب النبى ﷺ بينى وبينه الستر، ونزلت آية الحجاب.

قال أبو عثمان، واسمه الجعد، عن أنس، قال: فدخل، يعنى النبى ﷺ، البيت، وأرخى الستر، وإنى لفى الحجرة وهو يقول: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم** ﴾ إلى قوله ﴿ **والله لا يستحى من الحق** ﴾، وهذا أدب من الله أدَّب به الثقلاء. قال ابن عباس نزلت فى ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يدرك، يأكلون ولا يخرجون، وكان رسول الله يتأذى بهم، فنزلت الآية ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى** ﴾ إلى قوله ﴿ **وإذا سألتموهن** ﴾ أى سألتم نساء النبى ﷺ حاجة ﴿ **فاسألوهن من وراء حجاب** ﴾ أى من وراء ستر يستركم عنهن. فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر امرأة من نساء رسول الله ﷺ، متنقبة كانت أو غير متنقبة.

ونزل فيها أيضًا قوله تعالى ﴿ **يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين** ﴾ ـ (أى يغطين) ـ ﴿ **عليهن من جلابيبهن** ﴾ (الأحزاب: ٥٩) الآية، والجلابيب جمع جلْباب، وهى الملاءة التى تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار، وقيل هى كل ما يستتر به من كساء وغيره. قال ابن عباس: أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عينًا، ليعلم أنهن حرائر، وهو قوله تعالى ﴿ **ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين** ﴾أى لا يتعرض لهن، بخلاف الإماء فلا يغطين وجوههن. وكان المنافقون يمشون فى طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن فيتبعون المرأة فإن سكتت اتبعوها، وإن زجرتهم انتهوا عنها، ولم يكونوا يطلبون إلا الإماء، ولكن كانوا لا يعرفون الحُرة من الأمة، لأن زى الكل واحد، تخرج الحرة والأمة فى درع وخمار، فشكوا ذلك لأزواجهن، فذكروا ذلك

للنبى ﷺ، فنزل: ﴿**والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات**﴾ (الأحزاب: ٥٨) الآية، ثم نهى الحرائر أن يتشبهن بالإماء بقوله تعالى ﴿**يا أيها النبى قل لأزواجك**﴾الآية، قال أنس: مرت بعمر بن الخطاب جارية متقنعة فعلاها بالدرة وقال: يا لكاع [١]، أتتشبهين بالحرائر؟ ألق القناع.

وفى هذه السنة توفيت فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، أم علىّ بن أبى طالب، رضى الله عنه، أسلمت وتوفيت مسلمة بالمدينة.

---

(١) ولكاع كلمة تقال لمن يستحقر به، مثل العبد والأمة، والقليل العقل، مثل قولك: يا خسيس. [الطهطاوى].

الفصل الخامس

(فى ظواهر السنة الخامسة وما فيها من الغزوات)

قد سبق أن غزوة ذات الرقاع ولو ذكرت فى ظواهر سنة أربعة إلا أنه كما تقدم صحح بعضهم أنها كانت فى سنة خمسة.

غزوة دومة الجندل

(وفى هذه السنة كانت غزوة دومة الجندل [1])

بلد بين الحجاز والشام، وهو أول غزوات الشام، على عشر مراحل من المدينة، وعشرين من الكوفة، وثمان من دمشق، واثنتى عشرة من مصر، سميت بدومى بن إسماعيل، كان نزلها.

وكانت بعد غزوة ذات الرقاع بشهرين وأربعة أيام، بناء على ما صح النووى من أن ذات الرقاع كانت فى سنة خمسة.

وصاحب دُوْمَة الجندل يسمى أُكَيْدر، ويقال إن منزل أكيدر كان أولا فى دومة الحيرة، وكان يزور أخواله من كلب، فخرج معهم للصيد فرفعت له مدينة متهدمة

(١) (دومة) بضم الدال المهملة، وبعدها واو ساكنة، فميم مفتوحة، فهاء ـ مضاف إلى (الجندل) ـ بفتح الجيم وسكون النون وفتح الدال المهملة، آخره لام. [الطهطاوى].

لم يبق إلا حيطانها مبنية بالجندل، فأعاد بناءها وغرس الزيتون وغيره فيها، وسموها دومة الجندل، للفرق بينها وبين دومة الحيرة، وكان أكيدر يتردد بينهما، ويزعم بعضهم أن تحكيم الحكمين بين علي ومعاوية كان بدومة الجندل.

وسببها أنه ﷺ بلغه أن بها جمعًا كثيرًا يظلمون من مر بهم، وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة، فندب الناس، واستخلف على المدينة سباع بن عُرْفطة [1] الغفارى، وخرج إليها لخمس ليال بقين من ربيع الأول، في ألف، يسير الليل ويكمن النهار، ومعه دليل فى بنى عُذرة يقال له مذكور، رضى الله عنه، فلما دنا منهم جاء إليهم الخبر فتفرقوا، فهجم على ماشيتهم ورعاتهم فأصاب من أصاب وهرب من هرب، ونزل رسول الله ﷺ بساحاتهم فلم يلق بها أحدًا، وبعث السرايا فرجعت ولم تلق أحدًا، ورجعت كل سرية بإبل، وأخذ محمد بن مسلمة رجلا منهم وجاء به إلى النبى ﷺ، فسأله رسول الله ﷺ عنهم، فقال: هربوا حيث سمعوا أنك أخذت نَعَمهم، فعرض عليه الإسلام فأسلم. ورجع ﷺ المدينة ولم يلق حربًا.

وفى رجوعه وادع، أى عُيَيْنَة بن حصن، واسمه حذيفة الفزارى، أن يرعى بمحل بينه وبين المدينة ستة وثلاثون ميلاً [2]، لأن أرضه كانت أجدبت، ولما سمن حافره وخفه وانتقل إلى أرضه غزا على لَقاح [3] رسول الله ﷺ بالغابة. وقيل له عُيَيْنة لأنه أصابته لقْوَة [4] فجحظت عيناه فسمى عيينة، وعيينة هذا أسلم بعد الفتح وشهد حنينا والطائف، وكان من المؤلفة، ودخل على النبى ﷺ بغير إذن وأساء الأدب فصبر النبى ﷺ على جفوته، وقال فيه ﷺ: «إن شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه»، وقيل إن ذلك إنما قيل فى مخرمة بن نوفل، ولا مانع من تعدد ذلك. وقد ارتد عيينة بعد ذلك فى زمن الصديق رضى الله عنه، فإنه لحق بُطلَيْحة

---

(١) بضم العين المهملة. [الطهطاوى].

(٢) واسم هذا الموضع «تغلمين». انظر (طبقات ابن سعد) جـ٢ ق ١ ص ٤٥، و(نهاية الأرب) جـ١٧ ص ١٦٣.

(٣) مفردها: لقحة، وهى الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

(٤) اللقوة: داء يصيب الوجه يعوج منه الشدق إلى أحد جانبى العنق.

بن خُويلد حين تنبأ وآمن به، فلما هرب طليحة أسره خالد بن الوليد، رضى الله عنه، وأرسل به إلى الصديق فى وثاق، فلما دخل المدينة صار أولاد المدينة ينخسونه بالحديد ويضربونه ويقولون: أى عدو الله، كفرت بالله بعد إيمانك! فيقول: والله ما كنت آمنت! فَمَنَّ عليه الصديق، فأسلم، ولم يزل مظهراً للإسلام.

وفى غيبته ﷺ فى هذه الغزوة ماتت أم سعد بن عبادة عمرة بنت مسعود، من المبايعات، وكان ابنها رضى الله عنه معه ﷺ . ولما قدم ﷺ المدينة صلى على قبرها، وذلك بعد شهر، وقال له سعد: يا رسول الله، أتصدق عنها؟ قال: نعم، قال: أى الصدقة أفضل؟ قال: الماء، فحفر بئراً، وقال: هذه لأم سعد، رضى الله عنها.

غزوة بنى لحيان

(وفى هذه السنة غزوة بنى لحيان [1] بن هذيل بن مدركة)

قبيلة من هذيل. لما وقعت وقعة عاصم بن ثابت وخبيب بن عدى وغيرهما من الصحابة الذين قتلهم هذيل وجد النبى ﷺ وجدا شديداً على أصحابه ـ المقتولين بالرجيع، وأراد أن ينتقم منهم فأمر أصحابه بالتهيىء، وخرج رسول الله ﷺ فى جمادى الأولى من السنة الخامسة، لستة أشهر من فتح بنى قريظة، فقصد بنى لحيان يطالب بثأر عاصم بن ثابت وخبيب بن عدى أهل الرجيع وذلك إثر رجوعه من دومة الجندل، فسلك على طريق الشام أولا ليصيب من القوم غرة، وعسكر فى مائتى رجل ومعهم عشرون فرسًا، ثم أخذ ذات اليسار إلى صُخَيْرات اليمام، ثم رجع إلى طريق مكة وأجد السير حتى نزل غُرَان [2] ـ وهى منازل بنى لحيان، وهو واد بين آمج وعسفان، وبينه وبين عسفان خمسة أميال ـ حيث كان مصاب أصحاب الرجيع، واستغفر لهم، وأقام هناك يومًا أو يومين يبعث السرايا فى كل ناحية،

---

(١) بكسر اللام وفتحها [الطهطاوى].

(٢) بضم الغين المعجمة وفتح الراء. [الطهطاوى].

فوجد بنى لحيان قد حذروا وتمنعوا فى رؤوس الجبال، وفاتته الغرة فيهم، فخرج فى مائتى راكب إلى المدينة، ولم يلق كيداً.

وكانت غيبته عن المدينة أربع عشرة ليلة.

قال جابر رضى الله عنه سمعت رسول الله ﷺ حين وجه إلى المدينة يقول: «آيبون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون، أعوذ بالله من وعثاء السفر - أى مشقته - وكآبة المُنْقَلب - (أى حزن المنقلب) - وسوء المنظر فى الأهل والمال».

ومنها خرج لغزوة الغابة، المعروفة بغزوة ذى قرد، واستعمل فى غزوة بنى لحيان على المدينة ابن أم مكتوم.

وبعض أهل السير جعل غزوة بنى لحيان فى شهر ربيع الأول سنة ست، والصحيح أنها كانت فى جمادى الأولى من السنة الخامسة، على رأس ستة أشهر من فتح بنى قريظة.

وفى هذه السنة لما رجع ﷺ من بنى لحيان وقف على الأبواء، وزار قبر أمه.

وفيها فك رسول الله ﷺ سلمان الفارسى، رضى الله عنه، عن الرق، وكان إسلامه فى السنة الأولى من الهجرة.

وفيها انخسف القمر فى جمادى الآخرة فصلى بهم النبى ﷺ صلاة الخسوف حتى انجلى القمر.

الفصل السادس

فى ظواهر السنة السادسة وما فيها من الغزوات

غزوة ذى قرد

(وفى هذه السنة كانت غزوة الغابة، وتعرف بذى قرد)

والغابة الشجر الملتف، وذى قَرَد[1] موضع على ميلين من المدينة، على طريق خيبر.

كانت هذه الغزوة فى السادسة من الهجرة، بعد غزوة بنى لحيان، وقال البخارى: كانت قبل خيبر بثلاثة أيام، وفى مسلم نحوه، ولكن إجماع أهل السير على خلافهما. وهى الغزوة التى أغار فيها عيينة بن حصن فى خيل من غطفان وفزارة على لَقاح رسول الله ﷺ بالغابة قبل خيبر، وكان اللقاح عشرين لَقْحة - واللقحة ذات اللبن القريبة من الولادة - وكان أول من بهم سلمة بن الأكوع الأسلمى، رضى الله تعالى عنه، فإنه غدا يريد الغابة متوحشًا قوسه ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله معه فرس لطلحة يقوده، فلقى غلامًا لعبد الرحمن بن عوف فأخبره أن عُيينة بن حصن قد أغار على لقاح رسول الله ﷺ فى أربعين فارسًا من غطفان، فخرج سلمة يقتفى أثر القوم كالسبع، وكان يسبق الفرس جريًا حتى لحق

---

(١) بفتح القاف والراء وبالدال المهملة، وقيل: بضم القاف وفتح الثانى. (الطهطاوى).

بهم فجعل يردهم بالنبل ويقول إذا رمى : خذها وأنا ابن الأكوع ، اليوم يوم الرَّضَعَ - (أى يوم هلاك اللئام) - فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هاربًا ، وكانت إذا دخلت الخيل فى بعض مضايق الجبل يعلو سلمة الجبل ويرميهم بالحجارة حتى خففوا رحلهم بإلقاء كثير من الرماح والبُرد .

ولما بلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع صرخ بالمدينة : الفزع ، الفزع ، يا خيل الله اركبى ! فنادى ﷺ بذلك كما نادى فى غزوة بنى قريظة ، وأول من انتهى إلى رسول الله ﷺ من الفرسان المقداد بن الأسود ، رضى الله عنه ، وعقد ﷺ لهذا الأمير لواء فى رمحه ثم قال : اخرج فى طلب القوم ، ثم عَبّاد بن بشر ، وسعد بن زيد رضى الله عنهما ، ثم تلاحقت به الفرسان ، وأمَّر عليهم سعد بن زيد ، وكان شعارهم - (أى علامتهم التى يعرفون بها فى ظلمة الليل أو عند الاختلاط) - «يا منصور أمت» - تفاؤلا بأن يحصل لهم النصر بعد عدوهم . واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم .

وأقبل ﷺ فى المسلمين حتى نزل بالجبل من ذى قَرد بناحية خيبر ، وكان ابن الأكوع قد استنفذ من غطفان أكثر اللِّقاح ، فنحر بلال رضى الله عنه ناقته حينئذ ، وقسم ﷺ فى كل مائة من أصحابه جزوراً ينحرونه ، وكانوا خمسمائة ، وبعث سعد بن عبادة ، رضى الله تعالى عنه ، بأحمال تمر وبعشر من الجزر فوافت رسول الله ﷺ بذى قَرَد ، فقال : «اللهم ارحم سعداً وآل سعد ، نعم المرء سعد بن عبادة» ، فقالت الأنصار : هو سيدنا وابن سيدنا ، من بيت يطعمون فى المَحْل ، ويحمون الكَلّ ، ويحمون عن العشيرة . فقال ﷺ : «خيار الناس فى الإسلام خيارهم فى الجاهلية إذا فقهوا فى الدين» . ورجع ﷺ وهو على ناقته العضباء - وهى القصوى ، وهى الجدعاء ، ولم يكن بها عضب ولا جدع - مُرْدفًا سلمة بن الأكوع رضى الله عنه ، وأعطى ﷺ سلمة بن الأكوع سهم الراجل والفارس جميعًا ، مع كونه راكبًا ، وهذا استدل به من يقول : إن للإمام أن يفاضل فى الغنيمة ، وهو مذهب الإمام أبى حنيفة وإحدى الروايتين عن أحمد ، وعند الإمام مالك والإمام الشافعى رضى الله عنهما لا يجوز ، ولعله لعدم صحة ذلك عندهما .

وروي عن سلمة قال: قلت: يا رسول الله، ابعث معي فوارس لندرك القوم، فقال لي رسول الله ﷺ، بعد أن ضحك: إذا ملكت فأسجح [1].

غزوة بني المصطلق

(وفي هذه السنة كانت غزوة بني المصطلِق، ويقال لها المرَيْسِيع [2])

اسم ماء من مياههم، والمصطلق بطن من خزاعة، وهم بنو جذيمة، وجذيمة هو المصطلق، وسببها أنه ﷺ بلغه أن الحارث بن ضرار، سيد بني المصطلق وقائدهم، رضي الله عنه، ـ فإنه أسلم ـ قد جمع لحرب رسول الله ﷺ من قدر عليه من قومه ومن العرب، فدعاهم إلى حرب المصطفى فأجابوه، وتهيئوا للسير معه، فبعث المصطفى بريدة بن الحُصَيب [3] يعلم علم ذلك، فلقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه ورجع إلى المصطفى فأخبره بذلك، فأسرع الخروج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المُرَيْسِيع، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة.

وكان معه من أفراسه لزاز والظرب، ولما وصل إليهم عرض عليهم الإسلام فأبوا وحاربوا فاستأصلهم قتلاً وأسرًا ونهبًا، واستاق إبلهم وشياههم، وكانت الإبل ألفين والشياه خمسة آلاف، واستعمل عليهم مولاه شقران [4]، وكان حبشيًا، واسمه صالح، وكان السبي مائتي أهل بيت.

وفي هذه الغزوة كانت قصة إفك عائشة، رضي الله عنها، وهي مشهورة في كتب السير والتفاسير. ويروى عن الزهري عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ قد أقبل من سفره حتى إذا كان قريبًا من المدينة، وكان معه عائشة رضي الله

---

(١) بهزة قطع، ثم سين مهملة، ثم جيم مكسورة، ثم حاء مهملة، أي فأرفق وأحسن، من السجاحة وهي السهولة. (الطهطاوي).

(٢) بميم مضمومة، فراء مهملة مفتوحة، فمثناة تحتية ساكنة، فسين مهملة مكسورة، فمثناة تحتية ساكنة، وآخره عين مهملة. (الطهطاوي).

(٣) بضم الحاء وفتح الصاد المهملة. (الطهطاوي).

(٤) بضم الشين المعجمة. (الطهطاوي).

تعالى عنها في سفره ذلك، فقال فيها أهل الإفك ما قالوا، وقد برأ الله عائشة أم المؤمنين في كتابه الكريم في عدة آيات أولها ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ ﴾ (النور: ١١) إلى قوله ﴿ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

قال أبو الفرج بن الجوزي: كان النبي ﷺ قد تزوج أول نسائه خديجة، ثم عائشة، ثم حفصة، ثم أم سلمة، ثم حبيبة، ثم زينب بنت جحش، ثم جويرية، ثم صفية، ثم ميمنة، فلما كان في واجب القسمة يحتاج إلى مراعاة الوقت، وخاطره الكريم ﷺ لا يحتمل، جاءه التخفيف بقوله تعالى: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ (الأحزاب: ٥١) ولم يكن عنده ﷺ آثر من عائشة رضى الله عنها ولا أعلى منزلة منها. انتهى.

وجعله عائشة بعد خديجة بدون فاصل هو أحد أقوال، فإن بعضهم يقول: إنه تزوج بسودة بنت زمعة رضى الله عنها ودخل عليها فى مكة، وعقد عقده بعائشة رضى الله عنها بمكة ولم يدخل بها إلا فى المدينة، فلعل القائل بأنها بعد خديجة فى العقد لا فى الدخول. وحسبك من فضل عائشة رضى الله عنها أمور من أعظمها أنه قد أنزل الله القرآن الحكيم ببراءتها وتشريفها. انتهى.

وكان رسول الله ﷺ استشار الصحابة فى ذلك، فقال عليّ غيرها من النساء كثير، وقال عمر: من زوجكها يا رسول الله؟ قال: الله، قال، أفتظن أن ربك دلس عليك فيها؟! سبحانك هذا بهتان عظيم، فنزلت الآية كذلك.

وأما أهل الإفك وهم مسطح بن عباد بن عبد المطلب، وحسان بن ثابت. وعبد الله بن أُبَيّ بن سلول فجلدهم ﷺ ثمانين ثمانين، إلا عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فلم يجلده.

وقد ذكر أبو عمرو بن عبد البر الحافظ [1]: أن قوما أنكروا أن يكون حسان خاض فى الإفك أو جلد فيه، روى عن عائشة أنها برأته من ذلك. وكان عبد الله

---

(١) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (٣٦٨-٤٦٣) من كتاب السيرة النبوية، وصاحب كتاب (الدرر فى اختصار المغازى والسير).

بن أبى بن سلول، وهو المقصود بمن (تولى كبره فله عذاب عظيم في الآخرة) هو أشد أهل الإفك إيذاء للنبى ﷺ، بدليل أن النبى ﷺ لما صعد المنبر قال: «يا معشر المسلمين، من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه في أهلى؟ (يعنى عبد الله بن أبى بن سلول) فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً - (أى صفوان بن المعطل، صاحب الناقة) - ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلى إلا معى». فقام أسيد بن حضير - (وهو ابن عم سعد بن معاذ) - فقال: أعذرك يا رسول الله منه، إن كان من الأوس ضرب عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج فما أمرتنا فعلناه. فقام سعد بن عبادة - (وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحًا، ولكن أخذته الحمية) - فقال لأسيد بن حضير: كذبت والله لا تقدر على قتله! فقام أسيد بن حضير وقال: كذبت لعمر الله لنقتلنه، وإنك لمنافق تجادل عن المنافقين! فثار الحيان: الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا. فالمراجعة لرسول الله ﷺ وقعت بين أسيد بن حضير وسعد بن عبادة سيد الخزرج كما ذكره ابن إسحاق عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله وغيره، وأما ما قيل من أن المراجعة في ذلك كانت بين سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فهو وهم نبه عليه ابن خلدون [1] في السيرة، واستدل على ذلك بأن سعد بن معاذ مات بعد فتح بنى قريظة بلا شك في أثناء السنة الرابعة، وغزوة بنى المصطلق فى شعبان من السنة السادسة، بعد عشرين شهرًا من موت سعد بن معاذ، والملاحاة بين الرجلين، أى المنازعة والمخاصمة، كانت بعد غزوة بنى المصطلق بأزيد من خمسين ليلة. انتهى.

وفى هذه الغزوة قتل رجل من الأنصار رجلا من المسلمين خطأ، يظنه كافرًا، والقتيل هشام من بنى ليث بن بكر، وكان أخوه مقيس مشركًا، فقدم المدينة وأظهر الإسلام طالبًا دية أخيه، فأمر له رسول الله ﷺ بها، وأقام قليلا ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، ثم خرج إلى مكة مرتدًا، ومن قوله:

---

(١) عبد الرحمن بن محمد (١٣٣٢-١٤٠٦م) المؤرخ والفيلسوف الاجتماعى الأشهر، وصاحب [المقدمة] التى أودعها فكرًا عبقريًا جاء ثمرة لمنهج علمى متقدم دقيق.

حللت به وترى[1] وأدركت ثورتى   وكنت إلى الأوثان أول راجع

وهو ممن أهدر النبى ﷺ دمه يوم فتح مكة .

وفى هذه الغزوة أيضًا ازدحم جَهْجاه الغفارى، أجير عمر رضى الله عنه، وسنان الجُهنى، حليف الأنصار على الماء وتَقاتلا فصرخ الغفارى: يا معشر المهاجرين، وصرخ الجُهنى: يا معشر الأنصار، فغضب عبد اللَه بن أبى بن سلول، المنافق، وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم، فقال ابن أبى بن سلول، أوَقَدْ فعلوها؟! قد كاثرونا فى بلادنا، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل! يعنى بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ، ثم قال لمن حضر من قومه: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم على أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا عنكم! فأخبر زيد بن أرقم، ذو الأذن الواعية، وهو غلام حديث السن، النبى ﷺ بذلك، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله، مُرْ به عبد الله بن بشير فليقتله، فقال ﷺ: «كيف يا عمر يتحدث الناس إذن أن محمداً يقتل أصحابه؟» ثم أمر بالرحيل فى وقت لم يكن ليرحل فيه، ليقطع ما الناس فيه، فلقيه أسيد بن حضير وقال: يا رسول الله، رحت فى ساعة منكرة لم تكن لتروح فيها؟! فإنه ﷺ كان لا يرحل إلا أن يرد الوقت، فقال له رسول الله ﷺ: أما بلغك ما قال عبد الله بن أبَىّ بن سلول؟ فقال: وماذا قال؟ فأخبره بمقاله، وأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبىّ فأتاه، فقال: أنت صاحب هذا الكلام الذى بلغنى؟ فحلف عبد الله أنه لم يقل ذلك. روى أن رسول الله ﷺ قال لزيد بن أرقم: لعلك غضبت عليه؟ قال: لا، قال: فلعله أخطأ سمعك؟ قال: لا، قال: فلعله شُبِّه عليك؟ قال: لا، فنزلت آية ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ (المنافقون: ٨) لتصديق زيد بن أرقم، فبادر أبو بكر وعمر إلى زيد رضى الله تعالى عنهم ليبشراه، فسبق أبو بكر، فأقسم عمر أن لا يبادره بعدها إلى شىء. وقال أسيد: أنت والله تخرجه إن شئت، أنت العزيز وهو الذليل. وبلغ ابن عبد الله بن أبى بن سلول، وكان حسن الإسلام، واسمه أيضًا عبد الله، وكان تبرأ

---

(١) الوتر ـ بكسر الواو ـ الانتقام.

من أبيه عند نزول سورة المنافقين، مقالة أبيه، فاعترض أباه عند المدينة، وقال: والله لا تدخل حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فأذن له، وحينئذ دخل، وقال: يا رسول الله، بلغنى أنك تريد قتل أبى عبد الله لما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالديه منى، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل أبى عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر وأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «نرفق به، ونحسن صحبته ما بقى معنا».

وكانت فى جملة السبى برة بنت الحارث بن ضرار، سيد بنى المصطلق، وقعت فى سهم ثابت بن قيس وابن عم له، فجعل ثابت لابن عمه نخلات له بالمدينة فى حصته من برة، وكاتبها[1] على تسع أواق من ذهب، فدخلت عليه ﷺ وأخبرته بإسلامها وقالت له: إنى برّة بنت الحارث، سيد قومه، أصابنا من الأمر ما قد علمت، ووقعت فى سهم ثابت بن قيس وابن عم له، وخلصنى ثابت من ابن عمه بنخلات فى المدينة، وكاتبنى على مال لا طاقة لى به، وإنى رجوتك فأعنى فى مكاتبتى. فقال رسول الله ﷺ: أو خير لك من ذلك؟ قالت: ما هو؟ قال: أؤدى عنك كتابتك، وأتزوجك؟ قالت: نعم يا رسول الله، فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت بن قيس رضى الله عنه فطلبها منه، فقال ثابت: هى لك يا رسول الله، وأدى ما كان كاتبها عليه وأعتقها وتزوجها، وهى ابنة عشرين سنة، وسماها جويرية، وكان اسمها برّة كما سبق، وكذلك ميمونة، وزينب بنت جحش، كان اسم كل منهما برة، فغيره ﷺ، وكذا كان اسم بنت أم سلمة برة فسماها زينب، وكانت من أفقه نساء زمانها. كذا ذكره أبو عمرو، وسبب ذلك لما فى برة من تزكية النفس.

ويذكر أن عليًا كرم الله وجهه هو الذى أسرها، ولا مانع من أن يكون علىّ رضى الله عنه أسرها ثم وقعت فى سهم ثابت بن قيس وابن عمه رضى الله عنهما عند القسمة، لأنه لم يثبت فى هذه الغزوة أنه ﷺ جعل الأسرى لمن أسرهم، كما

---

(١) المكاتبة هى أن يعلق مالك العبد أو الأمة عتقه على أداء مال محدد.

وقع في غزوة بدر. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت جويرية امرأة على وجهها ملاحة، فجاءت تسأل رسول الله ﷺ في كتابتها، فلما قامت على باب الخباء كرهتُ دخولها على النبي ﷺ - (وإنما كرهتْ ذلك لما جُبِلَت عليه النساء من الغَيرة) - وعرفت أن رسول الله سيرى منها مثل الذى رأيت، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث، وكان من أمري ما لا يخفى عليك، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، وإني كاتبته على نفسي فجئت أسألك في كتابتي، فقال رسول الله ﷺ: فهل لك فيما هو خير من ذلك؟ فقالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك؟ قالت: قد فعلت، قالت: فتسامع الناس - (يعني أن رسول الله ﷺ تزوج جويرية) - فأرسلوا ما في أيديهم من السبي فأعتقوهم، وقالوا أصهار رسول الله لا ينبغي أن تسترق، قالت فما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها، وأعتق بسببها مائة أهل بيت من بني المصطلق. خرجه بهذا السياق أبو داود. وعن جويرية رضي الله عنها قالت لما أعتقني رسول الله ﷺ وتزوجني والله ما كلمته في قومي حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم، وما شعرت إلا بجارية من بنات عمي تخبرني الخبر، فحمدت الله سبحانه وتعالى.

وقد حَدَّث يزيد بن رومان أن رسول الله ﷺ بعث إلى بني المصطلق، بعد إسلامهم، الوليد بن عقبة بن أبي معيط لأخذ صدقاتهم، فلما سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم هابهم، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره أن القوم قد هموا بقتله ومنعوه من أخذ صدقتهم، فأكثر المسلمون في ذكر غزوهم حتى هَمَّ رسول الله ﷺ بأن يغزوهم، فبينما هم على ذلك إذ قدم وفدهم على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك حين بعثته إلينا فخرجنا إليه لنكرمه ونؤدي إليه ما قبلنا من الصدقة، فانشمر[1] راجعًا! فبلغنا أنه زعم لرسول الله ﷺ أنا خرجنا إليه لنقتله، ووالله ما جئنا لذلك، فأنزل الله فيه وفيهم: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴿٦﴾

---

(١) انشمر: أي أسرع.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ (الحجرات: ٦) إلى آخر الآية.

وكان شعار المسلمين: يا منصور أمت.

وفى هذه السنة كسفت الشمس.

وأما ما قيل من أن آية التيمم نزلت فى غزوة بنى المصطلق فقد قال النووى فى [الروضة]: إن آية التيمم نزلت فى سنة أربع.

غزوة الحديبية

(وفى هذه السنة كانت غزوة الحديبية) (١)

وهى بئر قريب من مكة، بينها وبين المدينة تسع مراحل، سمى المكان باسمها، وقيل شجرة، وقيل قرية بقرب مكة على سبعة أميال من مكة.

وسبب هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ رأى فى المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه دخل وأصحابه المسجد الحرام وأخذ مفتاح الكعبة بيده وطافوا واعتمروا وحلق بعضهم وقصر بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوا(٢) مكة عامهم ذلك، فأخبر أصحابه أنه معتمر، فخرج من المدينة فى ذى القعدة سنة ست لا يريد حربًا، بالمهاجرين والأنصار، فى ألف وأربعمائة ليأمن أهل مكة ومن حولهم من حربه، وساق الهدى وأحرم بالعمرة من ذى الحليفة، ولبى فاقتدى به جمهور الصحابة، واستعمل ﷺ على المدينة الشريفة ابن أم مكتوم وقيل أبارهم كلثوم بن الحصين، وقيل استخلف أبارهم مع ابن أم مكتوم جميعًا، فكان ابن أم مكتوم على الصلاة وكان أبورهم حافظًا للمدينة، وسار حتى وصل إلى ثنية المُرار، مهبط الحديبية من أسفل مكة، وأمر بالنزول فقالوا: تنزل على غير ماء؟

---

(١) وتخفف وتشدد. [الطهطاوى]. أى تنطق الياء الثانية مفتوحة، مع التشديد، وبدونه.

(٢) فى الأصل: دخلوا.

ووقع من معجزاته ﷺ نبع الماء فى ذلك المكان حتى صدر الناس عنه، وتأهبت قريش للقتال، وبعثوا رسولهم عروة بن مسعود الثقفى، سيد أهل الطائف رضى الله عنه ـ فإنه أسلم بعد ذلك ـ إلى النبى ﷺ، وقال: إن قريشًا لبسوا جلود النمور ـ (أى أظهروا العداوة والحقد) ـ وقد نزلوا بذى طوى، وعاهدوا الله أن لا تدخل عليهم مكة عنوة أبدًا.

ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه، وهذه عادة العرب أن الرجل يتناول لحية من يكلمه خصوصًا عند الملاطفة، وفى الغالب إنما يصنع ذلك النظير بالنظير، لكن كأنه ﷺ إنما لم يمنعه من ذلك استمالة وتأليفًا له، وكان المغيرة بن شعبة قائمًا على رأس رسول الله ﷺ ومعه السيف وعليه المِغْفَر، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنصل السيف ويقولَ: كف يدك عن مس لحية رسول الله قبل أن لا تصل إليك، فإنه لا ينبغى لمشرك ذلك! وإنما فعل ذلك المغيرة رضى الله عنه إجلالاً لرسول الله ﷺ، ولم ينظر لما هو عادة العرب، فلما أكثر عليه غضب عروة وقال: ويحك! ما أفظك وما أغلظك! فتبسم رسول الله ﷺ وقال: هذا ابن أخيك، المغيرة بن شعبة. ثم قام عروة من عنده وهو يرى ما يصنع أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا سقط من شعره شىء إلا أخذوه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، ولا يحدون النظر إليه تعظيمًا له، فرجع عروة إلى قريش وقال لهم: إنى جئت كسرى وقيصر فى ملكهما، فوالله ما رأيت مَلكًا فى قومه مثل محمد فى أصحابه!!

وورد أيضًا فى حديث الحديبية أنه لما نزل ﷺ على الرَّكية جاءه بُديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من أهل تهامة فقال: تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا أعداد(١) مياه الحديبية معهمَ العُوذ المطافيل(٢)، وهم مقاتلوك وصادوك عن

(١) فى الأصل: عداد. . والصحيح: أعداد، ومفردها: عد، وهو الماء الذى لا انقطاع له. انظر [نهاية الأرب] جـ ١٧ ص ٢٢٢.

(٢) والعوذ جمع عائذ: الناقة ذات اللبن. والمطافيل: ذوات الأطفال الصغار، جمع مطفيل، أى أنهم حضروا مع الإبل ـ وهى كانت جل أموال العرب ـ ليتزودوا بذلك ولا يرجعون خوف الجوع. أو: العوذ المطافيل للنساء معهن أطفالهن، أى أنهم خرجوا بنسائهم معهن أولادهن لإرادة طول المقام، ليكون أدعى لعدم الفرار. [الطهطاوى].

البيت، ولما قال بديل بن ورقاء لرسول الله ﷺ: هم مقاتلوك وصادوك عن البيت، قال له النبى ﷺ: «لم نجىء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا [1] وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى - (وهى أعلى العنق) - أو لينفذن الله أمره». فقال بديل: سأبلغهم ما تقول.

ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يعلمهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرًا ومعظمًا لهذا البيت، فقال: يا رسول الله، إنى أخاف قريشًا على نفسى، وما بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها، ولكن أدلك على رجل أعز بها منى: عثمان بن عفان، فإن بنى عمه يمنعونه، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضى الله عنه فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش ليعلمهم بذلك، فخرج عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى مكة، ودخل مكة من الصحابة عشرة أيضًا بإذن رسول الله ﷺ ليزوروا أهاليهم، فلما وصل إليهم عثمان عرّفهم ذلك، وهم يردون عليه إن محمدًا لا يدخل علينا أبدًا، فلما فرغ عثمان من تبليغ رسالة رسول الله ﷺ قالوا له: إن أحببت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعله حتى يطوف رسول الله ﷺ، فغضبت قريش، وأمسكوه وحبسوه ثلاثة أيام.

ولما احتبس عثمان بلغ رسول الله ﷺ أن عثمان رضى الله قد قتل وقتلوا معه العشرة رجال الذين دخلوا مكة أيضًا، فحزن النبى ﷺ والمسلمون من سماع هذا الخبر حزنًا شديدًا، فقال النبى ﷺ حين بلغه ذلك: لا نبرح حتى نناجز القوم - (أى نقاتلهم) - ودعا النبى ﷺ إلى بيعة الرضوان فبايعهم على أن يقاتلوا قريشا ولا يفروا عنهم، وأنه إما الفتح وإما الشهادة، ولم يتخلف أحد إلا الجدّ بن قيس، اختفى بإبط ناقته يستتر بها من الناس، وكان سيد بنى سلمة [2] فى الجاهلية، وقد

---

(١) فى الأصل: حموا، بالحاء المهملة، وصحتها: جموا، بالجيم المعجمة، أى استراحوا.

(٢) بكسر اللام. [الطهطاوى]. والمؤلف يذكرها «مسلمة» ولكن الصحيح فيها: «سلمة».

قال ﷺ لبنى سلمة : من سيدكم؟ قالوا الجدّ بن قيس، على بخل فيه، قال: وأى داء أدوأ من البخل؟ ثم قال ﷺ : سيدكم عمرو بن الجموح. وكان ﷺ جالسًا تحت سَمُرَة[1] أو سدرة وكان عدد المبايعين ألفًا وثلاثمائة، وسميت هذه البيعة «بيعة الرضوان»، لأن الله تعالى ذكر فى سورة الفتح الذين صدرت عنهم هذه البيعة بقوله :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ (الفتح : ١٨).

ثم أتى رسول الله ﷺ الخبر بأن ما ذكر من أمر عثمان باطل، فبايع عنه ﷺ ، ووضع يده اليمنى على يده اليسرى، وقال: اللهم إن هذه عن عثمان، فإنه فى حاجتك وحاجة رسولك، وكانت يد رسول الله لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم.

وكان محمد بن مسلمة، رضى الله عنه، على حرس رسول الله ﷺ ، فبعثت قريش أربعين، وقيل خمسين، رجلا عليهم مكرز بن حفص ليطوفوا بعسكر رسول الله ﷺ رجاء أن يصيبوا منهم أحدًا أو يجدوا منهم غرّة، أى غفلة، فأخذهم محمد بن مسلمة إلا مكرزًا، فإنه أفلت، وأتى بهم إلىَ رسول الله ﷺ ، وبلغ قريشًا حبس أصحابهم فجاء جمع منهم حتى رموا المسلمين بالنبل والحجارة، فأسر المسلمون منهم اثنى عشر رجلا، وعند ذلك بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ جمعًا فيهم سهيل بن عمرو، فلما رآه النبى ﷺ قال لأصحابه : سهل أمركم، فقال سهيل : يا محمد، إن الذى كان من حبس أصحابك عثمان والعشرة رجال، وما كان من قتال من قاتلك، فإنه لم يكن من رأى ذوى رأينا، بل كنا كارهين له حين بلغنا، وكان من سفهائنا، فابعث إلينا بأصحابنا الذى أسرت أولاً وثانيًا، فقال رسول الله ﷺ : إنى غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابى، فقالوا: نفعل، فبعث سهيل ومن معه إلى قريش بذلك، فبعثوا بمن كان عندهم، وهو عثمان رضى الله عنه والعشرة رجال رضى الله عنهم، فأرسل رسول الله ﷺ أصحابهم. انتهى.

---

(١) وسمرة - بفتح السين المهملة وضم الميم بعدها راء مفتوحة مهملة وآخرها هاء - شجر الطل. [الطهطاوى].

ولما علمت قريش بهذه البيعة خافوا، وأشار أهل الرأى بالصلح على أن يرجع ويعود من قابل، فيقيم ثلاثا، معه سلاح الراكب: السيوف فى القرب والقوس، فبعثوا سهيل بن عمرو ثانيا ومعه مكرز بن حفص وحويطب بن عبد العزى إلى رسول الله ﷺ ليصالحه على أن يرجع فى عامه هذا، لئلا تتحدث العرب بأنه دخل عنوة، وأنه يعود من قابل، فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ جثا على ركبتيه بين يديه ﷺ، والمسلمون حوله، وتكلم فأطال ثم تراجعا، ومن جملة ذلك أن النبى ﷺ قال له: تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف، قال له سهيل: والله لا تتحدث العرب بنا أننا أُخذنا ضُغطة [1]، ولكن ذلك من العام القابل. ثم التأم الأمر بينهما على الصلح على ترك القتال، إلى آخر ما يأتى، ولم يبق إلا الكتاب بذلك.

وعند ذلك وثب عمر حتى أتى أبا بكر فقال: أليس رسولَ الله؟ قال: بلى، قال: ألسنا بالمسلمين وهم بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطى الدَّنية [2] فى ديننا؟! قال: يا عمر، إلزم فأنا أشهد أنه رسول الله، قال: وأنا! ثم أتى رسول الله فقال له ذلك، فقال: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعنى.

فأجاب النبى ﷺ إلى ذلك، فقال سهيل: هات اكتب بيننا وبينكم كتاب صلح، فدعا النبى ﷺ الكاتب فقال له: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا أعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة، اكتب باسمك اللهم، فقال المسلمون: لا تكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبى ﷺ: اكتب «باسمك اللهم»، فكتب، ثم قال: اكتب «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، محمد بن عبد الله، فقال النبى ﷺ: إنى لرسول الله وإن كذبتمونى، وأنا محمد بن عبد الله، اكتب «محمد بن عبد الله».

وفى رواية: كان الكاتب علىّ بن أبى طالب، وكان قد كتب «محمد رسول

---

(١) بالضم، أى بالشدة والإكراه. [الطهطاوى].

(٢) بفتح الدال وكسر النون وتشديد الياء: النقيصة والخصلة المذمومة. [الطهطاوى].

الله»، فقال رسول الله ﷺ لعليّ: أمح رسول الله، واكتب مكانه: محمد بن عبد الله، فقال عليّ: لا والله لا أمحوك أبدًا، فقال النبي ﷺ: فأرنيه، فأراه إياه، فأخذ الكتاب بيده الكريمة ومحا رسول الله وكتب مكانه: محمد بن عبد الله وكانت هذه معجزة لرسول الله ﷺ حيث كتب بيده الشريفة، ولم يكن يكتب، وأقبل بوجهه ﷺ على عليّ بعد ما كتب في كتاب الصلح: محمد بن عبد الله، فقال: يا عليّ سيكون لك يوم مثل هذه الواقعة، ثم قال رسول الله ﷺ لعليّ اكتب «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وعلى أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليه وإن كان مسلما، وإن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وإن من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وإنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها أنت وأصحابك فأقمت فيها ثلاثًا مع سلاح الراكب: السيوف في القرب، لا تدخلها بغيرها». وأشهدوا في ذلك الكتاب على الصلح رجالا من المسلمين: أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وعليّ بن أبي طالب، وهو كاتب الصحيفة، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأبوعبيدة بن الجراح، ومحمد بن مسلمة، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ورجالاً من قريش: حويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص.

ولما بلغ هذا الشرط: أن من أتى محمداً من قريش رده إليهم وإن كان مسلمًا، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه، تعجب المسلمون من هذا الشرط، فقالوا: سبحان الله! كيف نرد من أتانا مسلمًا؟ وقالوا: يا رسول الله، أتكتب هذا؟! قال: نعم، إنه من ذهب إليهم فأبعده الله، ومن جاء منهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا.

ونسخ الكتاب نسختين، فوضعت إحداها عند رسول الله ﷺ وأخذ الأخرى سهيل بن عمرو، ولما فرغ من كتاب القضية وثب من كان من هناك من خزاعة فقالوا: نحن ندخل في عهد محمد وعقده، وقال بنو بكر: نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم.

وقد كان النبى ﷺ علم أن هذا الصلح سبب لأمن الناس وظهور الإسلام، وإن الله يجعل فيه فرجًا للمسلمين، وهو أعلم بما علمه ربه، وإن كان أمر هذا الصلح قد عظم على المسلمين حتى كادوا يهلكون لما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع من غير فتح، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ لما خرجوا من المدينة لا يشكون فى فتح مكة، للرؤيا التى رآها النبى ﷺ، وهذه الشروط الصعبة انضم إليها أمره ﷺ لعلىّ رضى الله تعالى عنه فى كتب الصحيفة أن يمحو لفظ رسول الله، ولم يمحه، ومحاه النبى ﷺ وكتب بدله ابن عبد الله، بيده، فكان هذا من الخطب الجسيم الذى يوقع الريب فى القلوب الضعيفة حتى لمن لا يفهم الأسرار فى الأزمان الحديثة، والحال أنها واردة وثابتة بالأحاديث الصحيحة، فما يقع فى الوهم من أن هذه الكتابة قادحة فى المعجزة باطل، لأن الكتابة إذا وقعت من غير معرفة بأوضاع الحروف ولا قوانين الخط وأشكالها بقيت الأمية على ما كانت عليه، وكانت هذه الكتابة الخاصة من إحدى المعجزات وتمامها، كما كان من المعجزات فى كتابة شروط الصلح إخباره ﷺ عليًا أنه سيكون لك يوم مثل هذه الواقعة، وهو إشارة منه ﷺ لما سيقع بين علىّ ومعاوية رضى الله عنهما، فإنهما فى حرب «صفِّين» وقعت بينهما المصالحة على ترك القتال إلى رأس الحول، وصح ذلك وظهر يومَ التحكيم، لما قال حكم أهل الشام حين كتب فى الصلح: هذا ما صالح عليه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب، ولو عرفنا أنك أمير المؤمنين ما خالفناك، كما سيأتى مبينًا فى خلافته.

وأما ما ورد من أنه رضى الله تعالى عنه، فى عام الحديبية وفى غزوة بنى المصطلق، قاتل الجن، وأن جبريل قال يوم غزوة أحد، وهو صاعد إلى السماء: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علىّ، فهذا من الموضوع، كما ذكره ابن تيمية [1]، يعنى أن مغزاه موضوع لم يرد من طريق يعتد به، وإن كان المدح فى علىّ لا يستكثر عليه، وذلك للإجماع على شجاعته وكرامته، والمراد بالفتى الشجاع السيد، وفى

(١) تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية الحرانى (١٢٦٣-١٣٢٨م) فقيه ومحدث وأحد علماء الكلام، له آثار كثيرة ذات جوانب متعددة، فهو محافظ بمقاييس المفكرين العقلانيين إذا تعلق الأمر بالفلسفة، وهو ثورى إذا كان الحديث عن السياسة والعدل والتصدى لجور الحكام.

الحديث: إن ملكًا يقال له رضوان نادى يوم بدر من السماء: لا فتى إلا علىّ ولا سيف إلا ذو الفقار، وقال النبى ﷺ: أنا الفتى ابن الفتى أخو الفتى ابن الفتى، يعنى إبراهيم، وأخو الفتى يريد عليًا كرم الله وجهه. انتهى. وقد علمت ما فى هذا الكلام، وان كان معناه لا يستكثر على علىّ رضى الله عنه.

وأتى أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيده من مكة فى أثناء الكتاب، وكان قد أسلم، فقال سهيل بن عمرو: هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلىّ، فرده ﷺ إلى أبيه، وعظم ذلك على المسلمين، وأخبر النبى ﷺ أبا جندل أن الله سيجعل له فرجا ومخرجًا، إننا قد عقدنا بيننا وبين القوم عقدًا، واصطلحنا، وأعطيناهم على ذلك واعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم.

ولما تم الصلح وكتابه أمر رسول الله ﷺ أن ينحروا ويحلقوا، فتوقفوا، فغضب حتى شكا إلى زوجته أم سلمة، فقالت: يا رسول الله، لا تلمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح، ولكن اخرج وانحر واحلق فإنهم تابعوك، فخرج ونحر وحلق رأسه حينئذ، وكان الحالق له ﷺ خراش بن أمية الخزاعى، رضى الله عنه، فلما رآه الناس نحر وحلق فعلوا مثله، وقسم لحوم الهديا على الفقراء الذين حضروا الحديبية، وبعث النبى ﷺ عشرين بدنة مع ناجية حتى نحروها «بمروة» وقسموا لحومها على فقراء مكة، قال ابن عباس: حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: اللهم اغفر للمحلقين، وفى [معالم التنزيل] قال: يرحم الله المحلقين، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: والمقصرين؟ وفى الثالثة أو الرابعة قال: والمقصرين؟ قالوا لم ظاهرت ـ (أى أظهرت) ـ الترحم للملحقين دون المقصرين؟ قال: لأنهم لم يشكوا ـ (أى لم يرجوا أن يطوفوا بالبيت، بخلاف المقصرين، أى لأن الظاهر من حالهم أنهم أخروا بقية شعورهم رجاء أن يحلقوها بعد طوافهم بالبيت).

وكان صلح الحديبية فتحًا قريبًا، أمن الناس بعضهم بعضًا، ورضى من الله

تعالى، قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، كما سبق، وعن جابر إنهم كانوا يوم الحديبية أربع عشرة مائة، فبايعوه ﷺ وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سَمُرة، غير الجدّ بن قيس اختفى تحت بطن بعيره. زادوا في رواية: وقيل عدد المبايعين خمس عشرة مائة فأكثر، وقيل غير ذلك.

قال أهل السير أقام النبي ﷺ عشرين يومًا بالحديبية ثم رجع ﷺ إلى المدينة، وما فتح من قبله فتح أعظم من هذا الفتح، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس بعضهم بعضًا، التقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام أحدًا إلا دخل فيه، فلقد دخل في مدة سنتين في الإسلام مثل ما كان قبل ذلك أو أكثر ببركة مهادنته ﷺ، ولما رجع ﷺ إلى المدينة حتى إذا كان بين مكة والمدينة، بكراع الغميم [1]، نزل ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (الفتح: ١) إلى آخرها، وسمى فتحًا لأنه كان مقدمة لفتوح كثيرة تتسع بها دائرة الإسلام، ولما نزلت قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنزلت عليّ سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس.

ثم أن أبا بصير عتبة بن أسد بن حارثة هرب ولحق بالنبي ﷺ، وكان قد أسلم وحبسه قومه بمكة، وهو ثقفي من حلفاء بني زهرة، فبعث إليه الأزهر بن عبد عوف، [2] عم عبد الرحمن بن عوف، والأخنث بن شريق، سيد بني زهرة، كتابًا مع رجل من بني عامر بن لؤي، ومعه مولى لهم بطلب أبي بصير، فأسلمه النبي ﷺ، فاحتملاه، فلما نزلوا بذي الحليفة أخذ أبو بصير السيف من أحد الرجلين ثم ضرب به العامري فقتله، وفر الآخر، وأتى أبو بصير إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، قد وفت ذمتك حيث رددتني إليهم، وأطلقني الله منهم! فقال النبي ﷺ ويْلمه - (أي ويل أمه) - مسعر حرب لو كان له رجال! ففطن أبو بصير من لحن هذا القول أنه سيرده، وخرج إلى سيف البحر على طريق قريش الذي كانوا يأخذونه إلى الشام، وبلغ المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة قول رسول الله

---

(١) موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة، أمام عسفان بثمانية أميال. [نظر مراصد الاطلاع].

(٢) في الأصل: وعم.

ﷺ: ويْلمه، مسعر حرب ولو كان معه رجال، فخرجوا إلى أبى بصير، فاجتمع إليه قريب من سبعين رجلاً منهم. وذكر موسى بن عقبة أن أبا جندل ابن سهيل بن عمرو، الذى رد إلى قريش بالحديبية مكرهًا يوم الصلح والقضية هو الذى انفلت فى سبعين راكبًا أسلموا وهاجروا فلحقوا بأبى بصير ونزلوا معه، وكرهوا أن يقدموا على رسول الله ﷺ فى تلك المدة التى هى زمن الهدنة خوف أن يردهم إلى أهليهم حكم الشروط، واجتمع إلى أبى جندل أناس من غفار وأسْلم وجُهينة وطوائف من العرب حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل، وهم مسلمون، فأقاموا مع أبى جندل وأبى بصير فقطعوا مادة قريش لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ولا تمر بهم عير لقريش إلا أخذوها وقتلوا أصحابها، وقال فى ذلك أبو جندل:

أبلغ قريشًا عن أبى جندل	**أنّا بذى المَرْوة بالساحل**
فى معشر تخفق أيمانهم (1)	**بالبيض فيها والقنا الذابل** (2)
يأبون أن تبقى لهم رفقة	**من بعد إسلامهم الواصل**
أو يجعل الله له مخرجًا	**والحق لا يُغلب بالباطل**
فيسلم المرء بإسلامه	**أو يُقتَل المرء ولا ياتل** (3)

فأرسلت (4) قريش أبا سفيان بن حرب إلى رسول الله ﷺ يسألونه ويتضرعون إليه ويناشدونه بالله والرحم أن يرسل إلى أبى بصير وأبى جندل بن سهيل ومن معهم فيقدمون عليه، وقالوا: إنا أسقطنا هذا الواحد من الشروط، فمن أتى محمدًا فهو آمن، وقيل قالوا: من خرج منا إليك فامسك فى غير حرج، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا بابا لا يصلح إقراره، فلما كان ذلك من أمرهم علم الذين كانوا أشاروا على رسول الله ﷺ أن يمنع أبا جندل من أبيه يوم الصلح

---

(1) فى [نهاية الأرب]: راياتهم.

(2) فى [نهاية الأرب]: الذبل، والذبل مفردها: ذابل وهو الدقيق.

(3) أى لا يقصر.

(4) فى الأصل: فأرسل.

والقضية أن طاعة رسول الله ﷺ خير فيما أحبوا وفيما كرهوا، وأن رأيه أفضل من رأيهم، وعلموا بعد ذلك أن مصالحته ﷺ كانت أولى، لأنها كانت سببًا لكثرة المسلمين، فإن المشركين لما أمنوا القتال اختلطوا بالمسلمين فأثر فيهم الإسلام، فأسلم الكثير منهم.

وكتب رسول الله ﷺ يأمر أبا بصير أن يقدم عليه بالمدينة هو وأبو جندل الذى كان اجتمع به مع رفاقه، ويأمر من معهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم ولا يتعرضوا لأحد مر بهم من قريش، فلما قدم كتاب رسول الله ﷺ على أبى بصير، وكان حينئذ مشرفًا على الموت، مات وكتاب رسول الله ﷺ فى يده يقرأه، فدفنه أبو جندل مكانه، وجعل عند قبره مسجدًا، وقدم على رسول الله ﷺ أناس من أصحاب أبى جندل، ورجع سائرهم إلى أهليهم وأمنت عيرات [1] قريش، وظاهر بعض الروايات يدل على أن قوله تعالى ﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ** ﴾ (الفتح: ٢٤). نزلت فى قصة أبى بصير.

ولم يزل أبو جندل مع رسول الله ﷺ وشهد ما أدرك من المشاهد بعد ذاك، وشهد الفتح، ورجع مع رسول الله ﷺ، وقدم أبوه سهيل بن عمرو المدينة أول إمارة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما فمكث بها شهرًا ثم خرج إلى الشام يجاهد، وخرج معه ولده أبو جندل، فلم يزالا مجاهدين حتى ماتا هناك، رضى الله تعالى عنهما.

وهاجرت فى مدة الصلح أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط، وجاء فيها أخواها عمارة والوليد ابنا عقبة حتى قدما على رسول الله ﷺ يسألانه أن يردها عليهما بالعهد الذى بينه وبين قريش بالحديبية، فلم يفعل، وقال: أبى الله ذلك، وأنزل الله فيه على رسوله ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ** ﴾ (الممتحنة: ١٠) الآية، وكان الامتحان أن تُستَحلف المرأة المهاجرة أنها ما هاجرت ناشزًا ولا هاجرت إلا لله ورسوله فكان فى الآية بيان أن ذلك الرد فى الرجال لا فى النساء، لأن المسلمة لا تحل للكافر، فلما تعذر ردهن لورود النهى عنه لزم رد

---

(١) فى الأصل: عيران، وهو خطأ فعير جمعها: عيرات.

مهورهن، فأمر النبى ﷺ أن لا ترجع المؤمنات إلى الكفار لشرف الإسلام وأن لا تكون كافرة فى نكاح مسلم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ (الممتحنة: ١٠) فمنع الله من رد النساء وفسخ ذلك الشرط المكتتب، وحرم الله حينئذ على المسلمين إمساك الكوافر فى عصمتهم فطلق الأصحاب كل امرأة مشركة فى نكاحهم، وطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين له مشركتين بمكة. وعن ابن عباس يعنى من كانت له امرأة بمكة فلا يعدّها من نسائه، لان اختلاف الدارين قطع عصمتها منه.

وفى غزوة الحديبية صار صلح مصر للروم حيث غلب الروم فارسًا وأخرجوهم من الشام.

* * *

وفى هذه السنة ماتت أم رومان بنت عامر بن عويمر، أم عائشة رضى الله عنها، كانت أسلمت قديمًا، وكانت أولاً تحت عبد الله بن سخيرة فولدت له الطفيل، وهو أخو عائشة لأمها، ثم مات عنها فتزوجها أبو بكر فولدت له عبد الرحمن وعائشة.

وفى السنة السادسة فرض الحج، على ما عليه الجمهور، وقيل كان قبل الهجرة، حكاه إمام الحرمين [١] فى [النهاية] وقيل غير ذلك.

وفى هذه السنة نزل حكم الظهار، وذلك أن أوس بن الصامت غضب على زوجته خَوْلَةَ بنت ثعلبة، ذات يوم، وقال لها: أنت علىّ كظهر أمى، وكان ذلك أو ظهار فى الإسلام، وكان الظهار طلاقًا فى الجاهلية، ثم ندم على ما قال، فأتت خولة النبى ﷺ وعائشة تغسل رأسه، فقالت: يا رسول الله، إن زوجى أوس بن الصامت تزوجنى وأنا ذات مال وأهل، فلما أكل مالى وذهب شبابى وتفرق أهلى ظاهَر منى، فقال ﷺ: حرمت عليه، فبكت وصاحت وقالت: أشكو إلى الله

---

(١) أبو المعالى الجوينى (١٠٢٨-١٠٨٥) من أعلام الفرقة الأشعرية، تولى التدريس والفتيا بمكة والمدينة زمنًا، ثم عمل بالتدريس فى المدرسة النظامية بنيسابور ـ مقر نشأته ـ ومن آثاره الفكرية [الإرشاد] و[البرهان] و [الشامل].

فقري وفاقتي ووجدي وصبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليَّ جاعوا! فقال ﷺ : ما أراك إلا حرمت عليه، فجعلت ترفع صوتها باكية وتقول: اللهم إني أشكو إليك! فبينما هي على تلك الحالة إذ تغير وجه رسول الله ﷺ للوحي، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا** ﴾ (المجادلة: ١) فدعا رسول الله ﷺ أوس بن الصامت فتلا عليه الآيات المذكورة، فقالت عائشة: تبارك الله الذي وسع علمه كل شيء، إني كنت أسمع كلام خولة ويخفى عليّ بعضه وهي تحاور رسول الله ﷺ، فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات! فقال رسول الله ﷺ لأوس: اعتق رقبة، قال ما لي بهذا قدرة، قال: فصم شهرين متتابعين، قال: إني إذا لم آكل في اليوم مرتين كَلّ بصري، قال: فاطعم ستين مسكينًا، قال: لا أجد، إلا أن تعينني منك بعون وصلة، فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعًا، وكانوا يرون أن عند أوس مثلها، وذلك لستين مسكينًا لكل مسكين نصف صاع، وهذا أول ظهار في الإسلام.

وفي رمضان هذه السنة استسقى رسول الله ﷺ لما أجدب الناس، فمطروا، فقال ﷺ أصبح الناس مؤمنًا بالله وكافراً بالكواكب! قاله مغلطاي. واستسقى في موضع المصلى، وصلى صلاة الاستسقاء. روى أنه قحط الناس على عهد رسول الله ﷺ فأتاه المسلمون وقالوا: يا رسول الله، قحط المطر، ويبس الشجر، وهلكت المواشي، وأسْنَت الناس [1]، فاستسق لنا ربك فخرج رسول الله ﷺ والناس معه، يمشي ويمشون بالسكينة والوقار، حتى أتو المصلى، فتقدم وصلى بهم ركعتين يجهر فيهما بالقراءة، وكان ﷺ يقرأ في العيدين والاستسقاء في الركعة الأولى (بفاتحة الكتاب) و(وسبح اسم ربك الأعلى)، وفي الركعة الثانية (بفاتحة الكتاب) و(هل أتاك حديث الغاشية) فلما قضى صلاته استقبل الناس بوجهه وقلب رداءه، لكي ينقلب القحط إلى الخصب، ثم جثا على ركبتيه، ورفع يديه، وكبّر تكبيرة قبل أن يستسقي، ثم قال: «اللهم اسقنا وأغثنا غيثًا مُغيثًا، وحياء ربيعًا،

---

(١) أي أصابهم الجدب.

وجدا طبقًا غدقًا مغدقًا، عامًا هنيئًا مريئًا، مريعًا مرتعًا، وابلاً شاملاً مسبلاً مجللاً دائمًا، ودرًا نافعًا غير ضار، عاجلاً غير رائث، غيثًا اللهم تحيي به البلاد، وتغيث به العباد، وتجعله بلاغًا صالحًا للحاضر والباد، اللهم أنزل في أرضنا زينتها وأنزل عليها سكينتها، اللهم أنزل علينا من السماء ماء طهورًا تحيي به بلدة ميتًا، واسقه مما خلقت أنعامًا وأناسي كثيرًا» فما برحوا حتى أقبل قَزَع [1] من السحاب فالتأم بعضه إلى بعض ثم أمطرت سبعة أيام بلياليهن لا تقلع عن المدينة فأتاه المسلمون وقالوا: يا رسول الله، قد غرقت الأرض وتهدمت البيوت وانقطعت السبل، فادع الله تعالى أن يصرفها عنا! فضحك رسول الله ﷺ، وهو على المنبر حتى بدت نواجذه تعجبًا لسرعة ملالة بني آدم، ثم رفع يديه ثم قال: حوالينا ولا علينا، اللهم على رؤوس الظِّراب [2]، ومنابت الشجر وبطون الأودية وظهور الآكام، فتصدعت عن المدينة حتى كانت مثل ترس عليها كالفسطاط تمطر مراعيها ولا تمطر فيها قطرة، وفي رواية: لما صارت المدينة كالفسطاط تمطر مراعيها ولا تمطر فيها قطرة، وفي رواية: لما صارت المدينة كالفسطاط، وضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: لله أبو طالب، لو كان حيًا لقرت عيناه، من الذي ينشدنا قوله؟ فقام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله كأنك أردت:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال رسول الله ﷺ: أجل.

---

(١) قطع من السحاب صغار متفرقة.

(٢) الروابي الصغيرة، ومفردها: ظرب ـ بكسر الراء ـ.

الفصل السابع
(فى ظواهر السنة السابعة وما فيها من الغزوات)

غزوة خيبر
(وفى هذه السنة من الهجرة كانت غزوة خيبر، فى منتصف المحرم)

وخيبر بلد بينها وبين المدينة ثمانية بُرُد، ذات حصون، أعظمها يسمى القموص. لما قدم رسول الله ﷺ من الحديبية مكث بالمدينة الحجة وبعض المحرم، ثم خرج إليها غازيا، فدفع اللواء إلى على وسار فلما أشرف قال لأصحابه: قفوا، ثم قال: «اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله». ونزلوا على خيبر ليلاً فلم يصح لهم تلك الليلة ديك، وكان ﷺ إذا غزا قومًا لم يغز عليهم حتى يصبح، فإن سمع أذانًا أمسك وإلا أغار، فبات لم يسمع أذانا، فلما أصبحوا خرجوا إلى أعمالهم بمساحيهم و مكايلهم لعدم علمهم، فلما رأوه ﷺ عادوا، وقالوا: محمد والخميس (١) فقال النبى ﷺ الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.

---

(١) أى الجيش، سمى به لأنه خمسة أخماس: ميمنة وميسرة ومقدمة ومؤخرة وقلب. [الطهطاوى].

وبهذا استدل على أن إيراد آيات القرآن على سبيل الاقتباس والاستشهاد، لا بقصد التلاوة والقراءة، جائز فيما يحسن ويجمل لا في المدح ولغو الحديث، وبه قال النووى فى [شرح مسلم]، وقد جاء لهذا نظائر كثيرة، كما ورد فى فتح مكة أنه ﷺ جعل يطعن فى الأصنام ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا)، كما سيأتى، وأخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن المسيب قال: كان رسول الله ﷺ إذا رأى الهلال قال آمنت بالذى (خلقك فسواك فعدلك)، ومما يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: كنت عند أبى فى وصيته وهى «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر بن قحافة عند خروجه من الدنيا، حين يؤمن الكافر، ويتقى الفاجر، ويصدق الكاذب، أنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذلك ظنى فيه ورجائى فيه، وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون)» وروى أن عثمان بن عفان يوم الدار أشرف من داره على الناس، وقد أحاطوا به، فقال: ياقوم، (لايجر منكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) يا قوم (إن)[1] تقتلونى كنتم هكذا، وشبك بين أصابعه. فكل هذا، كغزوة خيبر، وحديث فتح مكة، يدل على جواز الاقتباس. انتهى.

* * *

وفرق ﷺ الرايات، ولم تكن الرايات إلا بخيبر، وإنما كانت الألوية، وكانت رايته يومئذ سوداء تسمى العقاب، لكون لون العقاب أسود، ثم حاصرهم وضيق عليهم وأخذ الأموال وفتح الحصون حصنًا حصنًا حتى انتهى إلى حصنهم الوَطيح والسُّلالم، وكان آخر الحصون افتتاحًا، وكان حصارهم بضع عشرة ليلة، وأخذ سبايا منهم صفية بنت كبيرهم حُيَىّ بن أخْطب، اصطفاها ﷺ لنفسه وتزوجها، وجعل عتقها صداقها، وبهذا أخذ الإمام أحمد رضى الله عنه حكم مذهبه، وهو من مفرادت مذهبه، وقال غيره: إن هذا من خواصه ﷺ، وكانت صفية رأت فى

(١) فى الأصل: لا تقتلونى، والصحيح: إن تقتلونى.

المنام، وهى عروس بكنانة بن أبى الربيع بن أبى الحُقَيق، أن قمرًا وقع فى حجرها فذكرته لزوجها فقال: ما هذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز محمد! ولطمها، وعرس ﷺ بها فى الطريق فى قبة، فبات أبو أيوب الأنصارى متوشحًا بالسيف يحرسه، فلما أصبح رآه النبى ﷺ، فقال: مالك؟ قال: خفت عليك من امرأة قتلت أباها وزوجها وقومها، وهى حديثة عهد!

وكانت الراية مع أبى بكر رضى الله تعالى عنه فكان يقاتل قتالاً شديدًا، ثم أخذها عمر فقاتل قتالاً شديدًا، فقال ﷺ: «أما والله لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كرّارا غير فرار، يأخذها عنوة»، فتطاول المهاجرون والأنصار إليها يرجو كل واحد أن يكون هو صاحب ذلك، وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه قد تخلف بالمدينة لرمد لحقه، فلما أصبحوا جاء على فتفل النبى ﷺ فى عينيه فما اشتكى رمدًا بعدها، ثم أعطاه الراية، وعليه حلة حمراء، فنهض بها وأتى خيبر، فأشرف عليه رجل من يهودها، وقال من أنت؟ قال: على بن أبى طالب، فقال اليهودى: غُلِبْتُم يامعشر اليهود، فخرج مَرْحَب صاحب الحصن من الحصن، ولم يكن فى أهل خيبر أشجع من مرحب، وعليه مغفر يمانى وعلى رأسه بيضة وله رمح سنانه ثلاثة أسنان، ونادى: من يبارز وهو يرتجز ويقول:

قد علمت خيبر أنى مرحب ... شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن أحيانًا وحينًا أضرب ... إذا الحروب أقبلت تلتهب
إن حماى للحِمى لأيُقْرَب (1)

---

(1) الرواة يختلفون، بعض الاختلاف فى رواية هذا الرجز.. فالشطر الثانى من البيت الثانى يروى هكذا:

* إذا الليوث أقبلت تحرب * كما يروى: * إذا الليوث أقبلت تلهب *..

كما تعكس روايات أخرى شطرى البيت.. كما يروى الشطر الأخير هكذا:

* كان حماى كالحمى لا يقرب *..

* انظر [نهاية الأرب] جـ١٧ ص٢٥٣ و [الدرر] ص٢١٣.

فخرج على كرم الله وجهه وهو يقول :

أنا الذى سـمَّـتْنى أمى حـيـدره   أكيـلكم بالسيف كـيل السندره [(١)]

ليث بغابات شديد القسورة [(٢)]

فاختلفا بضربتين فسبقه على رضى الله عنه فَقدَّ البيضة والمِغْفَر ورأسه ، فسقط عدو الله ميتًا .

وكان فتح خيبر فى شهر صفر على يد على رضى الله عنه بعد حصار بضع عشرة ليلة وإلى ذلك يشير بعضهم :

وشـادن أبصـرته مـقـبـلاً   فـقلت منْ وجـدى به مُـرَحِّبـا

قـدَّ فـؤادى فى الـهـوى قَـدَّه   قَـدَّ عَلِـىّ فى الوغى مَـرْحَـبـا

وفتح المسلمون حصون خيبر كلها عنوة إلا حصن الوطيح وحصن سلالم [(٣)] فإنهما فتحا صلحًا ، وكان أعظم حصون خيبر حصن القموص [(٤)] من حصون الكتيبة الثلاثة ، وكان منيعًا حاصره المسلمون عشرين ليلة ، ثم فتحه الله على يد على رضى الله عنه ، ومنه سبيت صفية رضى الله عنها ، وقيل إن اسمها قبل أن تسبى زينب فلما صارت من الصفى سميت صفية ، والصفى ما كان يصطفيه ﷺ لنفسه من الغنيمة قبل أن تقسم ، وكان فى الجاهلية لأمير الجيش ربع الغنيمة ،

---

(١) والسندرة : مكيال معلوم . ومعلوم أن حيدرة اسم من أسماء الأسد ، وهو أشجعها ، أشار بذلك إلى أمه فاطمة لما ولدته سمته باسم أبيها ، وكان أبو طالب حينئذ غائبا ، فلما قدم سماه عليا ، ولذلك قال على ، رضى الله عنه ، يوم خيبر : أنا الذى سمتنى . . إلى آخره ، فغلب عليه ما سماه أبوه . [الطهطاوى] .

(٢) يختلف الرواة بعض الاختلاف فى رواية هذا الرجز ، فهناك رواية ترويه هكذا :

أنا الذى سمتنى أمى حيدره   كليث غابات كريه المنظره

أوفيهم بالصاع كيل السندره

والصاع : مكيال صغير ، والسندره مكيال كبير . . والمراد : أقتلهم قتلا ذريعاً .

(٣) بضم السين المهملة . [الطهطاوى] .

(٤) كصبور . [الطهطاوى] .

ومن ثم قيل له المرْباع، قال السهيلى رحمه الله: كانت أموال النبى ﷺ من ثلاثة أوجه: الصفى، والمدية، وخمس الخمس. هذا كلامه.

ولا يخفى أنه يزاد على ذلك الفيء. وباقى حصون الكتيبة الثلاثة هو حصن الوطيح، وحصن سلالم المتقدميْن.

وشهد خيبر مع رسول الله ﷺ نساء من النساء المسلمات فرضخ [1] لهن عليه السلام من الفيء ولم يضرب لهن بسهم، وقيل ضرب لهن أيضًا بسهم كامل، وكانت قد خرجت معهم عشرون امرأة، وفى حديث ابن أبى الصلت عن امرأة غفارية سماها قالت: أتيت رسول الله ﷺ فى نسوة من غفار، وهو يسير إلى خيبر، فقلنا: يا رسول الله، قد أردنا الخروج معك لنداوى الجرحى ونعين المسلمين ما استطعنا، فقال: على بركة الله، قالت: فخرجنا معه، فلما افتتح خيبر رضخ لنا من الفيء.

واستشهد بخيبر من المسلمين نحو من عشرين رجلاً، منهم عامر بن الأكوع، عم سلمة ابن الأكوع، وقد كان رسول الله ﷺ قال له فى مسيره على خيبر: انزل يا ابن الأكوع فاحْدُ لنا من هنيهاتك، فنزل يرتجز برسول الله ﷺ فقال:

والله لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

وقتل عامر بن الأكوع رضى الله عنه بسيف نفسه، رجع عليه وهو يقاتل فكلمه كلمًا شديدًا فمات منه.

وفى غزوة خيبر أهديت للنبى ﷺ الشاة المسمومة فأخذ منها قطعة ولاكها، وأكل القوم، فقال: ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتنى أنها مسمومة، فمات بشر بن البراء، وكان بشر قد أساغ تلك اللقمة والمصطفى ﷺ لم يسغها، لكنها أثرت فى فمه ولهواته قبل أن يُنْطق الله له ذراعها بالتحذير مما دس فيها من السم القاتل من ساعته، ودعا ﷺ باليهودية فاعترفت، ثم قال لها: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: إن كنت نبيًا لم يضرك الذى صنعت، وإن كنت ملكًا أرحت الناس منك!

---

(١) الرضخ، هو القليل من العطية.

فقال ما كان الله ليسلطك على ذلك ولم يعاقبها لأنه كان لاينتقم لنفسه، وإلى ذلك يشير صاحب [الهمزية] رحمه الله تعالى بقوله :

ثم سمت له اليهودية الشا ة وكم سام الشقوة الأشقياء

فأذاع الذراع ما فيه من شر بنطق إخفاؤه إبداء

وبخلق من النبي كريم لم تقاصص بجرحها العجماء

أى ثم جعلت اليهودية السم القاتل فى الشاة، ومرات كثيرة يطلب الشقوة ويتحلى بها الأشقياء الذين لا خلاق لهم، فأخبر ذلك الذراع النبى ﷺ بالنطق بما فيه من سم، إخفاء ذلك النطق عن الحاضرين إبداء وإظهار له ﷺ، وبسبب ما تحلى به ﷺ من كمال الحلم والعفو لم تقاصص تلك المرأة بجرحها، أى بجرح سمها، لأن السم بجرح الباطن كما يجرح الحديد الظاهر .

وما قيل إنه أمر بها فقتلت به قصاصًا لعله هو عين ما يروى عن ابن عباس : أنه دفعها إلى أولياء بشر بن البراء، وبهذا يفسر قول ابن إسحاق : أجمع أهل الحديث أن رسول الله ﷺ قتل اليهودية التى سمته . وقال النبى ﷺ فى مرض موته : إن أكلة خيبر لم تزل تعاودنى، وهذا زمان انقطاع أبهرى [1] ولم يكتب ليهود خيبر كتابًا بإسقاط الجزية عنهم، وإنما ساقاهم [2] النبى ﷺ على النصف من ثمارهم ويخرجهم متى شاء .

ثم فى زمن خلافة القائم بأمر الله [3] ظهر يهودى عند رئيس الرؤساء ببغداد وأظهر كتابًا فيه أن رسول الله ﷺ أمر بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادة الصحابة رضى الله عنهم منهم على بن أبى طالب رضى الله عنه، فحمل الكتاب

---

(١) والأبهر : عرق فى الظهر، وقيل هو عرق مستبطن القلب، فإذا انقطع لم تبق بعده حياة . وقيل الأبهر عرق منشأه من الرأس ويمتد إلى القدم، وله شرايين تتصل بأكثر أطراف البدن، فالذى فى الرأس منه يسمى النامة، وقولهم : أسكت الله نامته أى حياته، ويمتد إلى الحلق ويسمى فيه الوريد، ويمتد إلى الصدر فيسمى الأبهر . ويمتد إلى الظهر فيسمى الوتين، والفؤاد معلق به، ويمتد إلى الفخذين فيسمى النسا، ويمتد إلى الساق فيسمى الصافن . [الطهطاوى] .

(٢) تعريف المساقاه ـ فى كتب الفقه ـ : «عقد على القيام بخدمة شجر أو نبات بجزء من غلته، بصيغة : «ساقيت أو عاملت فقط» . انظر أركانها وشروطها فى كتب الفقه .

(٣) هو الخليفة العباسى الذى حكم من سنة ١٠٣١ حتى سنة ١٠٧٥م .

إلى رئيس الرؤساء، ووقع الناس منه فى حيرة فعرضه على الحافظ أبى بكر خطيب بغداد [1] فتأمله وقال: إن هذا مزور، فقيل له: من أين ذلك؟ فقال: فيه شهادة معاوية رضى الله عنه، وهو أسلم عام الفتح سنة ثمان من الهجرة، وفتوح خيبر سنة سبع من الهجرة، ولم يكن مسلمًا فى ذلك الوقت ولا حضر ما جرى، وفيه شهادة سعد بن معاذ رضى الله عنه، ومات سعد يوم بنى قريظة بسهم أصابه وذلك قبل فتح خيبر بسنتين. انتهى.

فتح فدك

وفى هذه السنة فتح فدك، وهى قرية بينها وبين مدينة النبى مرحلتان، وقيل ثلاث مراحل، قال أهل السير: لما أتى للنبى ﷺ حوالى خيبر بعث مُحَيِّصَة بن مسعود الحارثى إلى فدك يدعو أهلها إلى الإسلام، فدعاهم إليه، فخوفهم أن رسول الله ﷺ جاء إلى حربهم كما أتى إلى حرب أهل خيبر، وقالوا: إن عامراً وياسرًا وحارثًا وسيد اليهود مرحبًا فى حصن نطاه ومعهم ألف مقاتل، وما نظن أن يقاومهم محمد فمكث محيصة فيهم يومين، ولما رأى أن لاميل لهم فى الصلح أراد أن يرجع فقالوا له: اصبر حتى نستشير أكابر قومنا ونبعث معك من يصالح محمداً، وبينما هم فى ذلك الرأى إذ أتاهم خبر حصن الناعم أن رسول الله ﷺ فتحه، فوقع فى قلوبهم خوف عظيم، فأرسلوا جماعة من يهود فدك إلى النبى ﷺ حتى يصالحوه، فبعد القيل والقال الكثير استقر الأمر على أن يعطوا النبى ﷺ نصف أرض فدك ولهم نصفها، فرضى النبى ﷺ فصالحهم على ذلك، وكانوا يعملون على ذلك حتى أخرجهم عمر وأهل خيبر إلى الشام واشترى منهم حصتهم النصف بمال بيت المال، كما سيأتى، فكانت خيبر للمسلمين، وفدك خالصة له، لأنها فتحت بغير إيجاف [2] ولا ركاب، فلم يقسمها، ووضعها حيث أمره الله.

---

(١) أحمد بن على بن ثابت (١٠٠٢ - ١٠٧٢) أديب وشاعر ومؤلف، له آثار كثيرة فى الفقه والحديث والتاريخ منها كتابة القيم [تاريخ بغداد].

(٢) أى تحريك وإتعاب فى السير. [الطهطاوى].

فتح وادى القرى

وانصرف ﷺ عن خيبر إلى وادى القرى، فحاصرها وافتتحها عنوة، وقسمها، وأصاب بها غلامه مدْعمًا سهم غَرْبَ[1] فقتله، وقال فيه لما شهد له الناس بالجنة: كلا، إن الشَّمْلة[2] التى أخذها يوم خيبر من المغانم قبل القسم لتشتعل عليه نارًا! فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك أو شراكين إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: شراك من نار أو شرا كان من نار.

* * *

وعن أبى حميد الساعدى قال: رسول الله ﷺ رجلاً من أسد على الصدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدى لى، فقال النبى ﷺ: فهلا جلس فى بيت أمه أو فى بيت أبيه فينظر أيهدى إليه أم لا؟! فو الذى نفسى بيده لا يأخذ منها أحد شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته إن كان بعيرًا له رغاء أو بقرة له خوار وأن كان شاة جاء بها تَيْعرَ[3]، - أى لها صوت شديد - ثم رفع يديه حتى رؤيت عفرة إبطه، ثم قال: اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت.

ورى أن النبى ﷺ أمر فروة بن عمرو البياضى أن يجمع غنائم خيبر فى حصن نطاه، فجمع، وكان فى أثناء الغنائم صحائف متعددة من التوراة، فجاءت يهود تطلبها، فأمر النبى ﷺ بدفعها إليهم.

ويوم جمع غنائم خيبر وأخذ سباياهم أمر النبى ﷺ مناديًا ينادى: إن من آمن بالله واليوم الآخر أن لا يصيب أحد امرأة من السبى غير حامل حتىٰ يستبرئها - (أى حتى تحيض) - وفى لفظ: أمر رسول الله ﷺ مناديه ينادى: إن من آمن بالله

---

(١) بفتح الراء والإضافة، وبتسكين الراء بلا إضافة، وهو من لا يعرف راميه. [الطهطاوى].

(١) غطاء كثيف يلتحف به.

(٣) بفتح المثناة الفوقية، وسكون المثناة التحتية، بعدها عين مهملة مفتوحة ويجوز كسرها. [الطهطاوى].

واليوم الآخر لا يَسق بمائه زرع الغير، ولا يطأ امرأة حتى تنقضى عِدَّتها ـ (أى حتى تحيض) ـ.

ولم يزل يهود خيبر وأهل فدك على شروطهم بعد الفتح إلى أن أجلاهم عمر رضى الله عنه منها ومن غيرها من بلاد العرب، وهى الحجاز ومكة والمدينة واليمامة وطرقها وقراها كالطائف لمكة وخيبر للمدينة، حيث بلغه أن النبى ﷺ قال فى مرضه الذى مات فيه: «لا يجتمعن دينان فى أرض العرب»، وفى رواية: «بجزيرة العرب». انتهى.

* * *

والعرب أفضل الأجناس وأعزهم نفسًا، وأكرمهم أخلاقًا، وأرقهم طباعًا، وأكثرهم وفاء، وأجمعهم للخلال الكريمة، وأبعدهم عن الأخلاق الذميمة، وهم بحور الكرم والوفاء. قال الأصمعى[١]: وخصت العرب بإطعام الطعام، والأنفة من الضيم. وقال المأمون: فضلت العرب على سائر الأجناس بالسؤدد، ولو لم يكن فيهم إلا أنهم لا يصلحون للاسترقاق لكفى. وأرق العرب طبعًا قريش وأهل الحرمين، ويقال اختصت العرب من بين الأنام بثلاث: العمائم تاجها، والسيوف سياجها، والشعر ديوانها. وإنما قيل: الشعر ديوان العرب، لأنهم كانوا يرجعون إليه عند اختلافهم فى الأنساب والحروب، ولأنه مستودع علومهم، وحافظ آدابهم، ومعدن أخبارهم، ولهذا قيل:

الشعر يحفظ ما أودى الزمان به　　والشعر أفخر ما ينبى عن الكرم

لولا مقال زهير فى قصائده　　ما كنت تعرف جودًا كان فى هَرِم

وفى الحديث عنه ﷺ :العمائم تيجان العرب، فإذا وضعوها وضع الله عزتهم. ومن أعز العرب نفسًا وأشرفهم هممًا الأنصار، وهم الأوس والخزرج، أبناء قَيْلة، لم يؤدوا إتاوة قط فى الجاهلية إلى أحد من الملوك، وكتب إليهم تُبَّع أبو كرب يدعوهم لطاعته ويتوعدهم إن لم ينقادوا له فكتبوا إليه:

---

(١) عبد الملك الباهلى (٧٤٠- ٨٣١) لغوى بصرى مشهور، وله آثار كثيرة فى اللغة والشواهد والمأثورات اللغوية. وهو حجة فى هذا الباب.

العـبـد تُبّع كـم يؤم قـتـالـنا ومـكـانه بـالـمنـزل المتـذلـل
إنـا أنـاس لا يـنـام بـأرضـنـا عِضّ الرسـول هنـا لأم المرسل [1]

فلما دنا لقتالهم كانوا يقاتلونه نهاراً ويخرجون إليه القرى ليلاً، فندم من قتالهم، ورحل عنهم. وحسب الأنصار ما يروى أنهم لما رأوا رسول الله ﷺ فى مرض موته يزداد وجعًا طافوا بالمسجد فأشفقوا من موته ﷺ ، فدخل عليه الفضل فأخبره بذلك ثم دخل عليه على رضى الله عنه فأخبره بذلك، ثم دخل عليه العباس فأخبره بذلك، فخرج ﷺ متوكئًا على علىّ والفضل، والعباس أمامه، والنبى ﷺ معصوب الرأس، يخط برجليه، حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وخطب خطبة ختمها بقوله: «وأوصيكم بالأنصار خيرًا» فإنهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلكم، يحبون من هاجر إليهم، ألم يشاطروكم فى الثمار؟ ألم يوسعوا لكم فى الدينا؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟. انتهى.

وبالجملة فكل واحد من العرب يرى فى نفسه العزة، وأنه سيد حيِّه وقبيلته، وأكرمها، لا سيما رؤساؤهم الذين هم فيهم كالملوك، قال الشاعر:

وإذا سألت عن الكرام وجدتنى كالشمس لا تخفى بكل مكان

* * *

(رجع): ثم سار ﷺ إلى المدينة، وكان قد كتب إلى النجاشى يطلب منه بقية المهاجرين، ويخطب أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، فزوجها للنبى ﷺ ابن عمها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بالحبشة، وأصدقها النجاشى عن النبى ﷺ أربعمائة دينار، وبعثها مع شرحبيل بن حسنة فى سنة سبع، وكلم رسول الله ﷺ المسلمين أن يدخلوا الذين حضروا من الحبشة فى سهامهم من مغنم خيبر ففعلوا.

فما أحسن زواج الحضرة النبوية بهذه الكريمة الزكية على يد هذا الملك الموفق،

(١) العض - بكسر العين - من معانيه: الخبيث والسىء الخلق، والداهية.

والتابعى الذى طلع بدره على سنية الإيمان وأشرق، فقد فاق هذا الملك النجاشى بما له من حميد الخصال، نجاشى كافور الخال، الذى هو ملك الجمال.

وعلى ذكر الكافور، فيحسن إيراد هذا الخبر المأثور، وهو أنه لما جرح بعض الصحابة فى بعض الغزوات فعولج أن ينقطع دمه فلم ينقطع، فقال حسان: ائتونى بكافور، فجئ له به، فلما وضعه على الجرح انقطع دمه، فقال ﷺ م أخذت هذا؟ قال من قول امرئ القيس:

فكرت ليلة وصلها فى هجرها ... فجرت مدامع مقلتى كالعندم

فطفقت أمسح مقلتى بخدها ... إذ عادة الكافور إمساك الدم

فقال: «إن من الشعر لحكمة».

* * *

وفى هذه السنة كتب رسول الله ﷺ إلى جبلة بن الأيهم، آخر ملوك غسان، ودعاه إلى الإسلام، قال: فلما وصل إليه الكتاب أسلم، وكتب جواب رسول الله ﷺ، وأعلمه بإسلامه، وأرسل الهدية، وكان ثابتًا على إسلامه إلى زمان عمر بن الخطاب، وفى خلافته قدم مكة للحج، وحين كان يطوف فى المطاف وطئ رجل من فزارة إزاره فانحل، فلطم الفزارى لطمة هشم بها أنفه وكسر ثناياه، فشكا الفزارى إلى عمر واستغاثه، فطلب عمر جَبَلة، وحكم بأحد الأمرين إما العفو وإما القصاص، قال جَبَلة: أتقتص له منى سواء، وأنا ملك وهو سوقى؟! قال عمر: الإسلام سوى بينكما، لا فضل لك عليه إلا بالتقوى، قال: فإن كنت أنا وهذا الرجل سواء فى هذا الدين فأتنصر[1]، قال عمر: إذًا أضرب عنقك، قال: فأمهلنى إليه حتى انظر فى أمرى، فلما كان الليل ركب فى بنى عمه وهرب إلى قسطنطينية، وتنصر هنالك، ومات مرتدًا. وبعض أهل الإسلام على أن جبلة عاد إلى الإسلام، ومات مسلمًا.

* * *

(١) فى الأصل: فأتتصر. ولعله خطأ فى الطبع.

وفى هذه السنة اتخذ رسول الله ﷺ الخاتم، ثبت فى صحاح الأحاديث أن النبى ﷺ لما أراد أن يكتب إلى كسرى وقيصر والنجاشى وغيرهم من الملوك يدعوهم إلى الإسلام قيل له: إنهم لا يقبلون كتابًا إلا بخاتم، أو مختومًا، فصاغ النبى ﷺ خاتمًا من ذهب، واقتدى به ذوو اليسار من أصحابه، فصنعوا خواتيم من ذهب، فلما لبس رسول الله ﷺ خاتمه لبسوا أيضًا خواتيمهم، فجاء جبريل عليه السلام من الغد، وقال: لبس الذهب حرام لذكور أمتك، فطرح النبى ﷺ خاتمه فطرح أصحابه أيضًا خواتيمهم، ثم اتخذ رسول الله خاتمًا حلقه وفصه من فضة، ونقش فيه: (محمد رسول الله) فى ثلاثة أسطر، محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر، واقتدى به أصحابه فاتخذوا خواتيمهم من فضة.

وفى هذه السنة بعث رسله إلى الملوك، وقيل كان إرسال الرسل فى آخر سنة ست، وجمع بعضهم بين القولين بأن إرسال الرسل كان فى السنة السادسة ووصولهم إلى المرسل إليهم كان فى السنة السابعة، وقد سبق الكلام على بعث الرسل إلى الملوك فى (الفصل الرابع عشر) من (الباب الأول) من (المقالة الرابعة) من (الجزء الأول) [(١)] من هذه التاريخ، وسيأتى ذلك فى (الفصل الرابع) من (الباب السادس) [(٢)].

(عمرة القضاة)

وفى هذه السنة، فى ذى القعدة، فى الشهر الذى صده المشركون كانت عمرة القضاء ويقال لها عمرة القضية، لأن رسول الله ﷺ قاضى قريشًا أى صالحهم عليها، ومن ثم قيل لها عمرة الصلح، ويقال لها عمرة القصاص، قال السهيلى، رحمه الله: وهذا الاسم أولى، لقوله تعالى: ﴿ **الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ** ﴾ (البقرة: ١٩٤) قال الحافظ ابن حجر، رحمه الله: فتحصل من أسمائها أربعة: القضاء، والقضية والصلح، والقصاص، لأنها كانت فى شهر

(١) أى فى الجزء الثالث من هذه الأعمال الكاملة.
(٢) أى فى هذا الجزء.

ذى القعدة من السنة السابعة، وهو الشهر الذى صده فيه المشركون عن البيت منها سنة ست، وليست قضاء من العمرة التى صد عن البيت فيها، فإنها لم تكن فسدت بصدهم له عن البيت، بل كانت عمرة تامة معدودة فى عُمره ﷺ التى اعتمرها ﷺ بعد الهجرة وهى أربعة: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، وعمرة الجعرَّانة، لما قسم غنائم حنين، والعمرة التى قرنها مع حجه فى حجة الوداع، بناء على ما هو الراجح من أنه كان قارنًا، وكلها فى ذى القعدة إلا التى كانت مع حجه.

وخرج ﷺ قاصداً مكة للعمرة على ما عاقد عليه قريشًا فى الحديبية من أن يدخل مكة فى العام القابل، معه سلاح المسافر، ولا يقيم بها أكثر من ثلاثة أيام، وأمر أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التى صدهم المشركون عنها بالحديبية، وأن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف منهم أحد إلا من استشهد منهم بخيبر ومن مات، وخرج معه ﷺ قوم من المسلمين عُمَّارا غير الذين شهدوا الحديبية، وكانوا فى عمرة القضاء ألفين، واستخلف على المدينة على الدينة أبارهم الغفارى، وقيل غيره. وساق ستين بدنة [1]، وقلدها، أى جعل فى عنق كل بعير قطعة جلد ليعلم أنها لهدى، وجعل عليها ناجية بن جندب.

وحمل رسول الله ﷺ السلاح والدروع والرماح، وقاد مائة فرس عليها محمد بن مسلمة رضى الله عنه، وعلى السلاح بشير بن سعد، فلما انتهى إلى ذى الحُلَيْفة قدم الخيل أمامه، فقيل: يا رسول الله، حملت السلاح وقد شرطوا أن لا تدخلها عليهم بسلاح إلا بسلاح المسافر: السيوف فى القرب؟ فقال ﷺ :لا يدخل عليهم الحرم بالسلاح، ولكن يكون قريبًا منا فإن هاجنا هَيْج [2] من القوم كان السلاح قريبًا منا. ثم إن قريشًا بعثت مكرز بن حفص فى نفر من قريش إليه ﷺ فقالوا: والله يا محمد ما عُرِفْتَ صغيراً ولا كبيراً بالغدر، تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك وقد شرطت عليهم أن لا تدخل إلا بسلاح المسافر: السيوف من القرب؟ فقال ﷺ أنى لا أدخل عليهم بسلاح، فقال مكرز: هو الذى تعرف به البر والوفاء، ثم

---

(١) البدنة واحدة الابل، وجمعها بدن ـ بضم الباء وسكون الدال.

(٢) الهيج من معاينة: الحرب.

رجع مكرز إلى مكة سريعًا وقال: إن محمدًا لا يدخل بسلاح، وهو على الشرط الذى شرط لكم.

فلما اتصل خروجه لقريش خرج كبراؤهم من مكة حتى لا يروه ﷺ يطوف بالبيت هو وأصحابه، عداوة وبغضًا وحسدًا لرسول الله ﷺ، فدخل رسول الله ﷺ مكة راكبا ناقته القصوى، وأصحابه محدقون به، قد توشحوا السيوف، يلبون، ثم دخل من الثَّنِيَّة كداء [1] على طريق الأبطح ومنى، وعبد الله بن رواحة آخذ بزمام راحلته وهو يمشى بين يديه ويقول:

خلوا بنى الكفار عن سبيله	خلوا فكل الخيل فى رسوله
قد أنزل الرحمن فى تنزيله	بأن خير القتل فى سبيله
فاليوم نضربكم على تأويله	كما ضربناكم على تنزيله

وجعل ﷺ السلاح فى بطن يَأْجَجُ [2] وتخلف عنده جمع من المسلمين من أصحابه عليهم أوس بن خولى، وقعدَ جمع من المشركين بجبل قينقاع ينظرون إليه ﷺ وإلى أصحابه وهم يطوفون بالبيت، وقد قال كفار قريش: إن المهاجرين أوهنتهم حُمَّى يثرب ثم قال ﷺ :رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة، فأمر أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة، أى ليروا المشركين أن لهم قوة، فعند ذلك قال بعضهم لبعض: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد أوهنتهم؟ إنهم لينفرون نفر الظبى! وإنما لم يأمرهم ﷺ بالرَّمَل [3] فى الأشواط كلها رفقًا بهم. واضطبع ﷺ بأن جعل وسط ردائه تحت عضده الأيمن وطرفيه على عاتقه الأيسر، ففعلت الصحابة رضى الله عنهم كذلك، وهذا أول رمل واضطباع فى الإسلام، فكان ابن عباس يقول: كان الناس يظنون أنها ليست سنة عليهم، وأن رسول الله ﷺ إنما صنعها لهذا الحى من قريش، للذى بلغه عنهم، حتى حج حجة الوداع فلزمها فدل أنها سنة. ثم طاف رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة على راحلته، فلما كان

---

(١) ـ بفتح أوله والمد ـ وهى طلعة الحجون التى بأعلى مكة، ينحدر منها إلى المقابر على درب المعلاة. [الطهطاوى].

(٢) كيمنع، وينصر، ويضرب. . موضع قريب من الحرم. [الطهطاوى].

(٣) الرمل: الهرولة فى المشى.

الطواف السابع عند فراغه وقد وقف الهَدْى عند المروة قال : هذا المَنْحَر وكل فجاج مكة منحر ، فنحر عند المروة ، وحلق هناك ، وكذلك فعل المسلمون .

وأقام ﷺ ثلاثة أيام ، فلما تمت الثلاثة ، التى هى أمد الصلح ، جاء [1] حويطب ابن عبد العزى وسهيل بن عمرو رضى الله عنهما ـ فإنهما أسلما بعد ذلك ـ إلى رسول الله ﷺ يدعوانه إلى الخروج هو وأصحابه من مكة ، فقالوا : نناشدك الله والعقد إلا ما خرجت من أرضنا ، فقد مضت الثلاث ، فخرج رسول الله ﷺ هو وأصحابه من مكة .

وكان ﷺ تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية ، رضى الله عنها ، وكان اسمها برة فسماها رسول الله ﷺ ميمونة ، وهى أخت أم الفضل زوج العباس رضى الله عنها ، وأخت أسماء بنت عميس لأمها ، زوج حمزة رضى الله عنه ، وكان تزوجه بها ﷺ قبل أن يحرم بالعمرة ، وقيل بعد أن حل منها ، وقيل وهو محرم وبنى بها فى عوده من مكة بمحل يقال له سَرِف ـ ككتف ـ بقرب التنعيم ، على ثلاثة أميال من مكة ، واتفق فيما بعد أنها ماتت بسرف ودفنت فيه ، وفى بعض السير أنها لما اعتلت بمكة قالت أخرجونى من مكة لأن رسول الله ﷺ أخبرنى أنى لا أموت بها ، فحملوها حتى أتوا بها سَرِف إلى الشجرة التى بنى بها رسول الله ﷺ تحتها فى موضع القبة فماتت هناك سنة ثمان وثلاثين ، وهناك عند قبرها سقاية .

* * *

وفيها تحريم الحمر الأهلية ، والنهى عن أكل كل ذى ناب من السباع .

وفيها النهى عن متعة [2] النساء وهى أن يتزوج امرأة ليتمتع بها مدة ثم يخلى سبيلها ، وتحصل الفرقة بانقضاء الأجل بغير طلاق ، ثم حللها يوم حنين ، ثم حرمها تحريما مؤبداً .

وفيها جاءته مارية القبطية بنت شمعون ، أهداها له المقوقس ملك مصر وإسكندرية ، وأختها سيرين ، مع هدية من ذهب وقدح من قوارير ، فكان رسول

---

(١) فى الأصل : جاءه ،

(٢) بالضم والكسر [الطهطاوى] .

الله ﷺ يشرب فيه، وهدية من عسل من بنها العسل، فدعا رسول الله ﷺ لعسل بنها بالبركة، وبغلته دُلْدُل [1] ولم يكن في العرب غيرها، وهي أول بغلة رؤيت في الإسلام، وكانت بيضاء، وقيل شهباء، أهداها له أيضًا المقوقس، وكان يركبها في السفر وعاشت بعده حتى كبرت وسقطت أضراسها، وكان يجش لها الشعير، وقيل كانت ذكرًا لا أنثى، وكل ذلك مع حاطب بن أبي بلتعة.

* * *

وفي هذه السنة أيضا كان تزوجه بأم حبيبة.

وفيها أسلم أبو هريرة، وعلى أشهر الأقوال اسمه عبد شمس بن عامر فسمى في الإسلام عبد الله، وقيل له: لم كنوك بأبي هريرة؟ قال: كنت أرعى غنم قومي، وكانت لي هريرة صغيرة ألعب بها، فكنوني بأبي هريرة، وكان النبي ﷺ يكنيه أبا هر، وكان أحفظ الصحابة لأخبار رسول الله ﷺ وآثاره، ولم يشتغل بالبيع ولا بالغرس، ولزم رسول الله ﷺ ثلاث سنين مختاراً للعدم والفقر، ومروياته في كتب الأحاديث خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعون حديثًا.

* * *

وفي هذه السنة قدم جعفر بن أبي طالب وأصحابه من الحبشة، وكان قد خرج في أثر المهاجرين الهجرة الأولى التي كان أميرها عثمان بن عفان رضي الله عنه، فهاجر جعفر بن أبي طالب مع أصحابه وزوجته أسماء بنت عميس، فتتابع المسلمون إلى بلاد الحبشة، منهم من هاجر بأهله ومنهم من هاجر بنفسه، ثم بلغ المهاجرين أن المشركين قد لانوا لرسول الله ﷺ فرجعوا إلى مكة، ثم بلغهم أنهم عادوا له بالشر فرجعوا إلى الحبشة ولم يدخل أحد منهم مكة إلا ابن مسعود فإنه دخل ثم خرج ومعه عدد كثير من المسلمين، وهذه هي الهجرة الثانية، كما سبق التنويه إلى ذلك في (الفصل الثاني) في الهجرتين إلى الحبشة من (الباب الثاني) من (المقالة الخامسة) من (الجزء الثاني) [2].

---

(١) بضم الدالين. [الطهطاوي].

(٢) ويقع في هذا الجزء.

وقد سبق أن المهاجرين كانوا يزيدون على مائة نفس، أحسن النجاشي جوارهم، ومكثوا آمنين على دينهم، يعبدون الله كما يحبون، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة جمعت قريش مالا من كل ما يستطرف من متاع مكة وأهدوه إلى النجاشي وبطارقته جميعًا وبعثوا به عمرو بن العاص وعمارة بن أبي معيط فقدما على النجاشي، والمهاجرون عنده بخير دار وأحسن جوار، فلما دخلا عليه سجدا له وقربا هداياهما إليه، فقبلها منهما، وقالا له: إن قومنا يحذرونك من هؤلاء الذين قدموا عليك، لأنهم قوم رجل خرج فينا يزعم أنه رسول الله، ولم يتابعه أحد منا إلا السفهاء، وقد كنا ضيقنا عليهم فجاؤوا إليك ليفسدوا عليك دينك وملكك، فادفعهم إلينا لنكفيكهم.

فغضب النجاشي عند ذلك وقال: والله لا أسلمهم إليكما حيث اختاروني على سواي، حتى أدعوهم وأسألهم عما يقولون، فإن وجدت أنهم على خلاف ما تقولون أحسنت جوارهم ما جاوروني، فأرسل إليهم ليجمعهم فدخلوا عليه في مجلسه، وعمرو بن العاص عن يمينه وصاحبه عن يساره، والقسيسون والرهبان جلوس عنده، فلما انتهوا إليه قالوا لهم: اسجدوا للملك، فلم يسجدوا له، فلما سألهم النجاشي عن ذلك قالوا: ما نسجد إلاّ للذي خلقك وملّكك وقد علمنا نبينا الصادق تحية أهل الجنة، وهي السلام، فعرف النجاشي أن ذلك حق، وأنه في التوراة والإنجيل، فقال: اختاروا من يتكلم عنكم، فقال جعفر: أنا استأذن وأتكلم فأذن له فقال جعفر للنجاشي: سل هذين الرجلين، يعني عمرًا وصاحبه: أعبيد نحن أم أحرار؟ فسألهما النجاشي فقالا: بل أحرار كرام، فقال جعفر: سلهما هل أهرقنا دماء بغير حق فيقتص منا؟ فقال عمرو: لا، ولا قطرة، فقال جعفر: سلهما هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤه؟ فقال النجاشي: إن كان قنطارًا فعلي قضاؤه، فقال عمرو: ولا قيراط، فقال النجاشي: فما تطلبون منهم؟ قال عمرو: كنا وإياهم على دين واحد وأمر واحد، على دين آبائنا، فتركوا ذلك واتبعوا غيره، فبعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتدفعهم إلينا، فهم أعلم بما عابوا عليهم وعاينوه منهم، فقال النجاشي لجعفر وأصحابه: ما هذا الدين الذي اتبعتموه وفارقتم فيه دين قومكم فلم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من الأمم؟

فقال جعفر: أيها الملك: أما ما كنا عليه فهو دين الشيطان، لأننا كنا قومًا جاهلية، نكفر بالله، ونأكل الميتة، ونأتى الفاحشة، ونقطع الأرحام، ونسىء الجار، ويأكل القوى منا الضعيف، وأما الدين الذى تحولنا إليه فدين الإسلام، فإن الله عز وجل بعث إلينا رسولاً منا، نعرف صدقه وأمانته وعفافه، وهو الذى بشر به عيسى بن مريم عليه السلام فقال: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (الصف: ٦) فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده ونعبده ولا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والصيام والزكاة - وعدد إليهم أمور الإسلام - وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر، وأن نخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا دونه من عبادة الأصنام والأوثان، فصدقناه وآمنا به، ومعه كتاب كريم مثل كتابكم الذى أنزل على عيسى بن مريم عليه السلام.

فقال النجاشى: تكلمت بأمر عظيم، فعلى رسلك، ثم أمر بضرب الناقوس فاجتمع إليه كل قسيس وراهب، فلما اجتمعوا عنده قال لهم: أنشدكم بالله الذى أنزل الإنجيل على عيسى، هل تجدون بين عيسى ويوم القيامة نبيا مرسلا؟ فقالوا اللهم نعم، قد بشرنا عيسى بن مريم عليه السلام وقال: من آمن به فقد آمن بى، ومن كفر به فقد كفر بى فقال النجاشى: ماذا يقول لكم هذا الرجل؟ وما يأمركم به، وما ينهاكم عنه؟ فقالوا: يقرأ علينا كتاب الله عز وجل، ويأمرنا بالمعروف، وينهانا عن المنكر، ويأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الجوار، وصلة الرحم، وبر اليتم، وكف الأذى، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتم، وقذف المحصنات، فحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله عز وجل، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وشق علينا ذلك، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك. فأعجب النجاشى قوله ثم قال له: هل عندك مما جاء به عن الله من شىء؟ قال جعفر: نعم، فقال النجاشى: اقرأه علىَّ، فقرأ عليهم سورة (العنكبوت) و(الروم) ففاضت عين النجاشى وأصحابه من الدمع، وقالوا: زدنا يا جعفر من هذا الحديث الطيب، فقرأ عليهم سورة (الكهف) فقال النجاشى: إن هذا الكلام والذى أنزل على عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة، ثم أقبل على جعفر وأصحابه وقال:

مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده، وأنا أشهد أنه رسول الله الذى بشر به عيسى، ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أقبل أعتابه! امكثوا فى أرضى ما شئتم. وأمر لهم بكسوة وطعام، وقال لعمرو بن العاص وصاحبه: انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكما أبدا ولا أكاد.

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينهم غدا، ولأعيبنهم عنده بما أستأصل به خفارتهم. فقال له صاحبه، وكان أتقى الرجلين: لا تفعل، فإنهم أرحامنا وإن كانوا قد خالفونا! قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن المسيح بن مريم عبد.

* * *

فلما كان الغد غدا عليه، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون فى المسيح قولا عظيما، فارسل إليهم وأسألهم، فأرسل إليهم، فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام؟ فقال له جعفر: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا محمد ﷺ هو عبد الله، وروحه ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، ثم قرأ عليهم صدرا من سورة مريم، فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته بدموعه وبكوا أساقفته حتى اخضلت مصاحفهم حين سمعوا ما تلى عليهم، وقال: والله يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيد فيما يقولون عن ابن مريم! ثم قال لجعفر وأصحابه: اذهبوا فأنتم سُيوم[1] بأرضى من سبكم أو أذاكم غرم، ثم من سبكم أو أذاكم غرم، ثم من سبكم أو أذاكم غرم - ثلاث مرات - وقال: ابشروا، ولا تخافوا، فلا دهونة اليوم على حزب إبراهيم. فقال عمرو: يانجاشى، ومن حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرهط وصاحبهم الذى جاؤوا من عنده ومن اتبعهم، فقال عمرو: بل نحن حزب إبراهيم، فاختصم الفريقان فى إبراهيم فأنزل الله تعالى فى ذلك اليوم على رسول الله ﷺ، وهو بالمدينة قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (آل عمران: ٦٨)، فقال النجاشى: إنما هديتكم لى رشوة، فاقبضوها، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين ملّكنى!

(١) والسيوم: الآمنون. [الطهطاوى].

فخرجا من عنده خائبين مردودا عليهما ما جاءا به، وأقام جعفر وأصحابه ثمة فى خير دار وأحسن جوار.

ويفهم من فيض عين النجاشى وأصحابه بالدموع حين سماع قراءة جعفر رضى الله عنه سورا من القرآن أن له ولأصحابه معرفة بالعربية الفصيحة، فلعل بلاد هذا النجاشى المتملك عليها هى الأراضى المجاورة لأرض اليمن، ويبعد أن تكون هذه السور ترجمت لهم من العربية بلسانهم، لأن الترجمة لا تؤثر فى قلوبهم حتى تفيض دموعهم، ويدل عليه فيض دموع الحبشة القادمين مع جعفر عليه ﷺ لما تلا عليهم سورة (يس)، وقد تقدم فى غزوة بدر أن غضب النجاشى على عمرو وأصحابه كان بحضور عمرو بن أمية الضَّمْرى، وأن عمرو بن العاص طلب من النجاشى قتله، والخطب سهل فلعل الواقعة تعددت. بالجملة، فالنتيجة واحدة، وهى أنه لم يقبل من عمرو بن العاص صرفا ولا عدلا فى استجارة أصحابه ﷺ.

وروت أم سلمة رضى الله عنها إذ نزل بالنجاشى من ينازعه فى ملكه، قالت أم سلمة رضى الله عنها: فوالله ما علمنا حزنا قط أشد حزن حزناه عند ذلك، تحرزا أن يظهر ذلك على النجاشى فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرفه. قالت: وسار النجاشى وبينهما عرض النيل، قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من يخرج حتى يحضر وقعة القوم؟ فقال الزبير بن العوام: أنا، فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره ثم سبح عليها حتى خرج إليهم وحضرهم، ودعونا الله للنجاشى بالظهور على عدوه والتمكن له فى بلده، فظهر، واستوثق عليه أمر الحبشة، فكنا عنده خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ.

وفى سنة ست من الهجرة بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضَّمْرى [1] إلى النجاشى بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، وكتب فيه ما صورته:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة، أما بعد، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة المطهرة الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده

---

(١) بفتح الضاد وسكون الميم. [الطهطاوى].

ونفخه، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعنى، وتؤمن بى وبالذى جاءنى، فإنى رسول الله، وقد بعثت إليكم ابن عمى جعفر ومعه نفر من المسلمين فإذا جاؤوك فأقرهم، ودع التَّحَيُّر فإنى أدعوك وجنودك إلى الله تعالى، وقد بلغت ونصحت فاقبل نصيحتى، والسلام على من اتبع الهدى.

فلما وصل إليه الكتاب أخذه ووضعه على عينيه، ونزل عن سريره وجلس على الأرض تواضعا، وقرأه، وقال: أشهد بالله إنه النبى الأمى الذى ينتظره أهل الكتاب، وإن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل، فأسلم وحسن إسلامه.

وكتب إلى رسول الله ﷺ بإجابته وتصديقه وإسلامه على يد جعفر كتابا صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله ﷺ من النجاشى أصحمة[(١)] ابن أبجر [(٢)]، سلام عليك يا رسول الله من الله ورحمة الله وبركاته، لا إله إلا الله الذى هدانى للاسلام، أما بعد، فقد بلغنى كتابك يا رسول الله، فما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثفروقا[(٣)]، وقد عرفت ما بعثت به إلينا وقد قَرَّبْنا [(٤)] ابن عمك وأصحابه، وإنى أشهد أنك رسول الله صادقا مصدَّقا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وقد بعثت إليك يا نبى الله ابنى أريحا [(٥)]، وإن شئت أن آتيك بنفسى فعلت يا رسول الله، فإنى أشهد أن ما تقول حق. والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته».

فتحصل من ذلك أن النجاشى هذا هو أصحمة الذى هاجر إليه المسلمون فى رجب سنة خمس من النبوة، وكتب إليه النبى ﷺ كتابا يدعوه إلى الإسلام مع

---

(١) فى تاريخ الطبرى ـ جـ٢ ص٦٥٢ ـ الأصحم.

(٢) فى الأصل: أبحر بالحاء المهملة ـ والتصحيح عن الطبراى.

(٣) أصل الثفروق قمع التمرة، أو ما يلتزق به هذا القمع، وهو لا يساوى شيئا، فكأنه والعدم سواء.

(٤) أى أكرمنا.

(٥) فى الطبرى يسميه: «أرها بن الأصم بن أبجر».

عمرو بن أمية الضمرى سنة ست من الهجرة، وأسلم على يد جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه، وتوفى فى رجب سنة تسع من الهجرة، ونعاه النبى ﷺ يوم توفى، وصلى عليه بالمدينة.

وأما النجاشى الذى ولى بعده، وكتب إليه النبى ﷺ يدعوه إلى الإسلام فكان كافرا، لم يعرف إسلامه ولا اسمه، وقد خلط بعضهم ولم يميز بينهما.

ولما خرج جعفر رضى الله عنه من الحبشة لرسول الله ﷺ، بعث النجاشى أريحا ابنه فى ستين رجلا من الحبشة إلى رسول الله ﷺ، فركبوا سفينة فى أثر جعفر وأصحابه، حتى إذا كانوا فى وسط البحر غرقوا، والحكمة فى ذلك ـ والله سبحانه وتعالى أعلم ـ لو أنهم جاؤوا إلى رسو الله ﷺ ووصلوا إليه ربما كان الكفار والمنافقون يقولون: إن محمدا ما به مُلْكة ـ (أى قوة وسلطان) ـ واشتد أزره بملك الحبشة وأصحابه، فأراد الله تعالى أن يظهر للناس كافة أن قوة رسول الله ﷺ من قبَله عز وجل، لئلا يشك فى ذلك أحد أن قوته من ملك أو سلطان أو وزراء أو أعوان، كما هو مصرح به فى بعض الكتب المعتبرة.

ووافى جعفر وأولاده الثلاثة: عبد الله، ومحمد، وعون، ومن دخل فى الإسلام هناك على رسول الله ﷺ فى خيبر، فى سفينتين، وفيهم سبعون رجلا من الحبشة، عليهم ثياب الصوف، منهم اثنان وستون من الحبشة، وثمان من أهل الشام، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ صورة (يس) إلى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن، وآمنوا، وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى، فأنزل الله تعالى: ﴿ **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ** ﴾ (المائدة: ٨٢) يعنى وفد النجاشى الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب، وكانوا من أهل الصوامع، وأما قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ** ﴾ (المائدة: ٨٣) الآية، قال ابن عباس رضى الله عنهما، فى رواية عطاء: يريد النجاشى وأصحابه، قرأ عليهم جعفر بالحبشة (كهيعص) فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة. كذا فى تفسير البغوى [1] رحمه الله تعالى.

---

(١) أبو محمد الحسين بن محمد (المتوفى سنة ١١٢٢م) مفسر وفقيه، ترجع شهرته إلى كتابه [مصابيح السنة] وله كتاب جمع فيه الأحاديث النبوية أسماه [شرح السنة].

ولما أقبل عليه ﷺ جعفر، رضى الله عنه، قام ﷺ إلى جعفر وقبله بين عينيه، وقال: ما أدرى بأيهما أسر، بقدوم جعفر؟ أم بفتح خيبر؟ وعن ابن عباس رضى الله عنهما: لما قدم جعفر رضى الله عنه من أرض الحبشة اعتنقه النبى ﷺ وقبله بين عينيه، وجعل ذلك أصلا لاستحباب المعانقة، وقال بعضهم: إنها مكروهة، وحديث جعفر يحتمل أن يكون قبل النهى عنها، ولم يجب بذلك الإمام مالك رضى الله عنه، فإنه لما قدم سفيان بن عيينة رضى الله عنه فصافحه الإمام مالك وقال: لولا أنها بدعة لعانقتك، فقال له سفيان: قد عانق من هو خير منك ومنى النبى ﷺ، قال الإمام مالك: تعنى جعفر بن أبى طالب؟ قال: نعم، قال: ذاك حبيب خاص ليس بعام، أى فذلك من خصوصياته، فقال له سفيان: ما عم جعفرا يعمنا وما يخصه يخصنا: أى فالأصل عدم الخصوصية، ثم قال له سفيان: أتأذن لى أن أحدثك بحديثك؟ قال: نعم، فقال: حدثنى فلان عن فلان عن ابن عباس رضى الله عنهما، وذكر الحديث المتقدم عنه.

وأما المصافحة فقد جاء أن أهل اليمن لما قدموا المدينة صافحوا الناس بالسلام، فقال النبى ﷺ: إن أهل اليمن قد سنوا لكم المصافحة، وقال: من تمام محبتكم المصافحة.

ولما رأى جعفر رسول الله ﷺ حجل - أى مشى على رجل واحد - إعظاما لرسول الله ﷺ، لأن الحبشة يفعلون ذلك للتعظيم، وكان رسول الله ﷺ يقول له: أشبهت خَلْقى وخُلُقى. وفى لفظ: جعفر أشبه الناس بى خَلْقا وخُلُقا. وكان ﷺ يسميه أبا المساكين، لأنه رضى الله عنه كان يحب المساكين ويجلس إليهم ويحدثهم ويحدثونه. وذكر بعضهم أنه لما قال له ﷺ: أشبهت خَلْقى وخُلُقى رقص من لذة هذا الخطاب، ولم ينكر عليه ﷺ رقصه، وجعل ذلك أصلا لجواز رقص الصوفية عندما يجدونه من لذة المواجدة فى مجالس الذكر والسماع.

الفصل الثامن

(فى ظواهر السنة الثامنة وما فيها من الغزوات)

(وفى هذه السنة قدم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة فأسلموا)

غـــزوة مؤتـــة

وفيها، فى جمادى الأولى غزوة موتة، وهى قرية من قرى البلقاء بالشام، قبل الكَرَك، وهى أول الغزوات بين المسلمين والروم، وكانت الروم والعرب المتنصرة فى نحو مائة ألف.

وسبب هذه الغزوة أنه أرسل ﷺ الحارث بن عمير إلى ملك بُصْرى بكتابه فعرض له بمؤتة عمرو بن شُرَحْبيل الغسانى فقتله، ولم يقتل له ﷺ رسول غيره، فبعث ﷺ ثلاثة آلاف وأمَّر عليهم زيد بن حارثة، مولاه، وقال: إن أصيب فأميركم جعفر بن أبى طالب، فإن أصيب فأميركم عبد الله بن رواحة الأنصارى، فإن أصيب فسيفتح الله على يدى رجل من المسلمين، وأشار بيده إلى خالد بن الوليد. فلما التقوا مع الروم أخذ الراية زيد بن حارثة حتى استشهد، ثم أخذ الراية جعفر فقاتل حتى قطعت يده اليمنى، فأخذها بشماله فقاتل حتى قطعت شماله، فحضن الراية وقاتل حتى قتل، رضى الله عنه، وسمى ذا الجناحين، لأنه ﷺ قال: إن له جناحين يطير بهما حيث شاء من الجنة، ويحكى أنه وجد فى مَقْدَمه

أربعة وخمسون ما بين طعنة رمح وضربة سيف، وقتل في السنة الثامنة من الهجرة وهو ابن نحو من أربعين سنة [(١)]، وكان أسن من أخيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ودخلت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تبكي وتقول واعماه فقال النبي ﷺ: على مثل جعفر فلتبك البواكي! ثم انصرف إلى أهله وقال: اتخذوا لآل جعفر طعاما فقد شغلوا عن أنفسهم، وضم عبد الله بن جعفر إليه، ومسح رأسه، وعيناه تدمعان، وقال: اللهم اخلف جعفرا في ذريته بأحسن ما خلفت به أحدا من عبادك الصالحين. كان لجعفر من الولد عبد الله الجواد، وعون، ومحمد، استشهدا بصفين، وقيل إنهما قتلا بالطَّفّ [(٢)] مع الحسين عليه السلام، وحمل ابن زياد رؤوسهما مع رأس الحسين إلى يزيد بن معاوية، ولم يكن لعون عقب.

ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة الأنصاري، فاستشهد، وفي أثناء استشهاد هؤلاء الصحابة الكرام كان ﷺ جالسا على المنبر، وقد كشف الله له معتركهم، فكان يخبر باستشهاد كل واحد منهم، ويصلي عليه، ويأمر أصحابه بالاستغفار له.

وفي [الصفوة] عن محمد بن جعفر قال: فلما تجهز الناس وتهيئوا للخروج إلى مؤتة قال للمسلمين: «صحبكم الله، ودفع عنكم السوء، وردكم سالمين غانمين»، فلما فصلوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم، فجمعوا لهم وتهيئوا لحربهم، وقام فيهم شَرَحْبيل بن عمرو فجمع نحو مائة ألف، وقدم الطلائع أمامه، ولما نزلوا معان [(٣)]، من أرض الشام، بلغهم أن هرقل قد نزل مآب [(٤)]، من أرض البلقاء، في مائة ألف من الروم وانضمت إليه المستعربة من لخم وجُذام والقَيْن وبلى وبهراء ووائل.

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن

---

(١) في [نهاية الأرب] أنه كان ابن ثلاث وثلاثين سنة. انظر جـ١٧ ص٢٨٠ وفي [الدرر] أن سنه كانت «ثلاث وثلاثون أو أربع وثلاثون سنة» انظر ص٢٢٣.

(٢) أرض من ضاحية الكوفة، في طرف البرية. انظر [مراصد الاطلاع].

(٣) بفتح الميم وضمها، حصن بفلسطين على خمسة أيام من دمشق في طريق مكة.

(٤) مكان بالشام.

يأمرنا بأمر فنمضى له، فشجعهم عبد الله بن رواحة، فقال: والله يا قوم إن الذى تكرهونه للذى خرجتم له تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدة [1] ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هى إحدى الحسنيين: إما الظهور، وإما الشهادة. قال الناس: قد والله صدق ابن رواحة، فمضوا لوجوهم.

وفى [الاكتفاء] ثم مضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم [2] جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مَشَارِف، وانحاز المسلمون إلى مؤتة، التى سميت الغزوة باسمها، فالتقى الناس عندها، فتعبى لهم المسلمون، فجعلوا على ميمنتهم رجلا من بنى عذرة يقال له قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلا من الأنصار يقال له عُبَادة بن مالك، ثم التقى الناس فاقتتلوا، فقاتل زيد براية رسول الله ﷺ حتى شاط [3] فى رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل حتى إذا لحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء ثم عَرْقَبَها [4]، ثم قاتل القوم حتى قتل رضى الله تعالى عنه وهو يقول:

يا حبذا الجنَة واقترابها ... طيبة وباردا [5] شرابُها

والروم رومٌ قددنا عذابُها ... على إذ لا قيتُها ضرابُها [6]

وقد سبق ذكر هذه الغزوة عند الكلام على قيصر هرقل فى (الفصل الرابع عشر) من (الباب الأول) من (المقالة الرابعة) من (الجزء الأول) من هذا التاريخ [7].

* * *

(١) فى [نهاية الأرب]: بعدد.. وما هنا أولى.

(٢) فى الأصل: لقيهم.

(٣) أى اشتعل.

(٤) أى قطع عرقوبها - وهو الوتر الذى بين مفصل الساق والقدم - وذلك حتى لا يستفيد منها الأعداء؟!

(٥) فى الأصل: بارد.

(٦) فى [نهاية الأرب] الشطر الرابع:

* كافرة بعيدة أنسابها *

ويأتى الشطر الرابع هنا شطرا خامسا.

(٧) انظره فى الجزء الثالث من هذه الأعمال.

وفى هذه السنة ـ على ما فى [أسد الغابة] ـ، أو السابعة، أو التاسعة من الهجرة، اتخذ المنبر لرسول الله ﷺ من أثل الغابة، وفى رواية من طرفاء الغابة، والخُطْبة، وهى الكلام المنثور المسجع، وهو أول منبر عمل فى الإسلام.

وفيها كان مولد إبراهيم ابن النبى عليه الصلاة والسلام، وهو ثالث أولاده.

وفيها وفاة زينب بنته ﷺ، وهى أكبر بناته ﷺ.

فتــــح مكـــة

وفى هذه السنة كان نقض الصلح، وغزوة مكة، الذى هو أعظم الفتوح الإسلامية، لأن الله أعز دينه ورسوله وجنده وحرمه وبلده وبيته، واستبشر به أهل السماء، وضرب أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس فى دين الله أفواجا، وأشرق به وجه الدهر ضياء وابتهاجا، وأزال الله به الشرور، وزاد به المصطفى السرور.

وذلك أن بنى بكر بن عبد مناف اعتدت على خُزاعة، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له الوتير، وكان فى صلح الحديبية أنه لا يتعرض لمن دخل فى عقد قريش ولا يتعرضون لمن دخل فى عقده، يعنى اصطلحوا على وضع الحرب بين الناس عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وكانت خُزاعة ممن دخل فى عهد النبى ﷺ وعقده، وبنو بكر ممن دخل فى عهد قريش وعقدهم، وكانت بينهم حروب فى الجاهلية، فكلمت بنو بكر أشراف قريش أن يعينوهم على خزاعة بالرجال والسلاح، فوعدوهم ووافوهم متنكرين، فبيتوا خزاعة، أى جاؤوا ليلا بغتة فقتلوا منهم عشرين.

ثم ندمت قريش على ما فعلوا، وعلموا أن هذا نقض للعهد الذى بينهم وبين رسول الله ﷺ، وخرج عمرو بن سالم الخزاعى فى طائفة من قومه حتى قدموا

عليه ﷺ المدينة، مستغيثين به. وكان ذلك مما هاج فتح مكة، فوقف عمرو على رسول الله ﷺ، وهو جالس في المسجد، وأنشده أبياتا وهي:

لا هُمَّ[1] إني ناشدٌ محمدا حِلْفَ أبينا وأبيه الأتلدا

فوالدا كنا وكنت الولدا وواحدا كنت وكنا العددا

إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

وزعموا أن لست تدعو أحدا وهم أذل وأقل عددا

هم بيتونا بالوتير هُجَّدا وقتلونا رُكَّعا وسُجَّدا

فانصر هداك الله نصرا أبدا وادع عباد الله يأتوا مددا [2]

فلما سأله بهذه الأبيات أن ينصره قال ﷺ: نُصِرْتَ ياعمرو بن سالم، ودمعت عيناه ﷺ، وقال: لا ينصرني الله إن لم أنصر بني كعب مما أنصر به نفسي - وبنو كعب هم خزاعة - ثم قدم بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة عليه ﷺ، فأخبروه بما أصيب منهم، ومظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة.

وقد كان رسول الله ﷺ قال للناس: كأنكم بأبي سفيان وقد جاء ليشدد في العقد، ويزيد في المدة، وقد رهبوا الذي صنعوا. فلما لقي أبو سفيان بُدَيْلا قال: من أين أقبلت يا بديل؟ فظن أنه أتى رسول الله ﷺ، قال سرْتُ إلى خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي قال: أوما أتيت محمدا؟ قال: لا. فلما راح بديل مكة قال أبو سفيان: لئن كان بالمدينة لقد علف بها، فعمد إلى منزل ناقته فأخذ من بعرها ففته فرأى فيه النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمدا!

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة ليجدد العهد، فدخل على ابنته أم حبيبة، أم المؤمنين، زوج النبي ﷺ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته

---

(١) في [نهاية الأرب] يا رب.

(٢) عدد الأبيات في [نهاية الأرب] ثمانية، مع فروق في الرواية عما هنا. انظر جـ١٧ ص٢٨٨، ٢٨٧.

عنه، فقال: يابنية، ما أدرى أرغبت بى [1] عن هذا الفراش، أم رغبت به عنى؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، قال: والله لقد أصابك بعدى يا بنية شر؟ ثم خرج وأتى النبى ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئا، فذهب إلى أبى بكر، ثم إلى عمر، ثم إلى على، رضوان الله عليهم، على أن يكلموا رسول الله ﷺ فى أمره، وتشفع بهم فلم يفعلوا، ثم قال لفاطمة أن تأمر ابنها الحسين، وهو غلام يدب بين يدى أبويه، حتى يجير له، فأبت، فقال لعلى كرم الله وجهه: يا أبا الحسن، إنى أرى الأمور قد اشتدت على فانصحنى، فقال: والله لا أعلم شيئا يغنى عنك، ولكنك سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس [2] ثم الحق بأرضك، قال له: أو ترى ذلك يغنى عنى شيئا؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان فى المسجد فقال: يا أيها الناس، إنى قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره وانطلق، فلما قدم على قريش قالوا ما وراءك؟ فقص ما جرى له مع أبى بكر وعمر وعلى، وأنه قد أجار بين الناس، فقالوا: هل أجاز محمد ذلك؟ قال: لا، قالوا: والله إن الرجل ـ يعنون عليا ـ أراد اللعب بك، فما يغنى عنا ما قلت، قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

ثم أمر ﷺ بالجهاز، وأمر أهله أن يجهزوه، ولم يعلموا به أحدا، ثم أعلم الناس بأنه يريد مكة، وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتهم فى بلادهم، أى نأخذهم بغتة، أى على حين غفلة من قبل أن يعلموا به، فكتب حاطب بن أبى بلتعة كتابا إلى أهل مكة وبعثه مع سارة مولاة بنى هاشم يعلمهم بذلك، فأطلع الله رسوله على ذلك، وأرسل عليا والزبير وأخذا منها الكتاب، فقال لحاطب: ما حملك على هذا؟ فقال، والله إنى مؤمن ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ صحبتك، ولكن لى بين أظهرهم أهل وولد، وليس لى عشيرة، فصانعتهم! فقال عمر: دعنى يا رسول الله أضرب عنقه، فإنه منافق، فقال ﷺ: إنه شهد بدرا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما

(١) فى الأصل: أرغب لى.
(٢) أى اطلب الأمان. [الطهطاوى].

شئتم فقد غفرت لكم؟ ففاضت عينا عمر، فأنزل الله عز وجل فى حاطب ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ (الممتحنة: ١) الآية.

وبعث رسول الله ﷺ إلى من حوله من الأعراب فجلبهم، وهم أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم [١] فمنهم من وافاه بالمدينة ومنهم من لحقه بالطريق، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم.

وقد أهدر ﷺ دم سارة حاملة كتاب حاطب بعد الفتح.

ثم خرج رسول الله ﷺ من المدينة لعشر مضت من رمضان، ومعه المهاجررون والأنصار، عامدا إلى مكة، فكان جيشه عشرة آلاف، فصام وصام الناس معه حتى إذا كان بالكديد [٢]، وهو الماء الذى بين قَديد وعَسفان، أفطر فلم يزل مفطرا حتى انسلخ الشهر، وبلغ ذلك قريشا فخرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل ابن ورقاء يتجسسون الأخبار، وكان العباس رضى الله عنه أسلم قديما، وكان يكتم إسلامه، فخرج بعياله مهاجرا، فلقى رسول الله ﷺ بالجُحْفَة [٣] وقيل بذى الحُلَيْفة [٤]، ثم حضر أبو سفيان بن حرب على يد العباس إلى النبى ﷺ، بعد أن استأمن له، فأسلم، وأسلم معه حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء.

وفى رواية عروة: لما دخل أبو سفيان مع العباس على رسول الله ﷺ صبيحة أسلم قال أبو سفيان: يا محمد، إنى قد استنصرت إلهى واستنصرت أنت إلهك، فوالله ما لقيتك من مدة إلا ظهرت علىّ، فلو كان إلهى محقا وإلهك مبطلا لظهرتُ عليك، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

---

(١) فى الأصل: وأسلم.

(٢) مكان بينه وبين مكة، اثنان وأربعون ميلا.

(٣) موضع على أربع مراحل من مكة.

(٤) قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة.

ومن أسلم يومئذ معاوية بن أبى سفيان، وأخوه يزيد، وأمه هند بنت عتبة، وكان معاوية يقول: إنه أسلم يوم الحديبية فكتم إسلامه عن أبيه وأمه.

وقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئا يكون فى قومه! فقال ﷺ: من دخل دار أبا سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن. فلما ذهب أبو سفيان لينصرف قال رسول الله ﷺ: احبسه يا عباس بمضيق الوادى حتى تمر به جنود الله تعالى فيراها، قال: فخرجت به حتى حبسته حيث أمرنى رسول الله ﷺ، ومرت به القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة كبرت ثلاثا عند محاذاته، قال: من هؤلاء يا عباس؟ فأقول: سليم، فيقول: مالى ولسليم! ثم تمر القبيلة فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لى ولمزينة! ثم مرت بنو غفار [1] ثم أسلم، ثم بنو كعب، ثم جهينة، ثم كنانة، ثم أسجع، لا تمر قبيلة إلا سألنى عنها، فإذا أخبرته فيقول: ما لى ولبنى فلان، حتى مر رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء [2] فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، لأن فيها ألفى دارع، فلما رأى ذلك أبو سفيان قال: سبحان الله! من هؤلاء يا عباس؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة! والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك عظيما! قلت: ويحك! يا أبا سفيان إنها النبوة! قال: فنعم إذا. فقلت: الحق الآن بقومك فحذرهم، فخرج سريعا حتى إذا جاءهم فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به! قالوا: فَمَهْ؟ قال: فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن! قالوا: ويحك! وما تغنى دارك عنا شيئا؟ قال: فمن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

واستثنى ﷺ جماعة أمر بقتلهم، وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة، وبهذا استدل على أن مكة فتحت صلحا لا عنوة، وبه قال الإمام الشافعى.

---

(١) بكسر الغين المعجمة. [الطهطاوى].

(٢) وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها، والعرب تطلق الخضرة على السواد كما تطلق السواد على الخضرة. [الطهطاوى].

وفى بعض السير : لقى رسول الله ﷺ ببعض الطرق بالأبواء أبا سفيان وابن عمه الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب، فأعرض عنهما ﷺ، فجاء إليه أبو سفيان وعبد الله بن المغيرة من أمامه من قبل وجهه، فقال ﷺ : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف : ٩٢) وقبل منهما إسلامهما، فأنشده أبو سفيان معتذرا إليه بأبيات، فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : أنت طردتنى كل مطرد.

وكان أبو سفيان بعد ذلك ممن حسن إسلامه، فقيل إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم، حياء منه، وكان ﷺ يحبه ويشهد له بالجنة، ويقول : أرجو أن يكون خلفا من حمزة، وقال ﷺ لأبى سفيان بن الحارث حين جاءه مسلما بعد أن كان عدوا له كثيرا الهجاء :

«كل الصيد فى جوف الفرا [(١)]».

وكان أبو سفيان يشبه رسول الله ﷺ من جملة من يشبهونه، وهم ستة، والباقى : جعفر بن أبى طالب، والحسن بن على، وقثم بن العباس، والسائب بن عبيد ابن عبد الله بن نوفل بن هشام بن عبد المطلب بن عبد مناف، وعبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب.

ثم أمر ﷺ أن تركز راية سعد بن عبادة بالحُجُون لما بلغه أنه قال : اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستَحل الكعبة، فقال : كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة. فمن هنا يعلم أنه ﷺ كما سعى فى العمار الحسى سابقا سعى فى العمار المعنوى لاحقا ونعم ما قال السادة[(٢)] الأول : أول الفكر آخر العمل فالساعى فى التعمير يستحيل أن يكون سببا فى التدمير، لا سيما البشير النذير، أو ليس أنه ﷺ كان فى بناء قريش للكعبة يشتغل فى بنائها بنفسه معهم، وأنه لما اختير حكما، حين اختصم القبائل فى رفع الركن إلى موضعه، كان

---

(١) ـ وهو بفتح الفاء ـ حمار الوحش، والمعنى أن حمار الوحش من أعظم ما يصاد، وكل صيد دونه، كما أنك من أعظم أهلى وأمسّهم رحما بى ومن أكرم من يأتينى، وكل دونك. [الطهطاوى].

(٢) فى الأصل : سادة ـ بدون أداة التعريف.

هو الآخذ بالثوب وواضعه بالركن والآمر للإصلاح بأخذ كل قبيلة طرفا من الثوب ورفعه إلى ما يحاذى موضعه، والمتناول للحجر من الثوب، والواضع له بيده الشريفة فى محله؟ فحق على من رفع بنيانها أن يرفع شأنها.

ثم أمر ﷺ أن يدخل الزبير ببعض الناس من كداء [1]، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ببعض الناس من ثنية كُدى، وأمر عليا أن يأخذ الراية منه فيدخل بها لما بلغه من قول سعد: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة. وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كداء [2] فى بعض الناس، وكل هؤلاء الجنود لم يقاتلوا لأن النبى ﷺ نهى عن القتل، إلا أن خالد بن الوليد لقيه جماعة من قريش فرموه بالنبل ومنعوه من الدخول، فقاتلهم خالد، فقتل من المشركين ثمانية وعشرين رجلا، فلما علم النبى ﷺ بذلك قال: ألم أنهكم عن القتال؟ فقالوا له: إن خالدا قوتل فقاتل، وقُتل من المسلمين رجلان، ودخل النبى ﷺ مكة من كَداء، وهو على ناقته يقرأ سورة الفتح ويُرَجِّع.

وكان دخوله ﷺ مكة يوم الاثنين، ووضع الحجر يوم الاثنين، وخرج من مكة مهاجرا يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، ونزلت عليه سورة المائدة يوم الاثنين، وعن عائشة رضى الله عنها: كان لواؤه يوم فتح مكة أبيض، ورايته سوداء تسمى العقاب، وهى التى بخيبر، وعنها رضى الله تعالى عنها أنها قالت: دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح من كداء بفتح الكاف والمد والتنوين، جبل بأعلى مكة، وهذا هو المعروف خلافا لمن قال إنه دخل من أسفل مكة وهى ثنية كُدى ـ بضم الكاف والقصر والتنوين ـ وعند الخروج خرج ﷺ من هذه وبهذا استدل على أنه يستحب دخول مكة من الأولى والخروج منها من الثانية.

واغتسل ﷺ لدخول مكة، وبه استدل على استحباب الغسل لداخل مكة ولو حلالا.

وكان شعار المهاجرين: يا بنى عبد الرحمن، وشعار الخزرج: يا بنى عبد الله،

---

(١) وهو جبل بأسفل مكة.

(٢) فى [نهاية الأرب] من «الليط أسفل مكة».

وشعار الأوس: يا بنى عبيد الله، أى شعارهم الذى يعرف به بعضهم بعضا فى ظلمة الليل عند اختلاط الحرب لو وجد.

وبعث النبى ﷺ السرايا إلى الأصنام التى حول مكة فكسروها، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره، وكذلك إلى الناس يدعوهم إلى الإسلام، ولم يأمرهم بقتال.

وكانت بنو جذيمة قد قتلوا فى الجاهلية عوفًا أبا عبد الرحمن وعم خالد، كانا أقبلا من اليمن وأخذوا ما معهما، وكان من السرايا التى بعثها ﷺ تدعو إلى الإسلام سرية مع خالد بن الوليد، فنزل على ماء لبنى جذيمة فأقبلوا بالسلاح فقال لهم خالد: ضعوا السلاح، فإن الناس قد أسلموا فوضعوه، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فأمر بهم خالد فكتفوا ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم. فلما بلغ النبى ﷺ ذلك رفع يديه إلى السماء حتى بان بياض إبطيه وقال: اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد، مرتين، ثم أمر عليًا رضى الله عنه أن يؤدى لهم الدماء والأموال، ففعل ذلك، ثم سألهم: هل بقى لكم دم أو مال؟ فقالوا: لا، وكان قد فضل مع علىّ قليل مال فدفعه إليهم زيادة تطييب لقلوبهم، فأعجب النبى ﷺ ذلك. وأنكر عبد الرحمن بن عوف على خالد فعله، فقال خالد: ثأرت أباك! فقال عبد الرحمن بل ثأرت عمك الفاكه، وفعلت فعل الجاهلية فى الإسلام! وبلغ رسول الله ﷺ خصامهما فقال: يا خالد دع عنك أصحابى، فو الله لو كان لك أحد ذهبًا ثم أنفقته فى سبيل الله تعالى ما أدركت غدوة أحدهم ولا روحته.

وكان فتح مكة يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان، ودخل النبى ﷺ مكة وملكها عنوة بالسيف، وإلى ذلك ذهب مالك وأصحابه، وهو الصحيح من مذهب أحمد رضى الله عنه، وقال أبو حنيفة والشافعى رضى الله عنهما: إنها فتحت صلحًا.

ولما دخل ﷺ مكة، وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنما مشدودة بالرصاص، لكل حى من أحياء العرب صنم، وكان «هبل» أعظمها، وهو على

باب الكعبة، فلما طاف جعل يشير بقضيب في يده إليها ويقول: ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (الإسراء: ٨١) فما أشار لصنم إلا وقع لوجهه، وفى ذلك قال تميم الخزامى:

فـفى الأصنام مـعـتـبـر وعلم لمن يرجـو الـثـواب أو العـقـابا

ثم أمر بهبل فكسر وهو واقف عليه:

وروى أن الزبير بن العوام قال لأبى سفيان: إن هبل الذى كنت تفتخر به يوم أحد قد كسر! قال: دعنى ولا توبخنى، لو كان مع إله محمد إله آخر لكان الأمر غير ذلك! ويقال إن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح كان بها من الأصنام ثلاثمائة وستون صنما حول الكعبة، منها إساف ونائلة فكسرا مع الأصنام، وفى ذلك يقول فضالة الليثى:

لولا رأيت محمداً وجنوده بالفتح يومَ تكسُّر الأصنام
لرأيت نور الله أصبح بيّنا والشرك يغشى وجهه الإظلام

وكان عليه ﷺ لما دخل مكة عمامة سوداء، فوقف على باب الكعبة وقال: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده». ثم ذكر ﷺ خطبة بيّن فيها جملة من الأحكام منها: أن لا يُقتل مسلم بكافر، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، والبينة على المدعى واليمين على من أنكر، ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث ليال إلاّ مع ذى محرم، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح - (أى من النوافل) - ولا يصام يوم الأضحى ولا يوم الفطر، ثم قال: «يا معشر قريش، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب»، ثم تلا هذه الآية: ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (الحجرات: ١٣) الآية، ثم قال: «يا معشر قريش»، فاجتمع به المشركون فى المسجد الحرام آيسين من أرزاقهم، فجاء رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد الحرام، وأحاط جيشه بالمسجد، ودخل معه خواصه، وفتح له باب الكعبة حتى

دخل وصلى بها، وأقام الخواص حول رسول الله ﷺ وأيديهم على مقابض سيوفهم، وهم ينتظرون [1] أمره بوضع السيف فى أعدائهم، فخرج رسول الله ﷺ وقام على عتبة الباب، وأقبلت قريش وهم منكسو رؤوسهم خوفًا وحزنًا، فقال: «يا أهل مكة بئس العشير كنتم لنبيكم، كذبتمونى وصدقنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس، والآن قد أظهرنى الله عليكم كما ترون، فما ترونى فاعلاً بكم؟؟».

فقام سهيل بن عمرو، وهو كان من رؤساء قريش، وقال يا محمد، أنت أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت، إن عذبتنا فبجرم عظيم، وإن عفوت عنا فبحلم قديم. فتبسم رسول الله ﷺ فى وجوههم وقال: «بل أقول مثل ما قال أخى يوسف، عليه السلام: ﴿ **لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ** ﴾ (يوسف: ٩٢) اذهبوا فأنتم الطلقاء». فأعتقهم ﷺ جميعًا، ولم يسب ذراريهم، وكان الله قد أمكنه منهم فكانوا له فيئا، فبذلك سمى أهل مكة الطلقاء، أى الذين أطلقوا فلم يسترقوا ولم يؤسروا، والطليق هو الأسير إذا أطلق.

وروى أن عائشة رضى الله عنها نذرت: إن فتح الله مكة على سول الله ﷺ تصلى فى البيت ركعتين، فلما فتحت مكة وحج رسول الله ﷺ حجة الوداع سألت النبى ﷺ أن يفتح لها باب الكعبة ليلاً لتوفى نذرها، فجاء عثمان بن طلحة رضى الله عنه بالمفتاح إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إنها لم تفتح ليلاً قط، قال: فلا تفتحها، ثم أخذ رسول الله ﷺ بيدها وأدخلها الحجر وقال: «صل ههنا، فإن الحطيم ـ أى الحجر ـ من البيت، إلا أن قومك قصرت بهم النفقة ـ (أى الحلال) ـ فأخرجوه من البيت، ولولا حدثان قومك بالجاهلية [2] لنقضت بناء الكعبة وأظهرت قواعد الخليل وأدخلت الحطيم فى البيت وألصقت العتبة على الأرض، ولئن عشت إلى قابل لأفعلن ذلك»، ولم يعش ﷺ ولم تتفرغ الخلفاء لذلك.

---

(١) فى الأصل: ينظرون.

(٢) أى لولا أنهم قريبو عهد بالجاهلية.

ولما اطمأن الناس خرج رسول الله ﷺ إلى الطواف، فطاف بالبيت سبعًا على راحلته، واستلم الركن، ودخل الكعبة، ورأى فيها الشخوص على صور الملائكة وصورة إبراهيم وفى يده الأزلام يستقسم بها، فقال ﷺ: قاتلهم الله! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام، ما شأن إبراهيم والأزلام؟ ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (آل عمران: ٦٧) ثم أمر بتلك الصور فطمست، وصلى فى البيت.

ثم جلس على الصفا فاجتمع الناس لبيعته على الإسلام، فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله، فبايع الرجال ثم النساء.

روى أن النبى ﷺ عهد إلى أمرائه حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم إلا أحد عشر رجلاً وست نسوة، فإنه أمر بقتلهم أينما ثُقفُوا من الحل والحرم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، أما الرجال الأحد عشر

فأحدهم: عبد الله بن خطل، رجل من بنى تميم بن غالب بن فهر، وقد كان قدم بالمدينة قبل فتح مكة وأسلم، وكان اسمه عبد العزى، فغير النبى ﷺ اسمه وسماه عبد الله.

والثانى: عبد الله بن سعد بن أبى سرح، أخو عثمان بن عفان من الرضاعة، فبالغ عثمان فى شفاعته، ثم قال بعد ما أعرض عنه النبى ﷺ مراراً: يا رسول الله أمِّنْهُ، فصمت طويلاً، ثم أمَّنه، فأسلم، وقال ﷺ: إنما صَمتُّ ليقوم أحدكم فيقتله، فقالوا: هلا أومأت إلينا؟ فقال: إن الأنبياء لا تكون لهم خائنة الأعين، وكان أسلم قبل الفتح وكتب الوحى لرسول الله ﷺ فكان يبدل القرآن، ثم ارتد وهرب إلى مكة، ثم أسلم يوم الفتح وعاش إلى خلافة عثمان وولاه مصر.

والثالث: عكرمة بن أبى جهل، استأمنت له زوجته أم حكيم، وجاء عكرمة حتى وقف بحذاء رسول الله ﷺ وقال: يا محمد، إن هذه أخبرتنى أنك أمَّنتنى، فقال رسول الله ﷺ: صدقت، فإنك آمن. فقال عكرمة: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك عبد الله ورسوله.

والرابع : الحويرث بن نفيل، كان يؤذى رسول الله ﷺ ويهجوه، فقتله على رضى الله عنه.

والخامس: المقيس [1] هو ابن صبابة [2] الكندى، وجرمه أن أخاه هشام بن صبابة قدم المدينة وأسلم، وكان مع النبى (فى غزوة المريسيع، فظن أنصارى من بنى عمرو بن عوف أنه مشرك فقتله خطأ، فقدم مقيس المدينة يطلب دم أخيه، فأمر النبى ﷺ الأنصارى بالدية فعقل [3] ديته، فأسلم مقيس، وبعدما أخذ الدية قتل الأنصارى وارتد ورجع إلى مكة مشركًا.

والسادس: هبار بن الأسود، وكان كثيراً ما يؤذى رسول الله ﷺ يوم بدر، فعرض هبار مع جماعة لطريق زينب ومنعها، وضرب زينب بالرمح فسقطت عن ناقتها، وكانت حاملا فألقت حملها، ومرضت وماتت بهذا المرض، فغضب عليه النبى ﷺ غضبًا شديدًا، وأهدر دمه، ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة جاء هبار رافعًا صوته وقال: يا محمد، أنا جئت مقراً بالإسلام، وقد كنت قبل هذا مخذولا ضالاً، والآن قد هدنى الله للإسلام، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، واعتذر إليه معترفًا بذنبه مظهراً لخجالته، فقبل النبى ﷺ إسلامه وقال: يا هبار، عفوت عنك، والإسلام يجب ما قبله.

والسابع: صفوان بن أمية، ولما علم أن النبى ﷺ أهدر دمه يوم فتح مكة هرب مع عبد له اسمه يسار إلى جدة، يريد أن يركب منها إلى اليمن، فقال عمير بن وهب الجمحى: يا نبى الله، إن صفوان بن أمية سيد قومى، وقد خرج هاربًا منك ليقذف نفسه فى البحر، فأمِّنْه عليك، قال: هو آمن، قال: يا رسول الله، اعطنى شيئًا يعرف به أمانك، فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التى دخل بها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه بجدة، وهو يريد أن يركب البحر، فقال: يا صفوان، فداك أبى وأمى، وأذكر الله فى نفسك أن تهلكها، فهذا أمان رسول الله ﷺ فرجع معه

---

(١) بكسر الميم وسكون القاف وفتح المثناة التحتية وآخره سين مهملة. [الطهطاوى].

(٢) بالصاد المهملة المضمومة وبالموحدتين. [الطهطاوى].

(٣) أى أدى.

حتى وقف به على رسول الله ﷺ فقال صفوان : هذا يزعم أنك أمنتنى ، قال : صدق ، قال : فاجعلنى فى أمرى بالخيار شهرين ، قال : أنت فيه بالخيار أربعة أشهر ، فلما خرج النبى ﷺ إلى حنين وهوازن ، واستعار منه النبى ﷺ مائة درع ، فقال صفوان : أغصبا يا محمد؟ فقال النبى ﷺ : بل عارية مضمونة ، وحين قفل النبى ﷺ من الطائف إلى الجعرانة مر مع صفوان على شعْب مملوء من الإبل والغنم وسائر أنعام الغنيمة ، وكان صفوان يحد النظر إلى تلك الأموال ، ولم يرفع بصره منها ، وكان النبى ﷺ يلاحظه ، فقال يا أبا وهب ، أتعجبك هذه؟ قال : نعم ، قال : وهبتها لك كلها ، فقال صفوان : ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبى فأسلم هناك .

والثامن : حاث بن طلاطلة [1] وهو من جملة مؤذى النبى ﷺ وفى يوم فتح مكة قتله علىّ بن أبى طالب .

والتاسع : كعب بن زهير بن أبى سلمى المزنى الشاعر صاحب «بانت سعاد» القصيدة المشهورة ، وكان يهجو النبى ﷺ فجاء وهو جالس فى المسجد فدخل وأسلم وأنشأ قصيدته التى أولها :

* بانت سعاد فقلبى اليوم متبول *

فلما بلغ إلى قوله :

إن الرسول لسيف يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

أنبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عن رسول الله مأمول

قال النبى ﷺ : اسمعوا ما يقول ، وقيل فرح النبى ﷺ وكساه بردته جائزة له ، فلما كان زمن معاوية أرسل إلى كعب : أن بعنا بردة النبى ﷺ فقال : ما كنت لأوثر ثوب رسول الله ﷺ أحدًا ، فلما مات كعب اشتراها معاوية من أولاده

(١) اسمه ـ كما فى [نهاية الأرب] : ـ الحويرث بن نقيذ ، واسمه فى [الدرر] : الحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد قصى .

بعشرين ألف درهم ونقل الملك المؤيد أبو الفداء إسماعيل (1) صاحب «حماه» في تاريخه: أنه اشتراها بأربعين ألف درهم، ثم توارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون حتى أخذها التتر. انتهى. والصحيح أن هناك بردتين: بردة كعب بن زهير، وهي التي اشتراها معاوية، وفقدت بزوال بني أمية، والثانية هي التي أهداها ﷺ لأهل أَيْلَة في غزوة تبوك، وكتب لهم أمانا، واشتراها أبو العباس السفاح بثلاثمائة دينار، ولعلها هي التي أخذها التتر، وإلا فقد كانت عند الخلفاء يتوارثونها ويطرحونها على أكتافهم في المواكب جلوسًا وركوبًا، وكانت على المقتدر حين قتل، وتلوثت بالدم، وأخرج الامام أحمد بن حنبل، في الزهد، عن عروة بن الزبير رضي الله عنه: أن ثوب رسول الله ﷺ الذي كان يخرج فيه للوفد رداء حضرمي طولة أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر، فهو عند الخلفاء قد خَلَق وطووه بثياب تلبس يوم الأضحى والفطر. انتهى. ولعل هذا هو الموجود في الخزينة الخديوية المصرية.

وكان إسلام كعب في السنة التاسعة.

والعاشر: وحشي بن حرب، قاتل حمزة، وكان كثير من المسلمين حريصًا على قتله، ويوم فتح مكة هرب إلى الطائف وأقام هناك إلى زمان قدوم وفد الطائف إلى النبي ﷺ فجاء معهم، ودخل عليه وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقال النبي ﷺ: أنت وحشي؟ قال: نعم، قال: أأنت قتلت حمزة؟ قال: قد كان من الأمر ما بلغك يا رسول الله، قال: اجلس واحك لي كيف قتلته؟ ولما قص عليه قصة قتله قال: أما تستطيع أن تُغَيِّب وجهك عني؟! وكان وحشي بعد ذلك إذا رأى النبي ﷺ يفر منه ويختفي.

والحادي عشر: عبد الله بن الزِّبَعْرَى وكان من شعراء العرب، وكان يهجو أصحاب النبي ﷺ ويحرض المشركين على قتالهم، ويوم الفتح لما سمع أن النبي

(1) إسماعيل بن علي الأيوبي (1273-1331م) أمير عربي حكم مدينة حماة السورية أما شهرته فهي قائمة على آثاره في التاريخ والجغرافيا والأدب، وأهم آثاره التاريخية [المختصر في تاريخ البشر] الذي يعد تكملة لتاريخ ابن الأثير [الكامل] أما في الجغرافية فله [تقويم البلدان].

ﷺ أهدر دمه هرب إلى نجران وسكنها، وبعد مدة وقع الإسلام فى قلبه، فأتى النبى ﷺ، فلما رآه من بعيد قال: هذا ابن الزبعرى، ولما دنا منه قال: السلام عليك يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

وأما النساء الست اللاتى أهدر النبى ﷺ دماءهن يوم الفتح.

فإحداهن: هند بنت عتبة، وهى امرأة أبى سفيان، روى أن رسول الله ﷺ لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال أخذ فى بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر جالس أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه، فجاءت هند ابنة عتبة، امرأة أبى سفيان، وهى متنكرة خوفًا من رسول الله ﷺ أن يعرفها لما صنعت بحمزة، فى كونها مثلت به ومضغت كبده، فقال رسول الله: أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئًا، فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: ولا يسرقن، فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح، فإن أصبت من ماله هناة؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت فهو لك حلال، فضحك النبى ﷺ وعرفها، وقال لها: وإنك لهند؟ فقالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبى الله، فقال: عفا الله عنك فقال: ولا يزنين، فقالت: أتزنى الحرة؟ فقال: ولا يقتلن أولادهن، فقالت: ربيناهم صغارًا وقتلتهم كبارًا، فأنتم وهم أعلم! فضحك عمر رضى الله عنه حتى استلقى، وتبسم ﷺ. ولما قال ﷺ: ولا يأتين ببهتان يفترينه، قالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، ولما قال: ولا تعصيننى فى معروف، قالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى معروف. وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر، فلما رجعت تكسر صنمها وتقول: كنا منك فى غرور.

الثانية والثالثة: قُرَيْبَة [1] والفَرْتَنَا [2] وهما فَتَيَتَان قينَتَان، أى مغنيتان لابن خطل، وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ فأمر بقتلهما مع ابن خطل، فأما قُرَيْبة فقتلت

---

(١) بالقاف والموحدة مصغرا. [الطهطاوى].

(٢) بالفاء المفتوحة والراء المهملة الساكنة والمثناة الفوقية والنون. كذا صححه القسطلانى فى [المواهب اللدنية]. [الطهطاوى].

مصلوبة، وأما فَرْتَنَا ففرت حتى استؤمن لها من رسول الله ﷺ فأمنها فأمنت.

الرابعة: مولاة بنى خطل وقتلت يوم الفتح.

الخامسة: مولاة بنى عبد المطلب، وقيل مولاة عمرو بن صيفى بن هاشم.

السادسة: سارة، وهى التى حملت كتاب حاطب بن أبى بلعتة من المدينة ذاهبة إلى مكة إلى قريش، وأعطاها عشر دنانير على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة، وكتب فى الكتاب: «من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة، اعلموا أن رسول الله ﷺ يريدكم، فخذوا حذركم». وكانت تؤذى رسول الله ﷺ بمكة، وتغيبت يوم الفتح حتى استؤمن لها فعاشت حتى أوطأها رجل فرسا له فى زمن عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها. وفى [فتح البارى فى شرح صحيح البخارى] أنها أسلمت.

وأذن بلال الظهر على الكعبة، فقالت جويرية بنت أبى جهل: لقد أكرم الله أبى حين لم يشهد نهيق بلال على ظهر الكعبة! وقال الحارث بن هشام: ليتنى مت قبل هذا! وقال خالد بن أسيد: لقد أكرم الله أبى فلم ير هذا اليوم! فخرج عليهم ﷺ، ثم ذكر لهم ما قالوه، فقال الحارث: أشهد أنك رسول الله، ما اطلع على هذا أحد فنقول أخبرك! فقام على رضى الله عنه، ومفتاح الكعبة فى يده، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية، فقال ﷺ أين عثمان بن طلحة؟ فدعاه، فقال: هاك مفتاحك يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف.

وفى رمضان هذه السنة يوم الفتح أسلم أبو قحافة، والد أبى بكر رضى الله عنهما، روى أن أبا بكر لما جاء إلى النبى ﷺ بأبيه أبى قحافة ليسلم قال له النبى ﷺ لم عَنَّيت الشيخ، ألا تركته حتى أكون أنا آتيه فى منزله؟ فقال أبو بكر: بأبى أنت وأمى، هو أولى أن يأتى رسول الله ﷺ وكانت امرأة أبى قحافة أم الخير، أم أبى بكر، قد أسلمت قديما فى السنة السادسة من النبوة. واسم أبى قحافة عثمان بن عامر، توفى فى السنة الرابعة عشرة من الهجرة، فى خلافة عمر، بعد وفاة أبى بكر رضى الله عنه بسنة، وكان ابن سبع وتسعين سنة.

قال ابن هشام وبلغنى أن النبى ﷺ حين افتتح مكة ودخلها قام على الصفا يدعو، وقد أحدقت الأنصار فقالوا فيما بينهم: أترون أن رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟ فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال ﷺ معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم.

قال ابن إسحاق وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف، وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من رمضان سنة ثمان.

واستقرض ﷺ من ثلاثة نفر من قريش، أخذ من صفوان بن أمية رضى الله عنه خمسين ألف درهم، ومن عبد الله بن أبى ربيعة أربعين ألف درهم، ومن حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم، فرقها ﷺ فى أصحابه من أهل الضعف، ثم وفاها مما غنمه من هوازن، وقال: إنما جزاء السلف: الحمد والأداء. وأقام رسول الله ﷺ بمكة حين فتحها خمس عشرة ليلة، يقصر الصلاة.

ثم خرج إلى هوازن وثقيف، وقد نزلوا حنينا، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن خزاعة قتلت رجلا من بنى ليث عام الفتح بقتيل لهم فى الجاهلية، فقام رسول الله ﷺ خطيبا بعد الظهر، مسندا ظهره الشريف إلى الكعبة، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أيها الناس، إن الله قد حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، ألا وإنها لم تحل لأحد كان قبلى ولا لأحد يكون بعدى، وإنما أحلت لى ساعة من نهار، ألا وإنها ساعتى هذه، فلا يُنفر صيدها، ولا يُختلى خلاؤها، ولا يُعضد [1] شجرها، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين: إما أن يُود أوَ يقتد». فقال العباس بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه: إلا الإذخر [2] لصاغَتنا ولسقف بيوتنا، فقال: «إلا الإذخر»، ثم وَدَى رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذى قتلته خزاعة وهو ابن الأقرع الهذلى، من بنى بكر، فإنه دخل مكة وهو على شركه فعرفته خزاعة فأحاطوا به فطعنه منهم خُراش

(١) يقال: عضد الشجرة، إذا قطعها بالمعضد، أو نثر أوراقها لإبله.

(٢) الإذخر ـ بكسر الهمزة ـ من معانيه: الحشيش الأخضر، ونبات طيب الرائحة.

بمِشْقَص[1] فى بطنه حتى قتله، فلامه ﷺ، وقال: لو كنت قاتلا مسلمًا بكافر لقتلت خراش، قال ابن هشام وبلغنى أنه أول قتيل وَدَاه النبى ﷺ.

وسرقت امرأة فأراد ﷺ قطع يدها ففزع قومها إلى أسامة بن زيد بن حارثة رضى الله عنهم يستشفعون به، فلما كلمه أسامةفيها تلون وجهه ﷺ وقال: «أتكلمنى فى حد من حدود الله تعالى»؟ فقال أسامة: استغفر لى يا رسول الله، ثم قام ﷺ خطيبا، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإن ما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»! ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها.

ثم قام أبو شاه رجل من أهل اليمن فقال: اكتبوا إلىّ يا رسول الله، فقال ﷺ اكتبوا إلى أبى شاه. قال الأوزاعى: [2] يعنى الخطبة التى سمعها من رسول الله ﷺ.

غزوة حنين

(وفى هذه السنة كانت غزوة حُنين، وهى غزوة هوازن)

وحنين اسم واد بقرب الطائف، بينه وبين مكة ثلاث ليال، وتسمى غزوة أوطاس، وهو واد لهوازن.

وسبب غزوة حنين أنه لما فتحت مكة تجمعت هوازن بخيولهم وأموالهم لحرب رسول الله ﷺ، ومقدمهم مالك بن عوف النضرى، وانضمت إليهم ثقيف، وهم أهل الطائف، وبنو سعد بن بكر، وهم الذين كان النبى ﷺ مرتضعا عندهم، وحضر بنو جشم وفيهم دُرَيد بن الصِّمَّة، وقد جاوز المائة، لرأيه. وقال رجزا:

---

(١) والمشقص: ما طال من النصال وعرض. [الطهطاوى].

(٢) عبد الرحمن بن عمر بن يحمد (٧٠٧- ٧٧٤م) فقيه وكاتب زاهد، كان إمام الشام فى عصره، ومن آثاره [السنن] و[المسائل].

يا ليتني فيها جذع   أخُبّ فيها وأضع (1)

فلما سمع النبى ﷺ باجتماعهم خرج من مكة لست خلون من شوال سنة ثمان من الهجرة، وكان يقصر الصلاة بمكة من يوم فتحها إلى خروجه هذا، وخرج معه اثنا عشر ألفا، ألفان من أهل مكة والعشرة آلاف التى كانت معه وفتح الله بها مكة. وانتهى إلى حنين والمشركون بأوطاس، وقال رجل من المسلمين لما رأى كثرة جيش المسلمين: لن يغلب هؤلاء من قلة، وفى ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ (التوبة: ٢٥) فلما التقوا انهزم المسلمون لا يلوى أحد على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين فى نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، واستمر ﷺ ثابتا، وتراجع المسلمون واقتتلوا قتالا شديدا، وقال النبى ﷺ لبغلته الدلدل: البدى، البدى، فوضعت بطنها على الأرض وأخذ حفنة من تراب فرمى بها فى وجه المشركين، وقال شاهت الوجوه - (أى خضعت وذلت) - فلم تبق عين إلا دخل فيها من ذلك التراب، فكانت الهزيمة عليهم، ونصر الله المسلمين، وأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال: ١٧) . وقال عليه الصلاة والسلام:

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وهذا يدل على كمال شجاعته، وتمام صولته وقوته ﷺ، إذ فى هذا اليوم الشديد اختار ركوب البغلة التى ليس لها كر ولا فر كما يكون للفرس، ومع ذلك توجه نحو العدو وحده، ولم يخف صفته ونسبه، وما هذا كله إلا لوثوقه بالله وتوكله عليه، وليس قوله ﷺ أنا النبى لا كذب، إلى آخره، من الشعر، لأن شرطه - كما تقدم فى بناء المسجد الشريف - أن يكون عن قصد وروية، وإنما قال ﷺ اتا ابن عبد المطلب، ولم يقل: أنا ابن عبد الله، لأن العرب كانت تنسبه ﷺ إلى جده عبد المطلب، لشهرته، ولموت عبد الله فى حياته، فليس من الافتخار بالآباء الذى هو من عمل الجاهلية - كما تقدم فى قوله ﷺ أنا ابن العواتك.

---

(1) الخب والوضع: ضربان من السير.

واستشهد من المسلمين أربعة، وقتل من المشركين أكثر من سبعين قتيلا، وأفضى المسلمون في القتال إلى الذرية فنهاهم عن ذلك ونادى مناديه: من قتل قتيلا فله سلبه.

ولما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث عبيد أبا عامر الأشعري لغزوة أوْطاس لطلب دُرَيْد بن الصِّمَّة وأصحابه، فهزمهم وقتلهم، واستشهد أبو عامر رضي الله عنه بعد قتله جماعة منهم وكان في السبي الشماء أخته ﷺ من الرضاعة، واسمها حذافة، وإنما غلب لقبها فلا تعرف في قومها إلا به.

ولما هزم رسول الله ﷺ هوازن، وأمر بطلبهم، قال لجيشه: إن قدرتم على بجاد - رجل من بني سعد - فلا يفلتن منكم، فأخذته الخيل وضموه إلى الشماء بنت الحارث (ويكنى أبا ذؤيب، كما يكنى بأبي كبشة) - أخت النبي ﷺ، وأتبعوهم في السباق، وتعبت الشماء بتعبهم تقول: والله أخت صاحبكم! فلم يصدقوها، فأخذها طائفة من الأنصار، وكانوا أشد الناس على هوازن، فأتوا بها إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا محمد، إني أختك! فقال رسول الله ﷺ وما علامة ذلك؟ فأرته عضة بإبهامها، وقالت: هذه عضضتنيها وأنا متوركتك بوادي السدر ونحن يومئذ نرعى بُهْم أبيك وأبي وأمك وأمي، وتذكر يا رسول الله حلابي لك عنز أبيك! فعرف رسول الله ﷺ العلامة، فوثب قائما، فبسط رداءه، ثم قال: إجلسي عليه، ورحب بها ودمعت عيناه، وسألها عن أمه وأبيه فأخبرته بموتهما، ثم قال: إن أحببت فأقيمي عندنا محببة مكرمة، وإن أحببت أن ترجعي إلى قومك وَصَلْتك ورجعت إلى قومك، قالت: بل أرجع إلى قومي. فأسلمت، وأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية، وأمر لها ببعير أوبعيرين، وسألها من بقي منهم؟ فأخبرته بأخيها وأختها وبعمها، وأخبرته بقوم سألها عنهم، ثم قال: إرجعي إلى الجعرانة تكوني مع قومك، فإني أمضي إلى الطائف، فرجعت إلى الجعرانة، ووافاها رسول الله ﷺ بالجعرانة فأعطاها نعما وشاء، وكلمته في بجاد أن يهبه لها ويعفو عنه، ففعل ﷺ، وقد سبق بعض ذلك في (الفصل الأول) من (الباب الأول) من (المقالة الخامسة) من الجزء الثاني [1].

---

(١) انظره في هذا الجزء.

وورد فى الحديث النبوى أنه ﷺ خرج وهو محتضن أحد إبنى ابنته رضى الله عنها، وهو يقول: إنكم لتجبنون وتبخلون وتجهلون، وإنكم لمن ريحان الله، وإن آخر وطأة وطئها الله بوَجّ. انتهى.

قال العلماء: إن هذا الحديث من خفىّ التعريض وغامضه فإن وَجّ واد من الطائف، وحنين واد قبله، فأراد الرسول ﷺ غزاة حنين لأن غزوة حنين آخر غزوة أوقع بها رسول الله عليه الصلاة والسلام مع المشركين، وأما غزوة الطائف وتبوك اللتان كانتا بعد حنين فلم يكن فيهما وطأة، أى قتال، وإنما كانتا مجرد خروج إلى الغزوة من غير ملاقاة عدو ولا قتال. ووجه عطف هذا الكلام، وهو قوله ﷺ وإن آخر وطأة وطئها الله بوَجّ، على ما قبله من الحديث، هو التأسف على مفارقة أولاده لقرب وفاته، لأن غزوة حنين كانت فى شوال سنة ثمان ووفاته كانت فى ربيع الأول من سنة إحدى عشرة، وبينهما سنتان ونصف، فكأنه قال وإنكم لمن ريحان الله أى من رزقه، وأنا مفارقكم عن قريب، إلا أنه صانع عن قوله: وأنا مفارقكم عن قريب على سبيل التعريض بقوله: وإن آخر وطأة وطئها الله بوَجّ إشارة لما أراده، وقصد من قرب وفاته بحصول الغزوة المؤزرة.

وفيها توفيت زينب.

وفيها غلا السعر فقالوا: سَعِّر لنا.

وفيها ولد إبراهيم ابن النبى عليه الصلاة والسلام.

وفيها مات حاتم الطائى، وكان شاعرا مجيدا يضرب بجوده المثل وقيل مما ورد، أن الذى تأسف عليهم النبى ﷺ فى زمن الفترة كانوا أربعة: **الأول**: الملك أنوشروان، لعدله، **والثانى**: أبو طالب عم النبى ﷺ، لبره، **والثالث**: حاتم الطائى، لكرمه، **والرابع**: امرؤ القيس، لشعره.

ففى غزوة حنين وسرية أوْطاس وقع من إعلاء كلمة الله وإظهار شوكة الإسلام مالا مزيد عليه، ونال فيها كثير من المسلمين أجر الشهادة، وانهزمت ثقيف إلى الطائف، وكان هذا سبب غزوة الطائف.

غزوة الطائف

وفي هذه السنة غزوة الطائف والطائف بُلَيْدة كثيرة الفواكه، وهي أبرد مكان بالحجاز، وربما جمد الماء في ذروة الجبل التي هي على ظهره، وأكثر ثمرها الزبيب وهي طيبة الهواء، ينتجع إليها أغنياء مكة أيام الصيف لذلك.

وسبب هذه الغزوة أنه لما انهزمت ثقيف من حنين إلى الطائف، وأغلقوا باب مدينتهم سار النبي ﷺ وحاصرهم نيفا وعشرين يوما، وقاتلهم بالمنجنيق ودخل نفر من المسلمين تحت دَبّابة [1] ودنوا إلى سور الطائف فصبوا عليهم سلك الحديد المحماه ورموهم بالنبل فأصابوا منهم قوما، وأمر ﷺ بقطع أعنابهم، ثم رحل عنهم ونزل بالجعرّانة، واجتمعت فيها الغنائم، وأتى إليه بعض هوازن ودخلوا عليه يستعطفونه وقالوا: قد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، وإن فيمن أصبتهم الأمهات والأخوات والعمات والخالات - يريدون عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، لأن مرضعته ﷺ من هوازن - ونرجو عطفك، فقال ﷺ إن أحسن الحديث أصدقه، أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فاختاروا إحدى الطائفتين، إما السبي وإما المال فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئا، اردد علينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا، ولا نتكلم في شاة ولا بعير، فرد عليهم نصيبه ونصيب بني عبد المطلب، قائلا: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا وقولوا: إنا نَستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في نسائنا وأبنائنا، فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم. فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر قاموا إليه فتكلموا بالذي أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ، بعد أن أثنى على الله بما هو أهله: أما بعد، فإن إخوانكم هؤلاء جاءوا تائبين، وإني رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل ومن أحب منكم أن يكون على حظ حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل،

---

(١) بدال مهملة وبائين موحدتين بينهما ألف لينة آخره هاء: آلة تتخذ للحروب، فتدفع في أصل الحصن، فينقبون وهم في جوفها. [الطهطاوي].

هؤلاء القوم جاؤوا مسلمين وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا، فمن كان عنده من النساء سبي وطابت [1] نفسه أن يرده فليرده. قال الناس رضينا وسلمنا، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، ثم لحق مالك بن عوف، مقدم هوازن، برسول الله ﷺ فأسلم، وحسن إسلامه، واستعمله على قومه وعلى من أسلم من تلك القبائل، وكانت عدة السبي الذي أطلقه ستة آلاف.

وروى أن رسول ﷺ لما عرض عليه سبي هوازن كان ممن عرض عليه بنت حاتم الطائي، فقالت: يا رسول الله، أنا بنت من كان يحمل الكَلّ [2] ويكسب المعدوم [3] ويعين على نوائب الزمان، أنا بنت حاتم الطائي، فَمَنَّ عليها ﷺ ورد لها مالها، وقال: أكرموا عزيز قوم ذل وغني قوم افتقر! فقالت: يا رسول الله، وصويحباتي؟ فقال: وصويحباتك، كريمة بنت كريم! فقالت: يا رسول الله، أتأذن لي أن أدعو لك بدعوات؟ فأذن لها، وقال لأصحابه: انصتوا وعوا، فقالت: شكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلبت نعمة عن كريم إلا وجعلت سببا لردها، وحسبك هذا في اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف. وقد سبق التنويه إلى ذلك في (الفصل الثاني) من (الباب الخامس) من (المقالة الخامسة) من (الجزء الثاني) من هذا التاريخ [4].

قال القاضي محمد بن سلامة القضاعي [5] في [كتاب الأنباء]: كان بها من السبايا ستة آلاف، ومن الإبل والغنم ما لا يدرى عدده.

* * *

---

(١) في الأصل: وطلبت.

(٢) أي الشيء الذي يحصل منه التعب. [الطهطاوي].

(٣) أي يعطيه له تبرعا. [الطهطاوي].

(٤) وموضعه في هذا الجزء من هذه الأعمال.

(٥) (المتوفى سنة ١٠٦٢م) مؤرخ وفقيه عاش وعمل في مصر الفاطمية، وله [الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء].

واستعمل أبا الجهم بن حذيفة بن غانم القرشى على النفل [1] يوم حنين. وذكر ابن الأثير فى [الكامل] فى أخبار يوم حنين أن رسول الله ﷺ أمر بالسبايا والأموال فجمعت إلى الجعرانة [2] وجعل عليها بُدَيْل بن ورقاء الخزاعى. انتهى. وبالجعرانة قسم رسول الله ﷺ هذه الغنائم.

وقيل كانت عدة الإبل أربعة وعشرين ألفا، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية، وأعطى المؤلفة قلوبهم، مثل أبى سفيان، وابنيه: يزيد، ومعاوية، وسهل بن عمرو، وعكرمة بن أبى جهل، والحارث بن هشام، أخى أبى جهل، وصفوان بن أمية، وغيرهم من قريش، وكذلك أعطى الأقرع بن حابس التميمى، وعيينه بن حصن، ومالك بن عوف، مقدم هوازن، فأعطى لكل واحد من الأشراف مائة من الإبل، وأعطى الآخرين أربعين أربعين، وأعطى العباس بن مرداس السلمى أباعر لم يرضها وقال فى ذلك أبياتا:

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والأقرع

وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس فى مجمع

وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لم يرفع

أى ومن تخفضه بعدم الإعطاء لا يرتفع بعد ذلك. والعبيد: بضم العين، اسم فرسه. ويروى أن النبى ﷺ قال: اقطعوا عنى لسانه! فأعطى حتى رضى، ومدح النبى ﷺ فقال:

رأيتك يا خير البرية كلها ... نشرت كتابا جاء بالحق معلما

شرعت لنا دين الهدى بعد حودنا ... عن الحق لما أصبح الحق مظلما

فمن مبلغ عنى النبى محمدا ... وكل امرئ يجزى بما كان قدما

أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه ... وكان قديما ركنه قد تهدما

تعالى علوا فوق عرش إلهنا ... وكان مكان الله أعلى وأعظما

(1) أى الغنيمة. [الطهطاوى].

(2) وهى ما بين الطائف ومكة. [الطهطاوى].

ويقال إنه أنشد هذه الأبيات وامتدح بها النبى ﷺ فأعطاه [1] خلة قطع بها لسانه، أى بقية من الغنيمة.

ولما فرق رسول الله ﷺ الغنائم، ولم يعط الأنصار من ذلك شيئا، وجدوا فى أنفسهم، فدعاهم ﷺ فقال: إن قريشا حديثو عهد بالجاهلية، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم؟ قالوا: بلى، قال رسول الله ﷺ: لو سلك الناس واديا وسلكت الأنصار شعْبا لسلكتُ شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

ويومئذ قال ذو الخويصرة من تميم: لم تعدل هذه القسمة ولا أريد بها وجه الله! فقال ﷺ سيخرج من ضئْضىء [2] هذا الرجل قوم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم تراقيهم! فخرج منه حرقوص [3] بن زهير البجلى، المعروف بذى الثُّدَيّة، لأن فى رأس عضده مثل حلمة الثدى عليه شعرات بيض، أول من بويع من الخواج بالإمامة، وأول مارق من الدين.

والخوارج قوم يكفرون مرتكب الكبيرة ويحكمون بحبوط عمل مرتكبها وتخليده فى النار، ويحكمون بأن دار الإسلام تصير بظهور الكبائر فيها دار كفر، ولا يصلون جماعة.

ثم اعتمر ﷺ من الجعرَّانة وعاد إلى المدينة. واستخلف على مكة عتَّاب بن أسيد ابن أبى العيص بن أمية، وهو شاب لم يبلغ عشرين سنة، وترك معه معاذ بن جبل يفقه الناس، فحج بالمسلمين هذه السنة عتاب المذكور، وهو أول أمير أقام حج الإسلام، وكان عليه الورع والزهد. وحج المشركون على مشاعرهم.

وفى هذه السنة أسلم عروة بن مسعود الثقفى، رضى الله عنه، وكان من حديث ثقيف أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم من الطائف اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام،

(١) فى الأصل: أعطاه.
(٢) أى أصل. [الطهطاوى].
(٣) فى الأصل: جرقوص.

الفصل التاسع

(فى ظواهر السنة التاسعة وما فيها من الغزوات)

غـــزوة تبـــوك

وفى هذه السنة كانت غزوة تبوك، وهى آخر غزواته. وتبوك[1] فى طرف الشام من جهة القبلة، بينها وبين المدينة المشرفة نحو أربع عشرة مرحلة، سميت الغزوة بعين تبوك، وهى العين التى أمر رسول الله ﷺ أن لا يمسوا من مائها شيئا حتى يأتى ﷺ إليهم، وذلك أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم ستأتون غدا، إن شاء الله تعالى، عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاء بها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتى». قال معاذ: فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان من المنافقين، والعين مثل الشراك تبض بشىء قليل من الماء، فسألهما النبى ﷺ هل مسستما من مائها شيئا؟ فقالا: نعم فقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثم أمر برفع ماء منها، فرفعوا له من تلك العين قليلا حتى اجتمع شىء، ثم غسل ﷺ فيه وجهه ويديه، ثم أعاده فيها، فجاءت العين بعد ذلك بماء كثير ببركة النبى ﷺ، فاستقى الناس وكفاهم.

ويقال لها غزوة العُسْرة، سميت بذلك لوقوعها فى زمن الحر والبلاد مجدبة والناس فى عسر، ويقال لها الفاضحة لا فتضاح المنافقين فيها.

---

(١) بفتح التاء المثناة الفوقية وضم الباء الموحدة وسكون الواو، بعدها كاف. [الطهطاوى].

وحض ﷺ من عنده من المسلمين على الجهاد، ورغبهم فيه، وأمرهم بالصدقة، فجاؤوا بصدقات كثيرة، وكان أول من جاء بها أبو بكر، جاء بماله كله، أربعة آلاف درهم، وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بن عبد المطلب بمال كثير، وجاء طلحة بمال، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية من الفضة، وجاء سعد بن عبادة بمال، وجاء محمد بن مسلمة بمال، وجاء عاصم بن عدى بتسعين وسقا من تمر، وجهز عثمان بن عفان ثلث ذلك الجيش وكفاهم مؤونتهم، فقال رسول الله ﷺ: ما يضر عثمان بن عفان ما فعل بعد اليوم!

وسار ﷺ إلى تبوك، واستخلف عليًا رضى الله عنه على المدينة وعلى عياله، فقال على: أتخلفنى فى الصبيان والنساء؟! قال: أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبى بعدى؟

وليس المراد من هذا الحديث أن جميع المنازل الثابتة لهارون من موسى، سوى النبوة، ثابتة لعلى من النبى ﷺ، وإلا لما صح الاستثناء، كما تزعم الشيعة والرافضة مستدلين به على استحقاقه الخلافة بعده ﷺ، بل المراد أن عليا خليفة عن النبى ﷺ مدة غيبته بتبوك كما كان هارون خليفة عن موسى مدة غيبته للمناجاة، وأما الاستثناء فمنقطع، والمعنى: لكنك لست نبيا كهارون، لأنه لا نبى بعدى، ولئن سلم أن الحديث يعم المنازل كلها فهو عام مخصوص، إذ من منازل هارون كونه أخا نبى، والعام المخصوص غير حجة فى الباقى، أو حجة ضعيفة، على الخلاف.

وكان مع النبى ﷺ ثلاثون ألفا، وكانت الخيل عشرة آلاف. وتخلف عبد الله بن أُبَىّ المنافق ومن تبعه من أهل النفاق، وتخلف ثلاثة من الصحابة، وهم: كعب بن مالك، ومُرَارة بن الربيع، وهلال بن أمية، ولم يكن لهم عذر.

ثم رجع النبى ﷺ إلى المدينة بعد أن أقام بتبوك بضع عشرة ليلة، لم يجاوزها. وكان إذا قدم من سفره بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم يجلس للناس، فلما فعل ذلك جاء المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون، وكانوا فوق الثمانين

رجلا، فتقبل منهم النبى ﷺ علانيتهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى، ثم جاءه كعب بن مالك، وكان قد تقدمه مرارة بن الربيع وهلال بن أمية، فسألهم عن سبب تخلفهم فاعترفوا أن لا عذ لهم، فأمرهم بالمضى حتى يقضى الله فيهم، ونهى ﷺ عن كلامهم من بين من تخلف عنه، فاجتنبهم الناس، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فلبثوا على ذلك خمسين ليلة، ولما مضت أربعون ليلة من الخمسين أمرهم النبى ﷺ باعتزال نسائهم، وجاءت امرأة هلال إليه ﷺ لتستأذنه فى خدمته فأذن لها من غير أن يقربها، فلما مضت لهم خمسون ليلة من حين النهى عن كلامهم نزلت توبتهم، فأخبر النبى ﷺ بتوبة الله عليهم، وذهب الناس يبشرونهم، وجاء كعب إلى النبى ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور، فقال له ﷺ أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك، فقال: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله عز وجل؟ فقال: بل من عند الله عز وجل، وأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ (التوبة: ١١٧) إلى قوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال كعب: فوالله ما أنعم الله علىّ نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى لرسول الله ﷺ، وأن أكون كَذَبته فأهلك كما هلك الذين كَذَبوه، فإن الله تعالى قال للذين كَذَبوا حين أنزل الوحى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ٩٥) إلى قوله تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

وأما ما ورد: «هجر المسلم أخاه فوق ثلاثة أيام حرام»، محله إذا كان لحظوظ النفس أو لتعلقات الدنيا، وأما إذا كان المهجور مبتدعا أو متجاهرا بالفسق ونحو ذلك فلا تحرم هجرته، لما ثبت من هجر النبى ﷺ الثلاثة الذين خلفوا.

ولم يجاوز ﷺ تبوك، حيث استشار أصحابه فى مجاوزتها فقال له عمر رضى الله تعالى عنه: إن كنت أمرت بالسير فسر، فقال ﷺ لو أمرت بالسير لم أستشركم فيه! فقال: يا رسول الله، إن للروم جموعا كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنونا وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعنا هذه السنة حتى نرى أنفسنا أو يحدث الله أمرا؟ وهذا تصريح بأن تبوك لم يقع فيها مقاتلة، ولا حصل فيها

غنيمة، وإنما أتاه، ﷺ وهو بها يُحَنَّة (١) بن رؤبة (٢) صاحب أَيْلَة، وصحبته أهل جَرْباء (٣) وأهل أذْرُح (٤) وأهل ميناء، وأهدى يُحَنَّة لرسول الله ﷺ بغلة بيضاء، فكساه ﷺ بردا.

وهي (٥) البردة التي كانت عند خلفاء بني العباس، اشتراها من أهل أيلة أبو العباس السفاح بثلاثمائه دينار، وكانت التي اشتراها معاوية من ذرية كعب بن زهير فقدت عند زوال دولة بني أمية، وقد تقدم في غزوة فتح مكة أن بردة النبي ﷺ التي خلعها على كعب بن زهير جائزة على قصيدته المشهورة قد اشتراها معاوية من ذريته، ثم فقدت بزوال بني أميه، بخلاف هذه، فليراجع في محله.

فصالح النبي ﷺ يُحَنَّه على إعطاء الجزية، فبلغت جزيتهم ثلاثمائة دينار، بعد أن عرض عليه الإسلام فلم يسلم، وكتب له ولأهل أيلة كتاب الصلح، وكتب أيضًا لأهل أذرح وجرباء كتاب الصلح، وأن عليه مائه دينار في كل رجب، وصالح أيضًا أهل مينا (٦) على ربع ثمارهم.

فمن هذا يفهم أنه ﷺ لم يتعرض في غزوة تبوك لقتال الروم. وقد سبق الكلام عليه في (الفصل الرابع عشر) من (الباب الأول) من (المقالة الرابعة) من (الجزء الأول) من هذا التاريخ (٧).

ولما وصل ﷺ تبوك كان هرقل بحمص، قدم من القسطنطينية إليها، وكانت قاعدة مملكته بالشام، وكانت في زمانهم أعظم من دمشق ولم يكن هَمٌّ بالذي بلغ رسول الله ﷺ عنه من جمعه ولا حدثته نفسه بذلك، وبعث ﷺ دحْيَة بكتاب إليه، فلما جاءه دعا قسيسي الروم وبطارقتها، ثم أغلق عليه وعليهم، وقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم، وقد أرسل يدعوني إلى ثلاث خصال: إما أن أتبعه

---

(١) بضم المثناة تحت، وفتح الحاء المهملة ثم نون مشددة مفتوحة، ثم تاء التأنيث. [الطهطاوى].
(٢) بالموحدة. [الطهطاوى].
(٣) تأنيث أجرب، يمد ويقصر، قرية بالشام. [الطهطاوى].
(٤) بالذال المعجمة الساكنة، والراء المهملة المضمومة، والحاء المهملة: مدينة تلقاء السراة. [الطهطاوى].
(٥) في الأصل: وهو.
(٦) بفتح أوله وسكون الياء: موضع بين صعدة وعثر، من أرض اليمن. انظر [مراصد الاطلاع].
(٧) انظره في الجزء الثالث من هذه الأعمال.

على دينه، أو أن أعطيه مالنا على أرضنا، والأرض أرضنا، أو نلقى إليه الحرب، ووالله لقد عرفتم فيما تقرأون من الكتب: ليأخذن موضع قدميّ هاتين! فهلم فلنتبعه على دينه أو أن نعطيه مالاً. فنخروا نخرة رجل واحد حتى خرجوا من برانسهم، وقالوا: تدعونا إلى أن نذر النصرانية، أو نكون عبيداً لأعراب من الحجاز؟ فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم، قال: إنما قلت ذلك لأعلم صلابتكم على أمركم! ثم دعا رجلاً من عرب تُجيب [1]، كان على نصارى العرب، فقال: ادع لى رجلاً حافظًا للحديث، عربى اللسان، أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه، فجاء بالتنوخى، فدفع إليه هرقل كتابًا، وقال: إذهب بكتابى هذا إلى هذا الرجل، فما سمعته من حديثه فاحفظ لى منه ثلاث خصال: هل يذكر صحيفته التى كتب بشىء؟ وانظر إذا قرأ كتابى فهل يذكر الليل؟ وانظر إلى ظهره هل فيه شىء يريبك؟ قال: فانطلقت بكتابه حتى جئته تبوكًا فإذا هو جالس بين أصحابه محتبيًا [2] على الماء، فقلت أين صاحبكم؟ قيل: ها هوذا، فأقبلت أمشى حتى جلست بين يديه فناولته كتابى، فوضعه فى حجره، ثم قال: ممن أنت؟ فقلت: أنا أحد تَنُوخ، قال: هل لك فى الحنيفية، ملة أبيك إبراهيم؟ قلت: إنى رسول قوم، وعلى دين قوم حتى أرجع إليهم، فضحك رسول الله ﷺ، وقال ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (القصص: ٥٦) يا أخا تَنُوخ، إنى كتبت بكتاب إلى كسرى فمزقه، والله ممزقه وممزق ملكه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها، فلن يزال الناس يجدون منه بأسًا ما دام فى العيش خير، قلت: هذه إحدى الثلاث التى أوصانى بها صاحبى، فأخذت سهمًا من جعبتى فكتبتها فى جفن سيفى، ثم ناول الصحيفة رجلاً عن يساره، قلت: من صاحب كتابكم الذى يقرأ لكم؟ قالوا: معاوية، فإذا فى كتاب صاحبى: «تدعونى إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فأين النار»؟ فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله! أين النهار إذا جاء الليل؟ فأخذت

(١) من عرب كندة.. ففى [مراصد الاطلاع] أن تجيب ـ بضم فكسر ـ اسم أبى قبيلة من كندة وخطة بمصر. وفى (الواقدى) أنها بطن من كندة، سميت باسم جدتهم العليا تجيب بنت ثوبان بن سليم بن مذحج، وهى أم أبذى بن عدى.

(٢) أى مشتملاً بالثوب.

سهمًا من جعبتى فكتبت فى جنب سيفى، فلما أن فرغ من قراءة كتابى قال: إن لك حقًا، وإنك رسول، فلو وجدتُ عندنا جائزة جوزناك بها، إنا سَفْرٌ[1] مرملون[2]، فناداه رجل من أصحابه فقال: أنا أجوزه، ففتح رحله فإذا هو بحلة صفراء فوضعها فى حجرى، فقلت: من صاحب الجائزة؟ قيل لى: عثمان، ثم قال رسول الله ﷺ: أيكم يُنْزل هذا الرجل؟ فقال فتى من الأنصار: أنا، فقام الأنصارى وقمت معه حتى إذا خرجت من طائفة المجلس نادانى رسول الله ﷺ فقال: تعال يا أخا تنوخ، فأقبلت أهوى حتى كنت قائما فى مجلسى الذى كنت بين يديه، فحل حبوته عن ظهره وقال: ها هنا، إمض لما أمرْتَ به، فجلت فى ظهره فإذا أنا بخاتم النبوة عند غضروف كتفه مثل المحجمة[3] الضَخمة، فانصرف الرجل إلى هرقل فذكر له ذلك، فدعا قومه إلى التصديق بالنبى ﷺ فأبوا حتى خافهم على ملكه، وهو فى موضعه بحمص لم يتحرك ولم يزحف.

وأهدى هرقل له ﷺ هدية فقبلها وفرقها على المسلمين.

وأقام ﷺ بضع عشرة ليلة ولم يجاوزها، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة.

ففى هذه الغزوة خرج النبى ﷺ من المدينة إلى الشام فى العدد الذى لم يتم قبله مثله، كان العدد فيها ثلاثين ألفًا أو أكثر، وكانت الشقة بعيدة، ولهذا لم يُورِّ فيها، بل أعلم الناس بوجههم ليكون تأهبهم بحسب ذلك، ومع هذا الاجتهاد فى الاستعداد لم يلق فيها حربًا ولا افتتح بلدًا، وذلك لأن أجل فتوح الشام لم يكن بعد، فانتسخ العزم بالقَدَر وبجفاف القلم، ورجع النبى ﷺ إلى المدينة وعلى المسلمين الوقار والسكينة من غير اضطراب عند انصراف العزيمة. وقد تقدم بعض ذلك فى (الفصل الرابع عشر) من (المقالة الرابعة) من (الجزء الأول)[4].

* * *

وفى هذه السنة هدم مسجد الضرار الذى ذكره الله تعالى فى كتابه العزيز فى

---

(١) سفر ـ بفتح السين وسكون الفاء ـ أى مسافرون.

(٢) مرملون. . أى نفد زادنا.

(٣) المحجمة: آلة الحجامة.

(٤) فى الجزء الثالث من هذه الأعمال.

سورة (براءة) ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ (التوبة: ١٠٧) الآية، نزلت في جماعة من المنافقين بنوا مسجدًا أيضًا يضارون به مسجد قباء، وكانوا اثنى عشر رجلاً من أهل النفاق، وكانوا جميعًا يصلون فى مسجد قباء، فبنوا مسجد الضرار ليصلى فيه بعضهم فيؤدى ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة، ولما فرغوا أتوا رسول الله ﷺ، وهو يتجهز إلى تبوك، وقالوا: يا رسول الله، قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا وتصلى لنا فيه وتدعو بالبركة، فقال رسول الله ﷺ: إنى على جناح سفر، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا، ولما انصرف ﷺ من تبوك ونزل بذى وَدَّان [1]، موضع قريب من المدينة، أتوه فسألوه إتيان مسجدهم، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فنزل عليه القرآن، وأخبره الله خبر مسجد الضرار وما هموا به، فدعا رسول الله ﷺ عامر بن عدى وعامر بن السكن وقال لهما: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه واحرقاه، فخرجا سريعًا فحرقاه وهدماه، وتفرق عنه أهله.

* * *

وفى [سيرة الأمين المأمون] لأبى الفتح محمد بن سيد الناس، رحمه الله: وكانت غزواته ﷺ خمسًا وعشرين غزوة، وقيل سبعًا وعشرين، قاتل منها فى سبع: بدر، وأحد، والخندق، وبنى قريظة، وبنى المصطلق، وحنين، والطائف، وقيل: قاتل أيضًا فى وادى القرى، والغابة، وبنى النضير، ولم يقتل بيده ﷺ إلا رجلاً واحدًا، وكانت بعوثه نحوًا من خمسين سرية.

* * *

وفى دخول هذه السنة على رسول الله ﷺ وهو بالمدينة، قبل غزوة تبوك، تتابعت الوفود من جميع الجهات، فإنهم كانوا منتظرين ما يقع له ﷺ مع قومه، فلما حصل الفتح دخل الناس فى دين الله أفواجاً.

وورد عليه عروة بن مسعود الثقفى، وكان غائبًا عن حصار الطائف، فأسلم وحسن إسلامه، فقال: أمضى إلى قومى وأدعوهم؟ فقال له ﷺ: إنهم قاتلوك،

---

(١) بين مكة والمدينة، بينها وبين الأبواء نحوًا من ثمانية أميال.

فكان كما قال، حيث رمى بسهم فى سطح بيته وهو يؤذن للصلاة فمات ومنع قومه من الطلب بدمه وقال: هى شهادة ساقها الله، وأوصى أن يدفن مع شهداء المسلمين.

ثم قدم ابنه أبو المليح، وقارب بن الأسود بن مسعود فأسلما، وضيق مالك بن عوف على ثقيف واستباح سرحهم وقطع سابلتهم - أى سبيلهم - وبلغهم رجوع النبى ﷺ من تبوك فوفدوا عليه فأسلموا، وسألوه أن يدع اللات التى كانوا يعبدونها، لا يهدمها، إلى ثلاث سنين، فأبى، فنزلوا إلى شهر فأبى وسألوه أن يعفيهم من الصلاة فقال: لا خير فى دين لا صلاة فيه، فأجابوا. وأرسل معهم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان بن حرب فهدما اللات، وخرج نساء ثقيف حسرى يبكين عليها.

وفيها بعث أبا بكر رضى الله عنه ليحج بالناس ومعه عشرون بدنة لرسول الله ﷺ وثلاثمائة رجل، فلما كان بذى الحُلَيْفة أرسل عليًا رضى الله عنه فى أثره، وأمره بقراءة (براءة) وآيات من أول سورة البقرة على الناس، وأن ينادى: أن لا يطوف بالبيت بعد السنة عريان - (أى مكشوف العورة كما كانت الجاهلية تفعل ذلك) - ولا يحج مشرك.

وعن أبى هريرة قال كنت مؤذن علىّ رضى الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة، فناديت: أن لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فأجَلُه أربعة أشهر فإذا مضت الأربعة أشهر فإن الله برئ من المشركين ورسوله.

فعاد أبو بكر وقال: يا رسول الله، هل نزل فىّ شىء؟ قال: لا، ولكن لا يؤدى عنى غيرى، أو رجل من أهل بيتى، ألا ترضى يا أبا بكر أنك كنت معى فى الغار، وصاحبى على الحوض؟ قال: بلى، فكان أبو بكر أميرًا على الموسم وعلىّ يؤذن ببراءة يوم الأضحى، وأن لا يحج مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. فلم يحج فى العام بعد الذى حج فيه المصطفى حجة الوداع مشرك، وأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ (التوبة: ٢٨).

الفصل العاشر

(فيما وقع من وفود العرب عليه ﷺ وفى حجة الوداع)

في هذه السنة بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد، في ربيع أو جمادى، في سرية أربعمائة إلى نجران وما حولها يدعو بني الحارث بن كعب إلى الإسلام ويقاتلهم إن لم يفعلوا فأسلموا وأجابوا داعيته، وبعث الرسل في كل وجه، فأسلم الناس، فكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ، فكتب إليه بأن يقدم مع وفدهم، فأقبل خالد ومعه وفد بني الحارث بن كعب، منهم: قيس بن الحُصَين ويزيد بن عبد المَدَان، ويزيد بن المحُجَّل، وعبد الله بن قراد الزيادى، وشداد بن عبد الله القنانى[1]، وعمرو بن عبد الله القنانى[2]، فأكرمهم النبى ﷺ وقال لهم: بم كنتم تغلبون من يقاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: كنا نجتمع ولا نفترق، ولا نبدأ أحداً بظلم، قال: صدقتم. فأسلموا، وأمَّر عليهم قيس ابن الحُصَيْن، ورجعوا صدر ذى القعدة من سنة عشر.

ثم اتبعهم عمرو بن حزم، من بنى النجار، ليفقههم فى الدين ويعلمهم السنة، وكتب إليه كتابًا عهد إليه فيه عهده، وأمره بأمره، وأقام عاملاً على نجران، وهذا الكتاب وقع فى السِّيَر مرويًا، واعتمده الفقهاء فى الاستدلالات، وفيه مأخذ كثير للأحكام الفقهية، ونصيه:

---

(١)، (٢) فى الأصل: الضبابى: والتصحيح عن [طبقات ابن سعد] جـ ١ ق ٢ ص ٧٢ و[نهاية الأرب] جـ١٨ ص ٩٩.

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من الله ورسوله ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ (المائدة : ١) عهد من محمد النبى لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن. أمره بتقوى الله فى أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله، وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به، ويعلم الناس القرآن ويفهمهم فيه وأن ينهى الناس فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر، وأن يخبر الناس بالذى لهم والذى عليهم، ويلين للناس فى الحق ويشتد عليهم فى الظلم، فإن الله حرم الظلم ونهى عنه، فقال: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (هود: ١٨)، وأن يبشر الناس بالجنة وبعملها، وينذر الناس النار وعملها، ويستألف الناس حتى يتفقهوا فى الدين، ويعلم الناس معالم الحج وسننه وفرائضه، وما أمر الله به، والحج الأكبر والحج الأصغر، وهو العمرة، وينهى الناس أن يصلى أحد فى ثوب واحد إلا أن يكون واسعا يثنى طرفه على عاتقيه، وينهى أن يحتبى[١] أحد فى ثوب واحد ويفضى بفرجه إلى السماء، وينهى أن يقص أحد شعر رأسه إذا عفا[٢] فى قفاه، وينهى إذا كان بين الناس هَيْج[٣] عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، وليكن دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له، فمن لم يدع إلى الله ودعا القبائل فليقطعوه بالسيف حتى يكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء فى وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين وأن يمسحوا برؤوسهم كما أمرهم الله، وأمره بالصلاة لوقتها، وإتمام الركوع والسجود، وأن يُغَلِّس[٤] بالصبح، ويهجر بالهاجرة[٥] حين[٦] تميل الشمس، وصلاة العصر والشمس فى الأرض مدبرة، والمغرب حين[٧] يقبل الليل، لا يؤخر حتى تبدو نجوم السماء، والعشاء أول الليل، وأمره بالسعى إلى الجمعة إذا نودى لها، والغسل عند الرواح إليها، وأمره أن يأخذ من الغنائم خمس الله، وما كتب

---

(١) يشتمل.

(٢) عفا الشعر: كثر وطال.

(٣) ثورة ونوائب للقتال.

(٤) الغلس: ظلمة آخر الليل المختلطة بضوء الصبح.

(٥) الهاجرة صلاة الظهر، أى يبادر بها.

(٦) فى الأصل: حتى.

(٧) فى الأصل: حتى.

على المؤمنين فى الصدقة من العقار عشر ما سقت العين أو سقت السماء، وعلى ما سقى الغَرْب [1] نصف العشر وفى كل عشر من الإبل شاتان، وفى كل عشرين أربع شياه، وفى كل أربعين من البقر بقرة، وفى كل ثلاثين من البقر تبيع [2] أو تبيعة جذع أو جذعة، وفى كل أربعين من الغنم سائمة [3] وحدها شاة، فإنها فريضة الله التى افترضها على المؤمنين فى الصدقة، فمن زاد خيرا فهو خير له، وأن من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاما خالصا من نفسه ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين، له مثل ما لهم وعليه ما عليهم، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها وعليه الجزية على كل حالم ذكر أو أنثى حر أو عبد دينار واف، أو عوضه ثيابا، فمن أدى ذلك فإن له ذمة الله وذمة رسوله، ومن منع ذلك فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعا. صلوات الله على محمد والسلام عليه ورحمته وبركاته.

وقدم عليه وفد عامر، عشرة نفر، فأسلموا وتعلموا شرائع الإسلام وأقرأهم أُبَىّ القرآن، وانصرفوا.

وقدم فى شوال وفد سلامان، سبعة نفر، رئيسهم حبيب، فأسلموا وتعلموا الفرائض، وانصرفوا.

وفيها قدم وفد أزد جُرَش، وفد فيهم صرد بن عبد الله الأزدى فى عشرة من قومه ونزلوا على فروة بن عمرو، وأمَّر النبى ﷺ، بعد أن أسلموا، صردا على من أسلم منهم، وأن يجاهد المشركين حوله، فحاصر جرش ومن بها من خَثْعَم وقبائل اليمن، وكانت مدينة حصينة اجتمع إليها أهل اليمن حين سمعوا بزحف المسلمين، فحاصرهم شهرا ثم قفل عنهم، فظنوا أنه انهزم فاتبعوه إلى جبل شكْر فَصَفَّ وحمل عليهم ونال منهم، وكانوا بعثوا إلى رسول الله ﷺ رائدين وأخبرهما ذلك اليوم بواقعة شكرْ وقال: إن بُدْن الله لتنحر عنده الآن، فرجعا إلى قومهما وأخبراهم بذلك وأسلموا، وحمى لهم حِمَى حول قريتهم.

---

(١) الغرب ـ بفتح الغين وسكون الراء ـ الدلو العظيمة.

(٢) التبيع: ولد البقرة إذا كان عمره سنة.

(٣) السائمة: هى التى تركت ترعى وحدها كى تنمو.

وفيها كان إسلام همدان ووفادتهم على يد عليّ رضى الله عنه، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام، فمكث ستة أشهر لا يجيبونه، فبعث عليه السلام على بن أبى طالب، وأمره أن يقفل خالدا، فلما بلغ على أوائل اليمن جمعوا له، فلما لقوه صفوا، فقدم على الإنذار، وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، فأسلمت همدان كلها فى ذلك اليوم، وكتبت بذلك إلى النبى ﷺ فسجد لله شكرا ثم قال: السلام على همدان، ثلاث مرات.

ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام، وقدمت وفودهم، وكان عمرو بن معدى كرب الزبيدى قال لقَيْس بن مَكْشُوح المرادى: اذهب بنا إلى هذا الرجل فلن يخفى علينا أمره، فأبى قيس من ذلك، فقدم عمرو على النبى ﷺ، فأسلم، وكان فروة بن مُسَيْك المرادى على زبيد، لأنه وفد قبل عمرو مفارقا لملوك كندة فأسلم ونزل على سعد بن عبادة وتعلم القرآن وفرائض الإسلام، واستعمله رسول الله ﷺ على مراد وزبيد ومذحج كلها وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، فكان معه فى بلاده حتى كانت الوفاة.

وفى هذه السنة قدم وفد عبد القيس، يقدمهم الجارود بن عمرو، وكانوا على دين النصرانية، فأسلموا ورجعوا إلى قومهم، ولما كانت الوفاة وارتد عبد القيس، ونصبوا المنذر بن النعمان بن المنذر، ثبت الجارود على الإسلام، وكان له المقام المحمود، وهلك قبل أن يرجعوا. وقد كان رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرمى قبل فتح مكة إلى المنذر بن ساوى العبدى فأسلم وحسن إسلامه، وهلك بعد الوفاة وقبل ردة أهل البحرين.

وفى هذه السنة قدم وفد بنى حنيفة، فى ستة عشر، فيهم مُسَيْلمة بن حبيب الكذاب، ورَجّال بن عُنْفُوَة، وطَلْق بن على بن قيس، وعليهم سلمان [1] بن حَنْظَلة، فأسلموا وأقاموا أياما يتعلمون القرآن من أُبَيّ بن كعب سيد القراء، ومن فضلاء الصحابة، ورَجّال يتعلم، وطَلْق يؤذن لهم، ومسيلمة فى الرِّحال. وذكروا

(١) فى [نهاية الأرب]: سلمى.

للنبى ﷺ مكانه فى رحالهم فأجازه وقال: ليس بشركم مكانا لحفظه رحالكم! فقال مسيلمة: عرف أن الأمر لى من بعده.

ثم ارتد، وادعى مسيلمة بعد ذلك النبوة، وشهد له طلق بن على بن قيس أن رسول الله ﷺ أشركه فى الأمر، فافتتن الناس به، وذلك أنه ادعى النبوة وأنه أشْرك مع رسول الله ﷺ، وكتب إليه: «من مُسَيْلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك، فإنى قد أشركت فى الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريش قوم لا يعدلون». وكتب إليه رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

وقد قيل إن ذلك كان بعد منصرف النبى ﷺ من حجة الوداع.

وفيها قدم وفد كندة، يقدمهم الأشعث بن قيس، فى بضعة عشر، وقيل فى ستين، وقيل فى ثمانين، وعليهم الديباج والحرير، وأسلموا، ونهاهم النبى ﷺ عنه فتركوه، وقال له أشعث: نحن بنو آكل المرار [1]، يعتز بذلك، لأن لهم عليه ولادة من الأمهات ثم قال لهم: لا، نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقفوا أمنا، ولا ننتفى من أبينا!

وقدم مع وفد كنانة وفد حضرموت، وهم بنو وليعَة وملوكهم: جَمْد ومخْوَس ومشْرَح وأبْضَعَة فأسلموا، ودعا لمخْوس بإزالة الرُّتَّة [2] من لسانه. وقدم وائل بن حُجْر راغبا فى الإسلام، فدعا له، ومسح رأسه، ونودى: الصلاة جامعة سرورا بقدومه، وأمر معاوية أن ينزل بالحرة فمشى معه وكان راكبا، فقال له معاوية: أعطنى نعلك أتوقى به الرمضاء، فقال: ما كنت لألبسها وقد لبستها! وفى رواية: لا يبلغ أهل اليمن أن سوقة لبس نعل ملك! فقال: أردفنى، قال: لست من أرداف الملوك، ثم قال معاوية: إن الرمضاء قد أحرفت قدمى، فقال وائل: امش فى ظل

(١) آكل المرار: جد امرىء القيس.
(٢) عقدة فى اللسان.

ناقتى، كفاك به شرفا! ويقال إنه وفد على معاوية فى خلافته فأكرمه، ثم إن رسول الله ﷺ كتب له كتابا صورته: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب محمد النبى لوائل بن حُجْر، قَيْل حضرموت، إنك إن أسلمت لك ما فى يديك من الأرض والحصون، ويؤخذ منك من كل عشر واحدة، ينظر فى ذلك ذو عدل، وجعلتُ لك أن لا تظلم فيها ما قام[1] الدين، والنبى ﷺ والمؤمنون أشهاد عليه».

وفى هذه السنة قدم وفد محارب، فى عشرة، فأسلموا.

وفيها قدم وفد الرها من مذحج، فى خمسة عشر نفرا وأهدوا فرسا، فأسلموا وتعلموا القرآن وانصرفوا، ثم قدم نفر منهم وحجوا مع رسول الله ﷺ فأوصى لهم بمائة وسق من خيبر جارية عليهم من الكتيبة، وباعوها من معاوية.

* * *

وفى هذه السنة قدم وفد نجران النصارى فى سبعين راكبا يقدمهم أميرهم العاقب عبد المسيح، من كندة، وأسقفهم أبو حارثة بن بكر بن وائل، والسيد الأيْهَم، وجادلوا عن دينهم، فنزل صدر سورة آل عمران وآية المباهلة فقال لهم النبى ﷺ يوم المباهلة عن أمر ربه ﴿**تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾ (آل عمران: ٦١) فقال عبد المسيح لقومه: لا تباهلوا محمدا فإنى أرى معه وجوها لو أقسم على الله أن يزيل الجبال لأزالها، فتهلكوا إلى آخر الأبد. فأبوا المباهلة[2]، وأشفقوا منه، وسألوا الصلح، وكتب لهم به على ألف حُلَّة فى صفر وألف فى رجب وعلى دروع ورماح وخيل وحمْل ثلاثين من كل صنف، وطلبوا أن يبعث معهم واليا يحكم بينهم فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح.

---

(١) فى الأصل: معلم الدين. والتصحيح عن [نهاية الأرب].

(٢) والمباهلة: الملاعنة، قال جرير:

لو أن تغلب جمعت أحسابها   يوم التباهل لم تزن مثقالا

وهذا البيت من النزاهة، نوع من الهجاء، وهى عبارة عن الإتيان بألفاظ غير سخيفة تكون من أحسن الهجاء الذى إذا أنشدته العذراء فى خدرها لا يعد من مثلها قبيحًا. [الطهطاوى].

ثم جاء العاقب والسيد وأسلما، وقد أشار إلى ذلك الصفى الحلى فى بديعته فى مبحث العنوان حيث قال مشيرا إلى هذه القصة :

والعاقب الحبر من نجران إن له ... يوم التباهل عقبى زلة القدم

وهذه الواقعة مما يدل دلالة قطعية على نبوته ﷺ من وجهين :

أحدهما : أنه خوفهم بنزول العذاب عليهم، لوثوقه بذلك، وإلا لأفحم إذا لم ينزل العذاب عليهم .

وثانيهما : أن تركهم مباهلته يدل على أنهم عرفوا من التوراة والإنجيل ما يفيد نبوته، وإلا لما أحجموا عن مباهلته، ويدل على تيقنهم هذا أنه قد نقل عنهم أنهم قالوا لبعضهم : إنه والله هو النبى المبشر به فى التوراة والإنجيل، وإنكم لو باهلتموه لحصل الاستئصال، فكان ذلك تصريحا منهم بأن الامتناع عن المباهلة إنما كان لعلمهم بأنه نبى مرسل من عند الله تعالى، ويؤيد هذا قوله ﷺ «والذى نفسى بيده إن العذاب تدلى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادى نارا، ولاستأصل الله تعالى نجران وأهله حتى الطير على رؤس الشجر، ولما حال الحول على النصارى حتى هلكوا كلهم» .

* * *

وفى هذه السنة قدم وفد الصَّدف، ككتف، من كندة، ينسبون الأن إلى حضرموت فى بضعة عشر نفرا، فأسلموا وَعلّمهم أوقات الصلاة، وذلك فى حجة الوداع .

وفيها قدم وفد عبس .

وفيها وفد عدى بن حاتم فى شعبان .

وفيها قدم وفد خولان، عشرة نفر، فأسلموا وهدموا صنمهم .

وكان قد وفد على رسول الله ﷺ فى هدنة الحديبية، قبل خيبر، رفاعة بن زيد الضبيبى، من جذام، وأهدى غلاما، فأسلم، وكتب له رسول الله ﷺ كتابا يدعوهم إلى الإسلام فأسلموا .

ولم يلبث أن قفل دحية بن خليفة الكلبي منصرفا من عند هرقل حين بعثه النبي ﷺ ومعه تجارة، فأغار عليه الهنيد بن عوض وقومه بنو الضليع، من بطون جذام، فأصابوا كل شيء معه، وبلغ ذلك مسلمين من بني الضبيب فاستنقذوا ما أخذه الهنيد وابنه وردوه على دحية، وقدم دحية على النبي ﷺ فأخبره الخبر، فبعث النبي ﷺ زيد بن حارثة في جيش من المسلمين فأغار عليهم، وقتلوا الهنيد وابنه في جماعة، وكان معهم ناس من بني الضبيب فاستباحوهم معهم، فركب رفاعة بن زيد ومعه زيد بن عمرو من قومه فقدموا على النبي ﷺ وأخبروه الخبر، فقال: كيف أصنع بالقتلى؟ فقالوا: يا رسول الله أطلق لنا من كان حيا، فبعث معهم علي بن أبي طالب، وحمله على جمل، وأعطاه سيفه، وأمره برد أموالهم، فسار علي إلى زيد بن حارثة فلحقه بفيفاء الفحلتين وأمره برد أموالهم فردها.

وفي هذه السنة قدم وفد عامر بن صعصعة، فيهم عامر بن الطفيل بن مالك، وأربد بن ربيعة بن مالك، فقال عامر للنبي ﷺ :يا محمد، اجعل لي الأمر بعدك! قال: ليس ذلك لك ولا لقومك! قال عامر: اجعل لي الوَبَر ولك المدر، قال: لا، ولكن أجعل لك أعنة الخيل، فإنك امرؤ فارس، فقال: لأملأنها عليك خيلا ورجلا، ثم ولوا، فقال: اللهم اكفنيهم، اللهم اهد عامر أو اغن الإسلام عن عامر، فرجعوا إلى بلادهم فأخذ الطاعون عامرا في عنقه فمات في طريقه في أحياء بني سلول، وأصابت أخاه أربد صاعقة بعد ذلك.

ثم قدم علقمة بن علاءة بن عوف وعوف بن خالد بن ربيعة وابنه، وأسلموا.

وفيها قدم وفد طيء، في خمسة عشر نفرا، يقدمهم سيدهم زيد الخير وقبيصة بن الأسود من بني نبهان، فأسلموا، وسماه رسول الله ﷺ زيد الخير، وأقطع له بئرا وأرضين معها، وكتب له بذلك، ومات في مرجعه.

(حجة الوداع)

وفى هذه السنة كانت حجة الوادع وتسمى حجة الإسلام، وسميت حجة الوداع لأن النبى ﷺ خطب الناس فيها وأوصاهم وقال: «لعلكم لا ترونى بعد عامى هذا»، وودعهم، واختلف هل كان ﷺ فيها مفردا أو قارنا أو متمتعا، قال النووى: والصحيح أنه كان أولا مفردا، ثم أحرم بالعمرة بعد وأدخلها على الحج، فصار قارنا، فمن روى الإفراد، فهو الأصل، أو القران اعتمد آخر الأمرين، أو التمتع أراد التمتع اللغوى، وهو الانتفاع أو الارتفاق، وبه تنتظم الأحاديث.

وذلك أن النبى ﷺ خرج حاجا لخمس بقين من ذى القعدة، سنة عشر، وكان معه من أشراف الناس جماعة، ومائة من الإبل عربا، ودخل مكة يوم الأحد لأربع خلون من ذى الحجة.

وعن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ من بيته متدهنا مترجلا حتى أتى ذا الحليفة، وأحرم فى ثوبين من نسج صحار، إزار ورداء، وخرج بنسائه جميعا، فدخل مسجد ذى الحليفة فصلى ركعتين، ثم ركب ناقته القصوا، فلما استوت على ظهر البيداء أَهَلَّ بالحج، ودخل ﷺ مكة نهارا على راحلته حتى انتهى إلى البيت، فلما رأى البيت رفع يديه، فوقع زمام ناقته، فأخذه بشماله، فبدأ بالطواف بالبيت قبل الصلاة، ولم يستلم من الأركان إلا اليمانى والأسود، ورمل [(١)] رسول الله ﷺ من الحجر إلى الحجر فى الأشواط الثلاثة.

وخطب ﷺ قبل يوم التروية بيوم، بعد الظهر، ويوم عرفة، حين زالت الشمس، وهو على راحلته، قبل الصلاة، والغد من يوم النحر، بعد الظهر، بمنى، وساق فى حجته مائة بدنه، نحر منها ستين بيده بالحربة، ثم أعطى عليا سائرها فنحرها، ولم يصم ﷺ يوم عرفة، وصلى الظهر والعصر بعرفة بأذان وإقامتين، ثم وقف بعرفة، ودفع حين غابت الشمس، فقصد فى سيره، ثم صلى المغرب

---

(١) أى أسرع فى المشى.

والعشاء بأذان وإقامتين، ثم بات بالمزدلفة، ووقف على ناقته القصوا حين أسفر، ثم دفع، ورمى جمرة العقبة يوم النحر على راحلته، ونحر بالمنحر، وقال: «كُلّ منىً منحرة»، وحمل حصاة من جمع، ثم كان يرمى الجمار ماشيا، ويرمى يوم الصدر راكبا، وكان يرفع يديه عند الجمار ويقف، ولا يفعل ذلك عند جمرة العقبة، وزار البيت يوم النحر، ونفر يوم الصدر فنزل بالأبطح فى قبة ضربت له، فلما كان فى آخر الليل خرج فودع البيت، ثم مضى من وجهه إلى المدينة. وقال النبى ﷺ: «إن أفضل أيامكم يوم النحر، ثم يوم القر». وهو اليوم الثانى. انتهى.

ولقيه على بن أبى طالب بصدقات نجران، وكان محرما، فقال: «حلّ كما حَلّ أصحابك»، فقال: إنى أهللت بما أهل به رسول الله ﷺ، فبقى علىّ إحرامه، ونحر رسول الله ﷺ الهدى عنه. وعلم ﷺ الناس مناسك الحج والسنن.

وخطب الناس بعرفة خطبة بين فيها الأحكام، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت [1] عنده أمانة فليؤدها إلى من أئتمنه عليها، وإن كل [2] ربا فهو موضوع، ولكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا، إن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم فى الجاهلية موضوع كله، وإن أول دم أضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب [3] أيها الناس، إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ (التوبة: ٣٧) ألا وإن الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا

---

(١)، (٢) فى الأصل: كان، والتصحيح عن الطبرى [جـ ٣ ص ١٥٠] و[نهاية الأرب] جـ ١٧ ص ٣٧٣.
(٣) وكان مسترضعًا فى سعد فقتله بنو هذيل. [الطهطاوى].

﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ (التوبة: ٣٦) ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الفرد الذى بين جمادى وشعبان [(١)].

أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا، عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله. فاعقلوا، أيها الناس، واسمعوا قولى، فإنى قد بلغت قولى، وتركت فيكم ما إن استعصمتم به فلن تضلوا أبدا: كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس، اسمعوا قولى، واعلموا أن كل مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لا مرئ من مال أخيه إلا ما أعطاه إياه عن طيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم. ألا هل بلغت؟؟ فذكر أنهم قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد».

---

(١) ومعنى الحديث: أن الأشهر رجعت إلى ما كانت عليه وعاد الحج فى ذى الحجة، وبطل النسىء الذى كان فى الجاهلية. وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة، وكانت حجة أبى بكر رضى الله عنه قبلها فى ذى القعدة، والنسىء التأخير لحرمة شهر إلى آخر، كما كانت الجاهلية تفعل، كانوا إذا جاء شهر حرام، وهم محاربون، أحلوه، وحرموا مكانه شهراً آخر، ورفضوا خصوص الشهر واعتبروا مجرد العدد، فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر، فيحرمون صفر، ويستحلون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع، وهكذا شهراً بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها، وكانوا يحجون فى كل شهر عامين، فحجوا فى ذى القعدة عامين، ثم حجوا فى المحرم عامين، ثم حجوا فى صفر عامين، وكذا باقى شهور السنة، فوافقت حجة أبى بكر فى السنة التاسعة فى ذى القعدة، قبل حجة الوداع بسنة، ثم حج النبى ﷺ فى العام المقبل حجة الوداع، فوافق حجه شهر ذى الحجة، وهو شهر الحج المشروع، فوقف بعرفة فى اليوم التاسع. واختلفوا فى أول من نسأ النسىء، فقال ابن عباس: بنو مالك بن كنانة، وكان يليه أبو ثمامة وجنادة ابن عوف بن أمية الكنانى، كان يقوم على جمل بالموسم فينادى: إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه، ثم ينادى فى قابل: إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه. وقال الكلبى: أول من فعل ذلك رجل من بنى كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة، وقيل أول من فعل ذلك عمرو بن لحى، وهو أول من سيب السوائب، وقال فيه النبى ﷺ: رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه، أى أمعاءه فى النار. [الطهطاوى].

وفى حجة الوداع نزلت عليه فى يوم الجمعة، بعد العصر، فى يوم عرفة، وهو ﷺ واقف بعرفات على ناقته العضباء (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون، اليوم أكملت لكم دينكم) يعنى الفرائض والسنن والحدود والأحكام ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣) فلم ينزل بعد هذه الآية شىء، لا حلال ولا حرام، ولا شىء من الفرائض والسنن والحدود والأحكام. وقيل: إكمال الدين بهذه الآية أنه لا يزول ولا ينسخ، وأن شريعتهم باقية إلى يوم القيامة، ومعنى إتمام النعمة يعنى بإكمال الدين والشريعة، لأنه لانعمة أتم من نعمة الإسلام. وعن طارف بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب قال: يا أمير المؤمنين، آية فى كتاب الله نقرؤها لو نزلت علينا لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، قال: فأى آية؟ قال: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) فقال عمر: إنى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه، والمكان الذى على رسول الله ﷺ فيه نزلت بعرفات يوم الجمعة. أشار عمر إلى أن ذلك اليوم كان عيدا لنا. وعن ابن عباس أنه قرأ (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) وعنده يهودى فقال: لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيدا، فقال ابن عباس كان فى ذلك اليوم خمسة أعياد: يوم جمعة، ويوم عرفة، وعيد لليهود، وعيد للنصارى، وعيد للمجوس، ولم تجمع أعياد لأهل الملل فى يوم واحد قبله ولا بعده. وروى أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر، فقال النبى ﷺ :ما يبكيك يا عمر؟ فقال: أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شىء إلا نقص قال: صدقت. فكأن هذه الآية نعت رسول الله ﷺ، وعاش بعدها أحدا وثمانين يوما.

* * *

ولما رجع ﷺ من حجته إلى المدينة أقام بقباء ذا الحجة، تمام سنة عشر من الهجرة، ثم دخلت سنة إحدى عشر فأقام بها أيضا المحرم وصفر، وفى يوم الأربعاء آخر صفر بدأ بالنبى ﷺ وجعه، فحم وصدع.

وأشار فيه إشارة ظاهرة بخلافة أبى بكر بثنائه عليه على المنبر لما فهم - دون بقية

الصحابة ـ قوله فى خطبته : «إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده»، أنه ﷺ يعنى نفسه، فبكى، وقال: فديناك يا رسول الله بآبائنا وأمهاتنا فقابله ﷺ بقوله: «إن أمنّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبو بكر، لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الإسلام»، ثم قال: «لا يبقى فى المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبى بكر»، زاد مسلم: إن ذلك كان قبل موته بخمس ليال.

ثم أكد أمر الخلافة بأمره صريحا أن يصلى بالناس.

ولم يحج ﷺ بعد أن فرض الحج إلا حجة الوداع، وكانت وقفته فيها الجمعة، وحج معه ألوف، حتى حج معه من لم يره قبلها ولا بعدها، ولم يحج بعد الهجرة غيرها، وأما بعد النبوة، وقبل الهجرة، فحج ثلاث حجات، وقيل حجتين، وقيل كان يحج كل سنة قبل أن يهاجر، واعتمر بعد أن هاجر أربع عمر، عمرة الحديبية، وعمرة القضيبة، ويقال لها عمرة القضاء وعمرة القصاص وعمرة الجعرانة [1] فى أثر وقعة حنين، وعمرة مع حجته.

ولم يعد مالك بن أنس فى [الموطأ] الرابعة عمرة، وقال: إنما اعتمر ثلاثا فقط لأنه إنما حج حجة الوداع مفردا بالحج دون العمرة، وتابعة على مقالته هذه بعضهم، وهو أحد قولى الإمام الشافعى رضى الله عنه.

وفى هذه السنة أسلم جرير بن عبد الله البجلى، ونزلت سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) بمنى يوم النحر فى حجة الوداع، والمعنى إذا جاء نصر الله نبيه ﷺ على أعدائه، والفتح: فتح مكة. وقيل: نزلت قبل موته ﷺ بثلاثة أيام، وكان ﷺ بعد نزول هذه السورة يكثر من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه». وعلم بها أنه قرب أجله. قال أبو هريرة رضى الله عنه: لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، جاء نصر الله والفتح»، وعن جابر رضى الله عنه: أنه كان ذات يوم بكى بكاء شديدا، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: دخل الناس فى دين الله أفواجا والمراد بالناس أهل اليمن.

وفى هذه السنة مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ.

---

(١) بكسر الجيم وسكون العين. [الطهطاوى].

الباب الخامس

[في وفاته ﷺ، وذكر بعض
أخلاقه، وصفاته، ومعجزاته،
وأزواجه، وأعمامه، وعماته،
وأخواله، ومواليه، وخدمه
وحشمه ﷺ
وفيه فصول]

الفصل الأول

(فى ذكر وفاته ﷺ وما يتعلق بذلك)

لما أكمل الله له ولأمته الدين، وأتم عليهم نعمته أجمعين، نقله إلى دار كرامته شهيدًا من أكله من الذراع المسموم المهدى له بخيبر، فجمع بين الرسالة والشهادة والنبوة والسعادة، فابتدأ به المرض فى العشر الأخير من صفر عام أحد عشر من الهجرة الشريفة، وكان قد قدم ﷺ من حجة الوداع سنة عشر من الهجرة، وأقام بالمدينة إلى أن شكا ﷺ الوجع ومرض مرضه، ولما أشتد به المرض ﷺ قال لعائشة رضى الله عنها: «يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلته بخيبر، فهذا أوانه، وإنى وجدت انقطاع أبهرى [1] من ذلك السم».

وكان ابتداء ذلك المرض فى بيت ميمونة بنت الحارث، وكان يدور على نسائه حتى اشتد مرضه فجمع نساءه واستأذنهن أن يمرض فى بيت إحداهن، فأذن له أن يمرض فى بيت عائشة رضى الله عنها، فانتقل إليها فى غير ليالى القسم، لأنه كان يدور عليهن فى بعض الأحيان فى يوم واحد وليلة ويختم بعائشة.

ولما حضر ﷺ إلى بيت عائشة أمر مناديًا فى المدينة: أن اجتمعوا لوصية النبى ﷺ فاجتمع كل من فى المدينة، من ذكر وأنثى وكبير وصغير، وتركوا أبوابهم ودكاكينهم مفتحة، وخرج ﷺ ، وهو متوعك، بين الفضل بن العباس وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما، حتى جلس على المنبر، فحمد الله ثم قال:

(١) الأبهر، من معانيه: الظهر، ووريد فى العنق، وأحد العرقين الخارجين من القلب ـ الأبهران وهما اللذان تتشعب منهما كل الشرايين. والمعنى: وجدت هلاكى.

«يا أيها الناس، من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد [1] منى، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منى ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه، ولا يخشى الشحناء من قبَلى فإنها ليست من شأنى». ثم نزل وصلى الظهر، ثم رجع إلى المنبر فعاد إلى مقالَته، فادعى عليه رجل بثلاثة دراهم فأعطاه عوضها، ثم قال: «ألا إن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة»، ثم صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم ثم قال: «إن عبدا خَيَّره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده!» فبكى أبو بكر وقال: فديناك بأنفسنا. ثم أوصى بالأنصار.

ولما اشتد وجعه قال: «ائتونى بدواة وبيضا [2] أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا»، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. ثم اختلفوا واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا، يكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا ومنهم من يقول غير ذلك. فلما كثر اللغو والتنازع قال: «لا ينبغى عند نبى تنازع،» فذهبوا يعيدون عليه، فقال: دعونى، فما أنا فيه خير مما تدعوننى إليه!

وكان فى أيام مرضه يصلى بالناس، وإنما انقطع ثلاثة أيام، فلما أذِّن بالصلاة أول ما انقطع قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، فقالت عائشة رضى الله عنها: إن أبا بكر رجل أسيف [3] وأنه متى يقوم مقامك لا يُسْمِع الناس من البكاء، فلو أمرت عمر؟ فقال: مروا أبا بكر أن يصلى بالناس! فقالت عائشة لحفصة: قولى إن أبا بكر رجل أسيف، وأنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس من البكاء، فلو أمرت عمر؟ فقال: إنكن لأنتن صواحب يوسف! أى صاحبة يوسف عليه الصلاة والسلام، وهى زليخاء، أظهرت خلاف ما تبطن. أظهرت للنساء التى جمعتهن أنها تريد إكرامهن بالضيافة وإنما قصدها أن ينظرن لحسن يوسف عليه الصلاة والسلام ويعذرنها فى حبه! والنبى ﷺ فهم من عائشة رضى الله عنها أنها تظهر كراهة

---

(١) أى يقتص. [الطهطاوى].

(٢) أى صحيفة بيضاء.

(٣) أى رقيق القلب. [الطهطاوى].

ذلك مع محبتها له باطنا، هكذا يقتضيه ظاهر اللفظ، والمنقول عن عائشة رضى الله عنها إنما قصدت بذلك خوف أن يتشاءم الناس أبا بكر فيكرهونه حيث قام مقامه ﷺ، فقد جاء عنها رضى الله عنها أنها قالت: ما حملنى على كثرة مراجعتى له ﷺ إلا أنه لم يقع فى قلبى أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدا، ولا كنت أرى أنه يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس منه. فصلى بهم ثلاثة أيام فى حياة رسول الله ﷺ، فوجد النبى ﷺ فى بعض الأيام خفة فقام يتهادى بين رجلين، ورجلاه يخطان فى الأرض، حتى دخل المسجد، فلما سمع أبو بكر رضى الله تعالى عنه صوته ذهب يتأخر، فأومأ إليه ﷺ أن لا يتأخر، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس عن يسار أبى بكر، وكان رسول الله ﷺ قاعدا وأبو بكر يصلى قائما اقتداء بصلاة رسول الله ﷺ، والناس يقتدون بصلاة أبى بكر رضى الله عنه، فلما فرغ النبى ﷺ وجلسوا قال ﷺ: معاشر المسلمين، ما من نبى يموت حتى يصلى خلف رجل صالح من أمته، وإن النبى صلى به رجلان من أمته عبد الرحمن بن عوف فى السفر وأبو بكر الصديق فى الحضر.

وأما ما رواه البخارى بإسناده إلى عروة عن أبيه عن عائشة أنه ﷺ أمر أبا بكر أن يصلى بالناس فى مرضه، فكان يصلى بهم، فوجد رسول الله ﷺ من نفسه خفة فخرج إلى المحراب، وكان أبو بكر يصلى بصلاة رسول الله والناس يصلون بصلاة أبى بكر، أى بتكبيره، فهو إنما كان فى وقت آخر وفى [المواقف] أيضا أن النبى ﷺ استخلف أبا بكر فى الصلاة حال مرضه واقتدى به وما عزله، ولذلك قال على: قدمك رسول الله فى أمر ديننا أفلا نقدمك فى أمر دنيانا؟

قال أنس بن مالك رضى الله عنه: لما مرض النبى ﷺ مرضه الذى مات فيه اجتمعنا جماعة من الصحابة، ودخلنا عليه ﷺ، وجلسنا بين يديه وهو نائم على فراشه، فجلس أبو بكر عند رأسه ونظر فى وجهه وبكى، ففتح النبى ﷺ عينيه وقال: ما الذى يبكيك يا أبا بكر؟ فقال: حبيبى افتكرت فى شيء أنا خائف منه! قال: ما هو؟ قال: فى قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ (التوبة: ٧٣) وهذا دين يبقى بعدك ونخاف أن تحتج علينا الأعداء من بعدك ويقولون: إن الله أمر نبيكم بجهاد الكفار والمنافقين فجاهد الكفار ولم يجاهد المنافقين، ونخاف

أن يكون ذلك نقص في الدين، فمن يقضي دينك ويجاهد المنافقين من بعدك؟!
فلزم النبي ﷺ يد أبي بكر وقال: أنت قاضي دَيْنِي والقاتل من يرتد عن ديني، أما سمعت قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (المائدة: ٥٤) الآية.

قالت عائشة رضي الله عنها: إنه ﷺ كان يقول قبيل وفاته: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات»، وإنه أشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال: اللهم الرفيق الأعلى، أي نهاية مقام الروح، وهو الحضرة الواحدية، فالمسؤول إلحاقه بالمحل الذي ليس بينه وبينه أحد في الاختصاص. وفي حديث مرسل أنه قال: اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب[1] والأنامل، اللهم فأعني على الموت وهونه علي. وأما حديث: اللهم الرفيق الأعلى، فكان آخر كلمة تكلم بها. ولما رأت فاطمة ذلك قالت: واكرباه! فقال: لا كرب عل أبيك بعد اليوم. وكلما أفاق أوصى بالمحافظة على[2] الصلاة. وفي تلك الشدائد زيادة رفع درجات للأصفياء وكفارة سيئات لأهل الابتلاء.

وقد توفي ﷺ وهو ابن ثلاث وستين، وكذا الصحيح في سن أبي بكر وعمر وعائشة ثلاث وستون سنة، وهذا أحسن مدة العمر، بعد النصر والفتح المبين.

واختلف في مدة مرضه، فقيل اثنا عشر يوما، وقيل ثلاثة عشر يوما، وقيل أربعة عشر يوما.

ولم يوص ﷺ بما يورث، إذ لم يترك دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شاة ولا بعيرا بل توفي ولم يجد ما يفك به درع حربه الزردية، وهي ذات الفضول[3]، وهي التي رهنها عند أبي الشحم اليهودي على ثلاثين صاعا من شعير، وكان الدين إلى سنة، إنما أوصى بكتاب الله المبين وبالصلاة والزكاة

---

(١) والقصب عروق الرئة، والرئة مهموزة مخففة. [الطهطاوي].

(٢) في الاصل: قال.

(٣) بالضاد المعجمة، لطولها، أرسل بها إليه سعد بن عبادة حين سار إلى بدر، وكانت من حديد. [الطهطاوي].

والأرقاء، ملك اليمين، حتى إن صدره ليغرغر بذلك وما يكاد لسانه يبين. وفعله ﷺ من باب التشريع، وإلا فالنبى ﷺ أغنى العالمين على الإطلاق، وكذا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يبعثوا إلا ليشرعوا، فكان دينه ﷺ تشريعا لأمته. ويجوز الدين برهن وغير رهن، وقد ورد فى الحديث: «تداينوا ترزقوا»، ومعناه: إذا كان خفيفا، وورد فى حديث آخر: «يد الله فوق يد المديون ما دام ينوى السداد»، وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يحب الدين الخفيف حتى يدخل فى الحديث.

وبعد وفاته دهش الناس وطاشت عقولهم واختلفت أحوالهم فى ذلك، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: من قال: إن رسول الله ﷺ مات علوت رأسه بسيفى هذا، وإنما ارتفع إلى السماء! فقرأ أبو بكر رضى الله عنه ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران: ١٤٤) إلى قوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ فرجع القوم إلى قوله، وبادروا إلى سقيفة بنى ساعدة، وهى دار سعد ابن عبادة، وكان سعد بن عبادة مريضا، وقالوا نوليه هذا الأمر، فبايع عمر أبا بكر، ثم بايعه الناس خلا جماعة.

وغسل ﷺ ثلاث مرات، الأولى بالماء القراح، والثانية بالماء والسدر، والثالثة بالماء، وغسله على والعباس وأبناه الفضل وقثم وأسامة بن زيد وشقران موليا ﷺ، فكان العباس وابناه يقلبونه وأسامة وشقران يصبان الماء وعلى يغسله، ونفضه على فلم ينزل منه شىء، فقال: بأبى أنت وأمى! ما أطيبك حيا وميتا! وأعينهم معصوبة، لحديث: على، لا يغسلنى إلا أنت، فإنه لا يرى أحد عورتى إلا طمست عيناه، وغسل ﷺ من بئر عَرْس[1]، بوصية منه، كان يشرب منها، كفن فى ثلاثة أثواب بيض سحولية[2] ليس فيها قميص ولا عمامة، بل لفائف من غير خياطة، وبرد حبرة أدرج فيها إدراجا. وفرغ من جهازه يوم الثلاثاء، ووضع على

(١) بفتح العين المهملة، وسكون الراء، فسين مهملة، [الطهطاوى].

(٢) بفتح السين وضمها، والفتح أشهر، فالفتح منسوب إلى السحول وهو القصار، لأنه يسحلها أى يغسلها، أو إلى سحول، وهى بلدة باليمن.

وأما بالضم فهو جمع سحل، وهو الثوب الأبيض النقى، ولا يكون إلا من قطن. [الطهطاوى].

سريره، وصلى عليه المسلمون صفوفا لا يؤمهم أحد، وكان أبو بكر وعمر فى الصف الأول الذى حيال رسول اله ﷺ فقال[1]: اللهم إنا نشهد أنه ﷺ قد بلغ ما أنزل إليه، ونصح لأمته، وجاهد فى سبيل الله حتى أعز الله دينه وتمت كلمته، فاجعلنا إلهنا ممن تبع القول الذى أنزل معه واجمع بيننا وبينه حتى تعرفه بنا وتعرفنا به فإنه كان بالمؤمنين رؤوفا رحيما، لا نبتغي بالإيمان به بدلا ولا نشترى به ثمنا أبدا. فيقول الناس: آمين، آمين. وهذا يدل على أن المراد بالصلاة عليه ﷺ الدعاء، لا الصلاة على الجنازة المعروفة عندهم. والصحيح أن هذا الدعاء كان ضمن الصلاة المعروفة التى بأربع تكبيرات، فقد جاء أن أبا بكر رضى الله عنه دخل عليه ﷺ فكبر أربع تكبيرات، ثم دخل عمر رضى الله عنه فكبر أربعا، ثم دخل عثمان رضى الله عنه فكبر أربعا، ثم دخل طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام رضى الله عنهما، ثم تتابع الناس أرسالا يكبرون عليه، أى وعلى هذا إنما خصوا الدعاء بالذكر لأنه الذى يليق به ﷺ، ومن ثم استشاروا كيف يدعون له، فأشير بمثل ذلك.

وروى البيهقى عن ابن عباس: لما صلى على المصطفى ﷺ أدخل الرجال فصلوا بغير إمام أرسالا[2]. وقال الشافعى: وذلك لعظم أمره، وتنافسهم فى أن لا يتولى الإمامة أحد فى الصلاة عليه، وقيل أوصى به، وقال السهيلى: وجه الفقه فيه أن الله افترض الصلاة عليه بقوله ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ (الأحزاب: ٥٦) وحكم الصلاة التى تضمنتها الآية أن لا تكون بإمام، والصلاة عليه عند موته داخلة فى لفظ الآية. ثم صلى عليه النساء بعد الرجال، ثم الصبيان، ثم العبيد، بغير دعاء الجنازة المعروف. وفرش له فى لحده قطيفة، وكان يلبسها ويفترشها، فقالوا لا يلبسها أحد بعده، وهى كساء. واتخذوا له لحدا ونصبت عليه تسع لبنات، وجعلوه مسنما، وهذا لا يعارض مذهب العلماء فى كراهة وضع فراش تحت الميت، لأن كلامهم فى غير النبى ﷺ ممن يتغير ويبلى.

وحكمة عدم أكل الأرض أجساد الأنبياء، ومن ألحق بهم، التكريم، قال

---

(١) فى الأصل: فقالا.

(٢) أى قطائع. [الطهطاوى].

الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦٩) والأنبياء أجل وأعظم من ذلك. والراجح أن حياة الشهداء بالجسد لا بالروح فقط، ولا يقدح فى ذلك عدم الشعور من الحى، وأعظم دليل على ذلك أن حياة الروح ثابتة لجميع الأموات والمؤمن والكافر بالإجماع، فلو لم تكن حياة الشهداء بالجسد لا ستوى هو وغيره ولم يحصل له تمييز على غيره، ولم يكن لقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٤) معنى، وقال ابن جرير[1] فى تفسيره: ﴿ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ أى لا ترونهم فتعلموا أنهم أحياء فظاهره أن رزق الشهداء بالأكل والشرب فى البرزخ ليس للاحتياج بل للإكرام والتنعيم، وورد أن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، قال العلامة القرطبى فى [التذكرة]: إن الأرض لا تأكل لحوم الأنبياء والشهداء والعلماء والمؤذنين المحتسبين وحملة القرآن. قال ابن كمال باشا[2]:

لا تأكل الأرض جسمًا للنبى ولا	لعالم وشهيد قتل معترك
ولا لقارىء قرآن ومحتسب	أذانه لإله مجرى الفلك

ولا يضغط فى قبره، وكذلك الأنبياء، ولم يسلم من الضغطة صالح ولا غيره سواهم، وتحرم الصلاة على قبره واتخاذه مسجدا.

واختلفوا فى موضع دفنه، فقال بعضهم: عند المنبر، وقال بعضهم: بالبقيع، وقال آخرون: يحمل إلى أبيه إبراهيم فيدفن عنده، حتى قال العالم الأكبر: صديق الأمة، ادفنوه فى الموضع الذى قبض فيه، وهو بيت عائشة، فإن الله لم يقبض روحه إلا فى مكان طيب، سمعته يقول: ما قبض نبى إلا ودفن حيث يقبض. فرفع

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير (٨٣٩ـ٩٢٣ م) مؤرخ ومفسر وفقيه. وله فى التفسير [جامع البيان فى تفسير القرآن] وفى التاريخ [تاريخ الرسل والملوك].

(٢) أحمد بن سليمان بن كمال باشا (المتوفى سنة ١٥٣٤ م) من علماء الحديث، ولى القضاء، وألف فى فنون شتى، فله مثلا [طبقات الفقهاء] و [رسالة فى الجبر والقدر] و [تاريخ آل عثمان] و [رجوع الشيخ إلى صباه].. الخ.. الخ؟!

وحفر له أبو طلحة الأنصارى تحت فراشه الذى مات عليه، ونزل فى قبره علىّ والفضل وقثم. وفى [الإكليل]: إن آخر الناس عهدا به ﷺ على، وقيل قثم، وهو أصح.

ولما دفن ﷺ جاءت فاطمة رضى الله عنها فقالت: كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟ وأخذت من تراب القبر الشريف وشمته وأنشدت تقول:

ماذا على من شم تربة أحمد ... أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صبت علىّ مصائب لو أنها ... صبت على الأيام عدن لياليا

وقد عاشت فاطمة رضى الله تعالى عنها بعده ﷺ ستة أشهر، فما ضحكت تلك المدة، وقال علماء السير: لما دفنها على وقف على قبرها وبكى وقال:

لكل اجتماع من خليلين فرقة ... وكل الذى دون الفراق قليل

وإن افتقادى فاطم بعد أحمد ... دليل على أن لا يدوم خليل

وعن عطاء بن رباح قال: قال رسول الله ﷺ من أصابته مصيبة فليتذكر مصيبته فىّ فإنها من أعظم المصائب، وروى أنه جاءت من نبى الله الخضر عليه السلام التعزية لأهل بيت النبوة بهذه المصيبة العظمى، يسمعون صوته ولا يرون شخصه، فقال، بعد أن سلم عليهم وقرأ ﴿**كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة**﴾ (الأنبياء: ٣٥): إن فى الله عزاء من كل مصيبة، وخلفا من كل هالك، ودركا من كل فائت، فبا لله فثقوا، وإياه فارجوا، فإنما المصاب من حرم الثواب. وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق فى [المهذب] أول باب التعزية: أنه يستحب أن يعزى بتعزية سيدنا الخضر أهل بيت النبوة: إن فى الله، إلى آخره. وكان الرجل من أهل المدينة إذا أصابته مصيبة جاء أخوه فصافحه ويقول: ياعبد الله، اتق الله، فإن فى رسول الله أسوة حسنة، وقال بعضهم فى ذلك:

اصبر لكل مصيبة وتجلد ... واعلم بأن المرء غير مُخلَّد

واصبر كما صبر الكرام فإنها ... نوب تنوب اليوم تكشف فى غد

وإذا أتتك مصيبة تشجى بها فاذكر مصابك بالنبى محمد

ورثاه جماعة منهم صفية عمته رضى الله عنها بمراث كثيرة، وأبو سفيان بن الحارث، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه.

وتوفاه الله وحصل له درجة الشهادة، فوق ما أعطاه الله من مراتب النبوة وزاده، لأنه لما سمته اليهودية فى الشاة اشتمر ذلك السم حتى قال فى مرضه: الآن انقطع أبهرى[1] يعنى من ذلك السم. وكانت وفاته يوم الاثنين ثانى عشر ربيع الأول، حين زاغت الشمس، سنة إحدى عشرة من الهجرة، وقيل حين اشتد الضحى، كالوقت الذى دخل فيه إلى المدينة. وعن ابن عباس ولد ﷺ يوم الاثنين، واستنبئ يوم الاثنين، وخرج مهاجرا من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، ووضع الحجر يوم الاثنين، وقبض يوم الاثنين، ودفن ليلة الأربعاء، وكانت ليلة مظلمة لفقده وانقطاع الوحى، عكس دخوله إليها فى الهجرة.

قال أنس: لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شىء، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء، ولمَ أخّر دفنه وقد قال عليه الصلاة والسلام لأهل بيت أخروا دفن ميتهم: عجّلوا دفن ميتكم ولا تؤخروه؟ فالجواب: أخروه للاختلاف فى دفنه، أو للاشتغال بأمر البيعة ليكون لهم إمام يرجعون إليه، وهو أهم الأمور، حتى استقر الأمر فبايعوا أبا بكر ثم رجعوا بعد ذلك إلى النبى ﷺ فنظروا فى دفنه فغسلوه وكفنوه ﷺ، وتزينت الجنان بقدوم روحه الكريمة، إذ كان عرش الرحمن اهتز لموت أتباعه، فرحا واستبشارا بقدوم روحه فكيف بقدوم روح الأرواح ﷺ؟ فعلى هذه الرواية يوم وفاته موافق ليوم مولده.

قال الصلاح الصفدى[2] فى [شرح لامية العجم] * (فائدة) * ذكرتها هنا وهى

---

(١) والأبهر: عرق مستبطن القلب، فإذا انقطع لم تبق بعده حياة. [الطهطاوى].

(٢) خليل بن أيبك (١٢٩٦ ـ ١٣٦٣ م) أديب ومؤرخ، تولى ديوان الإنشاء فى عدد من المدن من بينها دمشق والقاهرة، واشتغل بالتدريس، وصنف قرابة الخمسمائة مصنف..

أنه وجد بخط الشيخ تقى الدين ابن الصلاح، رحمه الله تعالى، ما صورته: ذكر أبو القاسم السهيلى قال: أجمع المسلمون على أن حجة الوداع كانت يوم عرفة فيها يوم الجمعة، وكان أول شهر ذى الحجة فى تلك السنة الخميس، هذا لا شك فيه، ثم قال بعد ذلك: وقال أكثر أهل التاريخ: إن رسول الله ﷺ توفى يوم الاثنين، ثانى عشر ربيع الأول، بعد الحجة المذكورة بثلاثة أشهر، وكيف حسب الإنسان الشهور، وهن ذو الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول وجعل أول ذى الحجة الخميس ما يتصور أن يكون رسول الله ﷺ توفى يوم الاثنين، ثانى عشر ربيع الأول، سواء حسب الجميع نواقص أو كوامل أو بعضها نواقص وبعضها كوامل، فاعتبره تجده كذلك.

وأجاب عن هذا السؤال قاضى القضاة شرف الدين البارزى الحموى [1] بما صورته: يحتمل أنه لما حج رسول الله ﷺ رأى هلال ذى الحجة بين مكة والمدينة ليلة الخميس وغم على أهل المدينة فلم يروا هلال الحجة إلا ليلة الجمعة فلما رجع رسول الله ﷺ وتوفى بالمدينة أرخ أهل المدينة موته على حكم ما رأوا وأرخوا فى أول ذى الحجة وهو يوم الجمعة فجاءت الشهور الثلاثة ذو الحجة والمحرم وصفر كوامل وجاء أول ربيع الأول الخميس وكان ثانى عشر ربيع الأول يوم الاثنين، وكان بين رؤيته ﷺ وبين رؤية أهل المدينة مسافة القصر، والصحيح من مذهب الشافعى اعتبار اختلاف المطالع، والله أعلم انتهى.

* * *

ولما توفى ﷺ ترتب على وفاته ارتداد أكثر العرب، كبنى حنيفة، إلا أن أهل المدينة ومكة والطائف لم تدخلهم الردة، وكان عامل رسول الله ﷺ على مكة عتاب بن أسيد فاستخفى خوفا على نفسه، فارتجت مكة، وكاد أهلها يرتدون، فقام

---

(١) هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم (١٢٤٨ ـ ١٣٣٨ م) من حفاظ الحديث وأكابر فقهاء الشافعية، ولى قضاء حماة، وترك آثارا كثيرة فى السيرة والفقه والحديث، وله فى السيرة [توثيق عرى الإيمان فى تفضيل حبيب الرحمن]. ويدعى: شرف الدين بن البارزى الحموى، وليس البارزى، كما ذكر المؤلف.

سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بقريش وغيرهم فاجتمعوا إليه فقال: يا أهل مكة، كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من ارتد، والله ليتمن الله هذا الأمر كما قال رسول الله ﷺ، فامتنع أهل مكة من الردة. وسيأتي ما يتعلق بذلك في (الفصل الأول) من (الباب الخامس).

قال ابن إسحاق: ولما توفي رسول الله ﷺ عظمت به مصيبة المسلمين، فكانت عائشة رضي الله تعالى عنها، فيما بلغني، تقول: لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب، واشرأبت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، فكان المسلمون كالغيم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ حتى جمعهم الله على أبي بكر. انتهى.

وقال أهل السير: خرج أبو بكر رضي الله عنه إلى الناس وهم في المسجد يموجون، فخطبهم، وثبتهم، ونعى لهم سيد الأولين والآخرين، وقرأ عليهم الآيات التي تناسب ذلك ومنها ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ** ـ (وهذا استفهام إنكار) ـ **وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ (آل عمران: ١٤٤) ولم يكن فيهم أثبت منه ومن العباس.

وما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهما ولا دينارا ولا عبدا ولا شيئا إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضا جعلها صدقة.

وعن عائشة أن فاطمة سألت أبا بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ ميراثها من تركة رسول الله ﷺ من خيبر وفداك، فقال أبو بكر إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركناه صدقة»، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئا، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته، فلم تزل مهاجرته حتى توفيت.

وروى البيهقي عن الشعبي أن أبا بكر عاد فاطمة في مرضها فقال لها علي: هذا أبو بكر يستأذن عليك، قالت: أتحب أن آذن له؟ قال: نعم، فأذنت له، فدخل عليها فرضاها حتى رضت.

الفصل الثانى

(فى ذكر بعض أخلاقه وصفاته صلى الله عليه وسلم)

من المعلوم أنه ﷺ لما كان خاتم النبيين وسيد المرسلين، وآتاه الله علم الأولين والآخرين، وفضله على سائر الخلق أجمعين، خصه بمناقب لا يحصيها أحد من العالمين، فكيف وهو الذى أظهر هذا الدين القويم، وأنار هذا الصراط المستقيم، فكل فضل منسوب إلى فضله، وكل علم مستفاد من علمه ونبله، فبهذا ينبغى أن يذكر شىء من مناقبه على سبيل الاختصار والإيجاز، وقد تقدم ذكر بعضها، فنقول:

إن من أحسن ما يروى من أوصافه ما روى عن عمر بن الخطاب أنه سمع بعد وفاة النبى ﷺ يقول، وهو يبكى، هذه الكلمات: بأبى أنت وأمى يا رسول الله[1] لقد كان لك جذع تخطب عليه، فلما كثر الناس اتخذت منبرا تسمعهم عليه، فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكت، فأمتك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم! بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته، فقال تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠) بأبى أنت وأمى يارسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بذنبك، فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٤٣) بأبى أنت وأمى يارسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن جعلك آخر الأنبياء

(١) أى أفديك بأبى أنت وأمى، وهى كلمة تستعملها العرب لتعظيم المفدى. [الطهطاوى].

وذكرك في أولهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ (الأحزاب: ٧) بأبى أنت وأمى يارسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون لو كانوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ (الأحزاب: ٦٦) بأبى أنت وأمى يارسول الله، إن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجرا تنفجر منه الأنهار فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء، صلى الله عليك، بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فما ذلك بأعجب من البراق حين سرت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح بالأبطح، صلى الله عليك، بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى، فما ذلك بأعجب من الشاة المسمومة حتى كلمتك، وهى مشوية، فقالت: لا تأكلنى فإنى مسمومة، بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح: ٢٦) ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا عن آخرنا، فلقد وُطئ ظهرك وأدمى وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيرا فقلت: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون، بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد اتبعك فى قلة سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحا فى كبر سنه وطول عمره، فلقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل، بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لو لم تجالس إلا كفؤا ما جالستنا، ولو لم تنكح إلا كفؤا ما نكحت إلينا، ولو لم تؤاكل إلا كفؤا ما آكلتنا، لبست الصوف، وركبت الحمار، ووضعت طعامك بالأرض، ولعقت أصابعك تواضعا منك صلى الله عليك وسلم.

ووصفه على رضى الله عنه فقال: ليس بالطويل ولا بالقصير، ضخم الرأس، كث اللحية شثن[١] الكفين والقدمين، ضخم الكراديس[٢]، مشربا وجهه بحمرة، أدعج[٣] العينين، سبط[٤] الشعر، سهل الخدين، كأن عنقه أبريق فضة.

---

(١) أى يميلان إلى الغلظ والقصر.

(٢) رؤوس العظام.

(٣) شديد سواد العين مع شدة بياضها.

(٤) السبط ـ بسكون الباء وكسرها ـ الممتد بلا تجعد.

وقال أنس لم يُشنه الله بالشيب، كان فى مقدم لحيته عشرون شعرة بيضاء وفى مفرق رأسه شعرات بيض.

وروى أنه كان يخضب بالحناء والكَتَم [1]. وعن ابن عمر: اختضبوا بالسواد فإنه أنكأ للعدو وأحب للنساء. وكان بين كتفيه خاتم النبوة، وهو بُضعة أى قطعة لحم ناشزة، أى مرتفعة، حولها شعر، وروى سلمان الفارسى أنه قال مثل بيضة الحمامة بين كتفيه، وقيل كان مضغة كلون بدنه، وقيل كانت شامة خضراء محتفرة فى اللحم، وقيل كزر [2] الحجلة [3] قال بعضهم: وجملة الأقوال تبلغ نيفا وعشرين قولا، لكنها متقاربة المعنى، وليس ذلك باختلاف، بل كل راو شبه بما سنح له وظهر، فواحد قال كزر الحجلة، وآخر كبيضة الحمامة، وآخر كالتفاحة، وآخر بضعة لحم ناشزة، وآخر لحمة ناتئة، وآخر كالمحجمة، وكلها ألفاظ مؤداها واحد وهو قطعة لحم، ومن قال شعر فلأن الشعر حوله متراكم عليه. وقال القرطبى رحمه الله: الأحاديث الثابتة على أن خاتم النبوة كان شيئا بارزا أحمر عند كتفه الأيسر إذ قلل قدر بيضة الحمامة وإذا كثر جمع اليد. انتهى.

وسئل البرهان الحلبى: هل خاتم النبوة من خصائصه ﷺ؟ أو كل نبى ختم بخاتم النبوة؟ فأجاب: لا أستحضر فى ذلك شيئا، ولكن الذى يظهر أنه خص بذلك لمعان منها: أنها إشارة إلى أنه خاتم النبيين، وليس كذلك غيره، ولأن باب النبوة ختم به فلا يفتح بعده [4].

قال السهيلى: والحكمة فى وضع خاتم النبوة على جهة اليسار أنه لما ملىء قلبه

---

(١) نبات يخضب به الشعر، ويصنع منه أيضا مداد الحبر للكتابة.

(٢) بتقديم الزاى على الراء والمراد به البيض. [الطهطاوى].

(٣) والحجلة بتقديم الحاء على الجيم بعدها لام، الطائر المعروف، أى مثل بيض هذا الطائر [الطهطاوى].

(٤) أثناء طبع هذا الجزء انتقل المؤلف الى الرفيق الأعلى، وذلك بعد أن راجع من تجارب طبعه إلى (الفصل التاسع) فى حوادث السنة التاسعة من الهجرة، فأكمل نجله على فهمى رفاعة مراجعة تجارب الطبع، وهنا أضاف على فهمى رفاعة فى متن الكتاب قوله: « وفى هذا المعنى لنجل المؤلف على فهمى رفاعة قوله:

بعث للدين أفرا ... ح وللأعداء مأتم

وله الخاتم ينبى ... أنه للرسل خاتم

إيمانا ختم عليه كما يختم على الوعاء المملوء مسكا أو دُرّا، فجمع الله تعالى أجزاء النبوة لسيدنا محمد رسول الله ﷺ وتممه وختم عليه بختمه، فلم تجد نفسه ولا عدوه سبيلا إليه من أجل ذلك الختم، لأن الشيء المختوم محروس، وكذلك تدبير الله لنا في هذه الدار إذا وجد أحدنا الشيء بختمه زال الشك وانقطع الخصام فيما بين الآدميين، فلذلك ختم رب العالمين في قلبه حتى يطمئن له القلب الذى ألقى النور فيه، فظهر بين كتفيه كالبيضة. انتهى.

واسع الجبين، عرقه أطيب ريحا من المسك، وفي وجهه تدوير، عظيم الفم، حسن الثغر، رائق الثنايا، في أسنانه تفليج وتفريق، حلو المنطق، يتكلم بجوامع الكلم، لا يضحك إلا تبسما، إذا جلس مع أصحابه رضى الله عنهم فكأنما على رؤوسهم الطير من حسن تواضعهم بين يديه ﷺ، أزهر اللون، إذا مشى فكأنما تطوى له الأرض، وفي مشيته لا يلتفت وراءه، وإذا التفت التفت جميعا، حسن الوجه، حسن الصوت، خصوصا بتلاوة القرآن العظيم.

وقد جاوز نبينا ﷺ المرتبة العليا من الفصاحة، فكان أفصح العرب لسانا، وأوضحهم بيانا، وأعدلهم نطقا، وأسدهم لفظا، وأبينهم لهجة، وأقومهم حجة، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طرق الصواب، تأييدا إلهيا، وحفظا سمائيا، وعناية ربانية، ورعاية روحانية، حتى لقد قال على رضى الله عنه، وسمعه يخاطب وفد بني نهد، يا رسول الله، نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود لعرب بما لا نفهم أكثره! فقال: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى، وربيت فى بنى سعد»، فكان رسول الله ﷺ يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم وفصائلهم، كل منهم بما يفهمون، ويحادثهم بما يعلمون، ولذلك قال ﷺ: «أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم»، فكان الله تعالى قد أعلمه ما لم يكن يعلمه غيره من بنى أبيه مما تفرق ولم يوجد فى قاصى العرب ودانيهم.

وكانت القبائل ترد على رسول الله ﷺ لتأخذ عنه القرآن، وكان ﷺ يترجم لكل قبيلة بحسب لغتها من قبائل قريش وكنانة وحمير وهذيل وطيء وجرهم

ومدلج وغيرهم، فربما مد ﷺ قدر الألف والألفين والثلاث لمن لغته كذلك، وربما فخم لمن لغته التفخيم، وربما أمال لمن لغته الإمالة، وربما أدغم لمن لغته الإدغام، وربما رقق لمن لغته الترقيق، وهكذا في سائر وجوه الآداب.

والأحكام التي أمرنا الله بها ونهانا عنها في القرآن كلها واحدة لا تتغير في جميع القراءات، فلما وقع الضبط وأخذت القراء القراءات عن القبائل ضبط كل إنسان ما سمع فقط، إذ القياس هنا ممنوع، وجميع التراجم كلهاقرآن منزل أوحى به إلى رسول الله ﷺ، ولو جاز أن يترجم ﷺ عن القرآن، بغير ما أوحى به إليه لم يخرج عن مرتبتين، لأنه إما يترجم بلفظ مساو للوحى أو دونه، فإن كان دونه لم يصدق عليه أنه ﷺ بلّغ ما أنزل إليه من ربه، وذلك محال في حقه ﷺ، وإن كان مساويا فأية فائدة للعدول عن الوحى من الله بلفظ مساو له فما بقي إلا أنه ﷺ بلغ ما أنزل إليه من ربه بحروفه الحاملة للمعاني القديمة. وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول: ما أنزل الله عز وجل كتابا إلا بالعربية، إذ هي أوسع اللغات، ولكن كان جبريل عليه السلام يترجم لكل نبي بلسان قومه، وليس في القرآن العظيم إلا لغة العرب، وربما وافقت اللغة منه لغة غير العرب، والأصل عربي لا يخالطه شيء.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ ومن يفد إليه من العرب يعرفون أكثر ما يقوله، وما جهلوه يسألونه عنه فيوضحه لهم، وقد كان النبي ﷺ إذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين يعدّه العادّ ليس بهذ[1] مسرع لا يحفظ، قالت عائشة رضى الله عنها: ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردكم هذا، كان يحدث حديثا لو عدّه العادّ لأحصاه، وكان يعيد الكلمة ثلاثا لتفهم عنه. وقال له عمر رضى الله عنه: يا رسول الله، ما لك أفصحنا، ولم تخرج من بين أظهرنا؟ قال لقد كانت لغة إسماعيل قد درست فجاء بها جبريل فحفظنيها، وقال: أنا أعرب العرب، ولدت في قريش، ونشأت في بني سعد، فأنى يأتيني اللحن؟ فقد كان من خصائص نبينا ﷺ أن يكلم كل ذى لغة بلغته، على اختلاف لغة العرب وتركيب ألفاظها وأساليب كلمها، وكان أحدهم لا يجاوز لغته؛ وإن سمع لغة غيره فكالعجمية يسمعها العربي وما ذاك منه ﷺ إلا بقوة إلهية وموهبة ربانية لأنه بعث إلى الكافة

---

(١) هذا الحديث: سرده.

طرا، وإلى الخليقة سودا وحمرا، ولا يوجد متكلم بغير لغته إلا قاصرا فى تلك الترجمة، نازلا عن صاحب الأصالة فى تلك اللغة، إلا هو ﷺ، فإنه كان إذا تكلم فى كل لغة من لغات العرب أفصح وأنصع بلغاتها منها بلغة نفسها، وجدير به ذلك، فقد أوتى جميع القوى البشرية المحمودة، ومزية على الناس بأشياء كثيرة.

وبالجملة، فقد ألف الناس فى فصاحته وجوامع كلمه الدواوين، لا خفاء بأن أفصح اللغات لغات العرب، وغاية لسان هارون وفصاحته إنما كانت فى العبرانية، وإلا فالعربية أفصح منها. وأما ما اشتهر على ألسنة كثير من الناس أنه ﷺ قال: أنا أفصح من نطق بالضاد، فقال الحافظ بن كثير وتابعه تلميذاه الزركشى [1] وابن الجوزى، والجلال السيوطى، والسخاوى أنه لا أصل له كما يؤخذ من قول النجم، ثم هو ﷺ أفصح من نطق بالضاد من بين أهل اللغة العربية حيث لم يعزه لرواية، وهو صحيح المعنى، إذ معناه: أنا أفصح العرب، لكونهم هم الذين ينطقون بها ولا توجد فى لغة غيرهم.

وأما خلقه ﷺ فكان خلقه القرآن، يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه، ويسارع إلى ما حث إليه، ويمتنع مما زجر عنه، فلهذا كان يتضاعف جوده وأفضاله فى شهر رمضان، لقرب عهد مخالطته جبريل عليه السلام، وكثرة مدارسته لهذا الكتاب الكريم الذى يحث على مكارم الأخلاق والجود، ولا شك أن المخالطة تؤثر وتورث أخلاقا من المخالط، كما قال بعضهم لابنه:

بُنى اجتنب كل ذى بدعة ... ولا تصحبن من بها يوصف

فيسرق طبعك من طبعه ... وأنت بذلك لا تعرف

وقد سئل الشمس الرملى [2] كيف كان جبريل يقرىء النبى ﷺ؟ فأجاب بأنه

---

(1) محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشى (١٣٤٤ - ١٣٩٢م) فقيه شافعى وعالم من علماء الأصول، نشأ وعاش بمصر، وخلف مصنفات فى فنون شتى.

(2) محمد بن أحمد بن حمزة، شمس الدين الرملى (١٥١٣ - ١٥٩٦م) كان فقيه الديار المصرية فى عصره، ويلقب بالشافعى الصغير، وله آثار فقهية منها [فتاوى شمس الدين الرملى] و[نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج] كما جمع وشرح بعض آثار والده.

كان يقرأه عليه أولا ليعلمه إياه، ثم بعد ذلك كان يدارسه القرآن بأن يقرأ هذا على هذا والآخر كذلك، وكان ﷺ لا ينتقم لنفسه ولا يغضب لها إلا أن تنتهك حرمات الله فيغضب لله، وإذا غضب لم يقم لغضبه أحد، وكان أرجح الناس عقلا، وأفضلهم، يكثر الذكر، ويطيل الصمت، دائم البِشْر، وكان أصدق الناس، وأوفاهم ذمة، وأوسعهم صدرا، وأكرمهم عشيرة، وأحسنهم خلقا، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، يؤلف أصحابه ولا ينفرهم، ويكرم كل كريم قوم ويوليه عليهم، ويثنى على مكارم الأخلاق، فأثنى بذلك على حاتم الطائى حين تعرفت إليه ابنته بأبيها، وذلك أنها سبيت فى جمع من نساء قومها فى غزوة هوازن، فلما خرج رسول الله ﷺ من المسجد قامت إليه فقالت: يا محمد، مات الوالد، وغاب الوافد، فلا تشمت بى أحياء العرب، فإنى ابنة من كان يقرى الضيف ويفك العانى ويطلق الأسير ويعطى السائل، فقال ﷺ :من أبوك؟ فقالت: حاتم الطائى، قال: خلوا عنها، إن أباها كان يحب مكارم الأخلاق. فأثنى على أبيها مع كفره، وخلى عن ابنته ومن معها لأجله. فهذه آثار صنائع المعروف، مع الكفر والعصيان، فكيف مع الطاعة والإيمان؟ قيل: إن ابنة حاتم الطائى دعت لرسول الله ﷺ حين مَنَّ عليها بالخلاص من الأسر فقالت: شكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلبت نعمة عن كريم إلا وجعلك سببا لردها.
ويقال إنها خاطبته بقولها:

خذ العفو وأمر بعرف كما أمرت وأعرض عن الجاهلين
ولن فى الكلام لجمع الأنام فمستحسن من ذوى الجاه لين

وكان ﷺ يولى من الناس خيارهم، والذى يليه منهم خيارهم، وكان أفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة، وما انتهر خادما ولا قال له فى شىء صنعه لمَ صنعته؟ ولا فى شىء تركه لم تركته؟ بل يقول: لو قدّر يكون، ولا ضرب بيده أَحدا إلا فى الجهاد، ولما قيل له: ادع على الكفار، قال: إنما بعثت رحمة، اللهم اهد قومى فأنهم لا يعلمون، وكان عنده القريب

والبعيد والقوى والضعيف فى الحق سواء، ويؤلف أصحابه ولا ينفرهم، ولم يكن فحاشا ـ من باب النسب، أى وليس بذى فحش، أى لا يصدر عنه، وليس من باب المبالغة حتى تكون منفية، لإشعاره ببقاء أصل الفحش، وهو ظاهر البطلان، فهو من باب قوله تعالى: ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ (فصلت: ٤٦) أى بذى ظلم، لا أن كثرة الظلم هى المنفية وأصل الظلم موجود، إذ هو مستحيل عليه تعالى ـ ولا لعانا، ولا بخيلا، ولا جبانا، ولا سخابا [(١)] فى الأسواق أى لا كثيره ولا قليله، والمراد نفيه مطلقا، والمعنى وصفه ﷺ بأنه ليس عنده رغبة فى الدنيا وتحصيلها بحيث يصرف زمانه فى تحصيلها بالجد فى ذلك والإكثار منه فى الأسواق، فلا ينافى أنه عليه الصلاة والسلام تجر لخديجة رضى الله عنها، فكيف يكون ذلك وقد قال عليه الصلاة والسلام: «اتقوا الله وأجملوا فى طلب الدنيا، فإن كلا ميسر لما خلق له»، ولا يواجه أحدا بما يكره، يكرم أهل الفضل، ويتألف أهل الشرف، ويؤثر الداخل بوسادة، وكان يخصف نعله ويرقع ثوبه، ويعود المرضى، حتى بعض الكفرة والمنافقين، ويشهد الجنائز، ويزور القبور، ويسلم عليهم ويستغفر لهم، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشىء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، لا يترك أحدا يقوم بين يديه ولا أن يمشى خلفه، ويقول: خلوا ظهرى للملائكة، يخدم من خدمه، وله عبيد وإماء لا يرفع عليهم فى مأكل ولا ملبس. قال أنس: خدمته نحوا من عشر سنين، فوالله ما صحبته فى حضر ولا سفر لأخدمه إلا كانت خدمته لى أكثر من خدمتى له، وما قال لى: أف، قط، ولا قال لشىء فعلت: لم فعلت كذا؟ ولا لشىء لم أفعله لم لم تفعل كذا؟ ولا يجزى سيئة بمثلها، بل يعفو ويصفح، ويجود ويمنح.

وكان يأكل ما وجد، ولا يتكلف ما فقد، ويحب اللحم، ويعجبه الذراع ـ وسم فيه ـ والدباء [(٢)] والعجوة والعسل والحلواء، وأحب الفاكهة إليه العنب والبطيخ، وكان أكثر طعامه التمر والماء، وإذا لم يجد صبر، ولا يأكل وحده، ويعاف الضب

---

(١) بالسين المهملة والخاء المعجمة، وهو لغة ربيعة، والسخب هو رفع الصوت. [الطهطاوى].

(٢) القرع.

والطحال وأتى بلبن وعسل فقال[1]: أدمان فى إناء؟ لا آكله ولا أحرمه! ويأكل بثلاثة أصابع ويستعين بالرابع، ويتبع ما سقط من السفرة ويقول: من فعله غفر له، ويسمى الله أولا ويحمده آخرا، ويأكل مقعيا لا متكئا، ويقول: آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد ـ وقوله: كما يأكل العبد، أى كأكل العبد فى هيئة التناول ومصاحبة الرضى بما حضر تواضعا لله، لا كما يأكل أهل الكبر وأهل الشره، فالمراد بالعبد هنا الإنسان المتذلل المتواضع لربه، كما قاله المناوى، وقوله: وأجلس، أى فى حالة الأكل، كما يجلس العبد، أى لأن التخلق بالأخلاق العبدية أشرف الأوصاف، لا كما يجلس أهل الكبر وأهل الشره من الاتكاء ـ وما أكل قط ذا رائحة كريهة لنزول الملك عليه بالوحى ومجالسته، بل ولغير الملك من نسائه والناس، ولا يجمع بين لبن وسمك ولا لبن وحامض، ولا بين حارين ولا باردين ولا قابضين ومسهلين ولا غليظين، ويدفع ضرر البعض بالبعض كتمر بزبد وبطيخ أو قثاء برطب، وينقع التمر ويشربه للهضم، ولا ينام بعد الأكل.

وكان يشرب اللبن حليبا وممزوجا والماء فى ثلاثة أنفاس، ويمص ولا يعب، ويقول: الكباد[2] من العب، ولا يتنفس فى الإناء، وإذا شرب دفع الباقى لمن عن يمينه، وإن كان عن يساره أشرف أو أسن، وقال للأيمن: الشربة لك، فإن شئت آثرته، ويشرب قاعدا، وربما شرب قائما.

وكان يلبس الكتان أو الصوف أو القطن، وهو الغالب، قميصا أو رداء أو إزارا أو غيرهما، ويحب البيض والخضر، ولبس البردة والحبرة والجبة والحلة الحمراء والقباء والساذج والأسود والقز والمعلم أطرافه بسندس، وأحبها إليه القميص، وروى أنه لبس السراويل، ولبس جبة خسروانية مفرجة عليها سجف من ديباج، والطيلسان فى الحر كاليوم الذى هاجر فيه، وله ثوبان للجمعة وبرد أخضر للعيد، والعمامة السوداء والبيضاء، وهى الأكثر، بغير قلنسوة، وبها وبلا عمامة، ويجعل لها غالبا عذبة بين كتفيه، ولم تكن عمامته ﷺ كبيرة تؤذى ولا صغيرة لا تقى،

---

(١) فى الأصل: وقال.

(٢) الكباد: وجع الكبد. [الطهطاوى].

ولم يتحرر في طولها وعرضها، وما قال الطبري من أن الطول سبعة في عرض ذراع، وأنها من صوف، لم يثبت. وكان ثيابه فوق الكعبين، وربما جعلها لنصف الساق، والكم فوق الرسغ أو مع الأصابع، ويلبسها من ميامنه وينزعها بالعكس، ويقول عند لبسه: الحمد لله الذي كساني ما أستر به عورتي وأتجمل به، وإذا استجد ثوبا سماه وقال: اللهم لك الحمد كما كسوتنيه أسألك خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له، ولبسه وأعطى الخَلَق مسكينا، وله ملحفة مصبوغة بزعفران أو وَرْس [١].

وله خاتم فضة فصه منه ونقشه (محمد رسول الله) لكن على هذا الشكل محمد تحت، ثم رسول فوق، ثم لفظ الجلالة فوق ذلك. . وهذه صفته:

الله

رسول

محمد

والقراءة من أسفل السطر الثالث، ويتختم في خنصر يمينه ويساره، والأكثر الأول.

ويلبس النعال السِّبْتِيَّة [٢] والتاسومة والخف.

وكان فرشه من أدم حشوه من ليف وطوله ذراعان وشيء وعرضه ذراع ونحو شبر.

وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه دخل على النبي ﷺ وهو على سرير وقد أثر الشريط في جنبه، فبكى عمر رضي الله عنه، فقال النبي ﷺ ما يبكيك ياعمر؟ فقال: ذكرت كسرى وقيصر وما كانا فيه من الدنيا، وأنت رسول رب العالمين وقد أثر بجنبك الشريط! فقال النبي ﷺ: أولئك قوم عجلت لهم

(١) الورس: نبات كالسمسم، يستخدم في صبغ الثياب.
(٢) هي المدبوغه بالقرظ، لأن شعرها قد أصابه القطع والحلق، وهو معنى السبت.

طيباتهم فى حياتهم الدنيا، ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا فى الآخرة. وكان ﷺ له عباءة تفرش له حيثما تنقل، تثنى طبقين، وربما نام على حصير، وعلى الأرض، وما عاب مضطجعا قط، وإن فرش له اضطجع عليه وإلا على الأرض.

وكان يحب الطيب، ويكره الريح الكريه، ويتطيب بغَالية [1] ومسك، ويتبخر بكافور وعود، ويكتحل بالإثمد فى كل عين ثلاثا.

ويأمر بالباه [2] وينهى عن التبتل نهيا شديدا، وقال: لا تبتل فى الإسلام. ولا يحتقر فقيرا لفقره، ولا يهاب ملكا لملكه، ويعظم النعمة وإن دقت، ولا يذم منها شيئا، ويكرم ضيفه ويبسط له رداءه كرامة له. وكان يتوكأ على العصا، وقال: التوكؤ على العصا من أخلاق الأنبياء. ورعى الغنم وقال: ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم، وحكمة ذلك أن راعى الغنم، التى هى أضعف البهائم، يسكن فى قلبه الرقة واللطف، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هذب أولا. وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها، لا يثبت بصره فى وجه أحد، وكان أحلم الناس وأشجعهم وأسخاهم، لم يسأله أحد شيئا إلا أعطاه، ومن سأله حاجة لا يرده إلا بها أو بميسور حسن من القول لا بمعسور خشن، فكان أجود بنى آدم على الإطلاق، يجود بجميع أنواع الجود، من بذل العلم والمال وبذل نفسه لله فى إظهار دينه وهداية عباده، وإيصال النفع العميم بكل طريق، من إطعام جائعهم ووعظ جهالهم وقضاء حوائجهم وتحمل أثقالهم، فكان أجود بالخير من الريح المرسلة، وكان إذا دخل رمضان أطلق كل أسير وأعطى كل سائل، وإنما كان جوده يضاعف فى شهر رمضان زيادة على جوده فى غيره من الشهور لأن جود ربه يتضاعف فيه، وقد جبل ﷺ على حب ما يحبه الله، ولأنه كان يلتقى هو وجبريل عليه السلام فى رمضان، وهو أفضل الملائكة وأكرمهم، ويدارسه الكتاب الذى أوتى إليه وهو أشرف الكتب وأفضلها، وهو يحث على الإحسان ومكارم الأخلاق. وفى مسلم قال: ما سئل ﷺ شيئا إلا أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى

---

(١) نوع من الطيب يدخل فى تركيبه المسك والعود والعنبر والدهن.

(٢) يعنى النكاح والتزويج. [الطهطاوى].

قومه فقال: ياقوم، أسلموا فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة! وعن صفوان بن أمية قال: لقد أعطانى رسول الله ﷺ ما أعطانى وإنه لمن أبغض الناس إلىّ فما برح يعطينى حتى أنه لأحب الناس إلىّ وفى [مغازى الواقدى] أنه ﷺ أعطى صفوان واديا مملوءا إبلا وغنما، فقال أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبى! ولذلك قالت له خديجة رضى الله عنها فى أول بعثته، حين رجع من غار حراء، بعدما حصل من جبريل ما حصل لما أمره بالقراءة: والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتقرى الضيف، وتحمل الكَلّ[1] وتكسب المعدوم[2] وتعين على نوائب الدهر[3].

وكان ﷺ أكثر الناس تواضعا، يجيب من دعاه من غنى أو فقير أو حر أو عبد، وكان عليه الصلاة والسلام فى سفر فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: يا رسول الله علىّ ذبحها، وقال آخر وعلى سلخها، وقال آخر وعلى طبخها، فقال ﷺ وعلى جمع الحطب، فقالوا: يا رسول الله، نحن نكفيك ذلك، فقال: قد علمت، ولكنى أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه، وقام فجمع الحطب.

وكان أرحم الناس، يصغى الإناء للهرة وما يرفعه حتى تروى، رحمة لها، وأعفهم، وأشدهم إكراما لأصحابه، لا يمد رجليه بينهم، ويوسع لهم إذا ضاق المكان، ولم تكن ركبتاه تتقدمان ركبة جليسه، يبدأ من لقيه بالسلام، ويتجمل لأصحابه ويتفقدهم ويسأل عنهم، فمن مرض عاده ومن غاب دعا له، ومن مات استرجع فيه وأتبعه الدعاء له.

وكان عليه الصلاة والسلام تنام عيناه ولا ينام قلبه انتظارا للوحى، وإذا نام نفخ ولا يغط، وكان لا يأكل الصدقة ويأكل الهدية ويكافئ عليها، وأكل الخبز بالخل وقال: نعم الأدام الخل، وكان من جالسه أو أقامه لحاجة صابره حتى يكون الرجل

---

(١) أى الشيء الذى يحصل منه التعب لغيرك. [الطهطاوى].

(٢) أى تعطيه له تبرعا منك. [الطهطاوى].

(٣) أى حوادثه [الطهطاوى].

هو المنصرف، وما جلس إليه أحد فقام حتى يقوم الرجل، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، إلا أن يكون فيه قطيعة رحم فيكون أبعد الناس منه، وكان يداعب أصحابه ولا يقول فى مداعبته إلا حقا، وكان يخفف الصلاة إذا سمع بكاء الصبى، مما يعلم من شدة وجد أم الصبى بولدها.

وباع واشترى بنقد ونسيئة، والأغلب بعد البعثة الشراء، وبعد الهجرة لم يحفظ البيع إلا فى ثلاث صور، وآجر واستأجر، وهو الأغلب، وآجر نفسه قبل النبوة للرعى والاتجار، وشارك ووكل وتوكل ووهب له واستعار، وضمن عن الله ضمانا خاصا وعاما، وشفع وشفع إليه، وسابق وصارع، وطلق وآلى، وضاف وأضاف، وداوى وتداوى، بمفرد ومركب، ورقى واسترقى، وحذر من التخمة وكثرة الأكل، ويصوم حتى يقال لا يفطر وعكسه، وأكثر صيامه فى شعبان، وكان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فتقول له عائشة: أتتكلف هذا وقد غفر الله لك؟ فيقول: أفلا أكون عبدا شكورا؟! وكان أكثر دعائه: يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك! وخرج من الدنيا ولم يملأ بطنه فى يوم من طعامين، فكان إذا شبع من التمر لم يشبع من الشعير، وإذا شبع من الشعير لم يشبع من التمر، وربما شد على بطنه حجرا من الجوع، وقد أتاه الله مفاتيح خزائن الأرض فأبى أن يقبلها واختار: الآخرة عليها، وهذا على وجه الاختيار لا على وجه الاضطرار، لأجل أن تتأسى به أمته، ومما يدل على ذلك قوله ﷺ: عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا، فقلت: يارب، أشبع يوما وأجوع يوما، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك! قصد ﷺ أن يكون مشغولا بالله فى طورى الشدة والرخاء، والنعمة والبلاء، قال بعضهم: وحكمة ربط الحجر أن يسكن بعض ألم الجوع، لأن حرارة المعدة الغريزية ما دامت مشغولة بالطعام قلت الحرارة به، فإذا نقل اشتغلت برطوبات الجسم وجواهره فيحصل التألم حينئذ ويزداد ما لم يضم إلى المعدة الأحشاء والجلد فإن نارها حينئذ تخمد بعض الخمود فيقل الألم فيفيد أن شد الحجر على قدر ألم الجوع، فكلما زيد زيد. انتهى.

وقال بعضهم: عادة أصحاب الرياضة، وكذا العرب وأهل المدينة، إذا اشتد

جوعهم وخليت بطونهم أن يربط كل واحد منهم حجرا على بطنه لئلا تنزل أمعاؤه فيشق عليه التحرك، فإذا ربط حجرا على بطنه يشتد بطنه وظهره فتسهل عليه الحركة، فكان ﷺ أكثرهم رياضة، وكأن الله تعالى خلق فيه برودة تسكن الجوع وحرارته، وقال بعضهم: يقال لمن يؤمر بالصبر اربط على قلبك حجرا. فكان ﷺ يؤمر بالصبر ويأمر أمته بالصبر حالا ومآلا.

وفى [كتاب السنن] لسعيد بن منصور من حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: اللهم من أبغضنى وعصانى فأكثر له المال والولد، واللهم من أحبنى وأطاعنى فارزقه الكفاف، اللهم ارزق آل محمد الكفاف، اللهم رزق يوم بيوم. ويناسبه ما أورده السلفى أن يهوديا أتى النبى ﷺ فقال: ادع لى، فقال: اللهم أصح جسمه، وأكثر ماله، وأطل حياته.

وورد فى [الجامع الصغير] أن الله إذا أحب عبدا رزقه كفافا. انتهى. قال العزيزى: أى بقدر كفايته، لا يزيد عليها فيطغيه، ولا ينقص عنها فيؤذيه، فإن الغنى مبطرة والفقر مذلة.

وأما اقتناعه ﷺ باليسير، وسؤال ربه أن يجعل رزقه قوتا، ففى حديث ابن عباس رضى الله عنه: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالى المتتابعة طاويا وأهله لا يجدون عشاء، فكان عامة خبزهم الشعير.

وقد خيره الله بين أن يكون نبيا ملكا وأن يكون نبيا عبدا، فقال: بل نبيا عبدا، ثلاثا، فانظر إلى همته العلية كيف عرضت عليه خزائن الأرض فأعرض عنها وأباها، مع أنه ﷺ لو أخذها لم ينفقها إلا فى طاعة ربه، لكنه اختار العبودية المحضة، فيا لها من همة شريفة رفيعة ما أسناها، ونفس زكية كريمة ما أزكاها. وقال البدر الزركشى لم يكن النبى ﷺ فقيرا من المال قط، ولا حاله حال فقير، بل كان أغنى الناس، قد كفى أمر دنياه فى نفسه وعياله، وكان يقول فى قوله ﷺ: «اللهم أحينى مسكينا»، إن المراد به استكانة القلب لا المسكنة التى هى أنه لا يجد ما يقع موقعا من كفايته، وكان يشدد النكير على من يعتقد خلاف ذلك. وقال بعضهم: الفقر لباس الأنبياء، وزينة الأولياء، لأن الفقر يورث الخشوع، والخشوع

يورث الكرامة. وقد قيل: إن لكل شيء مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء.

وخصائصه ﷺ على أضرب:

الأول: الواجبات: الضحى، والأضحية، والوتر، والتهجد، والسواك، والمشاورة، ومصابرة العدو وإن كثر وزاد على الضعف، وقضاء دين من مات وعليه دين لم يخلف وفاء. وقيل كان يفعله تكرما لا وجوبا وتخيير نسائه، وقيل كان مستحبا.

الثاني: ما اختص به من المحرمات فيكون الأجر في اجتنابه أكثر، وهو قسمان: أحدهما: في غير النكاح فمنه الشعر، والخط، والأكل متكئا، وأكل الثوم والبصل والكراث، وقيل مكروه، وإذا لبس لأمته لا ينزعها حتى يلقى العدو، وقيل مكروه، وإذا شرع لزمه إتمامه، وأن لا ينظر إلى ما متع به الناس من الدنيا وخائنة الأعين، **الثاني**: في النكاح، فمنه إمساك من كرهت نكاحه، وقيل تكرما.

الثالث: المباحات: فمنه الوصال في الصوم، واصطفاه ما أبيح له من الغنيمة قبل القسمة، ودخول مكة بلا إحرام، وإباحة القتال فيها ساعة، والقضاء بالعلم، والحكم لنفسه وولده ويشهد لنفسه وولده، ويقبل شهادة من يشهد له، ويحمي الموات لنفسه، ولا ينتقض وضوؤه بالنوم مضطجعا[1] وأبيح له أخذ الطعام والشراب من مالكهما المحتاج إليهما إذا احتاج ﷺ إليهما ويجب على صاحبهما البذل وصيانة مهجته عليه الصلاة والسلام، وإباحة تسع نسوة، والصحيح الزيادة له، وانعقاد نكاحه بلا ولي ولا شهود، وفي وجوب القسم بين أزواجه وإمائه خلاف.

الرابع: ما اختص به من الفضائل والإكرام: فمنه أن أزواجه اللاتي توفي عنهن محرمات على غيره أبدا، وفيمن فارقها في حياته أوجه أصحها التحريم، وأن أزواجه، رضوان الله عليهن، أمهات المؤمنين، وأنهن أفضل من غيرهن من

---

(١) في الأصل: مضطجا.

النساء، وجعل ثوابهن وعقابهن ضعفين، وأنه خاتم النبيين وخير خلق الله، وأمته أفضل الأمم، وهى معصومة من الإجماع على ضلالة، وأصحابه خير القرون، وشريعته مؤيدة وناسخة لجميع الشرائع، وكتابه معجز محفوظ عن التحريف والتبديل، وهو حجة على الناس بعد وفاته، ومعجزات الأنبياء انقرضت، ونصره بالرعب مسيرة شهر، وجعلت له الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت له الغنائم، وأعطى الشفاعة والمقام المحمود، وأرسل إلى الناس كافة، وهو سيد ولد آدم، وأول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مشفع، وأول من يقرع باب الجنة، وأكثر الأنبياء تبعا، وأعطى جوامع الكلم، وصفوف أمته فى الصلاة كصفوف الملائكة، وكان لا ينام قلبه، ولا يحل لأحد أن يرفع صوته فوق صوته ولا يناديه باسمه، ويخاطبه المصلى بقوله السلام عليك أيها النبى ولو خاطب آدميا غيره بطلت صلاته، ويلزم المصلى إذا دعاه أن يجيبه وهو فى الصلاة ولا تبطل صلاته، وكانت الهدية حلالا له بخلاف غيره من ولاة الأمور، ولا يجوز الجنون على الأنبياء بخلاف الإغماء، ومن رآه فى المنام فقد رآه حقا، وأن الأرض لا تأكل لحم الأنبياء، وإن كذبا عليه ليس ككذب على غيره [1] ﷺ .

فلما كان ﷺ خاتم النبيين وسيد المرسلين، وأتاه الله علم الأولين والآخرين، ولا يحصى مناقبه أحد من العالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، قال البوصيرى:

فاق النبيين فى خَلْق وفى خُلُق	ولم يدانوه فى علم ولا كرم
وكلهم من رسول الله ملتمس	غرفا من البحر أو رشفا من الديم
وكل آى أتى الرسل الكرام بها	فإنما اتصلت من نوره بهم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر	وأنه خير خلق الله كلهم

فقد أطلعه الله على ماشاء من المغيبات فوقعت على وفق إخباره بها فيما مضى وما هو آت، واستأثر سبحانه دون جميع الخلق بعلم أمور منها مفاتح الغيب

(١) فى الأصل: غير.

الخمس، ولقد قُبض النبي ﷺ وما يعلم الروح، وقال الجنيد [1]: الروح مما استأثر الله بعلمه، ولم يطلع عليه أحدا من خلقه، فلا يجوز لعباده البحث عنه بأكثر من أنه موجود، وثبت عن ابن عباس أنه كان لا يفسر الروح، أي لا يعين المراد به في الآية.

وقد اختلف في مسألة اشتهرت بالديار المغربية، نشر الله بها أعلام السنة المحمدية، وهي: هل أحاط رسول الله ﷺ بعلم الله كما أحاط الحق بعلمه، أولا؟ فأجاب عن ذلك بعضهم بقوله: لا يصح ذلك، بل الذى ينبغى اعتقاده أن الله أعلم رسوله ﷺ ما لم يعلمه أحد من الخلق، وحاشا سيد الأحباب أن يرضى من أمته أن يسووا بينه فى العلم وبين رب الأرباب، ومن المحال أن يلحق العبد مرتبة السيد على كل حال، فاحذر الغلط، وإياك من ركوب التعاسيف والشطط. انتهى.

وقد قال ﷺ: «لا تطرونى كما أطرى عيسى»، أى لا تبالغوا فى مدحى وفى معنى الحديث قال البوصيرى:

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم	واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
فإن فضل رسول الله ليس له	حد فيعرب عنه ناطق بفم

ولقد أجاد القائل:

الأمر أعظم من مقالة قائل	إن رقق البلغاء أو إن أفخموا
ماذا يقول المادحون ومدحه	حقًا به نطق الكتاب المحكم

ويحكى أن العارف الكبير أبا حفص عمر بن الفارض، رحمه الله تعالى، قيل له: لم لا مدحت النبى ﷺ؟ فأنشد قائلا:

---

(1) أبو القاسم ين محمد (المتوفى سنة ٩١٠م) متصوف بغدادي مبرز، له طائفة تعرف بالجندية، وكان يقلب بسيد الطائفة، وطاووس الفقراء ـ والفقراء هم الصوفية ـ وشيخ المشاريخ.. والتصوف عنده: ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع..

أرى كل مدح فى النبى مقصرا ... وإن بالغ المثنى عليه وأكثرا

إذا الله أثنى بالذى هو أهله ... عليه فما مقدار ما يمدح الورى؟

فمن تمام الإيمان به ﷺ اعتقاد أنه لم يجتمع فى بدن آدمى من المحاسن الظاهرة ما اجتمع فى بدنه الشريف ﷺ ، فيكون مما يشاهد من محاسنه الظاهرة علامة على محاسنه الباطنة ، ولا أكمل منه ﷺ ، ولا مساوئ له فى هذا المدلول فكذلك فى الدال ، ولذا نقل القرطبى عن بعضهم أنه قال : لم يظهر فى الدنيا تمام حسنه ﷺ ، وإلا لما طاقت أعين الصحابة النظر إليه ﷺ ، فإذا كان فى الآخرة ظهر تمام ذلك ، ولذا قال صاحب البردة :

فهو الذى تم معناه وصورته ... ثم اصطفاه حبيبًا بارىء النسم

منزه عن شريك فى محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غير منقسم

وقد جمع الله له ﷺ محاسن السير ، وأحاسن السياسة والخبر ، مع أنه أمى لا يكتب ولا يقرأ ، ولا معلم له من البشر ، نشأ بين جهال يتيما من أبويه ، فعلمه الله مكارم الأخلاق ، وجعل له من أكارم الآداب أوفر خلاق ، وما أحسن قول القائل :

أخذ الإله أبا الرسول ولم يزل ... برسوله الفرد اليتيم رحيما

نفسى الفداء لمفرد فى يتمه ... والدر أحسن ما يكون يتيما

وكذلك جمع ﷺ ما تفرق فى الأنبياء من مكارم الأخلاق وسماه عظيما فقال تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ (القلم : ٤) فكان فيه ﷺ خلق [(١)] آدم ، ومعرفة شيث ، وشجاعة نوح ، وخلة إبراهيم ، ولسان إسماعيل ، ورضى إسحاق ، وفصاحة صالح ، وحكمة لوط ، وبشرى يعقوب ، وشدة موسى ، وصبر أيوب ، وطاعة يونس ، وجهاد يوشع ، وصوت داود ، وحب دانيال ، ووقار إلياس ، وعصمة يحيى ، وزهد عيسى .

ثم دعا الله تعالى عباده للاقتداء به والتخلق بأخلاقه فقال : ﴿ **لقد كان لكم فى**

---

(١) بفتح الخاء وسكون اللام . [الطهطاوى] .

رسول الله أسوة حسنة﴾ (الأحزاب: ٢١) فقد أيده الله تعالى بالمعجزات الباهرة، وأكرمه بالآيات الظاهرة، وخصه بالشفاعة العظمى فى الدار الآخرة ﷺ وعلى آله وعترته الطاهرة، وصحابته النجوم الزاهرة، قال الأديب جمال الدين الدمشقى فى ذلك:

يا عين إن بَعُد الحبيب وداره ... ونأت مرابعه وشط مزاره

فلقد ظفرت من الزمان بطائل ... إن لم تريه فهذه آثاره

ولقد سبقه إلى ذلك الصلاح الصفدى فقال:

أكرم بآثار النبى محمد ... من زاره استوفى السرور مزاره

يا عين دونك فانظرى وتمتعى ... إن لم تريه فهذه آثاره

واقتدى بهما فى ذلك أبو الحزم المدنى فقال:

يا عين كم ذا تسفحين مدامعًا ... شوقًا لقرب المصطفى ودياره

إن كان صرف الدهر عاقك عنهما ... فتمتعى يا عين فى آثاره

وبالجملة فآثاره ﷺ ومآثره هى الواسطة العظمى فى تشييد هذا الدين المحمدى العظيم البنيان، الذى هو بركته ﷺ باق إلى آخر الزمان، وكذلك ما دامت معجزة القرآن التى هى أكبر المعجزات باقية بين أظهرنا فلا ينسخ الماضى الآت، فشريعة المصطفى عليه الصلاة والسلام باقية إلى يوم القيامة، ومعجزة القرآن الباهرة الدلائل ليست ولله الحمد داخلة فى قول القائل:

تتخلف الآثار عن أصحابها ... حينًا ويدركها الفناء فتتبع

الفصل الثالث

(فى ذكر معجزاته صلى الله عليه وسلم)

أكبر معجزاته ﷺ القرآن، الذى أعجز الإنس والجان، وتحدى به بلغاء العرب وفصحاءهم [1] الذين هم الرؤساء فى قوانين المعانى والبيان، والفرسان فى ميادين الفصاحة والشجعان، عن معارضته على أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وتنازل معهم إلى الإتيان بسورة من مثله وفى السور ما هو ثلاث آيات، فلم يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، ونكصوا على أعقابهم خائبين، فغيرهم إن عارض أولى بالعجز والخذلان، إذا محال [2] سكوتهم ثلاثا وعشرين سنة عن معارضته لو قدروا عليها، خصوصا مع كونه ﷺ ينادى عليهم بالعجز عن معارضته، والقصور عن بلوغ الغرض من مناقضته، ويوبخهم ويسب آلهتهم، فلم يستطع أحد منهم أن يرفع رأسه ويناديه بجواب، وإنما يزدادون تحسرا عن المعارضة، ويعترفون لبعضهم فى الافتراء فى قولهم ﴿ **إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ** ﴾ (المدثر: ٢٤) و﴿ **سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ** ﴾ (القمر: ٢) و﴿ **أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ** ﴾ (الأنعام: ٢٥) ويعتذرون ظاهرا بقولهم ﴿ **قُلُوبُنَا غُلْفٌ** ﴾ (البقرة: ٨٨) ﴿ **قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ** ﴾ (فصلت: ٥) ولما قالوا ﴿ **لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا** ﴾ (الأنفال: ٣١) رد الله عليهم بقوله ﴿ **ولن تفعلوا** ﴾ (البقرة: ٢٨٢) فما فعلوا وما قدروا ولو قدروا على أدنى معارضة لبادروا إليها،

---

(١) فى الأصل: وفصاؤهم.

(٢) فى الاصل: محالهم.

وأفحموا الخصم الذى كانوا محافظين على إطفاء نوره، وإنما أعجز كل بليغ لجزالته وغرابة أسلوبه وبلاغته، وانتهائه فى الفصاحة إلى الطرف الأقصى، فإنه لا أفصح ولا أوضح ولا أكمل ولا أجزل ولا أنسب ولا أعذب من ألفاظه ولا أسد ولا أشد التئاما وتشاكلا من نظمه، وأما معانيه فكل ذى لب يشهد لها بالتقدم فى أبواب البلاغة والترقى إلى درجات الاتفاق والبيان الواضح.

وقيل إعجازه هو كونه خارجا عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب، وما كان من المعجزات معلوما بالقطع منقولا بالتواتر كالقرآن فلا شك فى كفر منكره وارتداده، وأنه بمنزلة منكر وجود النبى ﷺ فى الدنيا، وما لم يكن منها كذلك فإن اشتهر بُدِّع منكره وفُسِّق، كنبع الماء من بين أصابعه الشريفه ﷺ، وتكثير الطعام اليسير، وإن لم يشتهر ولكن ثبت بطريق صحيح أو حسن عزر منكره إن كان مثله يخفى عليه ذلك قبل التوقيف، فهو النور المستبين، والحق الواضح المبين، لا شىء أسطع من أعلامه، ولا أصدع من أحكامه، ولا أوضح من بلاغته، ولا أرجح من فصاحته، ولا أكثر من إفادته، ولا ألذ من تلاوته، قال رسول الله ﷺ: القرآن فيه خبر من قبلكم ونبأ من بعدكم وحكم ما بينكم، وقال تعالى: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ (النساء: ٥٩) الآية، وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾ (النساء: ٨٢) قال بعضهم: إذا أردت محادثة الحق تعالى أخذت المصحف فلا أزال أناجيه ويناجينى، وإذا أردت محادثة رسوله أخذت كتاب حديثه، وكذلك كل من أردت مناجاته من الأولين والآخرين. انتهى. وقد حقق العارفون أن كلام الله رسالة من الله لعباده ومخاطبة لهم، وهو البحر المشتمل على جواهر العلم المتضمن بظاهره وباطنه، ولهذا قالوا بآداب سماعه ورعوه حق رعايته وقد تجلى لخلقه فى كلامه لو كانوا يعقلون، وكذلك كلام رسول الله ﷺ مما يتعين حسن الاستماع إليه، لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى.

قال الشيخ أبو إسحاق الثعلبى [1] رحمه الله: إن عدد آيات القرآن ستة آلاف

---

(١) أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى (المتوفى سنة ١٠٣٥م) من أهل نيسابور، اشتهر بالتفسير، وله اشتغال بالتاريخ والكتابة فى قصص الأنبياء، وله فى ذلك كتاب [عرائس المجالس] أما تفسيره فهو [الكشف والبيان فى تفسير القرآن].

وستمائة آية، فما هو أمر ألف آية، وما هو نهى ألف آية، وما هو وعد ألف آية، وما هو وعيد ألف آية، وما هو إخبار ألف آية، وما هو قصص وأمثال ألف آية، وما هو تحليل وتحريم خمسمائة آية، وما هو تسبيح وتهليل مائة آية، وما هو ناسخ ومنسوخ ست وستون آية، وقال بعضهم:

ألا إنما القرآن تسعة أحرف أتيت بها فى بيت شعر بلا خلل

حلال حرام محكم متشابه بشير نذير قصة عظة مثل

ووفد غالب بن صعصعة على الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ومعه ابنه الفرزدق، فقال له: من أنت؟ فقال: غالب بن صعصعة، قال: ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم، قال: فما فعلت بإبلك؟ قال: أذهبتها النوائب، ثم قال له: يا أبا أخطل، من هذا الذى معك؟ قال: ابنى، وهو شاعر. قال: علمه القرآن فهو خير له من الشعر! فكان ذلك فى نفس الفرزدق حتى قيد نفسه وآلى على نفسه أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن فحفظه فى سنة، وذلك قوله:

وما صب رجلى فى حديد مجاشع مع القيد إلا حاجة لى أريدها

فقد جمع الله له ﷺ كل ما أوتيه الأنبياء من معجزات وخصائص، ولم يجمع ذلك لغيره، بل خص كلا بنوع من المعجزات، وذهب كل نبى بمعجزاته ولم يبق لها أثر ظاهر، خلا الروايات عنها والأخبار، وأبقى لنا ﷺ القرآن معجزا خالدا بين ظهرانينا إلى يوم القيامة بعد ذهابه، لا تنكسف شموسه، ولا تذوى زهراته، يعلم ذلك من أدرك منه شرح الآيات المحكمة، وأسباب نزولها، وما اشتملت عليه من الأمر والنهى والأحكام والمعانى، والإعجاز والإيجاز، والفصاحة والبلاغة، والبيان والبديع، وأخبار الأولين والآخرين، وشرائع الأمم السالفة، والوعد والوعيد، وذكر الدنيا وأحوالها، والآخرة وأهوالها، فكل من نظر فى كتاب الله تعالى من الفصحاء والبلغاء فى سائر الأعصر وأمعن النظر فيه استخرج بمعرفته جواهر المعانى من كنوز الآيات الكريمة، واطلع على أسرار البلاغة، وعلم ما انطوت عليه من أسرار الإعجاز، فقد علم بالقرآن، الذى تحدى به ﷺ، صدق

دعوى النبوة، جميع ما أخبر به علما قطعيا يقينيا لا يقدح فيه شيء من الاحتمالات العقلية، مع ما نقل عنه ﷺ من المعجزات والأمور الخارقة للعادة بطريق الشهرة والآحاد، وما بلغ القدر المشترك منه حد التواتر في المعجزات وإن كانت تفاصيلها مروية آحادا، قال بعضهم:

قد انقضت معجزات الرسل منذ قضوا	نحبا وأفحم منه ذلك الجيل
ومعجزات رسول الله باقية	محفوظة مالها في الدهر تحويل
تكفل الله هذا الذكر يحفظكم	فلن يضيع الذي بالله مكفول
هذي المفاخر لا تحظى الملوك بها	الملك منقطع والوحي موصول

وأنزل الله القرآن كله إلى السماء الدنيا جملة، ثم فرقه في ثلاث وعشرين سنة، مدة الوحي بمكة ثلاث عشرة سنة وبالمدينة عشر سنين، فكان جبريل ينزل بالسورة أو الآية لأمر يحدث ويخبر النبي ﷺ بموضعها من القرآن، وعلى هذا الترتيب كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه، وعرضه عليه في السنة التي توفي فيها مرتين، وما استقر عليه الأمر في العرضة الأخيرة هو الذي وقع عليه ترتيب المصحف العثماني، وأما ما وقع في غيره من مصاحف بعض الصحابة كمصحف ابن مسعود ومصحف أُبَيّ بن كعب من الترتيب والقراءات وزيادة بعض السور، مما هو مخالف للمصحف العثماني، فقد وقع ذلك أولا بتوقيف ثم نسخ ذلك بما استقر عليه الأمر في العرضة الأخيرة وكتب في المصحف العثماني، ولم يبلغ النسخ من ذكر من الصحابة ولا ما استقر عليه الأمر فأبقوا مصاحفهم على ما كان عندهم.

فإن قيل نزوله جملة إلى السماء هل كان قبل نبوته ﷺ؟ أو بعدها؟ أجيب: بأنه جوز أبو شامة[1] الأمرين، واستظهر هو الأول، والجلال السيوطي الثاني،

(١) عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي (١٢٠٢ - ١٢٦٧م) مؤرخ الدولة الأيوبية في كتابه الشهير [الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية] وله كذلك في التاريخ [تاريخ دمشق] و[تراجم رجال القرنين السادس والسابع] و[مختصر تاريخ ابن عساكر] و[كشف أحوال بني عبيد].. هذا إلى مؤلفات في الحديث والقراءات.

قال: والآثار صريح سياقها فيه، وربما فهم من كلام بعض المتأخرين اختبار المعية.

فإن قيل: فما السر فى نزوله منجما؟ وهلا نزل كسائر الكتب جملة؟ أجيب: هذا سؤال تولى الله جوابه، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (الفرقان: ٣٢) يعنون كما أنزل على من قبله من الرسل، فأجابهم تعالى بقوله (كذلك) أى أنزلناه مفرقا (لنثبت به فؤادك) أى لنقوى به قلبك، فإن الوحى إذا كان يتجدد فى كل حادثة كان أقوى للقلب وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول المَلَكَ إليه وتجديد العهد به وبما معه من الرسالة من ذلك الجناب الرفيع العزيز، فيحدث له من السرور بما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون فى رمضان لكثرة لقائه جبريل عليه السلام. وقيل معنى (لنثبت به فؤادك) لتحفظه، ففرق عليه ليثبت عنده حفظه.

وقد اختلف هل فى القرآن[1] شىء أفضل من شىء؟ فقيل: لا، وعليه الأشعرى والقاضى أبو بكر الباقلانى، لأن الأفضل يشعر بنقص المفضول، وكلامه تعالى حقيقة واحدة لا نقص فيه، وقيل: نعم، لظواهر الأخبار، كخبر «ألا أعلمك بأعظم سورة فى القرآن»، وخبر «إن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»، والتفضيل يرجع إلى عظم الأجر والثواب وإلى اللفظ لا إلى الصفة، لأن ما تضمنته نحو آية الكرسى وسورة الإخلاص ليس موجودا فى نحو (تبت يدا أبى لهب) والتحقيق أنه لا خلاف فى المعنى، بل الأول محمول على ذات القرآن وحقيقته، والثانى على غيرهما، كما علمت، قاله شيخ الإسلام.

وسميت السورة سورة لقطعها من السورة الأخرى، إذا السور القطع، فلما قرن بعض السور ببعض سمى المجموع قرآنا كما يسمى بعضه قرآنا لذلك أيضا، قاله شيخ الإسلام فى شرحه على البخارى.

وقد روى أن الله تعالى أنزل القرآن دفعه إلى السماء الدنيا، فوضع فى بيت

(١) فى الأصل: القراءة

العزة، فحفظته الحفظة وكتبته الكتبة، ثم نزل منها بلسان جبريل إلى النبى ﷺ شيئا فشيئا بحسب المصالح.

فإن قيل: ما قدر المنزل؟ **أجيب:** بأنه كان على حسب المصالح، قلة وكثرة، فربما نزل العشر من الآيات، كما صح فى قصة الإفك، وأول المؤمنين، ونزول الخمس منها، ونزول بعض آية، كما صح فى نزول (غير أولى الضرر) وحدها، وهى بعض آية، وكان جبريل يخبر النبى ﷺ بموضعها من القرآن، فالقرآن فى اللوح المحفوظ على النحو الذى فى مصاحفنا الآن.

فإن قيل: فما معنى الإنزال؟ **أجيب:** بأن لهم فيه اختلافا، فمنهم من قال إنه عبارة عن إظهار القراءة، ومنهم من قال إن الله ألهم كلامه جبريل وهو فى السماء وعلمه قراءته ثم أداه جبريل فى الأرض.

فإن قيل: فما كيفية التأدية؟ **أجيب:** بأنهم ذكروا فيها طريقتين.

إحدهما: أن النبى ﷺ انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية، وأخذه من جبريل.

وثانيتهما: أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه، والأول أصعب الحالين، والمراد بالانخلاع الظهور بتلك الصورة لا مفارقة الطبع بالمرة، كما هو ظاهر.

فإن قيل: فما كيفية تلقى جبريل له؟ **أجيب:** بما قاله الطيبى: لعله تلقفه من الله تلقفا روحانيا، أو يحفظه من اللوح المحفوظ فينزل به إلى الرسول ويلقيه عليه. وفسر بعض المحققين التلقف الروحانى بالإلهام.

فإن قيل: فما النازل على النبى ﷺ؟ **أجيب:** بأن فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه اللفظ والمعنى، وأن جبريل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به.

والثانى: أن جبريل إنما نزل بالمعانى خاصة، وأنه ﷺ علم تلك المعانى وعبر

عنها بلغة العرب، وتمسك قائله بقوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ (الشعراء: ١٩٣).

والثالث: أن جبريل ألقى عليه المعنى، وأنه عبر بهذه الألفاظ بلغة العرب، وأن أهل السماء يقرؤونه بالعربية، ثم إنه نزل به كذلك. وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان الثورى أنه لم ينزل وحى إلا بالعربية ثم ترجم كل نبى لقومه بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ (إبراهيم: ٤) والمراد بقومه أهل بلده أى حيه الذى هو قريش، فهم قومه، وهم غير أهل دعوته، إذ دعوته عامة لجميع الناس، بدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨) وقال بعضهم:

كتاب الله أفضل كل قيل ... رواه المصطفى عن جبرئيل
عن اللوح المحيط بكل شيء ... عن القلم الرفيع عن الجليل

وقد اختلف العلماء فى ترتيب السور هل هو توقيفى من النبى ﷺ أو باجتهاد من الصحابة، بعد الإجماع على أن ترتيب الآيات توقيفى، والقطع بذلك، فذهب جماعة من العلماء إلى أن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة، منهم الإمام مالك، والقاضى أبو بكر فى أحد قوليه، وجزم به ابن فارس[1]، ومما استدل به لذلك اختلاف مصاحف السلف فى ترتيب السور، وذهب جماعة آخرون إلى أنه توقيفى، منهم القاضى أبو بكر فى أحد قوليه، وخلائق قال بعضهم: ترتيب السور هكذا هو عند الله فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب.

وقد أثبت الصوفية عالم المثال وجعلوه عالما متوسطا بين عالم الأجساد والأرواح، وقالوا هو ألطف من عالم الأجسام وأكثف[2] من عالم الأرواح، وبنوا على ذلك تجسد الأرواح وظهورها فى صور مختلفة من عالم المثال، وقد يستأنس

(١) أحمد بن فارس القزوينى (المتوفى سنة ١٠٠٥) لغوى كان على مذهب الكوفيين فى اللغة، وهو أستاذ بديع الزمان الهمذانى، ومن آثاره [غريب إعراب القرآن] و[المقدمة] هذا إلى مؤلفات فى التفسير وأصول الفقه..

(٢) فى الأصل: أكسف.

لذلك بقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (مريم: ١٧) فتكون الروح الواحدة كروح جبريل فى وقت واحد مدبرة لشبحه الأعلى وهذا الشبح المثالى الذى تمثل لمريم، وينحل بهذا ما قد اشتهر نقله عن بعض الأئمة أنه سأله بعض الأكابر عن جسم جبريل عليه السلام فقال: أين كان يذهب بجسمه الأول الذى سد الأفق بأجنحته كما تراءى للنبى ﷺ فى صورته الأصلية عند إتيانه إليه فى صورة دحية؟ وقد تكلف بعضهم الجواب عنه بأن يجوز أن يقال: كان يندمج بعضه فى بعض إلى أن يصغر حجمه فيصير بقدر صورة دحية، ثم يعود ينبسط إلى أن يصير كهيئته الأولى، على قاعدة جواز التخلخل والتكاثف[1] فى الأجسام، وما ذكره الصوفية أحسن، وهو أن يكون جسمه الأول بحاله لم يتغير وقد أقام الله تعالى له شبحا آخر وروحه تتصرف فيهما جميعا إلى وقت واحد، قال الصوفية: وعلى هذا الأصل تتخرج مسائل كثيرة وتنحل بها إشكالات غير يسيرة.

ومن أمهات معجزاته عليه الصلاة والسلام انشقاق القمر، وقد أجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه لأجله ﷺ، فإن كفار قريش لما كذبوه ولم يصدقوه طلبوا منه آية تدل على صدقه فى دعواه، فأعطاه الله تعالى هذه الآية العظيمة التى لا قدرة لبشر على إيجادها دلالة على صدقة عليه الصلاة والسلام فى دعواه الوحدانية لله تعالى، وأنه منفرد بالربوبية، وأن هذه الآلهة التى يعبدونها باطلة لا تنفع ولا تضر، وأن العبادة لا تكون إلا لله وحده لا شريك له.

قال ابن عبد البر: قد روى هذا الحديث - يعنى حديث انشقاق القمر - عن جماعة كثيرة من الصحابة، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا وتأيد بالآية الكريمة. انتهى.

وفى الترمذى من حديث ابن عمر فى قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر: ١) قال: قد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق فلقتين، فلقة دون الجبل وفلقة خلف الجبل، فقال رسول الله ﷺ اشهدوا. ووقع فى نظم

---

(١) فى الأصل: التكاسف

السيرة للحافظ أبي الفضل العراقي [1]: وانشق مرتين بالإجماع، قال الحافظ ابن حجر: وأظن قوله بالإجماع، متعلق بانشق، لا بمرتين، فإني لا أعلم من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشاق في زمنه ﷺ انتهى.

وما أحقه ﷺ بقول أبي الطيب [2]:

متى ما يشر نحو السماء بطرفه تخر له الشعرى وينكسف البدر

وإن الملأ من قريش تعاقدوا على قتله، فخرج عليهم فخفضوا أبصارهم وسقطت أذقانهم في صدورهم، وأقبل حتى قام على رؤوسهم، فقبض قبضة من تراب وقال: شاهت الوجوه، وحصبهم، فما أصاب رجلا منهم من تلك الحصباء شيء إلا قتل يوم بدر! ورمى يوم حنين بقبضة من تراب في وجوه القوم فهزمهم الله تعالى.

ونسج العنكبوت وتعشيش الحمامتين الوحشيتين عليه في الغار، ونبات الشجر هناك تجاهه سترا له وحفظا من الكفار.

ونصره بريح الصَّبا الشرقية، وبالرعب للعدو يسير بين يديه مسيرة شهر، وتأييده بالملائكة، وعصمته في السر والجهر، وما كان من أمر سراقة بن مالك إذ بعث خلفه في الهجرة فساخت قوائم فرسه في الأرض الجلد، ومسح على ظهر عناق لم ينز عليها الفحل فدرت، وشاة أم معبد.

ودعوته لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يعز الله به الإسلام، ودعوته لعلي رضي الله عنه أن يذهب عنه الحر والبرد، وتفله في عينيه وهو أرمد فعوفي من ساعته ولم يرمد بعد ذلك، ورده عين قتادة بعد أن سالت على خده فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما، ودعاؤه لعبد الله بن عباس رضي الله عنه بالتأويل والتفقه في

---

(١) عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن (١٣٢٥- / ١٤٠٤) من كبار حفاظ الحديث، عراقي الأصل، من أكرادها، تعلم وعاش ومات بمصر، وله مؤلفات كثيرة في الحديث والأصول.

(٢) أبو الطيب المتنبي، أحمد بن الحسين (٩١٥- ٩٦٥م) من أشهر الشعراء العرب، وكان متفلسفا عكس شعره فكره في الحكمة والفلسفة.

الدين، وكان يسمى الحبر والبحر لعلمه، ودعاؤه لجمل جابر فصار سابقا بعد أن كان مسبوقا، ودعاؤه لأنس بن مالك رضى الله عنه بطول العمر وكثرة المال والولد فعاش مائة سنة أو نحوها وولد له مائة وعشرون ولدا ذكرا لصلبه وكان نخله يحمل فى السنة مرتين، ودعاؤه فى تمر جابر بالبركة فأوفى غرماءه وفضل ثلاثة عشر وسقا.

ومن معجزاته نزول الغيث المغيث باستسقائه عليه الصلاة والسلام مرة للمشركين بمكة ومرة للمسلمين بالمدينة يستمر فيها أسبوعا:

وإذا النوائب أظلمت أجداثها   لبست بوجهك أحسن الإشراق

ودعاؤه على عتبة بن أبى لهب بقوله: اللهم سلط عليه كلبا من كلابك، فأكله الأسد بالزرقاء من الشأم، وشهادة الشجر له بالرسالة فى خبر الأعرابى الذى دعاه إلى الإسلام فقال: هل لك من شاهد على ما تقول؟ فقال: نعم، هذه الشجرة! ثم دعاها فأقبات فاستشهدها فشهدت أنه كما قال، ثلاثا، ثم رجعت إلى منبتها، وأمر أنسا أن ينطلق إلى نخلات فيقول لهن: أمركن رسول الله ﷺ أن تجتمعن، فاجتمعن، فلما قضى حاجته أمره أن يأمرهن بالعود إلى أماكنهن، فعدن، وقوله: إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث! وحنين الجذع لما فارقه للمنبر حتى سمع منه صوت كصوت الإبل فضمه إليه فسكن، فقال عليه الصلاة والسلام: والذى نفسى بيده لو لم التزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة!

وكان الحسن البصرى رضى الله عنه إذا حدث بهذا الحديث بكى، وقال: ياعباد الله، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقا إليه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه. انتهى.

وتسبيح الحصى فى كفه، قال أنس بن مالك رضى الله عنه: كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فأخذ سبع حصيات، كما فى رواية أبى ذر، حتى سمعنا التسبيح، ثم صبهن فى يد أبى بكر فسبحن ثم فى يد عمر فسبحن ثم فى يد عثمان فسبحن ثم صبهن فى أيدينا فما سبحن، وكذلك الطعام بحضرته، وإعلام الشاة له بسُمِّها، وشكوى البعير إليه كثرة العمل وقلة العلف، وسؤال الظبية له أن يخلصها مَن الحبل لترضع ولديها وتعود فخلصها.

وليس من المعجزات أن الثعبان كلمه .

وأخبر ﷺ عن مصارع المشركين يوم بدر فلم يَعْدُ أحد منهم مصرعه ، وإخباره أن طائفة من أمته يغزون فى البحر ، وأن أم حرام بنت ملحمان منهم ، فكان كذلك ، وقال لعثمان رضى الله عنه : تصيبه بلوى شديدة ، فكانت وقتل ، وقوله للأنصار : إنكم ستلقون بعدى أثرة ـ (أى تعبا وشدة) ـ فكانت زمن معاوية ، وقوله فى الحسن رضى الله عنه : إن ابنى هذا سيد ، وإن الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ، فكان فى زمن معاوية ، وإخباره بقتل العنسى الكذاب وهو بصنعاء ليلة قَتْله وبمن قتله ، وقال لثابت بن قيس : تعيش حميدا وتقتل شهيدا ، فقتل يوم اليَمامة ، وارتد رجل من المسلمين ولحق بالمشركين فبلغه أنه مات فقال : إن الأرض لا تقبله ، فكان كذلك ، وقال لرجل يأكل بشماله : كل بيمينك ، فقال : لا أستطيع ، فقال له : لا استطعت ، فلم يطق أن يرفعها إلى فيه ، ودخل مكة عام الفتح والأصنام حول الكعبة معلقة وبيده قضيب فجعل يشير إليها ويقول (جاء الحق وزهق الباطل) وهى تتساقط ، وقصة مازن بن العضوبة الطائى وسواد بن قارب ، فإنهما تكلما فى نبوته ﷺ فخافاها وأسلما ، ومن نظم سواد بن قارب :

فكن لى شفيعا يوم لا ذو شفاعة ... بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

وشهادة الضَّب بنبوته ، وإطعام ألف من صاع شعير بالخندق فشبعوا والطعام أكثر مما كان ، وأطعمهم من تمر يسير ، وجمع فضل الأزواد على نطْع ودعا لها بالبركة ثم قسمها فى العسكر فقامت بهم ، وأتاه أبو هريرة بتمرات قد صَفهن فى يده وقال : ادع لى فيهن بالبركة ، فدعا له قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : فأخرجت من ذلك التمر كذا وكذا وسقا فى سبيل الله وكنا نأكل منه ونطعم حتى انقطع فى زمن عثمان رضى الله عنه ، ودعاؤه أهل الصُّفَّة (1) لقصعة ثريد ، قال أبو هريرة

---

(1) وأهل الصفة : فقراء لا منازل لهم ولا عشائر ، ينامون فى المسجد ويظلون فيه ، وصفة المسجد ، أى الموضع المظلل ، فيه مثواهم ، فنسبوا إليها ، ويقال لهم : ضيوف الإسلام ، فكان ﷺ يعشى معه بعضهم ويفرق بعضهم على الصحابة يعشونهم . ومن مشاهيرهم أبو هريرة ، وواثلة بن الأسقع ، وأبو ذر ، رضى الله عنهم . [الطهطاوى] .

رضى الله عنه : فجعلت أتطاول ليدعونى حتى قام القوم وليس فى القصعة إلا اليسير فى نواحيها فجمعه رسول الله ﷺ فصار لقمة ووضعها على أصابعه وقال : كل بسم الله ، فوالذى نفسى بيده ما زلت آكل منها حتى شبعت . انتهى .

ومن معجزاته أنه أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يزود أربعمائة راكب من تمر كان فى اجتماعه كربْضَة[1] البعير فزودهم كلهم منه وبقى تحسبه كما كان ، ونبع الماء من بين أصابعه الكريمة كأمثال العيون فى الانسجام حتى شرب القوم وتوضؤوا وهم ألف وأربعمائة ، قال ابن العربى فى قبسه : وذلك خصيصة له لم تكن لأحد قبله ، وأتى بقدح فيه ماء فوضع أصابعه فى القدح فلم تسع ، فوضع أربعة منها وقال : هلموا فتوضؤوا أجمعين ، وهم من السبعين إلى الثمانين ، وورد فى غزوة تبوك على ماء لا يروى واحدا ، والقوم عطاش ، فشكوا إليه ، فأخذ سهما من كنانته فغرسه فيه ففار الماء وارتوى القوم ، وكانوا ثلاثين ألفا ، وشكا إليه قوم ملوحة فى مائهم فجاء فى نفر من أصحابه حتى وقف على بئرهم فتفل فيه فتفجر بالماء العذب ، وأتته امرأة بصبى لها أقرع فمسح على رأسه فاستوى شعره وذهب داؤه ، وانكسر سيف عكاشة يوم بدر فأعطاه جزلا من حطب فصار فى يده سيفا ، ولم يزل بعد ذلك عنده ، وعزت كُدْية[2] بالخندق عن أن يأخذها المعول فضربها فصارت كثيبا أهيل ، ومسح على رجل أبى رافع وقد انكسرت فكأنه لم يشكها قط ، وقوله ﷺ إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ مُلك أمتى ما زوى لى منها . قال الصلاح الصفدى : وقد صدق الله قوله بأن مُلك أمته بلغ أقصى المشرق والمغرب ولم ينتشر فى الجنوب ولا فى الشمال ، وقال لرجل يدعى الإسلام وهو معه فى القتال : إنه من أهل النار ، فصدق الله قوله بأن ذلك الرجل نحر نفسه ، وهذا لا يعرف ألبتة بشىء من النجوم ولا بالنظر فى الكتب .

وأبطل الله تعالى ببعثته الكهانة فانقطعت ، وكانت ظاهرة موجودة ، وأخبر بأن عمارا تقتله الفئة الباغية ، فكان مع علىّ رضى الله عنه وقتله جماعة معاوية ، وأنذر

---

(١) لكلمة ربضة معان ، منها : الجثة ، ولعل هذا المعنى هو المناسب لهذا المقام .

(٢) الكدية : الأرض الصلبة الغليظة .

بموت النجاشي وخرج هو وأصحابه إلى البقيع فصلوا عليه فورد الخبر بموته بعد ذلك في ذلك اليوم، وخرج على نفر من أصحابه مجتمعين فقال: أحدكم في النار ضرسه مثل أحد! فماتوا كلهم على الإسلام وارتد منهم واحد، وهو الدجال الحنفي، فقتل مرتدا مع مسيلمة، وقال لآخرين منهم: آخركم موتا في النار، فسقط آخرهم موتا في نار فمات، وهو سمرة بن جندب، وأخبر بأنه يقتل أمية بن خلف الجمحي فخدشه يوم أحد خدشا لطيفا فكانت منيته منه، وأخبر فاطمة ابنته رضي الله عنها أنها أول أهله لحوقا به فكان، وبأن أطول نسائه يدا أسرعهن لحوقا به، فكانت زينب بنت جحش الأسدية لطول يدها بالصدقة، ومقتل الحسين ومصرعه وأهله فكان كذلك، وخطب أمامة بنت الحارث بن أبي عوف، وكان أبوها أعرابيا جافيا فقال: إن بها برصا، ولم يكن بها، فقال: فلتكن كذلك، فبرصت من وقتها فتزوجها ابن عمها يزيد فولدت له الشاعر شبيب بن يزيد وهو المعروف بابن البرصاء.

وحكى الحكم بن أبي العاص مشيته ﷺ، وكان النبي ﷺ يتكفأ في مشيته، فالتفت يوما فرآه وهو يتخلج[1] في مشيته، فقال: كن كذلك، فلم يزل يرتعش في مشيته من يومئذ إلى أن مات في خلافة عثمان، وقد ثبت أن النبي ﷺ نفاه من المدينة إلى الطائف، فلذلك كان طريد رسول الله ﷺ، وقد اختلف في السبب الموجب لنفي رسول الله ﷺ إياه، فقيل كان يتسمع سر رسول الله ﷺ ويطلع عليه من باب بيته، وأنه الذي أراد النبي ﷺ أن يفقأ عينه بمدرى في يده لما اطلع عليه من الباب، وقيل سببه أنه كان يحكيه في مشيته وبعض حركاته، وقد ذكره عبد الرحمن بن حسان بن ثابت في هجائه لمروان بن الحكم فقال:

إن اللعين أبوك فارم عظامه ... إن ترم ترم مخلجًا[1] مجنونا

يمشي خميص البطن من عمل التقى ... ويظل من عمل الخبيث بطينا

ومعنى قول عبد الرحمن: إن اللعين، إلى آخره، ما روى عن عائشة رضي الله

---

(١) المخلج: المضطرب المتحرك حركة اضطرارية.

عنها من طرق ذكرها ابن أبي خيثمة أنها قالت لمروان بن الحكم حين قال لأخيها عبد الرحمن بن أبي بكر، لما امتنع من البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد ما قال، والقصة مشهورة: أما أنت يامروان فأشهد أن رسول الله ﷺ لعن أباك وأنت في صلبه. وقد روى في لعنه ونفيه أحاديث كثيرة، ولا حاجة إلى ذكرها، إلا أن الأمر المقطوع به أن النبي ﷺ مع حلمه وإغضائه على ما يكره ما فعل به ذلك إلا لأمر عظيم، ولم يزل منفيا حياة النبي ﷺ، فلما ولى أبو بكر الخلافة قيل له في الحَكَم ليرده إلى المدينة فقال: ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ، وكذلك عمر، فلما ولى عثمان رضي الله عنه الخلافة رده، وقال: كنت قد شفعت فيه إلى رسول الله ﷺ فوعدني برده، وتوفى في خلافة عثمان رضي الله عنه.

إلى غير ذلك مما لا يحصى، ويكفي أن منها كرامات الأولياء التي لا تستقصى، وما يذكره بعض القصاص من أن القمر دخل في جيب النبي ﷺ وخرج من كمه فليس له أصل، كما حكاه الشيخ بدر الدين الزركشي عن العماد بن كثير، وكذلك لم يخلق الورد من عَرَقه ولا من غيره كما يتخيله بعض العوام أنه من عرقه أو البراق أو جبريل، بل خلقه الله كسائر الأزهار، ولم يكن وطؤه ﷺ يؤثر في الصخر دون الرمل كما توارد عليه كثيرون، بل كان كغيره من الناس، أي في عدم تأثير وطء قدميه الكريمتين في الحجر وتأثيرهما في الرمل، وقال بعضهم معددا لآياته ﷺ:

ومن تلكم الآيات وحي أتى به	قريب المأتى مستجم العجائب
تقاصرت الأفكار عنه فلم يطع	بليغا ولم يخطر على قلب خاطب
حوى كل علم فاحتوى كل حكمة	وفات مرام المستمر الموارب
أتانا به لا عن روية مرتئ	ولا صحف مستمل ولا وصف كاتب
يواتيه طورا في استجابة سائل	وإفتاء مستفت ووعظ مخاطب
وإثبات برهان وفرض شرائع	وقص أحاديث ونص مآرب
وتصريف أمثال وتثبيت حجة	وتعريف ذي جحد وتوقيف كاذب

وتصريف أمثال وتثبيت حجة   وتعريف ذي جحد وتوقيف كاذب
وفي مجمع النادي وفي حومة الوغى   وعند حدوث المعضلات الغرائب
يصدق منه البعض بعضا كأنما   يلاحظ معناه لغير المراقب
فيأتي على ماشئت من طرقاته   قويم المعاني مستدر الضرائب
وعجز الورى عن أن يجيبوا بمثل ما   وصفناه معلوم بطول التجارب

وذكر الإمام فخر الدين أن من كانت معجزاته أظهر يكون ثواب أمته أقل، قال السبكي: إلا هذه الأمة، فإن معجزات نبيها أظهر وثوابها أكثر من سائر الأمم، وقد ألف العلماء الحفاظ والثقات الأيقاظ في سيرته ومعجزاته كتبا كثيرة ومجلدات كبيرة، وما أتوا بعشر معشار فضائله، ولا بقطرة من بحار فواضله (وكان أكثر مما قيل ماتركوا) كما قال بعضهم:

لو أن بحرا مداد الكاتبين وما   في الأرض من شجر أقلام مستطر
لم يحصروا بعض فضل المصطفى أبداً   وكيف يحصر شيء غير منحصر

الفصل الرابع

(فى ذكر أزواجه ﷺ وقرابته ومواليه)

قد سلف تزوجه ﷺ من خديجة وعائشة وغيرهما، وموضوع هذا الفصل ذكر أزواجه أمهات المؤمنين بالبيان، وعدتهم خمس عشرة، دخل بإحدى عشر منهن ولم يدخل بأربع، وتوفيت فى حياته اثنتان، وقبض عليه الصلاة والسلام عن تسع.

خديجة

وتزوج النبى ﷺ السيدة خديجة بنت خويلد ولها أربعون سنة، وكانت مسماة لورقة ابن نوفل فآثر الله عز وجل بها نبيه ﷺ، وأقامت معه ﷺ بعد الزواج أربعا وعشرين سنة وخمسة أشهر وثمانية أيام، خمس عشرة سنة قبل الوحى والباقية بعده، ونزل رسول الله ﷺ فى قبرها، ولم تكن سنت الصلاة على الجنائز يومئذ، وغسلتها أم أيمن وأم الفضل، ودفنت بالحجون، عن نحو خمس وستين سنة، وهى سيدة النساء، وأسبقهن نكاحا وإسلاما. ولا خلاف فى أن أولى أزواجه ﷺ خديجة، وكان تزوجها وهو ابن خمس وعشرين سنة. قال فى [المواهب]: وخرّج الإمام أحمد عن ابن عباس أنه ﷺ قال: أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية امرأة

فرعون. وصحح ابن العماد [1] تفضيل خديجة لما ثبت أنه ﷺ قال لعائشة حين قالت له: قد رزقك الله خيرا منها: «لا والله ما رزقنى خيرا منها، آمنت بى حين كذبنى الناس، وأعطتنى مالها حين حرمنى الناس، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها»! وسئل ابن داود: أيتهما أفضل؟ فقال: عائشة، أقرأها النبى ﷺ من جبريل، وخديجة أقرأها جبريل من ربها السلام على لسان محمد ﷺ فهى أفضل، قيل له: فمن أفضل، خديجة أم فاطمة؟ قال: إن رسول الله ﷺ قال: فاطمة بضعة منى، فلا أعدل ببضعته أحدا، ويشهد له قوله ﷺ :أما ترضين أن تكونى سيدة نساء أهل الجنة؟ واحتج من فضل عائشة بأنها فى الآخرة مع رسول الله ﷺ فى الدرجة وفاطمة مع على فيها، وقال شيخ الإسلام فى [شرح البهجة]: الذى اختاره أن الأفضلية محمولة على أحوال، فعائشة أفضل من حيث العلم، وخديجة من حيث تقدمها وإعانتها له ﷺ فى المهمات، وفاطمة من حيث البضعة والقرابة، ومريم من حيث الاختلاف فى نبوتها وذكرها فى القرآن، مع الأنبياء، وآسية من حيث الاختلاف فى نبوتها وإن لم تذكر مع الأنبياء. انتهى.

وسئل السبكى عن ذلك قال: الذى نختاره وندين الله به أن فاطمة أفضل، ثم أمها خديجة، ثم عائشة. وأما خبر الطبرانى: خير نساء العالمين مريم ابنة عمران ثم خديجة بنت خويلد ثم فاطمة بنت محمد ثم آسية امرأة فرعون، فأجاب عنه ابن العماد بأن خديجة إنما فضلت فاطمة باعتبار الأمومة لا باعتبار السيادة، واختار السبكى أن مريم أفضل من خديجة لهذا الخبر، وللاختلاف فى نبوتها، ووقع الاختلاف فى نبوة أربع نسوة: مريم، وآسية، وسارة، وهاجر، وزاد العلامة المتقن السراج ابن المُلَقِّن [2] فى شرحه [لعمدة الأحكام] حواء وأم موسى عليهما السلام. وسيأتى ما يرد على التفضيل بالحيثيات.

ومما يناسب ذكره هنا أنه وجد فى بعض الرسائل ما نصه:

---

(١) عبد الحى بن أحمد بن محمد بن العماد (١٦٢٣ - ١٦٧٩م) مؤرخ وفقيه وعالم بالأدب، عاش ما بين دمشق والقاهرة ومكة، ومن آثاره [شذرات الذهب فى أخبار من ذهب] فى ثمانية أجزاء.

(٢) عمر بن على بن أحمد الأنصارى (١٣٢٣ - ١٤٠١م) من أكابر علماء الفقه والحديث والتراجم، مصرى من أصل أندلسى، خلف مصنفات كثيرة بلغت الثلاثمائة.

«فى ليلة السابع والعشرين من شهر رجب الفرد من سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة، قرأ شيخ الإسلام، قطب الأنام، من خضعت له رقاب الفضلاء، وارتضع من ثدى معارفه النبلاء، العارف بالله تعالى الشيخ محمد الصديقى، المعراج الشريف وأبدع فيما قرأ، وقدم للحاضرين أحسن قراءة[1]، ووقع أن سأله إنسان: هل الأفضل إبراهيم ابن نبينا وأخته أو أبو بكر الصديق؟ فأجاب بأن أبا بكر أفضل، وجرى بينه وبين السائل كلام لا ينبغى ذكره فكتب بعض الأفاضل سؤالا ورفعه إلى العلماء من أهل العصر، فكتب شيخ الإسلام أحمد بن قاسم الجواب عنه.

وصورة السؤال

الحمد لله، ما تقول ساداتنا وموالينا الأئمة الأعلام، علماء السنة وعقائد الإسلام، من أعقم الله عن الإتيان بمثلهم الليالى والأيام، حفظهم الله على كافة الأنام، ونصر بهم شريعة نبيه وأخمد بهم عقائد أهل الشيع والبدع إلى يوم السلام، بجاه سيدنا ونبينا محمد عبده ورسوله عليه أفضل الصلاة وأشرف السلام آمين.

هل أحد من أولاد أبينا آدم ﷺ، غير النبيين والمرسلين من أهل البيت أو من أولاد النبى ﷺ أو من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين، أفضل من سيدنا عبد الله أبى بكر الصديق رضى الله عنه أولا؟ وإذا قلتم: لا، فهل قول الحافظ جلال الدين السيوطى فى خصائصه الصغرى، وذكر الإمام علم الدين العراقى أن فاطمة وأخاها إبراهيم أفضل من الخلفاء الأربعة باتفاق صحيح يجوز اعتقاده والإفتاء به أولا؟ وإذا قلتم: لا، فهل إفتاء بعض الموجودين بأنه لا يجوز أن يقال إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه أفضل من سيدنا إبراهيم وأخته فاطمة ولدى رسول الله ﷺ مصيب فيه أولا؟ وما هو مذهب أهل السنة؟ أبسطوا لنا الجواب، أحسن الله لكم الثواب، فإن غالب الناس، خصوصا بعض العوام، اعتقدوا أن ما أفتى به هذا

---

(١) فى الأصل: قرا.

البعض هو الصحيح، وأنتم العلماء الراسخون ذوو الترجيح، فلا تكلونا إلى التلويح . .

وصورة الجواب

الحمد لله الهادى للصواب، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، آمين. الحق، إن شاء الله تعالى، وهو الذى دلت عليه نصوص الشرع ونصوص أئمة الشرع، أن مولانا الصديق أفضل من عدا الأنبياء من الناس من غير استثناء أحد بعد ذلك مطلقا، وهذا هو الذى نعتقده وندين الله به، ولم نعلم أحدا من العلماء الذين أخذنا عنهم حكى خلاف ذلك، ولولا خوف الإطالة التى لا يحتملها المقام نقلنا نصوص الشرع ونصوص أئمته وبيناها بما يندفع به توهم القاصرين واغترار المغرورين.

وأما ما ذكر عن الجلال السيوطى نقلا عن العلم العراقى فلا يجوز التعويل عليه ولا العمل به عند من ألهم رشده وكان له إلمام بكلام الأئمة وتصرفاتهم، فإنه مجرد دعوى مخالفة لنصوص الشرع وأئمته من غير سند يعتد به، وليست دعوى الاتفاق بالهين، ولا كل من ادعاه يقبل منه ذلك، وكم دعاوى للاتفاق بل وللإجماع مردودة لا يلتفت إليها، كما لا يخفى على ممارس العلوم، ويكفى فى رد هذه الدعوى أنهم حكوا فى التفضيل بين عائشة وفاطمة رضى الله عنهما ثلاثة أقوال: تفضيل عائشة، وتفضيل فاطمة، التوقف، وممن حكى هذا الخلاف العلامة الإمام عز الدين بن جماعة [1]، فقال: اختلف فى التفضيل بين عائشة وفاطمة على مذاهب، ثالثها، وهو الأسلم: التوقف. انتهى.

ومعلوم انحطاط رتبة عائشة عن الصديق رضى الله عنهما، فإذا جرى قول بتفضيل عائشة على فاطمة رضى الله عنهما، وقول آخر بالتوقف بينهما، فكيف

(١) عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم (١٢٩٤ - ١٣٦٦م) ولى قضاء مصر، ولقب بقاضى القضاة، وهو من الحفاظ، له آثار كثيرة منها [هداية السالك إلى المذاهب الأربعة فى المناسك] و [المناسك الصغرى] و [مختصر فى السيرة النبوية] وله فى المجون [نزهة الألباب فيما لا يوجد فى كتاب].

يصح دعوى الاتفاق على تفضيل فاطمة رضى الله عنها على الخلفاء الأربعة الذين منهم وأفضلهم الصديق رضى الله عنه، ودعوى الخلاف مقدمة على دعوى الاتفاق، لأن الأول من قبيل الإثبات والثانى من قبيل النفى، والإثبات مقدم على النفى، لأن معه زيادة علم، كما تقرر ذلك فى الأصول، وبهذا ثبت رد دعوى الاتفاق بالنسبة لفاطمة رضى الله عنها، فليثبت رده بالنسبة للباقى، إذ لا قائل منا ومن هذا المدعى لذلك الاتفاق بالفضل، بل مجرد النظر إلى رده بالنسبة لفاطمة رضى الله عنها قرينة قوية تقرب من الصريح إن تكن منه على اختلال تلك الدعوى وعدم تحرى صاحبها وعدم احتياطه فى نقله.

ومما يعارضها أشد المعارضة، إن لم يكن مصرحا بردها، قول العلامة محمد بن أبى بكر الرازى[1] فى شرح يقول العبد وأعلم أنه تعالى قد فضل محمدا على جميع الأنبياء، ثم بعده أفضل هذه الأمة وأرجحهم من جميع الصحابة والآل أبو بكر الصديق رضى الله عنه، ثم قال: ومن قال: إن أحدا أفضل من أبى بكر كان معتزليا ورافضيا، ثم قال أيضا: واعلم أن بعد أبى بكر وعمر وعثمان لم يكن أحد فى أمة محمد ولا فى أصحابه وأهل بيته أفضل من علىّ رضى الله عنه. انتهى.

فتأمل قوله: فى أمة محمد ولا فى أصحابه وأهل بيته، فإنه بمنزلة الصريح، إن لم يكن صريحا، فى تفضيل على رضى الله عنه على جميع من عدا الثلاثة، من أهل البيت وغيرهم، من غير استثناء أحد منهم، وإذا كان هذا فى على رضى الله عنه فكيف بمن هو أفضل منه كالصديق رضى الله عنه. ولما استدل الكمال بن الهمام[2] على تقديم على رضى الله عنه بعد الثلاثة بقوله ما نصه: «ولما أجمعوا، أى الصحابة، على تقديم على بعدهم دل على أنه كان أفضل من بحضرته، فكان

(١) محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى (المتوفى سنة ١٢٦٨م) أحد علماء الأدب والتفسير، له آثار فى اللغة والتصوف والتفسير والبيان منها [مختار الصحاح] فى اللغة و[حدائق الحقائق] فى التصوف، و[الذهب الإبريز فى تفسير الكتاب العزيز] و [روضة الفصاحة] فى البيان، و[شرح المقامات الحريرية].

(٢) محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود (١٣٨٨-١٤٥٧م) مصرى، كان موسوعى المعارف والثقافة، ، رفيع الشأن عند رجال الدولة، ترك آثارا فكرية فى الأصول وفقه الحنفية.

خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون». ما نصه: قال العلقمي: وأفضلهن فاطمة، بل هي وأخوها إبراهيم أفضل من سائر الصحابة حتى الخلفاء الأربعة. انتهى.

وقال الرملي: أفضل نساء العالم مريم بنت عمران ثم فاطمة بنت النبي ﷺ ثم خديجة ثم عائشة، رواه الإمام أحمد والطبراني عن ابن عباس، انتهى.

وقد تقدم في جواب البكري وابن قاسم العبادي ما يخالف ذلك، وأن الصديق أفضل الناس بعد الأنبياء، على أن العزيزي قال في حديث: إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، وإن خليلي أبو بكر هو أفضل الناس على الاطلاق بعد الأنبياء. انتهى.

وقول ابن قاسم فيما تقدم: ويكفي في رد هذه الدعوى، إلى آخره، قال شيخ الإسلام في [شرح البهجة] الذي أختاره أن الأفضلية محمولة على أحوال، فعائشة أفضل من حيث العلم، وخديجة أفضل من حيث تقدمها وإعانتها له ﷺ في المهمات، وفاطمة من حيث البضعة والقرابة، ومريم من حيث الاختلاف في نبوتها وذكرها في القرآن مع الأنبياء، وآسية من حيث الاختلاف في نبوتها وإن لم تذكر مع الأنبياء. انتهى.

وأقول: إن صح التفضيل بالحيثية رجع الخلاف لفظيا، ودُفع التعارض في الأقوال، إلا أنه لا يمكن أخذه بالقبول على عمومه في جميع الحيثيات، لأنه فتح باب يعيي سده، فلو سلم قبوله في حق السيدة فاطمة وأخيها فلا يقبل في حق الإمام علي كرم الله وجهه بالنسبة إلى أبي بكر رضي الله عنه نظرا إلى حيثية القرابة القريبة أو الصهارة، على أنه يلزم من ذلك اعتبار الحيثية في حق السيدة رقية وأم كلثوم زوجتي عثمان بن عفان رضي الله عنه، كما يلزم أن الشخص الواحد يكون فاضلا من جهة ومفضولا من أخرى فيرجع إلى التساوي مع أن مطمح النظر الأفضلية واعتقادها، وأما المحبة لمثل عليّ رضي الله عنه لحيثية النسب من ذريته على اختلاف طبقاتهم فشيء آخر إذا كان معها حب أبي بكر رضي الله تعالى عنه وبقية الصحابة، ولذلك قال عليّ كرم الله وجهه: لا يجتمع حبي وبغض أبي بكر

منهم الزبير وطلحة، فثبت أنه كان أفضل الخلق بعد الثلاثة»، **بحث معه في هذا** الاستدلال تلميذه العلامة الكمال بن أبي شريف [1] فقال: لا يلزم من كونه أفضل من بحضرته كونه أفضل الخلق بعد الثلاثة ممن بحضرته ومن غاب عنه أو تقدمت وفاته على الإجماع المذكور، كأبي عبيدة بن الجراح، وحمزة، والعباس، وفاطمة، نعم إذا ضم إلى ذلك الإجماع على أنه أفضل ممن عدا الثلاثة من الخلق ثبت ذلك وثبتت أفضليته عليهم بأدلة السمع. انتهى.

فانظر قول هذا العلامة المتأخر الواسع الاطلاع: نعم، إذا ضم إلى ذلك الاجماع.. إلى آخره، مع التمثيل قبله بفاطمة رضي الله عنها تجده جازما بتفضيل علي رضي الله عنه على فاطمة رضي الله عنها، فكيف بمن هو أفضل من علي بمراتب وهو الصديق رضي الله عنه، وهذا مما يرد دعوى الاتفاق بالنسبة لفاطمة رضي الله عنها، ويقتضي رده مطلقا بالطريق الذي قدمناه.

وأما إفتاء بعض الموجودين المشار إليه فقد علم حاله وحالنا فيه مما قررناه، والرأي الضرب عنه صفحا، فإنه لا أثر له، لا سيما ولم نعلم أن أحدا من أهل الإفتاء أفتى بخلاف ماقلناه، ومنصب الإفتاء قد انحطت رتبته وتسوره كل من أراد، بل تجرأ عوام الطلبة على التكلم فيما شاؤوا بما شاؤوا وعلى إساءة الأدب في حق علماء الدين وسادات العارفين لتغافل العلماء من أولي الأمر عن أحوالهم وتشاغلهم عن البحث عن أوصافهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأما قول السائل: فإن غالب الناس، خصوصا العوام، إلى آخره فهو عجيب، فإنه يدل على أن غير العوام اعتقد ذلك أيضا، مع أنه لا يعتقد ذلك من عنده أدنى معرفة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله تعالى أعلم. [قال ذلك وكتبه الفقير أحمد بن قاسم العبادي، غفر الله ذنوبه، وستر عيوبه، وفعل ذلك بوالديه ومشايخه آمين، وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين].

قال العزيزي في [شرح الجامع الصغير] في حديث: «أفضل نساء أهل الجنة

---

(١) محمد بن محمد بن أبي بكر بن علي (١٤١٩ - ١٥٠١م) من أهل القدس، فقيه شافعي، اشتغل بالتدريس والإفتاء، وألف في الأصول والتوحيد.

وعمر، لأنها ضدان، وهما لا يجتمعان، فالمحبة المعتبرة الممدوحة هي ما كانت مع اتباع سنة المحبوب، إذ محبته من غير اتباع سنته ـ كما عليه الشيعة والرافضة من محبتهم مع مجانبتهم للسنة ـ لا تفيد مدعيها شيئا من الخير، لأنها ليست محبة حقيقية، بل هي خالية عن التأدب بآداب المحبوب، فأتباع عليّ الحقيقيون هم أهل السنة لا الشيعة، وعليه الحديث الذى أخرجه الدار قطنى مرفوعا: «يا أبا الحسن، أما أنت وشيعتك ـ (أى حزبك المولعون بحبك أكثر من غيرك) ـ فى الجنة، وإن قوما يزعمون أنهم يحبونك يصغرون الإسلام ثم يلفظونه يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية، لهم نبز، يقال لهم الرافضة، فإذا أدركتهم فقاتلهم فإنهم مشركون». قال الدار قطني: ولهذا الحديث عندنا طرق كثيرة.

سودة بنت زمعة

ثم تزوج ﷺ، بعد موت خديجة، سودة بنت زمعة بنت قيس بن عبد شمس بى عبد ود، بمكة قبل الهجرة، وكبرت عند النبى ﷺ فأراد فراقها فوهبت نوبتها من عائشة وقالت: لا رغبة لى فى الرجال، وإنما أريد أن أحشر مع أزواجك، فأمسكها، وكان يقسم لبقية أزواجه ويقسم نوبتها لعائشة، وتوفيت بعده فى شوال سنة أربع وخمسين، بالمدينة. والقسم فى حقه ﷺ غير واجب، وإنما هو من باب العدل والإنصاف.

عـائشـة

ثم تزوج ﷺ عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه، بمكة قبل الهجرة بسنتين وقيل بثلاث، وهى بنت ست أو سبع، وقالت: تزوجنى رسول الله ﷺ وإنى لألعب مع الجوارى بالْبُنَيَّات[1] فما شعرت بذلك حتى حبستنى أمى عن الخروج فوقع فى نفسى أنى قد زوجت: وما سألتها حتى أخبرتنى ابتداء. وبنى بها ﷺ فى المدينة وهى بنت تسع، ومات عنها وهى بنت ثمانى عشرة، وتوفيت سنة

ثمان وخمسين، وقيل غير ذلك، وصلى عليها أبو هريرة، ودفنت بالبقيع، ونزل في حفرتها عبد الله بن الزبير، وهو ابن أختها أسماء بنت أبي بكر، ولم يتزوج بكرا غيرها، وروى عن حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن عروة عن عائشة أنها أنشدت بيت لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب

فقالت: رحم الله لبيدا، فكيف لو رأى هذا الزمان، وقال عروة: وأنا أقول رحم الله أم المؤمنين فكيف لو رأت هذا الزمان! وقال هشام: رحم الله عروة فكيف لو رأى هذا الزمان! وقال حماد: رحمهم الله فكيف لو رأوا زماننا!

حفصة

ثم تزوج ﷺ حفصة، زوجه إياها أبوها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في شعبان على رأس ثلاثين شهرا من مهاجره ﷺ، بعد وفاة زوجها خنيس بن حذافة ابن قيس السهمي، وكان صحابيا بدريا توفي بالمدينة من جراحة أصابته ببدر وقيل بأحد، وتوفيت في شعبان سنة خمس وأربعين بالمدينة، وقد بلغت ستين سنة. وروى أن النبي ﷺ طلقها فأتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوامة قوامة، وروى أنه لما بلغ عمر طلاقها حثا على رأسه التراب. وقال: ما يعبأ الله بعمر وابنته بعد هذا! فنزل جبريل من الغد وقال للنبي ﷺ :إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر.

أم حبيبة

ثم تزوج ﷺ أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وكانت قبله تحت عبد الله بن جحش فولدت له جارية سميت حبيبة فكنيت بها، وهاجرت معه إلى أرض

---

(١) في الأصل: بالبنات.. وهو خطأ.. والبنيات- بضم الباء وفتح النون وتشديد الياء المفتوحة- معناها هنا الطرق والدرب الفرعية.

الحبشة، وأصدقها عنه النجاشى أربعمائة دينار، وروى أربعة آلاف، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شرحبيل بن حسنة، وهو الذى تولى نكاحها، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فقبل. وروى عن أم حبيبة أنها رأت فى المنام كأن زوجها عبد الله بن جحش بأسوأ حال وأرثّها فلما أصبحت أعلمها أنه قد تنصر وارتد، فثبتت على الإسلام، وأكب على الخمر فلم يزل يشربها حتى مات، ورأت فى المنام أباها يقول لها: يا أم المؤمنين، ولما بلغ أبا سفيان تزويج رسول الله ﷺ أم حبيبة ابنته قال: ذلك الفحل لا يُقْدَع[1] أنفه! وعن ابن عباس فى قول الله تعالى: ﴿**عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً**﴾ (الممتحنة: ٧) قال نزلت حين تزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبى سفيان، وقيل إن الذى ولى نكاحها عثمان بن عفان، وقيل خالد بن سعد بن العاص، وتوفيت سنة أربع وأربعين، وهى السنة التى حج فيها معاوية، وصلى عليها مروان.

أم سلمة

ثم تزوج ﷺ أم سلمة، واسمها، هند بنت أبى أمية، واسمه حذيفة، ويقال سهل ابن المغيرة، القرشية المخزومية، وأخت عمار بن ياسر لأمه، وقيل من الرضاع، تزوجها رسول الله ﷺ بعد انقضاء عدتها، أربعة أشهر وعشر، وأعرس بها فى شوال سنة أربع من الهجرة، روت عن النبى ﷺ وعن أبى سلمة بن عبد الأسد وفاطمة الزهراء، وروى عنها ابن عباس وأسامة بن زيد وخلق، وماتت فى شوال سنة تسع وخمسين، ويقال ماتت سنة اثنتين وستين، وعمرها أربع وثمانون سنة، وهى آخر أزواج النبى ﷺ موتا، وقيل ميمونة آخرهن موتا، وكانت قبله تحت أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد فولدت له سلمة وعمر ودرة، وكانت أم سلمة هاجرت مع زوجها أبى سلمة إلى أرض الحبشة، ورُمى يوم أحد بسهم فمات منه فى جمادى الآخرة سنة أربع، وكان ابنها عمر مع على بن أبى طالب يوم الجمل، وولاه البحرين، وله عقب بالمدينة.

---

(١) أى لا يكبح.

زينب بنت جحش

ثم تزوج ﷺ زينب بنت جحش بن رباب بن يعمر بن صبرة بن مرة، وهي ابنة عمته أُمَيْمَة [1] بنت عبد المطلب، وكانت قبله ﷺ عند مولاه زيد بن حارثة الكلبي، مولى النبي ﷺ، فشكاها إليه وقال: إنها سيئة الخلق، واستأمره في طلاقها، فقال له ﷺ: أمسك عليك زوجك يا زيد، وهو قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ بالإسلام ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالعتق ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ (الأحزاب: ٣٧) الآية، وكان ﷺ رآها فأعجبته فقال: سبحان الله مقلب القلوب [2]، ثم إن زيدا ضاق ذرعا بما رأى من سوء خلقها، فطلقها، فزوجها الله عز وجل من السماء نبيه ﷺ سنة ثلاث حين انقضت عدتها بغير مهر ولا تولى أمرها أحد كسائر أزواجه. ولم تلد زينب لزيد، ولما بشرت زينب بتزويج الله عز وجل نبيه ﷺ إياها ونزول الآية في ذلك جعلت على نفسها صوم شهرين شكرا لله عز وجل وأعطت من بشرها حَلْيا كان عليها، وقيل تزوجها سنة أربع، وقيل خمس من الهجرة، بالمدينة، وهي بنت خمس وثلاثين سنة، وصنعت له أم سلمة حيسا [3]، ولم يعقد له ﷺ بها غير الله، وهي التي قال الله تعالى فيها: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ (الأحزاب: ٣٧) وأولم عليها، وأطعم المساكين خبزا ولحما، وفيها نزلت آية الحجاب. وكانت كثيرة الصدقة، وصح أنها كانت تقول لأزواج النبي ﷺ: زوجكن آباؤكن وزوجني الله من فوق سبع سموات! وتوفيت في خلافة عمر رضي الله عنه، بالمدينة، سنة عشرين، وقيل عاشت ثلاثا وخمسين، ودفنت بالبقيع، وهي أول من مات من أزواجه بعده، وأول من حمل على نعش، وروى عن عائشة أنها قالت: يرحم الله زينب، لقد نالت الشرف الذى لا يبلغه شرف في الدنيا، إن الله عز وجل زوجها نبيه ﷺ

---

(١) بالتصغير [الطهطاوى].

(٢) في صدق هذه الرواية كلام كثير.. انظر ـ على وجه الخصوص ـ تفسير الإمام محمد عبده للآيات المتعلقة بهذه القضية في جـ٥ من أعماله الكاملة ص ٣٠٠ وما بعدها.

(٣) الحيس: طعام مركب من تمر وسمن وسويق (دقيق).

ونطق بذلك كتابه، وإن رسول الله ﷺ قال ونحن حوله: «أسرعكن لحوقا بى أطولكن يدا» فبشّرها بسرعة لحاقها به، وإنها زوجته فى الجنة. وعن الشعبى أن رسول الله ﷺ قال لنسائه: «أطولكن يدا أسرعكن بى لحاقا»، فكانت سودة أطولهن يدا، فلما توفيت زينب قلن: صدق رسول الله ﷺ، كانت أطولنا يدا فى الخير.

جويرية بنت الحارث

ثم تزوج ﷺ جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار بن حبيب بن عايذ (١) بن مالك ابن جذيمة (٢)، وجذيمة هو الـمُصْطَلق، من خزاعة، سبيت فى غزوة الْمُرَيْسيع، وهى غزوة بنى الـمُصْطَلق فوقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبها على تسع أواق، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه فى كتابتها، وكانت امرأة ذات ملاحة، فقال رسول الله ﷺ: أو خير من ذلك، أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك؟ فقبلت، فقضى عنها النبى ﷺ كتابتها، ثم أعتقها، وتزوجها فى سنة ست من الهجرة، وعتق أربعين من أهل بيتها، ولم تبق مُصْطَلَقيَّة عند رجل من المسلمين إلا أعتقها صاحبها، فكانت أعظم امرأة بركة على قومها، وكان اسمها برَّة فغيره النبى ﷺ وسماها جُوَيْرية لما فى بَرّة من تزكية النفس، وقد قال تعالى: ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ (النجم: ٣٢) وتوفيت بعده، بالمدينة، سنة ست وخمسين، وصلى عليها مروان بن الحكم وهو أمير المدينة، وقد بلغت سبعين سنة.

صفية بنت حيى

ثم تزوج ﷺ صفية بنت حُيَيّ بن أخطب بن سَعْيه (٣) ينتهى نسب أبيها إلى النضير (٤)، من بنى إسرائيل، من نسل هارون بن عمران، أخى موسى بن عمران،

(١) بالياء والذال. [الطهطاوى].

(٢) بالجيم الذال المعجمة. [الطهطاوى].

(٣) بفتح السين المهملة وسكون العين المعجمة. [الطهطاوى].

(٤) بفتح النون وكسر الضاد المعجمة. [الطهطاوى].

ولدها مائة نبى ومائة ملك حتى صارت إليه ﷺ .لما قدم خيبر وكانت عروسا بكنانة ابن أبى الحُقَيْق اليهودى، فرأت أن القمر وقع فى حجرها، وقيل رأت الشمس وقعت على صدرها، وقَصَّتها على أبيها أوزوجها فلطمها وقال: أتريدين ملك يثرب؟ وفى رواية: ما تمنين إلا هذا الملك الذى نزل فافتتحها وجمع السبى! فقال دحية: يا رسول الله، أعطنى جارية من السبى، فأخذها فَذُكرت لرسول الله ﷺ، فأعطاه سبعة أرؤس مكانها، وأخذها ﷺ فأعتقها، وجعل عتقها صداقها، وهو مذهب الإمام أحمد، وهو من مفردات مذهبه، وقد سبق ذلك فى (الفصل السادس) من (الباب الرابع) من (المقالة الخامسة) من (الجزء الثانى)[1].

ثم إن رسول الله ﷺ دفعها إلى أم سليم تهيئها، فلما ارتحل ﷺ بنى بها بعد أن حاضت حيضة، ولما دخل ﷺ بها بات أبو أيوب الأنصارى خالد بن زيد على باب الستارة أو بقربها، شاهرا سيفه، فلما أصبح النبى ﷺ رآه، فقال: يا أبا أيوب، مالك شهرت سيفك؟! فقال: إنها جارية حديثة عهد، وكنت قتلت أباها وزوجها فلم آمنها! فضحك، وقال له خيرا، ثم صنع ﷺ حَيْسا فى نطْع صغير. وقال الناس: لا ندرى أتزوجها أم اتخذها أم ولد؟ فلما أراد أن يركبَ حجبها، فقعدت على عجز البعير، فعرفوا أنه تزوجها.

وقتل كنانة يوم خيبر، سنة سبع من الهجرة، وكانت صفية بنت حُيَىّ صفىّ رسول الله ﷺ يوم خيبر، وكان له من كل مغنم صفى يصطفى عبد أو أمة أو سيف أو غير ذلك قبل الخمس، وتوفيت سنة خمسين، وصلى عليها سعيد بن العاص رضى الله عنه، وقيل إنها آخر أمهات المؤمنين موتا.

---

(١) انظره فى مكانه من هذا الجزء.

ميمونة بنت الحارث

ثم تزوج ﷺ بميمونة بنت الحارث بن حَزْن (١) بن بُجَيْر (٢) بن الهُزَم (٣)، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وقيل الواهبة نفسها خولة بنت حكيم، ويجوز أن تكون وهبتا أنفسهما، فلا تضاد. وكانت قبله تحت أبي رُهْم بن عبد العُزَّى، وتوفي عنها، وتزوجها رسول الله ﷺ سنة سبع، وماتت سنة ثمان وثلاثين، وقيل غير ذلك. قال الشعبي: أقام رسول الله ﷺ بمكة حين خرج لعمرة القضاء ثلاثة أيام، فبعث إليه حُوَيْطب بن عبد العزى: إن أجلك قد مضى وانقضى الشرط فاخرج من بلدنا، فقال له سَعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: كذبت البلد بلد رسول الله ﷺ وآبائه، فقال ﷺ: مهلا ياسعيد، فقال حُوَيْطب: أقسمت عليك لما خرجت، فخرج وخلف أبا رافع، وقال: الحقني بميمونة، فحمَلها على قَلُوص (٤)، فجعل أهل مكة ينفرون بها ويقولون: لا بارك الله لك، فوافى رسول الله ﷺ بسَرِف، وكان دخول رسول الله ﷺ بها بسرف (٥) وهي آخر امرأة تزوجها رسول الله، وآخر من توفي من أزواجه ﷺ رضي عنهن، وصلى عليها عبد الله بن عباس، ونزل في قبرها.

وهؤلاء التسعة، من سودة إلى ميمونة، اللاتي توفي ﷺ وهن في عصمته، خمس منهن من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة، واسمها هند، وثلاث من العرب غير قريش: ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت جحش، وجويرية بنت الحارث، ومن غير العرب: صفية بنت حيي، وإليهن أشار الحافظ أبو الحسن بن الفضل المقدسي (٦) بقوله:

---

(١) بفتح الحاء المهملة وسكون الزاي وبالنون. [الطهطاوي].

(٢) بضم الباء الموحدة وفتح الجيم وسكون الياء. [الطهطاوي].

(٣) بضم الهاء وفتح الزاي. [الطهطاوي].

(٤)القلوص، من الإبل، الطويلة القوائم، والشابة. .

(٥) وهي على أميال من مكة. [الطهطاوي].

(٦) من بين من اشتهروا بـ «المقدسي» لنسبتهم إلى القدس، نجد أن من استحق منهم رتبة «الحافظ» هو عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن مسرور المقدسي الجماعيلي الدمشقي الحنبلي (١١٤٦ - ١٢٠٣م) وله آثار في السيرة والتراجم وغيرهما. وفي أعلام الزركلي اثنا عشر علما اشتهروا بـ «والمقدسي».

توفى رسـول الله عن تسع نسـوة	إليهـن تُعـزى المكرمـات وتُنسب
فـعـائشـة مـيـمـونة وصـفـيـة	وحـفـصـة تتلوهن هنـد وزينب
جـويرية مع رملة ثم سـودة	ثلاث وست ذكـرهن مـهـذب

زينب بنت خزيمة

ثم تزوج ﷺ زينب بنت خزيمة، كانت تسمى فى الجاهلية أم المساكين، لإطعامها إياهم، وكان زواجها سنة ثلاث من الهجرة، وكانت تحت عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، فقتل يوم بدر شهيدا، فتزوجها النبى ﷺ، فلم تلبث إلا يسيرا، شهرين أو ثلاثة، وتوفيت، ودفنت بالبقيع، ولم يمت من أزواجه فى حياته إلا هى وخديجة رضى الله عنهما.

فاطمة بنت الضحاك

ثم تزوج ﷺ فاطمة بنت الضحاك الكلابية، بعد وفاة ابنته زينب، وخيرها حين نزلت آية التخيير وهى قوله تعالى: ﴿ **يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا** ﴾ (الأحزاب: ٢٨، ٢٩)[١] الآية، فاختارت الدنيا ففارقها، وكانت بعد ذلك تلتقط البعر وتقول: أنا الشقية، اخترت الدنيا!

شـراف

وتزوج ﷺ بشراف[٢] الكلبية بنت خليفة، وأخت دحية بن خليفة الكلبى، تزوجها النبى ﷺ ولم يدخل بها.

(١) الأحزاب: ٢٨، ٢٩ [وفى اسم فاطمة بنت الضحاك هذه خلاف. انظر طبقات ابن سعد جـ٨ ص ١٠٠ وما بعدها].

(٢) بفتح الشين المعجمة وتخفيف الراء والفاء. [الطهطاوى].

أسماء بنت النعمان

وتزوج ﷺ أسماء بنت النعمان بن أبي الجون[1] بن الحارث، الكندية، وطلقها قبل أن يدخل بها.

عمرة

وتزوج ﷺ عَمْرَة بنت يزيد، وطلقها ولم يدخل بها.

الغفارية

وتزوج ﷺ امرأة من غِفار، فلما نزعت ثيابها رأى بها بياضا فقال: الحقى بأهلك.

التميمية

وتزوج ﷺ بامرأة تميمية، فلما دخل عليها قالت: أعوذ بالله منك! فقال: لقد استعذت بمعيذ، الحقى بأهلك، وقيل: إن بعض نسائه علمها ذلك وقالت: إنك تحظين به عنده. هكذا قاله بعض أرباب السير، وهو بعيد، لأن المعلمة سبابة، ولا يليق بحال أزواجه السباب.

عالية

وتزوج ﷺ عالية بنت ظبيان، وقيل اسمها سبا[2] السليمية، ماتت قبل أن تصل إليه.

---

(١) بفتح الجيم وبالنون. [الطهطاوى].

(٢) بالسين المهملة وبالباء الموحدة، وقيل بالنون. [الطهطاوى].

مليكة

وتزوج ﷺ مُلَيْكة الليثية بنت كعب الليثى، فلما دخل عليها قال : هبى لى نفسك، فقالت : وهل تهب الملكة نفسها للسوقة؟! فسرحها .

* * *

وخطب ﷺ امرأة من مرة، فقال أبوها : إن بها برصا، ولم يكن بها، فرجع فإذا هى برصاء .

* * *

وخطب ﷺ امرأة من أبيها، فوصفها له، وقال : أزيدك أنها لم تمرض قط، فقال : ما لهذه عند الله من خير، فتركها، وقيل إنه تزوجها فلما قال أبوها ذلك طلقها ولم يبن بها .

خولة

وتزوج ﷺ خولة بنت الهذيل، فماتت فى طريق الشأم وقبل وصولها إليه .

أم شريك

وتزوج ﷺ بأم شريك، وفارقها ﷺ ، وفى الدخول بها خلاف .

* * *

وذكر أبو سعيد فى [شرف النبوة] أن جملة أزواج النبى ﷺ إحدى وعشرون، طلق منهن ستا، ومات عنده خمس، وتوفى عن عشر، واحدة لم يدخل بها، وكان ﷺ يقسم لتسع، وكان صداقه لنسائه خمسمائة درهم لكل واحدة، هذا أصح ما قيل، إلا صفية فإنه جعل عتقها صداقها، وأم حبيبة أصدقها عنه النجاشى أربعمائة دينار .

وأما سراريه عليه الصلاة والسلام فأربع : مارية القبطية، وريحانة بنت شمعون النسطورية، وجميلة أصابها في السبي، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش.

هؤلاء زوجاته ﷺ وسراريه، وهن أمهات المؤمنين، وكلهن فاضلات طيبات طاهرات، وكما فضل الله تعالى أصحابه على سائر الأصحاب ورفع بعضهم فوق بعض درجات كذلك فضل زوجاته على سائر الزوجات ورفعهن فوق بعض درجات، لقوله تعالى ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ (الأحزاب: ٣٢) فكما أن أفضل الصحابة أبو بكر الصديق رضي الله عنه كذلك أفضل أزواج النبي ﷺ بعد خديجة عائشة بنت الصديق رضي الله تعالى عنها، فكيف لا وهي التي نزلت براءتها في سورة النور، وقال ﷺ : «أحب النساء إليّ عائشة ومن الرجال أبوها»، وقال ﷺ : «فضل الثريد على الطعام كفضل عائشة على النساء»، ضرب المثل بالثريد لأنه أفضل طعامهم، ولأنه ركب من خبز ولحم ومرقة ولا نظير له في الأطعمة، ثم إنه جامع بين الغذاء واللذة والقوة وسهولة التناول وقلة المؤنة في المضغ وسرعة المرور في الحلقوم، والصواب أن الحاجة للخبز أعم، واللحم أفضل، وهو أشبه بجوهر البدن من كل ماعداه، وخص رسول الله ﷺ المثل بالثريد إيذانا بأن عائشة جمعت مع حسن الخلق وحسن الحديث وحلاوة المنطق وفصاحة اللهجة وجودة القريحة ورزانة الرأي ورصانة العقل التحبب إلى البعل، ومن ثم عقلت منه ما لم يعقل غيرها من نسائه، وروت عنه ما لم يرو مثلها من الرجال والنساء.

وقد خصت على نساء النبي ﷺ بعشر خصال، فيما روى عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما، قال: سمعت خالتي عائشة رضي الله تعالى عنهاتقول: خصصت على نساء النبي بعشر خصال:

تزوجني بكرا ولم يتزوج بكرا غيري.

وأسلم أبي وجدي وأمي وأم أبي وإخوتي وأخواتي.

وأنا حبيبته من النساء وأبي وزيره وحبيبه من الرجال.

ومات في صدري، وقبض في يومي، ودفن في حجرتي، وأمرني بالمقام عنده كيلا أفارقه فأنسى به ميتا كأنسي به حيا، وفي كل يوم أسلم عليه عند الصباح وأعلم

أنه يسمعني فأسمع في قلبي رد السلام، وكم ليلة رأيته في المنام وهو يقول ياعائشة أقرئي أصحابي السلام فأصبح وأبلغهم سلامه.

ومات وهو راض عني.

وورثني علمه فأنا عالمة الأمة.

ولي الهجرة والسبق إلى الإسلام، ولا أشركت بالله طرفة عين، ولا رأيت بعيني صنما منذ خلقت، ولا كتب الملك عليّ ذنبا إذا ربيت في حجر الصديق ثم انتقلت إلى حجر الصادق، وصليت إلى القبلتين.

وما نزل الوحي في لحاف غيري، ورأيت جبريل وكان رفيقي ليلة هجرتي، ورأيته على صورة دحية الكلبي وأعطيت شطر العلم.

وكان لكل امرأة من نسائه يوم وليلة ولي يومان وليلتان.

وصور الله صورتي في الجنة في سندسة خضراء، وأهداني إلى حبيبه محمد ﷺ وأمره بزواجي، فقاضيّ رب العالمين ووليي أبو بكر خاتم الصديقين وبَعْلي محمد الصادق الأمين خاتم المرسلين، وأنا أفضل أمهات المؤمنين.

وفي علم عائشة قال رسول الله: «خذوا شطر علمكم من الحُمَيْراء [(١)]». وقال عليه الصلاة ولاسلام: «عائشة عالمة هذه الأمة»، ولذلك كان أكابر الصحابة يأتون إليها ويسألونها عما أشكل عليهم من الفرائض، كما روى عن أبي موسى الأشعري قال: ما شكل علينا أصحاب رسول الله حديث قط وسألنا عنه عائشة إلا ووجدنا عندها منه علما، ولقد سئل عروة بن الزبير عن علم عائشة فقال: والله ما رأيت امرأة أعلم بالفرائض والسنن والتنزيل والتأويل من عائشة رضي الله عنها، حتى أشعار العرب وأيامهم وأنسابهم والطب والأدوية! فقلت لها: من أين لك علم الطب والأبدان؟ فقالت: من رسول الله ﷺ، كان إذا مرض يتداوى، وإذا مرضت يصف لي فأبرأ، وإذا سئل يصف للمرضى، فتعلمت منه، فقلت: ومن

(١) تصغير حمراء، ومعناها البيضاء. قال قوم: الشطر هو النصف، لأن نصف الشيء شطره، وقال قوم: الشطر هو الكل. [الطهطاوي].

أين لك معرفة بأنساب العرب وأيامها وأشعارها؟ قالت: فوالله يا ابن أختى ما سمعت أذنى شيئا فيه نفع للناس إلا حفظته ولا أنساه، وقال عروة والله ما ندمت على شيء قط أشد منى ندما على ما فاتنى من علم عائشة رضى الله تعالى عنها، وما الذى يمنعها وقد رباها أعلم العلماء وأحكم الحكماء وأفصح الفصحاء رسول الله ﷺ، وأبوها علامة قريش، المفتى فى حضرة النبى، والولد سر أبيه.

وأما فصاحتها فمما[1] رواه على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال: دخلت على عائشة رضى الله عنها بعض الأيام فرأيتها جالسة وعليها قميص مرقع، فحمدت الله تعالى بما هو أهله وثنت بالصلاة على نبيه وذكر بعض ما وهبه الله تعالى من فضله، وأثنت على أبى بكر وعمر وعثمان بما كان فيهم من العدل والإحسان، ثم حضت بالاقتداء بهم واتباع أمرهم، فوالله ماسمعت أذنى من سائر النساء أفصح منها وأنظم من كلامها ولا أرشد من رأيها، فقلت لها: أنت والله أم المؤمنين حقا، والعالمة بالله ورسوله، الناصحة المشفقة الواعظة المبلغة، دللت الناس على الحق وأمرتهم باتباعه، ونهيتهم عن حظ أنفسهم، وأنت أهل أن يسمع قولك ويطاع أمرك ويقبل نصحك، ثم قمت وخرجت واضعا يدى على كتف ذكوان، وقلت: والله يا ذكوان ما سمعت أذنى خطيبا من أكثر الصحابة أفصح من عائشة ولا أبلغ من موعظتها، فلو كانت إمْرةٌ لامرأة بعد النبوة لاستحقت عائشة الخلافة! روى عن الأحنف بن قيس أنه قال: سمعت كلام أبى بكر رضى الله عنه حتى مضى، وكلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى مضى، وكلام عثمان بن عفان رضى الله عنه حتى مضى وكلام على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه حتى مضى، ولا والله ماسمعت فيهم أبلغ من عائشة رضى الله عنها.

وأما شفقتها ورحمتها لعصاة هذه الأمة فمما ورد من ذلك ما رواه عروة بن الزبير رضى الله عنه لما نزل قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب: ٦) قالت عائشة رضى الله تعالى عنها: يا رسول الله، وأنا أم المؤمنين؟ فقال: أنت أفضل أمهات المؤمنين، فقالت: والذى بعثك بالحق رسولا إن أمهلنى ربى يوم القيامة لا دخلت الجنة حتى يدخل معى أولادى، فنزل جبريل عليه

---

(١) فى الأصل: فيما.

السلام وقال: يا رسول الله، قل لعائشة أبشرى، كل من أحبك وأحب أباك واقتدى بكما وأقرا بفضلكما فهو معكما فى الجنة.

فإن صح حديث عروة هذا كان نصا فى فضلها رضى الله تعالى عنها، وإلا، بأن كان ضعيفا جاز الاستدلال به على المناقب.

وقول الله تعالى (وأزواجه أمهاتهم) سواء من مات عنها أو ماتت وهى تحته فى تحريم نكاحهن ووجوب احترامهن لا فى نظر ولا خلوة، ولا يقال بناتهن أخوات المؤمنين ولا آباؤهن وأمهاتهن أجداد وجدات ولا إخوتهن ولا أخواتهن أخوال وخالات، كذا فى [المواهب]، وقال الرملى فى [شرح المنهاج]: تحرم زوجاته ﷺ على غيره، ولو مطلقات ومختارات فراقه، ولو قبل الدخول، ونقل فى الشرح المذكور أيضا أن الأمَة التى وطئها تحرم على غيره، واعتمده، وإنما حرمت على غيره لأنه ﷺ حى فى قبره، أو رعاية لشرفه، ولأنهن أزواجه فى الجنة، والمرأة فى الجنة مع آخر أزواجها، ولأنهن أمهات المؤمنين، كما أفاده الشمس الخطيب فى تفسيره. انتهى.

والمراد أمهات المؤمنين، الرجال دون النساء، لحديث مسروق أن امرأة قالت لعائشة رضى الله عنها: يا أمَّه، قالت: لست لك بأم، إنما أنا أم رجالكم، فالمراد بالأمومة تحريم نكاحهن على التأبيد كالأمهات.

وبالجملة، فقد ربيت السيدة عائشة فى صدر الرسول، وبلغت من الفضل والعلم كل مسؤول، وتوجت دنيا وأخرى بتاج القبول، ويأبى الله أن يجمع حبها وحب فاطمة فى قلب جهول مغلول، فهى سيدة نساء العالمين حبيبة الرسول، ولا بفضلها إلا إن كان من جهة البُضْعة النبوية فاطمة البتول، وقد أنشد الإمام العالم الكامل الشيخ كمال الدين ابن العديم[1] قاضى حلب الشهباء، رحمه الله فى مدح

---

(١) عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبى جرارة العقيلى (١١٩٢ - ١٢٦٢م) مؤرخ ومحدث وكاتب، ولد بحلب وتنقل ما بين الشام والحجاز والعراق ومصر، وتوفى بالقاهرة، وله آثار فى تاريخ حلب، وكتاب دافع به عن المعرى عنوانه [دفع الظلم والتجرى عن أبى العلاء المعرى].

الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله تعالى عنها وعن أبيها وذكر فضلها والرد على من انتقصها أو بغضها، مترجما بذلك عن قولها رضي الله عنها فقال :

ما شأن أم المؤمنين وشاني ... هُدى المحب لها وضَلَّ الشاني

إني أقول مبينا عن فضلها ... ومترجما عن قولها بلساني

يا مبغضي لا تأت قبر محمد ... البيت بيتي والمكان مكاني

إني خُصِصْتُ على نساء محمد ... بصفات بر تحتهن معاني

وسبقتهن إلى الفضائل كلها ... فالسبق سبقي والعنان عناني

قبض النبي ومات بين ترائبي ... واليوم يومي والزمان زماني

زوجي رسول الله لم أر غيره ... الله زوجني به وحباني

وأتاه جبريل الأمين بصورتي ... فأحبني المختار حين رآني

وتكلم الله العظيم بحجتي ... وبراءتي في محكم القرآن

والله عظمني وعظم حرمتي ... وعلى لسان نبيه برآني

والله في القرآن قد لعن الذي ... بعد البراءة بالقبيح رماني

إني لمحصنة الإزار بريّة ... ودليل حسن براءتي إحصاني

الله خصصني بخاتم رسله ... وأزل أهل الكفر والطغيان

وسمعت وحي الله عند محمد ... من جبرئيل ونوره يغشاني

أوحي إليه وكنت تحت ثيابه ... فحنى على بثوبه وخَبَّاني

من ذا يفاخرني وينكر صحبتي ... ومحمد في حجره رباني

وأنا ابنة الصديق صاحب أحمد ... وحبيبه في السر والإعلان

وأخذت عن أبوي دين محمد ... وهما على الإسلام مصطحبان

فالفخر فخري والخلافة في أبي ... حسبي بهذا مفخر وكفاني

وأبي أقام الدين بعد محمد ... فالنصل نصلي والسّنان سناني
نصر النبي بماله وبنفسه ... وخروجه معه من الأوطان
ثانيه في الغار الذي سد الكوى ... بردائه أكْرِم به من ثاني
وجفا الغنى حتى تخلل بالعبا ... زهدا وأظعن أيما إظعان
وتخللت معه ملائكة السما ... وأتته بشرى الله بالرضوان
وهو الذي لم يخش لومة لائم ... في قتل أهل الكفر والطغيان
قتل الذي منع الزكاة بجهله ... وأذل أهل البغي والعدوان
سبق الصحابة والقرابة بالهدى ... هو شيخهم في العدل والإحسان
والله ما سبقوا لمثل فضيلة ... مثل استباق الخيل يوم رهان
إلا وصار أبي إلى عليائها ... فمكانه منهم أجل مكان
وإذا أراد الله نصرة عبده ... من ذا يطيق له على خذلان
جمع الإله المؤمنين على أبي ... واستبدلوا من خوفهم بأمان
من حبني فليجتنب من سبّني ... إن كان صان محبتي ورعاني
وإذا محبي قد ألم ببغضي ... فكلاهما في بغضنا سيان
إني لطيبة خلقت لطيب ... ونساء أحمد أطيب النسوان
والله حببني لقب نبيه ... وإلى الصراط المستقيم هداني
إني لأم المؤمنين فمن أبى ... حبي فسوف يبوء بالخسران
والله يكرم من أراد كرامتي ... ويهين ربي من أراد هواني
والله أسأله زيادة فضله ... وحمدته شكرا لما أولاني
يا من يلوذ بأهل بيت محمد ... يرجو بذلك رحمة الرحمن
صِلْ أمهات المؤمنين ولا تحد ... عني فتسلب حلة الإيمان

ويل لعبد خان آل محمد	بعداوة الأزواج والأختان [1]
أكرم بأربعة أئمة شرعنا	فهمُ لبيت الدين كالأركان
نسجت مودتهم سدى فى لحمة	بنيانها من أثبت البنيان
رحماء بينهم صفت أخلاقهم	وخلت قلوبهم من الشنآن
الله ألف بين ود قلوبهم	فى بغض كل منافق طَعَّان
طوبى لمن والى جماعة صحبهم	فسبابهم سبب إلى الحرمان
خذها إليك فإنما هى روضة	محفوفة بالرَّوح والريحان
تجلى النفوس إذا تلاها مسلم	وعلى الروافض لعنة الرحمن
صلى الإله على النبى وآله	فبهم تتم أزاهر البستان
والتابعين وتابعيهم ما شدت	فى دوحة ورْقا [2] على الأغصان

وقد تقدم ذكر أولاده ﷺ فى (الفصل الثالث) من (الباب الأول) من (المقالة الخامسة) من (الجزء الثانى) [3].

أعمام الرسول

وأما أعمامه ﷺ فاثنا عشر، وهم أولاد عبد المطلب.

الأول: الحارث، وبه يُكنى عبد المطلب، لأنه أكبر ولده، (ومن ولده) [4] وولد ولده جماعة لهم صحبة من النبى ﷺ، منهم أبو سفيان بن الحارث، أسلم عام

(١) الأختان: معناها هنا أصول الزوجات، فمفردها ختن، وهو ما كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ وزوج الابنة.. والمراد النهى عن عداوة أزواج النبى وآبائهن، أى النهى عن عداوة عائشة وأبى بكر.

(٢) فى الأصل: ورق.. ونعتقد أن الأصح: ورقا ـ مع الترخيم، فأصلها: ورقاء ـ وهى الحمامة التى يضرب لونها إلى الخضرة، وجمعها وراق ووراقى.

(٣) أى فى هذا الجزء الرابع من أعمال الطهطاوى الكاملة.

(٤) غير موجودة فى الأصل، والسياق يقتضيها، كما فى [نهاية الأرب] جـ١٨ ص٢١٥.

الفتح، وشهد حنينا، وقال في حقه النبي ﷺ :أبو سفيان سيد فتيان الجنة، ونوفل ابن الحارث، هاجر وأسلم أيام الخندق، وله عقب، وعبد شمس بن الحارث، وسماه رسول الله ﷺ عبد الله، وقثم، مات صغيرا.

الثاني: قثم، وهو أخو الحارث لأمه.

الثالث: الزَّبير [1] ويكنى بأبي الحارث، وكان من صناديد قريش، وابنه عبد الله ابن الزبير، شهد حنينا وثبت يومئذ، واستشهد بأجنادين، وذكر أنه وجد إلى جنبه سبعة قد قتلهم وقتلوه، وكان سيدا شريفا شاعرا، وهو أول من تكلم في حِلْف الفُضُول ودعا إليه.

وكان سبب ذلك الحلف أن الرجل من العرب أو العجم كان يقدم بالتجارة، فربما ظلم بمكة، فقدم رجل من بني زبيد بسلعة فباعها من العاص بن وائل السهمي، فظلمه فيها وجحده ثمنها، فناشده بالله فلم ينفعه، فنادى ذات يوم عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتها:

يا آل فِهْر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الحي والنَّفَر

ومُحْرِمٍ أشعثٍ لم يقض عمرته ... يا آل فهر وبين الركن والحجر

وقال أيضا:

يا لقصي كيف هذا في الحرم ... وحرمة البيت وأخلاق الكرم

أظلم لا يمنع مني من ظلم

فقال الزبير: ما لهذا يترك؟ فجمع إخوته واجتمعت بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العُزَّى وبنو زهرة في دار أبي زهير عبد الله بن جُدعان القرشي، فتحالفوا لا يجدون بمكة مظلوما إلا نصروه ورفدوه وأعانوه حتى يُؤَدَّى إليه حقه وينصفه ظالمه من مظلمته وأعادوا عليه بفضول أموالهم ما بَلَّ بحر صوفة، وشهد رسول الله ﷺ ذلك الحلف، وكان يقول: ما سرني بحلف شهدته في دار عبد

(١) بفتح الزاي، بوزن: أمير [الطهطاوي].

الله بن جُدْعان حمر النَّعَم، فسمي الحلف حلف الفضول لبذلهم فضول أموالهم وتكلفهم فضولا لا تجب عليهم، وقام الزبير ومن معه بأمر الزبيدى حتى أنصفه العاص بن وائل. ومات الزبير ورسول الله ﷺ ابن بضع وثلاثين سنة، وكان للزبير بنت يقال لها أم الحكم، وكانت رضيعة النبي ﷺ.

الرابع: حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله، وأخوه من الرضاعة، وأسلم قديما، وهاجر إلى المدينة، وشهد بدرا، وقتل يوم أحد شهيدا، ولم يكن له إلا ابنه الفضل.

الخامس: العباس، أسلم وحسن إسلامه، وهاجر إلى المدينة، وكان أسن من النبي ﷺ بثلاث سنين وقيل بسنتين، وكان له من الولد الفضل، وهو أكبر ولده وبه كان يُكنى، وعبد الله، وعبيد الله، وقثم، ولهم صحبة، وكان لهم السقاية وزمزم، دفعها لأبيهم العباس النبي ﷺ يوم الفتح، توفى سنة اثنتين وثلاثين فى خلافة عثمان رضى الله عنه فى المدينة، بعد أن كف بصره.

السادس: أبو طالب، واسمه عبد مناف، وهو أخو عبد الله أبو النبي ﷺ من أمه، ومات على دين قومه، وفيه قال بعضهم:

أبا طالب ما أنت قرن لحمزة ... لأنكما فى الدين مختلفان

دعاك النبى الهاشمى فلم تجب ... وحمزة لباه بكل لسان

وعاتكة، صاحبة الرؤيا فى بدر، وأخت عبد الله وأبى طالب لأمها، وأمهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم.

ولأبى طالب من الولد: طالب، ومات على دين قومه، وعقيل، وجعفر، وعلى، وأم هانئ، وجمانة، واسم أم هانيء فاختة وقيل هند وقيل فاطمة، أسلموا، ولهم صحبة، وسائر بنى أبى طالب أمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم التى أسلمت بعد موت زوجها بمكة، وكان النبى ﷺ يدعوها إلى الإسلام فتأباه وتقول: إنى لأعلم منك صدقا وخيرا ولكننى أكره أن أموت إلا على دين عمك،

إلى أن أسلمت فى مرضها، وكان أبو طالب منيعا عزيزا قريش، وكانت قريش تطعم فإذا أطعم أبو طالب لم يطعم يومئذ أحد غيره، ومن كلامه:

منعنا الرسول رسول المليك ببيض تلألأ مثل البروق
أذُبّ وأحمى رسول المليك حماية عم عليه شفيق

السابع: أبو لهب بن عبد المطلب، واسمه عبد العُزَّى، كناه أبوه بذلك لحسن وجهه، وأولاده: عُتبة، ومُعَتِّب، أسلما يوم الفتح ولم يهاجرا من مكة، وعتيبة لم يسلم، قتله الأسد بالزرقاء من الشام بدعوة النبى ﷺ، وسبيعة، وبعضهم عد من أولاده درة، ولعلها لقب لسبيعة، ولهم صحبة، وأما عزة وخالدة فلم تثبت لهما رواية.

الثامن: عبد الكعبة، واسمه المغيرة، ولقبه حَجْل [1] وهو أخو العباس لأمه.

التاسع: الغَيْداق [2] بن عبد المطلب، لقب بذلك لجوده، وكان أكثر قريش مالا، واسمه مصعب، وقيل نوفل.

العاشر: ضرار [3] بن عبد المطلب، وهو شقيق العباس.

الحادى عشر: المُقَوّم [4]، ويُكنى أبا بكر.

وروى ابن ماجه بسنده عن على بن صالح قال: كان ولد عبد المطلب عشرة، كل واحد منهم يأكل الجَذَعة [5]. انتهى.

فهم عشرة بدون عد قثم الذى مات صغيرا، وقد ذكر الخلاف فى عددهم قلة

---

(١) بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم وباللام. وفى كتاب عبد البر تقديم الجيم على الحاء، وقد صحح عليه. [الطهطاوى]. وفى [نهاية الأرب] أن جحل هذا غير عبد الكعبة. جـ١٨ ص ٢٢١.

(٢) بفتح الغين المعجمة وسكون الياء التحتية وبالدال المهملة والقاف. [الطهطاوى].

(٣) بكسر الضاد المعجمة وتخفيف الراء الأولى [الطهطاوى].

(٤) بضم الميم وفتح القاف وتشديد الواو مفتوحة ومكسورة. [الطهطاوى]. وفى إحدى الروايات بنهاية الأرب أن المقوم هو عبد الكعبة. جـ١٨ ص٢٢١.

(٥) الجذعة هى الدابة التى دخلت سنتها الخامسة.

وكثرة فى (الفصل الأول) من (الباب الأول) من (المقالة الخامسة) من (الجزء الثانى)[1] ولم يدرك الإسلام منهم غير أربعة: أبو طالب، وأبو لهب، وحمزة، والعباس، ولم يسلم منهم غير حمزة والعباس، وفضلهما مشهور، وحبه ﷺ لهما مما ذاع عند جميع الناس.

عمات الرسول

وأما عماته ﷺ:

فأولاهن: صفية بنت عبد المطلب، شقيقة حمزة، أسلمت وهاجرت، وهى أم الزبير بن العوام، توفيت بالمدينة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهى أخت عبد الله لأبيه، وشقيقة حمزة.

الثانية: عاتكة بنت عبد المطلب، قيل إنها أسلمت، وهى صاحبة الرؤيا فى بدر، وكانت عند أبى أمية بن عبد الله بن مخزوم، ولدت له عبد الله، أسلم وله صحبة.

الثالثة: أروى، وكانت تحت عمير بن وهب بن عبد الدار بن قصى، فولدت له ولدا كان من المهاجرين، قتل شهيدا فى بدر، وقيل بأجنادين، وليس له عقب.

الرابعة: أميمة، كانت تحت جحش بن رباب بن يعمر، فولدت له عبد الله بن جحش، وزينب زوج النبى ﷺ، وحمنة، وحبيبة، كلهم له صحبة، وعبد الله بن جحش أسلم ثم تنصر ومات بالحبشة.

الخامسة: بَرَّة، كانت تحت عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم فولدت له أبا سلمة، واسمه عبد الله، وكان زوج أم سلمة قبل النبى ﷺ، وتزوج بَرَّة بعد عبد الأسد أبو رهم بن عبد العزى بن قيس فولدت له أبا سبرة بن أبى رهم.

السادسة: أم حكيم، واسمها البيضا، وكانت عند كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، فولدت له أروى بنت كريز، وهى أم عثمان بن عفان،

---

(١) أى فى هذا الجزء الرابع من أعمال الطهطاوى الكاملة.

ولم يسلم منهن بلا خلاف غير صفية وشهدت الخندق وقتلت رجلا من اليهود فضرب لها عليه الصلاة والسلام بسهم. واختلف فى إسلام أروى وعاتكة، وإلى إسلامهما ذهب أبو جعفر العقيلى وعدهما فى الصحابة.

أخوال الرسول

وأما أخواله ﷺ فأربعة:

الأول: عبد بن يغوث.

والثاني: عبيد بن يغوث، وهما من صفية زوجة وهب أبى آمنة، فهما أخواها لأبيها، ذكر ذلك الزبيدى[1] فى [أنساب قريش]، وكان معاصرا للبخارى ولم يثبت فيهما الإسلام.

والثالث: الأسود بن وهب.

والرابع: عمير بن وهب، وكانا صحابيين، وذكرهما السخاوى[2] فى [المقاصد الحسنة] وابن حجر فى [الإصابة فى معرفة الصحابة] وروى أن عميرا أتى للنبى ﷺ فبسط له رداءه، فقال: كيف أجلس على ردائك يا رسول الله؟ فقال ﷺ: نعم، إنما الخال أب، وكذلك وقع لخاله الأسود بن وهب، وكما ذكره السخاوى فى [المقاصد].

ولم يكن لعبد الله ولا لآمنة ولد غير النبى ﷺ فلذلك لم يكن له أخ ولا أخت، كذا فى [الذخائر].

---

(١) محمد بن الحسن (٩٢٨ - ٩٨٩م) أندلسى، كان أوحد عصره فى اللغة والنحو، خلف لنا [مختصر العين] و[لحن العامة] و[طبقات النحويين واللغويين] و[الأبنية] و[الواضح فى النحو] وغيرها.

(٢) أبو الخير محمد بن عبد الرحمن (١٤٢٧ - ١٤٩٧م) مؤرخ مصرى، كتب فى التاريخ والحديث.. ومن مؤلفاته الهامة فى التاريخ [الضوء اللامع لأهل القرن التاسع] و[التبر المسبوك فى ذيل السلوك] و[الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ].. الخ..

موالى الرسول

وأما مواليه ﷺ من الرجال فهم فوق الثلاثين رجلا، فمنهم زيد بن حارثة بن شرحبيل، ويقال ابن شراحيل الكلبى بن عبد العزى بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان بن عبد ود، وأم زيد هذا هى سعدى بنت ثعلبة، من طيئ، وقد كانت سعدى زارت قومها فأغارت خيل لبنى القين فى الجاهلية ومروا على أبيات بنى معن فاحتملوا زيدا وهو يومئذ غلام فوافوا به سوق عكاظ فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم، فلما تزوجها رسول الله ﷺ استوهبه منها فوهبته له فقبضه رسول الله ﷺ وأعتقه وتبناه، كما سيأتى، وكان يقال له زيد بن محمد، وكان عمره ثمان سنين، وكان حارثة أبو زيد قال فيه حين فُقد أبياتا منها.

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل	أحىّ فيُرجى أم تَخَرَّمه الأجل
فوالله ما أدرى وإن كنت سائلا	أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل
فيا ليت شعرى هل لك الدهرَ رجعةٌ	فحسبى من الدنيا رجوعك لى بَجَلْ [1]
تذكرنيه الشمس عند طلوعها	ويعرض ذكراه إذا عارض الطَّفَل [2]
وإن هبت الأرواح هيجن ذكره	فيا طول أحزانى عليه ويا وجل
سأعمل نَصَّ العيس [3] فى الأرض جاهدا	ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتى أو تأتى على منيتى	وكل امرئ فان وإن غرّه الأمل
سأوصى به عَمْرا وقيسا كليهما	وأوصى يزيدا ثم من بعده جبل

---

(١) بجل ـ بفتح الباء والجيم ـ هنا اسم فعل بمعنى: حسب.

(٢) الطفل معناه هنا: الظلمة.

(٣) العيس: الإبل، ونصها: حثها حثا شديدا.

يعني جَبَلة بن حارثة أخا زيد وكان أكبر من زيد، ويزيد كان أخا زيد لأمه، وهو يزيد بن كعب بن شراحيل.

فحج ناس من كلب فرأوا زيدا فعرفهم وعرفوه، فقال لهم: أبلغوا أهلي هذه الأبيات فإني أعلم أنهم قد جزعوا عليّ، فقال:

أحن إلى قومي وإن كنت نائيًا ... فإني قعيد البيت عند المشاعر

فكفوا عن الوجد الذي قد شجاكمُ ... ولا تعملوا في الأرض نَصَّ الأباعر

فإني بحمد الله في خير أسرة ... كرامٍ مَعَدّ كابراً بعد كابر

فانطلق الكلبيون فأعلموا أباه حارثة بمكانه وأخبروه، فخرج حارثة وكعب ابنا شراحيل وجَبَلة بن حارثة بفدائه، فقدموا مكة، فسألوا عن النبي ﷺ فقيل هو في المسجد، فدخلوا عليه فقالوا: يا ابن عبد الله وعبد المطلب وابن هاشم سيد قومه أنتم حرم الله وجيرانه، تفكون العاني، وتطعمون الضيف، جئناك في ابننا عندك فامتن علينا، وأحسن في فدائه إلينا، فقال رسول الله ﷺ :فهلا غير ذلك؟ أدعوه فأخبره فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء وإن اختارني فوالله ما أنا الذي أختار على من اختارني شيئا! فقالوا: قد زدتنا على النَّصفَ وأحسنت، فدعا رسول الله ﷺ زيدا، فقال: أتعرف هؤلاء؟ فقال: نعم، أبي وأخي وعمي! فقال: أنا من قد علمت، وقد رأيت صحبتي، فاخترني أو اخترهم، فقال: ما أنا بمختار عليك أحدا، أنت مني مكان العم والأب! فقال له أبوه: ويحك يا زيد! أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك؟! قال: نعم، قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بمختار عليه أحدا!

فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك من زيد أخرجه إلى الحجر، وقال لمن حضر: اشهدوا أن زيدا ابني، أرثه ويرثني، فطابت نفوسهم. فكان زيد يدعى زيد بن محمد حتى جاء الله عز وجل بالإسلام فزوجه رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، وهي بنت عمة رسول الله ﷺ أميمة بنت عبد المطلب، فطلقها زيد، وخلف عليها رسول الله ﷺ فتكلم المنافقون وطعنوا في ذلك، وقالوا: محمد

يحرم نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٠) ونزلت ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ (الأحزاب: ٥) فدعي يومئذ زيد بن حارثة، ونسب كل رجل تبناه رجل من قريش إلى أبيه، مثل سالم مولى أبي حذيفة، وعامر بن ربيعة، وكان زيد يسمى الحِبّ لأنه حِبّ رسول الله ﷺ، فكان يقال له الحِبّ ابن الحِبّ. وكان أسامة ابنه يدعى الردفَ، لأن رسول الله ﷺ كان يردفه كثيرا. عن عروة عن أسامة أن النبي ﷺ ركب حمارا بأكاف[1] على قطيفة فأردف أسامة خلفه، وأتى سعد بن عبادة يعوده قبل وقعة بدر، ولم يذكر في القرآن أحد من الصحابة باسمه إلا هو، كما أنه لم تذكر امرأة باسمها في القرآن إلاّ مريم، ولم يزل زيد عند رسول الله ﷺ حتى بعثه الله فصدقه وأسلم وصلى معه وشهد بدرا وأحدا والمشاهد، روى عنه ابنه أسامة وابن عباس والبراء بن عازب وغيرهم، رضي الله عنهم.

ثوبان

ومنهم ثَوبان[2] بن بُجْدُد[3]، وهو من حمير، من اليمن، وله نسب فيهم، وقيل هو من السراة[4]، وقيل هو من سعد العشيرة من مذحج، اشتراه رسول الله ﷺ وأعتقه وقال له: إن شئت أن تلحق بمن أنت منهم وإن شئت أن تكون أهل البيت، فثبت على ولاء رسول الله ﷺ ولم يزل معه سفرا وحضرا إلى أن توفي رسول الله ﷺ فخرج إلى الشام فنزل إلى الرملة وابتنى بها دارا وابتنى بمصر دارا وبحمص دارا، وتوفي بها سنة أربع وخمسين، وشهد فتح مصر.

روى عن النبي ﷺ أحاديث ذوات عدد، روى عنه شداد بن أوس وأبو إدريس

(١) الأكاف ـ بضم الهمزة ـ البرذعة.

(٢) بفتح الثاء وبالباء الموحدة. [الطهطاوي].

(٣) بضم الباء الموحدة وسكون الجيم وضم الدال المهملة. [الطهطاوي].

(٤) موضع بين مكة واليمن. [الطهطاوي].

الخولانى ومعدان بن أبى طلحة وأبو الأشعث الصنعانى وأبو الخير اليزنى وغيرهم.

روى عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: إن الله زوى لى الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وأعطانى الكنزين الأحمر والأبيض، وأن ملك أمتى سيبلغ مازوى لى منها، وإنى سألت ربى لأمتى أن لا يهلكها بسنة[1] عامة، وأن لا يسلط عليها عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربى قال لى: يا محمد إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإنى قد أعطيت لأمتك أنى لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا. وروى ثَوْبان أيضا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يوشك أن تتداعى الأمم كما تتداعى الآكلة إلى قصعتها»، وقيل يا رسول الله، أمن قلة يومئذ؟ قال: «أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله عز وجل المهابة عن صدوركم، وليقذفن الوهن فى قلوبكم»، قيل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا، وكراهة الموت». قال النبى ﷺ: «من يضمن لى خصْلة أضمن له الجنة:؟ قال ثوبان: أنا يا رسول الله، قال: «لا تسل الناس شَيئا»، فكان ثَوْبان يقع سوطه من يده فلا يقول لأحد ناولنيه حتى ينزل فيأخذه، وكانت عائشة تقول: تعهدوا ثَوْبان فإنه لا يسأل الناس شيئا.

أسامة بن زيد

ومنهم أسامة بن زيد بن حارثة، السالف الذكر، ويُكنى أبا محمد، أمه أم أيمن، حاضنة النبى ﷺ، فهو وأيمن أخوان لأم، وهو مولى رسول الله ﷺ من أبويه، روى ابن عمر أن النبى ﷺ قال: «إن أسامة بن زيد لأحب الناس إلىّ»، أو: «من أحب الناس إلىّ، وأنا أرجو أن يكون من صالحيكم فاستوصوا به خيرا»، واستعمله النبى ﷺ وهو ابن ثمانى عشرة سنة على جيش، كما سيأتى

(١) من سنت الأرض صارت سنينا، أى أكل نباتها.

بعد. وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت: عثر أسامة بأُسْكُفَّة الباب [1] فشج فى وجهه، فقال رسول الله ﷺ :أميطى عنه، فكأنى تقذرته، فجعل رسول الله ﷺ يمصه ثم يمجه، وقال: لو كان أسامة جارية لكسوته وحليته حتى يَنْفَقَه.

ولما فرض عمر بن الخطاب رضى الله عنه للناس فرض لأسامة بن زيد خمسة آلاف، وفرض لابنه عبد الله بن عمر ألفين، فقال ابن عمر: فضلت علىّ أسامة، وقد شهدت مالم يشهد؟! فقال: إن أسامة كان أحب إلى رسول الله منك، وأبوه أحب إلى رسول الله من أبيك.

ولم يبايع عليا ولا شهد معه شيئا من حروبه، وقال له أى لعلى: لو أدخلت يدك فى فم تنين لأدخلت يدى معها، ولكنك قد سمعت ما قال لى رسول الله ﷺ حين قتلت ذلك الرجل الذى شهد أن لا إله إلا الله، وهو ما أخبرنا به أبو جعفر عبيد الله بن أحمد بن على البغدادى بإسناده عن يونس بن بكير عن ابن إسحاق: حدثنى محمد بن أسامة بن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه عن جده أسامة بن زيد قال: أدركته - (يعنى كافرا كان قتل فى المسلمين فى غزاة لهم) - أنا ورجل من الأنصار فلما شهرنا عليه السلاح قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فلم نبرح عنه حتى قتلناه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه خبره، فقال: يا أسامة، من لك بلا إله إلا الله؟ فقلت: يا رسول الله، إنما قالها تعوذا من القتل! فقال: من لك، يا أسامة، بلا إله إلا الله؟ فوالذى بعثه بالحق ما زال يرددها حتى وددت أن ما مضى من إسلامى لم يكن، وأنى أسلمت يومئذ! فقلت: أعطى الله عهدا أن لا أقتل رجلا يقول لا إله إلا الله.

وروى محمد بن إسحاق عن صالح بن كيسان عن عبيد الله بن عبد الله قال رأيت أسامة بن زيد يصلى عند قبر النبى ﷺ فدعى مروان إلى جنازة ليصلى عليها فصلى عليها، ثم رجع وأسامة يصلى عند باب بيت النبى، فقال له مروان: إنما أردت أن يرى مكانك، فعل الله بك! وقال قولا قبيحا، ثم أدبر، فانصرف

---

(١) أسكفة الباب - بضم الهمزة، وسكون السين، وضم الكاف، وفتح الفاء المشددة هى خشبة الباب التى توطأ عتبته.

أسامة، وقال: يا مروان إنك آذيتني، وإنك فاحش متفحش، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يبغض الفاحش المتفحش».

وقال بعضهم: ويجوز للآمر بالمعروف والناهي عن النكر والمؤدب أن يقول لمن يخاطبه في ذلك الأمر: يا ضعيف[1] الحال، أو ياقليل النظر لنفسه، أو ياظالم نفسه، وما أشبه ذلك، بحيث لا يتجاوز إلى الكذب، ولا يكون فيه لفظ قذف، لأن الغرض به التأديب والزجر، وليكون الكلام أوقع في النفس لما روى أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلا يسوق بدنة فقال: اركبها، فقال: إنها بدنة، قال: اركبها، قال: إنها بدنة، قال في الثالثة: اركبها ويلك! ولقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لابنه عبد الرحمن، لما لم يجده عَشَّى أضيافه: يا غنثر[2]، ونهى عن انتهار الفقراء والضعفاء واليتيم والسائل ونحوهم، بل يلين لهم القول ويتواضع معهم، لقوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ** ﴾ (الضحى: ٩) ولقوله تعالى: ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الحجر: ٨٨).

وكان أسامة أسود أفطس، وتوفي آخر أيام معاوية، سنة ثمان أو تسع وخمسين، وقيل توفي بعد قتل عثمان، بالجرف، وحمل إلى المدينة.

روى عنه أبو عثمان، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وغيرهما، أخرجه ثلاثتهم.

وقد ذكر ابن منده أن النبي ﷺ أمَّر أسامة بن زيد على الجيش الذي سيَّره إلى مؤتة في علته التي توفي فيها، وهذا ليس بشيء، فإن النبي ﷺ استعمل على الجيش الذي سار إلى مؤتة أباه زيد بن حارثة، فقال إن أصيب فأميركم جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فأميركم عبد الله بن رواحة الأنصاري، فإن أصيب فسيفتح الله على يدي رجل من المسلمين، وأشار بيده إلى خالد بن الوليد، فلما التقوا مع الروم وقتل زيد أخذ الراية جعفر فقاتل حتى قطعت يده اليمنى فأخذها بشماله فقاتل

---

(١) في الأصل: ويا ضعيف.

(٢) لعله السافل والرديئ.

حتى قطعت شماله فحضن الراية وقاتل حتى قتل رضى الله عنه، ويقال إنه وجد فيما أقبل من بدنه أربعة وخمسون جرحا ما بين طعنة رمح وضربة بسيف، وقتل فى ثمانية من الهجرة، وأما أسامة فإن النبى ﷺ استعمله على جيش وأمره أن يسير إلى الشام أيضا، وفيهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فلما اشتد المرض برسول الله ﷺ أوصى أن يسير جيش أسامة فساروا بعد موته ﷺ وليست غزوة مؤتة.

أبو كبشة

ومنهم أبو كبشة، واسمه سليم، من مُوَلدى السراة، وقيل من مُوَلدى مكة، وقيل من أرض دوس، شهد بدرا وأحدًا والمشاهد كلها، وأعتقه رسول الله ﷺ، وتوفى فى أول يوم من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

أنيسة

ومنهم أنيسة، من مُوَلدى السراة، يُكنى أبا سرح، اشتراه النبى ﷺ وأعتقه، قيل قتل يوم بدر وقيل بل شهد يوم أحد، وتوفى فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، وكان يأذن [1] على النبى ﷺ.

شقران

ومنهم شُقْران، واسمه صالح، قيل ورثه ﷺ من أبيه، وقيل اشتراه من عبد الرحمن بن عوف، شهد بدرا وهو مملوك فاستعمله رسول الله ﷺ على الأسرى، ولم يسهم له فأهداه كل رجل كان له أسير فأصاب أكثر مما أصابه رجل من المقسم، وأعتقه ﷺ، وكان شُقران ممن نزل فى قبر رسول الله ﷺ.

---

(١) أى يتولى وظيفة الحاجب الذى يستأذن لمن يريد الدخول على الرسول عليه والصلاة والسلام.

ربـــاح

ومنهم رَبَاح، ويكنى أبا أيمن، وهو عبد أسود نوبى اشتراه ﷺ من وفد عبد القيس وأعتقه، وكان يأذن على رسول الله ﷺ أحيانا وهو الذى استأذن لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه على النبى لما اعتزل نساءه فى المشربة [1]، ثم صيره ﷺ مكان يسار حتى قتل فكان يقوم بأمر لقاحه.

يســـار

ومنهم يسار الراعى النوبى، أصابه النبى ﷺ فى بعض غزواته وأعتقه، وجعله فى لقاحه يرعاها، فأغار عليها قوم من عرينة وأخذوا يسارا وقطعوا يديه ورجليه وغرزوا الشوك فى عينيه ولسانه، واستاقوا اللقاح، وأدخل المدينة ميتا، فقام بأمر اللقاح بعده رباح، كما سلف.

أبو رافــع

ومنهم أبو رافع، واسمه أسلم، كان عبدا قبطيا للعباس بن عبد المطلب، فلما بشر رسول الله ﷺ بإظهار العباس إسلامه أعتقه وزوّجه سلمى مولاته ﷺ وولدت له عبيد الله، ووجه رسول الله ﷺ أبا رافع مع زيد بن حارثة من المدينة لحمل عياله من مكة، وبشر رسول الله ﷺ بولادة إبراهيم فوهب له غلاما، وكانت سلمى زوجته قابلة إبراهيم، وشهدت خيبر مع زوجها، وكان عبيد الله ابنه خازنا لعلى بن أبى طالب أو كاتبا له أيام خلافته، وشهد أبو رافع أحدًا والخندق وما بعدهما من المشاهد، ولم يشهد بدرا لأنه كان بمكة كما تدل عليه قصته مع أبى لهب الآتية:

---

(١) بفتح الميم، هى الغرفة. [الطهطاوى].

قال أبو رافع: كنت غلاما للعباس، فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه، فلما جاء مصاب أهل بدر وجدنا في أنفسنا عزة وقوة، وكنت ضعيفا أعمل الأقداح وأنحتها في حجرة زمزم، فبينا أنا أنحت أقداحي وعندي أم الفضل جالسة، وقد سررنا بما جاءنا من خبر أهل بدر، أقبل أبو لهب فجلس، وجاء أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقال أبو لهب: إليّ يا بن أخي، ما خبر الناس؟ فقال: ما هو إلا أن لقيناهم حتى منحناهم أكتافنا، ولقينا رجالا على خيل بُلق فقلت: تلك الملائكة! فلطمني أبو لهب لطمة شديدة، وثاورته[1] فضرب بي الأرض، فقالت له أم الفضل: أراك تستضعفه أن غاب عنه سيده! وأخذت شيئا فضربته به فشجته، فقام ذليلا، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله عز وجل بالعدسة[2] فقتله، وقد ترك حتى أنتن وتباعد عنه بنوه فبقي ثلاثا لا تقرب جنازته ولا يدفن، فلما خافوا السُّبَّة دفعوه بعود في حفرته، ودفن بأعلى مكة، وقذفوا عليه الحجارة من بُعد حتى واروه بها، كما سبق في (الفصل الأول) من (الباب الأول) من (المقالة الخامسة)[3].

وتوفي أبو رافع قبل عثمان، وقيل في خلافة عليّ رضي الله عنهم.

* * *

وعلى ذكر ذلك فقد روى عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان الوباء بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه». رواه الشيخان. وقد سبق التنويه إلى ذلك في (الفصل الأول) من (الباب الأول) من (المقالة الخامسة)[4] وفي نهيه ﷺ عن الدخول في الأرض التي حل بها الطاعون فائدتان:

---

(١) أي واثبته.

(٢) والعدسة: بثر كانت تخرج على الناس، تزعم العرب أنها تعدى، شبيهة بالطاعون. [الطهطاوى].

(٣) انظره في مكانه من هذا الجزء.

(٤) انظره في هذا الجزء الرابع من هذه الأعمال.

الأولى : لئلا يستنشقوا الهواء الذى قد عفن وفسد فيمرضون .

الثانية : لئلا يجاوروا المرضى الذين قد مرضوا بذلك فتتضاعف عليهم البلية لوجود الأمرين .

وقد روى عن النبى ﷺ قال : «إن من القَرَف [(١)] التَّلَف» وقوله : «فلا تدخلوا عليه» إثبات الحذر والنهى عن التعرض للتلف، وفى قوله : «فلا تخرجوا فرارا منه»، إثبات التوكل والتسليم لأمر الله، فأحد الأمرين تأديب وتعليم والآخر تفويض وتسليم . وقال الحافظ الجوزى : إنما نهى عن الخروج لأن الأصحَّاء إذا خرجوا هلكت المرضى فلا يبقى من يقوم بحالهم، فخروجهم لا يقطع بنجاتهم، وهو قاطع بهلاك من بقى، لقوله ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»، وقال ﷺ : «الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه» .

والوباء مرض عام يفضى إلى الموت غالبا، وسببه فساد جوهر الهواء الذى هو مادة الروح وسبب لصلاحه، ولذلك لا يمكن حياة الإنسان بدون استنشاق، ومتى عدم الحيوان استنشاق الهواء وتنسمه مات مختنقا . والوباء مضر بالأبدان مزيل لصحتها معرض لهلاكها، فلذلك نهاهم النبى ﷺ عن الدخول بأرض حل بها الوباء، فيحرم دخولها خوفا عليهم وتعليما لهم . وقال بعضهم : فى نهيه عن الخروج منها معنيان :

أحدهما : [(٢)] ثقة بالله وتوكلا عليه، فيحرم ذلك بقصد الفرار، قال الشيخ ابن سينا [(٣)] : يجب على كل محترز من الوباء أن يُخرج عن بدنه الرطوبات الفضلية، ويقلل الغذاء، ويميل إلى التدبير المجفف من كل وجه، ويجتنب الرياضة والحمام، فإنهما مما يجب أن يحذرا، لأن البدن لا يخلو غالبا من فضل ردىء كان فيه فيثيراه، وذلك يجلب بلية عظيمة، بل يجب عند وقوع الوباء السكون والراحة

---

(١) والقرف : مداناة الوباء ومداناة المرض . [الطهطاوى] .

(٢) نود التنبيه إلى أن المؤلف لم يذكر المعنى الثانى، فلقد استطرد دون أن يذكره، ولعله قد نسى بسبب الاستطراد؟!

(٣) أبو على الحسين بن عبد الله (٩٨٠ - ١٠٣٦م) فيلسوف وطبيب، لقب بالشيخ الرئيس، له آثار كثيرة، وتراثه الفلسفى قد جعل منه أحد العقول الفذة فى الفكر الإنسانى .

وتسكين هيجان الأخلاط، إذا لا يمكن الخروج من أرض الوباء إلا بالحركة، وهي مضرة.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ خرج إلى الشأم حتى إذا كان بسَرْغ [1] لقيه أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء والطاعون قد وقع بالشأم، قال ابن عباس قال لي عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعوتهم، فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشأم، فاختلفوا، فقال بعضهم: خرجت لأمر فلا نرى أن ترجع عنه، وقال آخرون: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ فلا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء والطاعون، فقال عمر: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوا، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، فقال: ادع لي من ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوا له، فلم يختلف عليه منهم اثنان، قالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا نرى أن نقدم على هذا الوباء والطاعون، فأذَّن عمر في الناس أني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه. قال أبو عبيدة بن الجراح: يا أمير المؤمنين، أفرارا من قدر الله؟ فقال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله! أرأيت لو كان لك إبل فهبطت واديا له عُدوتان إحدهما خصبة والأخرى جدبة، ألست إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟! قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيبا في بعض حاجته، فقال: إن عندي في هذا علما، وذكر الحديث المتقدم ذكره، فحمد الله ثم انصرف.

فعلمنا من هذه الأحاديث حكم النهي عن دخول بلد بها الطاعون والخروج منها بقصد الفرار منه، وعن أبي نعيم أن النبي ﷺ قال: «الطاعون شهادة لأمتي ووخذ أعدائكم من الجن غدة كغدة الإبل تخرج في الآباط والمرافق، من مات فيه مات شهيدا، ومن قام فيه كان كالمرابط في سبيل الله، ومن فرّ منه كان كالفار من الزحف. رواه الطبراني. وقال صاحب [2] [الصحاح]: الطاعون، من حيث

(١) أول الحجاز وآخر الشام.

(٢) هو الجوهري، إسماعيل بن حماد (المتوفى سنة ١٠٠٨م) اللغوي الشهير، والكتاب المشار إليه هو [تاج اللغة وصحاح العربية].

اللغة: الموت بالوباء ومن حيث الطب: ورم رديء قتّال يخرج مع تلهب شديد مؤذ ويصير ما حوله، في الأكثر، أسود وأخضر وغير ذلك، ويؤول أمره إلى التقرح سريعا.

وقال بعضهم: المسك عظيم فى دفع ضرر الطاعون والوباء، شربا وشما، وركوب البحر، وكذلك العنبر يدفع ضرر الطاعون والوباء، بخورا وشما، وهو أفخر انواع الطيب بعد المسك، وألوانه مختلفة، فمنه الأبيض والأشهب والأحمر والأصفر والأخضر والأزرق والأسود، وأجوده الأشهب القوى الخفيف الدسم، ثم الأزرق، ثم الأصفر، وارداه الأسود يغش بالشمع واللادن [1] وغيره، ويقاوم الهواء المحدث للوباء إذا أدمن شمه والتبخر به، وشربه يدفع ضرر الطاعون والوباء، وأكله ينفع من استطلاق البطن، وينفع من الزكام بخورا وطلاء.

وكذلك العود عظيم فى دفع ضرر الطاعون والوباء بإذن الله تعالى، شربا وبخورا، والعود أنواع، أفضلها الهندى ثم الصينى، وأجوده الأسود النقى من البياض، الصلب الرزين، الدسم، المر، الأرسب فى الماء، والطافى رديء.

وقال الشعرانى [2]: اللبان عظيم فى دفع ضرر الطاعون والوباء، بخورا، يسن تبخير المنزل به فيدفع ضرر الوباء والطاعون وريح الهواء، لما روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: « بخروا بيوتكم باللبان».

وقال الشيخ ابن سينا: والطواعين تكثر فى الوباء وفى البلاد الوبائية، ولما كان ذلك كذلك كانوا يعبرون بالطاعون عن الوباء لشهرة هذا الاسم عندهم ولملازمته للوباء فى أكثر الأحوال. قال بعضهم: الوباء: الطاعون، وقيل هو كل مرض عام. وقال العلامة القاضى عياض: أصل الطاعون القروح الخارجة فى الجسد، والوباء

---

(١) فى الأصل: اللاذن، بالذال المعجمة.

(٢) عبد الوهاب الشعرانى (١٤٩١ - ١٥٦٥م) مصرى صوفى مشهور ينتمى إلى الطريقة الصوفية الشاذلية، كان نساجا، ألف فى الفقه والتصوف وعلوم القرآن والعقائد والنحو والطب وطبقات الرجال. ومن آثاره [البحر المورود] و[لطائف المنن] و[طبقات الصوفية] و[الجوهر المصون والسر المرقوم]..

عموم الأمراض، فسميت طاعونا لشبهها فى الهلاك بذلك، وإلا فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعونا. والصحيح الذى قاله المحققون فى الفرق بينهما: أن الوباء مرض لكثير من الناس فى جهة الأرض دون سائر الجهات، ويكون مخالفا للمعتاد فى الكثرة وغيرها، ويكون مرضهم نوعا واحدا بخلاف سائر الأوقات.

وقد روى عن جماعة من السلف أنهم فروا من الطاعون، منهم أبو موسى، ومسروق، والأسود بن هلال. وقال عمرو بن العاص: فروا عن هذا الرجز فى الشعاب والأودية ورؤوس الجبال. وذكره الإمام النووى فى [شرح مسلم].

(تنبيه): قال أبو الحسن المدائنى[1]: كانت الطواعين المشهورة العظام فى الإسلام ستة:

الأول: طاعون شيرويه بالمدائن فى عهد رسول الله ﷺ سنة ست من الهجرة.

الثانى: طاعون عمواس فى زمن عمر بن الخطاب، كان بالشأم، ومات فيه خمسة وعشرون ألفا.

الثالث: طاعون فى زمن خلافة عبد الله بن الزبير، فى شوال سنة تسع وستين، ومات فيه بالطاعون فى ثلاثة أيام كل يوم سبعون الفا، ومات فيه لأنس بن مالك ثلاثة وثمانون ولدا، ومات فيه لعبد الرحمن بن عوف أربعون ولدا.

الرابع: طاعون الفتيان، فى شوال سنة سبع وثمانين، بالبصرة وواسط والشام والكوفة، ويقال له طاعون الأشراف لما مات فيه من الأشراف.

الخامس: طاعون سنة إحدى وثلاثين ومائة فى رجب، واشتد فى رمضان، وكان يخرج فى كل يوم ألف، ثم خف فى شوال.

السادس: طاعون كان بالكوفة، سنة خمس، وفيه توفى المغيرة بن شعبة.

ولم يقع الطاعون بالمدينة المنورة ولا مكة قط، قاله الإمام النووى. وعن أبى

---

(١) على بن محمد بن عبد الله (٧٥٢- ٨٤٠م) راوية ومؤرخ، بصرى سكن المدائن، ثم بغداد حيث توفى بها، ألف فى السيرة والتاريخ والمغازى والوقائع والفتوح والخلفاء والشعراء والنساء..

هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إذا طلع النجم ارتفعت العاهة عن كل بلد» ، وأراد بالنجم الثريا ، قال ابن عباس : يعني الثريا ، والعرب تسمى الثريا نجما ، والمراد بالعاهة الآفة التي تلحق الزرع والثمار فى فصل الشتاء وصدر فصل الربيع ، فيحصل الأمن عليها عند طلوع الثريا فى الوقت المذكور ، وقال ابن عمر : إذا طلعت الثريا فقد أمن ، يعني صاحب الزرع والثمار ، ولذلك نهى النبى ﷺ عن بيع الثمرة وشرائها قبل أن يبدو صلاحها . انتهى .

ومن شعر سيدى عبد العزيز الديرينى :

وصُغِّرت ثُرَيَّة لِكَثْرَة والخصب فى طلوعها واليُسْرَة

* * *

أبو مويهبة

[رجع إلى ذكر مواليه] .

ومنهم أبو مويهبة ، وهو من مُولدى مزينة ، اشتراه رسول الله ﷺ وأعتقه ، فشهد المُرَيْسيع ، وكان يقود لعائشة رضى الله تعالى عنها بعيرها .

فضالة

ومنهم فضالة اليمانى ، نزل الشام ومات بها .

* * *

رافع

ومنهم رافع ، وهو رويفع ، كان لسعيد بن العاص فابتاعه رسول الله ﷺ وأعتقه . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قلنا : يا نبى الله ، من خير الناس؟

قال : ذو القلب المخموم واللسان الصادق، قلنا : قد عرفنا اللسان الصادق، فما القلب المخموم؟ قال : هو التقى النقى الذى لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد، قلنا : يا رسول الله، فمن على أثره؟ قال : الذى يشنأ الدنيا ويحب الآخرة، قلنا : ما نعرف هذا فينا إلا أن يكون رافعا، مولى رسول الله ﷺ ، فمن على أثره؟ قال : مؤمن له خلق حسن. ويقال : إن أولاد سعيد بن العاص لما ورثوه عن أبيهم أعتقه بعضهم وأمسكه بعضهم، فجاء رافع إلى النبى ﷺ يستعينه، فَوُهب له، وكان يقول : أنا مولى النبى ﷺ .وبعض أرباب السير يخلط أبا رافع المسمَى أسلم برافع فيقول : إن رافعا وأبا رافع هما شخص واحد، ويجعل رويفعا من سبى هوازن، وأن النبى ﷺ أعتقه.

مدعــم

ومنهم مــدعم[1]، هو عــبــد أســود لرفــاعــة بن زيد بن وهب الجــذامى ثم الضُّبَيْبى[2]، أهداه له رفاعة، وهو الذى قتل بوادى القرى بسهم أصابه فقال الناس : هنيئا له الجنة، فقال رسول الله ﷺ :كلا، والذى نفسى بيده إن الشملة التى أخذها يوم خيبر من الغنائم لم تصبها المقاسم تشتعل عليه نارا، وكنيته أبو سلام.

كركــرة

ومنهم كَرْكرة[3]، هو عبد نوبى أهداه له هوذة بن على الحنفى فأعتقه، وقيل مات وهو مملوكَ، وكان على ثقل رسول الله ﷺ فلما مات قال ﷺ : هو فى النار، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غَلَّها.

---

(١) بكسر الميم وسكون الدال المهملة، وفتح العين المهملة. [الطهطاوى].

(٢) بضم الضاد المعجمة، وفتح الباء الموحدة، بصيغة التصغير. [الطهطاوى].

(٣) بفتح الكاف الأولى وكسرها، والثانية مكسورة فيهما. [الطهطاوى].

زيــــد

ومنهم زيد، جد هلال بن يسار بن زيد بن عبيد بن طهمان.

مأبـــور

ومنهم مأبور القبطي وهو عبد خصي أهداه له المقوقس.

واقـــدة

ومنهم واقدة، أبو واقد، وجعلها ابن سيد الناس اثنين.

هشـــام

ومنهم هشام وهو الذي روى عن النبي ﷺ حديث: أن رجلا أتاه فقال يارسول الله: إن لي امرأة لا تدفع كف لامس! فقال: طلقها.

أبو ضمرة

ومنهم أبو ضمرة، ويقال له أبو ضميرة، وهو من العرب، مما أفاء الله عز وجل على رسوله، فأعتقه ثم خيره أن يقيم معه أو يلحق بقومه فاختار المقام، فكتب رسول الله ﷺ له ولأهل بيته كتابا: أن يحفظهم كل من لقيهم من المسلمين، فذكروا أن لصوصا لقوا قوما منهم فأخرجوا كتاب رسول الله ﷺ فلم يتعرضوا لهم. ووفد حسين بن عبد الله بن ضميرة بن أبي ضمرة على المهدي، أمير المؤمنين، وجاء معه بكتاب رسول الله ﷺ الذي كتبه له فأخذ المهدي الكتاب وقبله ووضعه على عينيه وأعطى حسينا خمسمائة دينار.

سفينة

ومنهم سفينة، أعتقه رسول الله ﷺ، وقيل كان عبدا لأم سلمة فأعتقته وشرطت عليه أن يخدم النبي ﷺ حياته، فقال: ولو لم تشترطي عليّ ما فارقته، وكان اسمه مفلح، وقيل كان اسمه رباحا، وقيل مهران، فسماه النبي ﷺ سفينة لأنه كان معهم في سَفْرة فكان كل من أعيا ألقى عليه متاعه ترسا أو سيفا، فمر به النبي ﷺ فقال أنت سفينة! وروى عنه أنه قال: كنا مع النبي ﷺ فقال: ابسط كساءك، وقال للقوم: اطرحوا أمتعتكم فيه، ثم قال: احمل، إنما أنت سفينة! وقال: فلو كان وقر بعير أو بعيرين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة لحملته. وهو أسود من مُولدي الأعراب.

أبو هند

ومنهم أبو هند، مولى فروة بن عمرو البياضي، ابتاعه النبي ﷺ عند منصرفه من الحديبية وأعتقه، وكان حجام رسول الله ﷺ فقال فيه النبي ﷺ :يا بني بياضة، زوجوا أبا هند وتزوجوا إليه، ففعلوا، ولم يشهد بدرا، وشهد المشاهد كلها. قيل اسمه عبد الله، وقيل يسار.

أنجشة

ومنهم أَنْجَشة [1]، كان عبدا أسود، وقيل حبشيا، يكنى أبا مارية، وكان حادي النبي ﷺ، وكان حسن الصوت بالحداء، فحدا بأزواج النبي ﷺ في حَجَّة الوداع فأسرعت الإبل، فقال النبي ﷺ : «ويحك يا أنجشة! رفقا بالقوارير» [2]

---

(١) بفتح الهمزة، وسكون النون، وفتح الجيم، وبالشين المعجمة. [الطهطاوي].

(٢) والقوارير: أواني الزجاج، الواحدة قارورة، شبههن لضعف قلوبهن بقوارير الزجاج. [الطهطاوي].

ويروى أن أنجشة كان يحدو بالنساء وكان البراء بن مالك يحدو بالرجال . وممن حدا بمشهد من رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة، فقد روى النسائى عن عبد الله بن رواحة أنه كان مع رسول الله ﷺ فى مسير له فقال له: يا ابن رواحة، انزل فحرك الركاب، فقال: يا رسول الله، قد تركت ذلك، فقال عمر رضى الله عنه: اسمع وأطع، فرمى بنفسه وقال:

لاهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

والحَدْو والحُدَاء سوق الإبل والغناء لها، قال الشاعر:

فغنها فهى لك الفداء إن غناء الإبل الحُداء

أبو لبابة

ومن مواليه أبو لبابة، واسمه زيد بن المنذر، من بنى قريظة، كان لبعض عماته فوهبته له فأعتقه، وقيل ابتاعه ﷺ وهو مكاتب فأعتقه.

وهؤلاء الموالى المشهورون، وله ﷺ غيرهم، وقيل يبلغون أربعين مولى.

مولياته

وأما مولياته ﷺ:

فسلمى، أم رافع، ويقال كانت مولاة لصفية عمته، وهى زوجة أبى رافع وداية فاطمة الزهراء وقابلة إبراهيم ابن النبى ﷺ.

وأم أيمن، واسمها بركة الحبشية، ورثها النبى ﷺ من أبيه، وهى أم أسامة بن زيد، كانت وصيفة لعبد الله بن المطلب، وقيل كانت لأم النبى عليه السلام، وكانت من الحبشة، فلما ولدت آمنة رسول الله ﷺ بعدما توفى أبوه كانت أم

أيمن تحضنه حتى كبر فأعتقها حين[1] تزوج خديجة، وزوجها عبيدة بن زيد الحارث الحبشي فولدت له أيمن، وكنيت به، واستشهد أيمن يوم حنين، ثم تزوجها زيد بن حارثة بعد النبوة فولدت له أسامة، وقيل أعتقها أبو النبي عليه السلام، وهي التي شربت بول النبي ﷺ . وفي [الشفاء] روى أن أم أيمن كانت تخدم النبي ﷺ وكان له قدح من عيدان يوضع تحت سريره يبول فيه من الليل، فبال فيه ليلة ثم افتقده فلم يجد فيه شيئا فسأل بركة عنه فقالت: قمت وأنا عطشانة فشربته وأنا لا أعلم، فقال: لن تشتكي وجع بطنك أبدا. وللترمذى لن تلج النار بطنك، وصححه الدارقطني، وحمله الأكثرون على التداوى، وأخرج حسن بن سفيان في مسنده والحاكم والدارقطني وأبو نعيم والطبراني من حديث أبي مالك النخعي يبلغه إلى أم أيمن أنها قالت: قام رسول الله ﷺ من الليل إلى فُخَّارة في جانب البيت فبال فيها، فقمت من الليل وأنا عطشانة فشربت ما فيها وأنا لا أشعر، فلما أصبح النبي ﷺ قال: يا أم أيمن، قومى فأهريقى ما في تلك الفخارة، قلت: قد والله شربت ما فيها، قالت: فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: أما والله لا يَجْعَنّ بطنك أبدا. وعن ابن جريج قال أخبرت أن النبي ﷺ كان يبول في قدح من عيدان ثم يوضع تحت سريره، فجاء فإذا القدح ليس فيه شيء، فقال لامرأة يقال لها بركة كانت تخدم أم حبيبة جاءت معها من أرض الحبشة: أين البول الذى كان في القدح، قالت شربته، قال[2]: صحة يا أم يوسف! فما مرضت قط حتى كان مرضها الذى ماتت فيه، وقال النبي ﷺ :أم أيمن أمي بعد أمي، وكان يزورها، ثم أبو بكر، ثم عمر.

وقال الواقدى: حضرت أم أيمن أحُدا فكانت تسقى الماء وتداوى الجرحى، وشهدت خيبر، وتوفيت في أول خلافة عثمان. كذا في [الصفوة].

قال ابن الجوزى: مواليه ثلاثة وأربعون، وإماؤه إحدى عشرة. كذا في [المواهب اللدنية]. ولم يكونوا في وقت واحد، بل كان كل بعض في وقت، ويأتى ذلك

---

(١) في الأصل: حتى.
(٢) في الأصل: قالت.

موضحا فى (الفصل الأول) من (الباب الأول) الآتى فى خدمه وحشمه وأرباب الوظائف الدينية التى كانت إذ ذاك فى الخُطّة الإسلامية، واقتدى به فيها الخلفاء الراشدون، وتوسع فيها الملوك والسلاطين المقتدون.

قال صاحب كتاب [تخريج الدلالات السمعية] ما ملخصه: إن من لم ترسخ في المعارف قدمه، وليس لديه من أدوات الطالب إلا يداه وقلمه، يحسب كثيرا من الأعمال السلطانية مبتدعا لا متّبعا، وأن العامل على خطة دنيوية ليس عاملا فى عمالة سنية، ويظن أن عمالته دنية، فلهذا جمعت ما علمته من تلك العمالات فى كتاب يوضح نشرها، ويبين الأمر لمن جهل أمرها فيعرف [1] الجاهل، وينصف المتحامل، فذكرت فى كل عمالة من ولاه عليها الرسول من الصحابة، ليعلم ذلك من يليها الآن، فيشكر الله على أن استعمله فى عمل شرعى كان يتولاه من أصحاب رسول الله ﷺ من صلح له وأقامه المولى فى ذلك مقامه، فيجتهد فى إقامة الحق فيه بما يوجبه الشرع ويقتضيه، فيكون قد أحيا سُنَّة وأحرز حسنه. انتهى.

ومن هذا الكتاب استخرجت الزبد اللائقة، والخلاصات الفائقة، الآتية فى أبوابها، النافعة لطلابها، حيث لم يف بذلك غالب مؤلفى كتب السير، بل جميعهم، فبانضمام هذه العمالات والوظائف السياسية الشرعية إلى ما حوته هذه السيرة من ما جرياته ﷺ ابتداء وانتهاء تفوز بفضيلة السبق، وترضى بعونه تعالى الخالق والخلق.

(١) فى الأصل: فيعترف.

الباب السادس

[في الوظائف والعمالات البلدية، خصوصية وعمومية، أهلية داخلية وجهادية، التي هي عبارة عن نظام السلطنة الإسلامية، وما يتعلق بها من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية في عهد رسول الله، ﷺ]

وفيه فصول]

الفصل الأول

(في خدمه الخاصة به صلى الله عليه وسلم)

تولى خدمة رسول الله ﷺ أبو حمزة أنس بن مالك الأنصارى، وهند، وأسماء ابنا حارثة الأسلميان، وربيعة بن كعب الأسلمى.

وقد روى عن أنس بن مالك قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى: أف [1] وروى البخارى عن ابن شهاب قال: أخبرنى أنس بن مالك أنه كان ابن عشر سنين مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فخدمته عشر سنين، وتوفى النبى ﷺ وأنا ابن عشرين سنة.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: ما كنت أرى أسماء وهند ابنى حارثة إلا خادمين لرسول الله ﷺ من طول ملازمتهما بابه لحوائجه.

وأما ربيعة بن كعب الأسلمى فكان من أهل الصُّفَّة، وكان يلزم رسول الله ﷺ فى الحضر والسفر ويبيت على بيته لحوائجه، وهو الذى سأل رسول الله ﷺ مرافقته فى الجنة فقال له ﷺ: أعنى على نفسك بكثرة السجود، وقال عبد الله ابن المبارك فى معنى ذلك:

---

(١) بضم الهمزة، وفتح الفاء مشددة وكسرها بلا تنوين. وهو اسم فعل بمعنى أتضجر وأتكره، ويقال لكل ما يتضجر ويستثقل منه: أف له، ويستوى فيه الواحد والتثنية والجمع والمذكر والمؤنث. قال تعالى: (ولا تقل لهما أف). [الطهطاوى].

مـــا بال ديـنك ترضى أن تـدنســـه وثوبك الدهر مـغسـول من الدنس

ترجـو النجاة ولم تسلك طريقـتهـا إن الســفـيـنة لا تجـرى عـلى يبس

وأما عقبة بن عامر بن عبس بن عمرو الجهنى فكان صاحب بغلته، يقود به فى الأسفار، وكان عالما بكتاب الله وبالفرائض فصيحا شاعرا، ولى مصر لمعاوية سنة أربع وأربعين ثم صرفه بمسلمة بن مخلد، وتوفى بها سنة ثمان وخمسين.

ومن خدمه ﷺ من كان له خدمة مخصوصة، فمنهم صاحب الوسادة التى تولاها فى عهده ﷺ، وهى المخدة، فقد روى البخارى قال: ذهب علقمة إلى الشام فأتى إلى المسجد فصلى ركعتين، فقال: اللهم ارزقنى جليسا صالحا، فجلس إلى أبى الدرداء فقال: ممن أنت؟ فقال: من أهل الكوفة، فقال: أليس فيكم صاحب السر الذى كان لا يعلمه غيره؟ يعنى حذيفة، أو ليس فيكم الذى أجاره الله على لسان رسوله من الشيطان؟ يعنى عمارا، أو ليس فيكم صاحب السواك والوساد؟ يعنى ابن مسعود، كيف كان عبد الله يقرأ: ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ (الليل: ١)؟ قال (والذكر والأنثى) فقال: ما زال هؤلاء حتى كادوا يشككوننى، أى فى قراءتهما بالجر، وقد سمعتهما من رسول الله ﷺ بالنصب فى قراءته (وما خلق الذكرَ والأنثى) وقراءة ابن مسعود (والذى خلق الذكر والأنثى) بالجر، ووجهه أن يكون معنى وما خلق أى وما خلقه الله تعالى، أى ومخلوق الله، ثم يجعل الذكر والأنثى بدلا منه، أى ومخلوق الله الذكرِ والأنثى.

وروى مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: كان وساد رسول الله ﷺ الذى يتكئ عليه من أدم حشوه ليف، وعن عمر رضى الله عنه أنه استؤذن له فى الدخول على النبى ﷺ فدخل فإذا هو على حصير قد أثرت فى جنبه وإذا تحت رأسه مرْفَقة (١) من أدم حشوها ليف، وهذا لكمال زهده ﷺ، وكان ﷺ يدنى الوسادَة للداخل.

وقد اتخذ الخلفاء الوسادة للاتكاء ليها، فقد روى أنه دخل سلمان على عمر

---

(١) والمرفقة: المخدة. [الطهطاوى].

وهو متكئ على وسادة فألقاها له فقال سلمان : الله أكبر ، صدق الله ورسوله ، فقال عمر : حدثنا يا أبا عبد الله ، فقال سلمان : دخلت على رسول الله ﷺ وهو متكئ على وسادة فأدناها إلىّ ثم قال لى : يا سلمان ، ما من مسلم دخل على أخيه المسلم فيلقى إليه الوسادة إكراما له إلا غفر الله له .

وكذلك عبد الله بن مسعود ، هو صاحب النعلين أيضا ، ففى كتب الحديث أن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه كان يلج على رسول الله ﷺ ويلبسه نعليه ، وفى [مختصر السير] لابن جماعة : كان عبد الله بن مسعود صاحب نعلى رسول الله ﷺ ، إذا قام ألبسه إياهما ، وإذا جلس جعلهما فى ذراعه حتى يقوم . وقد تقدم أن هذا الصحابى أيضا هو صاحب الوسادة ، وهو أيضا صاحب طهور رسول الله ﷺ ، وكذلك كان أيضا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، المتولى الوسادة والنعلين ، هو صاحب السواك والكرسى ، أى متوليهما .

ولقى عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرة ركبا مسافرين فأمر رجلا يقول : من أين القوم؟ وكان فى الركب ابن مسعود ، فأجابه : من الفج العميق ، فقال : إلى أين؟ فقال : إلى البيت العتيق ، فقال : أى آية فى القرآن أعظم؟ قال : آية الكرسى ، قال : أى آية فى القرآن أحكم؟ قال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾ (النحل : ٩٠) الآية ، قال : أى آية فى القرآن أجمع؟ قال : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** ﴾ (الزلزلة : ٧) الآية ، قال : أى آية فى القرآن أرجى؟ قال : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴾ (الزمر : ٥٣) فقال : نادهم ، أفيكم ابن مسعود؟! أى لأن هذه الأجوبة لا تكون إلا من مثله ، فقال : نعم .

وقال على : علم عبد الله الكتاب والسنة . وقال أبو موسى الأشعرى : لا تسألونى ما دام هذا الحبر فيكم ، وقال أيضا : كان يؤذن له إذا حجبنا ، ويشهد إذا غبنا . وقال مسروق : انتهى علم أصحاب رسول الله ﷺ إلى اثنين على وابن مسعود رضى الله عنهما . ونظر جماعة من الصحابة رضى الله عنهم دقة ساقية فضحكوا ، فقال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده لهما فى الميزان أثقل من

أحُد. ونظر جماعة إلى أولاده الثلاثة فقالوا: كأنهم الدنانير حسنا، فتعجبوا منهم، فرفع رأسه إلى سقف البيت، وقد عششت فيه خَطَّاف [1]، فقال: والذى نفسى بيده لأن أكون أنفض يدى عن قبورهم أحب إلى أن يسقط عش هذا الخطاف يتكسر بيضه! ومن كلامه: إنكم فى آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتى بغتة فمن زرع خيرا حصد غبطة، ومن زرع شرا حصد ندامة، المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وشر الضلالة الضلالة بعد الهدى، وخير الغنى [2] غنى النفس، وخير الزاد التقوى، وخير ما ألقى فى القلب اليقين، وشر العمى عمى الكفر، والخمر جُماع الإثم، والنساء حبائل الشيطان، والشباب شعبة من الجنون، ومن تواضع رفعه الله، ومن تطاول تعظما خفضه الله، من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد من الله إلا بعدا، وما دمت فى صلاة فأنت تقرع باب الملك، ومن يقرع باب الملك يفتح له.

قال فى [الإحياء]: يُسَنّ للابس الخف أن ينفضه قبل له لئلا يكون فيه عقرب أوحية أو شوكة أو نحو ذلك، لما ورد أنه ﷺ دعا بخفيه فلبس أحدهما ثم جاء غراب فاحتمل الآخر ورماه، فخرجت منه حية، فقال رسول الله ﷺ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما. وروى الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراد الحاجة أبعد المشى، فانطلق ذات يوم لحاجته تحت شجرة، ثم توضأ، ولبس أحد خفيه فجاء طائر أخضر فأخذ الخف الآخر فارتفع به ثم ألقاه، فخرج منه أسود سالح [3]، فقال رسول الله ﷺ هذه كرامة أكرمنى الله بها، اللهم إنى أعوذ بك من شر من يمشى على بطنه.

وأما اتخاذ رسول الله ﷺ الكرسى فقد ذكر الدار قطنى فى حديث على رضى الله عنه قال: كنت آتى رسول الله ﷺ فى كل غداة، فإذا تنحنح دخلت وإذا سكت لم أدخل، قال: فخرج إلىّ فقال: حدث البارحة أمر، سمعت خشخشة فى

(١) الخطاف: طائر يشبه السنونو، طويل الجناحين قصير الرجلين أسود اللون.

(٢) فى الأصل: الغنا.

(٣) السالح: لابس السلاح، ولعل المراد أنه: ذو ناب متهيء للإضرار.

الدار فإذا أنا بجبريل عليه السلام، فقلت: ما منعك من دخولك؟ قال: إن فى البيت كلبا، قال: فدخلت فإذا بجرو يلهث تحت كرسى لنا. وفى حديث مسلم عنه ﷺ: لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة، قال العلماء: سبب امتناع الملائكة عن بيت فيه صورة كونها معصية فاحشة وفيها مضاهاة لخلق الله تعالى، إذ المراد بالصورة الصورة التامة الخلقة، ومن بعض الصور ما يعبد من دون الله، وسبب امتناعهم من بيت فيه كلب كثرة أكله للنجاسات، وقبح رائحة الكلب بسبب أكله للنجاسة والملائكة تكره [1] الرائحة القبيحة، ولأن الكلب منهى عن اتخاذها فى داخل البيوت، فعوقب متخذها بحرمان دخول الملائكة بيته وصلاتهم فيه واستغفارهم له وتبريكهم عليه، والملائكة الذين لا يدخلون بيتا فيه كلب ولا صورة هم الملائكة [2] الذين يطوفون بالرحمة والتبريك والاستغفار، وأما الحفظة فيدخلون فى كل بيت، ولا يفارقون بنى آدم فى كل حال، لأنهم مأمورون بإحصاء أعمالهم وكتابتها. والبركة كما قال الراغب [3] ثبوت الخير الإلهى فى الشىء، والمبارك ما فيه ذلك الخير.

وقال بعضهم: عدم دخول الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة مقيد بما يحرم اقتناؤه من الكلاب واحتيازه من الصور، وأما ما ليس بحرام من كلب الصيد والزرع والماشية والصورة التى تتخذ فى البساط والوسادة وغيرها وما تكون بحالة لا تعيش بها فلا تمنع دخول الملائكة، ولا نظر إلى استظهار بعضهم أن هذا عام فى كل كلب وصورة وأنهم يمتنعون من الجميع لإطلاق الحديث. وروى مسلم والنسائى رحمهما الله تعالى، والنص لمسلم عن حميد عن هلال، قال: قال أبو رفاعة الغروى: انتهيت إلى النبى ﷺ، وهو يخطب، قال: فقلت: يا رسول الله، رجل غريب يسأل عن دينه، لا يدرى ما دينه، قال: فأقبل على ﷺ، وترك خطبته، حتى انتهى إلى جانبى بكرسى حسبت قوائمه حديدا قال: فقعد عليه رسول الله ﷺ وجاء يعلمنى مما علمه الله.

---

(١) فى الأصل: تكرم.

(٢) كلمة «الملائكة» مكررة فى الأصل.

(٣) الراغب الأصفهانى، الحسين بن محمد (المتوفى سنة ١١٠٨م) أديب ولغوى وفقيه ومفسر للقرآن وباحث فى غريبه ومتشابهه.

وذكر المبرد في [الكامل] في قصة الحطيئة (1) حين حبسه عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا ستعداء الزبرقان عليه في هجوه وهجو رهطه وتفضيله بني عمهم عليهم: إن عمر رضي الله تعالى عنه دعا بكرسي فجلس عليه، ودعا بالحطيئة فأجلسه بين يديه، ودعا بشفرة، يرهمه أنه عامل على قطع لسانه، حتى ضج من ذلك، فكان فيما قال الحطيئة: يا أمير المؤمنين، والله لقد هجوت أبي وأمي وهجوت نفسي! فتبسم عمر، ثم قال: فما الذي قلت؟ قال: قلت لأبي وأمي، والمخاطبة للأم:

ولقد رأيتك في النساء فسؤتني ... وأبا بنيك فساءني في المجلس

وقلت لها:

تنحي فاقعمي مني بعيراً ... أراح الله منك العالمينا

أغربالاً إذا استودعت سراً ... وكانونًا على المتحدثينا

وقلت لامرأتي:

أطَوِّف ما أطَوِّف ثم آوي ... إلى بيت قعيدته لَكاع

فقال عمر رضي الله عنه: فكيف إذا هجوت نفسك؟ فقال: اطلعت في بئر فرأيت وجهي، فاستقبحته، فقلت:

أبت شفتاي اليوم إلا ترنما ... بسيت فما أدري لمن أنا قائله

أرى لي وجهًا قبح الله وجهه ... فقبح من وجه وقبح حامله

وقد اتخذ علي رضي الله عنه الكرسي. روى النسائي عن عبد خير، رحمه الله تعالى، قال: شهدت عليا رضي الله عنه دعا بكرسي فقعد عليه، ثم دعا بماء في تور(2) فغسل يديه ثلاثا ثم تمضمض واستنشق بكف واحدة ثلاثا ثم غسل وجهه

---

(1) جرول بن أوس (المتوفى سنة ٦٥٠م) شاعر نجدي مخضرم، كان إمام شعراء الهجاء في عصره، حتى أنه هجا ذويه، بل لقد هجا نفسه.

(2) والتور: إناء يشرب فيه. [الطهطاوي].

ثلاثا وغسل يده اليمنى ثلاثا ويده اليسرى ثلاثا ومسح رأسه ثم غسل رجليه بالماء ثلاثا ثم قال: من سره أن ينظر إلى وضوء رسول الله ﷺ فهذا وضوء رسول الله ﷺ.

واتخذ ﷺ السرير، قالت عائشة رضى الله تعالى عنها: كانت قريش بمكة ليس شيء أحب إليها من السرر تنام عليها، فلما قدم ﷺ المدينة ونزل منزل أبى أيوب قال: يا أبا أيوب، أما لكم سرير؟ قال: لا والله، فبلغ أسعد بن زُرَارة [(١)] ذلك فبعث إلى النبى ﷺ بسرير له عمود وقوائمه ساج، فكان ينام عليه حتى تحول إلى منزلى فكان فيه، فوهبه لى، فكان ينام عليه حتى توفى، فوضع عليه وصُلِّىَ عليه وهو فوقه، وطلبه الناس منا يحملون عليه موتاهم، فحمل عليه أبو بكر وعمر والناس بعد طلبا لبركته. وقال الواقدى اجتمع أصحابنا بالمدينة لا اختلاف بينهم أن سرير النبى ﷺ اشترى ألواحه عبد الله بن إسحاق الإسحاقى من موالى معاوية بأربعة ألف درهم.

وأما متولى السقى وتعذيب الماء وتبريده له ﷺ فقد روى مسلم رضى الله عنه عن أنس رضى الله عنه قال: لقد سقيت رسول الله ﷺ بقدحى هذا الشراب كله العسل والنبيذ والماء واللبن، وروى البخارى عن ثعلبة بن أبى مالك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قسم مروطا [(٢)] بين نساء من نساء المدينة، فبقى مِرْط جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين، اعط هذا بنت رسول اللهَ ﷺ التى عندك، يريد أم كلثوم بنت علىّ، فقال عمر: أم سليط [(٣)] أحق، فإنها كانت تَزْبِر [(٤)] لنا القِرَب يوم أحد - أى تحملها ملأى على ظهرها تسقى الناس منها.

وحث ﷺ على تغطية الإناء وربط السقاء، كما فى مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: غطوا الإناء وأوكئوا السقاء فإن فى السنة ليلة ينزل

---

(١) فى الأصل: زواره.. والتصحيح عن [أسد الغابة].

(٢) جمع مرط - بالكسر - وهو كساء من صوف أو خز، وربما أطلق على ما نسج من الشعر. قال بعضهم: وهو خاص بالإزار والخمار. [الطهطاوى].

(٣)أم سليط من نساء الأنصار، ممن بايع رسول الله ﷺ. [الطهطاوى].

(٤) من الزبرة - بضم الزاى وسكون الباء - ومعناها الكاهل والظهر.

فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاه أو سقاء ليس عليه وكاء [1] إلا أنزل فيه من ذلك الوباء. انتهى. وقال الليث بن سعد: الأعاجم عندنا يتقون ذلك فى كانون الأول. انتهى.

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها: كان رسول الله ﷺ يُستَعذب له الماء من بئر السقيا، أى يؤتى له بالماء العذب من عين السقيا التى بينها وبين المدينة يومان، والماء العذب هو الطيب الذى لا ملوحة فيه، قيل له ذلك لأنه يمنع معاودة العطش، كمنع العقاب معاودة الذنب، واستعذب القوم ماءهم إذا استقوه عذبا، واستعذبه أى أعده عذبا، وأعذبنا واستعذبنا أى شربنا عذبا.

ونقل عن الإمام الشافعى رضى الله عنه أن الماء الحلو البارد يخلص الحمد لله ففيه إشارة إلى أن طلب الماء الحلو لا ينافى الزهد فى الدنيا وليس من بابا التنعم المنقص لمقام العقبى. انتهى.

قال ابن القيم: والماء الحلو البارد يقمع الحرارة ويحفظ على البدن رطوباته الأصلية ويرد عليه ما تحلل منها ويرقق الغذاء وينفذه إلى العروق، والماء الملح والمسخن يفعل ضد هذا.

وروى مسلم عن جابر فى حديثه الطويل فى سيرة النبى ﷺ يقول فيه: قال - يعنى جابرا - فأتينا العسكر فقال رسول الله ﷺ: ياجابر، ناد بوضوء، فقلت: ألا وضوء؟ ألاوضوء؟ قال: قلت: يا رسول الله، ما وجدت فى الركب من قطرة، وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله عليه الصلاة والسلام الماء فى أشجاب [2] له على حمارة من جريد [3] فقال لى: انطلق إلى فلان الأنصارى، فانظر هل فى أشجابه من شىء؟ فانطلقت إليه فنظرت فيها فلم أجد فيها إلا قطرة فى عزلاء [4] قال: اذهب فأتنى به، فأتيت به، فأخذه بيده، ثم جعل يتكلم بشىء ما أدرى ما

---

(١) والوكاء ما يربط به.

(٢) جمع شجب - بفتح الشين وسكون الجيم - وهو ما قدم من القرب. [الطهطاوى].

(٣) وهى الأعواد التى تعلق عليها هذه القربة.

(٤) والعزلاء: مزادة لينة الفم.

هو ، ويغمزه بيده ، ثم أعطانيه ، فقال : ياجابر ، ناد بجفنة فقلت : يا جفنة الركب ، فأتيت بها تحمل فوضعتها بين يديه ، ففعل رسول الله ﷺ بيده فى الجفنة هكذا : فبسطها وفَرَق بين أصابعه ، ثم وضعها فى قعر الجفنة وقال : خذ يا جابر ، فَصُبّ علىّ وقل بسم الله ، فصببت عليه وقلت بسم الله ، فرأيت الماء يفور من بين أصابع يد رسول الله ﷺ ، ثم فارت الجفنة ودارت حتى امتلأت ، فقال : يا جابر ، ناد : مَنْ كانَ له حاجة بماء ، قال : فأتى الناس فاستقوا حتى رووا ، قال : فقال : هل بقى أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهى ملأى!

الفصل الثانى

(فيما يضاف إلى الإمامة العظمى من الأعمال الأولية، كالوزارة، والحجابة، وولاية البدن والسقاية والكتابة)

الإمامة العظمى، بالأصالة هي منصب رسول الله ﷺ، وهى استحقاق التصرف العام على المسلمين، وحيث أطلقت الإمامة فإنما تنصرف للخلافة، وهى بهذا المعنى رئاسة عامة فى أمور الدين والدنيا خلافة عن النبى ﷺ .وإن كانت تنقسم إلى: إمامة وحى، كالنبوة، ووراثة، كالعلم، وعبادة كالصلاة وهى المرادة هنا.

وأثر هذه الإمامة هو أن ينصب له بعد وفاته ﷺ خليفة بعد خليفة إلى انقضاء الزمان، وقال بعضهم: لولا الإمام ما قدر العالم على نشر علمه ولا الحاكم على إنفاذ حكمه ولا العابد على عبادته ولا الصانع على صناعته ولا التاجر على تجارته ولا الزارع على زراعته ولتقطعت السبل وتعطلت الثغور وظهرت المصايب والشرور، ولكن من لطف الله تعالى بعباده ورأفته ببلاده أجرى عادته وحكمته فى كل زمان أن ينصب لبريته فى الأرض سلطانا لينصف المظلوم من الظالم، ويردع أهل الفساد عن الظالم، ويصنع للرعية جميع المصالح، ويقابل كل أحد بما يستحقه من صالح وطالح.

ولما كانت عمارة البلاد، وحفظ مهج العباد، دليلا على فضل السلطنة الشريفة، قال تعالى: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ (البقرة: ٢٥١) والإشارة فى ذلك إلى الذين بهم الدفع ومنهم النفع، وهم السلاطين، أى ولولا ردع الملوك لتغالبت الناس وتهارجت، وطمع بعضهم

فى بعض، واستولى الأقوياء على الضعفاء، وتمكن الأشرار من الأخيار، فيضطرون إلى التشرد والتفرد، وفى ذلك خراب البلاد وفناء العباد، ولأن الجنس الإنسانى مضطر إلى التآلف والتجمع فى إتمام معيشته وانتظام حال نفسه، فيحتاج إلى سياسة تقيم أمره على الاستقامة، وقد شبه بعضهم المَلك بالروح والرعية بالجسد، فلا قوام للجسد إلا بالروح، ولو لم يكن فى شرف المَلك وعظيم خطره إلا ما أشار إليه الحديث النبوى فى قوله عليه الصلاة والسلام: «السلطان ظل الله فى الأرض، يأوى إليه الضعيف، وبه ينتصف المظلوم من الظالم، ومن أكرم سلطان الله فى الدنيا أكرمه الله»، لكان كافيا فى الاحتياج إلى السلطان.

وقال بعضهم: السلطان يُطْلب منه وجوبا: التحلى بحلية العدل والإنصاف، والتخلى عن الشواغل فى طلب العُلى ببذل الإسعاد والإسعاف، وقضاء حوائج السائلين، وإغاثة المظلومين والملهوفين.

والعدل: هيئة فى الإنسان يطلب بها المساواة، وقيل هو وضع الشيء فى محله، وهذا بالنسبة إلينا، وأما بالنسبة إلى الله فهو التصرف فى المُلْك.

وقال العلماء: صلاح الدنيا بصلاح الملوك، وصلاح الملوك بصلاح الوزراء ولا يصلح المُلْك إلا لأهله، ولا تصح الوزارة إلا لمستحقها. وروى عن رسول الله ﷺ: «السلطان ظل الله فى الأرض، فإذا دخل أحدكم بلدا ليس به سلطان فلا يقيمن به». وروى عن أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تسبوا السلطان فإنه فىء الله فى أرضه».

وهذه الأدلة دالة على شرف مرتبة السلطان وعلو منزلته، ولهذا كان السلف الصالح، كالفضيل بن عياض، والإمام أحمد بن حنبل، وغيرهما، يقولون: لو كان لنا دعوة مستجابة لدعونا بها للسلطان، لأن فى صلاحه صلاح المسلمين، فالملك فضل إلهى ينعم الله به على من يصطفيه من خلقه، فيجب على من أنعم الله عليه بهذه النعمة الوفية والمرتبة الجسيمة السمية أن يقيدها بالشكر، كما قال عليه الصلاة والسلام: قيدوا النعم بالشكر، وقال: شكر النعم أمان لزوالها، بأن يزداد تواضعه لله تعالى وانقياده للشريعة.

وقال الجاحظ [1]: ليس شيء ألذ ولا أسر من عز الأمر والنهى، والظفر بالأعداء، وتقليد المنن أعناق الرجال، لأن هذه الأمور نصيب الروح وحظ الذهن وقسمة النفس. ومن الواجب الذى لا بد منه لولاة الأمور، لاسيما الوزراء والسلاطين، هو العدل، فإنه سبب صلاح الدين والدنيا، والفوز بالسعادة الأبدية فى العقبى، وبه تنتظم أمور الممالك، وسلوك طريقته من أحسن المسالك، وهو الموجب لدوام الملك، ولهذا قيل: إن الله تعالى يقيم الدولة العادلة وإن كانت مشركة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، فالدولة تدوم مع العدل والشرك ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منى مجلسا إمام عادل»، وسئل بعضهم: أى شيء أرفع لذكر الملوك؟ فقال: تدبيرهم أمر البلاد بالعدل، وقالوا: عدل السلطان أنفع للرعية من خصب الزمان، وإذا لم يعمر الملك ملكه بالإنصاف خرب ملكه بالطغيان. وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز يشكو إليه خراب مدينة ويطلب منه مالا يرمها به، فكتب إليه عمر: قرأنا كتابك، فإذا قرأت كتابى فحصن مدينتى بالعدل، ونق طرقها من الظلم، فإنه مرمتها. والسلام.

ولما كانت الإمامة العظمى هى التصرف العام على المسلمين، فنصب الإمام واجب على الأمة بالشرع وجوبا كفائيا يقوم لهم بالمصالح، كتنفيذ أحكامهم، وإقامة حدودهم، وتفرقة صدقاتهم، وسد الثغور وتجهيز الجيوش، وقهر المتغلبة والمتلصصة وقطاع الطريق، وقطع المنازعات بين الخصوم، وقسمة الغنائم إن كانت، وإن كان المنصوب مفضولا، فإذا قام بذلك أهل الحل والعقد، وهم العلماء ووجوه الناس، سقط الحرج عن الباقين، وإلا أثم المسلمون جميعا.

ورأى أهل الحل والعقد من اجتمع فيهم ثلاثة أمور: العلم بشروط الإمام،

---

(1) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٧٧٥ ـ ٨٦٨م) من أبرز المفكرين العرب ذوى الإلمام بشتى العلوم والمعارف والفنون، حتى ليكاد يجسد عصره ويمثل بالنسبة له أصدق مرآة.. وهو شهير ومؤلفاته أغلبها شهير، ومنذ عصره وحتى الآن لا زالت آثاره منهلا للعلماء والمفكرين من العرب والمستشرقين.. وكان الجاحظ معتزليا، وإليه تنسب فرقة الجاحظية من فرق المعتزلة.. أما عدد مصنفاته فيزيد على الثلاثمائة والخمسين كتابا.

والعدالة، والرأى، وبيعتهم بالحضور والمباشرة بصفقة اليد، وإشهاد الغائب منهم. ويكفى العامى اعتقاد أنه تحت قوله ﷺ: «من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية».

وعمدة أدلته الإجماع، لإجماع الصحابة على ذلك بعد وفاة النبى ﷺ، حتى قدموه على دفنه ﷺ لما ظهر لهم أنه من أهم الواجبات، ولم يزل الناس على ذلك فى الأعصار الماضية وهلم جرا إلى وقتنا هذا. وقيل:

لا تصلح الناس فوضى لا سَراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

والبيت لا ينبنى إلا له عمد ... ولا عماد إذا لم تُرْس أوتاد

وقيل:

وما سقطت يوما من الناس أمة ... إلى الذل إلا أن يسود ذميمها

وإنما يجب علينا ذلك عند عدم النص من الله ورسوله على التولية لمعين، وعند عدم العهد بها من الإمام السابق لغيره بإقامة معيَّن، وإلا فلا يجب علينا نصبه، نعم يجب علينا الامتثال، كما وردت الأحاديث بذلك حقنا لدماء المسلمين وحذرا من شق العصا بينهم، فمما ورد فى ذلك قوله ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة».

والمراد بالخلفاء الراشدين: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، والحسن، رضى الله عنهم وعن بقية الصحابة. وقوله: والسمع، أى إجابة قول الآمر وطاعة أوامره واجب مالم يأمر بمعصية، وإلا فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وقد ورد: «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى، ومن يعص الأمير فقد عصانى، ومن عصانى فإن له النار، وإنما الإمام جُنَّة يقاتَل من ورائه ويُتقى به، فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجرا، وإن قال بغيره فإن عليه وزرا». وقوله: جنة، أى كالترس يقاتل من ورائه، أى نقاتل

معه الكفار والبغاة، ويُتقى به شر العدو وأهل الفساد والظلم، وهذه الطاعة متلازمة، لأن الله تعالى أمر بطاعة رسوله، وهو أمر بطاعة الأمير. وقوله: وإن تأمَّر عليكم عبد، هذا من باب ضرب المثل بغير الواقع، على طريق التقدير والفرض، وإلا فهو لا تصح ولايته، ونظيره: من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا فى الجنة، وإما من باب الإخبار بالغيب، وأن انتظام الشريعة يختل حتى توضع الولايات فى غير أهلها. والأمر بالطاعة حينئذ إيثار لأهون الضررين، أى الصبر على ولاية من لا تجوز ولايته أهون من إثارة الفتنة التى لا دواء لها ولا خلاص منها، ويرشد إلى هذا تعقيبه ذلك بقوله: وإن من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فيه من معجزاته ﷺ الإخبار بما يقع بعده من كثرة الاختلاف وغلبة المنكر، أو تكون إمْرة العبد فى الأمراء والعمال دون الخلفاء، لأن الأئمة من قريش.

ولا ينعزل بجوره، ولا يجوز الخروج عليه وإن جار، وقال على كرم الله وجهه: إن الناس لا يصلحهم إلا إمام، بر أو فاجر، وقال الحسن رضى الله عنه: ما يصلح الله به أكثر مما يفسده، وروى أنه ﷺ خطب فى حَجَّة الوداع فقال: «اتقوا الله، وصلوا رحمكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم»، وورد عنه ﷺ: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم».

ويشترط فى خليفة البيعة أو العهد أن يكون: مسلما، ذكرا، لقوله ﷺ: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»، حرا، بالغا، عدلا، مجتهدا، سميعا، بصيرا، ناطقا، شجاعا، ذا خبرة بالحروب، سليم الأعضاء من نقص يمنع استيفاء الحركة وسرعة النهوض، بخلاف الصبى والكافر والمجنون لنقصهم، وأن يكون قرشيا، لقوله ﷺ: «الأئمة من قريش»، وللإجماع، إذ الأنصار رضى الله عنهم لما قالوا يوم السقيفة: منا أمير ومنكم أمير، منعهم أبو بكر رضى الله عنه لعدم كونهم من قريش، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة رضى الله عنهم، فكان إجماعا، وورد عنه ﷺ: «فضل الله قريشا بخصائل منها: أنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده إلا قرشى، ومنها أنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون، ومنها أنه نزل فيهم سورة **(لإيلاف قريش)**، ومنها أن فيهم النبوة والخلافة والحجابة والسقاية.

فإن لم يوجد من قريش من يستجمع الصفات المعتبرة ولى كنانى، فإن لم يوجد فرجل من ولد إسماعيل.

ولا يشترط أن يكون هاشميا، ولا معصوما، ولا أفضل ممن يولى عليهم.

ولا يجوز تعدده فى عصر وبلد واحد بالإجماع، والمراد البلد المتضايق الخطَط والمخاليف، أما مع عدمه وطول المدى فللاحتمال فيه مجال.

ويشترط فى خليفة العهد، زيادة على ما مر، أن يعقد له الخليفة فى حياته ليكون هو الخليفة بعده، فتصرفه موقوف على موته إن خلفه فى حياته.

ولا بد فى المتغلب من العقل، والتمييز، والإسلام.

فبوفاته ﷺ وجب نصب خليفة، فتخلف أبو بكر رضى الله عنه، وهو أفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، رفيق نبينا المختار فى الغار، وسابق رجال الأمة إلى الإسلام والبذل والإيثار، خليفة على المسلمين من بعده، والحافظ فى حياته ﷺ وبعد موته لوثيق وده، أسلم وصحبه ﷺ، وامتاز بمصادقته له وتصديقه له صدقا جازما فى الرسالة من غير تلعثم وفى المعراج بلا تردد، وكان رسول الله ﷺ يقول: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلاّ عنده كبوة ونظر وتردد إلى ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ما علم له حين ذكرته أى ما تلبث وما تردد فيه».

ولما ولى الخلافة قام خطيبا فكان من جملة خطبته: أما بعد، أيها الناس، فإنى وليت أمركم ولست بخيركم، وإن أكيس الكَيِّس التقى، وإن أحمق الحمق الفجور، وإن الضعيف أقواكم عندى حتى آخذ له حقه، وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ له بحقه، أيها الناس، إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينونى، وإن زغت فقومونى.

وقال بعضهم: العدل ميزان الله تعالى فى الأرض، يؤخذ به للضعيف من القوى وللحق من المبطل، وعدل الحاكم يوجب محبته، وأفضل الأزمنة أزمنة أئمة العدل، وقد ورد إن الله تعالى يحب العادل، وجلس الإسكندر يوما فى مجلس حكمه فما رفع إليه حاجة فقال: لا أعد هذا اليوم من أيام ملكى.

وأما قول الرافضة: إن أبا بكر غصب عليا، فباطل، لأن في ذلك قولا بإجماع الصحابة على الظلم، حيث مكنوا أبا بكر من الخلافة، وحاشاهم من ذلك، فإنهم حماة الدين رضى الله عنهم، ومن زعم منهم أن عليا رضى الله عنه لم يبايعه، أو بايع على كره منه، فباطل أيضا، لأنه إن كان امتنع من مبايعته، مع العلم أنه على الحق، فحرام، ولا يظن ذلك بعلى رضى الله عنه، وإن كان مع العلم أنه على باطل فذلك محال، لأنه لم يكن فى زعمه أنه على الباطل، بدليل أنه لم يشهر سيفه ولم يمنعه، بل كان مؤدبا بين يديه ومؤتمرا بأوامره، وقد كانوا رضى الله عنهم لا تأخذهم فى الله لومة لائم، وقال علىّ رضى الله عنه: من فضلنى على أبى بكر جلدته حد المفترى، وقال عمر رضى الله عنه: وددت أنى شعرة فى صدر أبى بكر رضى الله عنه.

ثم ولى أمور المسلمين من بعده من هو أفضل الخلق بعده وبعد الأنبياء والمرسلين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، كناه النبى ﷺ بأبى حفص، وهو الأسد، ولقبه بالفاروق لفرقه بين الحق والباطل، فهو من أجل السابقين وأفضل الأولين والمهاجرين، وأول من سمى بأمير المؤمنين، وكان إسلامه فتحا وهجرته نصرا وإمامته رحمة.

ثم ولى أمور المسلمين أفضل الأصحاب من بعده وهو عثمان أمير المؤمنين، دعاه أبو بكر إلى الإسلام قديما فأسلم قبل دخول النبى ﷺ دار الأرقم، وهاجر الهجرتين بزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وكان تزوجها قبل النبوة وتوفيت عنده أيام غزوة بدر فى السنة الثانية من الهجرة فى رمضان، ثم تزوج أختها أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ وتوفيت عنده سنة تسع من الهجرة، ولا يعرف أحد تزوج بنتى نبى غيره، تزوج الأولى قبل النبوة والأخرى بعد ذلك، فلذا سمى بذى النورين، قال المصطفى تعظيما له وتعريفا بماله عنده من ارتفاع الشأن: لو كان عندى ثالثة لزوجتها عثمان، وبايع عنه [1] بيده حين بعثه إلى مكة بيعة الرضوان.

---

(١) فى الأصل: عنده.

ثم فوض الله أمور بلاده وعباده إلى كامل المناقب، ورفيع المراتب، ابن عم الرسول، وزوج البتول، أمير المؤمنين على بن أبى طالب، شهير النسب، ورفيع المقام والحسب، جد الشرفاء، ومعدن الفضل والعرفان والصفاء، ولقد فاق غيره من الأصحاب الكرام، بمؤاخاته ومصاهرته له عليه الصلاة والسلام، فهو أبو السبطين، هاشمىّ ولد بين هاشميين، وأول خليفة بنى هاشم، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وشجاعته فى الحروب مشهورة، وقوته وفتوته وكمالاته ثابتة فى الأخبار الصحيحة المأثورة.

والمراد بالأفضلية المذكورة الأفضلية من حيث الخلافة والثواب، فلا ينافى ما لكل من المزايا الخاصة به، لا سيما ما لعلى رضى الله عنه من الخصوصية بالقرابة القريبة، والمؤاخاة وغير ذلك من فضائله الشهيرة، ولا تضر زياده حبه المغروسة فى قلب كل علوى سنى من ذريته، التى لا تفضى إلى زيادة تنقيص فى الخلفاء قبله، لاتصال بينهم وبينه بالأبوة، فإن ذلك غير الأفضلية الواجب اعتقادها، ونظير ذلك حب الشخص لوالده مثلا، فإنه أكمل من حبه لعالم العصر أو لشريف، ولا يضره ذلك جزما، فكثيرا ما يشتبه هذا الأمر على الفضلاء، فضلا عن الجهلة.

فعلم من ذلك استحقاق الأربعة للخلافة، على هذا الترتيب، كما وقع عليه الإجماع، فأمرهم فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة والقيام بأمر الدين ومصالح العباد، فالأسبق فيها أكثرهم فضلا، ثم التالى كذلك، فيجب على كافة الأمة الاتباع، ويحرم عليهم المخالفة والنزاع فى الخلافة المقدرة مدتها بقوله ﷺ : «الخلافة بعدى ثلاثون سنة، ثم تكون ملكا عضوضا».

قال الأزهرى [1]: الملك العضوض الذى فيه ظلم وعسف، كأنه يعض على الرعايا، فعلى هذا معاوية ومن بعده لا يكونون خلفاء، بل ملوكا وأمراء، ولعل

(١) محمد بن أحمد بن الأزهر الهروى (٨٩٥ ـ ٩٨١م) أحد الأئمة فى اللغة والأدب، ولد ومات فى «هراة» بخراسان، وكتابه [تهذيب اللغة] من أشهر كتبه، وله تفسير للقرآن، وكتاب عنوانه [غريب الألفاظ التى استعملها الفقهاء] . . الخ . .

المراد أن الخلافة الكاملة التي لا يشوبها شيء من المخالفة والميل عن المتابعة تكون ثلاثين، وبعدها قد تكون وقد لا تكون، فهذا صريح فى أن الخلفاء الأربعة أفضل الصحابة، لأن هذه المدة كانت خلافتهم، فقد جزم بعض الحفاظ بأن خلافة أبى بكر رضى الله عنه كانت سنتين وخمسة أشهر، وخلافة عمر رضى الله عنه كانت عشرة أعوام، وخلافة عثمان رضى الله عنه كانت ثلاث عشرة سنة، وخلافة على رضى الله عنه كانت أربعة أعوام، فجملتها تسع وعشرون عاما وخمسة أشهر. وقال الإمام النووى رحمه الله: كانت مدة أبى بكر رضى الله عنه سنتين، وخلافة عمر رضى الله عنه عشر سنين وخمسة أشهر وأحدا وعشرين يوما، وخلافة عثمان رضى الله عنه اثنتى عشرة سنة إلاست ليال، وخلافة على رضى الله عنه خمس سنين إلا شهرا، وخلافة الحسن رضى الله عنه نحو سبعة أشهر، فعلى هذين النقلين لم يكمل دور الخلافة ثلاثين سنة إلا بمدة الحسن رضى الله عنه، فإنما ولى لما استشهد أبوه على رضى الله عنهما، وأقام يدعو إلى نفسه نحو ستة أشهر وبعض أيام ثم ترك الأمر لمعاوية رضى الله عنه على أن يكون له من بعده.

وقد ورد في فضلهم على الترتيب حديث أبى ذر رضى الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ جالسا وحده، فجئت حتى جلست إليه، فجاء أبو بكر فسلم ثم جلس، ثم جاء عمر، ثم جاء عثمان، ثم جاء على، وكان بين يدى رسول الله ﷺ سبع حصيات فأخذهن فوضعهن فى كفه ﷺ فسبَّحن حتى سمعت لهن طنينا كطنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم أخذهن ﷺ فوضعهن فى يد أبى بكر فسبحن حتى سمعت لهن طنينا كطنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن ﷺ فوضعهن في يد عمر رضى الله عنه فسبحن حتى سمعت لهن طنينا كطنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم وضعهن ﷺ فى يد عثمان رضى الله عنه فسبحن حتى سمعت لهن طنينا كطنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم وضعهن ﷺ فى يد على رضى الله عنه فسبحن حتى سمعت لهن طنينا كطنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، فقال ﷺ: «هذه خلافة نبوة». رواه الطبرانى وغيره. وعند ابن سعد[1] من حديث أنس رضى الله عنه زيادة وهى

(١) محمد بن سعد بن منيع الزهرى (٧٨٤ ـ ٨٤٥م) كاتب الواقدى، وصاحب الكتاب الشهير [طبقات الصحابة] المعروف بطبقات ابن سعد.

قـوله : ثـم وضعهن في أيدينـا رجلا رجـلا فما سبحت حصاة منهن ، وقد علم من ذلك الرد على الخطَّابيـة [1] في تقـديـم عمـر رضـى الله عنه ، والراوندية [2] في تقديم العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، والرافضة في تقديم على رضى الله عنه .

وإنما قيل لهم : الرافضة ، لأنهم رفضوا أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، وهم مذاهب في عليّ ، ذهب فيه بعضهم مذهب النصارى في المسيح ، وهم السَّبَأية ، أصحاب عبد الله بن سبأ ، وفيهم يقول السيد الحميرى [3] :

قـــوم غـلوا فـى علـىّ لا أبا لـهمُ وأجـشـموا أنفسـا فى حبه تعبـا

قـــالوا هو الله جل الله خــالقـنا من أن يكون ابن شـىء أو يكون أبا

وقد أحرقهم على بالنار .

ومن الروافض المُغـيـرية ، أصـحـاب المغـيـرة بن سـعـد مـولى بجيلة ، قـال الأعمش [4] : دخلتَ علىَ المغيرة بن سعد وسألته عن فضائل علىّ فقال : إنك لا تحتملها ! قلت : بلى ، فذكر آدم صلوات الله عليه ثم قال : علىّ خير منه ، ثم ذكر من دونه من الأنبياء فقال : على خير منهم ، حتى انتهى إلى النبى ﷺ فقال : علىّ مثله ، فقال : كذبت ، قال : قد أعلمتك أنك لا تحتملها !

ومن الروافض من يزعم أن عليا في السحاب ، فإذا أظلت عليهم سحابة قالوا : السلام عليك يا أبا الحسن ، وقد ذكرهم الشاعر :

---

(١) هى الفرقة التى تدافع عن إمارة عمر بن الخطاب ضد نقد الشيعة له .

(٢) هى الفرقة التى تقدم العباس بن عبد المطلب وأبناءه فيما يتعلق بإمارة المؤمنين .

(٣) إسماعيل بن محمد (٧٢٣ ـ ٧٨٩م) شاعر فحل ، كان شيعيا كيسانيا ، نذر نفسه لمدح آل البيت ونقد الصحابة الذين حجبوا إمارة المؤمنين عن على بن أبى طالب .

(٤) سليمان بن مهران الأسدى (٦٨١ ـ ٧٦٥م) عالم بالقرآن والحديث والفرائض ، ورغم حاجته وفقره فإن الملوك والسلاطين والأغنياء كانوا على أحقر ما يكونون فى مجلس علمه؟!

برئت من الخوارج لست منهم	من الغزّال[1] منهم وابن باب[2]
ومن قوم إذا ذكروا عليا	يرومون السلام على السحاب
ولكني أحب بكل قلبي	وأعلم أن ذاك من الصواب
رسول الله والصديق حبا	به أرجو غدا حسن الثواب

وهؤلاء الرافضه يقال المنصورية وهم أصحاب أبي منصور الكسْف، وإنما سمى الكسْف لأنه كان يتأول قول الله عز وجل ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ (الطور: ٤٤) فالكسْف عليّ وهو فى السحاب.

وكان المغيرة بن سعد من السبأية الذين أحرقهم على، وكان يقول: لو شاء عليّ لأحيا عادا وثمود وقرونا بين ذلك كثيرا.

ومن الروافض كُثَيِّر عزة الشاعر المشهور، ولما حضرته الوفاة دعا ابنة أخ له فقال لها: يا ابنة أخي، إن عمك أحب هذا الرجل فأحبيه، يعنى على بن أبى طالب، قالت: نصيحتك ياعم مردودة عليك، أحبُّه والله خلاف الحب الذى أحببته أنت، فقال لها برئت منك، فأنشأ يقول:

برئت إلى الإله[3] من ابن أروى [4]	ومن قول الخوارج أجمعينا
ومن عمر برئت ومن عتيق [5]	غداة دعى أمير المؤمنينا

والروافض كلها تؤمن بالرَّجْعَة، وتقول لا تقوم الساعة حتى يخرج المهدى،

(١) هو واصل بن عطاء (٧٠٠ ـ ٧٤٨م) إمام فرقة المعتزلة الفكرى والعقل المدبر لقيامها كتنظيم ممتد فى أنحاء الإمبراطورية الإسلامية.. ولم تبق لنا آثار فكرية من كتاباته ولكن آراءه نقلت خلال الجدل الذى دار حول القضايا التى عرض لها.

(٢) عمرو بن عبيد بن باب (٦٩٩ ـ ٧٦١م) زميل واصل بن عطاء فى رعاية فرقة المعتزلة وقيادتها، وكان ذا نفوذ علمى وسياسى كبير. ومثله مثل واصل بن عطاء: ضاعت كتبه وبقيت آراؤه فى ثنايا كتب الآخرين.

(٣) فى الأصل: الإلاه.

(٤) ابن أروى: عثمان. [الطهطاوى].

(٥) عتيق هو أبو بكر الصديق.

وهو محمد بن علي، فيملؤها عدلا كما ملئت جورا، وتحيا لهم موتاهم، ويرجعون إلى الدنيا فيكون الناس أمة واحدة، وفي ذلك يقول الشاعر:

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة العدل أربعة سواء

علي والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء

فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء

وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء

أراد بالأسباط الثلاثة: الحسن، والحسين، ومحمد ابن الحنفية، وهو المهدي الذي يخرج بزعمهم الفاسد في آخر الزمان.

ومن رؤساء الروافض السيد الحميري، وكان يلقي له وساد في مسجد يجلس عليه وكان يؤمن بالرجعة، وفي ذلك يقول:

إذا ما المرء شاب له عذار ... وعلله المواشط بالخضاب

فقد ذهبت بشاشته وأودى ... فقم ياباك فابك على الشباب

فليس بعائد ما فات منه ... إلى أحد إلى يوم الإياب

ومن الروافض الحسينية، وهم أصحاب إبراهيم بن الأشتر، فكانوا يطوفون بالليل في أزقة الكوفة وينادون يا ثارات الحسين! فقيل لهم: الحسينية.

ومن الروافض الغرابية، سميت بذلك لقولهم عليّ أشبه بالنبي من الغراب بالغراب.

ومن الرافضة الزيدية، وهم أصحاب زيد بن علي، المقتول بخراسان، وهم أقل الرافضة غلوا، غير أنهم يرون الخروج مع كل من خرج.

وحكى أن الحجاج بن يوسف قال يوما للحسن البصري: ماذا تقول في عليّ وعثمان؟ فقال الحسن: أقول قول من هو خير مني عند من هو شر منك! قال فرعون لموسى: (ما بال القرون الأولى)؟ قال موسى: ﴿ **عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ**

يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ (طه: ٥٢) فعلم عليّ وعثمان عند الله تعالى، فقال له الحجاج: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد!

* * *

[رجع]: فقد علم مما سبق استحاق الأربعة للخلافة على هذا الترتيب، وإطلاق الخلفاء على الأربعة من باب التغليب، وإلا فالمعروف إطلاق ذلك على أولهم، وأما باقيهم فيقال لكل منهم: أمير المؤمنين.

ثم الأفضل بعدهم تمام العشرة المبشرين بالجنة، وهم: طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وهو ابن عمة الرسول ﷺ، وباذل الأموال ومنفقها فى سبيل الله عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، أمين هذه الأمة رضوان الله عليهم. وقد روى الترمذى عن سعيد ابن زيد أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عشرة فى الجنة، أبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وعلى والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص»، فعد سعيد هؤلاء التسعة وسكت عن العاشر، فقال له القوم: أنشدك الله من العاشر؟ فقال: أنشدتمونى بالله سعيد بن زيد فى الجنة، يعنى نفسه، وقال بعضهم:

لقد بشر الهادى من الصحب زمرة بجنات عدن كلهم فضله اشتهر

سعيد زبير سعد طلحة عامر أبو بكر عثمان ابن عوف على عمر

وأما تفاوت بعضهم فى الأفضلية على بعض فهو أمر لا يدرك بالقياس ولا يؤخذ بالرأى، وإنما طريقه التوقيف، ولم يرد به نص، وهذا مع قطع النظر عن القرابة الشريفة وعن السبق والتقدم فى الإسلام والهجرة.

فيلى هؤلاء الستة فى الفضيلة أهل بدر، استشهدوا فيها أم لا، كالأربعة عشر الذين قتلوا، ثم يلى بقية أهل بدر فى الأفضلية أهل أحد [١] سواء من استشهد

(١) وهو جبل معروف بالمدينة. [الطهطاوى].

فيها، كالسبعين، ومن لم يستشهد، والمراد بهم المسلمون الكاملون، أى المخلصون فى إيمانهم، ثم يلى أهل أحد فى الأفضلية بقية أهل بيعة الرضوان، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الفتح: ١٨) الآيات، وكانوا ألفا وأربعمائة خرج بهم النبى ﷺ لزيارة البيت فصده المشركون فأرسل إليهم عثمان بن عفان للصلح فشاع أنهم قتلوه، فقال ﷺ عند ذلك: لا نبرح حتى نناجزهم الحرب، ثم دعا الناس عند شجرة سمر للبيعة على الموت أو على أن لا يفروا فبايعوه على ذلك، ولم يتخلف عن بيعتها إلا الجد بن قيس، وكان منافقا اختبا تحت إبط ناقته، روى الشيخان عن جابر قال: قال رسول الله، ﷺ، يوم الحديبية: أنتم خير أهل الأرض، وروى جابر أيضا أن رسول الله ﷺ قال: لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة.

وجميع الصحابة رضى الله عنهم محفوظون على سبيل العناية جوازا، يعنى أنهم معصومون عصمة جائزة، ومنزهون عن المعاصى جوازا، وليسوا معصومين وجوبا من الهفوات والزلات، ويجب الإمساك عما وقع بينهم من التشاجر والتخاصم والتنازع الصادر بينهم، والإضراب عن أخبار المؤرخين وجهلة الرواة وضلال الشيعة والمبتدعين القادحة فى أحد منهم، وليس المراد كل تشاجر نقل إلينا ولم نعلم صحته، بل التشاجر الذى صح نقله بالسند المتصل أنه ورد عنهم، متواترا كان أو آحادا، مشهورا أولا، وأما ما لم يصح عنهم فمردود لذاته لا يحتاج إلى التأويل، وأن يلتمس لهم أحسن المخارج، إذ هم أهل ذلك.

فتؤول مخاصمة فاطمة لأبى بكر رضى الله عنهما حين منعها ميراثها من أبيها ﷺ على أنها لم يبلغها الحديث الذى رواه لها أبو بكر، وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: يا أيها الناس، ارقبوا محمدا فى أهل بيته، والمراقبة للشىء المحافظة عليه، يقول احفظوهم فلا تؤذوهم، وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه، كما فى البخارى أيضا: لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلىّ أن أصل من قرابتى، وهذا قاله على سبيل الاعتذار لفاطمة عن منعه إياها ما طلبته منه من تركة النبى ﷺ وقد جرى منه على موجب الإيمان لأنه ﷺ شرط الأحبية فيه على

النفس والمال والولد، والمراد بالقرابة من ينتسب إلى جده الأقرب وهو عبد المطلب ممن صحب النبى ﷺ ورآه من ذكر وأنثى، وهم علىّ وأولاده الحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم من فاطمة رضى الله عنهم، وجعفر بن أبى طالب وأولاده عبد الله وعون ومحمد وعقيل، وحمزة بن عبد المطلب وأولاده، والعباس وأولاده، وقد روى أنه ﷺ قال: العباس بن عبد المطلب منى وأنا منه، لا تؤذوا العباس فتؤذونى، من سب العباس فقد سبنى. أخرجه البغوى في صحيحه. فقد جعل ﷺ أذاه كأذى نفسه لأنه عضوه وعصبته، ثم عظم مقامه لتنزيله منزلة الأب، فكما أنه يجب على الولد تعظيم والده والقيام بحقوقه فكذلك عمه، فقال: وإنما عم الرجل صنْو[1] أبيه أى مثل أبيه، قال ابن الأثير: وأصله أن تطلع نخلتان من عذق واحد يريدَ أن أصل العباس وأصل أبى واحد، وقال ﷺ للعباس: والذى نفسى بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله، ولقد أحسن من قال:

رأيت ولائى آل طه فريضة ... على رغم أهل البعد يورثنى القربى

فما طلب المبعوث أجرا على الهدى ... بتبليغه إلا المودة فى القربى

وتؤول مقاولة على مع العباس رضى الله عنهما على أنه لم يقع بينهما قذف ولا سباب يوجب تعزيرا، فضلا عن حد، ويؤول ما وقع بين علىّ ومعاوية رضى الله عنهما من التشاجر الذى قتل بسببه جم غفير، كما فى وقعة صفين بين علىّ ومعاوية، ولم يقاتل علىّ فيها حتى قتل عمار بن ياسر، فجرد ذا الفقار وقتل فى ذلك اليوم ألفا وستمائة، وظهرت فيه معجزة النبى ﷺ بقوله: ويح عمار! تقتله الفئة الباغية، فقتله جماعة معاوية فى صفين، وكان يقول فى تلك الوقعة: والله لو هزمونا حتى يبلغونا شعَاب هَجَر لعلمنا أنا على الحق وهم على الباطل، ثم شرب شربة لبن وقال: اليوم ألقَى الأحبة محمدا وحزبه. ثم قتل فى ذلك اليوم وهو ابن أربع وستين سنة، ررضى الله عنه، وكما فى وقعة الجمل بالعراق بين على والزبير وطلحة، وتؤول أن عليا طلب انعقاد البيعة أولا، ولا تقام الحدود ولا يستقيم أمر الناس إلا بالإمام، وطلب معاوية القصاص من الذين قتلوا عثمان، لكن اتفق أهل الحق أن عليا اجتهد وأصاب، فله أجران، وأن معاوية اجتهد وأخطأ، فله أجر واحد.

---

(١) وهو بكسر الصاد المهملة وسكون النون. [الطهطاوى].

فالتشاجر الذى نشأ عن اجتهاد قرب كلا منها إلى رضوان الله، ولم يقدح فى رأيه ولا دينه ولا يقينه، قد صانهم الله من الخطأ والزلل، وحمى نياتهم وعزائمهم وأعمالهم من الأغراض والقوادح والعلل، يجب اجتنابه وعدم التعرض له والخوض، لأنه يهيج على بغض الصحابة، والطعن فيهم، وهم أعلام الدين الذين تلقى عنهم أئمة الدين وتلقينا عنهم، والطاعن فيهم طاعن فى نسبه ودينه. قال الإمام الشافعى وجماعة من السلف رضى الله عنهم: تلك دماء طهر الله منها أيدينا، فنطهر منها ألسنتنا! فيجب تأويل ما وقع منهم بما لا يوهم نقصان علو مقامهم، لحظوتهم بشريف الصحبة واللقى، قال الشيبانى:

ونسكت عن حرب الصحابة فالذى ... جرى بينهم كان اجتهاداً مجردا

وقد صح فى الأخبار أن قتيلهم ... وقاتلهم فى جنة الخلد خلدا

وورد عنه ﷺ: «من أصاب من أصحابى فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد». وليس المراد أنه مأجور على الخطأ، بل على اجتهاده فى طلب الصواب.

واتفق المحققون من العلماء على أن البحث عما وقع بين الصحابة ليس من العقائد الدينية ولا من القواعد الكلامية ولا ينفع فى الدين، بل ربما ضر باليقين. قال ابن دقيق العبد[1]: وما نقل عن الصحابة فمنه ما هو باطل وكذب فلا يلتفت إليه، ومنه ما كان صحيحًا أوّلناه بأحسن التأويل، لأن الثناء عليهم من الله سابق ومعلوم، وما نقل محتمل، والمشكوك لا يبطل المعلوم. انتهى.

وحكم تنقيصهم الحرمة المغلظة بالإجماع، لقوله ﷺ: «الله الله فى أصحابى، لا تسبوا أصحابى، لا تتخذوهم غرضًا من بعدى، من آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، يوشك أن يأخذه»، وهذا الحديث ـ كما قال بعضهم ـ خرج مخرج الوصية بأصحابه على طريق التأكيد والترغيب فى حبهم والترهيب عن بغضهم، وفيه إشارة إلى أن حبهم من الإيمان والغرض الهدف الذى

(١) محمد بن على بن وهب بن مطيع (١٢٢٨ ـ ١٣٠٢م) مجتهد، من أكابر علماء الأصول، عمل بالقضاء بمصر، وله آثار كثيرة فى الفقه والأصول.

يرمى فيه، فهو نهى عن رميهم، مؤكدًا ذلك بتحذيرهم الله منه، وما ذاك إلا لشدة الحرمة. قال العلامة الطيبى [1] رحمه الله تعالى: معنى قوله ﷺ: «الله الله فى أصحابى»، إلى آخره، أى اتقوا الله فى حق أصحابى، لا تنقصوا من حقهم، ولا تسبوهم، أو التقدير: أذكركم الله وأنشدكم الله فى حق أصحابى وتعظيمهم وتوقيرهم. انتهى.

وقال القاضى عياض: سب أحدهم أو تنقيصه كبيرة، وأما السب الذى لا قذف فيه ففى ذلك خلاف، كالتنقيص بلا سب، ومشهور قول الإمام مالك رضى الله عنه أن فيه الاجتهاد بحسب القائل والمقول فيه، وأما من قال إنهم كانوا على ضلالة وكفر فإنه يقتل، وقد روى الإمام سحنون [2] رحمة الله تعالى مثله فيمن قال ذلك فى الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم، وينكل فى غيرهم، وحكى فى [الشفاء] الخلاف فى كفر من سب عثمان أو عليًا رضى الله عنهما، والذى جزم به الإمام العز بن عبد السلام [3] رحمه الله تعالى فى أماليه أنه لا يكفر بذلك، وقد روى عنه ﷺ: «إذا ذكر أصحابى فأمسكوا»، قيل معناه لا يذكروا إلاّ بأحسن ذكر، فنحن مأمورون بذلك، إما وجوبًا وإما ندبًا، ومطلوبون بمحبتهم، وأخرج الشيخان رضى الله عنهما: لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما يبلغ مد أحدهم ولا نصيفه.

وقال أيوب السختيانى [4]، من أكابر السلف: من أحب أبا بكر فقد أقام الدين، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان فقد استنار بنور الله. ومن

---

(١) الحسين بن محمد بن عبد الله (المتوفى سنة ١٣٤٢م) من علماء الحديث والتفسير والبيان، كان كريما أنفق ثروته فى الخير، وخلف لنا الكثير من الآثار الفكرية فى الحديث والتفسير.

(٢) عبد السلام التنوخى (المتوفى سنة ٨٥٤م)، من علماء المذهب المالكى بالمغرب، ولى القضاء مستقلا عن السلطان، وأشهر مصنفاته [المدونة].

(٣) أبو محمد عز الدين بن عبد السلام (١١٨١ ـ ١٢٦١م) أبرز علماء عصره، نهض بدور كبير فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتصدى للبدع وجور الحكام والدفاع عن الوطن. وله آثار كثيرة فى الفقه الشافعى والعقائد والأصول.

(٤) أيوب بن أبى تميمة كيسان السختيانى (٦٨٥ ـ ٧٤٨م) ناسك زاهد من فقهاء التابعين، كان حافظا للحديث وسيدا لفقهاء عصره.

أحب عليًا فقد استمسك بالعروة الوثقى، ومن أحسن الثناء على أصحاب رسول الله ﷺ فقد برئ من النفاق، ومن انتقص واحدًا منهم فهو مبتدع. انتهى.

والمبتدع من خالف ما عليه أهل السنة والجماعة، كما أشار إليه حديث: «ستفترق أمتى ثلاثًا وسبعين فرقة كلها فى النار إلا فرقة واحدة وهى ما أنا عليه وأصحابى».

فقد وصفهم الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا** ﴾ (الفتح: ٢٩) الآية، وقال تعالى: ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ (المائدة: ٥٤) فقد وصفهم بالشدة والغلظة على الكفار والرحمة والبر بالأخيار، ثم أثنى عليهم بكثرة الأعمال مع الاخلاص التام، فمن نظر إليهم أعجبه سمتهم وهديهم، لخلوص نياتهم وحسن أعمالهم.

قال الإمام مالك رضى الله عنه: بلغنى أن المشركين كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون؛ والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا، فإن هذه الأمة المحمدية، خصوصًا الصحابة، لم يزل ذكرهم معظمًا فى الكتب، كما قال سبحانه وتعالى: (ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه) أى أفراخه (فآزره) أى شده وقواه (فاستغلظ) شب فطال ﴿ **فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ** ﴾ (الفتح: ٢٩) قوته وغلظه وحسن منظره، فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطأ مع الزرع ليغيظ بهم الكفار، ويكفى ثناء الله عليهم ورضاه عنهم وقد وعدهم مغفرة وأجرًا عظيما، ووعد الله حق وصدق لا يخلف، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم، وما ظنك بقوم اختارهم الله تعالى لصحبة رسوله ﷺ ولمواجهة خطابه فى تنزيله، فما أحد من المؤمنين إلى يوم القيامة إلا وللصحابة فى عنقه منن لا تحصى وأياد لا تنسى، لأنهم هم الذين حملوا إلينا عن النبى ﷺ الحكم والأحكام، وبينوا الحلال والحرام، وفهموا الخاص والعام، وفتحوا الأقاليم والبلاد، ونشروا فيها علوم الكتاب والسنة، وساسوا الأمة وقهروا أهل الشرك والعناد، فخضعت الرؤوس لمعاليهم، وأبادوا أهل الزيغ عن آخرهم، ولا مقام أعظم من مقام قوم ارتضاهم الله عز وجل

لصحبة نبيه ﷺ ونصرته، ويحق فيهم قوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»، وقيل:

علامة أصحاب النبي كما رووا ... لنا أنهم كالنجم هاد لمهتد

فمهما ترى نوراً إلى الحق مرشداً ... فذاك من الأصحاب فاتبعه تهتد

وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (النور: ٢٦) فلم ينف عنهم الأسباب ولا التجارة ولا البيع ولا الشراء، فلا يخرجهم عن المدحة غناهم إذا قاموا بحقوق مولاهم.

قال عبد الله بن عتبة: كان لعثمان رضي الله عنه يوم قتل مائة ألف دينار، وألف ألف درهم، وترك ألف فرس، وألف مملوك. وبلغ مال الزبير بن العوام خمسين ألف دينار، وترك ألف فرس، وألف مملوك. وغنى عبد الرحمن بن عوف أشهر من أن يذكر، فكانت الدنيا في أكفهم لا في قلوبهم، صبروا عنها حين فقدت، وشكروا الله تعالى حين وجدت، وإنما ابتلاهم الله سبحانه تعالى بالفاقة في أول أمرهم حتى تكملت أنوارهم وتطهرت سرائرهم فبذلها لهم حينئذ، لأنهم لو أعطوها قبل ذلك فلعلها كانت تأخذ منهم، فلما أعطوها بعد التمكين والرسوخ في اليقين تصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين، وامتثلوا فيها قول رب العالمين: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (الحديد: ٧) ويكفيك في ذلك خروج عمر ابن الخطاب رضي الله عنه عن نصف ماله، وخروج أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن ماله كله، وخروج عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه عن سبعمائة بعير موقورة الأحمال، وتجهيز عثمان بن عفان رضي الله عنه جيش العُسْرة، إلى غير ذلك من أفعالهم، فتضمنت الآيات التزكية لظواهرهم وسرائرهم، وإثبات محامدهم، رضي الله عنهم.

وورد عنه ﷺ: «أرحم أمتي أبو بكر، وأشدها في دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأفرضهم زيد، وأقرأهم أُبَيّ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وإن لكل أمة أمينا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»،

رضى الله عنهم، ومن كلام عثمان رضى الله عنه: من دخل القبر بلا زاد كمن ركب البحر بلا سفينة، ومن ترك الدنيا أحبه الله، ومن ترك الذنوب أحبته الملائكة ومن حسم الطمع عن المسلمين أحبه المسلمون. وورد عنه ﷺ: «إن الفاقة لأصحابى سعادة، وإن الغنى للمؤمن فى آخر الزمان سعادة»، وسبب ذلك أن جل الناس الآن ناظرون إلى الدنيا، وأهل الصدر الأول كان نظرهم إلى الدين، وقد شحت أهل الدنيا بها، حتى بالقدر الواجب، فاحتاج أهل العلم والصلاح إلى الدنيا ليستغنوا بها عن أهلها، فإن من احتاج إليهم هان قدره لديهم، وقد ورد عنه ﷺ: «كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى».

ومن دعاء بعض السلف: اللهم اجعلها فى أيدينا ولا تجعلها فى قلوبنا، وقال بعضهم: نحبها للإنفاق لا للإمساك.

فمن اعتقد فضل الصحابة وترتيبهم بعد النبى ﷺ: أبو بكر، ثم عمر الفاروق، ثم عثمان ذو النورين، ثم على بن أبى طالب، موقنا به كان من أهل الحق، وعصابة السنة، وفارق أهل الضلال والبدعة، فنسأل الله تعالى كمال اليقين، والثبات فى الدين.

وذكر الشهاب الخفاجى [1] عن الحافظ بن حجر أنه لم يكن فى حياته ﷺ أحد من الصحابة رضى الله عنهم أصم، لأنه مبلغ لهم أوامر ربه، والصمم يمنع من ذلك، . بخلاف العمى. انتهى. قال الحافظ بن حجر العسقلانى:

هنيئًا لأصحاب خير الورى	ولا تنس أصحاب أخباره
أولئك فازوا بتذكيره	ونحن سعدنا بتذكاره
وهم سبقونا إلى نصره	وها نحن أتباع أنصاره
ولما حرمنا لُقا عينه	عكفنا على حفظ آثاره
عسى الله يجمعنا كلنا	على رحمة منه فى داره

(١) شهاب الدين المصرى (١٥٧١ ـ ١٦٥٩م) فقيه وطبيب، تولى القضاء، وترك عدة مصنفات منها [عناية القاضى] و[ريحانة الألباب] و[طراز المجالس].

رضى الله عنهم أجمعين.

وقال العلامة القسطلاني [1] في [المواهب]: واختلف في تعريف الصحابي، فقيل من صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين، وإليه ذهب البخاري، وسبقه إليه شيخه ابن المدائني، وعبارته: من صحب النبي ﷺ أورآه ولو ساعة من نهاره فهو من أصحابه. انتهى. وهذا هو الراجح، والتقييد بالإسلام يخرج من صحبه أورآه من الكفار؛ ولو اتفق إسلامه بعد موته، لكن يرد على التعريف من صحبه أو رآه مؤمنًا به ثم ارتد بعد ذلك ولم يعد إلى الإسلام، كعبيد الله بن جحش، فإنه ليس بصحابي اتفاقًا وكذلك ابن خطل، وربيعة بن أمية بن خلف الجمحي وهو ممن أسلم في الفتح وشهد حجة الوداع وحدث عن النبي ﷺ بعد موته ثم لحقه الخذلان والعياذ بالله في خلافة عمر، فلحق بالروم وتنصر بسبب شيء أغضبه، وقد أخرج له الإمام أحمد في مسنده، وإخراجه له مشكل، ولعله لم يقف على قصة ارتداده، فينبغي أن يزاد في التعريف: ومات على ذلك، فلو ارتد ثم عاد إلى الإسلام، لكنه لم ير النبي ﷺ ثانيا بعد عودة، فالصحيح أنه معدود في الصحابة لإطباق المحدثين على عد الأشعث بن قيس ونحوه ممن وقع له ذلك، وإخراجهم أحاديثهم في المسانيد. لكن قال الحافظ زين الدين العراقي: إن في ذلك نظرا كبيرا، فإن الردة محبطة للعمل عند أبي حنيفة، ونص عليه الشافعي في [الأم] وإن كان الرافعي قد حكى عنه أنها تحبط بشرط اتصالها بالموت، وحينئذ فالظاهر أنها محبطة للصحبة المتقدمة، أما من رجع إلى الإسلام في حياته ﷺ، كعبد الله بن أبي سرح، فلا مانع من دخوله في الصحبة بدخوله الثاني في الإسلام. وهل يشترط في الرائي أن يكون بحيث يميز ما رآه أو يكتفي بمجرد حصول الرؤيا؟ قال الحافظ ابن حجر: محل نظر وعمل من صنف في الصحابة يدل على الثاني، فإنهم ذكروا مثل محمد بن أبي بكر الصديق، وإنما ولد قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة أشهر وأيام؛ كما ثبت في الصحيح أن أمه أسماء بنت عنيس ولدته في حجة الوداع قبل أن تدخل مكة، وذلك في أواخر ذو القعدة سنة عشر من الهجرة، ومنهم من بالغ فكان لا يعد في الصحابة إلا من صحب الصحبة العرفية.

(١) مصلح الدين مصطفى (المتوفى سنة ١٤٩٥م) فقيه ومتكلم، تولى القضاء بالدولة العثمانية في أقاليم بروسة وأدرنة واستانبول، وله شروح وهوامش على النسفي والتفتازاني.

وروى عن سعيد بن المسيب [(١)] أنه كان لا يعد فى الصحابة إلا من أقام مع النبى ﷺ سنة فصاعدا أو غزا معه غزوة فصاعدا والعمل على خلاف هذا القول، ومنهم من اشترط فى ذلك أن يكون اجتماعه به بالغا، وهو مردود أيضا، لأنه يخرج مثل الحسن بن على ونحوه من أحداث الصحابة، وأما التقيد بالرؤيا فالمراد به عند عدم المانع منها، فإن كان كابن أم مكتوم الأعمى فهو صحابى جزما، فالأحسن أن يعبر باللقى بدل الرؤيا، ليدخل فيه ابن أم مكتوم، ونحوه، قال الحافظ زين الدين العراقى: وقولهم: من رأى النبى ﷺ، هل المراد رآه فى حال نبوته؟ أو أعم من ذلك حتى يدخل من رآه قبل النبوة ومات قبل النبوة على دين الحنيفية كزيد بن عمرو بن نفيل [(٢)]؟ فقد قال النبى ﷺ :إنه يبعث أمة وحده، وقد ذكره فى الصحابة أبو عبد الله بن منده [(٣)]، وكذلك لو رآه قبل النبوة ثم غاب عنه وعاش إلى بعد زمن البعثة وأسلم ثم مات ولم يره، ولم أر من تعرض لذلك، ويدل على أن المراد: رآه بعد نبوته، أنهم ترجموا فى الصحابة لمن ولد للنبى ﷺ بعد النبوة، كإبراهيم وعبد الله، ولم يترجموا لمن ولد قبل النبوة ومات قبلها، كالقاسم. انتهى.

وهل يختص جميع ذلك ببنى آدم؟ أم يعم غيرهم من العقلاء؟ محل نظر، أما الجن فالراجح دخولهم، لأن النبى ﷺ بعث إليهم قطعا، وهم مكلفون، فيهم العصاة والطائعون، فمن عرف اسمه منهم لا ينبغى التردد فى ذكره فى الصحابة، وإن كان ابن الأثير عاب على أبى موسى فلم يستند فى ذلك إلى حجة، وأما

---

(١) سعيد بن المسيب بن حزن بن وهب المخزومى (٦٣٤ ـ ٧١٣م) أحد فقهاء المدينة السبعة، والمقدم فى طبقة التابعين، كان تاجرا زاهدا ورعا، برع فى الفقه والحديث وأحكام القضاء خصوصا أقضية عمر بن الخطاب.

(٢) زيد بن عمر بن نفيل بن عبد العزى (المتوفى سنة ٦٠٦م) أحد حكماء العرب فى الجاهلية، دافع عن حق المرأة فى الحياة ضد وأدها صغيرة، ورفض الوثنية، ووصل بتأمله وتحنثه فى غار حراء إلى التوحيد، وفى بحثه عن دين جديد رفض اليهودية والنصرانية مثلما فعل مع الوثنية.

(٣) محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى (٩٢٢ ـ ١٠٠٥م) من كبار حفاظ الحديث، له مصنفات كثيرة منها [فتح الباب فى الكنى والألقاب] و[الرد على الجهمية] و [معرفة الصحابة] و[التوحيد] و[التاريخ المستخرج من كتب الناس]. .

الملائكة فيتوقف عدهم فى ذلك على ثبوت البعثة إليهم، فإن فيه خلافا بين الأصوليين حتى نقل بعضهم الإجماع على ثبوته، وعكس بعضهم، وهذا كله فيمن رآه فى قيد الحياة الدنيوية، أما من رآه بعد موته، وقبل دفنه، فالراجح أنه ليس صحابيا، وإلا لعد من اتفق أنه رأى جسده المكرم، وهو فى قبره المعظم، ولو فى هذه الأعصر، وكذلك من كشف له من الأولياء عنه ﷺ فرآه كذلك على طريق الكرامة، إذ حجة من أثبت الصحبة لمن رآه قبل دفنه أنه مستمر الحياة، وهذه الحياة ليست دنيوية، وإنما هى أخروية لا تتعلق بها أحكام الدنيا، وأما من رآه فى المنام، وإن كان قد رآه حقا، فذلك فيما يرجع إلى الأمور المعنوية لا الأحكام الدنيوية، فلذلك لا يعد صحابيا، ولا يجب عليه أن يعمل بما أمره به فى تلك الحالة.

وقد أجمع جمهور العلماء من السلف والخلف على أنهم خير خلق الله وأفضلهم بعد النبيين وخواص الملائكة المقربين، لما روى البخارى رضى الله عنه: «خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»، وله من حديث عمران بن حصين: «خير أمتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال عمران: فلا أدرى أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا، قال فى فتح البارى: والقرن أهل زمان واحد متقارب اشتركوا فى أمر من الأمور المقصودة، ويطلق على مدة من الزمان، واختلفوا فى تحديدها من عشرة أعوام إلى مائة وعشرين، لكن لم أر من صرح بالتسعين ولا بمائة وعشرة، وما عدا ذلك فقد قال به قائل، وقال صاحب [المحكم]: هو القدر المتوسط من أعمار أهل كل زمن، وهذا أعدل الأقوال، والمراد بقرن النبى ﷺ فى هذا الحديث الصحابة، وقد ضبط الأئمة من الحفاظ آخر من مات من الصحابة على الإطلاق بلا خلاف أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثى، كما جزم به مسلم، وكان موته سنة مائة على الصحيح، وهو مطابق لقوله ﷺ قبل وفاته بشهر: على رأس مائة سنة لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها اليوم أحد. انتهت عبارة [المواهب].

* * *

[عود لبدء]: فيفهم مما سبق أن الإمامة، التى هى أعظم مهمات الدين، هى عبارة عن سلطنة بها بقاء الدنيا ونظامها، فالملوك حراس الله فى أرضه، وسر هذا

أن الآدمي مدني بالطبع، بلدي المأوى، لا بد له من مطعم وملبس ومسكن ولا يتأتى المطعم والملبس والمسكن إلا بالصناعات، إذ الصناعات وسائل إلى الحاجات، فقيل أهم الصناعات ثلاثة: الحراثة، والنساجة، والتجارة، ثم تفرعت من هذه الثلاثة أشياء بمنزله حَدَّاد وغَزَّال وحَلاَّج وإسكاف، واختلفت مقاصدهم وأغراضهم، وامتدت أطماعهم إلى ما في أيدي الناس، ولم يرضوا بالعدل والإنصاف، فلأنفسهم كانوا ينظرون، فإذا أخذوا يستوفون، وإذا أعطوا يخسرون وينتصفون ولا ينصفون، لأن النفس مطبوعة على الشح والجبن والحرص والكبر، فاحتاجوا إلى واحد يدفع الظالم عن المظلوم والقوى عن الضعيف، فقيل لا بد من سلطان في كل زمان ليعمل بالعدل والإحسان، وينهى عن البغي والعدوان، إذ العدل ميزان الله وصفة الإنسان فقال: ﴿ **وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ** ﴾ (الرحمن: ٩).

الــوزارة

فإذا عرفت أنه لا بد من السلطان، علمت أنه لا بد له أيضا من رؤساء وأعوان: كأرباب الوزارة على الملك، وأرباب الحجابة والكتابة، والعرب تقول: إن الوزارة تلي الملك، بل الوزارة هي الإمارة، فالوزير بمنزلة الملك، فلا يصلح لها إلا امرؤ راض نفسه وهذبها، وأنصف من نفسه وانتصف لها، والوزير هو الذي يلتجئ الأمير إلى رأيه وتدبيره، فهو ملجأ له ومفزع، من الوَزَرَ، وهو الملجأ، وأصله الجبل، لأنه يلجأ إليه ومعتصم به، وقد استوزر فلان فهو يوازر الأمير فيتوزر له.

وروى عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه».

والوزارة مرتبة جليلة، وصفة جميلة، بها تشد قواعد الممالك الإسلامية، وتسد مكائد الشياطين الغوية، قال بعض العارفين: إن أشرف منازل الآدميين الرسالة، ثم

النبوة، ثم الخلافة، ثم السلطنة، وقال بعض الحكماء: خير الوزراء أصلحهم للرعية، وأصدقهم نية فى النصيحة، وأشدهم ذبا عن المملكة، وأسدهم بصيرة فى الطاعة، قال بعضهم: ينبغى للملك أن يسعى فى إصلاح نفسه بقدر الإمكان، لأن من لم يصلح نفسه من الملوك عسر عليه إصلاح رعيته، وكيف يعرف رشد غيره من يعمى عن داء نفسه، ويتعين عليه أن يبذل اجتهاده فى رونق الشريعة واحترام أهلها وإكرامهم والإثابة على تعليمها والمحافظة عليها، ويأمر أولاد العلماء بالاشتغال بالعلم.

قالوا: ولم يك فى الدنيا أعظم دولة ولا أشمخ مملكة ولا أدوم أياما وذكرا من دولة الفرس، ودولة اليونان، وسبب ذلك تعظيمهم للعلوم والحكم، وتمكين من يشتغل بذلك ورعاية جانبه، حتى كان أكثر ملوكهم علماء وحكماء، والمراد بهم العارفون بأصول الشريعة وما اشتملت عليه من العقائد، كل عقيدة بدليلها وبفروعها، وهى الأحكام المتعلقة بالعمل وبالعلوم التى تَوَقَّف عليها فهم هذين الأمرين من سائر العلوم التى هى آلات لذلك، ومن جملتها علوم شريفة ينتفع بها ويحتاج إليها فى الدولة، كعلم الطب، والمساحة، وعلم الأوقات، فمن تمام رونق الملك اشتمالها على أئمة فى هذه العلوم، فما أضيع دولة قل علماؤها، فإنها ينقطع ذكرها عند انقضاء أيامها.

وكان المعتضد بالله لما بنى قصوره المعرفة بالشماسية وزينها له المنهدسون زاد فى ذرعها فوق الذى اختطوه كثيرا، فسئل عن ذلك فقال: أريد أتخذ حولى مساكن وغرفا يسكنها رؤساء العلماء والفضلاء من كل فن، وأجرى عليهم الإدرارات وما يحتاجون إليه من النفقات، وكل من أراد أن يشتغل بنوع من العلوم قصد ذلك الإمام واشتغل عليه وحصل منه بغير تعب، وكان مقصوده انتشار العلم والزيادة فى الفضائل، وللاحتياج إلى العالم فى كل حين، لأن الشخص لا يجوز له أن يقدم على قول أو فعل حتى يعرف حكم الله فيه، ولذلك وجب على كل شخص وجوبا عينيا معرفة حقائق الأحكام الخمسة ليعرف حكم الله فيما صدر منه، وأن لا يحتجب عن الرعايا، فربما جاء مظلوم فى وقت من الأوقات فيجد الأمير محتجبا فلا يظفر بمراده فيعود منكسر القلب ساخطا، فإنه ليس شىء أضيع للملك ولا أفسد لحال الرعايا من التحجب وتعذر الإذن فى الدخول على ولى الأمر، وليس شىء أهيب فى قلوب الرعايا والعمال من سهولة الحجاب، فإذا كان الملك سهل الحجاب

لم يكن للعمال أن يجور بعضهم على بعض لسهولة حجاب الملك، لأنه يكون له اطلاع على أحوال سائر العمال، فينبغي أن يأمر الحجاب أن لا يحجبوا مظلوما ولا يمنعوا عنه ذا حاجة ولا شاكيا، فقد كان الملوك العادلون لا يغفلون عن مثل هذا الشيء، وإنما كان دأبهم الجلوس فى تعاطى مصالح الرعايا بالغدو والآصال، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يوصى عماله: لا تغلقوا أبوابكم عن ذوى الحاجات، فإنه يجب عليّ أن أسافر فى أقطار الأرض لأنظر فى أحوال الرعايا، فإن فيهم الضعيف والعاجز الذى لا يستطيع الوصول لشكوى ظلامته.

وأفضل عُدَد الملوك صلاح الوزراء والأكفاء، وقال بعضهم: مثل السلطان كالدار، والوزير بابها، فمن أتى الدار من بابها ولج، ومن أتاها من غير بابها انزعج، وكذلك مثل السلطان مثل الطبيب، ومثل الرعية كمثل المرضى، ومثل الوزير كمثل السفير الذى بين المرضى والأطباء فإذا كذب السفير بطل التدبير.

قال بعضهم: ينبغى للوزير أن يكون جامعا لخصال الخير، حسن الخَلْق والخُلُق، يجمع بين البشاشة والوقار، والحلم والهيبة، والعفة والنزاهة وعزة النفس، سديد الآراء، حسن العبارة، سريع الفهم، عالما بالأمور السياسية والناموسية، والضوابط السلطانية، والأحوال الديوانية، والأمور الجزئية، يجمع ويفرق، ويبعد ويقرب، ويشتت ويؤلف، فإذا انضاف إلى ذلك أن يكون بلغ أشده، وأمنت خيانته، وتحققت أمانته، كتوما للأسرار يسكته الحلم وينطقه العلم، له حفظ وبلاغة وإيجاز فى العبارة، حسن التأنى فى مخاطبة المَلك، لطيف التوصل إلى نقل طباعه من الميل إلى الاعتدال، وليكن مشتملا ببرد الصِدق والوفاء، معروفا بصفات الخير، من نفسه منصفا، متبحرا فى أنواع العلوم، مالكا لزمام المنثور والمنظوم، جامعا لشتيت المكرمات، عارفا بكتابة الإنشاء والرسالات، كافيا فى حسن النظر والمباشرات، شافيا فى العروض والمناقلات، خبيرا بالمحاسبات، ماهرا فى الاستيفاء والمقابلات، قويا فى صناعة الحساب والتصرفات، بليغا فى الفصاحة والكلام، حاذقا فى البراعة والاهتمام، وافى الذمام، شفوقا بالإسلام، زكى الفطرة، ذكى الفطنة، سريعا جوابه، كثيرا صوابه، حسنا خطابه، متفننا فى الحكم والاستنباطات، منطبعا

في أعمال المقترحات، متيقظا في تدبير الدولة العادلة، مخلدا ذكر السيرة الفاضلة، جيدا في علم التواريخ والهندسة، محمود العواقب في الإشارات والأقيسة، معمرا للجهات والأعمال، مُثَمِّرًا لأصناف الأموال، كتوما للأسرار، هادما للأوزار، مجتهدا في تحصيل الغلات والأموال من جهاتها، مقتصدا في وجوه صرفها ونفقاتها، قد تجلبب في ذلك بجلباب التقوى، وقدم الله بين يديه حتى يقوى، فهذه صفات الوزير الكامل ذي الجلالتين، والأثير الفاضل في الحالتين، فإن اتفق كون الملك على ما ينبغي أيضا من الخصال المحمودة، والوزير على هذه الصفة، فقد أسعد الله تلك الرعية وعمر تلك البلاد، وهي الدولى التي يتجمل بها الزمان ويرضى عنها الرحمن، وأضر ما على الملك أن يكون وزيره يجيد القول ولا يجيد العمل، فيركن الملك إلى أقواله، ويختل ملكه بإهماله وقبيح أفعاله.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: ورد في الحديث الشريف: «وزيراى من أهل السماء جبريل وميكائيل، ووزيراى من أهل الأرض أبو بكر وعمر»، وخرج مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لقد رأيت يوم أُحُد عن يمين رسول الله ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكائيل، عليهما السلام، وفي رواية: يقاتلان عنه كأشد القتال. انتهى.

ففي هذا ثبوت موازرة جبريل وميكائيل له ﷺ، وثبوت بصحيح الحديث الحسن الذي خرجه أبو بكر بن العربي في ذلك، وذكر ذلك حسان بن ثابت في قوله:

ياركن معتمد وعصمة لائذ ... وملاذ منتجع وجار مجاور

يامن تخيره الإله لخَلْقه ... فحباه بالخُلُق الرضيّ الطاهر

أنت النبي وخير عترة آدم ... يامن يجود بفيض بحر زاخر

ميكال معك وجبرئيل كلاهما ... مدد لنصرك من عزيز قاهر

وكانت الوزارة وظيفة قديمة للملوك قبل الإسلام، وكان للأنبياء الوزراء، كما أخبر سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام في قوله ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ﴾

(طه : ٢٩) الآية، وأول من لقب بالوزير فى الإسلام أبو سلمة حفص بن سليمان[1]، وزير السفاح، ولم تكن رتبة تسمى الوزارة مدة بنى أمية، بل كان من أعوان الأمراء على أمرهم يسمى بالعامل والحاكم، فكانت الوزارة فى دولة السفاح حين تقلدها أبو سلمة رتبة خاصة، تجرى بها القوانين وتنتظم بها الدواوين.

الحجابة

وأما الحجابة له ﷺ فقد ثبت أن أنس بن مالك كان حاجبه ﷺ فيعمل على قوله، روى مسلم عن جابر بن عبد الله قال: جاء أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلسوا ببابه ولم يؤذن لأحد منهم، فأذن لأبى بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له. وعن عمر أن النبى ﷺ صَعد مشربة وعلى الباب وصيف له فقلت: استأذن لى على رسول الله ﷺ فاستأذن لى فإذا رسول الله ﷺ على حصير قد أثر فى جنبه وإذا تحت رأسه مرْفَقة من أدم حشوها ليف. وخرجه البخارى فى صحيحه فى «كتاب النكاح». وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه دخل على النبى ﷺ وهو على سرير قد أثر الشريط بجنبه، فبكى عمر رضى الله عنه فقال النبى ﷺ :ما يبكيك يا عمر؟ فقال: ذكرت كسرى وقيصر وما كانا فيه من الدنيا، وأنت رسول رب العالمين وقد أثر بجنبك الشريط! فقال النبى ﷺ :أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا، ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا فى الآخرة.

ولهذا كان للخلفاء الأربعة حُجّاب، فكان حاجب أبى بكر شديدا مولاه، وقيل سريق مولاه، وقيل إن شديدا كان حاجب عمر.

وحجب لعمر رضى الله عنه مولاه يرفا، وكان يرفا حاجب عمر يدعو صهيبا

---

(١) أبو سلمة الخلال، حفص بن سليمان الهمدانى الخلال (المتوفى سنة ٧٥٠م) أصله من الأنبار، عمل فى الدعوة للعباسيين قبل قيام دولتهم، كان عالما بالأدب والسياسة وتدبير شؤون الملك، ولى الوزارة أربعة أشهر ثم اغتاله مسلحون قيل إن أبا مسلم الخراسانى هو الذى بعثهم لقتله.. وكان يلقب «وزير آل محمد».

وبلالا وخبابا وعمارا وسلمان قبل الناس، ويدخل الناس بعدهم على مراتبهم حتى تمعر وجه الأقرع بن حابس وعُيَيْنَة بن حصن وحكيم بن حزام ورجال من أجلة قريش وسادات العرب، فلما رأى سهيل بن عمرو ذلك، وكان فيهم، قال: لم تمعر[1] ألوانكم وتربد[2] وجوهكم؟ دُعوا ودُعينا، فأسرعوا وأبطأنا، فلئن حسدتموهم على باب عمر وجفانه لما أعد لهم في الجنة أكثر فليطل حسدكم! وقال آخر: كيف بكم وبهم إذا دعوا إلى الجنة وتركتم! وخرج البخارى عن مالك بن أوس بن الحدثان: بينا أنا جالس فى أهلى حين متع النهار[3] وإذا رسول عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يأتينى، فقال: أجب أمير المؤمنين، فانطلقت معه حتى دخلت على عمر فبينا أنا جالس عنده أتاه حاجبه يرفا، فقال: هل لك فى عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد بن أبى وقاص، يستأذنون، قال: نعم، فأذن لهم فدخلوا وجلسوا.

وكان حاجب عثمان رضى الله عنه حمران، مولاه الذى سكن البصرة وبقى إلى أن مات عبد الملك بن مروان، وحجبه أيضا نائل مولاه. يروى أن عدى بن حاتم رضى الله عنه قدم على عثمان رضى الله عنه فى خلافته فحجبه نائل مولى عثمان، فلما خرج عثمان وعرض له عرفه فرحب به فشكا له نائلا غلامه فلامه عثمان فقال: لا تحجبه فإنا نعرف له فضلا.

وكان حاجب على بن أبى طالب كرم الله وجهه قنبرا مولاه، وكان قبله بشر مولاه أيضا. فبهذا صارت الحجابة للملوك كالأجنحة، لأنها تدخل وتخرج بالاستئذان من يستحق الدخول والخروج عليهم.

ومما يناسب ذكره هنا حجابة البيت، المسماة بعمارة البيت، وبالسدانة، وكان يتولاها عثمان بن أبى طلحة وشيبة، وهذان هما اللذان دفع إليهما رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة، وذلك أن عثمان بن طلحة بن عبد الدار أغلق يوم الفتح باب الكعبة وصعد السطح، فطلب رسول الله ﷺ المفتاح ليدخلها فأبى وقال: لو علمت أنه

(١) أى تتغير [الطهطاوى].

(٢) أى تعبس [الطهطاوى].

(٣) أى ارتفع [الطهطاوى]. وفى الأصل: النها.

رسول الله لم أمنعه المفتاح، فلوى عليّ رضى الله عنه يده وأخذ منه المفتاح وفتح الباب فدخل رسول الله ﷺ البيت وصلى فيه ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له بين السقاية والسدانة، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨) الآية، وهذه آية عظيمة اشتملت على جميع السياسة التى يقوم بها أمر الدنيا والدين، فأمر رسول الله ﷺ عليا أن يرد المفتاح إلى عثمان بن أبى طلحة، ويعتذر، ففعل ذلك، وقال: هاك خالدة تالدة، فتعجب من ذلك وقال عثمان: أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق؟ فقال: قد أنزل الله فى شأنك قرآنا، وقرأ عليه الآية، فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فهبط جبريل وأخبر رسول الله ﷺ أن السدانة تكون فى أولاد عثمان أبدا، فلما مات عثمان دفعه إلى أخيه شيبة، فالمفتاح والسدانة إلى اليوم وإلى يوم القيامة فيهم. وروى أنه ﷺ قال لعثمان بن أبى طلحة: هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء. ويروى أنه ﷺ قال: خذوها خالدة تالدة إلى يوم القيامة يا بنى طلحة، إنى لم أدفعها إليكم ولكن الله دفعها إليكم، ولا ينزعها منكم إلا ظالم. وقد سبق بعض ذلك فى فتح مكة.

السقاية

وكانت السقاية، وهى أحواض من أدم، قبل الإسلام لبنى عبد المطلب، فأقرها النبى ﷺ فى الإسلام، وذلك أن أبا العباس كان فى الجاهلية رئيسا فى قريش، وإليه كانت عمارة المسجد الحرام، وولى السقاية فى الجاهلية بعد أبى طالب فقام بها وبقيت معه فى الإسلام، وكان للعباس كَرْم بالطائف، وكان يحمل زبيبه إليها، وكان يداين أهل الطائف ويقبض منهم الزبيب فينبذ ذلك كله ويسقيه الحاج أيام الموسم. قال ابن عطية [1] فى التفسير: قال محمد بن كعب إن العباس وعليا وعثمان بن طلحة تفاخروا، فقال العباس: أنا ساقى الحج، وقال عثمان بن طلحة:

(١) عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى (١٠٨٨ - ١١٤٨م) مفسر وفقيه أندلسى، كان عالما بالحديث والأحكام، وله شعر، وتفسيره للقرآن اسمه [المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز].

أنا عامر البيت ولو شئت بت فيه، وقال على أنا صاحب جهاد الكفار مع النبى ﷺ والذى آمنت وهاجرت قديما، فنزلت الآية ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (التوبة : ١٩).

إمارة الحج

وأما إمارة الحج الشريف من مكة السنية فى السنة الثامنة من الهجرة النبوية، حين فتحها رسول الله ﷺ ، وكان للإسلام بذلك السعد المحتم، فأقام رسول الله ﷺ بها عتاب بن أسيد، وأقامه أميرا أيضا على الحجاج يحج بالمسلمين، فحج ذلك العام، ثم من المدينة المنورة إلى مكة المشرفة، ثم حج بهم أبو بكر رضى الله تعالى عنه سنة تسع، وحج رسول الله ﷺ سنة عشر، ووقف معه مائة ألف وعشرون ألفا، وهى حجة الوداع التى خطب فيها رسول الله ﷺ وأوصاهم وقال: لعلكم لا ترونى بعد عامى هذا، وودعهم، ولم يحج ﷺ بعد الهجرة غيرها، فكان وداعه ﷺ فى هذه الحجة موجبا لتفتت أكباد كانت بوجوده الحسى ﷺ فرحة مبتهجة، وأما بالنسبة له ﷺ فكان غاية أمنيته جوار المولى حيث طلب الرفيق الأعلى، ومما يناسب هنا إيراده ولم يكن إلا لمناسبة نوعية استطراده، ما أنشده فى مدحه ﷺ لبعض علماء الصعيد الفاضل ناصر الدين محمد بن عبد القوى الإسنائى :

تذكر بالسفح بانا وظلا ... فأجرى المدامع وبلا وطلا
يرجى زمانا تولى يعود ... وليس يعود زمان تولى
كئيب تحمل ما لا يطيق ... له الصخر من ألم البين حملا
يبيت يكابد آلامه ... وأسقامه وكما بات ظَلا
وضيع أوقاته فى عسى ... وماذا يفيد عسى أو لعلا

ويشـــرب مـن مـــاء أجـــفـــانه ... على ظـمــأ القـلـب نهـــلا وعـــلا
أحـــبَّـتـنا أكـثـر الـعـمـــر راح ... عـــتـــابا فـــلا تـتـبـــعـــوه الأقـــلا
وعـودوا عـــسى أن يعـود الســرور ... فـــــمـنذ تـوليــــــتمُ عـنه ولّـى
ولا تحـــســـــبــــوه تَـسَـــلاَّكُمُ ... فـــعن مـــثلكم مـــثله مـــا تـسلى
مللتم دنوى ومـــــا عـــــادتـى ... إذا ملنى ســــــادتـى أن أمَـــــلا
ومـــا خنت مـــذ كنت مـيـــثـــاقكم ... ولست أخـــون وحـــاشـــا وكـــلا
فـــيـــابين مـــهــــلا فلـو أن لى ... بقـيـة صـبـــر لما قلت مـــهـــلا
فـحـيـــا الحيـــا أحـــدا والبـقـيـع ... وحيـا الفـريق ومن فـيـه حـلا [1]
وحـــيـــا المدرج ثم العـــقـــيق ... وسلعـا وأرض قـبـا والمصلى [2]
منـازل مـــا أهـنا الـعـيش فى ... ربـاها عـلى كـل حـــال وأهـلا
إذا ســرت عنهـا أرى السـهل وعـرا ... وإن زرتهـا أنظر الـوعـر ســـهـــلا
وفـــيـــهـــا الجـــواد الذى كـــفـــه ... من السحب أنـدى وأجدى وأعلى
أجل الـعــــبــــاد وأعـــــلاهم ... ومـا خلـف دنيـا وأخـرى مـحـلا
نـبى ســـــخى حـــــيى وفـى ... أبر الـبـــريـة قـــولا وفـــعـــلا
وســـيم عليـــه يلـوح القـبـــول ... وسيم الـســعـادة مـذ كـان طفـلا
وخـف على أمـــــه حــــمله ... بلـطف الإله فلم تشـك ثقـــلا
تجلى فـــأخـجل بدر الســـمـــاء ... وأشـــــــرقـت الأرض لما تجلـى
وطهـــره الله خلقـــا وخلقـــا ... وقـولا وفـعـلا وفـرعـا وأصـلا
وأثـــنــى بمـا هـــو أهـــل لــه ... عليـه ومـــا زال للمـــدح أهلا

---

(١) أحد، والبقيع، والفريق: أماكن في المدينة وما جاورها.

(٢) المدرج، والعقيق وسلع وأرض قبا والمصلى: أما كن في المدينة وما قرب منها.

ومفخر كل نبى مضى   ومعجزه أبدا الدهر يتلى
أذل الملوكَ له ربُّه   فكم بين أسرى لديه وقتلى
وطابت بتربته طيبة   وحل بها الخير علوا وسفلا
أمات الدخول به لطفه   فلم يبق بين الفريقين دخلا
له الحوض طوبى لمن نال منه ريا وويل لمن عنه ولى
وما زال يملأ أرض العدو   فى طاعة الله خيلا ورَجْلا
ويبذل مهجته طالبا   رضى الله إذ أظهر الحق بذلا
فلله كم من ذليل أعز   وفى الله كم من عزيز أذلا
وفك أسيرا وآوى طريرا   وعافى مريضا وأغنى مُقلا
وشُق له القمر المستنير   والشمس ردت وناهيك فضلا
وسبح فى راحتيه الحصا   لرب العباد تعالى وجلا
وحن إليه حنين العشَار   جذع قديم وقد كان يبلى
وناول فى يوم بدر قضيبا   لبعض الصحابة فارتد نصلا
وقد سجدت سَرْحة[1] إذ رأته   وأخرى أتته فلبته عجلى
وخبر عن كل شىء يكون   بعد وعن كل ما كان قبلا
عجبت لمن يتعامى عن البراهين وهى من الشمس أجلى
يريدون أن يطفئوا نوره   بأفواههم ضل شانيه ضلا
مدحت محمد المصطفى الكريم الحليم الحكيم الأجلا
لعلى من حوضه فى غد   إذا جئته ظامئا أن أحلى
محمد نحن كما قد علمت   ضيوفك والضعيف يحتاج نُزْلا

(١) السرحة، معناها هنا: الأتان.

ولا ذكــروا عـنك لا فى الحــيــاة	ولا فى الممــات وحـاشـاك بـخـلا
هلـمــوا القِــرا وقِــرانا النجــاة	لذا العــرض إذ يرجع الـعــز ذلا
وقــــفـنا بيــــابك نشـكو إليـك	من الكرب والـكرب قـد عم كُــلا
وأنــى نــظــرت لــنــا نــظــرة	تلاش بهــا كــربنا واضــمــحلى
فـــلا تتـــخلى عن المذنبـــين	إذ المــرء عـن والـديـه تـخـلـى
وصلى عـليك الغـفـور الـرحـيم	وسلم مــا صــام عــبــد وصلى

فلما قبض رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر استعمل عمر بن الخطاب على الحج، ثم حج أبو بكر من قابل، فلما قبض أبو بكر واستخلف عمر استعمل عبد الرحمن بن عوف على الحج، ثم لم يزل عمر يحج سنيه كلها حتى قبض، فاستخلف عثمان، واستعمل عبد الرحمن بن عوف على الحج، ولم يكن الحج فى شيء من خلافة على رضى الله عنه لا شتغاله بالحروب، واستمر أمير الحاج يخرج من المدينة إلى أن انتقلت الخلافة إلى بنى أمية، وكان دار ملكهم الشام المتمتعين فيها بشميم الرند[1] والبشام[2] فصار الأمير يخرج بالحاج منها، ويجتمع عليه الحجوج من نواحيها بمكان معلوم، ويسير بهم على الحكم المنظوم، واستمر أمير الحاج يخرج منها إلى أن انتقلت الخلافة للدولة العباسية، وكانت دار ملكهم بغداد والعراق، فصار أمير الحاج يخرج منها، واستمر الحال على ذلك إلى أن تقوى الفاطميون وبنيت القاهرة المعزية، وكانوا أهل شوكة وقوة زكية، فصار أمير الحاج يخرج منهم من مصر بمحمله الشريف، وترددت المحامل من بغداد والعراق وغيرها صحبة أمرائها، لكن يصيرون كالتوابع لأمير الحاج المصرى فإنه هو المقدم عليهم، ثم عاد الأمر إلى بغداد بعود الخلافة والدولة، فكان أمير الحاج يخرج منها كالأول، إلى أن غلبت الأتراك على مصر، وقامت الدولة فيها[1]، فصار أمير الحاج يخرج بالركب منها، واستمر ذلك إلى الآن.

---

(١) الرند: نبات من شجر البادية طيب الرائحة.

(٢) البشام شجر طيب الرائحة، تستخدم أعواده فى تخليل الأسنان.

ويكون أمير الركب المصرى هو المشار إليه والمعول من أمير الحاج دون سائر المحامل الأخر عليه، فإن المراد بأمير الحاج هو الأمير المنصوب من جانب سلطان العصر، وصحبته الكسوة الشريفة، وما يرد من الحجوج من سائر الآفاق كالتوابع لذلك الأمير، وإن كان المحمل لا تعلق له بإمارة الحاج ولا بالموقف، فإن ذلك إنما هو للإمام الأعظم وللمنصوب من جانبه. ومن المعتاد السنوى الآن أن يرسل مع محمل مصر الشريف كسوة الكعبة المعظمة وبرقع وكيس لمفتاحها وستارة لباب التوبة وغطاء لمقام سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام وستارة له، وذلك الآن من خصوصيات ديوان المحافظة المصرى، يعتنى به فى كل سنة بأحسن أنواع الاعتناء، كالمزركشات القصبية وخطوط الآيات القرآنية الشريفة باللِّيقة الذهبية [٢].

وكانت المحامل قديما أربعة: من العراق، ومصر، والشام، واليمن، ومن بعض السنين خرج محمل من حلب، ومن الكَرَك محمل.

ولم تزل الملوك فى كل عصر يحتفلون بأمر مكة المكرمة والمدينة المعظمة ويخصونهما بأنواع الاحترام، وأصناف التوقير والإكرام، ويحرصون أن يكون لهم بهما الآثار المحمودة، والخيرات الباقية المشهورة، ليذكرون بها على ممر الدهور، فلا يموت ذكرهم وإن ماتوا، ولا يندرس خبرهم وإن درسوا وفاتوا، وليكون سُنَّة لمن بعدهم تقتفى فيعود عليهم أجرها، ووسيلة نافعة لا ينقضى ذكرها، لأن الحج من الشرائع القديمة، والعبادات الفاضلة العظيمة، وجاءت شريعة المصطفى مقررة لها على مدى الأزمان، وجعلتها أساسا للدين المحمدى ومن جملة الأركان.

وكان صاحب هَدْيه ﷺ ناجية الخزاعى، قال: قلت: يا رسول الله، كيف أصنع بما عطب من البُدْن [١]؟ قال: انحرها ثم اغمس من نعلها فى دمها وخل بينها وبين الناس يأكلونها. انتهى. وروى مسلم أن صاحب هَدْى رسول الله ﷺ

---

(١) المراد بالأتراك هنا المماليك، لا الأتراك العثمانيون، والمراد بقيام الدولة بمصر انتقال الخلافة العباسية - الشكلية - إليها فى عهد الظاهر بيبرس البندقدارى.

(٢) أى الملصقات الذهبية المتناثرة.

قال: يا رسول الله، كيف أصنع بما عطب من الهَدْى؟ فقال له رسول الله ﷺ: كل بَدَنة عطبت من الهَدْى فانحرها، ثم ألق قلائدها فى دمها، ثم خل بينها وبين الناس يأكلونها.

الكتابة

وأما الكتابة التى هى أهم دلالات الفهم نفعا وأشرفها، وهى خاصة النوع البشرى التى يظهرها من القوة إلى الفعل، فقد كانت سببا فى ضبط الوحى، كما هى الآن وسيلة عظمى فى ضبط الأموال، وترتيب الأحوال، وحفظ العلوم فى الأدوار، واستمرارها على الأكْوار(٢)، وانتقال الأخبار من زمان إلى زمان، وحفظ الأسرار من مكان إلى مكان، وقال ﷺ: «استعن بيمينك»، قال المُناوى(٣): أى بالكتابة بيدك اليمنى، بأن تكتب ما تخشى نسيانه، إعانة لحفظك، ومن ألطاف الله بعباده الكتابة، حيث شرع لهم ما يعينهم على أداء ما ائتمنوا عليه، وأرشدهم إلى ما يزيل الريب. ومنافع الكتابة لا يحيط بها إلا الله تعالى، فما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم إلاّ بها، ولولاها ما استقام أمر الدارين. انتهى.

وقد ذكر القاضى محمد بن سلامة القضاعى(٤): أن عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب كانا يكتبان الوحى، فإن غابا كتب أُبَىّ بن كعب وزيد بن ثابت رضى الله تعالى عنهما. وقال ابن عبد البر: كان أُبَىّ بن كعب ممن كتب لرسول الله ﷺ الوحى قبل زيد بن ثابت ومعه أيضا، وكان زيد ألزم الصحابة لكتابة الوحى، وكان أُبَىّ وزيد يكتبان الوحى بين يدى رسول الله ﷺ، فإن لم يحضر أحد من هؤلاء

---

(١) والبدن: واحدتها بدنة، وهى ناقة أو بقرة تنحر بمكة. [الطهطاوى].

(٢) الاكوار، مفردها كور ـ بفتح الكاف وسكون الواو ـ ومعناه هنا الجماعة الكثيرة.

(٣) محمد بن عبد الرؤف (١٥٤٥ ـ ١٦٢٢م) من كبار علماء مصر فى عصره، انقطع للبحث والإملاء، وخلف نحوا من ثمانين مصنفا فى السيرة والحديث وغيرهما.

(٤) محمد بن سلامة بن جعفر (المتوفى سنة ١٠٦٢م) مؤرخ ومفسر وفقيه شافعى، ولى القضاء والكتابة بمصر الفاطمية، وله آثار كثيرة فى التفسير والتاريخ.

الأربعة كتب من حضر من الكتاب، وهم معاوية بن أبى سفيان، وخالد بن سعيد بن العاص، وأبان بن سعيد، والعلاء بن الحضرى، وحنظلة بن الربيع، وكان عبد الله بن سعد بن أبى سرح يكتب الوحى أيضا، فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين، فلما فتحت مكة استأمن له عثمان بن عفان، وكان أخاه من الرِّضاعة، فأمَّنه رسول الله ﷺ، وحسن إسلامه، وولاه عمر مصر، ثم أمَّره عثمان عليها، وخرج عنها حين تأمَّرَ عليها محمد بن حذيفة، ومات بعسقلان. انتهى.

وقد تقدم بسط الكلام على الكتابة فى (الفصل السادس) من (الباب الثانى) من (المقالة الرابعة) من (الجزء الأول)[1].

وأما الرسائل والإقطاع فأول من كتب لرسول الله ﷺ مَقْدمه المدينة أبَىّ بن كعب الأنصارى، وهو أول من كتب فى آخر الكتاب: «وكتب فلانٌ»، وكان أبَىّ إذا لم يحضر دعا رسول الله ﷺ زيد بن ثابت فكتب، وكان أبَىّ وزيد يكتبان الوحى بين يديه ﷺ، ويكتبان كُتبه إلى الناس وما يُقْطع وغير ذلك. وكان من المواظبين على كتاب الرسائل عبد الله بن الأرقم الزهرى. وكان زيد بن ثابت يكتب الوحى ويكتب إلى الملوك أيضا، وكان إذا غاب عبد الله بن الأرقم وزيد بن ثابت واحتاج أن يكتب إلى أمراء الأجناد والملوك أو إلى إنسان بإقطاع أمر من حضر أن يكتب له.

وكتب زيد بعد رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر، وكان على بيت المال فى خلافة عثمان.

وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه قد أمره بجمع القرآن فى الصحف فكتبه بيده، فكان أول من جمع القرآن بعد رحلة النبى ﷺ أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، وقال على رضى الله تعالى عنه: هو أول من جمع كتاب الله تعالى بالترتيب المخصوص المقبول المجمع عليه عند الأمة كافة، وكان كاتبه عند جمعه زيد ابن ثابت رضى الله عنه، وكان لا يكتب آية إلا بعَدْلين شاهدين، وأن عمر رضى الله تعالى عنه أتى بآية الرجم فلم يكتبها لأنه كان وحده، وزيد كان كاتب الوحى

---

(١) انظره فى الجزء الثالث من هذه الأعمال.

عند رسول الله ﷺ ، وكان من جملة الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ ، وفى [الجامع الصحيح] لمسلم رحمه الله عن قتادة قال : سمعت أنسا يقول : جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة كلهم من الأنصار : معاذ بن جبل ، وأبَيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، قال قتادة : قلت لأنس : من أبو زيد؟ قال : أحد عمومتى .

وكان سبب ذلك أنه لما تولى الخلافة أبو بكر جهز الجيوش لقتال من ارتد بعد موت النبى ﷺ ، ومن جملتها جيش جهزه لقتال مسيلمة الكذاب ومن ارتد معه من العرب ، وأمَّر عليهم خالد بن الوليد المخزومى ، فالتقيا وتقاتلوا قتالا عظيما ، وانهزم المسلمون وقتل منهم ألف ومائتان منهم سبعمائة حاملة للقرآن ، وقتل زيد ابن الخطاب رضى الله عنه ، ثم تأمر البراء بن مالك ورد الهزيمة على المشركين وقتل مسيلمة وقتل معه عشرة آلاف من المرتدين ، فلما رجعوا قال عمر بن الخطاب لأبى بكر رضى الله تعالى عنهما : يا أبا بكر ، إن القتل قد فشا فى القراء ، وأخاف أن يذهب القرآن بذهاب حملته! فقال له أبو بكر : أأفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال : نعم ، هو والله خير ، فراجعه مرارا حتى انشرح صدره لذلك ، فقال أبو بكر لزيد بن ثابت : إنك كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، وأنت لا نتهمك فى شىء ، لأمانتك وصيانتك ، فاجمع القرآن ، قال له زيد : والله لو كلفتنى نقل جبل من الجبال كان أهون علىّ من جمع القرآن! ولم يزل به أبو بكر حتى شرح الله صدره بجمعه ، فجعل يتتبع الرقاع والأضلاع والعُسُب (١) واللِّخاف (٢) ومن صدور الرجال حتى جمعه ورتبه على سبعة أوجه ، لقوله ﷺ : «نزل القرآن على سبعة أحرف كلها كافية شافية ، فاقرؤوا كيف شئتم» ، قال أبو عمرو :

---

(١) وهو سعف النخل . [الطهطاوى] . وواحدها عسيب ، وهى جريدة النخل إذا كشط خوصها .

(٢) وهى الحجارة الرقاق البيض . [الطهطاوى] .

والأحرف التي حوى الكتاب منزلة وكلها صواب

أعني الذي أتى من الآيات عن سبعة من أفصح اللغات

جاء بها عن ربه جبريل وقال قد خص بها التنزيل

فاقرأ بها أنت وكل أمتك فإنها توسعة في سنتك

وكلها مستحسن وكافي وكلها لمبتغيها شافي

فأي حرف شئتم قرأتم منها ووجه الحق قد أصبتم

ما لم تتموا آيه الثواب وذكرها بآية العقاب

أو آية العقاب بالثواب فإن ذاك ليس بالصواب

فقرأ الصحب به زمانا إلى خلافة الرّضى عثمانا

فكثر الخلاف والمراء حينئذ واختلف القُرَّاء

في أحرف الذكر وفي اللغات فاجتمع الكل على القراة

بواحد من الحروف السبعه إذ فيه مقنع لهم ومنَعه

ثم بقي المصحف الذي جمعه زيد عند أبي بكر إلى أن توفي، فكان عند حفصة زوج النبي ﷺ، فلما كان في خلافة عثمان جرده عثمان من تلك الأوجه السبعة إلى وجه واحد لئلا يكثر الخلاف بين الناس، لأنهم تشاجروا في القرآن، وادعى كل واحد أن قراءته هي الصحيحة وما دونها خطأ، وذلك لأنهم اختلفوا اختلافا كثيرا، إلى أن قال بعضهم: قراءتنا أفضل من غيرها! ثم إن القراء الذين سلموا من القتل عند فتح اليمامة في زمن أبي بكر ماتوا عند فتح أرمينية وأذربيجان في زمن عمر وعثمان، فحينئذ بادر عثمان ورده مصحفا واحدا، فأحضر المهاجرين والأنصار، وأرسل عثمان إلى حفصة فأرسلت إليه الصحائف التي جمعها زيد، ثم قال: يا معشر المهاجرين والأنصار، أيُّ الناس أعرف بالقرآن؟ قالوا: سعيد بن العاص، قال: وأيُّ الناس أكْتَب؟ قالوا: زيد بن ثابت، قال: فليمل سعيد، وليكتب زيد. وأحضر معهما عبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن

هشام، وقال لهم: إذا اختلفتم في لغة فاكتبوها بلغة قريش، فلم يختلفوا إلا في التابوت في البقرة، فقال زيد: بالهاء، وقال غيره: بالتاء، فكتبوه بالتاء، ثم أمر عثمان فنسخت أربع نسخ، بعث بواحدة إلى الشام، والثانية للكوفة، والثالثة للبصرة، وبقيت الرابعة في المدينة، ثم زاد بعد ذلك ثلاث نسخ أخر، فأرسل واحدة إلى مكة، وأخرى إلى اليمن، وأخرى إلى البحرين، ومن تلك النسخ التي نسخها عثمان اختلف الحذف والإثبات والاتصال والانفصال وسائر المرسومات كلها، لأنها كانت في بعضها كذا وفي بعضها كذا، ولا يجوز بعد ذلك تبديل ولا تغيير فيما وضعوه أبدا، وكان زيد بن ثابت هو الذي كتب القرآن عند نزوله على رسول الله ﷺ، وجمعه لأبي بكر، ونسخه لعثمان، ولم يكن في كتاب الوحي أثبت من زيد.

قال أبو عمرو بن عبد البر: ولما اختلف الناس في القراءة زمن عثمان، واتفق رأيه ورأي الصحابة أن يرد القرآن إلى حرف واحد، وقع اختياره على حرف زيد، فأمره أن يملي المصحف على قوم من قريش جمعهم إليه فكتبوه على ما هو عليه اليوم. فمن هذا يعلم أن قولهم في عثمان رضي الله عنه أنه أول من جمع مصحف القرآن ليس على ظاهره، فإن أبا بكر رضي الله عنه جمعه في صحف، وبقيت تلك الصحف عند حفصة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها زمن عثمان رضي الله تعالى عنه، وكان جماعة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم قد جمعوه أيضا قبل ذلك، ومن أشهرهم عبد الله بن مسعود، وإنما لما أكمل عثمان رضي الله تعالى عنه كتب المصحف أمر بانتزاع ما عند الصحابة من المصاحف فانتزعت إلا مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فقد كانت جمعت من مصاحف قبل مصحف عثمان، وإنما نسبوا ذلك إليه لأنه المصحف الذي بعثت نسخه إلى الأمصار، وائتم المسلمون به في جميع الأقطار.

وأما العهود والمصالحات فقد قال أبو عمرو بن عبد البر: كان الكاتب لعهوده إذا عهد ولصلحه إذا صالح عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه. وخرج البخاري عن البراء أن النبي ﷺ لما أراد أن يعتمر أرسل إلى أهل مكة يستأذنهم ليدخل

مكة، فاشترطوا عليه أن لا يقيم بها إلا ثلاث ليال، ولا يدخلها إلا بجُلُبَّان [1] السلاح، ولا يدعو منهم أحدا، قال: فأخذ يكتب الشرط بينهم على بن أبى طالب رضى الله عنه، فكتب: «هذا ما قاضى [2] عليه محمد رسول الله»، فقالوا: لو علمنا أنك رسول الله لم نمنعك ولبايعناك، ولكن اكتب: هذا ما قضى عليه محمد ابن عبد الله، قال: «أنا والله محمد بن عبد الله، وأنا والله رسول الله»، قال: وكان لا يكتب فقال لعلى: «امح رسول الله»، فقال على: والله لا أمحوه أبدا! قال: فأرنيه، قال: فأراه، فمحاه النبى ﷺ بيده.

صاحب الخاتم

وأما صاحب الخاتم فقد خرَّج البخارى عن أنس رضى الله عنه قال، لما أراد رسول الله ﷺ أن يكتب إلى الروم، فقيل له: إنهم لن يقرأوا كتابك إذا لم يكن مختوما، فاتخذ خاتما من فضة، ونقشه (محمد رسول الله) فكأنما أنظر إلى بياضه فى يده ﷺ .وكان إذا دخل الخلاء ينزعه، لأن فيه إسم الله الأعظم، وكان يتختم فى يمينه. ثم من بعد رحلته إلى جوار رحمة الله تعالى وقربه كان خاتمه الشريف فى يد أبى بكر، ثم عمر، ثم عثمان رضى الله تعالى عنهم، فوقع من يد عثمان رضى الله عنه فى بئر أريس، فلذا اختل أمر الخلافة فى زمن عثمان رضى الله تعالى عنه كما اختل ملك سليمان، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، بذهاب خاتم الملك. قيل كان هذا سبب اختلال أمر الخلافة ولو لم يقع خاتمه ﷺ فى البئر لانتظم أمر الخلافة فى أمته إلى يوم القيامة، ولكن كان أمر الله قدرا مقدورا لا مرد لقضائه.

قال ابن بطال قال المهلب: كان عليه السلام لا يستغنى عن الختم به فى الكتب

---

(1) الجلبان ـ بضم الجيم واللام وفتح الباء مشددة ـ معناه هنا جراب السلاح يصنع من الجلد. أى لا يدخل مكة شاهرا سلاحه، بل واضعا إياه فى الجراب كشأن المسافر لا المحارب.. ويقول المؤلف: «وجلبان: بضم الجيم واللام وتشديد الباء، ورواه بعض الناس بسكون اللام، وعلى كل فمعناه: جفون السيوف».

(2) وقوله: قاضى، أى صالح. [الطهطاوى].

إلى البلدان وأجوبة العمال وقواد السرايا ، وكان صاحب خاتمه المُعَيْقيب ، ويقال المعيقب ، ابن أبى فاطمة الدوسى ، حليف لآل سعد بن العاص ، أسلم وقدم على النبى ﷺ بالمدينة ، واستعمله أبو بكر وعمر على بيت المال ، وقد تقدم قريبا من هذا التنويه بذلك فى غزوة خيبر .

وأما اتخاذ معاوية ديوان الخاتم قبل غيره فإنه بالنسبة لكونه جعله يعتمد فى المحاسبات ، وسبب ذلك أنه أمر لرجل بمائة ألف وكتبها له فى كتاب ففك الكتاب وجعلها مائتى ألف ، فلما رفع الحساب إلى معاوية أنكر ذلك ، واتخذ ديوان الخاتم أى مصلحة المهردارية من يومئذ ، واستمرت الخلفاء إلى آخر الوقت على ذلك .
وكان على فصه : «لكل عمل ثواب» .

الفصل الثالث

(فى العمالات الفقهية وما يضاف إليها)

معلم القرآن

من العمالات الفقهية : معلم القرآن، وقد ذكر ابن الجوزى فى [كشف مشكل الصحيحين] عبادة بن الصامت، رضى الله تعالى عنه، قال : شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان يعلم أهل الصُّفَّة القرآن، وهو أحد النقباء الاثنى عشر. انتهى.

وهو كان يعلم ذلك بالمدينة، والنبى ﷺ فيها، وقد ورد فى الآثار ما يدل على أن أول دار فتحت للقراء فى المدينة المشرفة، ولا مانع أن نعتبر أنها أول مدرسة فتحت فى الإسلام، فقد قال الواقدى : إن عبد الله بن أم مكتوم قدم مهاجرًا إلى المدينة، فنزل دار القراء. انتهى.

ولعل عبادة بن الصامت كان يعلم فيها القرآن والكتابة. وكذلك عبد الله بن سعيد ابن العاص، كان يعلم الكتابة فى المدينة، كما سيأتى قريبًا، فلعله أيضًا كان من جملة من يعلم فى هذه الدار، وكذلك الأسرى الذين كانوا يفتدون أنفسهم بتعليم كل واحد منهم الكتابة لعشرة من أبناء الأنصار، كما سيأتى.

وأما من بعثه ﷺ إلى الجهات يعلم الناس القرآن فمنهم مصعب بن عمير رضى

الله تعالى عنه، ففى سيرة ابن إسحاق: ولما انصرف عن رسول الله ﷺ القوم، يعني الذين بايعوه في الأولى، وهم اثنا عشر، بعث معهم مُصْعَب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، وكان يسمى المقرئ بالمدينة. ومنهم معاذ بن جبل، فإنه أرسله رسول الله ﷺ إلى مكة يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن وبعثه رسول الله ﷺ أيضا قاضيا إلى الجَنَد في اليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم، وجعل إليه قبض الصدقات من العمال الذين في اليمن، ومنهم عمرو بن حزم بن زيد الخزرجي، من بني مالك، على نجران، ومنهم [1] بلحارث ابن كعب، وهو ابن سبع عشرة سنة، ليفقههم في الدين ويعلمهم في القرآن ويأخذ صدقاتهم، وذلك سنة عشر بعد أن بعث إليهم خالد بن الوليد فأسلموا.

معلم الكتابة

ومن العمالات الفقهية: معلم الكتابة، فممن كان يعلم الكتابة عبد الله بن سعيد ابن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، كان اسمه في الجاهلية الحَكَم فسماه رسول الله ﷺ عبد الله، وأمره أن يعلم الكتابة بالمدينة، وكان كاتباً محسنًا، وخرَّج أبو داود رحمة الله تعالى عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: علمت ناسًا من أهل الصُّفَّة الكتاب والقرآن وأهدى إليّ رجل منهم قوسًا، فقلت: ليست بمال وأرمي عليها في سبيل الله، ولآتين رسول الله ﷺ فلأسألنه، فأتيته فقلت: يا رسول الله، رجل أهدى إليَّ قوسًا ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن، وليست بمال، وأرمي عليها في سبيل الله، قال: «إن كنت تحب أن تطوق طوقًا من نار فاقبلها»! قال السهيلي في [الروض الأنف] في الكلام على غزوة بدر: إنه كان من الأسرى يوم بدر من يكتب، ولم يكن في الأنصار أحد يحسن الكتابة، فكان منهم - أي من الأسرى - من لا مال له، فيقبل منه أن يعلم عشرة من غلمان الأنصار الخط، فإذا حذقوا فهو فداؤه. انتهى.

---

(١) في الأصل: وهم.

ومنه يفهم جواز تعليم الكتابة للمسلم من غير المسلم.

قال بعض العلماء: كتابة الأمم على نوعين، أحدهما أن يبتدئ الكاتب خطه من يمينه إلى يساره، وهي العربية والسريانية والعبرانية، والنوع الآخر ابتداء الخط من يسار الكاتب إلى يمينه، وهي الرومية واليونانية وكتابة الفرس، واحتجوا في ذلك أنهم ابتدؤها على اليسار ليكون الاستمداد من حركة القلب لا إليه، قال: وأحسن الكتابة الصينية، وذلك لأنها نقش وصورة، وإنما يكتب الكاتب منها في اليوم ثلاث ورقات، وقال بعضهم: إنه رأى في بعض الكتب أن عاداً كانت كتابتها نقشاً في الصخر، واستشهد على ذلك يزيد بن الحزم.

إذا قلدتهن بذى حريم   بقين لهم بقاء سطور عاد

يريد قوافي شعره، يعني أن عاداً كانت كتابتها نقشاً في الصخر فهي لا تَدْرس. انتهى.

وقد كان في زمان رسول الله ﷺ من يعلم القراءة والكتابة من النساء، كالشفاء أم سليمان، فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال لها: «علمي حفصة رُقْيَة النملة كما علمتها الكتاب[1]» وخرَّج أبو الدرداء رضي الله عنه عن الشفاء بنت عبد الله قالت: دخل عليَّ النبي ﷺ وأنا عند حفصة، فقال: «ألا تعلمين هذه رُقْيَة النملة كما علمتها الكتاب»؟ انتهى.

وهذا الحديث دليل على أن تعلم النساء الكتابة جائز.

تعليم الفقه والإفتاء

ومن العمالات الفقهية تعلم الفقه في الدين، ووظيفة الإفتاء، والفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية، وروى مسلم عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم، ويعطي الله»، والمراد بالخير في

(١) أي الخط والهجاء.. والنملة: بثور صغار مع ورم يسير، ثم ينقرح فيتسع، وتسميه الأطباء: الذباب. [الطهطاوي].

الحديث: الخير الكامل، وفى هذا الحديث بشارة للمشتغل بالفقه من حيث أن فيه إعلامًا بسيادته.

والتفقه فى الدين يختلف، حيث إن الله [1] تعالى يعطى كل واحد من الفقه ما أراد، لأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومن ذلك قول عمر رضى الله عنه: تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا[2] قال الحافظ فى [الفتح] ومعناه: تعلموا العلم قبل أن تصيروا سادة منظورًا إليكم فتستحوا أن تتعلموا بعد الكبر فتبقوا جهالاً. وقول علىّ رضى الله عنه: كفى بالعلم شرفًا أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ذمًا أن يتبرأ منه من هو فيه! وقال الشافعى رضى الله عنه: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة، وليس بعد الفريضة أفضل من طلب العلم. قال العلماء: وجهه أن طلب العلم إما أن يكون فرض عين أو كفاية، وكلاهما أفضل من صلاة النافلة. ومن ذلك أيضًا قوله ﷺ: «نضر الله امرأً سمع منا حديثًا فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى ما هو أفقه منه»، حتى إن غير الصحابى قد يستنبط من كلام النبوة ما لا يخطر ببال الصحابى، كما يشهد لذلك قوله ﷺ، فى رواية أخرى: «رب مُبَلَّغ[3] أوعى من سامع». ومما استدل به الأكثرون على أفضلية الفقه على غيره من العلوم، بعد معرفة الله تعالى، ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ (التوبة: ١٢٢) لما كان نفر جميع المؤمنين لطلب التفقه غير ممكن قال الله تعالى ﴿ **فَلَوْلا** ﴾ أى فهلا ﴿ **نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ** ﴾ أى من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم لتحصل بهم الكفاية ﴿ **لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ** ﴾ أى ليتكلفوا الفقاهة فيه ويتحملوا المشاق لأخذها وتحصيلها ﴿ **وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ** ﴾ ليجعلوا عزمهم وصرف همتهم فى التفقه إنذار قومهم وإرشادهم ونصحهم، وليكونوا قدوة للمسلمين وحفظًا للشرع من الضياع، فإذا قامت به هذه الطائفة سقط فرض الكفاية عن غيرها.

---

(١) فى الأصل: لله.

(٢) بضم المثناة وفتح السين وتشديد الواو، أى تجعلوا سادة. [الطهطاوى].

(٣) بفتح اللام. [الطهطاوى].

وقال رسول الله ﷺ : «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» والمراد به علم العمل الذى هو مشهور وجوبه على المسلمين، وقال ﷺ : «ما عُبد الله بشىء أفضل من فقه في دين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»، ويدخل فى لفظ الفقيه فقهاء الصحابة والتابعين وتابع التابعين والأربعة الأئمة المجتهدون ومن تبعهم إلى يوم الدين، وقد اقتبس بعض العلماء هذا الحديث فى أبيات مذكورة فقال:

تعلم فإن العلم زين لأهله	وفضل وعنوان لأهل المحامد
وكن مستفيدًا كل يوم زيادة	من العلم واسبح فى بحور الفوائد
تفقه فإن الفقه أفضل قائد	إلى البرِّ والتقوى وأعدل قاصد
هو العَلَم الهادى إلى سنن الهدى	هو الحصن ينجى من جميع الشدائد
فإن فقيهًا واحدًا متورعًا	أشد على الشيطان من ألف عابد

وقوله: «ولفقيه واحد»، أى وجوده وبقاؤه، فإن الفقيه يأمر الناس بالإيمان والطاعة ويدعوهم إلى سبيل الرحمن فيصلون إلى السعادات الباقية والدرجات الراقية، وكل ذلك مخالف لمراد الشيطان، فيكون العالم أشد عليه وأبغض إليه، بخلاف العابد.

والأحاديث والآثار المروية [(١)] فى إفادة العلم واستفادته كثيرة، وكيف لا وهو أولى ما صرفت الهمة فى تحصيله، وأعلى ما دأب المكلف فى معرفة دليله ومدلوله، وهو وإن تنوع فمرجعه إلى علم ربوبية [(٢)] وعلم عبودية، ومعرفة الله أولى بالتقسيم، وهى السبب الأعلى والصراط المستقيم، فالفقه المشار إليه فى الآية والحديث هو الفهم، والتفهم هو التعلم، وبه يكون الفهم، دليله قول الله تعالى: (ليتفقهوا) أى ليفهموا ويتعلموا ما أمروا به، فالفهم بالتفهم، والفقه بالتفقه، أى التعلم، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾

(١) فى الأصل: المرعية.

(٢) فى الأصل: ربوبية.

(النحل: ٧٨) ثم أمرنا بالسؤال فقال: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ (النحل: ٤٣) والسؤال هو عين التفقه، الذى هو التعلم، وهذا يدرك بالمشاهدة، فالجاهل بشيء أول ما يبتدئ بتعلمه وتفهمه، ثم بعد يكون فقيهًا عالمًا، فإذن الفهم بعد التفهم، والفقه بعد التفقه، وحقيقة الفهم هو ما يمد الله به عقل عبده من السر الإلهى الذى يفهم به عنه ما أمره به ونهاه عنه في كتابه وسنة نبيه، وهما الدين الذى أمرنا بالتفقه فيه، وهو الذى جاء به نبينا ﷺ لأمته عن ربه لا غير ذلك. وقد روى عنه ﷺ: «لكل شيء عماد، وعماد هذا الدين الفقه»، وعماد الشيء قاعدته التى يعتمد عليها وينبنى عليها، والدين هو الذى بعث به أكرم خلقه نبينا محمد ﷺ ليظهره على الدين كله، وقال ﷺ «خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فَقُهوا[1]» - (أى مارسوا الفقه وتعاطوه، أى أن أصول بيوتهم الشريفة تعقب أمثالها، ويسرى كرم أعراقها إلى فروعها، لا يكون فيه خيار بمجرد ذلك، فلا خيار فى الإسلام إلا بالفضل والتقوى، فمن اتفق له مع ذلك أصل حميد شريف الأعراق كملت فضيلته وربما فضل عن غيره) - وورد عنه ﷺ: «من تفقه فى دين الله كفاه الله تعالى مؤونته، ورزقه من حيث لا يحتسب» فإن من شغل قلبه بأمر الرزق من القوت والكسوة قلما يتفرغ لتحصيل مكارم الأخلاق ومعالى الأمور.

وقد اقتضى حديث: «من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين»، أن من لم يفقهه الله سبحانه وتعالى فى الدين لم يكن ممن يرد الله به خيرًا. والمراد بالدين فى الحديث الإسلام، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ (آل عمران: ١٩) بدليل الألف واللام فإنه ﷺ جاء بالهدى والنور مما شرع الله على لسانه من التحليل والتحريم والوصايا والآداب وسير الأولين والآخرين، وما قص من أحسن القصص، مع ما ثبت بالدليل أنه ﷺ يحب امتثال أمره واجتناب نهيه، وهذا الأصل هو لا إله الله أوجب إيقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، إلى غير ذلك من الأوامر.

---

(١) بضم القاف. [الطهطاوى].

وإنما ذكر رسول الله ﷺ هذه الخمسة في قوله: «بني الإسلام على خمس»، لأنها سمات الإسلام وعلامة كل مسلم، وهى فرض عين، وهى أصول علم الفقة. وحد العلم:

معرفة المعلوم على ما هو به، وعلم الله قديم، وعلم المخلوقين الحادث ينقسم إلى ضرورى، ومكتسب بالدليل الذى هو المرشد.

ويشتمل الفقه على: واجب، ومندوب إليه، ومباح، ومحظور، ومكروه. **فالواجب**: ما ينال تاركه الوعيد، **والمندوب إليه**: ما فعله أفضل ولا إثم فى تركه، **والمباح**: ما أطلق للعبد التخيير بين فعله وتركه إلا أن ينوى به ثوابًا، **والمحظور**: المحرم، **والمكروه**: ما تركه أفضل من فعله. ويستدل على تلك الأحكام بأوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ وفعله ﷺ وإقراره الفاعل، والأصل فى الكلام الحقيقة، وفيه المجاز بالقرينة، وللأمر صيغة تقتضى الوجوب، وإذا ورد الأمر بأشياء مع التخيير كان الواجب واحدًا غير معين، فإذا أداه المأمور به أجزاه، والفرض هو الواجب عند الإمام الشافعى، فهما مترادفان إلا فى الحج، وعند الإمام أحمد والإمام أبى حنيفة الواجب لازم والفرض ألزم، والنهى ضد الأمر، والتعميم فى أقل الجمع فصاعدًا، فإذا عرف بالألف واللام فهو تعميم، نحو المسلمين، وكذلك إن كان بصيغة الواحد إذا كان للجنس نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (العصر: ٢) ولا يعم شىء من أفعال النبى ﷺ إلا بدليل، والتخصيص تعيين البعض دون الكل، والنطق إذا ورد على سبب تعلق به كيف وقع، ويخصص النطق بالاستثناء والشرط والتقييد والمجمل من القول المبهم، والمبين يكون بالتعيين، والنسخ رفع الحكم، وليس بالبداء، ولا يجوز النسخ إلا فيما يتناول تكليف الخلق دون صفات الخالق وتوحيده، ويجوز نسخ القرآن بالقرآن، والسُّنَّة بالسُّنَّة فيها تماثل طريقه، والفعل بالفعل، ولا ينسخ القرآن ولا السُّنَّة بالإجماع ولا بالقياس، وإذا قال الصحابى: هذه الآية منسوخة، ولم يذكر ما نسخها، لم يثبت نسخها.

وشرع الإسلام مغن عن غيره، فشرع من قبلنا ليس شرعًا لنا، وفعل رسول الله ﷺ شرع، وكذلك إقراره.

وللخبر صيغة، ومنه المتواتر، والآحاد، ومنه المتصل، والمرسل، والمتصل: ما اتصل إسناده بالعنعنة، وأفضله أن يقول الراوى: سمعت أو حدثنى، فإن قال أخبرنى أو أنبأنى نقص عن تلك الرتبة، لجواز أن يكون الإخبار إجازة، وأما المرسل: فهو ما يرويه التابعى عن رسول الله ﷺ .ومن شرط قبول رواية الراوى أن يكون عدلاً غير مبتدع، والصحابة كلهم عدول، ويلزم الجارح للراوى تفسير ما جَرَّحه به، وبينة الجَرح مقدمة على بينة التعديل. ورواية حديث رسول الله ﷺ بالمعنى غير جائزة إلا عند بعض العلماء للعالم دون غيره. ولا يفك الأمر الثابت بكتاب أو سنة ثابتة أو إجماع المسلمين بخبر الواحد، ويرجح الخبر على الخبر بفضل راويه وموافقة متنه للقرآن.

وإجماع المسلمين حجة فى الشرع. وقول الصحابى مقدم على القياس.

والقياس: حمل الفرع على أصله فى بعض أحكامه بمعنى يجمع بينهما، ويحتج به فى جميع الأحكام الشرعية. وهو: قياس علة، وقياس دلالة، وقياس شبه، ويشتمل القياس على أربعة أشياء، وهى: الأصل، والفرع، والعلة، والحكم، وعند أبى حنيفة الاستحسان أصل.

والتقليد: قبول قول الغير من غير ليل، وذلك سائغ للعامى، ولا يجوز فى أصول الدين إلا فيما نقل نقلاً عامًا كعدد الصلوات، ولا يسوغ للعالم الذى فيه قوة الاجتهاد التقليد، وقد حكى عن الإمام أحمد أنه يسوغ له ذلك، ولكن المعروف من مذهبه أن المجتهد لا يتبع مجتهداً.

والمجتهد هو من عرف طرق الأحكام من الكتاب والسنة، وموارد الكلام ومصادره ومجازه وحقيقته، وعامه وخاصه، وناسخه ومنسوخه، ومطلقه ومقيده، ومحكمه ومتشابهه، ودليله، وعرف من أصول العربية ما يوضح له المعانى، وعرف إجماع السلف وخلافهم، وعرف القياس، وما يجوز تعليله من الأصول وما لا يجوز، وما يعلل به وما لا يعلل به، وعرف ترتيب الأدلة وتقديم أولاها، ووجوه الترجيح، وكان ثقة مأمونًا قد عرف بالاحتياط للدين، فمثل هذا يجور له إفتاء من استفتاه مفصحًا مبينًا، فإذا لم يعرف لغة المستفتى ترجم بينهما

عدل، ويجب على المستفتى أن يختار الأمين على الحكم من المفتيين، فيقدم فتيا المحتاط لدينه.

والحق فى أصول الدين فى جهة واحدة، وأما الفروع فإنها كذلك إلا أن الحرج[1] موضوع عن المجتهد المخطئ، فله أجر واحد فى الخطأ، وفى الإصابة أجران، والقولان من الفقيه فى المسألة الواحدة إشعار منه بدين منعه أن يحكم حتى يعلم، فيكون لمن بعده الاجتهاد فيهما، وأما إذا تقدم تاريخ أحد القولين فالعمل على الأخير.

فهذه أصول الفقه وما عداها يتفرع عنها.

وكما أن الإمام الشافعى مجتهد فى الفروع فهو مجتهد أيضاً فى الأصول، وقد انتهى تدوين فروع الفقه إلى أربعة كلهم عدول، عدلهم العلماء وأخذوا عنهم لتلقيهم الأحكام التى اجتهدوا فيها عن الصحابة والتابعين والعلماء مما استقر ذلك عمن ذكر، وهؤلاء الأربعة هم الإمام أبو حنيفة النعمان، والإمام مالك بن أنس، والإمام محمد الشافعى بن إدريس، والإمام أحمد بن حنبل، ولكل واحد من هؤلاء الأئمة الأربعة أتباع قلدوا متبوعهم فيما ذكره، فكل مجتهد وكل مقلد لمجتهد فيما صح عنه على خير حيث أراد الله به الخير وفقهه فى الدين، وقد ورد عنه ﷺ «إذا أراد الله بقوم خيراً أكثر فقهاءهم» بأن يلهمهم بالاشتغال بالعلم ويسهل لهم تحصيله «وأقل جهالهم، فإذا تكلم الفقيه» أى بما يوجب العلم كأمر بمعروف ونهى عن منكر «وجد أعوانا، وإذا تكلم الجاهل قُهر[2]» غُلب ورُدّ عليه « وإذا أراد بهم شراً أكثر جهالهم وأقل فقهاءهم، فإذا تكلم الجاهل وجدَ أعوانًا وإذا تكلم الفقيه قُهرَ».

وأما اختلاف الأئمة فى بعض المجتهدات فللرحمة العامة المبعوث بها ﷺ، قال تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ (الأنبياء: ١٠٧) ويحسن هنا قول الشيخ الجعبرى[3] رحمه الله تعالى فى الأئمة حيث قال:

---

(١) فى الأصل: الجرح.

(٢) بالبناء للمفعول. [الطهطاوى].

(٣) إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن الخليل الجعبرى (١٢٤٢ - ١٣٣٢ م) عالم بالقراءات، وأحد فقهاء الشافعية فى فلسطين، كان له إنتاج أدبى فى النثر والنظم، وشروحه ومختصراته تبلغ المائة.

بالشافعي محمد، وبأحمد وبمالك، وأبي حنيفة نقتدي
علماء دين الله جل جلاله أنصار شرع الهاشمي محمد
الخُلف منهم في المذاهب رحمة وتفسح في الدين فاسمع ترشد
ما كان خُلفهم عتادًا فاستمع قولي ودع قول اللئيم المعتدي
كل روى عن أحمد ما قد روى عن ربه فالكل هاد مهتد
أخذوا بقول الله جل جلاله حقًا وبالخبر الصحيح المُسْنَد
نقدوا الصحيح من السقيم وبينوا نهج الصواب لأهل سنة أحمد
فبهم بدا نهج الهداية ظاهراً فاسلكه ترشد للصواب وتسعد
فالله يرحمهم ويرضى عنهم أهل الهداية والمقال الأرشد

قال الإمام الشعراني: وأعلم أن الأئمة المجتهدين ما سموا بذلك إلا لبذل أحدهم وُسعه في استنباط الأحكام الكائنة في الكتاب والسنة، فإن الاجتهاد مشتق من الجَهْد، وهو المبالغة في إتعاب الفكر وكثرة النظر في الأدلة، والله تعالى يجزي جميع المجتهدين عن هذه الأمة خيرًا، فإنهم لولا أنهم استنبطوا للأمة الأحكام من الكتاب والسنة ما قدر أحد من غيرهم على ذلك.

فإن قلت: فما دليل المجتهدين في زيادتهم الأحكام التي استنبطوها على صريح الكتاب والسنة؟ وهلا كانوا وقفوا على ما ورد صريحا فقط، ولم يزيدوا على ذلك شيئًا، لحديث: «ما تركت شيئًا يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به، ولا شيئًا يبعدكم عن الله تعالى إلا وقد نهيتكم عنه»؟

فالجواب: دليلهم في ذلك الاتباع لرسول الله ﷺ في تبيينه ما أجمل في القرآن، مع قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨) فإنه لولا بَيَّن لنا كيفية الطهارة والصلاة والحج والصوم وغير ذلك ما اهتدى أحد من الأمة لمعرفة استخراج ذلك من القرآن، ولا كنا نعرف عدد ركعات الفرائض ولا النوافل ولا غير ذلك، فكما أن الشارع بَيَّن لنا بسنته ما أجمل في القرآن فكذلك الأئمة

المجتهدون بينوا لنا ما أجمل فى أحاديث الشريعة، ولولا بيانهم لنا ذلك لبقيت الشريعة على إجمالها، وهكذا القول فى أهل كل دَور بالنسبة للدور الذى قبله إلى يوم القيامة، فإن الإجمال لم يزل ساريًا فى كلام علماء الأمة إلى يوم القيامة، ولولا ذلك ما شرحت الكتب ولا عمل على الشروح حواش.

فإن قلت: فهل ما وقع من رسول الله ﷺ ليلة الإسراء من المراجعة فى شأن الصلاة كان اجتهاداً منه أم لا؟

فالجواب، كما قال الشيخ محيى الدين [1]: كان ذلك منه اجتهاداً، فإن الله تعالى لما فرض على أمته الخمسين صلاة نزل بها إلى موسى عليه السلام، ولم يقل شيئًا، ولا اعترض، ولا قال: هذا كثير على أمتى، فلما قال له موسى: إن أمتك لا تطيق ذلك، وأمره بالمراجعة، فبقى ﷺ متحيراً، من حيث وفور شفقته على أمته، ولا سبيل له إلى رد أمر ربه، فأخذ فى الترجيح فى أى الحالين أولى، وهذا هو حقيقة الاجتهاد، فلما ترجح عنده أنه يراجع ربه عز وجل رجع بالاجتهاد إلى ما يوافق قول موسى عليه السلام، وأمضى ذلك فى أمته بإذن من ربه عز وجل. انتهى.

ولا يخلو اختلاف المجتهدين عن فائدة للمجتهد منهم، وهو إحياء الذكر وتحصيل الأجر، كما لا يخلو عن فائدة للأمة، وهو التسهيل عليهم فى الدين، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣) الآية، قال الطبرى: الوسط، فى كلام العرب، الخيار، يقولون: فلان وسط فى قومه، إذا أرادوا الرفع فى حسبه، قال: والذى أرى أن معنى الوسط فى الآية الجزء الذى بين الطرفين، والمعنى أنهم وسط، لتوسطهم فى الدين، فلم يغلوا كغلو النصارى ولم يقصروا كتقصير اليهود، ولكنهم أهل وسط واعتدال.

---

(١) ابن عربى، أبو بكر محمد بن على (١١٦٥ - ١٢٤٠م) من أبرز فلاسفة التصوف فى الفكر الإسلامى، بل والعالمى، وهو علم فى الفكر الفلسفى على نظرية وحدة الوجود.

قال الزمخشري[1]: قيل للخيار وسط، لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والإعواز،

والأوساط محفوظة. وورد عنه ﷺ: «الدين يسر ولن يشاد أحد الدين إلا غلبه، فسددوا وقاربوا»، وحديث: «بعثت بالحنيفية السمحة السهلة»، وذلك لخلوه عن الآصار والتكاليف الشاقة التي كانت على اليهود، من نحو وجوب قرض النجاسة، وعن التخفيف المفرط المفوت لمحاسن الآداب، وقال ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، فإن المنبتّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى»، قال أبو عبيدة: «أوغل»، أي سر فيه برفق، و«المنبت» هو الذي يعدو في السير المنقطع به، يتعب نفسه بلا فتور، حتى تعطب دابته فيبقى منبتًا منقطعًا به، لم يقض سفره ولا بلغ وطره، وقد أعطب ظهره، فشبّه به المجتهد في العبادة حتى يكل ويمل، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨) مع قوله ﷺ: «اختلاف أمتي رحمة»، حيث قيل إن المراد منه الاختلاف المتعلق بالفقه في أمر الدين رحمة للعالمين.

قال بعضهم: والمنكر لما وردت به الشرائع هو الذي كَلَّ ذهنه ووقف فهمه بسبب طربه[2] من النظر في علم المعقولات، ثم لا يتقنه ولا يحققه، فتختبط عليه الأمور وتلتبس، ولا يهتدي بشيء، ولهذا نرى كثيرًا ممن نسب إلى المعقولات عارض كثيرًا من الأحاديث والسنن الثابتة وأنكرها وقال بخلافها، كالفلاسفة وغالب أهل المنطق من الإسلاميين، وذلك أنهم لم يتقنوا المعقول كل الإتقان، فخبطوا، وظنوا أن الأحاديث النبوية تخالف القواعد العقلية فلم يسعهم إلا ردها أو تحريفها لتوافق[3] المعقول بزعمهم، ولو اتقنوا المعقول لعلموا أن الشرع لم يرد ما يخالف العقل البتة، فكانوا يطبقون الأحاديث على المعقولات، وقد وقع لبعض علماء المعقول مع

---

(١) محمود بن عمر (١٠٧٥ - ١١٤٤م) لغوي ومتكلم ومفسر وعالم بالأدب، كان معتزليا، وفي تفسيره للقرآن - [الكشاف] - أودع آراءه الكلامية، ومن آثاره الهامة [أساس البلاغة] و[ربيع الأبرار] و[المفصل]، و[القسطاس]، [ومقدمة الأدب]. . الخ . .

(٢) أي اهتزازه واضطرابه.

(٣) في الأصل: ليوافق.

الإمام السبكي ما يشبه هذا في بعض الأحاديث حيث قال: إنه مخالف لقواعد المعقول، فبين له الإمام السبكي أن سبب الالتباس عليه هو عدم إتقانه للقاعدة العقلية، حتى قال السبكي في حقه: إنه مطبوع على عقله. وقال بعضهم: وإن إيمان الناس اليوم قد تعرى من لباسه إلاّ من عَصَمه الله عز وجل، ومن تعرى إيمانه تلاعب بدينه، فلم يبق اليوم من الإيمان إلا اسمه ومن اليقين إلا رسمه، فأي دين لقوم جردوا إيمانهم من لباسه، وهدموا منار يقينهم من أساسه.

قال بعضهم: ليس من وظائف ولاة الأمور أن يحكموا في التحريم والتحليل بما يخالف الأوضاع الشرعية المستنبطة عن الأئمة المجتهدين من أدلة الكتاب والسنة والإجماع، ولا عبرة بالاستحسان الطبيعي والتقبيح العقلي، فالتحسين والتقبيح العقليان المجردان عن الدليل الشرعي لا عبرة بهما، والحاكم في امتثال الأوامر والنواهي كأحد رعاياه القائم بمصالحهم والناظر في أمورهم والمدبر لمملكته بالعدل والإنصاف على القانون الشرعي الذي أصوله الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستصحاب، فقد ثبت بالإجماع أن ما لا دليل عليه صريحا في الكتاب والسنة فالعمل فيه بما انعقد عليه الإجماع واجب، وكذلك القياس، فإن ما لا نص فيه لا يلحق بالوقائع المنصوصة المشبهة له، واعتبار الإجماع والقياس إنما يكون إذا صدرا من الذين يمكنهم استنباط الأحكام من الكتاب والسنة، وهم المسمون بأهل الحل والعقد في الأصول، ولذلك فسر بعضهم ﴿ أُولِي الأَمْرِ ﴾ (النساء: ٥٩) في الآية وقال: ينبغي أن تكون أوامر الحكام ونواهيهم موقوفة على فتاوى العلماء وأقوال المجتهدين في الدين، وهذا لا يمنع أن الإمارة تخلف النبوة في حراسة الدين والدنيا، فتقف عند حدود الله تعالى المعضدة بقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة: ٣) بناء على تفسير إكمال الدين في الآية بإكمال الفرائض والأحكام، كما ذهب إليه جماعة منهم السدي، وقال ابن عباس: إن إكمال الدين هنا معناه عدم مشاركة المشركين للمسلمين في حج البيت الحرام فكان ذلك من إتمام النعمة على المؤمنين.

وقد ورد أن العرب لم يزالوا على بقايا دين إسماعيل كحج البيت والختان والغسل من الجنابة، وعلى كل حال فدين الإسلام كامل لا يقبل الزيادة والنقصان بالآراء العقلية، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠) الآية، لأن خيرية كل أمة بحسب كمالهم فى الدين، وذلك تابع لكمال نبيهم الذى يتبعونه، روى بهز بن حكيم عن جده أنه سمع النبى ﷺ يقول فى قوله عز وجل ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «إنكم تتمون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل»، وفى البخارى قوله: «كنتم خير أمة» قال أبو هريرة رضى الله عنه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: خير الناس للناس، يأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الإسلام، والمراد أنفع الناس للناس، وإنما كانوا كذلك لكونهم كانوا سببًا فى إسلامهم وتحصيل أصل جميع السعادة الدنيوية والأخروية. وفى الجهاد عجب الله من قوم يدخلون الجنة فى السلاسل، يعنى الأسارى الذين يقدم بهم المسلمون فى السلاسل والقيود ثم يسلمون وتصلح سرائرهم وأعمالهم، فيكونون من أهل الجنة، والشرط فى هذه الخيرية الممدوح بها ما أشار إليه بقوله عز وجل ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ والمعنى ما أخرج الله للناس أمة خيراً من أمة محمد ﷺ، وفى ذلك قال بعضهم:

فاعلم يقينًا أننا من أمة   تقاد للجنة بالسلاسل

وفى حديث أنس رضى الله عنه: «مثل أمتى مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره»، فالخير موجود فى هذه الأمة إلى قرب قيام الساعة، وفى حديث عبد الله بن بريدة قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون من هذه الأمة».

قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى: أخذ الله تعالى على الحكام الميثاق أن لا يتبعوا الهوى، ولا يخشوا الناس، ولا يشتروا بآياته ثمنًا قليلاً، ثم قرأ ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص: ٢٦) فالحاكم المتخذ العلماء شعاراً، والصلحاء دثارا، والحكم النصوح مستشاراً، حتى تدور مملكته بين نصائح العلماء، ودعوات الصلحاء ووصايا أهل الإخلاص من الحكماء، ولا يتبع إلا الأحكام الشرعية، التى لها أصل فى الشريعة المحمدية، يعد من المجددين للدين والدنيا، حيث سلك فى العدل خير سَنَن،

وأمات البدع وأحيا السُّنن، فلا شك أنه مجتهد عصره، لما أن حكمة الله مطوية فيما يأمر به على ألسنة رسله، لا على ما يحدثه ذو العقل بعقله، قال تعالى: ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول** ﴾ (النساء: ٥٩) الآية، وورد فى الحديث عنه ﷺ: «دوروا مع كتاب الله حيث دار»، وورد عنه ﷺ: خمس بخمس، ما نقض العهد قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين من القحط، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر»، روى الترمذى عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال: من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعله إلا سأل الله الرجعة عند الموت.

فعلى ولى الأمر الحازم أن يضرب أعناق البدع بسيوف الإبطال، ويقبل الحوالة فيها على خزائن ذى الأفضال، ليجزى الحسنة بعشر أمثالها، ويعرض عن قليل حرام الدنيا بكثير حلالها، ويسبل من العدل على الرعية أحسن لباس، ويطهر ظواهرهم وبواطنهم من الأدناس والأرجاس، وليبذل جهد سيرته الحسنة ليكون ممن سن سنة حسنة، ولا شك أن من سن سنة حسنة كان من مجددى الدين، بحسب الأحوال والأوقات وكانت الحسنة فى ميزانه من الباقيات الصالحات، لحديث: «من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

وكان الناس يسألون رسول الله ﷺ فى أمور الدين، كما وردت بذلك الآيات والأحاديث، فمن الآيات قوله عز وجل: ﴿ **يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات** ﴾ (المائدة: ٤) إلى غير ذلك من الآيات، ومن الأحاديث حديث أبى رفاعة العدوى، قال أبو رفاعة: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاءك يسألك عن دينه، لا يدرى ما دينه، فأقبل رسول الله ﷺ وترك خطبته، حتى انتهى إلىّ، فأتى بكرسى، خلت قوائمه حديداً، فقعد رسول الله ﷺ فجعل يعلمنى مما علمه الله، ثم أتى خطبته فأتمها. رواه مسلم والنسائى. وكذلك سؤال النساء له ﷺ كسؤال أم سليم لرسول الله ﷺ: إن الله لا يستحى من الحق، هل على المرأة من غسل إذا هى احتلمت؟ كما هو

مشهور فى كتب الفقه، وقالت عائشة رضى الله عنها: رحم الله نساء الأنصار، لم يكن الحياء يمنعهن أن يتفقهن فى الدين، ولبعضهم:

وليس العمى طول السكوت وإنما تمام العمى طول السكوت على الجهل

وقال عمر رضى الله عنه: من رق وجهه رق علمه، وقال مجاهد: لا يتعلم العلم مستحى ولا متكبر، وكان سفيان الثورى[1] يقول: حياة العلم بالسؤال والعمل، وموته بتركهما، وكان الحسن البصرى يقول: العلماء سرج الأزمنة والأمكنة، فكل عالم مصباح زمانه يستضئ به أهل عصره، ولولا العلماء لصار الناس كالبهائم.

وقد تقدم ذكر من بعثهم ﷺ إلى الجهات لتعليم الفقه فى الدين.

وقد ورد فى كتم العلم ما رواه ابن مسعود رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كتم علمًا عن أهله ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»، أى الممسك عن الكلام مثل من ألزم نفسه بلجام، وتنكير علم يوهم شموله لكل علم، وخصه كثير بالعلم الشرعى، واحترز بقوله «عن أهله» كتمه عن غير أهله فمطلوب. وقوله تعالى ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم** ﴾ مبينة على أن حفظ العلم عمن يفسده أو يضر به أولى، وجعل بعضهم حبس كتب العلم من صور الكتم أيضًا، لا سيما إن عزت كتبه، وكان إبراهيم بن عيينة يقول أطول الناس ندمًا يوم القيامة عالم يتعاظم بعلمه على الناس.

وقد كان الناس يستفتون أهل العلم من الصحابة رضى الله عنهم فى نوازلهم فى عهد النبى ﷺ فيفتونهم، فممن كان يفتى على عهد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وأُبَىّ بن كعب ومعاذ وعمار وحذيفة وزيد بن ثابت وأبو الدرداء وأبو موسى وسلمان رضى الله تعالى عنهم أجمعين، وقد جمعهم بعضهم فى هذه الأبيات:

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى (٧١٦ ـ ٧٧٨م) كان أبرز معاصريه فى الدين والتقوى، وفى علوم الحديث يلقب بأمير المؤمنين، نشأ فى الكوفة ثم سكن مكة والمدينة، ومات فى البصرة، اشتهر بمواعظه وتعنيفه للحكام، ولقد رفض أن يلى الحكم، وطلبه المهدى فتوارى حتى مات مستخفيًا.. ومن آثاره فى الحديث [الجامع الكبير] و[الجامع الصغير] وله أيضًا كتاب فى [الفرائض].

لقد كـان يفتى فى حيـاة نبينا	مع الخلفـاء الراشـدين أئمـة
معـاذ، وعمـار، وزيـد بن ثابت	أُبَيٌّ، بن مسـعود، وعوف، حـذيفـة
ومنهم أبو موسى، وسلمان حبرهم	كـذاك أبو الـدرداء وهو تتـمـة
وأفـتى بمـرآه أبو بـكر الـرضى	فـصـدقـه فـيـهـا وتلك مـزية

قال بعضهم وينبغي للمفتي مراعاة نوبة السائل فلا يقدم عليها بغير رضى من هى له، روى أن أنصاريًا جاء إلى النبى ﷺ يسأله، وجاء رجل من ثقيف، فقال رسول الله ﷺ : يا أخا ثقيف، إن الأنصارى قد سبقك بالمسألة، فاجلس كيما نبدأ بحاجة الأنصارى قبل حاجتك، وقال بعضهم: يستحب للسابق أن يقدم على نفسه من كان غريبًا لتأكد حرمته ووجوب ذمته، روى فى ذلك حديثان عن ابن عباس وابن عمر، وكذلك إذا كان للمتأخر حاجة ضرورية وعلمها المتقدم، فإن لم يكن شيء من ذلك ونحوه فقد كره قوم الإيثار بالنوبة، وكان عبد الله بن مسعود يقول: من أفتى الناس من غير تربص وتأمل فقد عرض نفسه لدخوله فى النار.

وكان الصحابة رضى الله عنهم لم يكن فى زمنهم تصنيف ولا تدريس، بل تعلموا بالسؤال والجواب، فكلما خطر ببال أحد شيء من الرجال والنساء سأل عن ذلك من لا ينطق عن الهوى ﷺ فيجيبه، وهكذا كان[1] التعلم والتعليم من حين بعث نبينا ﷺ إلى أن قبضه الله، ثم بقى أصحابه بعده كذلك.

ولما طال الزمان وانتشر الإسلام دخل فى الإسلام أهل ألسن متعددة ولغات مختلفة، كالحبشة وفارس والروم والبربر، وتنوعت الألسن وقصرت الأفهام عن إدراك معانى الكتاب والسنة، كإدراك عقول من أنزل القرآن على ألسنتهم من العرب لمعانى القرآن ومعانى لغتهم، ودخل فى الإسلام أهل العقائد الفاسدة، وخيف على فساد الدين بالجهل بلغة العرب ومعانيها ليفهم بها معانى الكتاب والسنة وبفهم ذلك يثبت الدين ويصلح أهله، انتدب أهل ذلك الزمان رضى الله عنهم للتصنيف والتدريس وجمع أحاديث السنة النبوية والاستدلال بها وبالآى

---

(١) فى الأصل: فإن.

القرآنية على صحة الدين وثباته، ودفع الشبه عنه من أقوال أهل الزيغ والأهواء وأفعالهم، وقد كان فى ذلك الزمان العلماء كثيراً، لقربهم من زمن الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين، فمنهم من أقامه الله تعالى فيما وقعت الإشارة إليه من جمع السنة والتصنيف والتدريس إحياء للسنة وذبًا عن الدين بالتصنيف والتدريس للضرورة الداعية إلى ذلك حسبما تقدم، وهى بدعة حسنة، ومنهم من أقامه الله تعالى فى علمه بمراقبة قلبه، مشتغلاً بمعارف ربه ومواهبه فى ذلك عما سواه من الخلق لتحققه أن أمر الدين منتظم بمن أقامه الله فى ذلك تصنيفًا أو تدريسًا وذبًا للباطل وأهله عن الحق بالحق، فكان كل فريق من الصنفين على هدى من ربهم، فأهل التصنيف والتدريس الذين نصروا الدين بتصنيفهم وتدريسهم فى جميع معالم السنة وحدود الشريعة، حسبما هو معلوم فى كتب المذاهب السنية، فى العبادات والعادات، فرائض وسنن ومندوبات ومكروهات ومفسدات، وما يلزم فى جميع العقود السنية، وما للعامل من الأجر وما للتارك من الوزر، وما يترتب من الأحكام على المخالف فى العادات من القتل والضرب والسجن، وسائر التقريرات، إلى غير ذلك، حسبما هم معلوم، وتدريسهم فى ذلك وتصنيفهم، بقلوبهم لا بألسنة أفواههم دون قلوبهم، بدليل انتفاع هذه الأمة بعلمهم تدريسا وتصنيفًا، قال ﷺ: «العلم علمان: علم فى اللسان، فذلك حجة الله تعالى على ابن آدم، وعلم فى القلب، فذلك العلم النافع»، فلولا أن علمهم رضى الله عنهم كان فى قلوبهم ما وقع به نفع لهذه الأمة من ذلك الزمان إلى هلم جرا، كم من مصنف ومدرس بعد زمانهم صنف ودرس ولم ينتفع به، بل جعله الله هباء منثوراً!

قال بعضهم: اعلم أن الآثار كانت فى عصر الصحابة وكبار التابعين غير مدونة ولا مرتبة، لسيلان أذهانهم، وسعة حفظهم، ولأنهم كانوا نهوا عنها، ولأن أكثرهم لا يحسن الكتابة، فلما كان زمن عمر بن عبد العزيز، على رأس المائة، أمر بتدوين الحديث، فأول من دونه بأمر عمر بن عبد العزيز ابن شهاب الزُّهْرى (1).

---

(1) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهرى (٦٧٨-٧٤٢م) تابعى، من أكابر الحفاظ للحديث والفقهاء، من أهل المدينة، رحل إلى الشام واستقربها، ولقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله يقول لهم: عليكم بابن شهاب، فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه.

وأما الجمع مرتبًا على الأبواب فوقع في نصف القرن الثاني، فأول من جمع ذلك ابن جريج، بمكة، ومالك، وابن سحاق، بالمدينة، وهشام، بواسط، ومعمر، باليمن، وابن المبارك، بخراسان، والربيع بن صبيح، أو سعيد بن أبي عروبة، أو حماد بن سلمة، بالبصرة، وسفيان الثوري، بالكوفة، والأوزاعي بالشام، وجرير بن عبد الحميد، بالري، وكل هؤلاء كانوا في عصر واحد، فلا يدرى أيهم أسبق، كما قال الحافظ العراقي والحافظ ابن حجر. انتهى.

وأما تعبير الرؤيا فإنه نوع من الفتيا، قال الله تعالى في قصة يوسف: ﴿**يا أيها الملأ افتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون**﴾ (يوسف: ٣) وقال ﷺ: «أعبر أمتي للرؤيا أبو بكر وأسماء بنت عميس»، وعميس هو ابن معد بن حارث بن تميم بن كعب بن مالك بن قحافة، كانت أسماء بنت عميس من المهاجرات إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، ثم هاجرت إلى المدينة، فلما قتل زوجها جعفر تزوجها أبو بكر الصديق، وولدت له محمد بن أبي بكر، ثم مات عنها، وتزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

روى مسلم رحمه الله تعالى أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان يحدث أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: إني أرى الليلة في المنام ظلة تنطف[1] السمن والعسل، فأرى الناس يتكففون منها بأيديهم، فالمستكثر والمستقل، وأرى شيئا واصلاً من السماء إلى الأرض فأخذت به فعلوت ـ ثم أخذ به رجل بعد فعَلاَ، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع، ثم وُصَل له فعَلاَ، قال أبو بكر: يا رسول الله، بأبي أنت لتدعني فلأعبرنها، قال رسوَل الله ﷺ: اعبرها، قال أبو بكر: أما الظلة فظلة الإسلام، وأما الذي ينطف من السمن والعسل فالقرآن، حلاوته ولينه، وأما ما يتكفف الناس من ذلك فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه، تأخذ به فيعليك الله به، ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به، ثم يوصل له فيعلو به، فأخبرني يا رسول الله، بأبي أنت، أصبت؟ أو أخطأت؟ قال رسول الله ﷺ: أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا، قال: فوالله يا رسول الله لتحدثني ما الذي أخطأت، قال: لا تقسم!

(١) تنطف: تقطر.

ويروى أن عائشة رضى الله تعالى عنها رأت ثلاثة أقمار سقطت في حجرتها، فقصت رؤياها على أبيها رضى الله تعالى عنهما، فقال: خيرًا يا عائشة، فلما توفى رسول الله ﷺ وقبر في حجرتها قال لها: هذا أحد أقمارك، وهو خيرها، ثم صارت ثلاثة، قبر رسول الله ﷺ، وقبر أبي بكر، وقبر عمر رضى الله تعالى عنهما.

وعن أبي ليلى قال: قال رسول الله ﷺ: رأيتنى على بئر أنزع منها، فوردتنى غنم سود، ثم ردفها غنم عفر، فقال ابو بكر: دعنى أعبرها، فذكر نحوه، وأخرج ابن سعد عن محمد بن سيرين قال: كان أعبر هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، وأخرج ابن سعيد عن ابن شهاب قال: رأى رسول الله ﷺ رؤيا فقصها على أبي بكر، فقال: رأيت كأنى استبقت أنا وأنت درجة فسبقتك بمرقاتين ونصف، قال: يا رسول الله، يقبضك الله إلى مغفرة ورحمة، وأعيش بعد سنتين ونصفًا.

وعن أبي سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها، وليتحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان، فليستعذ بالله من شرها، ولا يذكرها، فإنها لا تضره»، رواه البخارى، وفي رواية لمسلم: «ورؤيا السوء من الشيطان، فمن رأى رؤيا وكره منها شيئًا فلينفث عن يساره، وليتعوذ بالله من الشيطان، ولا يخبر بها أحدًا، فإن رأى رؤيا حسنة فليَبْشُر [1] ولا يخبر بها إلا من يحب»، وفي حديث أبي رزين عن الترمذى: «ولا يقصها إلا على وادّ [2] أو ذى رأى»، وفي أخرى: «ولا يحدث بها إلا لبيبا أو حبيبًا»، وفي أخرى: «ولا تقص رؤياك إلا على عالم أو ناصح»، وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «أصدق الرؤيا بالأسحار».

وذكر أئمة التعبير أن من آداب الرائى أن يكون صادق اللهجة، وأن ينام على وضوء على جنبه الأيمن، وأن يقرأ عند نومه (والشمس) (والليل) (والتين) وسورة (الإخلاص) (والمعوذتين) وأن يقول: اللهم إنى أعوذ بك من سيئ الأحلام،

(١) بفتح التحتانية، وسكون الموحدة، وضم المعجمة، من البشرى. [الطهطاوى].
(٢) بتشديد الدال، اسم فاعل من الود [الطهطاوى].

وأستجير بك من تلاعب الشيطان فى اليقظة والمنام، اللهم إنى أسألك رؤيا صالحة صادقة نافعة حافظة غير منسية، اللهم أرنى فى منامى ما أحب. وأن لا يقصها على عدو ولا جاهل.

وقد ذكر الشيخ عز الدين بن عبد السلام أن فى كل جسد روحين، روحًا لليقظة، وروحًا للحياة، فإذا نام خرجت الأولى وبقيت الثانية. لهذا القول شواهد فى الآثار، فقد روى أن عمر بن الخطاب كان له فى أيام خلافته تواضع للصحابة الكرام، فكان يستشيرهم فى المهمات، ويسألهم عن مسائل يكشفون له القناع عن مخدراتها، فيقال إنه بينما عمر بن الخطاب جالس مع جماعة من الصحابة، وفيهم على بن أبى طالب رضى الله عنهم، فالتفت إليهم عمر وقال: إنى سائلكم عن أشياء، فمن جملة ما سأل عنه: أن الرجل يحب الرجل ولم يلقه ولم يجتمع به، وعن الرؤيتين: إحداهما حق، والأخرى باطلة، فسكت القوم فقال عمر: ولا أنت يا أبا الحسن؟ فقال: بلى، عندى علم ذلك، فأما الرجل يحب الرجل ولم يلقه فإن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، وأما الرؤيتان، إحداهما حق، والأخرى باطلة، فإن فى ابن آدم روحين، فإذا نام خرجت روح فأتت الحميم والصديق والبعيد والقريب، فما كان منها فى ملكوت السموات والأرض فهى الرؤيا الصادقة، وما كان منها فى الهواء فهى الأضغاث، وأما الروح الأخرى للنفس والتقليب، ثم قال: خذها يا عمر، قال: صدقت. انتهى.

فلا يستنكر سريان الروح فى الأقطار البعيدة، لأن القرب والبعد من صفات الأجسام وأما الأرواح فيستوى فى حقها القرب والبعد، ولا يحجبها الجدران ولا يبعد عليها البلدان، وتسرى فى اللمحة الواحدة من الفرش إلى العرش، مما لا يدخل تحت القياس، ولا يدركه العقل والحواس.

وقال ابن عبد السلام: إن فى كل جسد روحين: إحداهما روح اليقظة التى أجرى الله العادة أنها إذا كانت فى الجسد كان الإنسان مستيقظًا، وإذا خرجت من الجسد نام الإنسان، ورأت تلك الروح المنامات، والأخرى روح الحياة التى أجرى الله العادة أنها إذا كانت فى الجسد كان حيًا، وإذا فارقته مات فإذا رجعت إليه

حيى، وهاتان الروحان في باطن الإنسان، لا يعرف مقرهما إلا من أطلعه الله على ذلك، فهما كجنينين فى بطن امرأة واحدة، ويدل عليه قوله تعالى: (الله يتوفى الأنفس حين موتها)، أي روح الحياة (والتى لم تمت فى منامها) وهى روح اليقظة ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ (الزمر: ٤٢) فحينئذ يقبض روح الحياة واليقظة جميعًا.

وقال مقاتل [١]: للإنسان حياة وروح ونفس، فإذا نام خرجت نفسه التى يعقل بها الأشياء، ولم تفارق الجسد بل تخرج كحبل ممتد له شعاع، فيرى الرؤيا بالنفس التي خرجت منه، وتبقى الحياة والروح فى الجسد، فبهما يتقلب ويتنعش، فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين فإذا أراد الله أن يريه المنام أمسك تلك النفس فصعدت، فإذا رأت الرؤيا رجعت له وأخبرت الروح، وتخبر الروح القلب فيصبح يعلم أنه رأى كيت وكيت.

وقال جمهور المتكلمين من أئمة أهل السنة والجماعة: إن الروح جسم لطيف مشتبك بالبدن اشتباك الماء بالعود الأخضر. قال الإمام النووى: وهو الأصح عند أصحابنا. وقال كثير منهم: إنها عرض، وهى الحياة التى يصير بها البدن حيا. ويدل للجمهور وصفها فى الآيات والأحاديث بالتوفى والقبض والإرسال والتناول والإخراج والتنعيم والتعذيب والرجوع والدخول والرضى والانتقال والتردد فى البرزخ وأنها تأكل وتشرب وتسرح وتأوى وتنطق وتعرف وتنكر، إلى غير ذلك مما هو من صفات الأجسام، ولا شك أن العَرَض [٢] لا يتصف بهذه الصفات، وأيضا تعرف نفسها وتدرك المخلوقات، وهذه علوم، والعلوم أعراض، فلو كانت عرضًا والعلم قائم بها لزم قيام العَرَض بالعَرَض وهو محال، وقالت الحكماء: الدم الروح، لأن الحيوان إذا مات لا يفور منه الدم، وقال آخر: هى النَّفَس [٣]، لأنه يموت باحتباس النَّفَس، وقال غيرهما: عَرَض يقوم بالبدن.

---

(١) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدى (المتوفى سنة ٧٦٧م) من مشاهير المفسرين الأوائل للقرآن، بلخى انتقل إلى البصرة ثم بغداد ثم عاد إلى البصرة، ومن آثاره [التفسير الكبير] و[نوادر التفسير] و[متشابه القرآن] و[الناسخ والمنسوخ] و[القراءات] و[الرد على القدرية] ولم يكن ثقة فى الحديث.

(٢) العرض هو المقابل للجوهر، ولا بد للعرض من جوهر يقوم به.

(٣) بفتح الفاء. [الطهطاوى].

وأما تعبير أسماء رضى الله تعالى عنها، فقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال لها: رأيت ديكًا أحمر نقرنى ثلاث نقرات، فقالت: مبادرة رجل من المعجم يطعنك ثلاث طعنات، فكان ذلك حيث أن أبا لؤلؤة، غلام المغيرة بن شعبة، طعنه طعنات، وذكر نقلة الأخبار أنها كانت ثلاثًا.

إمامة الصلاة

ومن أشرف العمالات الفقهية إمامة الصلاة، ولهذا نص العلماء: أن السلطان أحق بالإمامة فى الصلاة إلا أن يأذن لغيره فى ذلك، وقال بعضهم: ولاية الصلاة أصل فى نفسها، وفرع للإمارة، فإن النبى ﷺ كان إذا بعث أميرًا كانت الصلاة إليه، ولكن لما فسدت الولاة ولم يكن فيهم من ترضى حاله للإمامة بقيت الولاية فى يده بحكم الغلبة وقدم للصلاة من ترضى حاله، سياسة منهم للناس وإبقاء على أنفسهم.

وقد استخلف رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق، فقد روى مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يصلى بالناس فى مرضه، فكان يصلى بهم. وروى أيضًا عن أنس بن مالك أن أبا بكر كان يصلى بهم فى وجع رسول الله ﷺ الذى توفى فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف فى الصلاة كشف رسول الله ﷺ ستر الحجرة فنظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم رسول الله ﷺ ضاحكًا، قال: فبهتنا ونحن فى الصلاة من فرح بخروج النبى ﷺ، ونكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ خارج للصلاة، فأشار إليهم رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل رسول الله ﷺ فأرخى الستر، قال: فتوفى رسول الله ﷺ من يومه ذلك. قال بعضهم صلى أبو بكر رضى الله تعالى عنه بالناس فى مرض رسول الله ﷺ سبع عشرة صلاة. وروى عن عائشة أن النبى ﷺ صلى خلف أبى بكر جالسًا فى مرضه الذى توفى به. قال ابن رشد[1]: إنه ورد عن النبى ﷺ: «ما

---

(١) أبو الوليد محمد بن أحمد (١١٢٦-١١٩٨م) من أبرز فلاسفة العرب، والشارح الأكبر لأرسطو، وصاحب التأثير الكبير فى قيام عصر النهضة الأوربى.

مات نبى حتى يصلى وراء رجل من قومه» ، وأسند رواية هذا الحديث عن مالك عن ربيعة . وقال القاضى عز الدين بن جماعة فى [مختصر السير] له : وصلى النبى ﷺ وراء أبى بكر فى الصف صلاة تامة . وفى بعض الروايات ما يدل على أن النبى ﷺ لما خرج فى مرضه، وأبو بكر يصلى بالناس، تأخر أبو بكر عن الإمامة، وتقدم رسول الله ﷺ يصلى بالناس بقية صلاتهم، وهو جالس والقوم خلفه قياما، وجمع بعضهم بين القولين بتكرر صلاته ﷺ مرتين، كان فى الأولى هو الإمام وائتم فى الثانية بأبى بكر، وعلى هذا التأويل يزول التعارض.

وكيفية صلاة القيام فى رمضان كما ذكر فى [الموطأ] عن عائشة رضى الله تعالى عنها : أن رسول الله ﷺ صلى فى المسجد ذات ليلة فصلى بصلاته ناس، ثم صلى فى القابلة فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ ، فلما أصبح قال : قد رأيت الذى صنعتم فلم يمنعنى من الخروج إليكم بها [إلا(1)] أنى خشيت أن تفرض عليكم، وذلك فى رمضان. وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يُرَغِّب فى قيام رمضان من غير أن يأمر بعزيمة، فيقول : «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه» . قال ابن شهاب : فتوفى رسول الله ﷺ والأمر على ذلك، وكان الأمر على ذلك فى خلافة أبى بكر وجزءًا من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما، ثم لما دخل عمر رضى الله تعالى عنه إلى المسجد فى رمضان فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلى الرجل لنفسه ويصلى الرجل ويصلى بصلاته الرهط، فقال عمر : والله لأرانى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل، فجمعهم على أُبَىّ بن كعب رضى الله تعالى عنه، ثم دخل المسجد ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم فقال عمر : نعْمَت البدعة هذه، والتى ينامون عنها أفضل من التى يقومون، يعنى آخر الليل، وكان الناس يقومون أوله، وقوله : «نعْمَت البدعة هذه» ، يعنى أن كل ما حدث بعد النبى ﷺ فهو بدعة، فما وافق أصلاً من السنة يقاس عليه فهو محمود، وما خالف أصول السنن بأن كان الحامل عليه مجرد الشهوة فهو ضلالة، ومن ذلك قول بعضهم : من جالس أهل البدع تعلق بقلبه شىء مما يسمع، وقال بعضهم :

---

(1) غير موجودة فى الأصل، واستقامة السياق يقتضيها.

بلى اجتنب كل ذى بدعة ولا تصحبن من بها يوصف
فيسرق طبعك من طبعه وأنت بذلك لا يعرف

وقيل: لا تمكن زائغ القلب من أذنك، وحسبك من ذلك أن قومًا استهواهم تهاتر ابن الخطيب الرازى [(١)] حتى تزندقوا، ولا غيبة فيمن كان بهذه الصفة لأن ذمه مأمور به. وروى: قولوا فى الفاسق ما فيه ليعرفه الناس، وكذلك فى الشهادة يلزم من له علم بحال الشاهد تعريف الحاكم به لتعلق حقه تعالى أن لا يقدم على الدماء والفروج بشهادة مجروح.

الأذان

وأما الأذان للصلاة فقد كان للنبى ﷺ مؤذنان فى وقت واحد، وهما بلال وابن أم مكتوم رضى الله عنهما، وكان بلال بن رباح مولى أبى بكر الصديق رضى الله عنهما أول من أذن للرسول ﷺ، وجعل على نفسه أن لا يؤذن بعد رسول الله ﷺ لأحد، فأتى أبا بكر فقال ائذن لنا فى إتيان الشام فأذن له، فلما قدم عمر الشام لقيه فأمره أن يؤذن، وقال: لست بالموضع الذى كنت تؤذن فيه لرسول الله ﷺ، فأذن، فبكى عمر والمسلمون وذكروا النبى ﷺ حين سمعوا أذانه، ومات بدمشق فى سنة عشرين ودفن فى المقبرة التى عند باب الصغير.

وقد أذن له ﷺ غير بلال وابن أم مكتوم، وهو أبو محذورة رضى الله عنه، واسمه إياس، بمكة، ورتبه لأذانها، وكان أبو محذورة لا يؤذن إلا فى الفجر، وسعد القرظ رضى الله عنه أذن للنبى ﷺ بقباء ثلاث مرات، وقال له: إذا لم تر بلالاً فأذن، ولكن لم يكن لسعد القرظ أذان بالمدينة، وزياد بن الحارث الصدائى، وعبد العزيز بن الأصم. فما رواه مسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنه

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمى البكرى (١١٥٠-١٢١٠م) كان أبرز علماء عصره فى التفسير والأصول والكلام، ومن عيون آثاره فى التفسير [مفاتيح الغيب] وفى الأصول [معالم أصول الدين] وفى الكلام [محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين] و[المسائل الخمسون فى أصول الكلام] الخ...

قال : كان لرسول الله ﷺ مؤذنان : بلال وابن أم مكتوم يعني في وقت واحد، وقد كان أبو محذورة مؤذن رسول الله ﷺ بمكة، أمره بالأذان بها مُنْصَرَفة من حنين، وكان سمعه يحكي الأذان فأعجبه صوته، فأمر أن يؤتى به، فأسلم يومئذ، وأمره بالأذان فأذن بين يديه، ثم أمره فانصرف إلى مكة وأقره على الأذان بها هو وولده، قال الزبير : كان أبو محذورة أحسن الناس أذانًا وأنداهم صوتًا، قال : وأنشدني عمير بن مصعب لبعض شعراء قريش في أذان أبي محذورة :

أما ورب الكعبة المستوره ... وما تلا محمد من سوره

والنغمات من أبي محذورة ... لأفعلن فعلة مشهوره

ولم يؤذن النبي ﷺ لشغله بشأن الأمة، ولهذا قال عمر رضي الله عنه : لولا الخلافة لأذَّنت، لأن المؤذن يحتاج لمراقبة الأوقات، فلو أذن لفاته الاشتغال بشأن الأمة.

وأما التوقيت فقد أمر النبي ﷺ بلالا رضي الله تعالى عنه بحفظ الوقت، ففي [موطأ مالك] عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ حين قفل من خيبر أسرى [1] حتى إذا كان من آخر الليل عرس، وقال لبلال إكلأ لنا الصبح، ونام رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وكلأ بلال ما قدر له ثم استند إلى راحلته وهو مقابل الفجر فغلبته عيناه فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من الركب حتى ضربتهم الشمس، ففزع رسول الله ﷺ، فقال بلال : يا رسول الله أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك! فقال رسول الله ﷺ : اقتادوا، فبعثوا رواحلهم، واقتادوا شيئًا، ثم أمر رسول الله ﷺ بلالا فأقام الصلاة فصلى بهم رسول الله ﷺ الصبح، ثم قال حين قضى الصلاة : من نسي منكم صلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه ﴿ **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** ﴾ (طه : ١٤).

---

(١) أي سار ليلاً.

الفصل الرابع

(فى بعث الرسول يدعو إلى الإسلام أو للصلح أو للأمان أو لمصلحة غير ذلك من السفارات وما يتعلق بذلك من الترجمة وغيرها)

السفراء

قال ابن إسحاق: بعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه، وكتب معهم كتبًا، إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، فبعث دحْيَة الكلبىّ إلى قيصر ملك الروم، قال البخارى فى (الصحيح) إن النبى ﷺ كَتَب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبى، وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بُصْرَى، فدفعه عظيم بُصْرَى إلى هرقل ليدفعه إلى قيصر.

قال أصحاب الزيجيات[1] فى كتبهم، ومن اعتنى بتاريخ الروم ممن سلف وخلف: إن ملك الروم كان فى وقت ظهور الإسلام وأيام أبى بكر رضى الله عنه هرقل، وفى كتب السير أن رسول الله ﷺ لما هاجر كان الملك قيصر بن نون، وهذا لا ينافى قول أصحاب الزيجيات والمؤرخين أنه هرقل، لأن قيصر اسم لمن تولى الروم، وذلك لأن هرقل الأول تولى على الروم سنة ٦١٠ ميلادية، يعنى قبل الهجرة بنحو إحدى عشرة سنة، وهى توافق المبعث، وإنه هو الذى أرسل إليه ﷺ، بعد الهجرة، كتابه مع دحية الكلبى يدعوه إلى الإسلام، فلقيه دحية

---

(١) هى الجداول الفلكية.. ومفردها «زيج» وهى كلمة دخيلة على العربية.

بحمص، وكان قيصر ماشيًا من القسطنطينية إليها، ومات هرقل المذكور فى نحو ١٩ سنة من الهجرة، قبل فتوح مصر بالإسلام، فقول البخارى فى (الصحيح) إن دحية دفع المكتوب إلى عظيم بُصْرَى، فدفعه عظيم بُصْرَى إلى هرقل ليدفعه إلى قيصر، المراد بهرقل حاكم الشام، وافق اسمه اسم القيصر، ولا مانع أن يكون ابنه المسمى أيضًا هرقل، وهو الذى خلفه وملك بعده عدة أشهر، وإنما قلنا هذا للجمع بين ما تواتر عند أرباب الزيجيات ومؤرخى الروم وغيرهم وبين ما فى حديث البخارى الشريف وكتب السير، وقد سبق الكلام على هرقل قيصر فى (الفصل الرابع عشر) من (الباب الأول) من (المقالة الرابعة) من (الجزء الأول[١]).

قال ابن إسحاق: وبعث عبد الله بن حُذافة السَّهْمىّ إلى كسرى ملك فارس، وقال البخارى، رحمه الله تعالى: بعث رسول الله ﷺ رجلاً بكتابه، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى.

قال ابن إسحاق: وبعث عمرو بن أمية الضَّمْرىّ إلى النجاشى ملك الحبشة.

وبعث حاطب بن أبى بَلْتَعَة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية ومصر.

وبعث عمرو بن العاص السهمى إلى جَيْفَر وعبد[٢] ابنى الجُلَنْدا[٣] الأزْدِيَّيْن ملكى عُمَان.

وبعث سَليط بن عمرو، أحد بنى عامر بن لؤى، إلى ثمامة بن أثال[٤] وهَوْذَة بن على الحنفيينَ ملكى اليَمامة وبعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر ملك البحرين.

---

(١) انظره فى الجزء الثالث من هذه الأعمال.

(٢) فى الأصل: عياذ.. والتصحيح عن طبقات ابن سعد، الذى ينقل عنه (نهاية الأرب) ويتفق معه على إنه: «عبد» وفى الطبرى: «عباد». انظر (طبقات ابن سعد) مجلد ١ ق ٢ ص ١٨، و(نهاية الأرب) جـ١٨ ص ١٦٧ و(تاريخ الطبرى) جـ ٢ ص ٦٤٥.

(٣) الجلند: إذا كانت بقصر الألف كانت لامها مضمومة، وإذا كانت بمدها - كما رسمها المؤلف - كانت لامها مفتوحة. و(طبقات ابن سعد) و(الطبرى) و(نهاية الأرب) يوردونها مقصورة. والمؤلف يذكر بعدها قوله: «بضم الجيم».

(٤) بضم الهمزة. (الطهطاوى).. وفى الطبقات والطبرى ونهاية الأرب أن بعث سليط كان إلى «هوذة ابن على»، وليس فيها ذكر لثمامة.

وبعث شجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك البلقاء من أرض الشام، وإلى جَبَلة بن الأيْهم.

وبعث المهاجر بن أبى أمية المخزومى إلى الحارث بن عبد كُلال الحِمْيَرى ملك اليمن.

وقال ابن جماعة فى (مختصر السير) بعث رسول الله ﷺ ستة نفر فى يوم واحد فى المحرم سنة سبع: عمرو بن أمية الضَّمَرى، ودحية بن خليفة الكلبى، وعبد الله بن حُذافة السهمى، وحاطب بن أبى بلتعة اللخمى، وشجاع بن وهب الأسدى، وسَليط بن عمرو العامرى.

وروى عن حاطب بن أبى بَلْتَعة[1] واسمه عمرو بن عمير بن سلمة اللخمى، قال: بعثنى رسول الله ﷺ سنة ست من الهجرة إلى المقوقس صاحب مصر والإسكندرية من قبل هرقل، وكتب كتابًا فيه بعد البسملة.

«من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبْط. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسْلم تَسْلَم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط **﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة﴾** (آل عمران: ٦٤) الآية..».

فتوجه إلى مصر فوجده بالإسكندرية، فذهب إليها، فوجده فى مجلس مشرف على البحر، فركب سفينة وحاذى مجلسه، وأشار بالكتاب إليه، فأحضره، وقرأ الكتاب. قال حاطب: فأنزلنى فى منزله وأقمت عنده ليالى «ثم بعث إلىّ، وقد جمع بطارقته، فقال: إنى سأكلمك بكلام أحب أن تفهمه منى، فقلت: هلم، قال: أخبرنى عن صاحبك، أليس هو نبيًا؟ قلت: بلى، هو رسول الله ﷺ، قال: فماله حيث كان هكذا لم يدع على قومه حين أخرجوه من بلدته إلى غيرها؟ فقلت له: فعيسى بن مريم أشهد أنه رسول الله ﷺ ما منعه أن يدعو على من خالفه أن يُسَلَّط عليه، وما له حيث أراد قومه صلبه أن يدعو عليهم بأن يهلكهم الله

(١) بفتح الموحدة، وسكون اللام، وفتح المثناة فوق. (الطهطاوى).

حتى رفعه الله فى سماء الدنيا؟ ثم سكت المقوقس ساعة ، ثم استعادها فأعادها عليه حاطب ، فسكت ، فقال له حاطب إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر أنت بغيرك ولا يعتبر غيرك بك ، وإن لك دينًا لن تدعه إلا لما هو خير منه ، وهو الإسلام الكافى الله به فقد ما سواه ، وما بشارة موسى بعيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام إلا كبشارة عيسى بمحمد ﷺ ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به ، ثم قال المقوقس : أفى عينيه عروق حمر ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، ويركب الحمار؟ قال : هذه الصفة قال : أحسنت ، أنت حكيم جئت من عند حكيم ، فجعل الكتاب فى حُقّ من عاج وختم عليه ، وأعطى لحاطب مائة دينار وخمسة أثواب وأكرمه . وقد سبق التنويه إلى ذلك فى (الفصل الرابع عشر) من (الباب الأول) من (المقالة الرابعة) من (الجزء الأول[1]) وكتب إلى النبى ﷺ كتابًا ، وأهدى له ثلاث جوار منهن مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ مع أختها سيرين[2] وهدية من عسل بنها[3] العسل ، فدعا المصطفى لعسل بنها بالبركة ، وألف مثقال ذهبًا ، وفرسًا يقال له لزاز ، وبغلاً يقال له الدلدل ، وحمارًا يقال له عفير أو يعفور ، ووصلت تلك الهدايا سنة سبع وقيل سنة ثمان ، وبقيت البغلة إلى زمن معاوية ، وهلك الحمار مرجعه من حجة الوداع . ومات المقوقس فى خلافة عمر بن الخطاب على نصرانيته ودفن فى كنيسة أبى محلس .

فلما وصلت الهدايا إلى رسول الله ﷺ ، ونظر إلى مارية وأختها سيرين فأعجباه ، وكره الجمع بينهما ، ثم عرض الإسلام عليهما ، فأسلمت مارية قبل سيرين ، وتسرى بها ، فجاءه منها إبراهيم فعاش ثمانية عشر شهرًا ومات ، وقيل غير ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : لو بقى إبراهيم ما تركت قبطيًا إلا وضعت عنه الجزية . ولما ولد إبراهيم قال رسول الله ﷺ : اعتق أم إبراهيم ولدُها ، وقال ﷺ : استوصوا بالقبط خيرًا ، فإن لهم ذمة ورحما ، وكانت هاجر أم إسماعيل

---

(١) انظره فى الجزء الثالث من هذه الأعمال .

(٢) بسين مهملة . (الطهطاوى) .

(٣) بفتح الموحدة ، وسكون النون ، وهى قرية من أعمال مصر . (الطهطاوى) .

منهم، وعاشت مارية إلى سنة خمس عشرة من الهجرة وماتت بالمدينة. وكانت عائشة تقول: ما غرْت من امرأة مثل غَيْرتى على مارية، وذلك لأنها كانت جميلة جعدة الشعر. وأمَا سيرين فوهبها عليه الصلاة والسلام لحسان بن ثابت رضى الله عنه، فهى أم ولده عبد الرحمن، وكان يفخر بأنه ابن خالة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وسيرين هذه روت عن رسول الله ﷺ حديثًا، قالت: رأى رسول الله خَلَلا فى قبر إبراهيم ابنه فأصلحه وقال: إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه. وقد سبق بعض ذلك فى (الفصل السابع) من (الباب الرابع) من (المقالة الخامسة[1]).

ويقال إن حاطب بن أبى بلتعة لما قدم المدينة ودخل على النبى ﷺ أنشده أبياتًا، ويشبه أن تكون مصنوعة، وهى:

أنعم صباحًا يا وسيلة أمة	**ترجو النجاة به غداة الموقف**
إنى مضيت إلى الذى أرسلتنى	**أطوى المَهامة فى الطريق الأخوف**
حتى رأيت بمصر صاحب ملكها	**فبدا إلىّ بمثل قول منصف**
فقرا كتابك حين فك ختامه	**فاهتز يرعد كاهتزاز المرجف**
قال الأساقفة الذين تجمعوا	**ماذا أراعك من كتاب المسرف[2]**
قال: اسكتوا يا ويلكم وتأدبوا	**هذا كتاب نبى دين المصحف**
قالوا: وهمت، فقال: لست بواهم	**بل قد عرفت بيان حق الأحرف**
فى كل سطر من كتاب محمد	**خط يلوح لناظر متوقف**
هذا الكتاب كتابه لك خاضعًا	**يا خير مولود بحقك يكتفى**
إنى رسولك بالجواب مسلمًا	**بإرادة المولى العظيم الأرأف**

---

(١) انظره فى هذا الجزء الرابع من هذه الأعمال.

(٢) المسرف هنا بمعنى الغافل أو الجاهل.

لى أجـــرتى غــرف الجنان وحـــورها ونعـــيـــمـــهـــا فـــأفـــوز يـــوم الموقف

صلى عـليك الله مـــا غـــسق الـدجـــا أو لاح صـــبـــح بالضـــيـــاء المشـــرف

ومـــتـى بدت شـــمس الـنهـــار منـيـــرة فى ضـــوئهـــا الوهاج حـــتى ينطفى

وروى حاطب عبد النبى ﷺ أنه قال: «من رآنى بعد موتى فكأنما رآنى فى حياتى، ومن مات فى أحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامة» وليس له غير هذا الحديث. ودعا له النبى ﷺ يوم أُحد فقال: «رضى الله عنك رضى الله عنك».

وأما من بعثه رسول الله ﷺ للصلح فقد قال ابن إسحاق: دعا رسول الله ﷺ خُراش بن أمية الخزاعى فبعثه إلى قريش بمكة، وحمله على بعير له يقال له الثعلب، ليبلغ أشرافهم ما جاء له، فعقروا جمل رسول الله وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش، وهم حلفاء قريش، لأنهم تحالفوا تحت جبل بمكة يقال له حبشى أن يكونوا يدًا واحدة على من عداهم، وأنهم لا ينقضون ما أقام حبشى، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ.

ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إنى أخاف قريشًا على نفسى، وليس بها من بنى كعب بن عدى أحد يمنعنى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى: عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرا للبيت ومعظمًا لحرمته، فخرج عثمان بن عفان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت؛ فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ!

وأما بعث الرسل للأمان فقال ابن إسحاق: خرج صفوان بن أمية يوم فتح مكة

يريد جدة ليركب منها إلى اليمن، فقال عمير بن وهب: يا نبى الله، إن صفوان بن أمية سيد قومى، وقد خرج هاربًا منك ليقذف نفسه فى البحر، فأمنه صلى الله عليك، قال: هو آمن، فقال: يا رسول الله، فأعطنى آية ليعرف به أمانك، فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التى دخل بها مكة، فخرج عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب البحر، فقال: يا صفوان، فداك أبى وأمى، الله الله فى نفسك أن تهلكها، فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به، فقال صفوان[1]: ويحك! اغرب عنى فلا تكلمنى، قال فداك أبى وأمى، أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، وابن عمك، عزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك! قال: إنى أخافه على نفسى، قال: هو أحلم من ذلك وأكرم، فرجع معه حتى وقف به إلى رسول الله ﷺ، فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك قد أمنتنى! قال: صدق، قال: فاجعلنى بالخيار فيه بشهرين، قال: أنت بالخيار أربعة أشهر! قال ابن عبدالبر: وشهد صفوان قبل أن يسلم مع رسول الله ﷺ حنينًا والطائف، واستعاره ﷺ حين خرج معه إلى حنين سلاحًا، فقال: طوعًا أو كرهًا؟ فقال: بل طوعًا، عارية مضمونة، فأعاره، وأعطاه رسول الله ﷺ من المغانم يوم حنين فأكثر، فقال صفوان: أشهد بالله ما طابت بهذا إلا نفس نبى، فأسلم.

وتولى أمر ذلك أيضًا من النساء أم حكيم بنت الحارث بن هشام، زوجة عكرمة بن أبى جهل ابن عمها، أسلمت يوم الفتح واستأمنت النبى ﷺ لزوجها عكرمة، وكان قد فر إلى اليمن فخرجت فى طلبه فردته حتى أسلم وثبتا على نكاحهما، وقال له رسول الله ﷺ، لما رآه حين أتت به: مرحبًا بالراكب المهاجر! وقال لأصحابه ﷺ: إن عكرمة يأتيكم، فإذا رأيتموه فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذى الحى!

وبعث رسول الله ﷺ رسولاً إلى ملك الحبشة ليبعث من عنده فى بلده من المسلمين، وذلك أنه كان قد أقام بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ من أقاموا، حتى بعث فيهم رسول الله ﷺ إلى النجاشى عمرو بن أمية الضّمرى،

---

(١) فى الأصل تأخرت كلمة «صفوان» فجاءت قبل مقولة عمير. فلزم التصحيح.

فجعلهم فى سفينتين، فقدم بهم عليه وهو بخيبر بعد الحديبية، وكانوا ستة عشر رجلا، منهم جعفر بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه، كما قال ابن إسحاق.

وقد بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضَّمَرى إلى النجاشى، وكتب إليه كتابين يدعوه فى أحدهما إلى الإسلام ويتلو عليه القرآن، فأخذه النجاشى فوضعه على عينيه ونزل عن سريره فجلس إلى الأرض ثم أسلم وشهد شهادة الحق، وقال: لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته. وفى الكتاب الآخر أن يزوجه أم حبيبة، وأمره أن يبعث من قِبَله من أصحابه ويحملهم، ففعل، ودعا بحُق من عاج فجعل فيه كتابى النبى ﷺ، وقال: لن تزال الحبشة بخير ما كان هذان الكتابان بين أظهرها - كما نقله القاضى عز الدين بن جماعة -.

وأم حبيبة، فى هذا الخبر، هى بنت سفيان بن حرب.

وروى أبو سفيان بن حرب أن رسول الله ﷺ لما كتب كتابه إلى النجاشى ختمه ثم رمى به على التراب وأنفذه، فلا جرم أنه أسلم وفاز، ولما كتب كتابه إلى كسرى أنوشروان لم يلقه إلى التراب، فلا جرم أنه لم يسلم ولم يفز، وقال ﷺ: تَرِّبوا الكتاب فإن التراب مبارك. وقال بعضهم:

كتبت الكتاب وتربّته لعلى بتتريبه أفلح

لقول النبى لأصحابه ألا تربوا كُتْبَكم تفلحوا

وينبغى للكاتب إذا كتب كتابه أن يقرأه قبل طيه، فإن رأى فيه شيئا لم يعجبه ولم يستصوبه تداركه وأصلحه، وينبغى له أيضًا أن لا يكرر كلمة يكتبها، ويقتصر فى الكلام اقتصارًا مُجَمِع المعنى لئلا يطول الكلام، وينبغى له أن يحترز من الألفاظ الثقيلة، فقد قيل: خيرُ الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل.

التراجمـــة

وأما تراجمة النبى ﷺ فقد ذكر التلمسانى فى [العمدة] أن زيد بن ثابت

الأنصاري النجاري، رضي الله تعالى عنه، كان يكتب للملوك ويجيب بحضرة النبي ﷺ، وكان ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية، تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن. وذكر ابن هشام في [البهجة] نحواً منه، وقد تعلم زيد بن ثابت السريانية أيضًا، وذلك أنه كانت ترد على رسول الله ﷺ كتب السريانية فأمَرَ زيد بن ثابت بتعليمها فتعلمها في بضعة عشر يومًا. وخرج الترمذي رحمه الله تعالى عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ أن تعلم كتاب يهود، فإني والله ما آمن يهود على كتاب، قال: فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له، قال: فلما تعلمت كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. انتهى.

وأما معنى نهي عمر رضي الله تعالى عنه عن تعلم رطانة الأعاجم، وكراهة مالك رحمه الله تعالى تعليم خطهم، فإنه محمول على ما لا يكون في تعليمه منفعة للمسلمين، وأما ما فيه منفعة للمسلمين كتعلم لسانهم لترجمة، وما يحتاج إليه الإمام، أو لما يحتاج إليه القاضي للفصل بين الخصوم وإثبات الحقوق، أو العاشر - الذي يأخذ العُشْر من أهل الذمة والتجار - لطلب ما يتعين عندهم لبيت المال، أو لما يحتاج إليه فكاك الأسارى، وما أشبه ذلك مما تدعو إليه الضرورة، فغير مكروه، وإلا لما تعلمه زيد بن ثابت بأمر النبي ﷺ.

الشعراء

وأما شعراؤه ﷺ فكان من شعراء المسلمين حسان بن ثابت الأنصاري، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك، يذبون عن النبي ﷺ وعن المسلمين، ويهجون المشركين ويردون على شعرائهم. قال أبو عمرو بن عبدالبر: قيل لعليّ بن أبي طالب: أهْجُ عنا القوم الذين يهجوننا، فقال: إن أذن لي النبي ﷺ فعلت، فقالوا: يا رسول الله، ائذن له، فقال رسول الله ﷺ: إن عليا ليس عنده ما يراد في ذلك منه، ثم قال: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله ﷺ أن يمنعوه بألسنتهم؟ انتهى.

وقد انتدب لهجو المشركين ثلاثة من الأنصار: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، فكان حسان وكعب بن مالك يعارضانهم بمثل قولهم في الوقائع والأيام والمآثر، ويذكرون مثالبهم، وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر وعبادة ما لا يسمع ولا ينفع، فكان قوله يومئذ أهون القول عليهم، وكان قول حسان وكعب أشد القول عليهم، فلما أسلموا وفقهوا كان أشد القول عليهم قول عبدالله بن رواحة. قال أبو عمرو رحمه الله تعالى وفيه وفي صاحبيه حسان وكعب بن مالك نزلت آية ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**﴾ (الشعراء ٢٢٧).

وكان يقال لحسان بن ثابت: شاعر رسول الله ﷺ، روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها وصفت رسول الله ﷺ فقالت: كان والله كما قال فيه شاعره حسان ابن ثابت:

متى يبد فى الداجى البهيم جبينه   يلح مثل مصباح الدجى المتوقد

فمن كان أو من قد يكون كأحمد   نظام لحق أو نكال لملحد

ومن جيد شعر حسان ما ارتجله بين يدى النبى ﷺ حين قدوم بنى تميم، إذ أتوه بخطيبهم وشاعرهم، ونادوه من وراء الحجرات: أن أخرج إلينا يا محمد، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ**﴾ (الحجرات: ٤) الآية.

وكانت حجراته ﷺ تسعًا، وكلها شَعْر مغلفة من شجر العرعر، فخرج رسول الله ﷺ إليهم، وخطب خطيبهم مفتخرًا، فلما سكت أمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس أن يخطب بمعنى ما خطب به خطيبهم، فخطب ثابت فأحسن، ثم قام شاعرهم، وهو الزِّبرقان بن بدر، فقال:

نحن الملوك فلاَ حيٌ يقاربنا   فينا العلاء وفينا تُنصَب البيع

ونحن نطعمهم في الحِلْ ما أكلوا	من العبيط إذا لم يونس القَزَع[1]

وننحر الكُومَ عبطًا في أرومتها	للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا[2]

ثم جلس شاعرهم فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: قم، فقام وقال:

إن الذوائب[3] من فهر وإخوتهم	قد بينوا سُنَّة للناس تُتَّبع

يرضى بها كل من كانت سريرته	تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا

قوم إذا حاربوا ضروا عدوّهم	أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

سجيةٌ تلك منهم غير مُحدَثة	إن الخلائق فاعلم شرُّها البدع

إن كان فى الناس سباقون بعدهم	فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

لا يرفع الناسُ ما أوهت أكفُّهم	عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا

ولا يضنون عن جار بفضلهم	ولا يمسهم فى مَطمَع طبَع

أعفة ذُكرت فى الوحى عفتهم	لا يبخلون ولا يُرديهم طمع

خذ منهم ما أتوا عفوا إذا عطفوا	ولا يكن همك الأمر الذى منعوا

فإن فى حربهم فاترك عداوتهم	شراً يخاض إليه الصاب والسلَع[4]

أكرم بقومٍ رسول الله شيعتهم	إذا تفرقت الأهواء والشيع[5]

(١) العبيط الذبائح السمينة، والقزع الإبل الصغيرة. (الطهطاوى).

(٢) الكوم، مفردها: كوماء، وهى الناقة العظيمة السنام. والعبط: السليم الذى لا علة فيه، والأرومة: الأصل المتأصل. ويورد الطبرى هذه الأبيات ثمانية، مع بعض الاختلافات فى الرواية، انظر جـ ٣ ص ١١٧.

(٣) الذوائب: السادة.

(٤) الصاب: المر، والسلع: نبات مسموم.

(٥) عدة الأبيات فى الطبرى ثمانية عشر بيتًا، مع اختلافات فى رواية بعض الأبيات. ومكان هذه القصيدة فى ديوان حسان بن ثابت ص ٢٤٨. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩م.

فقال التميميون عند ذلك : وربكم إن خطيب القوم أخطب من خطيبنا، وإن شاعرهم أشعر من شاعرنا : وما أنصفنا وما قاربنا! فأسلموا، وأحسن رسول الله ﷺ جوائزهم.

وروى بالإسناد الصحيح عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله ﷺ ، فقال صلوات الله عليه : إن الله عز وجل يؤيد حسان بروح القدس ما ينافح ـ أو يفاخر ـ عن رسول الله، وأما قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ أي غواة من المشركين يستمعون إلى أشعارهم ويروون عنهم (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) أي يخوضون في كل لغو وباطل، جعل الأودية مثلا لفنون كلامهم الباطل، ثم استثنى شعراء المسلمين بقوله : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (الشعراء : ٢٢٤)، مثل عبدالله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت الذين مدحوا رسول الله ﷺ وردوا هجاء من هجاه. فإذن من الشعر ما هو مندوب إليه، ومحثوث شرعًا وعقلاً عليه، لما يتضمنه من نفائس الآداب، وابتكار المعانى التى هى تنقيح الألباب، والحكم التى تروح البصائر، فتقتنى من نفيسات أعلاقها أخاير الذخائر.

واستعمل أبى بكر رضى الله تعالى عنه حسان بن ثابت فى مجاوبة من خاطبه بالشعر كصخيان بن شِمْر[1] بن عمرو الحنفى، سيد قومه، كان ممن ثبت على إسلامه فى الردة، وكانَ عينًا للمسلمين فى أهل اليمامة، وغيظًا لمسيلمة، ولا يجدون إليه سبيلاً لشرفه وطاعة قومه له.

وأما كعب بن مالك فكان قد غلب عليه فى الجاهلية أمر الشعر، وعرف به، ثم أسلم، وكان أحد شعراء رسول الله ﷺ الذين كانوا يردون عنه. وعن الزهرى أن كعب بن مالك قال : يا رسول الله، ماذا ترى فى الشعر؟ فقال رسول الله ﷺ : «إن المؤمن يجاهد بنفسه ولسانه». وشهد رضى الله عنه العقبة الثانية، ولم يشهد بدراً، وشهد أحداً والمشاهد كلها حاشى تبوك فإنه تخلف عنها، وهو أحد

(١) بكسر الشين وسكون الميم (الطهطاوى).

الثلاثة الأنصار الذين تخلفوا عنها، والثانى هلال بن أمية والثالث مرارة بن ربيعة، فتاب الله عليهم وعذرهم وغفر لهم ونزل فيهم ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ (التوبة: ١١٨) الآية وكان كعب بن مالك يوم أحد لبس لأمة النبى ﷺ، وكانت صفراء، ولبس النبى ﷺ لأمته، فجرح كعب أحد عشر جرحًا. وعن ابن سيرين قال: بلغنى أن دَوْسًا إنما أسلمت فَرَقًا من قول كعب بن مالك:

قضينا من تهامة كل وتر ... وخيبر ثم أجمعنا السيوفا

نخيرها ولو نطقت لقالت ... قواطعهن دَوْسًا أو ثقيفا

فقالت دَوْس: انطلقوا فخذوا لأنفسكم، لئلا ينزل بكم ما نزل بثقيف!

وأما عبدالله بن رواحة الأنصارى، رضى الله عنه، فقد شهد المشاهد كلها إلا فتح مكة وما بعده، لأنه قتل يوم مؤتة شهيدًا، وهو أحد الشعراء المحسنين الذين كانوا يردون الأذى عن رسول الله ﷺ، وقد روى البخارى رحمه الله تعالى عن الهيثم بن أبى سنان أنه سمع أبا هريرة رضى الله تعالى عنه فى قصصه يذكر النبى ﷺ يقول: «إن أخًا لكم لا يقول الرفث»، يعنى بذلك ابن رواحة، قال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أنّ ما قال واقع

يبيت يجافى جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

وروى هشام بن عروة عن أبيه قال: سمعت أبى يقول: ما سمعت بأحد أجرى وأسرع شعرًا من عبدالله بن رواحة، سمعت رسول الله ﷺ يقول له يومًا: قل شعرًا تقتضيه الساعة وأنا أنظر إليك فانبعث مكانه يقول:

إنى تفرست فيك الخير أعرفه ... والله يعلم أنْ ما خاننى البصر

أنت النبى ومن يحرم شفاعته ... يوم الحساب فقد أودى به القدر

فثبت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصرًا كالذى نصروا

فقال رسول الله ﷺ: وأنت فثبتك الله يا ابن رواحة.

وأما خطيب النبى ﷺ فهو ثابت بن قيس بن شماس بن أبى زهير بن مالك بن امرئ القيس، وهو ممن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، روى النسائي عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: لما نزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ (الحجرات: ٢) قال ثابت بن قيس: أنا الذى كنت أرفع صوتى عند رسول الله ﷺ، وإنى أخشى أن يكون الله غضب علىّ، فحزن واصفر، ففقده النبى ﷺ فسأل عنه، فقيل: يا نبى الله إنه يقول: «إنى أخشى أن أكون من أهل النار، وإنى كنت أرفع صوتى عند النبى ﷺ، قال النبى ﷺ: هو من أهل الجنة، قال: فكنا نراه يمشى بين أظهرنا رجلاً من أهل الجنة.

وفى السير لابن إسحاق وغيره: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، وكان ذلك سنة تسع، وإنها كانت تسمى سنة الوفود، فقدم عليه عُطَارد بن حاجب بن زرارة بن عَدْس ـ (كَقَتْم) ـ التميمى، فى أشراف من بنى تميم، فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته: إنْ اخرج إلينا يا محمد، فتأذى رسول الله ﷺ من صياحهم، فخرج إليهم، فقالوا جئناك يا محمد لنفاخرك، فائذن لشاعرنا وخطيبنا، قال: قد أذنت لخطيبكم فليقل، فقام عُطَارد بن حاجب فقال:

«الحمد لله الذى له علينا الفضل والمَنّ، وهو أهله، الذى جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالاً عظامًا نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عدداً وأيسره عدة، فمن مثلنا؟ ألسنا برؤوس الناس وأولى فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعُدّ مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نعرف بذلك، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا أو أمر أفضل من أمرنا». ثم جلس.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس، أخى بنى الحارث بن

الخزرج: قم، فأجب الرجل فى خطبته، فقام ثابت بن قيس رضى الله تعالى عنه فقال:

«الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يكن شىء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا، واصطفى من خلقه رسولاً، أكرمه نسبًا وأصدقه حديثًا، وأفضله حسبًا، فأنزل الله عليه كتابه، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه، أكرم الناس أحسابًا، وأحسن الناس وجوهًا، وخير الناس فعالاً، ثم كان أول الخلق إجابة لله حين دعاه رسول الله نحن، فنحن الأنصار، أنصَار الله، ووزراء رسول الله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه فى الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا، أقول هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم». انتهى.

وقد تقدم بقية السيرة من قيام الزِّبرقان بن بدر وإنشاده، ومجاوبة حسان بن ثابت له، عند الكلام على حسان، فى أثناء هذا الفصل.

الفصل الخامس

(فى كتابة الجيش، والعطاء، والديوان، والزمام، وبيان أن الديوان له أصل فى عهده صلى الله عليه وسلم)

كتابة الجيش

قد أمر النبى ﷺ بكَتْب الناس، وجرى العمل بذلك فى عصره ﷺ، وروى البخارى بسنده عن حذيفة بن اليمان قال. قال رسول الله ﷺ: «أكتبوا لى من يلفظ بالإسلام من الناس»، فكتبنا له ألفًا وخمسمائة رجل، فقلنا: نخاف ونحن ألف وخمسمائة؟! فلقد رأيتنا ابتلينا حتى أن الرجل ليصلى وحده وهو خائف!

وروى مسلم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: سمعت النبى ﷺ يخطب يقول «لا يخلون رجل بامرأة إلا ومها ذو محرم، ولا تسافر امرأة إلا مع ذى محرم» فقام رجل فقال: يا رسول الله، إن امرأتى خرجت حاجة، وإنى اكْتُتِبْتُ فى غزوة كذا وكذا، قال: «انطلق مع امرأتك». ورواه البخارى أيضًا عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، اكْتُتِبْتُ فى غزوة كذا، وامرأتى حاجة، فقال: «ارجع فحج مع امرأتك».

وحديث البخارى السابق يفيد أن من تولى كتابة الجيش حذيفة بن اليمان، وكان من كبار أصحاب رسول الله ﷺ، وهو الذى بعثه رسول الله ﷺ يوم الخندق ينظر إلى قريش فجاءه بخبر رحليهم، وقد تقدم أنه صاحب سر رسول الله

ﷺ، وكان عمر رضى الله عنه يسأله عن المنافقين، وينظر إليه عند موت من مات منهم، فإن لم يشهد جنازته حذيفة لم يشهدها عمر.

فرض العطاء

وأما العطاء فى عهد رسول الله ﷺ وعهد أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، فقد روى أبو داود رحمه الله تعالى عن عوف بن مالك رضى الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ كان إذا أتاه الفىء قسمه فى يومه، فأعطى حظين، وكان لى أهل، ثم دعا بعمى عمار ابن ياسر فأعطى حظًا واحداً.

وروى مالك فى [الموطأ] عن القاسم بن محمد أن أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه كان إذا أعطى الناس أعطياتهم يسأل الرجل: هل عندك من مال وجبت عليك فى الزكاة؟ فإن قال: نعم، أخذ من عطائه زكاة ذلك المال، وإن قال: لا، أدى إليه عطاءه ولم يأخذ منه شيئًا.

فثبت بهذا أن النبى ﷺ أمر بكتابة الناس فى الجيش، وأنهم كتبوا فى عصره ﷺ، وأنه كان يقسم الفىء، وأن أبا بكر رضى الله تعالى عنه كان يعطى الناس الأعطيات، وهذا لا يخالف ما أطبق عليه أهل الأثر وأصحاب الأخبار والسِّيَر من أن عمر رضى الله تعالى عنه أول من وضع «الديوان» فى الإسلام وفرض الأعطيات، فإنهم إنما يعنون أنه أول من دون الدواوين للعطاء، ورتب الناس فيها، وقدر الأعطيات، وإنما كانت كتابة الناس فى عصر النبى ﷺ بإحصاء من تعين منهم فى بعث البعوث، ولم تكن فى وقت معين، ولا بمقدار معين، حيث لم تكثر الناس كثرة أيام عمر، ولا جبيت الأموال، ولا تأكدت الحاجة إلى ضبطهم - كما سيأتى - وإلا فنوع الديوان موجود فى عهده ﷺ، وكتب الأسماء فيه، بعد عرضهم، موجود، فقد روى الترمذى رحمه الله تعالى عن نافع عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: عُرِضْتُ على رسول الله ﷺ فى جيش وأنا ابن أربع عشرة سنة فقبلنى، فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز فقال: هذا حد ما بين الصغير والكبير، ثم كتب أن يعرض لمن بلغ الخمس عشرة. وذكر أبو عمرو بن عبد البر فى

(الاستيعاب) عند ذكره سَمُرَة بن جُنْدب أن رسول الله ﷺ كان يعرض غلمان الأنصار في كل عام فمر به غلام فأجازه في البعث، وعرض عليه سَمُرة بن جُندب من بعده فرده، فقال سَمُرة: يا رسول الله، لقد أجزت غلامًا ورددتني ولو صارَعْتُه لصَرَعْتُه! قال: فصارع، فصارعتُه فصرعتُه، فأجازني في البعث.

ومعنى عرض الجند نظر حالهم، تقول عرضت الجند إذا أمررتهم عليك ونظرت حالهم، وذكر البيهقي في (السنن الصغرى) أن الأحكام إنما تعلقت بالبلوغ بعد الهجرة، وقبل الهجرة إلى عام الخندق كانت تتعلق بالتمييز. انتهى.

الديوان والزمام

وأما وضع عمر رضي الله تعالى عنه «الديوان» بالكيفية المروية عنه، فمعلوم أن في سنة خمسة عشر للهجرة فرض عمر رضي الله تعالى عنه الفروض، ودوّن الدواوين وأعطى العطايا، ونصب الكُتَّاب لبيت المال، ومسح السواد والبلاد بالعساكر المنصورة، وأجرى الأرزاق على العساكر الإسلامية من بيت المال.

وأول من اتخذ بيت المال عمر رضي الله عنه، وقيل أبو بكر رضي الله عنه، لكنه كثر وانتظم في زمان عمر رضي الله عنه. قال الماوردي في [الأحكام السلطانية] اختلف الناس في السبب الذي حمل عمر رضي الله عنه على ذلك، فقال قوم: إنه بعث بعثًا، وعنده الهرمزان، فقال لعمر: هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال، فإن تخلف رجل أخل بمكانه من أين يعلم به؟ فأثبت لهم ديوانًا، فسأله عمر عن الديوان حتى فسره له، وقال آخرون: سببه أن أبا هريرة رضي الله تعالى عنه قدم عليه بمال من البحرين، فقال عمر: ماذا جئت به؟ قال خمسمائة ألف درهم، فاستكثره عمر، وقال: أتدري ما تقول؟ قال: نعم، مائة ألف خمس مرات، فصعد عمر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس، قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلْناه لكم كيلاً، وإن شئتم عددَناه إليكم عداً. فقام رجل وقال: يا أمير المؤمنينَ، قد رأيتم الأعاجم يدونون ديوانًا لهم، فدون أنت ديوانًا، فاستشار عمر

رضى الله تعالى عنه المسلمين فى تدوين الدواوين، فقال على رضى الله تعالى عنه: تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من المال، ولا تمسك منه شيئًا، وقال عثمان رضى الله تعالى عنه أرى مالاً كثيراً يسع الناس وإن لم يحصوا حتى يُعْلم من أخذ ممن لم يأخذ، خشيت أن ينتشر الأمر، فقال خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه: قد كنت بالشام، فرأيت ملوكًا دونوا دواوين وجندوا أجنادًا فدون ديوانًا وجند جنودًا، فأخذ بقوله، ودعا عَقيل بن أبى طالب ومَخْرمة بن نوفل وجبير بن مُطعم، وكانوا من شبان قريش، فتقلّدوا بكتابة الديوان فى عصر عمر رضى الله تعالى عَنه.

فمن هذا يفهم أن الدواوين لها أصل فى عهده ﷺ، لكن لم تسم باسم ديوان إلا فى أيام عمر رضى الله تعالى عنه حيث اتسعت نوعًا، وكذلك فى أيام بنى أمية أخذت فى الجسامة. فالقول بأن أول من دون الدواوين عمر أو معاوية أو عبد الملك ابن مروان أو الوليد أو سليمان بن عبد الملك أو عمر بن عبد العزيز وأن كاتبهم كان سليمان بن سعد فالأولية نسبية، أو أنها بالنسبة لأول من نقل.

ثم إن الديوان اسم أعجمى، قيل: والأصل فى تسميته ديوانًا أن كسرى أمر كتابه أن يجتمعوا فى دار واحدة ويعملوا حساب السواد فى ثلاثة أيام، وأعجلهم فيه، واطلع عليهم لينظر ما يصنعون، فنظر إليهم فإذا هم يحسبون بأسرع ما يمكن، وينسخون كذلك، فعجب من كثرتهم، فقال: أى ديوان، ومعناه: هؤلاء مجانين أو شياطين، فسمى موضعهم ديوانًا، واستعمله العرب، وجعلوا من كل محصَّل من كلام أو شعر ديوانًا، وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: إذا قرأتم شيئًا من القرآن ولم تعرفوا ما غريبه فاطلبوه فى شعر العرب، فإنه ديوانها.

والزمام ترتيب الأعمال، وحصر الأمور فيه، وزمها[1] وعقلها عن التلف خشية النسيان لها، ويسمى الزمام ديوانا لأنه جعل كالكتاب الذى تدون فيه الأغانى والعلوم لتعلم وتحفظ فى كل وقت، مأخوذ من زمام الناقة الذى هو مانعها من إرادة هواها وقاصرها على المكان الذى عُقلَت فيه.

(١) فى الأصل ذمها ـ بالذال ـ

وذكر الماوردى فى [الأحكام السلطانية] أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين أراد وضع الناس فى الديوان قال: بمن أبدأ؟ فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما: ابدأ بنفسك، فقال عمر رضى الله عنه: أذكر أنى حضرت رسول الله ﷺ وهو يبدأ ببنى هاشم وببنى المطلب، فبدأ بهم عمر رضى الله عنه، ثم بمن يليهم من قريش، بطنا بعد بطن، حتى استوفى قبائل قريش، ثم انتهى إلى الأنصار، فقال عمر: ابدؤوا برهط سعد بن معاذ من الأوس، ثم الأقرب فالأقرب من سعد، واستقر ترتيب الناس فى الديوان على قاعدة النسب المتصل برسول الله ﷺ.

قال الماوردى: والترتيب المعتبر فى الديوان عام، وخاص:

فالترتيب العام: ترتيب القبائل والأجناس حتى تتميز كل قبيلة من غيرها وكل جيش ممن خالفه، ولا يخلو حالهم من أن يكونوا عربا أو غيرهم، فإن كانوا عربا فترتيب قبائلهم بالقربى من رسول الله ﷺ، كما فعل عمر رضى الله تعالى عنه، فتقدم عدنان على قحطان، لأن النبوة فى عدنان، وعدنان يجمع ربيعة ومضر فتقدم مضر على ربيعة، لأن النبوة فى مضر، ومضر يجمع قريشا وغيرهم، فتقدم قريش لأن النبوة فيهم، وقريش تجمع بنى هاشم وغيرهم، فتقدم بنو هاشم لأن النبوة فيهم، وإن كانوا غير عرب فإن كان لهم سابقة فى الإسلام ترتبوا عليها، وإن لم تكن لهم سابقة ترتبوا بالقربى من ولى الأمر، فإن تساووا فبالسبق إلى الطاعة.

والترتيب الخاص: فى ترتيب الواحد بعد الواحد، فترتيب بالسابقية فى الإسلام، فإن تكافأوا فى السابقية ترتبوا بالدين، فإن تقاربوا فى الدين ترتبوا فى السن، فإن تقاربوا فى السن ترتبوا بالشجاعة، فإن تقاربوا فيها فولى الأمر مخير إن شاء رتبهم بالقرعة أو رتبهم على رأيه واجتهاده.

أحكام العطاء

وأما وقت العطاء للمستحقين فقد ذكر الشيرازى فى [طبقات الفقهاء] أن أبا الزناد عبد الله بن ذكوان، مولى رملة بنت ربيعة، وفد على هشام بن عبد الملك بن

مروان بحساب ديوان المدينة، فسأل هشام بن شهاب: أى شهر كان يخرج فيه العطاء لأهل المدينة؟ فقال: لا أدرى، فقال أبو الزناد: فسألنى هشام، فقلت: المحرم، فقال هشام لابن شهاب: يا أبا بكر، هذا علم أخذته اليوم! فقال ابن شهاب مجلس أمير المؤمنين أهل أن يفاد منه العلم. انتهى. أى لأن ابن شهاب بعد أن قال: لا أدرى، علم فى المجلس أن وقت العطاء المحرم. وقال بعض الشعراء على لسان الوليد بن اليزيد بن عبد الملك بن مروان حين استخلف:

ضمنت لكم إن سلم الله مهجتى — عطاء ورزقا كاملا فى المحرم

فلا تسخطونى لا أبا لأبيكم — فإنى لكم كالوالد المترحم

والعطاء كما يدفع نقدا يدفع عُروضا، فقد روى البخارى رحمه الله عن المسْور بن مَخْرَمة رضى الله تعالى عنهما أن أباه مخرمة رضى الله عنه قال له: يا بنى، بَلغنى أن النبى ﷺ قدمت عليه أقبية فهو يقسمها، فاذهب بنا إليه، فذهبنا، فوجدنا النبى ﷺ فى منزله، فقال لى: يا بنى ادع لى النبى ﷺ، فأعظمت ذلك، فقلت: أدعو لك رسول الله ﷺ؟! فقال: يابنى، إنه ليس بجبار [(١)]، فدعوته، فخرج وعليه قباء من ديباج مزرر بالذهب، فقال: يا مخرمة، هذا خبأناه لك، فأعطاه إياه.

وذكر ابن المنذر رحمه الله تعالى عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه كان يأخذ الجزية من كل ذى صنْع [(٢)] من صاحب الإبر إبرا، ومن صاحب المسال مسالا، ومن صاحب الحبال حَبالا، ثم يدعو العرفاء فيعطيهم الذهب والفضة فيقسمونه، ثم يقول: خذوا هذا فاقتسموه، فيقولون: لا حاجة لنا فيه، فيقول: أخذتم خياره وتركتم على شراره؟ لتحملنه!

وإذا مات الرجل بعد أن استوجب العطاء، كله أو بعضه، أعطى له بقدر استحقاقه، فقد ذكر أبو عبيد [(٣)] فى [كتاب الأموال] أن رجلا مات بعد ثمانية أشهر

---

(١) أى ليس بملك، والعرب تسمى الملك جبارا، للعلاقة بينه وبين التجبر والجبر، الذى هو الاستبداد.

(٢) الصنع ـ بكسر الصاد وسكون النون ـ المصنوع.

(٣) أبو عبيد القاسم بن سلام (٧٧٤ - ٨٣٨م) من كبار علماء الحديث والفقه والأدب، وكتابه فى الأموال هذا يعد أول مؤلف فى فقه حديث الأموال.

من السنة فأعطاه عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ثلثى عطائه، وأن الزبير قال لعثمان رضى الله تعالى عنهما، بعدما مات عبد الله بن مسعود، وكان وصيه: أعط عطاء عبد الله، فعيال عبد الله أحق به من بيت المال، فأعطاه خمسة عشر ألفا.

وذكر أبو عبيد أيضا عن عمر عبد العزيز رحمه الله تعالى أنه كان إذا استوجب الرجل عطاءه ثم مات أعطاه ورثته.

وذكر ابن عبد البر فى [الاستيعاب] أن الزبير بن بكار ذكر بسنده أن الخنساء بنت عمرو السلمية حضرت حرب القادسية ومعها بنوها، أربعة رجال، فقالت لهم من أول الليل: «يا بنى، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذى لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجّنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله عز وجل: ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (آل عمران: ٢٠٠)، فإذا أصبحتم غدا، إن شاء الله، سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائكم مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت لظى ساقها (١) فتيمموا وطيسها (٢)، وجالدوا رئيسها، عند احتدام خميسها (٣)، تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلود والمقامة». فخرج بنوها قابلين لنصحها، عازمين على قولها، فلما أضاء لهم الصبح بادروا مراكزهم، وأنشد أولهم يقول:

يا إخوتى إن العجوز الناصحة ... قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة

بمقالة ذات بيان واضحه ... فباكروا الحرب الضروس الكالحة

وإنما تَلْقَوْنَ عند الصائحه ... من آل ساسان كلابًا نابحة

قد أيقنوا منكم بوقع الجائحه ... وأنتم بين حياة صالحة

وميتة تورث غنما رابحة

---

(١) أى شدتها. (٢) أى معركتها.

(٣) الخميس: الجيش لا نقسامه إلى خمسة أقسام: الميمنة والميسرة والقلب والساقة والمقدمة. وقيل: الجيش الخشن أو الجرار.

فتقدم وقاتل حتى قتل، رحمه الله تعالى، ثم حمل الثانى وهو يقول:

إن العجوز ذات حزم وجلد ... والنظر الأوفق والرأى السَّدد

قد أمرتنا بالسداد والرَّشَد ... نصيحة منها وبرا بالولد

فبا كروا الحرب كماة فى العدد ... إما بفوز بارد على الكبد

أو ميتة تورثكم غنم الأبد ... فى جنة الفردوس والعيش الرغد

وقاتل حتى استشهد، رحمه الله تعالى، ثم حمل الثالث وهو يقول:

والله لا نعصى العجوز حرفا ... قد أمرتنا حربا وعطفا

نصحا وبرا صادقا ولطفا ... فبادروا الحرب الضروس زحفا

حتى تلفوا آل كسرى لفا ... أو تكشفوهم عن حماكم كشفا

أما تروا التقصير منكم ضعفا ... والقتل فيكم نجدة وعرفا

وقاتل حتى استشهد، رحمه الله تعالى، ثم حمل الرابع وهو يقول:

لسنا لخنساء ولا للأخرم ... ولا لعمرو ذى السناء الأقدم

إن لم أر فى الجيش جيش الأعجم ... ماض على هول خضم خَضْرَم[1]

إما لفوز عاجل ومغنم ... أو لوفاة فى السبيل الأكرم

وقاتل حتى قتل، رحمة الله تعالى عليه وعلى إخوته.

فبلغها الخبر، فقالت: الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم! وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته! وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعطى الخنساء رضى الله تعالى عنها أرزاق أولادها الأربعة، لكل واحد منهم مائتى درهم، حتى قبض رضى الله تعالى عنه.

---

(١) الخضرم: البحر الخضم.

الفصل السادس

(فى العرفاء والمحاسبين)

العرفاء: رؤساء الأجناد وقوادهم، بهم يتعرفون أحوال الجيش، قال الشاعر:

أو كلما وردت عكاظَ قبيلةٌ بعثوا إلىّ عريفهم يتوسم

والعريف: النقيب، دون الرئيس، وقد روى البخارى رحمه الله تعالى عن مروان بن الحكم ومسْوَر بن مخرمة، رضى الله تعالى عنهما، أن رسول الله ﷺ قال حين جاءه وفد هوازن مسلمين، فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسَبْيَهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أحب الحديث إلىّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين، إما السبى وإما المال، وقد كنت استأنيت بهم» ، وقد كان رسول الله ﷺ انتظر آخرهم بضع عشرة ليال، حتى قفل من الطائف، فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير راد لهم إلا إحدى الطائفتين قالوا: «فإنا نختار سَبْيَنا، فقام رسول الله ﷺ فى المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءونا تائبين، وإنى قد رأيت أن أرد إليهم سَبْيَهم، من أحب أن يطيب فليفعل، ومن أحب أن يكون منكم على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل» . فقال الناس: قد طيبنا ذلك لرسول الله ﷺ [فقال][1] إنا لا ندرى من أذن منكم[2] فى ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم

(١) غير موجودة فى الأصل، والسياق يقتضيها.

(٢) فى الأصل: لكم.

أمركم، فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا.

وأما المحاسبة، فقد ثبت محاسبة النبي ﷺ رجلا من الأسد على صدقات بنى سليم يدعى ابن اللتبية عند مجيئه من جبى الصدقات، وروى مسلم رحمه الله تعالى عن أبي حميد الساعدى رضى الله تعالى عنه قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلا من الأسد على صدقات بنى سليم يدعى ابن اللتبية، فلما جاء حاسبه فقال: هذا ما لكم، وهذا هدية، فقال رسول الله ﷺ: فهلا جلست فى بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا؟! ثم خطب رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإني أستعمل الرجل منكم على العمل بما ولانى الله، فيأتي فيقول: هذا مالكم، وهذا هدية أهديت لى، أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته، إن كان صادقا؟! والله لا يأخذ أحد منها شيئا بغير حقه إلا لقى الله عز وجل يحمله يوم القيامة فلا أعرفن أحدا منكم لقى الله يحمل بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تَيْعَر [1] «ثم رفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه يقول: «اللهم هل بلغت» ، بصر عينى وسمع أذنى، كما سبق ذلك فى غزوة خيبر فى (الفصل السابع) من (الباب الرابع) من (المقالة الخامسة) من (الجزء الثانى [2]).

وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يحاسب عماله، فقد ذكر أن معاذ ابن جبل رضى الله تعالى عنه حين قدم من اليمن، بعد وفاة النبي ﷺ، على أبى بكر رضى الله تعالى عنه قال له: ارفع حسابك، فقال له: أحسابان، حساب الله وحساب منكم؟ والله لا آلى لكم عملا أبدا.

وكان عمر رضى الله تعالى عنه يستقدم عماله فى كل سنة للمحاسبة، قال أبو الربيع بن سالم فى [كتاب الاكتفاء]: كان عمر رضى الله تعالى عنه ملازما للحج فى سنى خلافته كلها، وكان من سيرته أن يأخذ عماله بموافاته بكل سنة فى موسم الحج ليحجزهم بذلك عن الرعية، ويحجز عنهم الظلم، ويتعرف أحوالهم فى قرب، وليكون للرعية وقت معلوم ينهون إليه شكاويهم.

---

(١) يعرت الشاة أي صاحت.

(٢) انظره فى هذا الجزء الرابع من هذه الأعمال.

وقال المظفر في كتابه : كان عمر رضي الله تعالى عنه يحاسب سعدا رضي الله تعالى عنه ، فيغضب ، فيقول عمر رضي الله عنه : عزمت عليك أن لا تدعو على أخيك ! ويضاحكه ، فإذا ذهب غضبه قال : تعال نتحاسب ، فإنه اليوم أيسر عليك من غد . انتهى .

وسعد هو ابن أبي وقاص القرشي الزهري ، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، كان مجاب الدعوة ، لأن رسول الله ﷺ قال فيه : « اللهم سدد سهمه ، وأجب دعوته » ، فكان مشهورا بذلك تخاف دعوته وترجى ، لاشتهار إجابتها عندهم .

الباب السابع

[في العمالات المتعلقة بالأحكام كالإمارة العامة على النواحي والقضاء وما يتعلق به من إشهاد الشهود وكتابة الشروط والعقود والمواريث والنفقات والقسام وناظر البناء للتحديد، وذكر المحتسب والمنادى ومتولى حراسة المدينة والجاسوس لأهل المدينة والسجان ومقيمي الحدود

وفيه فصول]

الفصل الأول

(فى الإمارة والقضاء وما يتعلق به من إشهاد الشهود وكتابة الشروط والعقود)

الإمــارة

الأمراء الذين بعثهم رسول الله ﷺ لولاية الجهات كثيرون، ولنذكر منهم هنا إمارتين: إمارة مكة المشرفة، وإمارة اليمن، قال ابن إسحاق فى السِّير: خرج رسول الله ﷺ يريد لقاء هوازن ومعه اثنا عشر ألفًا، عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة، وألفان من أهل مكة، واستعمل رسول الله ﷺ عَتَّاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس على مكة أميرًا.

وفى السير لابن جماعة: أمَّر رسول الله ﷺ عتّاب بن أسيد على مكة وإقامة الموسم والحج بالمسلمين سنة ثمان، ولم يزل أميرًا على مكة حتى قبض رسول الله ﷺ، وأقره أبو بكر رضى الله تعالى عنه على مكة، فلم يزل عليها إلى أن مات، وتصادفت وفاته يوم وفاة الصديق. وذكر الزمخشرى فى [الكشاف] أن رسول الله ﷺ استعمل عَتَّاب بن أسيد على أهل مكة، وقال: انطلق فقد استعملتك على أهل بيت الله، فكان شديدًا على المريب لينًا على المؤمن. ونقل الثعالبى فى تفسيره على قوله تعالى ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٠) عن الكلبى

أنه قال: السلطان النصير: عتاب بن أسيد، وذكر تولية النبي ﷺ إياه على مكة بنحو ما ذكره الزمخشري.

وأما إمارة اليمن، فقد قال ابن فتحون [1] في [الذيل]: إن باذان، ويقال باذام، أسلم، واستعمله النبي ﷺ على اليمن، وبعد وفاته استعمل ابنه على عمله، وذكر الثعالبي: أن باذان أول من أسلم من ملوك العجم، وأول أمير في الإسلام على اليمن، وقد مات في حياة النبي ﷺ، ويقال إن النبي ﷺ ولى ابن باذان على صنعاء وأعمالها فقط، لا على جميع إقليم اليمن عمل أبيه.

القضـاء

وأما القضاء، الذي هو فصل الحكم، فقد قضى رسول الله ﷺ بين الناس، وروى مالك في الموطأ عن أم سلمة، زوج النبي ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أنا بشر، وأنتم تختصمون إليّ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذن منه شيئا، فإنما أقطع له قطعة من النار»، ومعنى «ألحن بحجته» أفطن، إذ من معاني اللحن الفطنة. انتهى.

وقد ورد: «إن من البيان لسحرا»، وفسر بأن يكون الرجل عليه الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق، ولله در الشاعر حيث قال:

في زخرف القول تزيين لباطله ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

تقول هذا مُجاج النحل [2] تمدحه ... وإن ذممت فقل قيء الزنابير

مدحًا وذمًا وما غيرت من صفة ... سحر البيان يرى الظلماء كالنور

---

(1) محمد بن خلف بن سليمان بن فتحون (المتوفى سنة ١١٢٦م) ناقد أندلسي كتب انتقادات واستدراكات على كتب التراجم، وخاصة [كتاب الصحابة] لابن عبد البر، وكتاب (الذيل) الذي يشير إليه المؤلف هو كتاب [التذييل] الذي استدرك به ابن فتحون على كتاب ابن عبد البر، وله كذلك في «أوهام» كتاب الصحابة لابن عبد البر هذا.

(2) مجاج النحل: عسلها.

وحُكم النبي ﷺ كأحكام سائر الأنبياء وقضاياهم، يجوز أن يجرى على الظاهر وموجبات غلبات الظن بشهادة الشاهد ويمين الحالف ومراعاة الأشبه ومعرفة العفاص [1] والوكاء [2] مع مقتضى حكمة الله تعالى إلى ذلك، فإنه لو شاء لأطلعهم على سائر عباده، ومخبأ ضمائر أمته، فتولوا الحكم بينهم بمجرد يقينهم وعلمهم دون حاجة إلى اعتراف أو بينة أو يمين أو شبهة، ولكن لما أمر الله الأمم باتباعهم والاقتداء بهم فى أحوالهم، وكان اطلاعهم على علم الغيب فى كل نازلة مما لا تسمح به لكلهم الحكمة الإلهية، اقتضت الحكمة الإلهية تقييد أحكامهم بالظاهر، والله يتولى السرائر، لينتظم بذلك قانون الشرائع والأحكام، ويتيسر للحاكم بعدهم فصل التشاجر والخصام، ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (الجن: ٢٦) فيعلمه منه بما شاء ويستأثر بما يشاء، ولا يقدح هذا فى نبوتهم، ولا يفصم شيئا من عرى عصمتهم.

وقد قلد رسول الله ﷺ القضاء لعمر بن الخطاب، وعليّ بن أبى طالب، ومعاذ بن جبل، رضى الله تعالى عنهم، ففى [سنن الترمذى] أن عثمان قال لعبد الله بن عمر: اذهب فاقض بين الناس، قال: أو تعافينى يا أمير المؤمنين؟ قال: وما تكره من ذلك، وقد كان أبوك يقضى؟ قال: إن أبى كان يقضى فإن أشكل عليه شيء سأل رسول الله ﷺ، فإن أشكل على رسول الله ﷺ سأل جبريل، وإنى لا أجد من أسأله، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من عاذ بالله فقد عاذ»، وإنى أعوذ بالله منك أن تجعلنى قاضيًا! فأعفاه، وقال: لا تخبرن أحدًا. وقول عثمان لعبد الله إن أباك كان يقضى، أى كان قاضيًا لرسول الله ﷺ، ولم يرد قضاءه فى خلافته، بدليل جواب عبد الله بن عمر.

وأما عليّ بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه، فقد بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، وهو شاب، ليقضى بينهم، فقال: يا رسول الله: إنى لا أدرى ما القضاء، فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: «اللهم اهد قلبه، وسدد لسانه»، قال عليّ:

---

(١) العفاص: الجلد يتخذ غطاء للقارورة.

(٢) الوكاء مصدر الاتكاء.

فوالله ما شككت بعدها في قضاء بين اثنين. وروى أبو داود رحمه الله تعالى عن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيًا، وأنا حديث السن، ولا علم لي بالقضاء، قال: «إن الله سيهدي قلبك، ويثبت لسانك، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقتضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء»، قال: فما زلت قاضيًا، وما شككت في قضاء بعد. كذا ذكره أبو عمر بن عبد البر في [الاستيعاب].

وقال أيضًا: قال رسول الله ﷺ في أصحابه: «أقضاهم عليّ بن أبي طالب»، وروى أن المغيرة حلف بالله ما أخطأ عليّ في قضاء قط.

وأما معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه فقد ذكر ابن عبد البر في [الاستيعاب] أيضًا أن رسول الله ﷺ بعثه قاضيًا إلى الجَنَد[1]، من اليمن، يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام، ويقضي بينهم، وجعل له قبض الصدقات من العمال الذين باليمن، وذلك عام فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة.

وروى أبو داود رحمه الله تعالى عن أناس من أهل حمص، من أصحاب معاذ رضي الله تعالى عنه «أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعثه إلى اليمن قال: «كيف تقضي إذا عرض لك القضاء؟» قال: «أقضي بكتاب الله»، قال: «فإن لم تجد في كتاب الله؟» قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: «فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله»؟ قال: أجتهد برأيي ولا آلو[2]، فضرب رسول الله ﷺ صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله».

ويروى أن رسول الله ﷺ قال في حقه، لما بعثه قاضيًا إلى الجَنَد، من اليمن، وأن يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام، وأن يقبض الصدقات من العمال الذين باليمن: «أعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل».

---

(١) والجند ـ يقول المؤلف ـ بفتح الجيم والنون معًا، بلدة باليمن، ومنه قول الشاعر:

تنقلا من بلد إلى بلد　　　يومًا بصنعاء ويومًا بالجند

(٢) ومعنى لا آلو: لا أقصر. [الطهطاوي].

ومن القضاء عقد الأنكحة، ويسمى متوليه قاضى الأنكحة، ففى [الموطأ] عن سهل بن سعد الساعدى، رضى الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله، إنى قد وهبت نفسى لك، فقامت قيامًا طويلاً، فقام رجل فقال: يا رسول الله، زوجنيها إن لم تكن لك بها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: «هل عندك شيء تَصْدقها إياه؟» فقال: ما عندى إلا إزارى هذا، فقال رسول الله ﷺ: «إن أعطيتها إياه جلست ولا إزار لك، فالتمس شيئًا»، فقال: ما أجد شيئًا، قال: «التمس ولو خاتمًا من حديد»، فالتمس فلم يجد شيئًا، فقال له رسول الله ﷺ: «هل معك شيء من القرآن»، فقال: نعم، سورة كذا، وسورة كذا، لسور سماها، فقال رسول الله ﷺ: «قد أنكحتكها بما معك من القرآن».

وأما ولاية المظالم فهى خطة حادثة، ولكنها فى أصل وضعها داخلة فى القضاء، فيسمى متوليها «صاحب المظالم»، وقد يختلف اسم متوليها باختلاف البلاد، فيسمى أمين ضبطية أو حاكما، وقد يتولاها مجلس من المجالس، كما فى هذه الأيام الأخيرة، فهى ولاية غريبة أحدثها من تأخر من الولاة، وهى عبارة عن كل حكم يعجز عنه القاضى فينظر فيه من هو أقوى يدًا منه، وذلك أن التنازع إذا كان بين ضعيفين قوى أحدهما القاضى وإذا كان بين قوى وضعيف أو قويين والقوة فى أحدهما بالولاية كظلم الأمراء العمال فهذا مما نصب له الخلفاء أنفسهم.

وأول من جلس إليه عبد الملك بن مروان، فكان عبد الملك إذا وقف من الأحكام على مشكل أو احتاج فيها إلى حكم ينفذ رده إلى قاضيه أبى إدريس الأزدى [1]، فكان عبد الملك هو الآمر، والقاضى هو المنفذ، ثم جلس له عمر بن عبد العزيز فرد مظالم بنى أمية على المظلومين، إذ كانت فى أيدى الولاة والعتاة الذين تعجز عنهم القضاة، ثم صارت تلك سنة، فكانوا بنى العباس يجلسون لها، حتى أن المأمون أخذ لأرملة حقها من خصمها الذى هو العباس ابنه، حيث أمر قاضيه يحيى بن

(١) عبد الرحمن بن يزيد بن المهلب الأزدى (المتوفى سنة ٧٥٠م) قتله العباسيون بالموصل عندما انتصرت دولتهم.

أكثم (١) أو وزيره أحمد بن أبي خالد أن يجلسها معه وينظر بينهما بحضرة المأمون، ففعل، فجعل كلامها يعلو، فزجرها بعض حجاب الخليفة، فقال له المأمون: دعها، فإن الحق أنطقها، والباطل أخرسه! وكانت ظلامتها اغتصاب العباس بن أمير المؤمنين من ضياعها (٢)، فأمر برد ضياعها عليها. وعلى منوال ذلك بنى دار العدل لكشف الظلامات السلطان الصالح العادل نور الدين محمود الشهيد بسبب ما جرى بدمشق لما ظلم بعض أمرائه الناس، فكان ينصف من وزرائه وأمرائه الرعية.

وأما إشهاد الشهود وكتابة الشروط فقد أمر الله عز وجل بالكتابة والإشهاد في بيوع الآجال، فقال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ (البقرة: ٢٨٢) ثم قال ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٨٢) الآية وقال تعالى في بيوع النقد ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ ﴾ (البقرة: ٢٨٢) وكذلك أمر الله تعالى بالإشهاد في الوصية فقال: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ (المائدة: ١٠٦) الآية، وكذلك أمر بالإشهاد في الطلاق والرجعة فقال: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ (الطلاق: ٢) وأمر الله عز وجل بالإشهاد على الزنا فقال: ﴿ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ﴾ (النساء: ١٥) وكذلك أمر عز وجل بوقع الحد على القاذف فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ (النور: ٤).

وأما من كان يكتب من الصحابة، الشروط والمداينات والمعاملات، فمنهم عبد الله بن عمر، ومُعَيقيب، والمغيرة بن شعبة، والحصين، روى أبو داود في سننه من

---

(١) يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي (٧٧٥ - ٨٥٧م) ولي قضاء البصرة ثم قضاء بغداد، وكان رفيع القدر عالي الشهرة واسع النفوذ، وصاحب تأليف.

(٢) والضياع: جمع ضيعة، وهي الأرض المغلة. [الطهطاوي].

طريق بشر بن المفضل عن نافع عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: أصاب عمر أرضًا بخيبر، فأتى النبى ﷺ فقال: أصبت أرضًا لم أُصب مالا قط أنفس عندى منه، فكيف تأمرنى به؟ فقال: إن شئت حبست أصلها وتصَدقت بها، فتصدق بها عمر: «إنه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث، للفقراء والغرباء والرقاب وفى سبيل الله وابن السبيل والضيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم صديقا غير مُتَمَوِّل منه». وروى أيضًا فى سننه عن الليث عن يحيى بن سعد عن صدقة عمر بن الخطاب قال: نسخها لى عبد الحميد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتب عبد الله بن عمر فى ثمغ[1]»، فقص من خبره نحو حديث نافع، قال: «غير متأثل[2] مالا، فما عفا من ثمره فهو للسائل والمحروم»، وقال: وساق القصة، قال: «وإن شاء ولىّ ثمغ اشترى من ثمره رقيقًا لعمله»، وكتب مُعَيقيب وشهد عبد الله بن الأرقم. انتهى.

وأما من كان يكتب من التابعين العقود والوثائق فمنهم خارجة بن زيد، وطلحة بن عبد الله بن عوف، فكانا فى زمانهما يُستفتيان وينتهى الناس إلى قولهما، ويقسمان المواريث بين أهلها من الدور والنخيل والأموال، ويكتبان الوثائق للناس.

---

(١) اسم لمال بالمدينة وقفه عمر. [الطهطاوى].

(٢) مثمر ـ بضم الميم وفتح الثاء وكسر الميم الثانية مشددة.

الفصل الثانى

(فى فارض المواريث، وفارض النفقات، والقسام، وناظر البناء للتحديد)

فارض المواريث

فأما فارض المواريث فقد حض ﷺ على تعلم الفرائض، روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تعلموا الفرائض وعلِّموها الناس، فإنها نصف العلم، وهو أول ما ينزع من أمتى». وروى النسائى رحمه الله تعالى عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تعلموا القرآن وعلموه الناس، وتعلموا الفرائض وعلموها الناس، وتعلموا العلم وعلموه الناس، فإنى امرؤ مقبوض، وإن العلم سيقبض، وتظهر الفتن حتى يختلف اثنان فى فريضة لا يجدان إنسانًا يفصل بينهما».

وقد كان فارضًا فى عهد رسول الله ﷺ زيد بن ثابت، روى الترمذى رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أرحم أمتى بأمتى أبو بكر، وأشدهم فى أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أُبَىّ بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمة أمينًا، ألا وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح». قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح. وفى [الاستيعاب]: كان زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه أحد فقهاء الصحابة الجلّة الفُرّاض، قال رسول الله ﷺ: «أفرَض أمتى زيد بن ثابت».

فارض النفقات

وأما فارض النفقات فقد روى مسلم رحمه الله تعالى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: دخلت هند، امرأة أبى سفيان، على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بَنِىّ، إلا ما أخذت من ماله بغير علمه، فهل علىّ فى ذلك من جُناح؟ فقال رسول الله ﷺ: «خذى ما يكفيك ويكفى بنيك».

القسام

وكانت المقاسم فى أموال خيبر على ثلاثة، وهى: الشِّقّ[1] ونَطاة[2] وحصن الكتيبة، فأما الشِّق ونَطاة فكانتا فى سهام المسلمين، وكانت الكتيبة خُمس الله وسهم النبى ﷺ وسهم ذى القربى واليتامى والمساكين وسهم أزواج النبى ﷺ وسهم رجال مشوا بين رسول الله ﷺ وبين أهل فَدَك[3] بالصلح وكان واديا الكتيبة من فدك، اللذين قسمت عليهما، وادى السرى، ووادى خاص ويسمى وادى خُلْص[4]، وكانت نَطاة والشِّق ثمانية عشر سهما نَطاة من ذلك خمسة أسهم، والشق ثلاثة عشر سهما، وقسمت الشِّق ونَطاة على ألف سهم وثمانمائة سهم، وكانت عدة الذين قسمت عليهم خيبر من أصحاب رسول الله ﷺ ألف سهم وثمانمائة سهم، برجالهم وخيلهم، الرجال ألف وأربعمائة رجل والخيل مائتا فارس، فكان لكل فرس سهمان ولفارسه سهم، فكان لكل سهم رأس جمع إليهم مائة رجل، فكانت ثمانية عشر سهما جمع، فكان علىّ بن أبى طالب رأسًا، والزبير بن العوام كذلك، وطلحة بن عبيد الله، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن

---

(١) بكسر الشين وتشديد القاف. [الطهطاوى].

(٢) بفتح النون وهاء التأنيث. [الطهطاوى].

(٣) وفدك بلدة بخيبر. [الطهطاوى].

(٤) بضم المعجمة وإسكان اللام. [الطهطاوى].

بن عوف، وهكذا، لأنه قد حضر خيبر من سائر العرب، ثم قسم رسول الله ﷺ الكتيبة، وهى وادى خاص، بين قرابته ونسائه ورجال من المسلمين ونساء، أعطاهم منها، وذلك لأن أهل فدك لما انْجَلَوْا عن واديهم وقراهم صارت تلك القرى والأموال فى يد النبى ﷺ من غير حرب، فكان يأخذ من غلة فدك نفقته ونفقة من يعوله، ويجعل الباقى فى السلاح والكُراع [1]، فلذلك ادعت فاطمة رضى الله تعالى عنها من بعده أنه كان ينحلها [2] فدكا، فقال أبو بكر: أنت أعز الناس علىّ فقرًا وأحبهم إلىّ غنى، لكنى لا أعرف صحة قولك، ولا يجوز أن أحكم بذلك، فشهد لها أم أيمن ومَولى للرسول ﷺ فطلب منها أبو بكر الشاهد الذى يجوز قبول شهادته فى الشرع، فلم يكن، فأجرى أبو بكر على ما كان يجريه الرسول ﷺ، ينفق منه على من كان ينفق عليه الرسول، ويجعل ما يبقى فى السلاح والكُرَاع، وكذلك عمر جعله فى يد علىّ ليجريه على هذا المجرى، ورد ذلك فى آخر عهد عمر إلى عمر، وقال: إن بنا غنىً وبالمسلمين حاجة إليه، وكان عثمان رضى الله عنه يجريه كذلك، ثم صار إلَى علىّ فكان يجريه هذا المجرى، فالأئمة الأربعة اتفقوا على ذلك.

وبالجملة، فالفىء كان فى زمان رسول الله ﷺ مقومًا على خمسة أسهم، أربعة منها لرسول الله ﷺ خاصة، وكان الخمس الباقى يقسم على خمسة أسهم، سهم منها لرسول الله أيضًا ن والأسهم الأربعة لذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، والمراد بذوى القربى بنو هاشم وبنو المطلب.

وأما بعد وفاته ﷺ فللشافعى فيما كان من الفىء لرسول الله ﷺ قولان، **أحدهما**: أنه للمجاهدين المرصدين للقتال فى الثغور، لأنهم قاموا مقام رسول الله ﷺ فى رباط الثغور، **والقول الثانى**: أنه يصرف فى مصالح المسلمين من سد الثغور وحفر الأنهار وبناء القناطر، يبدأ بالأهم فالأهم. وهذا فى الأربعة أخماس التى كانت لرسول الله ﷺ، وأما السهم الذى كان له من خمس الفىء فإنه لمصالح المسلمين بلا خلاف.

---

(١) الخيل.

(٢) يعطيها.

وفى [كتاب الأموال] لأبى عبيد القاسم بن سلام: أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطب الناس بالجابية [1] فقال: من أراد أن يسأل عن المال فليأتنى، فإن الله قد جعلنى له خازنًا وقاسمًا، إنى بادئ بأزواج النبى ﷺ فمعطيهن، ثم المهاجرين الأولين الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم، فمن أسرع إلى الهجرة أُسْرِع به العطاء، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء، فلا يلومن الرجل إلا مناخ راحلته. انتهى. وهذا فى طريقة القسمة.

ناظر البناء

وأما ناظر البناء للتحديد فهو الرجل يكون له البصر بالبناء والخبرة به، يبعثه الإمام ليحكم بين المتنازعين، فيؤخذ بقوله، وكان ذلك موجودًا فى عهد النبى ﷺ، فقد ذكر أبو عمر بن عبد البر فى [الاستيعاب] عن جارية بن ظفر رضى الله عنه أن دارًا كانت بين أخوين فحظرا [2] فى ذلك حظارًا، ثم هلكا وترك كل واحد منهما عقبًا، فادعى كل واحد منهما أن الحظَار له دون صاحبه، فاختصم عقباهما إلى النبى ﷺ، فأرسل حذيفة اليمانى يقضى بينهما، فقضى بالحظار لمن وجد معاقد القمط [3] تليه، ثم رجع فأخبره النبى ﷺ فقال: أصبت، أو أحسنت. انتهى. وفى التاريخ للبخارى نحوه. وقد اختصم إلى شريح رجلان فى خُص فقضى بالخص للذى تليه القمط.

(١) قرية من أعمال دمشق فى شمالى حوران.

(٢) والحظار: المانع بين الشيئين. [الطهطاوى].

(٣) والقمط ـ بكسر القاف ـ ما تشد به الأخصاص من نحو ليف أو خوص. [الطهطاوى].

الفصل الثالث

(فى ذكر المحتسب، والمنادى البريح ـ أى شديد الصوت ـ وصاحب العسس، ومتولى حراسة المدينة، والجاسوس لأهل المدينة، والسجان، ومقيمى الحدود)

الحسبة والمحتسب

والحِسْبة : أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وإصلاح بين الناس . والواجب على المحتسب أن يكون فقيهًا عارفًا بالأحكام الشرعية ، ليعلم ما يأمر به وينهى عنه ، وأن يعمل بما يعلم ، ولا يكون قوله مخالفًا لفعله ، فقد قال الله عز وجل فى ذم علماء بنى إسرائيل : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (البقرة : ٤٤) وقال الله عز وجل مخبرًا عن شعيب ، لما نهى عن بخس الموازين ونقص المكاييل : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ (هود : ٨٨) ويجب على المحتسب أن يقصد بقوله وفعله وجه الله عز وجل ، ويطلب مرضاته ، فقد قال ﷺ : «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله شرهم ، ومن أرضى الناس بسخط الله وكله الله إليهم ، ومن أحسن فيما بينه وبين الله أحسن الله فيما بينه وبين الناس ، ومن أصلح سريته أصلح الله علانيته ، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه» .

وينبغى للمحتسب أن يكون مواظبًا على سنن النبى ﷺ ، من قص الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وتقليم الأظافر، ونظافة الثياب، وتقصيرها، والتعطر بالمسك ونحوه، وجميع ذلك سنن الشرع ومستحباته مع القيام على الفرائض والواجبات، فإن ذلك أزيد فى توقيره.

وليكن سمته الرفق ولين القول وطلاقة الوجه وسهولة الأخلاق عند أمره للناس ونهيه، فإن ذلك أبلغ له، قال الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) وحكى أن رجلاً دخل على المأمون فأمر بمعروف ونهى عن منكر وأغلظ له فى القول، فقال له المأمون: يا هذا، إن الله تعالى أمر من هو خير منك أن يلين القول لمن هو شر منى، فقال لموسى وهارون ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (طه: ٤٤) ثم أعرض عنه ولم يلتفت إليه، ولأن الرجل ينال بالرفق ما لا يناله بالتعسف، كما قال ﷺ : «إن الله رفيق يحب كل رفيق، يعطى على الرفق ما لا يعطى على التعسف»

وليكن المحتسب متأنيًا غير مبادر بالاستعجال بالعقوبة، ولا يؤاخذ أحدًا بأول ذنب يصدر بزلة تندر، لأن العصمة فى الخلق مفقودة لمن سوى الأنبياء، فإذا عثر إنسان ونقص فى المكيال أو بخس فى الميزان أو غش بصناعته استتابه عن معصيته ووعظه وخوفه وأنذره العقوبة والتعزير بأن عاد إلى فعله عزره حسبما يليق من التعزير.

ويتخذ المحتسب سوطا ودرة وأعوانا، فإن ذلك أرهب لقلوب العامة وأشد خوفًا، ويلازم الأسواق والدروب فى أوقات الغفلة عنه، ويتخذ له عيونًا يوصلونه الأخبار وأحوال السوقة.

ومن الشروط اللازمة للمحتسب أن يكون عفيفًا عن أموال الناس، متورعًا عن قبول الهدية من المتعيشين وأرباب الصناعات، فإن ذلك رشوة، وقد قال ﷺ : «كل لحم نبت من السحت فالنار أولى به» ، قيل: وما السحت يا رسول الله؟ قال: «الرشوة فى الحكم» .

وقد وردت الأحاديث فى الحسبة، فمن ذلك ما رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ مر على صُبْرة [1] طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا، فقال: يا صاحب الطعام، ما هذه؟ فقال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟! ثم قال: «من غش فليس منا». قال أبو عيسى الترمذى: هذا حديث حسن صحيح. وخرج مسلم أيضًا عن أبى هريرة نحوه، وروى ابن المنذر عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما عن النبى ﷺ أنه وقف على طعام سوق المدينة فأعجبه حسنه فأدخل رسول الله ﷺ يده فى جوف الطعام فأخرج شيئًا ليس بالظاهر فأفّف [2] رسول الله ﷺ بصاحب الطعام، ثم نادى: «أيها الناس، لا غش بين المسلمين، من غشنا ليس منا» انتهى. وروى الترمذى عن أنس بن مالك قال: غلا السعر على عهد النبى ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، سَعِّر لنا، فقال: «إن الله هو المسعر، القابض، الباسط، الرزاق، إنى أرجو أن ألقى ربى وليس أحد منكم يطلبنى بمظلمة فى دم ولا مال»، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

ومحل عدم التسعير إذا لم يتعد الأرباب عن القيمة تعديًا فاحشًا، وقدره بعضهم بنصف القيمة، فلا بأس بالتسعير بمشورة أهل الرأى فى مذهب أبى حنيفة، ونقل بعضهم أن مذهب أبى حنيفة، كالجمهور، لا يُجَوِّز التسعير لا فى حالتى الغلاء والرخص بدون فرق بين المجلوب وغيره لعموم الحديث، وإنما إذا باعوا كارهين السعر صح، غير أنه يكره الابتياع منهم ما لم يعلم طيب نفوسهم، وأوجب الإمام مالك على الوالى التسعير عام الغلاء.

ومع قوله ﷺ: «إن المسعر هو الله»، فقد قال ابن رشد، من المالكية، ما نص: «أما الجُلاَّب فلا اختلاف أنه لا يسعر عليهم شىء مما جلبوه للبيع، وإنما يقال لمن شذ منهم فحط السعر وباع بأغلى مما يبيع به عامتهم: إما أن تبيع بما تبيع به العامة، وإما أن ترفع من السوق، كما فعل عمر رضى الله عنه بحاطب بن أبى

(١) الصبرة ـ بضم الصاد وسكون الباء ـ ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن.
(٢) قوله: فأفف، أى قال أف، ضجرة واستثقالاً. [الطهطاوى].

بلتعة، إذ مر به وهو يبيع زبيبًا له في السوق فقال له: إما أن تزيد في السعر وإما أن ترفع من سوقنا، لأنه كان يبيع بالدرهم أقل ما كان يبيع به أهل السوق.

وأما أهل الحوانيت والأسواق الذين يشترون من الجُلاَّب وغيرهم جُمْلا ويبيعون ذلك على أيديهم مُقطَّعًا مثل اللحم والأدم والفواكه، فقيل إنهم كالجلاب لا يسعر عليهم شيء من بياعتهم، وإنما يقال لمن شذ منهم وخرج عن الجمهور: إما أن تبيع كما يبيع الناس وإما أن ترفع من السوق، وهو قول مالك في رواية عنه، وقيل إنهم في هذا بخلاف الجلاب لا يتركون على البيع باختيارهم إذا غلوا على الناس ولم يقنعوا من الربح بما يشبه، وأن على صاحب السوق الموكل على مصلحتها أن يعرف بما يشترون فيجعل لهم من الربح ما يشبه [(١)] وينهاهم أن يزيدوا على ذلك، ويتفقد السوق أبدًا، فيمنعهم من الزيادة عن الربح الذى جعل لهم كيفما تقلب [(٢)] السعر من زيادة أو نقصان، فمن خالف أمره عاقبه بما يراه من الأدب وبالإخراج من السوق، إن كان معتادًا لذلك، مستسرًا به، وهو قول مالك في الرواية الأخرى. وقاله من السلف جماعة منهم سعيد بن المسيب، ويحيى بن سعيد، وهو مذهب الليث بن سعد.

ولا يجوز عند أحد من العلماء أن يقول لهم، لا تبيعوا إلا بكذا وكذا، ربحتم أو خسرتم من غير أن ينظر إلى ما يشترى به، ولا أن يقول لهم فيما قد اشتروه: لا تبيعوه إلا بكذا وكذا، مما هو مثل الثمن الذى اشتروه به أو أقل، وإذا ضرب لهم الربح على قدر ما يشترون، مثل أن يقول لهم: تربحون فى الشراء كذا وكذا فلا يتركهم أن يُغْلوا فى الشراء، وإن لم يزيدوا فى الربح، إذ قد يفعلون ذلك ويتساهلون فيه، إذ لا ينقصهم بذلك ربحهم شيئًا، وإذا علم ذلك منهم صرف لهم الربح على ما يعلم من مبلغ السعر، وقال لهم: «لا سبيل لكم أن تبيعوا بكذا وكذا فلا تشتروا إلا على هذا». انتهى.

وأما مذهب الشافعي رضي الله عنه فعدم جواز التسعير، لما رواه ابن ماجه عن

(١) أي ما يناسب. [الطهطاوى].

(٢) فى الأصل: تغلب.

أنس بن مالك أنه غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، غلا السعر فَسَعِّر لنا ، فقال : «إن الله القابض الباسط المُسَعِّر ؛ وإنى لأرجو أن ألقى الله تعالى ولا يطلبنى أحد بمظلمة ظلمتها إياه فى دم ولا مال» ، والمراد بالمال التسعير ، فاستدل بالحديث على أن التسعير حرام .

ووجه الدليل أنه جعل التسعير مظلمة ، والظلم حرام ، وأيضًا قوله : «إن الله هو المسعر» أى لا غيره ، فيه دلالة على الحرمة ، وأيضًا الناس مسلطون على أموالهم ، وفى التسعير حجر عليهم ، وأيضًا الإمام مأمور برعاية مصلحة الكافة وليس نظره فى مصلحة المشترى برخص الثمن أولى من نظره فى مصلحة البائع بوفور الثمن ، فإذا تقابل الأمران وجب تمكين الفريقين من الاجتهاد لأنفسهم ، ولذلك جعل ﷺ التسعير ظلمًا ، على ما يفهمه الحديث ، لأن فيه إلزامه ببيع سلعته بما لا يرضاه ، وهو ينافى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ (النساء : ٢٩) فهذا مدرك الإمام الشافعى رضى الله عنه .

وقد ورد عن النبى ﷺ : «ما من جالب يجلب طعامًا من بلد إلى بلد فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهداء» ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (المزمل : ٢٠) .

وقد ولّى رسول الله ﷺ السوق لمن يتفقده ، فقد روى البخارى رحمه الله تعالى عن نافع عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهم أنهم كانوا يشترون الطعام من الركبان على عهد النبى ﷺ فيبعث عليهم من يمنعهم أن يبيعوه حتى يأووه إلى رحالهم ، وخرج مسلم نحوه ، وقد ورد عنه ﷺ : «دعوا الناس فى غفلاتهم يرزق الله بعضهم من بعض» .

وقال أبو عمر بن عبد البر : استعمل رسول الله ﷺ سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية ، بعد الفتح ، على سوق مكة ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف خرج معه ، وكان السائب بن يزيد عاملا لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما على سوق المدينة مع عبد الله بن عتبة بن مسعود رضى الله تعالى عنهم ، واستعمل عمر

رضى الله تعالى عنه من النساء «الشفاء» على سوق المدينة، وكان رضى الله تعالى عنه يقدمها فى الرأى .

وذكر ابن عبد البر فى [الاستيعاب] فى هذا المعنى سمراء بنت نهيك الأسدية، وقال: أدركت رسول الله ﷺ ، وعَمّرت، وكان تمر فى الأسواق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتضرب الناس على ذلك بسوط معها.

المنــادى

وأما المنادى الذى يقال لصوته البريح، أى الشديد، فقد كان على عهد رسول الله ﷺ ، فقد روى البخارى عن أنس رض الله تعالى عنه: قال: كنت ساقى القوم فى منزل أبى طحلة، وكان خمرهم يومئذ الفضيح [1] ينبذ فى الماء، فأمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادى: «ألا إن الخمر قد حرمت» قال: فجرت فى سكك المدينة، فقال أبو طلحة: اخرج فأهرقها، فخرجت فهرقتها، فجرت فى سكك المدينة، فقال بعض القوم: قد قتل قوم وهى فى بطونهم، فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ (المائدة: ٩٣) الآية، وروى البخارى أيضًا عن زاهر الأسلمى، وكان ممن شهد الشجرة، قال: إنى لأوقد تحت القدور بلحوم الحُمُر إذ نادى منادى رسول الله ﷺ : إن رسول الله ﷺ ينهاكم عن لحوم الحُمُر، وروى أبو داود رحمه الله تعالى عن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه قال: غزوت مع النبى ﷺ غزوة كذا وكذا، فضيق الناس المنازل وقطعوا الطريق، فبعث نبى الله ﷺ مناديًا ينادى فى الناس: «إن من ضيق منزلاً أو قطع طريقًا فلا جهاد له».

صاحب العسس

وأما صاحب العسس فى المدينة فقد كان ذلك أيضًا من عهد النبى ﷺ ، روى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة

---

(١) يعنى البسر. [الطهطاوى].

ليلة، فقال: ليت رجلا يحرسني الليلة، قال: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا خشخشة السلاح، فقال: من هذا؟ قال: سعد بن أبي وقاص، فقال له رسول الله ﷺ: ما جاء بك؟ فقال سعد: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ، ثم قام، قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.

وفي خلافة أبي بكر رضي الله تعالى عنه تولى عمر بن الخطاب القضاء، فكان أول قاض في الإسلام لخليفة[1].

وتولى إمارة العسس عبد الله بن مسعود، فقيل له في أيام ولايته، هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نؤاخذ به، وقيل إنه قيل له ذلك في الوليد بن عقبة. والعسس: الطواف بالليل للبحث عن أهل الريبة، وكان عمر رضي الله تعالى عنه يتولى العسس بنفسه، ويستصحب معه أسلم مولاه، وربما استصحب عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما.

ومن أخباره، فيما ذكره الثعالبي عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما، قال: خرجت ليلة من عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بالمدينة إذ شب لنا سراج في بيت بابه مجاف، أي مغلق، على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن شرب فما ترى؟ قال: أرى أننا قد أتينا ما نهى الله عز وجل عنه، قال ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ (الحجرات: ١٢) فقد تجسسنا، وانصرف فتركهم.

ولا يعلم نص صريح في تولية حراسة أبواب المدينة في زمن الهرج في زمان رسول الله ﷺ، لكنها تخرج من حديث حراسة سعد رضي الله عنه المتقدم، وأما في خلافة الصديق رضي الله تعالى عنه فترتبت هذه العمالة، فقد ذكر أبو الفرج الجوزي رحمه الله تعالى في [كتاب مشكل الصحيحين، البخاري ومسلم] في

---

(١) في الأصل: الخليفة. والمعنى عليه غير مستقيم، وفي حذف الألف يكون المعنى أن عمر كان أول من تولى منصب القضاء في عهد نظام الخلافة عن الرسول، وكان قبل ذلك: القاضي يعينه الرسول، فهو قاض للرسول عليه الصلاة والسلام.

الكلام في مسند حديث أبي هريرة ما نصه : كان طُلَيْحة بن خويلد قد ادعى النبوة في بني أسيد، وكان يقال له ذو النون واجتمعت عليه العرب، وأرسلوا وفوداً أن يقيموا الصلاة ويعفوا عن الزكاة، فصعد أبو بكر المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وقال : «إن الله توكل بهذا الأمر . فهو ناصر من لزمه، وخاذل من تركه، وإنه بلغني أن وفودا من وفود العرب قدموا يعرضون الصلاة ويأبون الزكاة، إلا أنهم لو منعوني عقالا [1] مما أعطوه رسول الله ﷺ مع فرائضهم ما قبلته، ألا برئت الذمة من رجل من هذه الوفود أُخذ بعد يومه وليلته بالمدينة» . فتواثبوا يتخطون رقاب الناس حتى ما بقي في المسجد منهم أحد، ثم دعا نفراً فأمرهم بأمره، فأمر عليا بالقيام على نقب من أنقاب المدينة [2]، وأمر الزبير بالقيام على نقب آخر، وأمر طلحة بالقيام على نقب آخر، وأمر عبد الله بن مسعود بعسس ما وراء ذلك بالليل والارتباء نهاراً. وجدّ في أمره وقام على ساق، رضي عنه وعنهم.

فمن ذلك يؤخذ أن عبد الله بن مسعود كان صاحب العسس بالليل والارتباء، أي المراقبة والتجسس، بالنهار، وأن ذلك كان على عهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه، ولم يثبت صراحة في أن الربيئة لأهل المدينة في زمن الهرج كان عملا من زمن النبي ﷺ، إلا أنه يتخرج من حديث سعد السابق، وكان أيضًا يتولى المراقبة غير عبد الله بن مسعود: محمد بن مسلمة، المقيم للحدود أيضًا، فكان عبد الله بن مسعود ومحمد بن مسلمة يطوفان بالفوارس للحراسة ليلاً والارتباء نهاراً.

السجون

وأما السجن فموجود من عهد رسول الله ﷺ، فقد ورد أنه ﷺ سجن الرجال والنساء، فأما سجنه للرجال فقد روى أبو داود رحمه الله تعالى عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ حبس رجلاً في تهمة، وروى الترمذي رحمه

---

(١) يعني صدقة عام، يقال: أخذ منهم عقال هذا العام، إذا أخذ صدقته، وقيل أراد الحبل الذي كانت تعقل به الفريضة التي كانت تؤخذ في الصدقة. [الطهطاوي].

(٢) قال ابن وهب: يعني مداخل المدينة. وهي أبوابها وفوهات طرقها التي يدخل منها إليها. [الطهطاوي].

الله تعالى عن؟؟؟؟؟ مثله بنصه، وزاد: ثم خلى عنه، وقال: حديث حسن، قال بعضهم: للأمير الحبس للمتهم للكشف والاستبراء ومدته غير مقدرة، وذكر أبو عبد الله الدميرى [1] من أصحاب الشافعي: أن حبس الاستبراء والكشف مقدر بشهر واحد لا يتجاوزه، وقال غيره: هو غير مقدر، بل موقوف على رأى الأمير واجتهاده، وليس للقضاة حبس إلا بحق واجب، وللأمير مراعاة شواهد الحال وأوصاف المتهم فى قوة التهمة وضعفها، فإن اتهم بسرقة، وكان فيه آثار الضرب أو معه منقب، قويت، وبضده ضعفت، وليس ذلك للقضاة.

ويجوز للأمير، مع قوة التهمة، أن يضرب المتهم ضرب تعزير لا ضرب حد، ليأخذه بالصدق عن حاله فيما قذف به أو اتهم، فإذا أقر، وهو مضروب، بما اتهم، فإن كان ضرب ليقر لم يكن له حكم، وإن ضرب ليصدق فأقر تحت الضرب قُطع ضربه واستعيد إقراره، فإن عاده كان مأخوذًا به دون الأول، وإن اقتصر على الأول فله العمل بالإقرار الأول وإن كان مكرهًا.

وهذا كله فى أمير ظاهر العفة قليل الطمع كثير الوقوع، صحت له التهمة فى المرفوع به إليه بما غلب ظنه فيه.

واختار النووى عدم صحة إقرار المكره بالضرب على الصدق أو الإقرار، قال: وهو الذى يجب اعتماده فى هذه الأعصار، ولا يمنع من ذلك ما أخرجه أبو داود والنسائى رحمهما الله تعالى أن قومًا من الكلاعيين سُرق لهم متاع فاتهموا أناسًا من الحاكة، فأتوا بهم النعمان بن بشير رضى الله عنه، فحبسهم أيامًا ثم خلى سبيلهم بغير ضرب ولا امتحان، فقال لهم: إن شئتم ضربتهم فإن خرج متاعكم فذاك وإلا أخذت لهم من ظهوركم مثل ما أخذت من ظهورهم، فقالوا: هذا حكمك؟ فقال هذا حكم رسول الله ﷺ. والقصد منه ترك امتحان السارق بالضرب عند عدم قيام القرائن الكافية.

---

(١) محمد بن موسى (١٣٤١- ١٤٠٥م) أديب مصرى، وعالم بالتفسير والفقه والحديث، اشتغل بالعلم والتدريس، وعرف بالزهد، وله شروح ومختصرات وأراجيز، أما شهرته العلمية فتقوم على كتابه [حياة الحيوان] وهو موسوعة للحيوان جعله معجمًا مرتبًا على حروف المعجم.

وبالجملة، فالأدلة على عقوبة المتهم بالحبس موجودة في أفعال النبي ﷺ وفحوى أقواله وفي سياسة الخلفاء والملوك، وقال بعضهم: لأن يخطئ الحاكم في الحكم خير من أن يخطئ في العقوبة.

قال ابن قيم [1] ما علمت أحدًا من المسلمين يقول إنه إذا رفع متهم بقطع طريق أو سرقة أو سفك دم وادعى عليه بهذه الدعاوى وما أشبهها، يحلف ويُرْسَل بلا حبس ولا غيره، بل ليس تحليفه وإرساله مذهبًا لأحد من الأئمة الأربعة ولا غيرهم، فإنا لو حلّفنا كل واحد منهم وخلينا سبيله، مع العلم بإفساده في الأرض وكثرة السرقة، وقلنا لا نأخذه إلا بشاهدي عدل، كان مخالفًا للسياسة الشرعية، ومن ظن أن الشرع إنما يقضي بتحليفه وإرساله فقد غلط غلطًا فاحشًا.

قال في [معين الحكام] ما معناه: السياسة قسمان: ظالمة، وعادلة، فالسياسة الظالمة تحرمها الشريعة، وأما السياسة العادلة، التي تخرج الحق من الظالم، وتدفع كثيرًا من المظالم، وتردع أهل الفساد، وتروع أهل العناد، وتوصل إلى المقاصد الشرعية، فالشرعية توجب المصير إليها، والاعتماد عليها في إظهار الحق. وهي باب واسع تضل فيه الأفهام، وتزل فيه الأقدام، وإهماله يضيع حقوق العباد، ويجرئ أهل الفساد والعناد. والتوسع فيه يفتح أبواب الظلم، وقد يفضي إلى سفك الدم وأخذ الأموال بغير حقها، فمن ثم كان الناس فيه على ثلاث طوائف:

طائفة سلكت المسلك المذموم، فقطعت النظر عن هذا، ظنًا أن تعاطيه مناف للقواعد الشرعية، فسدوا من طريق الحق سبيلاً واضحة، وعدلوا إلى طريق من الفساد فاضحة، فأنكروا السياسة الشرعية، مع أن نصوص رد هذا الإنكار كثيرة، حيث تعاطاها الخلفاء الراشدون.

وطائفة سلكت في السياسة الشرعية مسلك الإفراط، فتعدوا حدود الله، وخرجوا

(١) في الأصل، ابن القيم، والصحيح ؛ ابن قيم، بدون أداة التعريف لأن «ابن القيم» هو الشاعر السكندري علي بن عياد (المتوفى ١١٣٢م) الذي عاش ومات في العصر الفاطمي، وهو لا صلة له بموضوع الحديث.. أما المفكر الذي يشير إليه المؤلف فهو ابن قيم الجوزية ؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي (١٢٩٢ - ١٣٥٠م) وهو من أعلام الفكر الإسلامي، وأحد تلاميذ ابن تيمية.

عن قانون الشرع إلى أنواع من الظلم والقبائح، مرتكبين فى ذلك أنواعًا كثيرة من الفضائح، مسببة عن قبيح الجهل والغلط الفاحش.

وطائفة توسطت، فسلكت مسلك الحق حين علمت أن فى السياسة الشرعية كمال التكفل بصلاح الأمة، كيف لا [1] وقد قال عز من قائل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة: ٢) وقال عليه الصلاة والسلام: «ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله، وسنتى؟» فتحرت فى ذلك جادة الإنصاف، وتنكبت عن طرق الاعتساف. والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقال العلامة القرافى [2] فى [الذخيرة] قد علم أنه ليس فى التوسعة على الحكام بالأحكام السياسية مخالفة للأدلة النقلية ولا للقواعد الشرعية، بل فى الأدلة النقلية ما يشهد لذلك، كما شهدت له القواعد الشرعية، وقد اقتضى كلام صاحب [الأحكام السلطانية] ومن تبعه، كما سبق، أنه ليس للقاضى أن يتكلم فى السياسة، وأنه لا مدخل له فيها. قال ابن قيم [3] وذلك من حيث أن عموم الآيات وخصوصها توجب حكمه بالشرع، وما يستفيده المتولى بالولاية يُتلقى من الألفاظ والأحوال والعرف، وليس لذلك حد فى الشرع.

وروى البخارى رحمه الله تعالى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال: بعث النبى ﷺ خيلاً قِبَل نجد، فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له ثُمامة بن أثال، فربطوه بسارية منَ سوارى المسجد، فخرج إليه النبى ﷺ فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندى خير يا محمد، إن تقتلنى تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت! فترك حتى كان الغد، ثم قال له: ما عندك يا ثُمامة؟ قال: عندى ما قلت لك، قال: اطلقوا ثمامة، فانطلق إلى نخيل

---

(١) فى الأصل: كيف وقد.. والصواب: كيف لا؛ وقد..

(٢) أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن (المتوفى سنة ١٢٨٥م) من أصل مغربى، وهو مصرى المولد والمنشأ والوفاة، كان عالمًا من علماء المالكية، وله مؤلفات فى اللغة والفقه والأصول منها: [اليواقيت فى أحكام المواقيت] و[الذخيرة] و[الخصائص] و[الإحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام].

(٣) فى الأصل: القيم.

قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وذكر محمد بن إسحاق في السير في خبر قريظة حين نزلوا على حكم رسول الله ﷺ أنه حبسهم بالمدينة في دار بنت الحارث، امرأة من الأنصار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، التي هي سوقها اليوم، فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم أرسالا. انتهى.

قال بعضهم: إن المراد بالحبس تعويقه ومنعه من التصرف بنفسه، سواء كان ذلك المنع حاصلاً في بيت أو مسجد أو غير ذلك، وليس المراد به السجن المعلوم الآن، لأن ذلك لم يعهد في زمنه ﷺ ولو كان لنقل، بل المراد تعويق المحبوس من التصرف بنفسه، وكان الأغلب وقوع ذلك بملازمة ذى الحق له بنفسه أو بنائبه، فهذا ما كان في عهد النبي ﷺ وأبي بكر وصدر من خلافة عمر، وقد بوب البخارى رحمه الله تعالى في صحيحه يقول (باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد) والأسير هو المحبوس، والغريم من عليه الدين أو نحوه، وكان شريح يأمر الغريم أن يحبس في المسجد إلى أن يقوم بما عليه من الحق، ولما انتشرت الرعية في عهد عمر رضى الله عنه اتخذ سجنًا خاصًا، فهو أول من اتخذه، كما أنه أول من مصر الأمصار، واستقضى القضاة، واتخذ الديوان، وفرض الفرائض، وعرَّف العرفاء، فهو الذى بنى سجن عارم [1]، ثم مضى على اتخاذ السجون مَنْ بعد عمر من الصحابة فَمَنْ بعدهم.

وأما سجن النساء فقد ذكر ابن إسحاق في السير، في خبر إسلام عدى بن حاتم وذكر فراره إلى الشام حين سمع بجيش رسول الله ﷺ وطأ بلادهم، قال عدى: فاحتملت بأهلى وولدى، ثم قلت ألحق بأهل دينى من النصارى من الشام، فسلكت الجوشية [2]، وخلفت بنتًا لحاتم في الحاضر [3]، فلما قدمت الشام أقمت

(١) بمهملتين. [الطهطاوى].

(٢) والجوشية - بالجيم والحاء المهملة - اسم موضع للسمار والحجاج، وهى أرض لبنى المغيرة. [الطهطاوى].

(٣) والحاضر الحى العظيم. [الطهطاوى].

بها، وتخالفتنى خيل لرسول الله ﷺ فتصيبت ابنة حاتم فيمن أصابت، فقُدم بها على رسول الله ﷺ فى سبايا من طئ، وقد بلغ رسول الله ﷺ هربىَ إلى الشام، فَجُعلَت ابنة حاتم فى حظيرة [1] بباب المسجد، وكانت السبايا تحبس فيها. انتهى. وقد ذكرنا ما جرى لها فى (الفصل الثانى) فى ذكر أخلاقه ﷺ من (الباب الخامس) من (المقاله الخامسة) من الجزء الثانى [2] وكذلك كان الحبس فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه. فقد ذكر أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه حبس الحطيئة فى قوله للزِّبرقان بن بدر رضى الله عنه:

دع المكارم لا تنهض لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

بعد أن سأل حسان بن ثابت ولبيدا [3] فقالا له: هذا القول هجاء له وضعة منه، فأمر به فسجن فقال الحطيئة:

ماذا تقول لأفراخ بذى مَرَخٍ ... حمر الحواصل لا ماء ولا شجر [4]

ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة ... فاغفر عليك سلام الله يا عمر

لم يؤثروك بها إذ قدموك لها ... لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

أهلى فداؤك كم بينى وبينهم ... من عرض دَاوية تَعمى بها الخُبُر [5]

فكلمه فيه عبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص واسترضياه له فأخرجه من السجن. وقوله فى البيت:

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

(١) والحظيرة: ما أحاط بالشىء، وهو من قصب وخشب. [الطهطاوى].

(٢) انظره فى مكانه من هذا الجزء الرابع من هذه الأعمال.

(٣) لبيد بن ربيعة بن مالك (المتوفى فى ٦٦١م) أحد شعراء العرب وفرسانهم فى الجاهلية، أدرك الإسلام وأسلم وقدم على الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو معدود فى الصحابة المؤلفة قلوبهم.

(٤) المراد بالأفراخ: الأطفال.

(٥) فى الأصل: دوية.. والدوية والداوية: الفلاة الواسعة.. وفى الأصل يعمى.. والتصحيح عن [الأغانى] انظر طبعة الشعب ص ٦٠٦.

أراد المكسو، كما قال تعالى ﴿مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (الطارق: ٦) أى مدفوق، و﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٢١). ولم يكن عمر رضى الله عنه يجهل معنى الهجاء فى قول الحطيئة للزِّبرقان، ولكن كره أن يتعرض لشأنه اعتماداً على فهمه.

وكذلك على بن أبى طالب رضى الله عنه، جاء عنه أنه بنى سجنًا بالكوفة، يسمى يافعًا [1]، لم يكن مستوثق البناء، فكان المسجونون يخرجون منه، فهدمه وبنى سجنًا يسمى مخيسًا [2] يعنى يخيس فيه الناس، أى يضيق عليهم فيه، وقيل إن مخيسًا سجن الحجاج، وأنشد بعضهم لعلى رضى الله تعالى عنه:

ألا ترانى امرأ كَيِّسًا بنيت بعد يافع مخيسا

حصنًا حصينًا وأميراً أكيسا

قال العلماء: ينبغى للحاكم أن يتخذ سجنًا للحبس، وينبغى له أن يتفقد حال من فى السجون، فإنها من العقوبات البليغة، بدليل قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٢٥) فقرنه تعالى بالعذاب.

وأما مقيمو الحدود، فكانت الحدود على قسمين: إيجاب، واستيعاب، فكان إيجاب الحدود مفوضًا للقضاة، وأما استيعابها، أى إجراؤها، فقد جعله رسول الله ﷺ لقوم منهم علىّ بن أبى طالب، ومحمد بن مسلمة الأنصارى.

وولاية الحدود من أشرف الولايات، لأنها على أشرف الأشياء، وهى الأبدان، فلمعصية الناس ورخصهم بالذنوب، أى منع كثرة استغراقهم فيها بعد انقراض السلف الصالح، صار إلزامهم بالذلة، يجعل هذه الولاية فيما بعد فى يد أدنياء الناس وأخسائهم.

ومحمد بن مسلمة المذكور، ويكنى أبا عبد الرحمن، كان من فضلاء الصحابة، شهد بدراً والمشاهد كلها، وهو أحد الذين قتلوا كعب بن الأشرف، وكان يستخلفه رسول الله ﷺ على المدينة فى بعض غزواته، واعتزل الفتنة، ولم يحارب فى

---

(١) وبالنون أيضًا، كما قاله البكرى. [الطهطاوى].

(٢) بكسر الياء وفتحها. [الطهطاوى].

فتنة أصلاً، واتخذ سيفًا من خشب وجعله فى جفن، وذكر أن رسول الله ﷺ أمره بذلك، ولم يشهد الجمل ولا صفين، وأقام بالرَّبَذة [1] ومات محمد بن مسلمة بالمدينة، ولم يستوطن غيرها، ومات فى صفر بعد سنة ثلاث وأربعين سنة، وهو ابن سبع وسبعين سنة، وصلى عليه مروان بن الحكم وهو يومئذ أمير على المدينة، وكان يقال له فارس رسول الله ﷺ .

(1) وهى موضع خارج المدينة المنورة، جعلها عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، حمى لإبل الصدقة، فكان حماه بريدا فى بريد، ثم زادت الولاة فى الحمى أضعافًا، وأبيحت الأحماء فى أيام المهدى العباسى، ولم يحمها أحد بعد ذلك. [الطهطاوى].

الباب الثامن

[في العمالات الجهادية وما يتشعب
منها أو يتعلق بها
وفيه فصول]

الفصل الأول

(فى الإمارة على الجهاد واستخلاف الإمام على حضرته، أى مدينته أو على أهله إذا خرج عنها للغزو أو غيره، وذكر المستنفر)

إمارة الجهاد

قد تولى الإمارة على الجهاد النبى ﷺ بنفسه فى غزواته، وأكثر ما قيل فى ذلك: أن غزواته بنفسه كانت ستا وعشرين غزوة، ومنهم من رأى أنها سبع وعشرون غزوة، فالقول الأول مبنى على جعل منصرف النبى ﷺ من خيبر إلى وادى القرى غزوة واحدة، والقول الثانى يجعل غزوة خيبر منفردة والمنصرف إلى وادى القرى غزوة أخرى غير خيبر، فوقوع التنازع فى عدد الغزوات من هذا الوجه، لأنه ﷺ حين فتح خيبر انصرف منها إلى وادى القرى، من غير أن يأتى المدينة.

وكان أشرف غزواته ﷺ وأعظمها حرمة عند الله تعالى وعند رسوله والمسلمين غزوة بدر الكبرى، حيث قتل الله صناديد قريش، وأظهر دينه من يومئذ وليس فى غزواته ما يعدلها فى الفضل ويقرب منها إلا غزوة الحديبية، حيث كانت بيعة الرضوان، وقد تقدم ذكر ذلك فى (الفصل الثانى) من (الباب الرابع) من (المقالة الخامسة [1]).

---

(١) أى فى هذا الجزء الرابع من هذه الأعمال الكاملة.

وأما بعثه ﷺ الأمراء للجهاد فى سراياه، فكانت سراياه كثيرة، وأوصلها بعضهم إلى ست وخمسين سرية، والسرية قطعة من الجيش، ويقال: خير السرايا أربعمائة.

الاستخلاف

وكان ﷺ يستخلف على المدينة فى كل خرجة خرجها منها من يستحسن استخلافه، وقد ذكرنا فيما سبق من الغزوات من استخلفهم، فقد استخلف فى غزوة الأبواء، على المدينة، سعد بن عبادة، واستخلف فى غزوة تبوك محمد [بن][1] مسلمة الأنصارى، وقيل سباع بن عُرْفُطَة.

وكذلك كان ﷺ يستخلف على أهله فى سفره، فقد ذكر أرباب السير أن النبى ﷺ قدم المدينة مرجعَه من عمرته لست بقين من ذى القعدة من سنة ثمان، ثم أقام بالمدينة ما بين ذى الحجة إلى رجب، ثم أمر الناس بالتهيؤ إلى غزوة الروم، وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج فى غزوة إلا كَنَّى بغيرها إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو ليتأهب الناس لذلك، ولما خرج رسول الله ﷺ ضرب معسكره على ثَنِيَّة الوداع، واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى، وقيل سباع بن عُرْفَطَة، وضرب عبد الله بن أبَىّ معه على حدة عسكره أسفل منه، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عبد الله بن أبَىّ فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب، وخلف رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه على أهله، وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون فقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالا له وتخفيفا منه، فأخذ على بن أبى طالب سلاحه حتى أتى النبى ﷺ وهو نازل بالجرف، وحكى ما قاله المنافقون، فقال: «كذبوا، ولكنى خلفتك لما تركت ورائى، فارجع واخلفنى فى أهلى وأهلك، أفلا ترضى ياعلىّ أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى؟» فرجع علىّ إلى المدينة، ومضى

(١) غير موجودة بالأصل.

رسول الله ﷺ على سفره. وقد تقدم ذكر ذلك في غزوة تبوك في (الفصل التاسع) من (الباب الرابع) من (المقالة الخامسة [1]).

المستنفر

وأما المُسْتَنْفِر فهو: من يطلب الأنفار للسفر، وقد بعث رسول الله ﷺ بشر ابن سفيان الخزاعَي الكعبي مع بُدَيل بن أم أضرم إلى خزاعة يستنفرهم إلى قتال أهل مكة عام الفتح، وبعث أيضا ﷺ بشر بن سفيان إلى مكة عينًا على قريش، فأخبره خبر قريش وجموعهم بالطريق.

(١) أي في هذا الجزء الرابع من هذه الأعمال الكاملة.

الفصل الثانى

(فى صاحب اللواء، وذكر أول لواء عقد بين يدى رسول الله ﷺ)

وكانت قريش قد جعلت مائة من الإبل لمن يأخذ نبى الله ﷺ فيرده عليهم حين توجه إلى المدينة، فأقبل بُريدة فى سبعين راكبا من أهل بيته من بنى سهم فلقوا نبى الله ﷺ ليلا، فقال له النبى ﷺ: من أنت؟ قال: أنا بُريدة، فالتفت إلى أبى بكر فقال. يا أبا بكر، برد أمرنا وصلح! ثم قال: فممن؟ قال: من أسلم، قال سلمنا! ثم: فممن؟ قال: من بنى سهم، قال: خرج سهمك! فقال بريدة للنبى ﷺ: فممن أنت؟ قال: محمد بن عبد الله ورسول الله، قال بُريدة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبده وسوله، قال فأسلم بريدة وأسلم الذين معه جميعا، فلما أن أصبح قال للنبى ﷺ: لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء، قال: فحل عمامته، ثم شدها فى رمح، ثم مشى بين يديه حتى دخل المدينة. انتهى.

وروى البخارى عن عبد الله بن مسلم الأسلمى، من أهل مرو، قال: سمعت عبد الله بن بريدة يقول: مات والدى بمرو، وقبره بالجُصِّين [(١)] وهو قائد أهل المشرق ونورهم، لأن النبى ﷺ قال: «أيما رجل مات من أصحابى ببلدة فهو قائدهم ونورهم يوم القيامة».

وممن حمل راية النبى ﷺ بين يديه ليقاتل بها أبو بكر وعمر وعلىّ رضى الله

(١) بكسر الجيم، بعده صاد مهملة مشددة. موضع بمرو، من خراسان. [الطهطاوى].

عنهم، فقد ذكر أهل السير أن في غزوة خيبر خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر في بقية المحرم من سنة سبع، ودفع الراية إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكانت بيضاء، ولما افتتح رسول الله ﷺ ما افتتح انتهى إلى حصنهم الوطيح، وكان آخر حصون أهل خيبر افتتاحا، ولكن كان بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه برايته إلى بعض حصون خيبر فقاتل ورجع، ولم يكن فتح، وقد جهد، ثم بعث من الغد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقاتل ثم رجع، ولم يكن فتح، وقد جهد، فقال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، ليس بفرار»، فدعا رسول الله ﷺ عليا، وهو أرمد، فتفل رسول الله ﷺ في عينيه، ثم قال: «خذ الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك»، فخرج والله بها يأنح [1] يهرول هرولة، وإنا لخلفه نتبع أثره، حتى ركز رايته في رَضْم [2] حجارة تحت الحصن، فاطلع عليه يهودي من رأس الحصن، وقال: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، فقال اليهودي: علوتم وما أنزل على موسى؟! انتهى.

وممن حمل الراية الزبير بن العوام، عام الفتح، روى البخاري أنه لما سار رسول الله ﷺ عام الفتح فبلغ ذلك قريشا خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبُديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ: الحديث بكماله.. وفيه: «ثم جاءت كتيبة، وهي أجل الكتائب، فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وراية النبي ﷺ.

ومنهم سعد بن معاذ رضي الله عنه، قال أهل السِّير في أخبار غزوة بدر الكبرى: إنه كان أمام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان، إحداهما مع عليّ بن أبي طالب، والأخرى - وهي راية الأنصار - كانت مع سعد بن معاذ.

ومنهم سعد بن عبادة، قال ابن إسحاق في أخبار يوم الفتح: أمر رسول الله ﷺ أن يدخل الزبير ببعض الناس من كَدَاء وسعد بن عبادة ببعض الناس من

(١) أي له زفير من شدة الغيرة. [الطهطاوي].

(٢) الرضم - واحدها: رضمة - وضاده تسكن وتفتح. الصخور العظيمة يرضم بعضها فوق بعض في الأبنية.

ثَنِيّة كُدًى، فزعم بعض أهل العلم أن سعدا قال، حين دخل فيهم: اليوم يوم المَلحمة، اليوم تستحل الحرمة، فسمعها رجل من المهاجرين، قال ابن هشام: هو عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، فقال: يا رسول الله، ما نأمن سعد بن عبادة من أن تكون له فى قريش صولة، فقال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب: أدركه، فخذ الراية، فكن أنت الذى تدخل بها. وذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب: أن رسول الله ﷺ أعطى الراية حين انتزعها من يده لولده قيس، وقيل أعطاها للزبير، وقيل أعطاها لعلى، والأقوى أنه ﷺ أعطاها لقيس بن سعد، فقد روى البخارى أن قيس بن سعد كان صاحب لواء رسول الله ﷺ، وقال أبو [1] عمر بن عبد البر فى [الاستيعاب]: وأعطاه رسول الله ﷺ الراية إذ نزعها من أبيه لشكوى قريش يومئذ، وكانت الراية يوم الفتح بيد سعد بن عبادة فلما مر بها على أبى سفيان، وكان قد أسلم أبو سفيان، فقال سعد، إذ نظر إليه: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشا. فأقبل رسول الله ﷺ فى كتيبة الأنصار حتى إذا حاذى أبا سفيان ناداه: يا رسول الله، أمرت بقتل قومك! فإنه زعم سعد ومن معه حين مر بنا أنه قاتلنا، وقال:

اليوم يوم الملحمة ... اليوم تستحل الحرمة

اليوم أذل الله قريشا، أنشدك الله فى قومك فأنت أبو الناس وأرحمهم وأوصلهم. وقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما: ما نأمن سعدا أن تكون له فى قريش صولة، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا سفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله فيه قريشا. وقال ضرار بن الخطاب يومئذ:

يا نبى الهدى إليك لجائى ... فى قريش ولات حين لجاء [2]

إن سعدا يريد قاصمة الظهر ... بأهل الحَجُون والبطحاء

---

(١) غير موجودة فى الأصل

(٢) رواية هذا البيت فى [نهاية الأرب] ـ جـ١٧ ص٣٠٤ ـ هكذا:

يانبى الهدى إليك لجائىّ ... قريش ولات حين لجاء

خــزرجي لو يــســتطيع من الـغــيــظ رمــانــا بالنَّســر والعَــوَّاء [1]

وغِـــرُ الصــــدر لا يـهمّ بشيء   غـيـر سـفك الدمـا وسـبى النسـاء

إذ ينادي بـذل حي قـــريش   وابن حـرب بذا من الشــهـداء

فـلئـن أقــحـم الـلواء ونـادى   يا حـمــاة اللواء أهل الـلواء

ثم نأتي [2] إليـه من بـهم الخـزرج   والأوس أنجم الـهـيــجـاء

لـنكون بـالـبطاح قـــريش   فِـقَّعـة [3] القـاع في أكف الإمـاء

فَـانْتَـيَنَّه [4] فـإنـه أسـد الأز   د لدى الغـاب والسغ في الدمـاء

إنـه مطـرق يـريـد لنـا الأمـــر   سكونـا كـالحـيـة الصـمـاء [5]

فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد، ونزع اللواء من يده وجعله في يد قيس ابنه، ورأى رسول الله ﷺ أن اللواء لم يخرج عنه إذ صار إلى ابنه، وأبى سعد أن يسلم اللواء إلا بأمارة من رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه بعمامته، فعرفها سعد، فدفع اللواء إلى ابنه قيس.

وعن جابر رضي الله عنه قال: خرجنا في بعث كان عليهم قيس بن سعد، فنحر لهم تسع ركائب، فلما قدموا على رسول الله ﷺ ذكروا له ذلك من فعل قيس بن سعد فقال رسول الله ﷺ : الجود من شيمة أهل ذلك البيت.

ثم صحب قيس بن سعد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وشهد معه الجمل وصفين والنهروان هو وقومه، ولم يفارقه حتى قتل، وهو القائل في صفين:

---

(1) النسر والعواء: كوكبان.

(2) في [نهاية الأرب]: «ثم ثابت».

(3) في الأصل: بقعة.. والتصحيح عن [نهاية الأرب].. والفقعة ـ بكسر الفاء ـ كمأة بيضاء رخوة، يشبه بها الرجل الذليل.. و«فقعة القاع» مثل يضرب في الذل.

(4) في [نهاية الأرب] «فانهينه».

(5) الحية الصماء هي أخبث الحيات، ولا تنفع الرقية مع سمها... ومما يذكر أن عدد الأبيات في [نهاية الأرب] ثلاثة عشر بيتا.

هـذا الـلواء الـذى كـنـا نحـف بـه	مع الـنبى وجـــبــــريل لنا مــــدد
ما ضـر من كانـت الأنصار عـيـبـته	أن لا يكون له مـن غـيـرهـم أحـد
قـــوم إذا حـاربوا طالـت أكـفـــهم	بالمشـــرفـــيـــة حـــتى يفـــتح الـبلد

ولما خلع الحسن رضى الله عنه الخلافة على معاوية خرج قيس بن سعد عن عسكره، وغضب على الحسن، وبدر منه قول خشن، فاجتمع إليه قومه، وكانوا خمسة آلاف قد حلقوا رؤوسهم بعد ما مات على رضى الله عنه، وتبايعوا على الموت، فلما دخل الحسن فى بيعة معاوية أبى قيس أن يدخل، وقال لأصحابه: إن شئتم جالدت[1] بكم أبدا وإن شئتم أخذت لكم أمانا، فقالوا: خذ لنا أمانا، فأخذ: أنَّ لهم كذا وكذا، وأن لا يعاقبوا بشىء، وأنه رجل منهم، ولم يأخذ لنفسه خاصة شيئا، والتزم لهم معاوية الوفاء مما شرطوه، ثم لزم قيس المدينة، وأقبل على العبادة حتى مات بها سنة ستين، فى آخر خلافة معاوية.

ومن أخباره فى الكرم أن رجلا استقرض منه ثلاثين ألفا، فلما ردها عليه أبى أن يقبلها، وقال: إنا لا نعود فى شىء أعطيناه، فكان له مال كثير ديونا على الناس، فمرض واستبطأ عواده فقيل له: إنهم يستحيون من أجل دينك، فأمر مناديا فنادى من كان لقيس بن سعد عليه دين فهو له! فأتاه الناس حتى هدموا درجة كانوا يصعدون عليها إليه. وتوفى أبوه عن حمل لم يعلم به، وقد كان سعد قسم ماله حين خروجه من المدينة بين ولده، فكلم أبو بكر وعمر فى ذلك قيسا رضى الله تعالى عنهم، وسألاه أن ينقض ما صنع سعد من تلك القسمة، فقال: نصيبى للمولود ولا أغَيِّر ما صنع أبى ولا أنقضه. وقصته مع العجوز التى شكت إليه أنه ليس فى بيتها جرذ، فقال لها: ما أحسن ما سألت، أما والله لأكثرن جرذان بيتك! فملأ بيتها طعاما وودكا[2] وإداما[3].

وكان رسول الله ﷺ يعقد الرايات لأمراء البعوث والسرايا، قال أهل السير:

---

(١) فى الأصل: خالدت.. والمجالدة بالسيف: المضاربة به.

(٢) الودك: الدسم من اللحم والشحم.

(٣) الإدام: كل ما يطيب به الخبز.

أول راية عقدها رسول الله ﷺ في الإسلام لعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن قصى، فى ستين أو ثمانين راكبا من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وذلك أن رسول الله ﷺ أقام بعد رجوعه من غزوة الأبواء بالمدينة بقية صفر وصدرا من ربيع الأول من السنة الثانية من الهجرة، وبعث فى مقامه ذلك بالمدينة عبيدة المذكور، وعقد له الراية، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثَنِيّة المرَة فلقى بها جمعا عظيما من قريش، فلم يكن بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبى وقّاص رضى الله تعالى عنه قد رمى يومئذ سهما فكان أول سهم رمى به فى الإسلام، ثم انصرف القوم عن القوم. قال ابن إسحاق: فكانت راية عبيدة، فيما بلغنا، أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين. وبعض العلماء يزعم أن رسول الله ﷺ بعثه حين أقبل من الأبواء قبل أن يصل إلى المدينة، وبعث فى مقامه ذلك حمزة بن عبد المطلب بن هشام إلى سيف البحر من ناحية العيص [1] فى ثلاثين راكبا من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، فلقى أبا جهل بن هشام بذلك الساحل فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة فحجز بينهم مَجْدِىّ [2] بن عمرو الجهنى وكان موادعا للفريقين جميعا، فانصرف بعض القوم عن بعض ولم يكن بينهم قتال، فلهذا قيل إن راية حمزة كانت أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين، وقد جمع بعض أهل السير بين القولين بأنّ بعث حمزة وبعث عبيدة كانا معا، فاشتبه ذلك على الناس. وقد ذكر ابن فتحون فى [ذيل الاستيعاب] أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه خرج فى الردة، إثر وفاة رسول الله ﷺ، إلى ذى القصة [3] وعلى ميمنته النعمان بن مقرن وعلى ميسرته أخ للنعمان بن مقرن وعلى ساقته سويد بن مقرن، فقرن الله تعالى له وللمسلمين فى خروجه التوفيق والنصر.

---

(1) اسم محل. [الطهطاوى].

(2) فى الأصل: بعدى.. والتصحيح عن [تاريخ الطبرى] انظر جـ2 ص405.

(3) موضع فى طريق العراق من المدينة.. [الطهطاوى].

الفصل الثالث

(فى انقسام الجيش إلى خمسة أقسام)

ينقسم الجيش إلى خمسة أقسام، مقدمة، ومجنبتان، مجنبة يمنى، وتسمى الميمنة، ومجنبة يسرى وتسمى الميسرة، وقلب، وساقة، وبهذا يسمى الجيش خَميسا، لقسمته على خمسة أقسام. وإنما سمى القلب قلبا لتوسطه وإحاطة سائر الأقَسام به، كتوسط قلب الإنسان فى جسده، أو لكون القلب فى المكان الرئيس الذى هو سيد الجيش، وسمى المجنبتان بذلك لإحاطتهما بالقلب من الجانبين، وسميت المقدمة مقدمة لتقدمها، وأما الساقة فإنها مأخوذة من قولهم ساق الشىء سوقا: قدمه بين يديه، فساقة العسكر آخره.

وقلب الجيش محل الإمام، وقد يقيم الإمام يوم لقاء العدو بمكانه من قلب الجيش رجلا، ويلبس الإمام لأمته ويلبس هو لأمة الإمام، أى آلة حربه، حياطة على الإمام، كما فعل ذلك كعب بن مالك بن أبى مالك السلمى رضى الله تعالى عنه يوم أحُد، حيث لبس لأمة النبى ﷺ، وكانت صفراء، ولبس النبى ﷺ لأمته فجرح كعب بن مالك أحد عشر جرحا.

وكان لكل من هذه الخمسة رئيس يسمى صاحب، فيقال صاحب المقدمة، فقد تولى صاحب المقدمة بين يديه ﷺ فى فتح مكة أبو عبيدة بن الجراح ويوم حنين خالد بن الوليد فى بنى سليم، وجرح يومئذ، فأتاه رسول الله ﷺ فى رحله بعد ما هزمت هوازن ليعرف خبره ويعوده، فنفث فى جرحه فانطلق.

وأما المقدمة على الميمنة فقد روى أبو هريرة قال: كنا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى وجعل أبا عبيدة على البيادقة [1] وبطن الوادى وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وقبائل من قبائل العرب. وقد تقدم فى غزوة فتح مكة أنه ﷺ حين فرق جيشه أمر الزبير بن العوام أن يدخل فى بعض الناس من كَـدَاء، وكان الزبير على المجنبة اليسرى، وأما المقدم على الساقة فقد قال ابن إسحاق فى السير، فى خبر غزوة بدر الكبرى، وكانت فى السنة الثانية من الهجرة: خرج رسول الله ﷺ فى ليال مضت من رمضان فى أصحابه، وجعل على الساقة قيس بن أبى صعصعة، أخا بنى مازن بن النجار.

وفى غزوة أحُد كان المقدم على الرماة، كما رواه البخارى عن البراء بن عازب، عبد الله بن جبير وكانوا خمسين رجلا، وهو أخو بنى عمرو بن عوف، وكان يومئذ معلما بثياب بيض، فقال له ﷺ: انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لنؤتين من قبلك. وعبد الله بن جبير هو ابن النعمان بن أمية بن امرىء القيس، وهو البرك بن ثعلبة بن عمرو بن عوف الأنصارى، شهد عبد الله العقبة ثم شهد بدرا واستشهد يوم أحُد، وكان يومئذ أميرا على الرماة.

وممن كان فى الصحابة معدودا من الرماة أبو طلحة الأنصارى النجارى، وكان ممن تضرب بشجاعته الأمثال، وكان أكثر الأنصار مالا، واسمه زيد، شهد العقبة ثم شهد بدرا وما بعدها من المشاهد، وهو القائل:

أنا أبو طلحة واسمى زيد　　　وكل يوم فى سلاحى صيد

وعن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة براءة فأتى على قوله عز وجل ﴿ **انفرُوا خفَافًا وَثقَالاً** ﴾ (التوبة: ٤١) قال: لا أرى ربنا إلا أن يستنفرنا شبانا وشيوخا، يا بنى جهزونى جهزونى - (وكانت الغزوات فى صدر الإسلام متواترة برية وبحرية) - فقالوا له يرحمك الله! قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبى بكر

---

(١) والبيادقة هم الجند الرجَّالة: ويسمون الآن بيادة. [الطهطاوى].

حتى مات، ومع عمر حتى مات! فقال: لا، جهزونى، فغزا فى البحر فمات، فلم يجدوا جزيرة يدفنونه بها إلا بعد سبعة أيام، فدفنوه فيها وهو لم يتغير، وهذا رأى أهل البصرة، والمعلوم عند غيرهم أنه توفى بالمدينة، وكانت وفاته سنة أربع وثلاثين، وهو ابن سبعين سنة، وصلى عليه عثمان. وعن أنس بن مالك: كان أبو طلحة يجثو بين يدى رسول الله ﷺ ويقول: نفسى لنفسك الفداء، ووجهى لوجهك الوقاء، ثم ينثر كنانته بين يديه، فقال النبى ﷺ صوت أبى طلحة فى الجيش خير من فئة. وعن أنس أيضا أن رسول الله ﷺ قال يوم حنين: من قتل قتيلا فله سَلَبه، فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلا وأخذ أسلابهم.

وكان على الناس فى يوم القادسية سعد بن أبى وقاص، وكان به جراح فلم يشهد الحرب واستخلف خليفة ففتح الله على المسلمين، فقال رجل من بجيلة:

ألم تر أن الله أظهر دينه ... وسعد بباب القادسية مُقْصَم [1]

فأُبْنا وقد آمت نساء كثيرة ... ونسوة سعد ليس فيهن أيِّم

فقال سعد: اللهم اكفنا يده ولسانه! وكان له فتح القادسية وغيرها، وهو الذى عمر الكوفة ونفى الأعاجم منها، وتوفى سنة خمس وخمسين من الهجرة، وهو آخر العشرة المبشرين بالجنة موتا فى زمن معاوية.

---

(١) مكسور.

الفصل الرابع

(فى صاحب الخيل والمسابقة)

أمر سبحانه وتعالى بارتباط الخيل، وأعد رسول الله ﷺ الخيل فى سبيل الله، ونَظَّر عليها من يحفظها، قال الله عز وجل ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ (الأنفال: ٦٠) الآية، وروى الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال: كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكانت لرسوله الله ﷺ خالصا، وكان رسول الله ﷺ يعزل نفقة أهله سنة ثم يجعل ما بقى فى الكُراع ـ (الخيل) ـ والسلاح عُدة فى سبيل الله، وكان لرسول الله ﷺ أفراس كثيرة لخاصته ـ المتفق عليه سبعة والمختلف فيه خمسة عشر غيرها.

وذكر ابن إسحاق فى غزوة بنى قريظة أن رسول الله ﷺ بعث سعد بن زيد الأنصارى، أخا بنى عبد الأشهل، رضى الله تعالى عنه، بسبايا بنى قريظة إلى نجد، فابتاع له بها خيلا وسلاحا.

وكان ﷺ يأذن لمن يركبها من الصحابة للمسابقة بها، فقد ثبت أن سهل بن سعد الساعدى سبق على فرس لرسول الله ﷺ فكساه ﷺ بردا يمانيا، وأن أبا أسيد [(١)] الساعدى سبق على فرس، فلما طلع الفرس جثا رسول الله ﷺ على ركبتيه واطلع من الطف [(٢)] أو قال: كأنه بحر، وروى أن رسول الله ﷺ أجرى

---

(١) بضم الهمزة. [الطهطاوى]. (٢) أى الجانب العالى. [الطهطاوى].

فرسه مع خيول المسلمين من المحصب بمكة، فجاء فرس رسول الله ﷺ سابقا، فجثا رسول الله ﷺ على ركبتيه حتى إذا مر به قال: إنه لبحر، قال عمر رضى الله عنه: الحطيئة كاذبا حيث يقول:

وإن جياد الخيل لا تستفزنا ... ولا جاعلات العاج فوق المعاصم

لو كان أحد صابرا عن الخيل لكان أحقهم بذلك رسول الله ﷺ.

وروى البخارى عن موسى بن عقبة عن أبى إسحاق عن نافع عن ابن عمر رضى الله تعالى عنه قال: سابق رسول الله ﷺ بين الخيل التى قد أضمرت فأرسلها من الحصباء، وكان أمدها ثَنِيَّة الوداع، قال أبو إسحاق: فقلت لموسى وكم بين ذلك؟ قال: ميل ونحوه، وكان ابن عمر ممن سابق فيها.

وقد اتخذ عمر رضى الله عنه الخيل عُدَّة فى سبيل الله، فجعل فى كل مصر على قدره خيولا من فضول أموال المسلمين، عُدَّة لما يعرض، فكان من ذلك بالكوفة أربعة آلاف فرس، وكان قيِّمه عليها سلمان بن ربيعة الباهلى فى نفر من أهل الكوفة، يصنع سوابغها[1] ويجريها فى كل يوم، وجعل بالبصرة نحوا منها، وقيِّمه عليها جَزْء بن معاوية التميمى، وفى كل مصر من الأمصار على قدره، وذكر ابن عبد البر فى أخبار معاوية بن أبى سفيان: أنه أول من قيدت بين يديه الجنائب.

وأما المسرجون، فكان بلال يسرج لرسول الله ﷺ فرسه بسرج رقيق من لبد ليس فيه أشر ولا بطر، كما يروى عن أبى عبد الرحمن الفهمى رضى الله تعالى عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى حنين فسرنا فى يوم قائظ شديد الحر، فنزلنا تحت ظلال الشجر، فلما زالت الشمس لبست لأمتى وركبت فرسى، فأتيت رسول الله ﷺ وهو فى فسطاط، فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، قد حان الرواح، فقال: أجل، ثم قال رسول الله ﷺ: يا بلال، فثار[2] من تحت شجرة كأن خاله ظل طائر، فقال: لبيك وسعديك وأنا فداؤك، قال: أسرج لى

---

(١) السوابغ: الدروع.

(٢) وثب.

فرسي، فاتاه بدفتين من ليف ليس فيهما أشر ولا بطر، قال: فركب فرسه ثم سرنا، وفي رواية فأخرج سرجا من ليف ليس فيه أشر [1] ولا بطر [2]، وكان بعض الصحابة يأخذ بركابه ﷺ، فاقتدى به بعض من الصحابة في ذلك. يروى أن زيد بن ثابت صلى على جنازة أمه ثم قُرِّبت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال زيد: خل عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء، فقبل زيد ابن عباس وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

وأول من ضرب الركاب من الحديد في الإسلام - وكانت ركب الناس قديما من خشب يضرب الفارس ركابه فينقطع - المهاب، فهو أول من أمر بطبعها.

وأما قائد راحلته وبغلته ﷺ فأسامة، وبلال، وكان صاحب بغلته أيضا عُقبة ابن عامر الجهني، فقد روى أبو داود رحمه الله تعالى عن أم الحصين، قالت: حججت مع النبي ﷺ حجة الوداع، فرأيت أسامة وبلالا أحدهما آخذ بخطام ناقة النبي ﷺ والآخر رافع ثوبه يستره من الحر حتى رمى جمرة العقبة. وقائد الناقة يسمى صاحب الراحلة، وقائد البغلة يسمى صاحب البغلة.

(١) الأشر هو البطر والمرح.

(٢) البطر: من معانيه البغي عند النعمة.

الفصل الخامس

(فى ذكر سلاح النبى ﷺ وإعداده السلاح فى سبيل الله، وذكر من تولى النظر فى ذلك فى عهده ﷺ وسمى صاحب السلاح وذكر من تولى حرسه)

روى مسلم عن عمر رضى الله تعالى عنه قال: كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله، مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فكانت للنبى ﷺ خاصة، فكان ينفق على أهله نفقة سنةوما بقى يجعله فى الكراع والسلاح عُدّة فى سبيل الله عز وجل. انتهى.

وفى [المهمات]: المال المأخوذ من الكفار ينقسم إلى ما يحصل من غير قتال وإيجاف خيل وركاب، وإلى حاصل بذلك، ويسمى الأول فيئا، والثانى غنيمة، وقد تقدم ما ذكره ابن إسحاق رحمه الله من بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصارى، أخا بنى عبد الأشهل، رضى الله عنه، بسبايا من سبايا بنى قريظة إلى نجد فابتاع له بها خيلا وسلاحا.

ثم إن السلاح اسم جامع لآلة الحرب، وخصه بعضهم بما كان من الحديد، وخصه بعضهم بالسيف، والأول هو المشهور، وكان لرسول الله ﷺ تسعة أسياف: مأثور، وهو أول سيف ورثه من أبيه، والعَضْب، وذو الفَقَار، من غنائم بدر، وذو الفَقَار هو الذى رأى فيه رسول الله ﷺ الرؤيا كأن فى ذباب سيفه ثلمة،

فأولَّها بهزيمة، فكانت يوم أحُد، وكان ذو الفَقَار لا يفارق النبى ﷺ ، وكان محلى بالفضة، وثلاثة أسياف أصابها ﷺ من بنى قَيْنُقاع، وهى القَلعَى، والبتَّار، والحَتْف، وكان عنده بعد ذلك: الرَّسُوب، والمِخْذَم[1]، والقضيب، وقد روى الترمذى أنه ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى سيفه ذهب وفضة.

وذكر ابن إسحاق فى السِّير، فى خبر غزوة ذات الرقاع، عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه: أن رجلا من بنى محارب يقال له غَوْرَث[2] قال لقومه من غطفان ومحارب: ألا أقتل لكم محمدا؟ قالوا: بلى، وكيف تقتله؟ قال: أفتك به، فأقبل إلى رسول الله ﷺ وهو جالس، وسيف رسول الله ﷺ فى حجره، قال: يا محمد، أنظر إلى سيفك هذا، قال: نعم، فأخذه فاستله ثم جعل يهزه ويهم به، فكبته الله عز وجل، ثم قال: يا محمد، أما تخافنى؟ قال: ما أخاف منك، قال: أما تخافنى، وفى يدى السيف؟ قال: ليمنعنى الله منك، ثم عمد إلى سيف رسول الله ﷺ فرده عليه، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (المائدة: ١١) ويطلق حامل السيف على الخفير السياف الذى يقوم على رأس الأمير بسيفه ليحرسه، كالضحاك بن سفيان بن عوف بن كعب بن أبى بكر الكلابى، ويكنى أبا سعيد، كان معدودا فى أهل المدينة، وكان أحد الأبطال، يقوم على رأس رسول الله ﷺ بسيفه، وكان يعد وحده بمائة فارس، وكان سياف رسول الله ﷺ قائما على رأسه متوشحا بسيفه، وقد سبق فى (الفصل الثالث) ذكر أبى طلحة، وأن رسول الله ﷺ شهد له بقوله: صوت أبى طلحة فى الجيش خير من فئة.

وروى البخارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها: كان النبى ﷺ سهر فلما قدم المدينة قال: ليت رجلا من أصحابى يحرسنى الليلة، إذا سمعنا صوت سلاح، فقال: من هذا؟ قال سعد بن أبى وقاص: جئت لأحرسك، ونام رسول الله ﷺ ،

---

(١) فى الأصل؛ المخزم، بالزاى.. والمخذم من الخذم، أى القطع.
(٢) على وزن كوثر. [الطهطاوى].

وحرسه ﷺ يوم بدر سعد بن معاذ وذكوان بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما على باب العريش الذى بنى له ﷺ ، وكان معه فيه أبو بكر الصديق رضى الله عنه، ويوم أحد حرسه محمد بن مسلمة الأنصارى، وحرسه يوم الخندق الزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعباد بن بشر، وحرسه ليلة خيبر أبو أيوب الأنصارى، وحرسه بلال بوادى القرى، فلما أنزل الله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (المائدة : ٦٧) ترك الحرس.

ويروى أن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا ثم قال : شاهت الوجوه، ثم نفحهم[(١)] بها، وأمر أصحابه فقال : شدوا، فكانت الهزيمة، فقتل الله بها من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم، فلما وضع القوم أيديهم يأسرون كان رسول الله ﷺ فى العريش، وسعد بن معاذ رضى الله عنه على باب العريش الذى فيه رسول الله ﷺ متوشحا السيف فى نفر من الأنصار رضى الله تعالى عنهم يحرسون رسول الله ﷺ ويخافون عليه كَرَّة العدو.

وحرسه ﷺ حين أعرس بصفية رضى الله تعالى عنها بخيبر، أو ببعض الطريق، أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه، أخو بنى النجار، متوشحا بسيفه حول القبة حتى أصبح رسول الله ﷺ ، فلما رأى مكانه، قال : مالك يا أبا أيوب؟ قال : خفت عليك من هذه المرأة، وأنت قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وهى حديثة عهد بك، فخفتها عليك؟ قيل إن رسول الله ﷺ قال : اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى. وحرسه ﷺ وهو يصلى بالحجر عمر بن الخطاب، فقد ذكر الدار قطنى أن عمر بن الخطاب وقف على رأسه بالسيف حتى يصلى.

قال ابن عطية فى كتاب [الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز] كان رسول الله ﷺ يقتفيه أصحابه، يحرسونه، فلما نزلت ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ خرج فقال : يا أيها الناس، الحقوا بملاحقكم فإن الله قد عصمنى، وذكر الزمخشرى فى [الكشاف] فى قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ عن أنس رضى الله تعالى

---

(١) نفحهم بها، أى قذفهم بها.

عنه: كان رسول الله ﷺ يحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة أدم فقال: انصرفوا يا أيها الناس، فقد عصمني الله من الناس.

ومن آلات الحرب في زمنه ﷺ الرماح والحرب والعنزات، وروى البخاري عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «جعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري»، وكان له ﷺ خمسة رماح، ثلاثة أصابها من بني قينقاع، ورمح يقال له المُثْوِي، من المَثْوى وهو الإقامة، أي أن المطعون به يقيم بمكانه، وكانت له ﷺ حربة يقال لها النَّبعة، وحربة كبيرة اسمها البَيْضَاء، وحربة صغيرة دون الرمح يقال لها العَنْزَة، يدعم عليها ويمشي بها وهي في يده، وكانت تحمل بين يديه في العيد حتى تركز أمامه فيتخذها سترة يصلي إليها، قيل إنه أخذها من الزبير ابن العوام، وأخذها الزبير من النجاشي، وكانت له عنزة أخرى.

وفي السير في أخبار يوم أحد ذكر ابن إسحاق قال لما أسند رسول الله ﷺ في الشِّعْب أدركه أُبَيّ بن خلف وهو يقول: أين أنت يا محمد، لا نجوتُ إن نجوتَ، فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال ﷺ: دعوه، فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تراد، أي تمايل، منها عن فرسه مرارا، فقال: قتلني والله محمد، وإنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق عليّ لقتلني فمات عدو الله بسرف وهم قافلون به إلى مكة، والحربة للنبي ﷺ لا للحارث بن الصمة فإنه كان حاملها فقط.

وأما القسي والجعاب فكان لرسول الله ﷺ ست قسيّ: الزوراء، والروحاء، والصفراء، من نبع [1]. والبيضاء، من شَوْحط [2]، وَقَوس من نبع أيضا تسمى الكَتُوم لانخفاض صوتها إذا رمى بها، وقد انكسرت يوم أحد وأخذها قتادة بن النعمان، وقوس منَ نبْع أيضا تدعى السداد، وكانت له ﷺ جُعبة، أي كنانة تسمى الجمع، وتسمى الكافور، وكان له ﷺ من الدروع سبع منها ذات الفضول، وهي التي رهنها عند أبي الشحم اليهودي على شعير لعياله ﷺ، وقيل

(١) النبع شجر تتخذ من خشبه الرماح والسهام.

(٢) في الأصل: شوحة.. والتصحيح عن [نهاية الأرب].. والشوحط شجر جبلي تتخذ منه القسي.

كان من جملة دروعه درع داود عليه السلام التى لبسها حين قتل جالوت وتسمى السَّغْديّة، وكان فى غزوة خيبر مستصحبا لها ولذات الفضول، وكان له ﷺ منطقة من أدَيم فيها ثلاث حلق من فضة وأبزيمها من فضة كان يشدها فى وسطه، وكان له عليه الصلاة والسلام بيضة ومغْفَر، فقد ورد أنه ﷺ لما جرح يوم أحد كسرت رباعيته وكسرت البيضة التى عَلى رأسه، وورد أيضا أنه كان له ﷺ مغْفَر [1] من حديد يقال له الموشح ومغْفَر آخر يقال له الثبور، وهو الذى كان علىَ رأسه حين دخل مكة يوم الفتح. وَكان له ﷺ ترس يقال له الزلوق، تزلق عنه السلاح، وترس يقال له الفتق، وأهدى له ترس فيه تمثال عُقَاب أو كبش فوضع يده عليها فأذهب الله ذلك التمثال وروى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال: كان أبو طلحة رضى الله عنه يتترس مع النبى ﷺ بترس واحد.

---

(١) والمغفر ما يجعل من الزرد على الرأس مثل القلنسوة أو الخمار. [الطهطاوى].

الفصل السادس

(فى ذكر ما يتعلق بالسفر للغزو وغيره من الدلالة وتسهيل الطريق والحراسة والتجسس، ومنه تخذيل الأعداء والأمانة على الحرم)

لما هاجر ﷺ اتخذ دليلا هاديا خرِّيتًا [1]، فقد روى البخارى عن عائشة زوج النبى ﷺ قالت: استأجر رسولَ الله ﷺ وأبو بكر رجلا من بنى الديل هاديا خرِّيتا، وهو على دين كفار قريش، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليَال براحلتيهما. وقال ابن إسحاق فى السِّير: استأجر عبد الله بن أرقط، رجلا من بنى الديل بن بكر، وكانت أمه امرأة من بنى سهم بن عمرو، وكان مشركا، يدلهما على الطريق، ودفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

وقال ابن إسحاق فى السِّير، فى خبر يوم أحد: ومضى ﷺ حتى سلك حَرَّة بنى حارثة، ثم قال لأصحابه: مَنْ رجل يخرج بنا على القوم من كثب، أى من قرب، من طريق لا يمر بنا عليهم؟ فقال أبو حثمة من بنى حارثة بن الحارث: أنا يا رسول الله، فنفذ به فى حَرَّة بنى حارثة وبين أموالهم، ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشِّعب من آخره فى عُدْوة الوادى إلى الجبل.

ودليله ﷺ فى عمرة الحديبية ناجية الأسلمى، أحد الصحابة، معدود فى أهل المدينة، وكان اسمه ذكوان فسماه ﷺ ناجية، إذ نجا من قريش، وهو الذى نزل فى البئر يوم الحديبية، مات فى خلافة معاوية، بالمدينة.

---

(١) يعنى حاذقا. [الطهطاوى].

وأما مسهل الطريق، فقد بعث ﷺ غالب بن عبد الله الليثى فى ستين راكبا إلى بنى الملوح بالكديد[1]، وكانوا قد قتلوا أصحاب بشير بن سويد، وأمره أن يغير عليهم، ففعل، وهو الذى بعثه ﷺ عام الفتح يسهل له الطريق.

وأما الحراسة، فمن حرسه ﷺ سعد بن أبى وقاص، وكان يقال له فارس الإسلام، وسعد بن معاذ، وقدم تقدم الكلام عليهما فى (الفصل الخامس) وأما حرس عسكره ﷺ فقد قال ابن إسحاق فى السِّير: حدث جابر بن عبد الله رضى الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة ذات الرقاع فأصاب رجل امرأة من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلا أتى زوجها، وكان غائبا، فلما أُخْبر الخبر حلف أن لا ينتهى حتى يهرق أصحاب محمد دما، فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ، فنزل ﷺ منزلا، فقال: من رجل يكلؤنا ليلتنا؟ فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار فقالا: نحن يا رسول الله، قال: وكونوا بفم الشِّعْب، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد نزلوا إلى شعب من الوادى، والرجلان هما عمار بن ياسر وعباد بن بشر، فلما خرجا إلى فم الشعب قال الأنصارى للمهاجرى: أىَّ الليلَ تحب أن أكفيكه، أوله أم آخره؟ قال: بل اكفنى أوله، فاضطجع المهاجرى فنام، وقام الأنصارى يصلى، وأتى الرجل، فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم، فرماه بسهم فوضعه فيه فانتزعه ووضعه وثبت قائما، ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه فنزعه ووضعه وثبت قائما، ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه فنزعه ووضعه وثبت قائما، وفى الثالثة ركع وسجد، ثم أَهَبَّ[2] صاحبه فقال: اجلس فقد أتيت، فوثب، فلما رآهما الرجل عرف أنه قد انفردا به فهرب، ولما رأى المهاجرى ما بالأنصارى من الدماء، قال: سبحان الله، أفلا أهبتنى أول ما رماك؟ قال: كنت فى سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفدها، فلما تابع على الرمى ركعت فآذنتك، وأيم الله لولا أن أضيع ثغرا أمرنى رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسى قبل أن أقطعها أو أنفذها.

---

(١) موضع بين مكة والمدينة. [الطهطاوى].

(٢) أى أيقظ.

وأما التحسس فمنه ما يسمى بالربيئة، وهو الرجل الذى يتخذ فى بلاد العدو عينا ويبحث عن بواطن الأمور ويكتب بأخبارهم إلى الإمام، والتحسس للأخبار بالحاء المهملة أن يفحص الشخص عن الأخبار بنفسه، وبالجيم أن يفحص عنها بغيره، وجاء: «تحسسوا ولا تجسسوا»، ومنه ما يسمى بالـمَخَزِّل، ووظيفته تخزيل العدو وتثبيطه وتشتيت شمله بأمور سياسية. فمن الشق الأول ما روى عن ثابت عن أنس رضى الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ بسيسة [1] عينا ينظر ما صنعت عير أبى سفيان، فجاء وما فى البيت أحد غيرى وغير رسول الله ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ فقال: إن لنا طلبة، فمن كان ظهره حاضرا فليركب معنا، فجعل رجال يستأذنونه فى ظهرانهم فى علو المدينة، فقال: لا، إلا من كان ظهره حاضرا. وفى غزوة بدر بعث رسول الله ﷺ بسيس وعدى بن أبى الرعناء الجهنى إلى بدر يتحسسان له الأخبار عن أبى سفيان بن حرب وغيره، وقال الواقدى: كان رسول الله ﷺ قد بعث قبل أن يخرج من المدينة إلى بدر طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد رضى الله تعالى عنهما إلى طريق الشام يتحسسان الأخبار، فقدماهما يوم وقعة بدر، فضرب لهما رسول الله ﷺ بسهميهما وبأجريهما. وذكر ابن إسحاق فى غزوة الخندق أن رسول الله ﷺ بعث حذيفة بن اليمان ليلا لينظر ما فعل القوم، يعنى قريشا وغطفان. وذكر ابن عبد البر فى [الاستيعاب] أن النبىّ ﷺ بعث بسر بن سفيان الخزاعى عينا إلى قريش إلى مكة وشهد الحديبية. وقال ابن إسحاق فى أخبار غزوة حنين: لما سمعت هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله تعالى عليه من مكة، جمعها مالك بن عوف النضرى، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها، واجتمعت نضر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بنى هلال، وهم قليل، ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء، ولما سمع بهم رسول الله ﷺ بعث إليهم عبد الله بن أبى حزرد الأسلمى، وأمره أن يدخل فى الناس فيقيم بهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن أبى حزرد حتى دخل فيهم فأقام فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا عليه من حرب رسول الله ﷺ.

ومن الشق الأول التجسس، فقد ذكر ابن عبد البر فى [الاستيعاب] فى أخبار

---

(1) ويقال له: بسيسة بن عمرو الجهنى. [الطهطاوى].

العباس بن عبد المطلب، عم النبي ﷺ، قال أبو عمر: أسلم العباس قبل فتح خيبر، ويقال إن إسلامه كان قبل بدر، وكان يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، فكتب إليه رسول الله ﷺ: إن مقامك بمكة خير، فلذلك قال رسول الله ﷺ: من لقي منكم العباس فلا يقتله فإنما أخرج كرها، يشير بذلك ﷺ أن العباس كان ممن خرج مع المشركين يوم بدر، فإنه أخرج منها مكرها، فأسر ممن أسر منهم، وكانوا قد شدوا وثاقهم، فسهر النبي ﷺ تلك الليلة ولم ينم، فقال له بعض أصحابه: ما يسهرك يا نبي الله؟ قال: أسهر لأنين العباس! فقام رجل من القوم فأرخى وثاقه، فقال رسول الله ﷺ: ما لي لا أسمع أنين العباس؟ فقال الرجل: أنا أرخيته من وثاقه، فقال ﷺ: فافعل ذلك بالأسرى كلهم! وقد أسلم قبل فتح خيبر، وكتم إسلامه، وكان يسره ما يسر المسلمين، ويفرح بما يفتح الله عليهم، ثم أظهر إسلامه يوم فتح مكة، وشهد حنينا والطائف وتبوك، وكان المسلمون يتقوون بمكة به، وكان يحب أن يَقْدم على رسول الله ﷺ، فكتب إليه: إن مقامك بمكة خير، وحضر العباس مع النبي ﷺ العقبة، يَشْترط له على الأنصار، وكان على دين قومه يومئذ، وانهزم الناس عن رسول الله ﷺ يوم حنين غيْره وَغيْر عمر وعلي وأبو سفيان بن الحارث، وقد قيل غير سبعة من أهل بيته.

وكان النبي ﷺ يكرم العباس بعد إسلامه ويعظمه ويجله، ويقول: هذا عمي وصنو أبي، ويروى عن الثقات أن العباس بن عبد المطلب لم يمر بعمر ولا بعثمان وهما راكبان إلا نزلا حتى يجوز العباس إجلالا له، ويقولان: عم النبي ﷺ، وتوفي العباس بالمدينة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب، وقيل بل في رمضان سنة اثنتين وثلاثين، قبل قتل عثمان بسنتين، وصلى عليه عثمان، ودفن بالبقيع، وهو ابن ثمان أو تسع وثمانين سنة، أدرك الإسلام اثنتين وثلاثين سنة والباقي في الجاهلية، شهد له رسول الله ﷺ بأنه أجود قريش كفا وأوصلها.

ومن الشق الثاني المخُزّل، فقد قال ابن حزم [1]: بعث رسول الله ﷺ نُعَيْم بن

---

(١) أبو محمد علي بن أحمد بن حزم القرطبي (٩٩٤ـ١٠٦٤م) مؤرخ وفقيه ومحدث وأديب، أندلسي، كان نصيرا للمذهب الظاهري في الفقه والكلام حتى لقب بأبي حزم الظاهري، ومن آثاره الهامة [الفصل في الملل والأهواء والنحل] و[الإحكام لأصول الأحكام] و[طوق الحمامة في الإلف والإيلاف] وهو أول كتاب في تراث الفكر الإنساني يتناول الحب وعاطفته بالدراسة العلمية =

مسعود بن عامر الأشجعي ليشتت جموع الأحزاب وبني قريظة، وذلك أنه هاجر إلى رسول الله ﷺ وأسلم في الخندق، قال ابن إسحاق: ثم إن نعيم بن مسعود الأشجعي أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد، فَخذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خُدْعة، فخرج نُعَيْم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديما في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليهم، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نُهْزَة[1] أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم فلا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكون بأيديكم ثقة منكم على أن يقاتلوا معكم محمدا حتى تناجزوه، قالوا: لقد أشرت بالرأي، ثم خرج حتى أتى قريشا، فقال لأبي سفيان ومن معه من رجالهم: قد عرفتم ودي لكم، وفراقي محمدا، وإنه قد بلغني أمر رأيت عليَّ حقا أن أبلغكموه نصحا لكم، فاكتموه عني، قالوا: نفعل، قال: تعلم أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، من قريش وغطفان، رجالا من أشرافهم، فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا، ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان، إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إليَّ، ولا أراكم تتهموني، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم، قال: اكتموا عني، قالوا: نفعل، ثم قال لهم

= الموضوعية، و[التقريب في حدود المنطق] و[الناسخ والمنسوخ] و[الأخلاق والسير في مداواة النفوس].

(١) النهزة ـ بضم النون، وسكون الهاء، وفتح الزاي ـ الفرصة.

مثل ما قال لقريش، وحذرهم مثل ما حذرهم، فلما كانت ليلة السبت، وكان ذلك من صنع الله تعالى برسوله ﷺ، أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمةبن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخُفّ والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز [1] محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئا، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين يقاتلون معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا، فإنا نخشى إن قامت الحرب واشتد عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلادنا، ولا طاقة لنا بذلك منه، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: إن الذى حدثكم نُعَيْم بن مسعود حق، فأرسلوا إلى بنى قريظة: إنا والله لا ندفع لكم رجلا واحدا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين أتت إليهم الرسل بهذا: إن الذى ذكر لكم نُعَيْم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك انشمروا [2] إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطوا رهنا، فأبوا عليهم، وخذل الله تعالى بينهم، وبعث عليهم الريح فى ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفىء قدورهم وتطرح آنيتهم، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم وما فرق الله من جماعتهم دعا حذيفة بن اليمان فبعثه ليلا لينظر ما فعل القوم، فحدث حذيفة رضى الله تعالى عنه وقد قال له رجل من أهل الكوفة. يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخى، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال الرجل: والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض، ولحملناه على أعناقنا، قال حذيفة: يا ابن أخى، والله لقد رأيتنا مع رسو ل الله ﷺ بالخندق، ومضى هَوِىّ [3]، أى ساعة

(١) فى الأصل: نناجر ـ بالراء المهملة ـ

(٢) انشمروا: مروا مسرعين.

(٣) الهوى ـ بفتح الهاء وضمها، مع كسر الواو، وتشديد الياء ـ القسم والهزيع.

من الليل، ثم التفت إلينا فقال: مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع، يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة، أسأل الله أن يكون رفيقى فى الجنة، فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لما يقم أحد دعانى فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى، فقال: يا حذيفة، اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يفعلون ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا، فذهبت فدخلت فى القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقرلهم قرارا ولا نارا ولا بناء، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ مَنْ جليسه، قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى، فقلت: من أنت؟ فقال: فلان ابن فلان، وذكر ابن عقبة أنه فعل ذلك بمن يلى جانبيه يمينا ويسارا، قال: وبدرهم بالمسألة خشية أن يفطنوا به، قال حذيفة: ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، هلك الكُرَاع والخُف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذى نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، وما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا، فإنى مرتحل، ثم قام إلى جمله، وهو معقول، فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم. ولولا عهد رسول الله ﷺ إلىّ أن لا تُحدث شيئا حتى تأتينى بما شئت لقتلته بسهم، فرجعت إلى رسول الله ﷺ، وهو قائم يصلى فى مرْط [1] لبعض نسائه، فلما رآنى أدخلنى إلى رحله وطرح علىّ طرف المرْط ثم ركَع وسجد وإنى لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر، وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين - (أى أسرعوا) - إلى بلادهم، ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة والمسلمون معه.

وأما الأمانة على الحُرُم، فقد كان ﷺ فى أسفاره يُنَصِّب أمينا على حرمه، فقد ذكر فى [الاستيعاب] قال: قال الزبير بن بكار: كان عبد الله بن عوف رضى الله عنه أمين رسول الله ﷺ على نسائه، وروى عنه ﷺ أنه قال: عبد الرحمن بن عوف أمين فى السماء وأمين فى الأرض، وفى سنة ثلاث وعشرين من الهجرة حج عمر رضى الله تعالى عنه واستأذنه أزواج رسول الله ﷺ فى الحج فأذن لهن،

---

(١) المرط: كل ثوب غير مخيط وكذلك كساء الصوف، ونحوه، يؤتزر به.

فخرجن في الهوادج وعليهن الطيالسة (١) وكان أمامهن عبد الرحمن بن عوف ووراءهن عثمان بن عفان، فكانا لا يدعان أحدا يدنو منهن.

وكان عبد الرحمن بن عوف اسمه في الجاهلية عبد عمرو، وقيل عبد الكعبة، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن، ولد بعد الفيل بعشر سنين، وأسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، وكان المهاجرين الأولين، جمع الهجرتين جميعا، هاجر إلى أرض الحبشة ثم قدم قبل الهجرة وهاجر إلى المدينة، وشهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وبعثه رسول الله ﷺ إلى دُومَة الجندل وعممه بيده وسدلها بين كتفيه وقال له: «سر، بسم الله»، وأوصاه بوصاياه لأمراء سراياه، وهو أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، وصلى رسول الله ﷺ خلفه في سفره، وكان عبد الرحمن بن عوف تاجرا مجدودا في التجارة، وكسب مالا كثيرا، واجتمع له ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس بالبقيع، وكان يزرع في الجُرُف (٢) على عشرين ناضحا (٣) فكان يدخل عليه قوت أهله سنة. وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: دخل علينا عبد الرحمن بن عوف فقال: يا أمَّه، قد خشيت أن يهلكني كثرة مالي، أنا أكثر قريش كلهم مالا، قالت: يا بني، تصدق، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أصحابي من لا يراني بعد أن أفارقه، فخرج عبد الرحمن فلقي عمر رضي الله تعالى عنهما فأخبره بما قالت أم سلمة، فجاء عمر ودخل عليها فقال: بالله منهم أنا؟ قالت: لا، ولن أقول لأحد بعدك! توفي عبد الرحمن بن عوف بالمدينة سنة إحدى وثلاثين، وقيل سنة اثنتين وثلاثين، وهو ابن خمس وسبعين سنة، وروى عنه أنه في يوم واحد أعتق ثلاثين عبدا.

---

(١) الطيلسان: نوع من الأكسية [الطهطاوي].

(٢) الذي هو محل على ميل من المدينة. [الطهطاوي].

(٣) الناضح، معناه هنا: البعير يستقى عليه.

الفصل السابع

(فى صاحب الثقل وهو متاع المسافر وحشمه)

كان يتولى ذلك فى عهد رسول الله ﷺ كركرة، مولى النبى ﷺ، فقد روى البخارى رحمه الله تعالى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: كان على ثَقَل [1] النبى ﷺ رجل يقال له كركرة، فمات، فقال ﷺ هو فى النار، فذهبوا ينظرون فوجدوا عباءة غَلَّها.

وكان أيضا على ثَقَل النبى ﷺ أبو رافع رضى الله عنه، مولى النبى ﷺ، كان قبطيًا وأسلم قبل بدر ولم يشهدها لأنه كان مقيمًا بمكة، وشهد أحُدًا والخندق وما بعدهما من المشاهد، قيل كان للعباس رضى الله تعالى عنه فوهبه للنبى ﷺ، فلما أسلم العباس بشر أبو رافع بإسلامه النبى ﷺ فأعتقه وزوجه سلمى مولاته، فولدت له عبد عبد الله بن أبى رافع، الذى كان خازنًا وكاتبًا لعلى كرم الله وجهه، وقد روى مسلم عن قتيبة عن أبى رافع، وكان على ثقل النبى ﷺ، قال: لم يأمرنى رسول الله ﷺ أن أنزل بالأبطح حين خرج من منًى، ولكنى جئت فضربت قبته، فجاء فنزل، قال أبو محمد بن حزم فى كتابه، فى حجة الوداع: وقد كان رسول الله ﷺ قال لأسامة بن زيد إنه ينزل غدًا بالمحصب خيف بنى كنانة، وهو المكان الذى ضرب فيه أبو رافع قبته، وفاقًا من الله عز وجل دون أن يأمره

---

(١) بفتح الثاء والقاف. [الطهطاوى].

ﷺ بذلك، وروى البخارى رحمه الله تعالى عن أسامة بن زيد رضى الله تعالى عنهما قال: قلت: يا رسول الله، أين تنزل غداً؟ فقال: وهل ترك لنا عقيل منزلاً، ثم قال: نحن نازلون غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة المحصب حيث قاسمت قريش على الكفر.

وأبو أسامة هو زيد بن حارثة بن شراحيل، كان سباء فى الجاهلية فاشتراه حكيم بن حزام لخديجة بنت خويلد رضى الله عنها فوهبته لرسول الله ﷺ، فتبناه بمكة قبل النبوة وهو ابن ثمان سنين، وكان رسول الله ﷺ أكبر منه بعشر سنين وقيل بعشرين سنة، وطاف به حين تبناه على حلق قريش يقول: هذا بُنَىّ وارثًا وموروثًا، يشهدهم على ذلك، وقال عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، حتى نزلت ﴿ **ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ** ﴾ (الأحزاب: ٥) وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: خرجت سعدى بنت ثعلبة، أم زيد بن حارثة، وهى امرأة من طيء، تزور قومها، وزيد معها، فأغارت خيل لبنى القين فى الجاهلية فمروا على أبيات بنى معن رهط أم زيد فاحتملوا زيداً وهو يومئذ غلام يَفَعَة، فوافوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد رضى الله عنها بأربعمائة درهم، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له، وقال أبوه حارثة بن شراحيل حين فقده أبياتا، وقد ذكرناها عند عد زيد فى مواليه ﷺ فى (الفصل الرابع) من (الباب الخامس) من (المقالة الخامسه) من (الجزء الثانى [1]) وآخر الأبيات هناك:

سأوصى به قيسًا وعمراً كليهما ... وأوصى يزيداً ثم من بعده جبل

يعنى جَبَلَة بن حارثة، أخا زيد، وكان أكبر من زيد، ويزيد كان أخا زيد لأمه، وهو يزيد بن كعب بن شراحيل، فحج ناس من كلب فرأوا زيداً، فعرفهم وعرفوه.

فقال لهم: أبلغوا أهلى هذه الأبيات، فإنى أعلم أنهم قد جزعوا علىّ:

(١) انظرها فى هذا الجزء الرابع من هذه الأعمال.

أحن إلى قـومي وإن كـنت نائيًـا　　　فـإني قـعيـد البيت عند المشـاعـر

فكفوا عن الوجد الذي قد شجاكم　　　ولا تعملوا في الأرض نص الأباعر

فـإني بحـمـد الله في خـيـر أسـرة　　　كـرام مَـعَـدّ كـابراً بعـد كـابر

وقد سبق ذكر هذه الأبيات أيضًا، فانطلق الكلبيون فأعلموا أباه، وبقية سيرته في الفصل السابق المذكور.

الفصل الثامن

(فى مواد المحاصرات، كالمنجنيق والدبابات والخنادق)

المَنْجَنيق [1]: وهو الذى ترمى به الحجارة، وبعض العرب يسميه المنجنوق، قال ابن إسحاق: حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف بضعًا وعشرين ليلة ورماهم بالمنجنيق، والطائف وادى وج على يومين من مكة بنى به بعض العرب حائطًا يطيف به وقاية من إغارة العرب، قال أمية بن الصلت:

نحن بنينا طائفًا حصينا   نقارع الأبطال عن بنينا

وقال ابن الأثير فى كتابه [الكامل]: نصب رسول الله ﷺ منجنيقًا على أهل الطائف، أشار به سلمان الفارسى. انتهى.

فرسول الله ﷺ أول من رمى فى الإسلام بالمنجنيق على أهل الطائف.

وأما الدبابات، فواحدها دبابة، آلة من آلات الحرب يدخل فيها الرجال فيدبون إلى الأسوار لينقبوها، وهى بيت صغير يعمل من جلود الإبل والبقر، وأول دبابة صنعت فى الإسلام على الطائف حين حاصره رسول الله ﷺ قال ابن إسحاق، فى قصة حصار الطائف: حتى إذا كان يوم الشرخة عند جدار الطائف دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوها،

(١) بكسر الميم وفتحها. [الطهطاوى].

فأرسل عليهم ثقيف سكَك الحديد [1] محماة بالنار فخرجوا من تحتها فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالاً.

ومن مكايد الحرب قطع أشجار العدو وتحريقها، فقد روى مسلم عن نافع عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير، زاد بعض الرواة: فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الحشر: ٥). وقال ابن إسحاق في السِّيَر: أمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف فوقع الناس يقطعون.

وأما حفر الخندق، فقد ذكر ابن إسحاق، في السِّيَر، خبر اليهود الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، وأنه لما سمع بهم وبما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة، فعمل فيه بنفسه ترغيبًا للمسلمين في الأجر وعمل معه المسلمون، ويروى أنه ﷺ خط الخندق وقطع لكل عشرة أربعين ذراعًا، فاحتج المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه، وكان رجلا قويا، فقال المهاجرون: سلمان منا، وقال الأنصار: سلمان منا، فقال ﷺ: سلمان منا أهل البيت! قال ابن إسحاق وحدثت عن سلمان الفارسي قال: ضربت في ناحية من الخندق فغلظت عليَّ، وكان رسول الله ﷺ قريبًا مني، فلما رآني أضرب ورأى شدة المكان عليَّ نزل فأخذ المعْوَل [2] من يدي فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب به الثانية فلمعَت تحته برقة أخرى، ثم ضرب الثالثة فلمعت برقة أخرى، فقلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: أو قد رأيت ذلك يا سلمان؟! قلت نعم، قال: أما الأولى فإن الله فتح عَليَّ بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح عَليَّ بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق! وروى النسائي عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحفر الخندق، وعرض لنا فيه حجر لا يأخذ فيه المعول، فاشتكينا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فألقى ثوبه

---

(١) قطع الحديد كسكة المحراث محددة. [الطهطاوي].

(٢) أي الفأس الذي يكسر به الحجارة. [الطهطاوي].

وأخذ المعول وقال: بسم الله، فضرب ضربة فكسر ثلث الصخرة، قال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إنى لأبصر قصورها الحمر الآن مكانى هذا، ثم ضرب أخرى، وكبر ثلاثًا أخر، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن، ثم ضرب ثالثة وقال: بسم الله، فقطع الحجر، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنى لأبصر صنعاء. وقد تقدم ذلك فى غزوة الخندق.

قال ابن إسحاق: وأقبل فوارس من قريشَ تعنَق [1] بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: والله إن هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها! قال ابن هشام: إن سلمان رضى الله عنه أشار به على رسول الله ﷺ انتهى.

وأول من ضرب الخندق في الإسلام رسول الله ﷺ على المدينة.

(١) أى تسير بهم سيراً سريعا.

الفصل التاسع

(فى صاحب المغانم)

قد سبق فى (الفصل الثانى) من (الباب السابع) الكلام على فئ خيبر وقسمته، والآن نذكر المغانم ومن كان عليها فى بعض الغزوات، كان على غنائم النبى ﷺ أبو اليسر كعب بن عمرو بن زيد الأنصارى، ويروى أنه كان عليها أيضًا يوم خيبر، فقد قال عبد الله بن مغفَّل المزنى رضى الله تعالى عنه: أصبت فى فئ خيبر جراب شحم فاحتملته على عنقى إلى رحلى وأصحابى، فلقينى صاحب المغانم الذى جعل عليها فأخذ بناحيته وقال: هلم هذا، حتى نقسمه بين المسلمين، قلت: لا والله لا أعطيكه، فجعل يجاذبنى الجراب، فرآنا رسول الله ﷺ ونحن نصنع ذلك فتبسم ضاحكًا، ثم قال لصاحب المغانم: لا أبا لك! خل بينه وبينه، قال: فأرسله، فانطلقت به إلى رحلى وأصحابى، فأكلناه. انتهى. ولم يذكر هنا اسم صاحب المغانم، وإنما روى عن وهب ابن منبه [1] بسند عن رجل من قريش قال: لما حاصر رسول الله ﷺ خيبر جاع بعض الناس فافتتحوا حصنًا من حصونها، فأخذ رجل من المسلمين جراب شحم، فبصر به صاحب المغانم، وهو كعب بن عمرو بن

---

(١) أبو عبد الله وهب بن منبه (٦٥٤ - ٧٣٢ م) مؤرخ تحفل رواياته بالأساطير والرواية عن الأقدمين، وخاصة القصص الإسرائيلية، وهو يمنى ولد ومات بصنعاء وتولى قضاءها على عهد عمر بن عبد العزيز. ومن مؤلفاته (قصص الأنبياء) و(قصص الأخبار) و(ذكر الملوك المتوجة من حمير، وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم). . ولقد قيل إن وهب بن منبه قد دعا إلى فكر الاختيار وحرية الإنسان، ضد الجبر والجبرية، ثم رجع إلى هذا المذهب.

زيد الأنصاري، فأخذه منه، فقال النبي ﷺ :خل بينه وبين جرابه، فذهب به إلى أصحابه. انتهى. فقد صرح ابن وهب أنه كان على المغانم يوم خيبر أبو اليسر كعب بن عمرو بن زيد الأنصاري.

وممن كان على المغانم أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي، وهو والد معاوية ويزيد وعتبة وإخواتهم، وكان من أشراف قريش في الجاهلية، أسلم يوم الفتح، وفي حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما أتى به العباس، وقد أردفه خلفه، يوم الفتح إلى رسول الله ﷺ، وسأله أن يؤمنه، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان! أما تعلم لا إله إلا الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك، والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئًا! فقال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك، أما هذه ففي نفسي منها شيء! فقال له العباس رضي الله تعالى عنه: ويلك! اشهد شهادة الحق قبل أن تضرب عنقك! فشهد، وأسلم، وشهد مع رسول الله ﷺ حنينًا مسلمًا، وأعطاه من غنائمها مائة بعير وأربعين أوقية وزنها له بلال رضي الله تعالى عنه. انتهى.

واختلف في حسن إسلامه، فطائفة تروي أنه لما أسلم حسن إسلامه، وروي عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: رأيت أبا سفيان يوم اليرموك، وهو تحت راية ابنه، يقاتل ويقول: يا نصر الله اقترب، وطائفة تروي أنه كان كهفًا للمنافقين منذ أسلم، وكان في الجاهلية ينسب إلى الزندقة، وروي عن الحسن أن أبا سفيان دخل على عثمان رضي الله تعالى عنه حين صارت الخلافة إليه فقال: صارت إليكم بعد تَيْم وعديّ، فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية، فإنما هو الملك، وما أدري ما جَنّة ولا نَار! فصاح به عثمان: قم عني، فعل الله بك وفعل! قال أبو عمر بن عبد البر: وله أخبار من نحو ذلك رديئة ذكرها أهل الأخبار. وحديث سعيد بن المسيب يدل على صحة إسلامه.

والذي روى أن النبي ﷺ جعل أبا سفيان على المغانم هو سعيد بن المسيب حيث قال: إن النبي ﷺ سبى يومئذ ستة آلاف بين امرأة وغلام، فجعل رسول

الله ﷺ أبا سفيان بن حرب وقال القاضى محمد بن سلامة القضاعى فى (كتاب الأنباء) : كان بها من السبايا ستة آلاف ومن الإبل والغنم ما لا يدرى عدده ، وذكر ابن حزم فى (الجماهر) : أن رسول الله ﷺ استعمل أبا الجهم بن حذيفة بن غانم القرشى على النَّفَل [1] يوم حنين ، وذكر ابن الأثير فى (الكامل) فى أخبار يوم حنين : أن رسول الله ﷺ أمر بالسبايا والأموال فجمعت إلى الجعرانة [2] وجعل عليها بديل بن ورقاء الخزاعى . انتهى .

وبالجعرانة قسم رسول الله ﷺ هذه الغنائم وقال ابن إسحاق فى السير كان على المغانم يوم حنين مسعود بن عمر والقارى وأمر رسول الله ﷺ أن تحبس السبايا والأموال بالجعرانة . انتهى . فقد وقع اختلاف بين أرباب السير فى صاحب الغنائم يوم حنين ، قال أبو عمر [3] : وذكر البخارى بسنده عن بديل بن ورقاء أن النبى ﷺ أمره أن يحبس السبايا والأموال بالجعرانة حتى يقدم عليه ، ففعل . انتهى . ولعل كلاً ممن ذكر تولى ولاية صاحب المغانم .

ومثل صاحب المغانم متولى بيع ما احتيج إلى بيعه منها ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ فى رواية عن مالك ، رضى الله تعالى عنه ، قال : أمر رسول الله ﷺ السعدين يوم خيبر أن يبيعا آنية من المغانم من ذهب أو فضة ، فباعا كل ثلاثة بأربعة عينًا ، أو كل أربعة بثلاثة عينًا ، فقال لهما رسول الله ﷺ : أربيتما فردًا والسعدان هما سعد بن أبى وقاص ، وسعد بن عبادة رضى الله تعالى عنهما ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن لا يبيعا إلا مثلاً بمثل .

---

(١) بفتح الفاء ، أى الغنيمة ، وجمعه الأنفال . [الطهطاوى] .

(٢) وهى ما بين الطائف ومكة . [الطهطاوى] .

(٣) فى الأصل : أبو عمرو .

الفصل العاشر

(فى البشير الذى يبعث للبشارة بالفتح)

قال ابن إسحاق ، فى أخبار يوم بدر : ثم بعث رسول الله ﷺ عند الفتح عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية بما فتح الله على رسوله وعلى المسلمين ، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة ـ والعالية ما كان من جهة نجد من المدينة من قراها وعمائرها ـ والسافلة ما كان من القرى والعمائر من جهة تهامة ـ قال بن إسحاق : ثم أقبل رسول الله ﷺ قافلاً إلى المدينة حتى إذا كان بالَروحاء [1] لقية المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين .

(١) مكان بينه وبين المدينة أربعون ميلا . [الطهطاوى] .

الفصل الحادى عشر

(فى ذكر ما استعمل من السفن فى زمن رسول الله ﷺ وفى إخبار النبى ﷺ أن ناساً من أمته يركبون البحر غزاة فى سبيل الله)

السفن التى كانت مستعملة فى زمنه ﷺ منها سفينة جعفر بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ومنها سفينة الأشعريين، وهاتان السفينتان مغنمتان، ومنها سفن غير مغنمة، فأما سفينة جعفر بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فقال الواقدى: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى رضى الله تعالى عنه فى سنة ست إلى النجاشى يدعوه إلى الإسلام، فأسلم النجاشى، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأرسل إليه رسول الله ﷺ أن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ويبعث بها إليه ويحمل من عنده من المسلمين ففعل. انتهى.

قال ابن إسحاق فى السِّيَر: كان من أقام بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ حتى بعث فيهم رسول الله ﷺ إلى النجاشى عمرو بن أمية الضمرى وحملهم فى سفينتين فقدم عليه بهم، وهو بخيبر بعد الحديبية، ستة عشر رجلا منهم جعفر بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه، وسماهم وذكر معهم من أبنائهم ونسائهم عشرة، قال: وقد كان حمل معهم النجاشى فى السفينتين نساء من هلك هنالك من المسلمين.

وعن الشعبى أن جعفر بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قدم على رسول الله

ﷺ يوم فتح خيبر، فقبّله رسول الله ﷺ بين عينيه والتزمه، وقال: ما أدرى بأيهما أنا أسر، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟، وروى البخارى رحمة الله تعالى عن أبى موسى الأشعرى قال: بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه، أنا وأخوان لى أنا أصغرهما، أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم، إما قال: فى بضع، وإما قال: فى ثلاث وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومى، فركبنا السفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبى طالب وأصحابه عنده، فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا ههنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعًا فوافقنا النبى ﷺ حين افتتح خيبر، فأسهم لنا، أو قال: فأعطانا منها، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئًا إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه فسهم له معهم. انتهى.

وقال ابن سعد عن الواقدى بأسانيده: وكان أول رسول بعثه رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى، وكتب إليه كتابين يدعوه فى أحدهما إلى الإسلام ويتلو عليه القرآن، فأخذ كتاب رسول الله ﷺ فوضعه على عينيه ونزل عن سريره إلى الأرض تواضعا، ثم أسلم وشهد شهادة الحق، وقال: لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته، وكتب إلى رسول الله ﷺ بإجابته وتصديقه وإسلامه على يدى جعفر بن أبى طالب، وفى الكتاب الآخر يأمره أن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب، وكانت قد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدى فتنصر هناك ومات، وأمره رسول الله ﷺ فى الكتاب أن يبعث إليه بمن قبله من أصحابه، ويحملهم، ففعل، وزوّجه أم حبيبة وأصدقها عنه أربعمائة دينار، وأمر بجهاز المسلمين بما يصلحهم، وحملهم فى سفينتين مع عمرو بن أمية، ودعا بحُقّ من عاج فجعل فيه كتاب رسول الله ﷺ، وقال: لن تزال الحبشة بخير ما كان هذان الكتابان بين أظهرها. ولما بلغه وقعة بدر سر وقعد على الأرض وعليه خلقان، وبعث إلى جعفر وقال: نصر الله محمداً ببدر، وإنما جلست على الأرض ولبست الخلقان لأن فى الإنجيل أن على العباد حقًا أن يحدثوا الله تواضعًا

عندما يحدث بهم من النعم، وروى أنه لما قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ كان يخدمهم بنفسه، فقال له أصحابه: نحن نكفيك، فقال: إنهم كانوا يكرمون أصحابي، فأحب أن أكافئهم. وقد تقدم ذلك.

وأما السفن غير المغنمة، فروى مالك رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ من ماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: هو الطهور ماؤه الحل ميتته.

وأما إخبار النبي ﷺ أن ناسًا من أمته يركبون البحر غزاة في سبيل الله، فقد روى مالك في (الموطأ) عن إسحاق بن عبد الله رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب إلى قباء يدخل على أم حرام بنت ملحان [1] رضي الله تعالى عنها فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه، فدخل عليها رسول الله ﷺ يوما فأطعمته وجعلت تفلي رأسه، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر [2] ملوكًا على الأسرة - أو مثل الملوك على الأسرة يشك إسحاق - قالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ يضحك، فقلت: يا رسول الله، ما يضحكك؟ قال: ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرة - أو مثل الملوك على الأسرة - كما قال في الأولى، فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت من الأولين، قالت: فركبت البحر في زمن معاوية بن أبي سفيان فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فقربت إليها دابة لتركبها فصرعتها فماتت فدفنت في موضعها ذلك، في إمارة معاوية وخلافة عثمان رضي الله

(١) وهي إحدى خالات رسول الله ﷺ من الرضاعة، كما قال ابن وهب، وقال غيره: كانت خالة لأبي النبي ﷺ أو لجده، لأن أم عبد المطلب كانت من بني النجار. [الطهطاوي].

(٢) أي ظهره. [الطهطاوي].

عنهم، ويقال إن معاوية غزا تلك الغزاة بنفسه ومعه امرأته فاختته بنت قرظة. انتهى.

فأول من ركب البحر غازيًا فى سبيل الله أهل هذه السفينة التى ركبت فيها أم حرام، لقول رسول الله ﷺ لها: أنت من الأولين، والتبشير بذلك من معجزات النبوة. فمن بعده ﷺ صارت الغزوات البحرية وسيلة عظيمة لفتح الجزائر والبلاد البعيدة وسائر الثغور البحرية.

الباب التاسع

[في العمالات الجِبائيَّة
وفيه فصول]

الفصل الأول

(فى صاحب الجزية وصاحب الأعشار والترجمان ومستوفى خراج الأرضين وصاحب المساحة والعامل على الزكاة والصدقات والخارص)

قال الشافعى رضى الله تعالى عنه : صالح رسول الله ﷺ نصارى نجران على الجزية ، وفيهم عرب وعجم ، وصالح ذمة اليمن على الجزية ، وفيهم عرب وعجم ، وذكر ابن عبد البر فى التمهيد عن ابن شهاب قال : أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب أهل نجران ، وكانوا نصارى ، ثم قبل رسول الله ﷺ الجزية من أهل البحرين ، وكانوا مجوسًا ، والجزية ما يؤخذ من أهل الذمة من الخراج المجعول على رؤوسهم .

وأما من تولى الجزية فى زمن رسول الله ﷺ فمنهم أبو عبيدة بن الجراح القرشى ، فقد روى عن عبد الله بن مسعود أن العاقب والسيد صاحبى نجران أتيا رسول الله ﷺ فأرادا أن يلاعناه ، فقال أحدهما : لا نلاعنه ، والله لئن كان نبيًا ولاعناه لا نفلح ولا عقبنا من بعدنا ، ثم قالا له : نعطيك ما سألت ، فابعث معنا رجلاً أمينًا حق أمين ، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ : قم يا أبا عبيدة بن الجراح ، فلما مضى قال : أمين هذه الأمة .

وذكر ابن عطية أن أهل نجران لما أبوا أن يبايعوه ﷺ قال لهم : أسلموا ، فإن أبيتم فأعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، فإن أبيتم فإنى قد أنبذ إليكم على سواء ، فقالوا : لا طاقة لنا بحرب ، ولكنا نؤدى الجزية . قال : فجعل عليهم فى كل

سنة ألفي حله، ألفًا في رجب، وألفًا في صفر، وطلبوا منه رجلاً أمينًا يحكم بينهم فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح رضى الله تعالى عنه. وروى البخارى عن عمرو ابن عوف الأنصارى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتى بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ صالح أهل البحرين وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمى، فقدم أبو عبيدة بمال البحرين عليهم.

وممن تولى الجزية فى زمنه ﷺ معاذ بن جبل الأنصارى، فقد روى أبو داود عن معاذ رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ لما وجهه إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم [1] ديناراً أو عدله من المعافر [2].

وأما صاحب الأعشار، وهى العشور التى تؤخذ من أهل الذمة إذا نزلوا بنا تجاراً على ذمة وعهد وصولحوا عليه، فقد روى أبو داود فى ذلك عن حرب عن عبد الله بن عمير الثقفى عن جده، رجل من بنى ثعلب، قال: أتيت النبى ﷺ فأسلمت وعلمنى الإسلام، وعلمنى كيف آخذ الصدقة [3] من قومى ممن أسلم، ثم رجعت إليه فقلت: يا رسول الله، كل ما علمتنى قد حفظت إلا الصدقة، أفأعَشّرهم؟ قال: لا، إنما العُشْر على اليهود والنصارى.

وقد تولى الأعشار فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه السائب بن يزيد وعبد الله بن عتبة، فقد روى الزهرى فى مسنده عن السائب بن يزيد رضى الله تعالى عنه قال: كنت عاملا مع عبد الله بن عتبة على سوق المدينة فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فكنا نأخذ من النَّبَط [4] العُشْر، وعن السائب أيضًا، قال: كنت أعَشّر اليهود والنصارى، وخرجه مالك عنه فى [موطأه] بنصه.

وأما حكم ما يجلبه الحربيون إذا دخلوا بالأمان وحكم ما يجلبه أهل الذمة من الخمر والخنزير فقد قال أبو عمر بن عبد البر فى كتابه [الكافى] فى باب حكم أهل

---

(١) يعنى محتلمًا. [الطهطاوى].

(٢) أى الثياب اليمنية المنسوبة إلى قرية باليمن تسمى معافر ـ بفتح الميم ـ [الطهطاوى].

(٣) أى الزكاة. [الطهطاوى].

(٤) النبط فى الأصل قوم من العجم كانوا ينزلون بين العراقين، ثم استعمل اللفظ للدلالة على أخلاط الناس وعوامهم.

الحرب إذ دخلوا إلينا بأمان : لا يتعرض لهم فى بيع الخنزير والخمر من أهل الذمة ويؤخذ منهم عشر ثمن ذلك كله . انتهى . وقال أبو محمد عبد الله بن نجم بن شاس فى [الجواهر] فى كتاب عقد الذمة منه : إذا اتجر أهل الذمة بالخمر وما يحرم علينا فروى ابن نافع أنهم يتركون حتى يبيعوه فيؤخذ منهم عُشْر الثمن ، وإن خيف من خيانتهم جعل معهم أمين ، قال ابن نافع : وذلك إذا جلبوه إلى أهل الذمة إلى أمصار المسلمين التى لا ذمة فيها ، وذكر ابن حبيب فى الحربيين ومعهم خمر وخنزير أن الوالى يريق الخمر ويقتل الخنزير ، ولا يجوز للإمام إنزالهم بإبقاء ذلك فى أيديهم .

ثم إن العاشر قد يكون ترجمانًا يعرف ألسن المأخوذ منهم العشور ، وقد تقدم ذلك فى (الفصل الرابع) من (الباب السادس) ، فالترجمان هو الذى يترجم عن أهل الذمة فيما يعرض لهم وعليهم من المعاملات والحقوق ، وقد روى أشهب عن مالك أنه يجوز ترجمة رجل واحد ثقة ، قال : واثنان أحب إلىّ فى ذلك من الواحد ، وقال مالك أيضًا : ولا بأس أن تقبل ترجمة امرأة عدل ، وقيده بعض أصحابه : إذا لم يوجد من الرجال من يترجم ، وقال سحنون ، من أصحاب مالك : لا تقبل ترجمة النساء ، ولا ترجمة رجل واحد ، ولا ترجمة من لا تجوز شهادته ، وقال ابن رشد : لا تقبل ترجمة من ذكر ، يعنى مع وجود العدول المرضيين ، وإلا عمل بقولهم وحكم به ، كما يحكم بقول الطبيب النصرانى وغير العدل فيما يضطر فيه إلى قوله من جهة معرفته بالطب ، قيل وأجاز أبو حنيفة وأبو يوسف ترجمة رجل واحد وامرأة واحدة ، ولا تقبل من عبد ، كقول مالك ، ونقل عن محمد بن الحسن أن الترجمة لا تقبل إلا من رجلين أو رجل وامرأتين حيث هى بمنزلة الشهادة ، فلا يقوم بذلك إلا من تقبل شهادته ، لأن القاضى إذا لم يكن يعلم ما يتكلم به الخصم فكأنه لم يسمعه ، ومذهب الشافعى أنه لا بد من اثنين عدلين يعرفان ذلك اللسان ، لا يشكان فيه ، لأن ذلك مقام الشهادة ، وفى ترجمة زيد بن ثابت وحده للنبى ﷺ حجة لمن اكتفى بالواحد .

وأما مستوفى خراج الأراضى ، فأول من تولى النظر فى خراج الأرض سواد بن غزيّة الأنصارى ، فقد روى عن سعيد بن المسيب أن أبا سعيد وأبا هريرة رضى الله

تعالى عنهما حدثاه أن رسول الله ﷺ بعث سواد بن غزّية أخا بنى عدى الأنصارى، وأمّره على خيبر، فقدم عليه بتمر جنيب [1]، فقال له رسول الله ﷺ : أكُل تمر خيبر هكذا ؟ قال: لا والله يا رسول الله، إنا لنشترى الصاع بالصاعين، والصاعين بالثلاثة آصع من الجمع [2] فقال النبى ﷺ : لا تفعل، ولكن بع هذا واشتر من هذا .

وسواد بن غزيّة مذكور فيمن شهد بدرًا والمشاهد بعدها، من بنى عدى بن النجار .

وأما صاحب المساحة، فلم يتول أحد هذه الخطة إلا من زمن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقد روى أبو عبيد أن عمر بن الخطاب بعث عمار بن ياسر إلى أهل الكوفة على صلاتهم وجيوشهم، وعبد الله بن مسعود على قضائهم وبيت مالهم، وعثمان بن حُنَيْف [3] الأنصارى على مساحة الأرض ثم فرض لهم فى كل يوم شاة بينهم، أو قال: جعل لهم فى كل يوم شاة شَطْرها وسواقطها لعمار، والشطر الآخر بين هذين، ثم قال: ما أرى قرية يؤخذ منها كل يوم شاة إلاكان سريعًا فى خرابها . قال أبو عبيدة فمسح عثمان بن حنيف الأرض، فجعل على جريب الكرم عشرة دراهم، وعلى جريب النخل خمسة دراهم، وعلى جريب القضب [4] ستة دراهم، وعلى جريب البُرّ أربعة دراهم، وعلى جريب الشعير درهمين، وجعل على أهل الذمة فى أموالهم الذى يختلفون بها [5] فى كل عشرين درهما درهما، وجعل على رقابهم أربعة وعشرين كل سنة، وعطل الصبيان والنساء من ذلك ثم كتب بذلك إلى عمر فأجازه ورضى به ثم عمل لعلىّ رضى الله تعالى عنه أيضًا حيث ولاه البصرة فأخرجه طلحة والزبير رضى الله تعالى عنهما حين قدما البصرة، ثم قدم علىّ فكانت وقعة الجمل، فلما خرج علىّ من البصرة ولاها عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

---

(١) أى طيب . [الطهطاوى] .

(٢) أى ردىء التمر . [الطهطاوى] .

(٣) بصيغة التصغير . [الطهطاوى] .

(٤) أى الرطب . [الطهطاوى] .

(٥) أى يتعاملون بها، ويتخذون من بعضها عوضًا عن بعض .

وقد ذكر العلماء بالخبر والأثر أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه استشار الصحابة رضى الله عنهم فى رجل يوجهه إلى العراق فأجمعوا جميعًا على عثمان بن حنيف، وقالوا: لن تبعثه إلى أهم من ذلك، فإن له بصرًا وعقلاً ومعرفة وتجربة، فأسرع عمر إليه فولاه مساحة أرض العراق، فضرب عثمان على كل جريب من الأرض يناله الماء عامرًا أو غامرًا، درهمًا وقفيزًا، فبلغت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مائة ألف ونيفًا.

وأما من ولى العمل على الصدقات فى زمن النبى ﷺ فكثير، وكان يكتب لمتولى الصدقة بولايتها، روى أبو داود عن سويد بن غفلة رضى الله تعالى عنه: أتانا مصدق النبى ﷺ فأخذت بيده وقرأت فى عهده: «لا يجمع بين مفترق، ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة».

وذكر ابن إسحاق رحمه الله تعالى فى السيرة أن رسول الله ﷺ كان يبعث أمراءه وعماله على الصدقات إلى كل ما أوطأ الإسلام من البلدان. وفى [الاكتفاء] لأبى الربيع بن سالم أن رسول الله ﷺ لما صدر من الحج سنة عشر، وقدم المدينة فأقام فيها حتى رأى هلال المحرم سنة إحدى عشرة، وبعث المصدقين فى العرب.

وقد اقتصر أغلب أصحاب السِّير على ذكر بعض من ولى ذلك من كبار الصحابة المشاهير، رضى الله عنهم، فمنهم من قريش عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، خَرَّج مسلم رحمه الله تعالى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: بعث رسول الله ﷺ عمر على الصدقة، فقيل منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس عم رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيرًا فأغناه الله وأما خالد فإنكم تظلمون خالدًا، قد احتبس أدراعه واعتاده [1]، وأما العباس فهى عَلَىّ ومثلها معها، ثم قال: يا عمر، أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه؟!

وممن تولى على الصدقات خالد بن سعيد بن العاص، رضى الله عنه، قال ابن قتيبة فى [المعارف] استعمل رسول الله ﷺ خالد بن سعيد بن العاص على

(١) أى ما أعده من السلاح وآلات الحرب فى سبيل الله. [الطهطاوى].

صدقات بنى زبيد، فصار إليه الصمصامة سيف عمرو بن معدى كرب، فلم يزل عند آل سعيد بن العاص حتى اشتراه المهدى منهم بعشرين ألف درهم. وقال ابن إسحاق فى السِّير: قدم فروة بن مُسَيك المرادى على رسول الله ﷺ مفارقًا لملوك كندة ومباعدًا لهم، واستعمله رسول الله ﷺ على مراد وزبيد ومزحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص رضى الله تعالى عنه على الصدقة، فكان معه فى بلاده حتى توفى رسول الله ﷺ.

وممن تولى الصدقة من الأنصار معاذ بن جبل، رضى الله تعالى عنه، روى الترمذى رحمه الله تعالى عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن فأمر أن آخذ من كل ثلاثين بقرة تبيعًا أو تبيعة، ومن كل أربعين مسنة [1]، ومن كل حالم دينارا أو عِدْلَهَ معافرًا. انتهى.

وممن تولى الصدقة أُبَىّ بن كعب رضى الله عنه، قال: بعثنى رسول الله ﷺ مصدقًا. وممن تولى الصدقة من طيء عدى بن حاتم الطائى رضى الله تعالى عنه، قال: أتيت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، فقال، إن أول صدقة بيضت وجه رسول الله ﷺ ووجوه أصحابه صدقة طيّ، جئت بها إلى رسول الله ﷺ. وممن تولى الصدقة من بنى تميم الزِّبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم التميميان رضى الله تعالى عنهما، قال ابن إسحاق: فرق رسول الله ﷺ صدقة بنى سعد على رجلين منهم، فبعث الزِّبرقان بن بدر على ناحية منها، وقيس بن عاصم على ناحية. انتهى.

وقال ابن قتيبة: استعمال رسول الله ﷺ الزِّبرقان بن بدر على صدقات قومه، وتوفى النبى فذهب بالصدقة إلى أبى بكر رضى الله عنه، وهى سبعمائة بعير. انتهى.

وقال بعضهم وفد الزِّبرقان على رسول الله ﷺ سنة تسع، فولاه صدقات

(١) التبيعة مؤنثة التبيع، وهو العجل الذى أوفى سنتين، والمسنة هى التى أوفت ثلاث سنين.

قومه، وأقره أبو بكر على ذلك، ويقال إنه أنشد في هذا اليوم بين يدي رسول ﷺ مفاخرا، قوله:

نحن الملوك فلا حيٌّ يقاربنا فينا العلاء وفينا تنصب البيع

ونحن نطعمهم في القحط ما أكلوا من العبيط إذا لم يونس القزع

وننحر الكوم عبطًا في أرومتنا للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا

تلك المكارم حزناها مقارعة إذا الكرام على أمثالها اقترعوا

فأجابه عنها حسان وأحسن الجواب، وقد سبق في (الفصل الرابع) من (الباب السادس[1]).

وكذلك قيس بن عاصم التميمي، قدم في وفد تميم على رسول الله ﷺ، فأسلم، وذلك في سنة تسع، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: سيد أهل الوبر، وكان عاقلا حليما مشهورا بالحلم. وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم، فإني رأيته يومًا قاعدًا بفناء داره محتبيًا بحمائل سيفه حتى أتى برجل مكتوف وآخر مقتول فقيل له: هذا ابن أخيك قتل ابنك، فوالله ما حل حبوته ولا قطع كلامه، فلما أتمه التفت إلى ابن أخيه فقال: يا ابن أخي، بئس ما فعلت، أثمت بربك، وقطعت رحمك، وقتلت ابن عمك، ورميت نفسك بسهمك، ثم قال لابن له آخر: قم يا بني فوار أخا، وحل كتاف ابن عمك، وسق إلى أمك ناقة دية ابنها.

وكان قيس بن عاصم رضي الله تعالى عنه قد حرم الخمر على نفسه في الجاهلية، وقال في ذلك أشعارًا منها قوله:

رأيت الخمر صالحة وفيها خصال تفسد الرجل الحليما

فلا والله أشربها صحيحًا ولا أشفي بها أبدًا سقيما

ولا أعطي بها ثمنا حياتي ولا أدعو لها أبدًا نديما

فإن الخمر تفضح شاربيها وتجنيهم بها الأمر العظيما

(١) انظره في مكانه من هذا الجزء الرابع من هذه الأعمال الكاملة.. وهناك شرحنا المفردات المحتاجة إلى شرح في هذه الأبيات.

ولما حضر قيس بن عاصم الوفاة دعا بنيه فقال: يا بَنِيّ، احفظوا عنى فلا أحد أنصح لكم منى، إذا مت فسودوا كباركم ولا تسودوا صغاركم فيسفهى الناس كباركم [(١)]، وتهونوا عليهم، وعليكم بإصلاح المال، فإنه منبهة للكريم فيستغنى به عن اللئيم، وإياكم ومسألة الناس، فإنها آخر كسب المرء. انتهى. وهو يوافق حديث [المشارق]: المسألة آخر [(٢)] كسب الرجل وقال حكيم بن قيس بن عاصم: إن أباه أوصى عند موته فقال: إذا مت فلا تنوحوا علىّ، فإن رسول الله ﷺ لم يُنَح عليه. ورثاه عَبْدة بن الطبيب بقوله:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما

تحية من أوليته منك نعمة إذا زار عن شحط [(٣)] بلاداً وسلما

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وأما من كان يكتب أموال الصدقات لرسول الله ﷺ فمنهم الزبير بن العوام، وجهيم بن الصلت، وحذيفة بن اليمان، إلا أن جهيم وحذيفة كانا يكتبان إذا غاب الزبير أو اعتذر، وجهيم بن الصلت قرشى مُطّلبى، أسلم عام خيبر، وأعطاه رسول الله ﷺ من خيبر ثلاثين وسقا، وهو الذى رأى الرؤيا بالجُحفة حين سارت قريش إلى بدر، فقد ذكر ابن إسحاق فى غزوة بدر هذه الرؤيا، قال: لما نزلت قريش الجُحفة رأى جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب رؤيا فقال: إنى رأيت فيما يرى النائم، وإنى لبين النائم واليقظان إذ نظرت إلى رجل أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وفلان، وفلان، فعد رجالا ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش، ثم رأيته ضرب فى لبة [(٤)] بعيره ثم أرسله فى العسكر، فما بقى خباء من أخبية العسكر إلا

(١) أى يغفلونهم.

(٢) روى بالقصر والمد، فبالقصر معناها أرذله وأدناه، وبالمد الآخر ضد الأول.. أى ما دمتم تقدرون على معيشة من غير المسألة فلا تسألوا. [الطهطاوى].

(٣) أى عن بعد.

(٤) مكان السيور التى تمنع رحلها من الانحدار إلى الخلف.

أصابه نضح من دمه، قال فبلغت أبا جهل فقال: وهذا أيضًا نبى آخر من بنى المطلب! سيعلم غدًا من المقتول إن نحن التقينا.

وممن كان يكتب الصدقات فى زمن عمر رضى الله تعالى عنه عثمان بن عفان، قال ابن الأثير: قال نافع العبسى: دخلت حَيْر [1] الصدقة مع عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلىّ بن أبى طالب فجلس عثمان فى الظل يكتب، وعلىّ على رأسه يملى عليه ما يقول عمر، وعمر قائم فى الشمس فى يوم شديد الحر وعليه بردان أسودان قد ائتزر بأحدهما ولف الآخر على رأسه يَعُد إبل الصدقة ويكتب ألوانها وأثمانها، فقال علىّ لعثمان: يا أبتى استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين، ثم أشار علىّ بيده إلى عمر، فقال: هذا هو القوى الأمين! انتهى.

وأما الخارص [2]، فقد خَرَص النبى ﷺ حديقة لامرأة حين مر فى طريقه فى غزوة تبوك بوادى القرى، فقد روى مسلم عن أبى حميد رضى الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك، فأتينا وادى القرى على حديقة لامرأة، فقال رسول الله ﷺ: اخرصوا، فخرصناها وخرصها رسول الله ﷺ عشرة أوسق، وقال: احصها حتى نرجع إليك إن شاء الله تعالى، وانطلقنا حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله ﷺ: ستهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقم فيها أحد منكم فمن كان له بعير فليشد عقاله، فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلى طىء، وجاء رسول ابن العَلماء [3] صاحب أيلة إلى رسول الله ﷺ وأهدى له بردًا، ثم أقبلنا حتى قدمنا وادى القرى، فسأل رسول الله ﷺ عن حديقتها كم بلغ تمرها فقالت عشرة أوسق.

وممن خَرَص أرض الخراج فى زمن رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة، روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: عامل النبى ﷺ خيبر بشطر ما يخرج منها من زرع أو ثمر، فكان يعطى أزواجه مائة وسق، ثمانون وسقا تمرا وعشرون

---

(١) بفتح الحاء هو الحظيرة. [الطهطاوى].

(٢) هو الذى يقدر الثمار قبل جنيها.

(٣) بفتح العين ممدوداً. [الطهطاوى].

وسقا شعيرا. انتهى. فى [الموطأ] عن سعيد بن المسيب قال: فكان رسول الله ﷺ يبعث عبد الله بن رواحة فيخرص بينه وبينهم ثم يقول: إن شئتم فلكم وإن شئتم فلى، وعن سليمان بن يسار قال: فجمعوا له حليا من حلى نسائهم فقالوا: هذا لك وخفف عنا وتجاوز فى القَسْم، فقال عبد الله بن رواحة: يا معشر يهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلىّ، وما ذاك بحاملى على أن أحيف عليكم، فأما ما عرضتم من الرشوة فإنها سحت وإنا لا نأكلها، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض، قال ابن إسحاق: وإنما خَرَص عليهم عبد الله بن رواحة عاما واحدا، ثم أصيب بمؤتة رحمه الله تعالى، فكان جبار بن صخر بن أمية، أخو بنى سلمة، هو الذى يخرص عليهم بعد عبد الله بن رواحة، وكان جبار خارص أهل المدينة وحاسبهم. انتهى.

وروى عن سهل بن أبى حثْمة أن النبى ﷺ بعث أبا حثْمة خارصًا، فجاء رجل فقال لرسول الله ﷺ: إن أبا حثمة قد زاد علىّ فقال رسول الله ﷺ: إن ابن عمك يزعم أنك قد زدت عليه قال: يا رسول الله قد تركت له قدر عَرية [1] أهله وما يطعم المساكين وما تسقط الريح، قال: قد زادك ابن عمك وأنصفكَ. انتهى. وكان أبو بكر وعمر وعثمان، رضى الله عنهم، يبعثون أبا حثْمة خارصًا، وتوفى فى أول خلافة معاوية.

(١) والعرية: النخلة يعريها صاحبها رجلاً محتاجًا فيجعل له ثمرها عامها فيعروها أى يأتيها. [الطهطاوى].

الفصل الثانى

(فى الأوقــــاف)

وأما أوقاف النبى ﷺ ، فقد ذكر ابن يونس فى كتابه، عند ذكر الأحباس، قال: روى أن النبى ﷺ حبس سبع حوائط [1] أوصى له بها مُخَيْريق لما قتل يوم أحُد يضعها حيث أراد الله بحبسها، وهى من أموال بنى النضير، وذلك لاثنين وثلاثين شهراً من الهجرة. وفى السِّير لابن إسحاق: وكان ممن قتل يوم أُحُد مخيريق، وكان أحد بنى ثعلبة بن الفطْيَون [2]، قال: لما كان يوم أحد قال: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محَمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم سبت، قال: لا سبت لكم، فأخذ سيفه وعدته وقال: إن أصبت اليوم فمالى لمحمد يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قتل، فقال رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنا ـ: مخيريق خير يهود. انتهى.

فجعل رسول الله ﷺ حين انصرف ماله أوقافًا، وهو أول حبس، أى وقف، فى الإسلام. قيل إن مخيريق اليهودى أسلم يوم أحد، قال بعضهم: وكان حَبْراً من علماء بنى النضير فآمن برسول الله ﷺ يوم أُحد.

وقد اقتدى به ﷺ فى الوقف الخلفاء الراشدون ومن بعدهم، روى البخارى

---

(١) أى حدائق نخل. [الطهطاوى].

(٢) على وزن فرعون، معناه الملك. [الطهطاوى].

رحمه الله تعالى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: أصاب عمر بخيبر أرضًا، فأتى النبى ﷺ فقال: أصبت أرضًا لم أصب مالاً قط أنفس منها [1]، فكيف تأمرنى به ؟ قال: إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها، فتصدق بها عمر: أنه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث، فى الفقراء والقربى والرقاب وفى سبيل الله والضيف وابن السبيل، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقًا غير متمول فيه. انتهى.

وأضاف لها رضى الله تعالى عنه مواضع فى خلافته وقفها معها، وقدم على النظر فى جميعها حفصة بنته أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها، وكتب لها بذلك، ونص الكتاب ذكره أبو داود فى سننه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به عبد الله عمر أمير المؤمنين، إن حدث به حدث الموت، أن ثَمْغًا وصرمة بن الأكوع والعبد الذى فيه رماية السهم الذى بخيبر ورفيقه الذى فيه والسالة الذى أطعمه محمد ﷺ بالوادى، تليه حفصة ما عاشت، ثم توليه ذا الرأى من أهلها، أن لا يباع ولا يشترى، تنفقه حيث ترى من السائل والمحروم وذى القربى، ولا حرج عليه إن أكل أو آكل أو اشترى رقيقًا منه». انتهى.

وكذلك أوقاف علىّ رضى الله تعالى عنه، فهى معلومة، قال المبرد فى [الكامل]: قال أبو نيزر: جاءنى علىّ بن أبى طالب وأنا أقوم بالضيعتين عين أبى نيزر والبُغَيْبَغَة [2] فقال: هل عندك من طعام ؟ فقلت: طعام لا أرضاه لأمير المؤمنين، قرع من قرع الضيعة صنعته بأهالة سنخة [3]، فقال: عَلَىّ به، فقام إلى الربيع [4] فغسل يده، ثم أصاب من ذلك شيئًا، ثم رجع إلى الربيع فغسل يديه

---

(١) قال القاضى، رحمه الله تعالى، فى [المشارق]: واسم هذا المال ثمغ - بفتح الثاء وسكون الميم، وقد تفتح - قال: وقيده المهلب بفتح الميم. انتهى. [الطهطاوى].

(٢) بضم أولها، وفتح الغين، وياء مثناة ساكنة، ثم باء وغين مفتوحة، ماء لعلى بن أبى طالب، رضى الله عنه، بينبع. [الطهطاوى].

(٣) أى ودك زنخ. [الطهطاوى].

(٤) جدول، أى نهر صغير. [الطهطاوى].

بالرمل حتى أنقاهما، ثم ضم يديه كل واحدة منهما إلى أختها وشرب حسا [1] ثم قال: يا أبا نيزر، إن الأكف أنظف الآنية، ثم مسح كفيه على بطنه، فقال: من أدخل بطنه النار أبعده الله، ثم أخذ المعول وانحدر في العين وجعل يضرب، وأبطأ عليه الماء، فخرج وقد تنضح [2] جبينه عرقا، فانتكف العرق عن جبينه [3] ثم أخذ المعول فأخذ يضرب فيها وجعل يهمهم [4]، فانسالت كأنها عنق جزور، فخرج مسرعًا، فقال: أشهد الله أنها صدقة، عَلَيّ بداوة وصحيفة، فجئت بهما إليه، فكتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تصدق به عبد الله عليّ، أمير المؤمنين، تصدق بالضيعتين المعروفتين بعين أبي نيزر والبُغَيْبِغَة على فقراء أهل المدينة وابن السبيل، ليقي الله بهما وجهه حر النار يوم القيامة، ولا تباعا ولا تورثا حتى يرثهما الله وهو خير الوارثين، إلا أن يحتاج إليهما الحسن والحسين فهما طلق لهما [5]، ليس لأحد غيرهما».

فركب الحسين دين فحمل إليه معاوية بعين أبي نيزر مائتي ألف دينار فأبى أن يبيع، وقال: إنما تصدق بهما أبي ليقي الله بهما وجهه من النار. وذكر ابن فتحون: أن أبا نيزر كان من أبناء الملوك والأعاجم، وقال المبرد: صح عنه أنه من ولد النجاشي، رغب في الإسلام صغيرًا فأتى النبي ﷺ وكان معه في بيوته، فلما توفاه الله تعالى ﷺ صار مع فاطمة وولديها رضي الله تعالى عنهم، قال أبو نيزر: كنت أقوم لعلي رضي الله عنه بالضيعتين: عين أبي نيزر والبُغَيْبِغَة.

---

(١) جمع حسوة، يعني تجرع الماء جرعة بعد جرعة. [الطهطاوي].
(٢) أي رشح. [الطهطاوي].
(٣) أي نحاه بأصبعه. [الطهطاوي].
(٤) أي يردد الصوت. [الطهطاوي].
(٥) أي حلال لهما. [الطهطاوي].

الفصل الثالث

(فى صاحب المواريث، والمستوفى، والمشرف)

أما صاحب المواريث، فهو صاحب ديوان المواريث ببيت المال يأخذها إذا عدمت العصوبة والولاء، وعصبات ذى الولاء، فبيت المال، على بعض المذاهب، معدود من العصوبة، ويستغرق إذا لم يكن وارث، ويأخذ ما بقى من أصحاب الفروض إذا لم يكن للميت إلا ذو فرض.

ومحل توريث بيت مال المسلمين وحرمان ذوى الأرحام إذا كان بيت المال موضوعًا فى وجهه، فحينئذ لا يرث ذوو الأرحام ولا يرد على أهل السهام، بل يوضع فى ديوان المواريث فى بيت المال، قال بعض المؤرخين: وفى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين أمر المعتضد [1] برد الفاضل من سهام ذوى القربى على ذوى الأرحام، وأبطل ديوان المواريث، فصارت من ذلك الوقت تقسم المواريث على مستحقيها كما كانت تقسم فى عهده ﷺ، مع توريث ذوى الأرحام، فقد ورد عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الخال وارث من لا وارث له»، وروى الترمذى أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه

---

(١) والمعتضد ـ كما سيأتى ـ هو أبو العباس أحمد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب. بويع له لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين، وتوفى ببغداد لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين. [الطهطاوى].

أن رسول الله ﷺ قال: «الله ورسوله مولى من لا مولى له، والخال وارث من لا وارث له»، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، فلهذا ذهب أكثر أهل العلم إلى توريث ذوى الأرحام، وأما زيد بن ثابت فلم يورثهم، وجعل الميراث فى بيت المال.

وسيأتى الكلام على من تولى بيت المال فى عهده ﷺ وفى عهد الخلفاء فى (الفصل الأول) من (الباب العاشر)، وقد تقدم فى (الفصل الثانى) من (الباب السابع) من (المقال الخامسة) ذكر فارض المواريث.

وأما المستوفى فهو الرجل الذى يبعثه الإمام لقبض المال من العمال، ويستخلصه منهم، ويقدم به عليه، كما بعث ﷺ عليًا إلى اليمن ليستوفى من خالد بن الوليد، روى البخارى رحمه الله تعالى عن بريدة رضى الله تعالى عنه قال: بعث النبى ﷺ إلى خالد رضى الله تعالى عنه ليقبض الخُمس، وكنت أبغض عليًا، وقد اغتل، فقلت لخالد: ألا ترى إلى هذا؟! فلما قدمنا على النبى ﷺ ذكرت ذلك له، قال: يا بريدة، أتبغض عليًا؟ فقلت: نعم، فقال: لا تبغضه، فإن له فى الخُمس أكثر من ذلك. وقال ابن إسحاق فى السِّيَر: وبعث رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب إلى أهل نجران ليجمع صدقتهم ويقدم عليه بجزيتهم، قال ابن الأثير: وذلك فى سنة عشر من الهجرة، ففعل وعاد فلقى رسول الله ﷺ فى مكة فى حجة الوداع.. انتهى. وكان الذى أخذ صدقاتهم عمرو بن حزم، والذى أخذ جزيتهم عبيدة بن الجراح، كما هو معلوم.

وأما المشرف، فهو الثقة، الذى يجعل مع العامل كالحفيظ عليه، ويسمى ضَيْزنا فى القديم، ويسمى عند أهل العراق بنداراً، ويسمى بالمغرب مشرفًا، لإشرافه واطلاعه على جميع أعمال العامل، فهو كالملاحظ أو المفتش، وهو من عمل الحكام قديما، لكنه لم يثبت فيه عن النبى ﷺ شىء ولا عن الخلفاء الراشدين لأمانة الناس حينئذ وكونهم خير القرون، ولا يعلم أول من عمله فى الإسلام. قال

---

(١) محمد بن جعفر (٩٥٣-١٠٢١م) أديب وعالم باللغة، مغربى عاش بمصر فى العصر الفاطمى، ثم عاد إلى القيروان: وله عدة كتب فى اللغة والأدب.

القزاز[1] فى [جامع اللغات]: بعث عمر رضى الله تعالى عنه بعامل، فعزله، فجاء بما كان معه من المال، وانصرف إلى منزله بغير شىء، فقالت له امرأته: أين التحف وأين مرافق العمال؟ فقال لها: كان معى ضيزن[1] فتلفعت وأتت عمر رضى الله تعالى عنه فقالت: يا أمير المؤمنين، بعثت مع زوجى ضَيْزنا فأتانى صفر اليدين، فقال: ما فعلت، عَلَىّ بزوجها، فأتاه، فقال له: أنا بعثت معك ضَيْزنا؟ فقال: كان معى ضيزنان يحفظان ويعلمان، واشار إلى الملكين، فقال لها عمر رضى الله تعالى عنه: صدق، قد ذكرت، انصرفى إلى منزلك، ثم قال لها: ما أمَّلْت فيه؟ قالت: كذا، وكذا، فقال لخازنه: اعطها ثم اعطها، ثم قال لها: رضيتِ؟ قالت: نعم.

وروى عن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى أن عمر بعث معاذا رضى الله تعالى عنهما ساعيا على بن كلاب أو على بنى سعد بن ذبيان فقسم فيهم ولم يدع شيئا حتى جاء بحلسة[2] الذى خرج به على رقبته، فقالت امرأته أين ما جئت به مما يأتى به العمال من عراضة[3] أهليهم؟ فقال: كان معى ضاغط[4]! فقالت: كنت أمينا عند رسول الله ﷺ وعند أبى بكر، فبعث معك عمر ضاغطا؟ فقامت بذلك فى نسائها، واشتكت عمر رضى الله تعالى عنهم، فبلغ ذلك عمر فدعا معاذا فقال: أنا بعثت معك ضاغطا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لم أجد شيئا أعتذر به إليها إلا ذلك! قال: فضحك عمر، وأعطاه شيئًا، وقال: ارضها به.

---

(١) أى رقيب. [الطهطاوى].

(٢) ما يوضع على الظهر.. وأصله للدابة، أو ما يبسط فى أرض المنزل.

(٣) أى هدية. [الطهطاوى].

(٤) قال أبو عبيد القاسم: قال ابن جريج: قوله ضاغطًا، يعنى ربه جل ثناؤه. [الطهطاوى].

الباب العاشر

[في العمالات الاختزانية..

وفيه فصول]

الفصل الأول

(فى صاحب بيت المال، وهو خازن النقدين، وفى خازن الطعام، وفى الوزان، وفى الكيّال)

خازن المال

الخازن الأمين : الذى يؤدى ما أمر به عن طيب نفس ، ولم يتخذ ﷺ بيت مال ولا خزانة للنقدين ، وإنما كان يعجل قسم ما أتاه من الفىء فى يومه . روى أبو عبيد القاسم بن سلام عن الحسن بن محمد أن رسول الله ﷺ لم يكن يقبل مالاً عنده ولا يبيته ، يعنى إن جاء غدوة لم ينتصف النهار حتى يقسمه ، وإن جاء عشية لم يبت حتى يقسمه . وروى أبو داود عن عوف بن مالك رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أتاه الفىء قسمه فى يومه . وروى البخارى عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : أتى النبى ﷺ بمال من البحرين ، فقال : انثروه فى المسجد ، كان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ ، فقام إلى الصلاة ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جاء وجلس إليه ، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه ، إذ جاءه العباس رضى الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله ، أعطنى فإنى فاديت نفسى وفاديت عَقيلاً ، فقال له رسول الله ﷺ : خذ ، فحثا فى ثوبه ، ثم ذهب يقله فلم يستطع ، فقَال : يا رسول الله ، مر بعضهم أن يرفعه إلىّ ، قال : لا ، قال : فارفعه أنت عَلَىّ ، قال : لا ، فناثر منه ، ثم احتمله فألقاه على كاهله ، ثم انطلق ، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفى علينا ، عجبًا من حرصه ! فما قام رسول الله ﷺ وثَمّ منها درهم .

وفي [كتاب الجامع] من تأليف ابن يونس ما نصه : وفي سنة عشر قُدم بمال البحرين، وهو مائة ألف وثمانون ألف درهم، على رسول الله ﷺ فقسمه بين الناس انتهى.

وعن إسماعيل بن إسحاق أن مال البحرين كان من الجزية .

واتخذ الخلفاء بعد النبي ﷺ بيت المال، فاتخذه أبو بكر الصديق وعمر وعثمان وعليّ، وكان كل منهم يولي نظره لمن يأتمنه، فقد ذكر ابن عبد ربه في [العقدالفريد] أن أبا عبيدة كان على بيت المال في خلافة أبي بكر رضي الله تعالى عنهما، ثم وجهه إلى الشام، وفي [الاستيعاب] لابن عبد البر : استعمل أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما معيقيب على بيت المال، وفي [العمدة] للتلمساني بلال بن حمامة رضي الله تعالى عنه، وحمامة أمه، وإليها كان ينسب، وأبوه رباح كان لبعض بني جمح فاشتراه أبو بكر منهم ثم أعتقه وكان له خازنًا وفي الاستيعاب أيضًا عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث، كتب للنبي ﷺ ، ثم لأبي بكر، واستكتبه عمر، واستعمله على بيت المال، واستعمله [1] عثمان رضي الله تعالى عنه بعده. وفي [كتاب الأموال][2]: كان عمر رضي الله تعالى عنه قد أخرج عبد الله بن مسعود إلى العراق على صَلاتهم وبيت مالهم وأحكامهم، وعمار بن ياسر على جيوشهم، وسهل بن حنيف على مساحة الأرض. وفي [الاستيعاب] أن في خلافة عثمان بن عفان كان زيد بن ثابت على بيت المال فوجد فيه مملوكا فقال : من هذا ؟ قال زيد : مملوك لي، فقال عثمان : أراه يعين المسلمين وله حق وأنا أفرض له ألفين، فقال زيد : والله لا تفرض لعبد ألفين، ففرض له ألفًا . وقال ابن عبد ربه في [العقد الفريد] : كان على بيت المال في أيام عثمان عبد الله بن الأرقم، ثم استعفاه، وفي خلافة عليّ بن أبي طالب صار إبراهيم القبطي مولى رسول الله ﷺ المكنى أبا رافع، الذي شهد الفتح بمصر واختط بها داره إلى عليّ بن أبي طالب فولاه بيت مال الكوفة، قال في [الاستيعاب] : كان عبد الله بن أبي رافع

---

(١) في الأصل : واستعمل .

(٢) هناك أكثر من كتاب بهذا العنوان . . ولكن الإشارة هنا لكتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام .

خازنا وكاتبا لعليّ بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه، وكان أبوه أبو رافع مولى رسول الله ﷺ، وأمه سلمى مولاة رسول الله ﷺ، وقابلة إبراهيم ابنه، وفى [العقد الفريد] لابن عبد ربه كان عليّ رضى الله عنه يقسم بيت المال فى كل جمعة حتى لا يبقى فيه شيئًا، ثم يرش له ويَقيل فيه ويتمثل بقول بعضهم:

هذا جنائي وخياره فيه ... إذ كل جان يده إلى فيه

خازن الطعام

وأما خازن الطعام، فقد خرج البخارى عن عمر رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ كان يبيع نخل بنى النضير، ويحبس لأهله قوت سنة، وروى الترمذى عنه أيضًا قال: كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكانت لرسول الله ﷺ خالصًا، وكان رسول الله ﷺ يعزل نفقة أهله سنة ثم يجعل ما بقى فى الكُراع والسلاح عُدة فى سبيل الله، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. انتهى.

وقد سبق ذلك فى (الفصل الرابع) من (الباب الثامن).

وبنو النضير حى من يهود خيبر دخلوا فى العرب وهم على نسبهم إلى هارون أخى موسى عليه السلام.

وروى محمد بن حفص العطار، عن أبى الجوزاء رحمهما الله تعالى، عن الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما، قال: قلت له: ما تذكر من رسول الله ﷺ ؟ قال: أذكر أنه حملنى على عاتقه فأدخلنى فى غرفة الصدقة، فأخذت ثمرة فجعلتها فى فيّ، فقال: ألقها، أما علمت أن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد؟! فأخرجتها من فيّ. انتهى ,من مسنده رحمه الله تعالى.

الـــوزان

وأما الوزان. فقد روى مسلم رحمه الله تعالى عن محارب: سمع جابر بن عبد الله رضى الله عنه يقول: اشترى منى النبى ﷺ بعيرًا بأوقيتين وبدرهم أو درهمين، فلما قدم صرار [1] أمر ببقرة فذبحت فأكلوا منها، فلما قدم المدينة أمرنى أن آتى المسجد فأصلى ركعتين، ووزن لى ثمن البعير فأرجح لى ﷺ، وروى النسائى رحمه الله تعالى عن جابر رضى الله عنه قال: لما قدم النبى ﷺ المدينة دعا بميزان فوزن لى وزادنى، وروى أبو داود رحمه الله تعالى عن سويد بن قيس رضى الله عنه قال جلبت أنا ومخرفة العبدى بزا من هجر [2] فأتينا به مكة ،فجاء رسول الله ﷺ يمشى فساومنا سراويل فبعناه وثم رجل يزن بالأجر، فقال له رسول الله ﷺ: زن وارجح، وذكر أبو عمر بن عبد البر رحمه الله فى [الاستيعاب] فى أخبار أبى سفيان بن حرب أن رسول الله ﷺ أعطاه من غنائم حنين، وكان شهدها معه، مائة بعير وأربعين أوقية ووزنها له بلال.

الكيال

وأما الكيال فقد روى البخارى رضى الله عنه عن المقدام بن معدى كرب عن النبى ﷺ قال: كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه، وروى مسلم رحمه الله تعالى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنه قال: أعطى رسول الله ﷺ خيبر بشطر ما يخرج منها من تمر أو زرع، فكان يعطى أزواجه رضى الله تعالى عنهن كل سنة مائة وسق، ثمانين وسقًا من تمر، وعشرين وسقا من شعير، وروى مسلم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، قال رسول الله ﷺ: «من ابتاع طعامًا فلا يبتعه حتى يكتاله»، وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من اشترى طعامًا فلا يبتعه حتى يكتاله».

---

(١) بصاد مهملة مكسورة، بعدها راء مهملة وألف، ثم راء مهملة أيضًا. على ثلاثة أميال من المدينة تلقاء حرة واقم. [الطهطاوى].

(٢) مدينة بالبحرين. [الطهطاوى].

الفصل الثانى

(فى الأوزان والأكيال الشرعية المستعملة

فى عهد النبى ﷺ، وفى ضرب السكة)

المكاييل والموازين

روى النسائى رحمه الله تعالى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما عن النبى ﷺ أنه قال: «المكيال مكيال أهل المدينة، والوزن وزن أهل مكة»، قال بعضهم: إنما جاء هذا الحديث فى نوع ما تتعلق به أحكام الشريعة فى حقوق الله سبحانه وتعالى دون ما يتعلق به الناس فى مبايعاتهم وأمور معاشهم. وقوله ﷺ: «والوزن وزن أهل مكة»، يريد به وزن الذهب والفضة خصوصا دون سائر الأوزان، ومعناه أن الوزن الذى يتعلق به حق الزكاة فى النقد وزن أهل مكة، وأما قوله ﷺ: «والمكيال مكيال أهل المدينة»، أراد به الصاع الذى يتعلق به وجوب الكفارات، ويجب إخراج صدقة الفطرة، ويكون تقدير النفقات وما فى معناها بعياره، والمعنى فى هذا الحديث أن مكة لما كانت أرض متجر تباع فيها الأمتعة بالأثمان، ولم يكن بها حينئذ ثمرات ولا زرع، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ **ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد ذى زرع** ﴾ (إبراهيم: ٣٧)، وكانت المدينة بخلاف ذلك لأنها دار النخل وفيها الزرع، فكان جل تجاراتهم فى المكيل دون الموزون، جعل النبى ﷺ الأقطار كلها لهذين المصرين أتباعًا فيما يحتاجون إليه من الكيل

والوزن، ولما كانت السنة قد منعت من إسلام موزون فى موزون ومن إسلام مكيل فى مكيل، وأجازت إسلام الموزون فى المكيل وإسلام المكيل فى الموزون، ومنعت من بيع الموزون فى الموزون إلا مثلاً بمثل ومن بيع المكيل بالمكيل إلا مثلاً بمثل، كان الأصل فى الموزون ما كان حيئنذ يوزن بمكة، وكان الأصل فى المكيل ما كان حيئنذ يكال بالمدينة، لا يتغير عن ذلك وإن غيره الناس.

فلأجل الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمدّ وجب على من تعبد بالشريعة المحمدية البحث عن كيل أهل المدينة فيما جرت العادة بكيله، وعن وزن أهل مكة فيما استمر العرف بوزنه، وإنما يتحصل ذلك بمعرفة ما كان من ذلك مستعملا فى عهد رسول الله ﷺ، وبمعرفة أقدارها.

وكانت الأوزان المستعملة فى عهد النبى ﷺ، المعلومة الأقدار، عشرة [1]: الدرهم، والدينار، والمثقال، والدانق، والقيراط، والأوقية، والنش، والنواة، والقنطار، وقول من قال: إن الدرهم لم يكن معلوما فى زمن النبى ﷺ قول فاسد، كما لا يجوز أن تكون الأوقية فى عهده ﷺ مجهولة المبلغ من الدراهم فى الوزن، فكيف كان الشرع يوجب الزكاة عليها ولا يعلم مبلغ وزنها، قال القاضى عياض رحمه الله تعالى: ولا يصح أن تكون الأوقية والدرهم مجهولة القدر فى زمان النبى ﷺ وهو يوجب الزكاة فى أعداد منها وتقع بها المبايعات والأنكحة، كما جاء فى الأحاديث الصحيحة، وهذا يبين أن قول من قال: إن الدراهم لم تكن معلومة إلى زمان عبد الملك حتى جمعها برأى الفقهاء وهم، وإنما معنى ذلك أنها لم تكن من ضرب أهل الإسلام، وعلى صفة لا تختلف، وإنما كانت مجموعة من ضرب فارس والروم، وصغارا وكبارا، وقطع فضة غير مضروبة ولا منقوشة، يمانية ومغربية، فرأوا صرفها إلى ضرب الإسلام، ونقشها وتصييرها وزنا واحدا لا يختلف، وأعيانًا يستغنى بها عن الموازين، فجمعوا أصغرها وأكبرها ونقشوا فيها اسم الله عز وجل.

وبالجملة، فما ظهر الإسلام إلا والأوقية وزنها أربعون درهمًا، ولذلك قال

---

(١) ولكن المؤلف ذكر هنا تسعة فقط.

رسول الله ﷺ : «ليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة»، وهى مائتا درهم، وقال بعضهم : إن الدرهم الشرعى كان معلوم القدر فى عصر النبى ﷺ ، غير موجود العين مثل درهم الصنجة الآن، فإنه معلوم القدر غير موجود العين، ومنه تتركب الأوزان التى فوقه، ويدل عليه حديث جابر المتقدم فى [باب الوزان]، وهو حديث : اشترى منى النبى ﷺ بعيراً بأوقيتين ودرهم فوزن لى فأرجح، وكذلك فيما أخرجه النسائى من شرائه ﷺ من رجل السراويل بثلاثة دراهم، وفيه : فوزن لى فأرجح، فلو لم يكن الدرهم معلوما فى حين عقد هاتين الصفقتين المباركتين لما صح البيع ولما عرف الرجحان الذى أرجحه لهما ﷺ بعد استيفاء حقوقهما.

وأما الأكيال المستعملة فى عهد النبى ﷺ فهى : المد، والصاع، والفَرَق، والعَرَق [1] والوسق، فالفرق : هو ثلاثة آصع، والعرق وهو قدر الزنبيل، قال بعضهم : هو ما بين خمسة عشر صاعًا إلى عشرين، الوسق ستون صاعًا بصاع النبى ﷺ ، وهو حمل بعير، والصاع أربعة أمداد، والمد رطل وثلث.

السكة

وأما صاحب السكّة، ويقال له أيضًا : صاحب دار الضرب، فعمالته لم تكن فى عهد رسول الله ﷺ واختلف فى أول من ضرب الدراهم، على ثلاثة أقوال :

الأول : أن أول من ضرب الدراهم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، فقد حكى الماوردى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لما رأى اختلاف الدراهم، وأن منها البغلى، وهو ثمانية دوانق، ومنها المغربى، وهو ثلاثة دوانق، ومنها اليمنى، وهو كذا دانقا، قال : انظروا الأغلب مما يتعامل الناس به من أعلاها وأدناها، فكان الدرهم البغلى والدرهم الطبرى فجمع بينهما، وكانا اثنى عشر دانقًا فأخذ نصفها فكان ستة دوانق، قال بعضهم : ففى هذا إشارة إلى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ضرب الدرهم، لكنه لم يغير نقشه.

(١) بفتح العين والراء. [الطهطاوى].

والثانى: أن أول من ضربه مصعب بن الزبير، عن أمر أخيه عبد الله بن الزبير رضى الله عنه، على ضرب الأكاسرة، وعليها (بركة) من جانب و (الله) من جانب، ونقله الماوردى أيضًا، ثم قال: وغيرها الحجاج بعد سنة وكتب عليها: (بسم الله) (الحجاج).

والثالث: أ أول من ضرب الدراهم المنقوشة عبد الملك بن مروان، وأن الدراهم كانت سكتين، إحداهما عليها نقش فارس، وهى البغلية، وهى السود، والدرهم منها ثمانية دوانق، والثانية عليها نقش الروم، والدرهم منها فى أربعة دوانق، فاجتمع علماء ذلك العصر على أن جمعوا بين درهم بغلى من ثمانية دوانق ودرهم طبرى من أربعة دوانق فكان اثنى عشر دانقا فقسموها بنصفين وضربوا الدرهم من ستة دوانق، قال أبو الزناد [١]: أمر عبد الملك الحجاج أن يضرب الدراهم بالعراق فضربها سنة أربع وسبعين، وقال المداينى [٢]: ضربها الحجاج فى آخر سنة خمس وسبعين، ثم أمر بضربها فى النواحى سنة ست وسبعين، وقيل إنه كتب عليها (الله أحد، الله الصمد).

---

(١) عبد الله بن ذكوان (٦٨٤-٧٤٨م) من كبار المحدثين، وكان فقيه أهل المدينة فى عصره، كما كان خبيراً بعمل حسابات بيت المال.

(٢) على بن محمد بن عبد الله (٧٥٢-٨٤٠م) راوية ومؤرخ ثقة، وهو بصرى سكن المدائن ثم انتقل إلى بغداد.

الفصل الثالث

(فى اتخاذ الإبل والغنم ووسم الدواب وفى حمى الإمام مراعى للنعم الواردة من الزكاة)

قد صح عنه ﷺ أنه اتخذ الإبل، وفى السِّيَر أنه كان له ﷺ من النَّعم الناقة التى هاجر عليها من مكة إلى المدينة، وتسمى بالعضباء، ولم يكن يحمله إذا نزل عليه الوحى غيرها، اشتراها رسول الله ﷺ من أبى بكر الصديق بأربعمائة درهم، وتسمى القصواء والجدعاء، ولم يكن بها عضب ولا جدع وإنما سميت بذلك، وقيل كان فى أذنها شيء فسميت به، وكانت شهباء وهى التى سُبِقَت [(١)] فشق على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: «إن حقًا على الله أن لا يرتَفع شيء من هذه الدنيا إلا وضعه»، وقيل المسبوق غيرها، وعن قدامة بن عبد الله قال: رأيت رسول الله ﷺ فى حجته يرمى على ناقة صهباء [(٢)]، ووقف رسول الله ﷺ بعرفة فى حجة الوداع على جمل أحمر، وكان له ﷺ جمل يقال له الثعلب، بعث عليه ﷺ خراش بن أمية إلى قريش بمكة يوم الحديبية ليبلغهم ما جاء له، فعقروا الجمل وأرادوا قتل خراش فمنعه الأحابيش، وغنم رسول الله ﷺ يوم بدر جملاً مهريًا [(٣)] لأبى جهل، فى أنفه برة من فضة [(٤)]، أهداه رسول

---

(١) بالبناء للمجهول. [الطهطاوى].

(٢) والصهبة الشقرة. [الطهطاوى].

(٣) نسبة إلى مهرة، أبو قبيلة تنسب إليها الإبل المهرية. [الطهطاوى].

(٤) أى حلقة. [الطهطاوى].

الله ﷺ يوم الحديبية ليغيظ بذلك المشركين، وكانت له ﷺ عشرون لقحة [١] بالغابة، والغابة على بريد من المدينة طريق الشام يراح إليه كل ليلة بقربتين من ألبانها، وكان له لقحة تدعى بردة أهداها له الضحاك بن سفيان كانت تحلب كما تحلب لقحتان غزيرتان، وكان له خمس عشرة لقحة غزارا كان يرعاها يسار مولاه بذى الجَدْر [٢] بناحية قبا، قريبا من جبل عير علَى ستة أميال من المدينة، فاستاقها العرينيون وقتلوا يسارا وغرزوا الشوك فى لسانه وعينيه حتى مات، فبلغ ذلك النبى ﷺ فبعث فى أثرهم فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم فى الحرة حتى ماتوا، وكانت له ﷺ بذى الجدر سبع لَقَائح، وكان له أيضا لقْحة تسمى الجعدة، وكانت له لقْحة اسمها مروة، وكان له مهرية أرسل بها سعَد بن عبادة من نَعَم بنى عقيل، وَحديث مسلم يدل أيضا على أن الإبل التى سباها أناس من عرينة كانت من إبل رسو ل الله ﷺ، فقد روى مسلم عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أن ناسا من عرينة قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فاجتووها [٣] فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن شئتم أن تخرجوا إلى إبل الصدقة فتشربوا من ألبانها وأبوالها»، ففعلوا فصحوا ثم مالوا على الرعاء فقتلوهم وارتدوا عن الإسلام وساقوا ذود [٤] رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فبعث فى أثرهم فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم فى الحرة حتى ماتوا.

وأما الغنم، فقد روى ابن عباس أنه كان لرسول الله ﷺ سبع أعنز ترعاهن أم أيمن، وفى [كامل التاريخ][٥]: كان له ﷺ سبع من الغنم: عجوة، وزمزم، وسقيا، وبركة، وورسة، وأطلال، وأطواف، وسبع أعنز ترعاهن أم أيمن، فهذه غنمه ﷺ.

وأما غنم الصدقة، أى غنم الزكاة، فقد روى أبو داود رحمه الله تعالى قال:

---

(١) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

(٢) بفتح الجيم وإسكان الدال. [الطهطاوى].

(٣) أى كرهوها واستوخموها. [الطهطاوى].

(٤) أى حماه.

(٥) أى كتاب الكامل، فى التاريخ، لابن الأثير.

حدثنا عمرو بن عون ومسدد، بسنديهما، عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه قال: اجتمعت غنيمة عند رسول الله ﷺ، قال مسدد: غنيمة من الصدقة، قال: يا أبا ذر، أبدُو بها[1] فبدوت إلى الرَّبَذة[2].

* * *

واسم أبى ذر جُنْدب بن جنادة، كان من كبار الصحابة، قديم الإسلام، يقال أسلم بعد ثلاثة، ويقال بعد أربعة، ثم رجع إلى بلاد قومه وهى غفار فأقام بها حتى مضت بدر وأحد والخندق، ثم قدم على النبى ﷺ وصحبه إلى أن مات ﷺ، ثم خرج بعد وفاة أبى بكر رضى الله تعالى عنهما إلى الشام فلم يزل بها حتى ولى عثمان، ثم استقدمه عثمان لشكوى معاوية وأسكنه الرَّبَذَة، وكانت وفاته بها سنة اثنتين وثلاثين، وصلى عليه ابن مسعود، صادفه وهو مقبل من الكوفة مع نفر فضلاء من أصحابه. وروى أن النبى ﷺ قال: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر». قال رسول الله ﷺ: «أبو ذر فى أمتى على زهد عيسى ابن مريم». وبعضهم يرويه: «من سره أن ينظر إلى تواضع عيسى ابن مريم، فلينظر إلى أبى ذر»، وقال علىّ رضى الله تعالى عنه: وعى أبو ذر علما عجز الناس عنه ثم أوكأ عليه فلم يخرج منه شيئا، وقال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحيه إلا ذكرنا منه علما. انتهى.

* * *

وأما الوسم، فقد ترجم البخارى رحمه الله تعالى فى [صحيحه] (باب وسم الإمام إبل الصدقة بيده) وخرج فيه عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: غدوت إلى رسول الله ﷺ بعبد الله بن أبى طلحة ليُحَنِّكه[3] فوافيته فى يده

---

(١) ومعنى: أبدو بها، يعنى أسرح بها فى البادية. [الطهطاوى].

(٢) بفتح الراء والباء والذال المعجمة، موضع خارج المدينة قريب من ذات عرق، وهى التى جعلها عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه حمى لإبل الصدقة، بينها وبين المدينة ثلاث مراحل، وبها مات أبو ذر. [الطهطاوى].

(٣) حنكه أى أدار عمامته من تحت حنكه، أو دلك حنك الصبى، وهو المراد هنا.

الميسم يسم إبل الصدقة، وروى مسلم رحمه الله تعالى عن هشام بن زيد أن أنس ابن مالك رضى الله تعالى عنه انطلق بالصبى إلى النبى ﷺ يحنكه فإذا النبى ﷺ فى مربد يسم غنما، قال بعض الرواة: وأكثر علمى أنه - أى أنس - قال: فى آذانها، وقد ورد عن النبى ﷺ أنه نهى عن الضرب فى الوجه وعن الوسم فيه.

وأما الحمى الذى يحميه الإمام، فقد حمى النبى ﷺ، ومن بعده حمى عمر بن الخطاب، فقد روى البخارى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «لا حمى إلا لله ورسوله»، قال: وبلغنا أن النبى ﷺ حمى النقيع [1] وأن عمر رضى الله عنه حمى الشرف، وفى رواية عن نافع عن ابن عمر قال: حمى رسول الله ﷺ النقيع لخيل المسلمين. انتهى.

والنقيع كل موضع يستنقع فيه الماء، وبه سمى هذا الموضع الذى حماه النبى ﷺ ثم عمر من بعده، وهو الذى يضاف إليه فى الحديث غور النقيع وحمى النقيع، وهو على عشرين فرسخا من المدينة، وهو صدر وادى العقيق، وهو أخصب واد هنالك، وهو ميل فى بريد، وفيه شجر، ويستجم حتى يغيب فيه الراكب، وفى ضبطه بالباء والنون اختلف الرواة كما ذكر.

وحمى عمر رضى الله تعالى عنه الشرف كما تقدم، والربذة، وضرية، وظهر الغزالة، وهو أكبر الأحماء، وهو من ضرية إلى المدينة، وكان حمى عمر رضى الله تعالى عنه ستة أميال من كل ناحية، وضرية فى أوسط الحمى، وقيل كان الشريف فى الجاهلية إذا نزل أرضا فى حيه استعوى كلبا فحمى مد إعواء الكلب لا يشرك فيه غيره وهو يشارك القوم فى سائر ما يرعون فيه، فنهى النبى ﷺ عن ذلك، وأضاف الحمى إلى الله ورسوله، أى إلا ما يحمى للخيل التى ترصد للجهاد والإبل التى يحمل عليها فى سبيل الله وإبل الزكاة وغيرها.

---

(1) وهو بالنون، كما استصوبه القاضى عياض، وإن رواه الرواة بالباء، [الطهطاوى].

الباب الحادى عشر

[فى عمالات مختلفة

وفيه فصول]

الفصل الأول

(فى المنفق، وفى الوكيل فى الأمور المالية، وفى إنزال الوفد فى دار الضيافة)

(وفى إنزال الوفد عند أصحاب رسول الله ﷺ)

قال فى [مختصر السيَر] لابن جماعة رحمه الله تعالى: كان بلال المؤذن رضى الله عنه على نفقات النبى ﷺ . انتهى. وروى أبو داود عن عبد الله الهوزنى رحمه الله تعالى قال: لقيت بلالا مؤذن رسو ل الله ﷺ بحلب، فقلت: يا بلال: حدثنى كيف كانت نفقة رسول الله ﷺ ؟ قال: ما كان له شىء، كنت أنا الذى ألى ذلك منه مذ بعثه الله عز وجل حتى توفى، وكان ﷺ إذا أتاه الإنسان مسلما يراه عاريا يأمرنى فأنطلق فأستقرض فأشترى له البردة فأكسوه وأطعمه.

* * *

وأما الوكيل الذى يوكله الإمام فى الأمور المالية، فقد روى أبو داود رحمه الله تعالى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: أردت الخروج إلى خيبر فأتيت رسول الله ﷺ فسلمت عليه وقلت له: إنى أريد الخروج إلى خيبر، فقال: «إذا أتيت وكيلى فخذ منه خمسة عشر وسقا، فإن ابتغى منك آية فضع يدك على ترقوته». انتهى.

وكان الأمين مروان بن الجذع بن زيد بن الحارث بن حرام بن كعب بن غنم، أسلم وهو شيخ كبير، وابنه مرداس بن مروان، قد كان أمين رسول الله ﷺ على أسهم خيبر.

وقد يبعث الإمام وكيلا بالمال لينفذه فيما يأمره به من وجوه مصارف المال، فقد روى ابن إسحاق في السِّيرة عن أبي جعفر قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد حين افتتح مكة داعيا ولم يبعثه مقاتلا ومعه قبائل من العرب سليم بن منصور ومدلج بن مرة فوطئوا بنى جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، وأمر بهم خالد فكتفوا ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم، فلما انتهى الخبرإلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء ثم قال: «اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»، ثم دعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبى طالب فقال: «يا عليّ، اخرج على هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك»، فخرج على رضى الله تعالى عنه حتى جاءهم، ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ، فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه لَيَدى لهم ميلغة الكلب [1] حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال، فقال لهم على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه حين فرغ منهم: هل بقى لكم دم أو مال لم يُود لكم؟ قالوا: لا، قال: فإنى أعطيكم هذه البقية من المال احتياطا لرسول الله ﷺ مما لا نعلم ولا تعلمون، ففعل، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فقال: «أحسنت وأصبت».

* * *

وأما إنزال الوفد أى الرسل إلى دار الضيافة، فقد اتخذت الدار لنزول الوفد فى زمان رسول الله ﷺ، قال الواقدى رحمه الله تعالى: إن حبيب بن عمرو السلمانى رضى الله تعالى عنه قال: قدمنا وفد سلمان على رسول الله ﷺ، ونحن سبعة نفر، فانتهينا إلى باب المسجد، فصادفنا رسول الله ﷺ خارجا منه إلى جنازة دعى إليها، فلما رأيناه قلنا: يا رسول الله، السلام عليك، فقال رسول الله ﷺ: وعليكم السلام، من أنتم؟ قلنا: قوم من سلمان، قدمنا عليك لنبايعك على الإسلام، ونحن على من وراءنا من قومنا فالتفت إلى ثوبان غلامه فقال: أنزل هؤلاء حيث ينزل الوفد، فخرج بنا ثوبان حتى انتهى بنا إلى دار واسعة فيها نخل وفيها وفود العرب، وإذا هى دار رملة بنت الحارث النجارية.

---

(١) أى الإناء الذى يلغ فيه الكلب الدم. [الطهطاوى].

وفى بعض الأوقات كان يضرب للوفود فى زمانه ﷺ قبة، قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى فى السِّيَر: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وقدم عليه فى ذلك الشهر وفد ثقيف، فضرب عليهم قبة فى ناحية مسجد له، فكان خالد بن سعيد بن العاص رضى الله تعالى عنه هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى اكتتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذى كتب كتابهم بيده، وكانوا لا يطعمون طعاما يأتيهم من رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم.

وأما إنزال الوفد عند أصحاب رسول الله ﷺ، فقد روى عن أوس بن حذيفة رضى الله تعالى عنه قال: قدمنا على رسول الله ﷺ فى وفد ثقيف، فنزل الأحلاف على المغيرة بن شعبة، وأنزل رسول الله ﷺ بنى مالك فى قبة، فكان يأتينا فى كل ليلة، وكان يتولى النظر فى أمر الوفد من يأمره رسول الله ﷺ بذلك، كخالد بن سعيد بن العاص وبلال وثوبان، كما تقدم.

الفصل الثانى

(فى المارستان والطب والرقية والفصد والكى، والمكان الذى اتخذ لإيواء الفقراء الذين لا يأوون على أهل ولا مال)

المارَستان [1]، قال ابن إسحاق فى السِّيَر : كان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أسلم ـ (وفى رواية من المسلمين) ـ يقال لها رفيدة فى مسجده ﷺ ، وكانت تداوى الجرحى ، وقال رسول الله ﷺ حين أصابه ـ (أى سعد بن معاذ) ـ السهم بالخندق : «اجعلوه فى بيت رفيدة حتى أعوده عن قريب» .

وأول تأسيس المارستان المعروف كان فى سنة ثمان وثمانين ، فقد أمر الوليد بن عبد الملك بعمل المارستان لعلاج المرضى ، فهو أول من فعل ذلك ، وجعل فيه الأطباء وأجرى فيه الأنفاق ، وأمر بحبس المجذومين لئلا يخرجوا ، وأجرى عليهم الأنفاق ، وعلى العميان .

والتداوى مأمور به ، فقد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، وروى أبو داود عن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله أنزل الداء والدواء ، وجعل لكل داء دواء ، فتداووا ، ولا تداووا بحرام» .

وطرق المداواة فى التطبب عند العرب أربعة : الرقية ، وشرطة محجم ، وشربة

---

(١) بفتح الراء ، دار المرضى ، وهو معرب ، [الطهطاوى] .

عسل، ولذعة نار، وروى البخارى رحمه الله تعالى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبى ﷺ قال: «الشفاء فى ثلاثة: فى شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية نار، وأنا أنهى أمتى عن الكى»، وروى الترمذى رحمه الله تعالى عن أبى خزامة بن يعمر عن أبيه قال: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أرأيت رقى نسترقيها، ودواء نتداوى به، وتقى نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: «هى من قدر الله»، وروى مسلم رحمه الله تعالى عن عوف بن مالك رضى الله تعالى عنه، قال: كنا نرقى فى الجاهلية، فقلنا: يا رسول [الله][1] كيف ترى فى ذلك؟ فقال: «اعرضوا علىّ رقاكم، لا بأس بالرقى مالم يكن فيه شرك»، وروى البخارى مثله.

وممن كان يعلم الطب فى عهد رسول الله ﷺ عائشة رضى الله تعالى عنها، فقد روى عن هشام بن عروة أن أباه عروة كان يقول لعائشة رضى الله تعالى عنها: يا أمتاه، لا أعجب من فقهك، أقول زوجة رسول الله ﷺ وابنة أبى بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس، وأقول ابنة أبى بكر وكان أعلم الناس أو من أعلم الناس، ولكن أعجب من علمك بالطب! فضربت على نكبه وقالت: يا عروة، إن رسول الله ﷺ كان يسقم عند آخر عمره، أو فى آخر عمره، فكانت تقدم عليه وفود العرب فتنعت له الأنعات[2] فكنت أعالجها.

ومن الأطباء فى عهده ﷺ الحارث ب كلدة، فقد روى أبو داود عن سعد رضى الله تعالى عنه قال: مرضت مرضا فأتانى رسول الله ﷺ يعودنى، فوضع يده بين ثديى حتى وجدت بردها على فؤادى، فقال: إنك رجل مفؤود، ائت الحارث بن كلدة، أخا ثقيف، فإنه رجل يتطبب فليأخذ سبع تمرات من عجوة المدينة فليجأهن[3] بنواهن ليلد بهن[4]. وقد كان الحارث بن كلدة طبيب العرب، وأسلم، وكان قد تعلم الطب بفارس واليمن، وكان يضرب العود ويغنى إلى أيام

---

(١) غير موجودة فى الأصل.

(٢) أى يصفون الأوصاف (الوصفات).

(٣) أى يدقهن، من الوجيئة، وهى التمر يدق حتى يخرج نواه. [الطهطاوى].

(٤) من اللدود ـ بفتح اللام ـ وهو الدواء الذى يصب فى إحدى شفتى الفم. [الطهطاوى].

معاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنه، وقيل إنه مات أول الإسلام، وقيل فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، وقيل مات يوم مات أبو بكر رضى الله تعالى عنه، قال أبو فرج الجوزى فى [مختصر الحلية] عن ابن شهاب إن أبا بكر رضى الله تعالى عنه والحارث بن كلدة كانا يأكلان خزيرة أهديت إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه فقال الحارث لأبى بكر: ارفع يدك يا خليفة رسول الله والله، إن فيها لسم سنة، وأنا وأنت نموت فى يوم واحد، ورفع يده فما زالا عليلين حتى ماتا فى يوم واحد عند انقضاء السنة، ويخالف ذلك ما ذكره ابن حبيب فى [كتاب طب العرب] قال: كان معيقيب بن أبى فاطمة الأزدى خازنا لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما وكاتبا له وقد أصابه الجذام، فدعا له عمر الحارث بن كلدة الثقفى وقال له: عالجه، قال: يا أمير المؤمنين، أما أن يبرأ فلا، ولكنى أداويه حتى يقف مرضه فلا يزيد، قال عمر: فذاك، فكان يأمر بالحنظل الرطب فيدلك به قدميه، ولا يزيده على ذلك، فوقف مرضه حتى مات. وممن كان طبيبا فى عهده ﷺ أبو رِمْثَة[1] رفاعة بن يثربى التميمى، رضى الله تعالى عنه.

وأما الرُّقْيَة، فقد ورد رقية جبريل للنبى ﷺ، روى مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل عليه السلام وقال: بسم الله يبريك، ومن كل داء يشفيك، من شر حاسد إذا حسد، وشر كل ذى عين. وروى مسلم رحمه الله تعالى أيضا عن أبى سعيد رضى الله تعالى عنه أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ فقال: يا محمد، اشتكيت؟ قال: نعم، قال: بسم الله أرقيك، من كل شىء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك.

وعن جابر بن عبد الله قال رسول الله ﷺ: «العين حق، تدخل الرجل القبر والجمل القدْر»، قال القاضى عياض: إن المَعْيون إنما يفسد عند نظر العائن بعادة أجراها اللهَ تعالى أن يخلق الضرر عند مقابلة نظر شخص لشخص آخر، وينبغى للحاكم أن يمنع من عُرف بذلك من مخالطة الناس، ويأمره يلزم بيته، ويرزقه ما يكفيه إن كان فقيرا، فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذى منعه عمر بن الخطاب رضى الله عنه من مخالطة الناس.

---

(١) بكسر الراء وسكون الميم وفتح المثلثة. [الطهطاوى].

وقال بعضهم : كان أبو عبد الله التياحي مجاب الدعوة، فبينما هو فى بعض أسفاره إما حاجا وإما غازيا على ناقة فارهة، وكان فى الرفقة رجل عائن قلما ينظر إلى شيء إلا أتلفه، فقيل لأبى عبد الله : احفظ ناقتك من العائن، فقال: ليس له إلى ناقتى سبيل فأخبر العائن بقوله، فتحين غيبة أبى عبد الله فجاء إلى رحله فعان ناقته، فاضطربت وسقطت مضطربة، فأتى عبد الله فقيل له، إن العائن قد عان ناقتك كما تراها، فقال: دلونى على العائن فدُل عليه، فوقف عليه، وقال: بسم الله، حبس حابس، وحجر يابس، وشهاب قابس، رددت عين العائن عليه وعلى أحب الناس إليه، ﴿ **فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير** ﴾ (الملك: ٣) فخرجت حدقتا العائن وقامت الناقة ولا بأس بها.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يعوذ الحسن والحسين: أعيذكما بكلمات الله التامة من شر كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة، ويقول: إن أباكما إبراهيم كان يعوذ بهم إسماعيل وإسحاق، رواه البخارى. وقال ﷺ :من قال إذا أصبح : أعوذ بكلمات الله التامة، من كل عين لامة، ومن كل شيطان وهامة[(١)]، لم يضره عين ولا حية ولا عقرب.

وعن أبى أمامة الباهلى قال: قال رسول الله ﷺ من قال حين يمسى: صلى الله على نوح وعليه السلام، لم يلدغه عقرب فى تلك الليلة. وسئل بعضهم: لو قتل بالعين فهل عليه شيء أولا؟ فأجاب: لا دية ولا كفارة على من قتل بالعين وإن اعترف أنه قتله وإن كانت العين حقا، لأن ذلك لا يفضى إلى القتل غالبا، ولا يعد مهلكا، ويسن للعائن أن يدعو للمَعين بالبركة، فيقول: اللهم بارك فيه ولا تضره ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وقد وردَ عنه ﷺ :إذا رأى أحدكم من نفسه أو من أخيه ما يعجبه فليقل: بسم الله ما شاء الله، وليدع له بالبركة، فإن العين لا تضره، وعن عائشة قالت: كان يؤمر بالعائن فيتوضأ ثم يغتسل به المعين. رواه أبو داود.

---

(١) قال النووى: الهامة ـ بتشديد الميم ـ وهى كل ذوات سم، كالحية والعقرب ونحوهما. وعين لامة ـ هى بتشديد الميم ـ معناه ذات لم، وهى التى تصيب ما نظرت إليه بسوء. [الطهطاوى].

وكان ﷺ يَرْقى نفسه، روى مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن النبى ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين، وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وامسح عنه بيده رجاء بركتها ما كان يرقى به الناس ﷺ، وروى مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها: كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى منا إنسان مسح بيمينه ثم قال: أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافى، شفاء لا يغادر سقما. فلما مرض رسول الله ﷺ وثقل أخذت بيده لأصنع به نحو ما كان يصنع، فانتزع يده من يدى، ثم قال: اللهم اغفر لى وارحمنى واجعلنى مع الرفيق الأعلى، قال: فذهبت أنظر فإذا هو قد قضى. وروى أبوداود رحمه الله تعالى عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من اشتكى منكم شيئا أو اشتكاه أخ له فليقل: ربنا الله الذى فى السماء: تقدس اسمك، أمرك فى السماء والأرض، أنزل رحمة من رحمتك، وشفاء من شفائك على هذا الوجع، فيبرأ.

وكان فى زمنه ﷺ من رجال الصحابة من يرقى، فقد روى البخارى رحمه الله تعالى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه أن ناسا من أصحاب النبى ﷺ أتوا على حى من أحياء العرب فلم يقروهم، فبينما هم كذلك إذ لدغ سيد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواء أو راق؟ فقالوا: إنكم لم تقرونا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جُعْلا، فجعلوا لهم قطعا من الشاء، فجعل الراقى يقرأ بأم القرآن ويجمع بصاقه ويتفل فبرىء، فأتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبى ﷺ، فسألوه، فضحك وقال: وما أدراك أنها رقية، خذوها واضربوا لى بسهم. انتهى.

وأما من رقى من النساء، فهى الشفاء بنت عبد الله، فقد روى أبو داود رحمه الله تعالى عنها قالت: دخل علىّ النبى ﷺ وأنا عند حفصة، فقال: ألا تُعَلِّمين هذه رقية النملة [1] كما علمتها الكتابة؟ انتهى.

وأما الفصد، وهو قطع العروق، فقد روى أبو داود عن جابر رضى الله تعالى عنه قال: بعث النبى ﷺ إلى أبى طيبة فقطع منه عرقا. وقال فى [طبقات الأطباء]

---

(١) والنملة: بثور صغار مع ورم يسير يتقرح فيتسع، وتسميه الأطباء: الذباب. [الطهطاوى].

إن أبا رِمْثة رضى الله تعالى عنه كان طبيبا على عهد رسول الله ﷺ عالما بصناعة اليد . انتهى .

وأما الكى ، فقد روى مسلم رحمه الله تعالى بسنده إلى الأعمش عن أبى سفيان عن جابر رضى الله تعالى عنه قال : بعث رسول الله ﷺ إلى أُبَىّ بن كعب طبيبا فقطع منه عرقا ثم كواه عليه ، وروى أبو داود عن جابر رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ كوى سعد بن معاذ من رمية ، وروى مسلم عن جابر الله تعالى عنه قال : رمى سعد بن معاذ فى أكحله فحسمه (١) رسول الله ﷺ بمِشْقَص (٢) ، ثم ورمت فحسمه الثانية . انتهى . وهذه الرمية يوم الأحزاب .

وكان حجامه ﷺ أبو هند ، ذكر ابن إسحاق فى السِّيَر : أن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة بدر لقى أبا هند ، مولى فروة بن عمر بجميت (٣) مملوء حيسا ، وقد كان تخلف عن بدر ، وشهد المشاهد كلها ، فقال رسول الله ﷺ : إنما أبو هند من الأنصار فانكحوه وانكحوا إليه ، ففعلوا ، وممن حجم رسول الله ﷺ أبو طيبة ، روى مالك رحمه الله تعالى فى [الموطأ] عن أنس رضى الله تعالى عنه ، قال : احتجم رسول الله ﷺ ، حجمه أبو طيبة ، فأمر له بصاع من تمر وأمر أهله أن يخففوا عنه بخراجه .

وأما المكان الذى اتُّخذَ للفقراء فى عهد رسول الله ﷺ ، فقد تخرج منه بعده اتخاذ الزوايا والتكايا ونَحوها مما اتخذ للفقراء فيما بعد ، روى البخارى رحمه الله تعالى عن مجاهد أن أبا هريرة رضى الله تعالى عنه كان يقول : والله الذى لا إله إلا هو ، إنى كنت لأعتمد بكبدى (٤) على الأرض من الجوع ، وإنى كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع ، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون منه فمر أبو بكر رضى الله تعالى عنه فسألته عن آية من كتاب الله تعالى ما سألته إلا ليشبعنى -

---

(١) أى كواه . [الطهطاوى] .

(٢) المشقص : نصل عريض أو سهم فيه نصل عريض .

(٣) أى بزق لا شعر عليه . [الطهطاوى] .

(٤) فى الأصل : بكبى .

(وفى رواية إلا ليستتبعنى) ـ فمر فلم يفعل ثم مر بى أبو القاسم ﷺ وشرف وكرم فتبسم حين رآنى وعرف ما فى نفسى وما فى وجهى فقال: يا أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: الحق، ومضى، فاتبعته، فدخل فاستأذن لى فأذن لى، فدخل فوجد لبنا فى قدح، فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداه لك فلان أوفلانة، قال: أبا هر، قلت، لبيك يا رسول الله، قال الحق أهل الصُّفّة[1] فادعهم لى فساءنى ذلك، فقلت: وما هذا اللبن فى أهل الصُّفّة؟ كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاؤوا أمرنى فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن! ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: خذ فأعطهم، فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد على القدح حتى انتهيت إلى النبى ﷺ، وقد روى القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلى فتبسم ﷺ، فقال: أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: بقيت أنا وأنت، قلت: صدقت يا رسول الله، قال: اقعد فاشرب، فقعدت فشربت، فقال: اشرب، فشربت، فما زال يقول: اشرب، حتى قلت: لا والذى بعثك بالحق، ما أجد له مسلكا! قال فأرنى، فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة.

---

(١) قال: وأهل الصفة: أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، وكان إذا أتته الصدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. [الطهطاوى].

البـــاب الثانى عشر

[فى حـــرف وصناعـــات كـــانت فى عـــهـــد رســـول الله ﷺ وفيـــه فصــول]

الفصل الأول

(فى التجارة وتوابعها)

كانت قريش تحترف بالتجارة، ولهم بها شهرة فى الجاهلية والإسلام، قال أبو عمر ابن عبد البر فى [بهجة المجالس] إن عبد الله بن عبد الملك بن مروان قال يوما لبنيه: يا بَنيّ، لو عداكم ما أنتم فيه ما كنتم تقبلون عليه؟ قال الوليد: أما أنا ففارس حرب، وقال سليمان: أما أنا فكاتب سلطان، فقال ليزيد: فأنت؟ فقال: والله ياأمير المؤمنين ما تركا حظا لمختار، فقال عبد الملك: فأين أنتم يا بنى عن التجارة التى هى أصلكم ونسبكم؟ قالوا: تلك صناعة لا يفارقها ذل الرغبة والرهبة، ولا ينجو صاحبها من الدخول فى جملة الدهماء[1] والرعية، فقال: عليكم إذنبيطلب الأدب، فإن كنتم ملوكا سدتم، وإن كنتم وسطا رأستم، وإن أعوذتكم المعيشة عشتم.

وقال ابن إسحاق: كان فى حجر باليمن، فيما يزعمون، كتاب بالزبور كتب فى الزمان الأول: لمن ملك ذمار[2] لقريش التجار، قال السهيلى فى [الروض الأنف]:

وهذا الكلام الذى زعموا أنه وجد مكتوبا بالحجر هو فيما زعموا من كلام هود عليه السلام، وجد مكتوبا فى منبره وعند قبره حين كشفت الريح العاصف عن منبره الرمل حتى ظهر، وذلك قبل ملك بلقيس بيسير، وكان خطه بالمسند.

(١) جماعات الناس وكثرتهم. [الطهطاوى].

(٢) أى مدينة. [الطهطاوى].

وقد كان يتجر في زمان رسول الله ﷺ من كبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم جماعة.

فمنهم خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، روى عن أم سلمة قالت خرج أبو بكر رضي الله تعالى عنه في تجارة إلى بُصرى قبل موت النبي ﷺ بعام ومعه نعيمان وسويبيط بن حرملة، وكانا رضي الله تعالى عنهما قد شهد بدرا، وكان نعيمان على الزاد فقال له سويبط، وكان رجلا مزاحا، أطعمني، فقال: لا، حتى يجيء أبو بكر، فقال: أما والله لأغيظنك، فمروا بقوم فقال لهم سويبيط: تشرون مني عدا؟ قالوا: نعم، قال: إنه عبد له كلام، وهو قائل لكم: إني حر، فإن أنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه وأفسدتم على عبدي قالوا: بل نشتريه منك، فاشتروه منه بعشرة قلائص [1] فجاءوا فوضعوا في عنقه عمامة أو حبلا، فقال نعيمان: إن هذا يستهزىء بكم، إني حر لست بمملوك! قالوا: قد أخبرنا خبرك! قال: فانطلقوا به، فجاء أبو بكر فأخبره سويبيط فأتبعهم فرد عليهم القلائص وأخذه، فلما قدموا على النبي ﷺ وأخبروه ضحك رسول الله ﷺ وأصحابه عليهما حولا.

ومنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، روى البخاري رحمه الله تعالى عن عبيد بن عمر أن أبا موسى الأشعري استأذن على عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما فلم يؤذن له، وكأنه كان مشغولا، فرجع أبو موسى، ففرغ عمر، فقال: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس [2]؟ ائذنوا له، قيل: قد رجع، فدعاه، فقال: كنا نؤمر بذلك، قال: تأتيني على ذلك بالبينة، فانطلق إلى مجلس الأنصار فسألهم، فقالوا: لا يشهد لكم على هذا إلا أصغرنا، أبو سعيد الخدري، فذهب بأبي سعيد الخدري فقال عمر: أخفي عليّ من أمر رسول الله ﷺ ألهاني الصَّفْق [3] بالأسواق، يعني الخروج إلى تجارة، والشيء الذي قال أبو موسى: كنا

(١) القلوص من النوق: الشابة، وهي بمنزلة الجارية من النساء. [الطهطاوي].

(٢) وهو اسم أبي موسى الأشعري. [الطهطاوي].

(٣) بفتح الصاد وسكون الفاء: التصرف في التجارة، وعقد البيع ومنه الصفقة. [الطهطاوي].

نؤمر بذلك. بيَّنه حديثه الآخر الذى رواه البخارى رحمه الله تعالى أيضا عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه، قال: كنت فى مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور، قال: استأذنت على عمر ثلاثا فلم يُؤذن لى فرجعت قال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثا فلم يؤذن فرجعت، وقال رسول الله ﷺ: إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فليرجع، قال: فوالله لتقيمن عليه بينة، أمنكم أحد سمعه من النبى ﷺ؟ قال أُبَىّ بن كعب: والله لا يقوم معه إلا أصغر القوم، فكنت أصغر القوم، فقمت معه فأخبرت عمر أن النبى ﷺ قال ذلك. انتهى.

ومنهم الزبير بن العوام، فقد كان تاجرا مجدودا فى التجارة، وقيل له يوما: بم أدركت فى التجارة ما أدركت؟ فقال: لم أشتر عيبا، ولم أرد ربحا، والله يبارك لمن يشاء. وعن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ ثيابا بيضا. وروى عن الأوزاعى أنه كان للزبير ألف مملوك يؤدون إليه الخراج فما يدخل بيته منها درهم واحد، لأنه كان يتصدق بذلك كله.

ومنهم عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه، روى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه قال: لما قدمنا المدينة آخى رسول الله ﷺ بينى وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إنى أكثر الأنصار مالا، فأقسم لك نصف مالى، وانظر أىّ زوجتى هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجتها، فقال له عبد الرحمن: لا حاجة لى فى ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع[1]، فغدا إليه عبد الرحمن فأتى بإقط وسمن، وفى رواية للبخارى: فما رجع حتى استفضل إقطا وسمنا، ثم تابع الغدو فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه صفرة، فقال رسول الله ﷺ: تزوجت؟ قال: نعم، قال: ومن؟ امرأة من الأنصار، قال: كم سقت لها؟ قال: زنة نواة من ذهب، أو نواة من ذهب، فقال له النبى ﷺ: أَوْلِم ولو بشاة، قال ابن عبد البر: كان عبد الرحمن

(١) بنو قينقاع: شعب من يهود المدينة أضيف السوق إليهم. [الطهطاوى].

ابن عوف رضى الله تعالى عنه تاجرا مجدودا فى التجارة [1]، وكسب مالا كثيرا، وصولحت امرأته التى طلقها فى مرضه من ثلث الثُّمْن بثلاثة وثلاثين ألفا، وروى ابن عيينه أنها صولحت على ربع الثُّمْن من ميراثه.

وأما التجارة الخصوصية فى عهده ﷺ، التى كانت لكبار الصحابة، كالبزاز والعطار والصيرفى، فممن كان بزازا أمير المؤمنين عثمان بن عفان، قال ابن قتيبة فى [المعارف] فى صنائع الأشراف: كان عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه بزازا. انتهى.

ولا بد أنه كان غنيا حيث ثبت أنه رضى الله تعالى عنه جهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيرا، وأتم الألف بخمسين فرسا، وكان جيش العسرة فى غزوة تبوك، وقد اكتسب جميع ماله بحرفة البزازة، إذ لم يكن يحترف رضى الله تعالى عنه بغيرها.

وكذلك طلحة بن عبيد الله كان بزازا، كما ذكره ابن قتيبة فى [المعارف] فى صنائع الأشراف، وقال الزبير بن بكار: كان طلحة بن عبيد الله بالشام فى تجارة حيث كانت وقعة بدر، وكان من المهاجرين الأولين، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه، فلما قدم قال: وأجرى يا رسول الله؟ قال: وأجرك، وذكر الزبير أنه سمع سفيان بن عيينة يقول: كانت غلة طلحة بن عبيد الله ألفا وافيا كل يوم، قال: والوافى وزنه وزن الدينار، وعلى ذلك وزن دراهم فارس التى تعرف بالبغلية.

وأما العطارون فهم كثير لم ترد أسماؤهم وإنما ورد مدحهم إجمالا، فقد ذكر الثعالبى فى كتاب [التمثيل والمحاضرة] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أنه قال: لو كنت تاجرا لما اخترت على العطر شيئا، إن فاتنى ربحه [2] لم يفتنى ريحه. وفى الحديث عن رسول الله ﷺ: «مثل الجليس الصالح مثل الدارى [3]، إن لم

(١) أى له جد وبخت. [الطهطاوى].

(٢) بالموحدة. [الطهطاوى].

(٣) أى العطار، منسوب إلى دارين، فرضة بالبحرين فيها سوق يحمل إليها المسك من ناحية الهند. [الطهطاوى].

يُجزْك[1] من عطره علقك من ريحه، ومثل الجليس السوء مثل صاحب الكير، إن لم يحرقك من شرره علقك من نتنه». وخرج البخارى فى (العطار وبيع المسك) عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بيتك أو ثوبك أو تجد منه ريحا خبيثة».

وأما من كان يتجر فى الصرف فى عهد رسول الله ﷺ، فقد روى البخارى عن أبى المنهال رضى الله تعالى عنه قال: سألت البراء بن عازب وزيد بن أرقم رضى الله تعالى عنهما عن الصرف، فقالا: كنا تاجرين على عهد رسول الله ﷺ، فسألنا رسول الله ﷺ عن الصرف، فقال: إن كان يدا بيد فلا بأس، وإن كان نسيئا فلا يفلح.

وأما بيع الطعام، أى كل ما يؤكل، فقد روى مسلم رحمه الله تعالى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من اشترى طعاما فلا يبتعه حتى يكتاله»، وروى مسلم أيضا عن سالم بن عبد الله رضى الله تعالى عنه أن أباه قال: قد رأيت الناس فى عهد رسول الله ﷺ إذا ابتاعوا الطعام جزافا يضربون فى مكانهم ذلك حتى يؤوه إلى رحالهم، وكان الذى يبيع التمر يقال له تَمَّار، ذكر ابن فتحون فى كتابه فى الصحابة رضى الله تعالى عنهم أن نبهان التمار وقال: هو الذى جاءته امرأة تشترى منه تمرا فغمزها ثم جاء تائبا فحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ فنزلت فيه: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ** ﴾ (آل عمران: ١٣٥) الآية، وتسمى هذه الآية آية الاعتراف بالذنوب.

وروى ابن بشكال فى كتابه [تفسير ما استعجم من غوامض الأسماء] بسنده عن عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قول الله عز وجل: (والذين إذا فعلوا فاحشة) قال: يريد نبهان التمار، وكنيته أبو مقبل، أتته امرأة حسناء جميلة تبتاع تمرا فضرب على عجزها، فقالت: والله ما حفظت غيبة أخيك، ولا نلت

---

(١) أى يعطيك. [الطهطاوى].

حاجتك، فأسقط في يده[1]. فذهب إلى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما فقال: إياك أن تكون امرأة غاز، ثم ذهب إلى النبي ﷺ فقال: إياك أن تكون امرأة غاز، فولى وهو يبكي، فأقام ثلاثة أيام: النهار صائما، والليل قائما، حزينا، فلما كان اليوم الرابع أنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ الآية، يريد مثل الذى فعل نبهان التمار، فأرسل رسول الله ﷺ إليه فأخبره بما نزل، فحمد الله تعالى وشكره، فقال: يا رسول الله، هذه توبتي قد قبلها الله مني، فكيف بي حتى يقبل شكوتي؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ (هود: ١١٤).

ومن صنائع الأشراف: بيع الرماح، فقد ذكر في [الاستيعاب] أن نوفل بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي، يكنى أبا الحارث، كان أسن من سائر من أسلم من بني هاشم، أسر يوم بدر، وفداه العباس رضي الله تعالى عنهما، وهاجر أيام الخندق، وقيل فدى نفسه برماحه، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين العباس بن عبد المطلب، وكانا رضي الله تعالى عنهما شريكين في الجاهلية متفاوضين في المال متحابين، وروى ولده عبد الله بن نوفل بن الحارث قال: لما أسر الحارث بن نوفل يوم بدر قال رسول الله ﷺ: افد نفسك، قال: مالي شيء أفتدي به، قال: افد نفسك برماحك التي بجدة، قال: والله ما علم أحد أن لي رماحا بجدة غيري بعد الله، أشهد أنك رسول الله، ففدى نفسه بها، وكانت ألف رمح. قال أبو عمر: وشهد نوفل مع رسول الله ﷺ فتح مكة وشهد حنينا والطائف، وكان ممن ثبت مع رسول الله ﷺ، وأعان رسول الله ﷺ يوم حنين بثلاثة آلاف رمح، فقال له رسول الله ﷺ: «كأني أنظر إلى رماحك يا أبا الحارث تقصف[2] أصلاب

---

(١) أي ذل وأخطأ، وهي كلمة تقال للنادم على ما فعل، الحسير على ما فرط منه، ويقال أيضا: سقط في يده. [الطهطاوي].

(٢) وقصف الشيء كسره، يقال: قصفت الشيء - بفتح الصاد - كسرته، ويستعمل في الأصلاب كثيرا، كما في الحديث هنا، ومن مديح ما جاء في ذلك ما أنشده الحصري في [زهر الآداب] قال: مات رجل من العرب كان يعول اثني عشر ألفا، فلما حمل على سريره صر (أي صوت) فقال بعض من حضره:

وليس صرير النعش ما تسمعونه ... ولكنه أصلاب قوم تقصف
وليس فتيق المسك نشر حنوطه ... ولكنه ذاك الثناء المخلف. [الطهطاوي].

المشركين»، وهذا من معجزاته ﷺ بإخباره بالغيب، فقد نصره الله يوم حنين وقتل المشركين حتى قتل منهم أبو طلحة الأنصاري رضي الله تعالى عنه عشرين رجلا وحده وأخذ أسلابهم، وروى عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم حنين: من قتل كافرا فله سلبه، فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلا وأخذ أسلابهم.

ومن التجارة التجارة في القرظ للدبغ فمن ذلك ما ذكره في [الاستيعاب] أن ابن عائذ المؤذن، مولى عمار بن ياسر، رضي الله تعالى عنهما، المعروف بسعد القرظ، الذي له صحبة، وإنما قيل له سعد القرظ لأنه كلما اتجر في شيء وضع فيه، أي خسر، فتجر في القرظ فربح فيه، فلزم التجارة فيه. وممن كان دباغا كما ذكره أبو بكر بن دريد الحارث بن صبيرة، أسلم يوم الفتح. انتهى.

الفصل الثانى

(فى حرف مختلفة للرجال دون الصنائع المذكورة لهم)

فمن هذه الحرف: حرفة الحطابة، روى البخارى، رحمه الله تعالى، عن أبى عبيد، مولى عبد الرحمن بن عوف أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يدعه».

وروى أن رجلا من الأنصار أتى النبى ﷺ فشكا إليه الفاقة، ثم عاد فقال: يا رسول الله، لقد جئت من أهل بيت ما أرى أن أرجع إليهم حتى يموت بعضهم، قال: انطلق هل تجد من شيء، فانطلق فجاء بحلس[1] وقدح، فقال: يا رسول الله، هذا الحلس كانوا يفرشون بعضه ويلتفون ببعضه، وهذا القدح كانوا يشربون فيه، فقال: من يأخذهما منى بدرهم؟ فقال رجل أنا، فقال: من يزيد على درهم؟ فقال رجل: آخذهما بدرهمين، فقال: هما لك، فدعا بالرجل فقال: اشتر بدرهم طعاما لأهلك وبدرهم فأسا، ثم ائتنى، ففعل ثم جاء، فقال: انطلق إلى هذا الوادى فلا تدعن شوكا ولا حطبا ولا تأتنى إلا بعد عشر، ففعل، ثم أتاه فقال: بورك فيما أمرتنى به، فقال: هذا خير لك من أن تأتى يوم القيامة فى وجهك نكتة من المسألة، أو خموش من المسألة، الشك من بعض الرواة ـ ذكره فى (كتاب النكاح) دليلا على جواز خطبة المرأة على خطبة الغير، وسوم السلعة على سوم الغير، ما لم يقع التراكن.

---

(١) وحلس البيت ما يبسط تحت حر المتاع من مسح أو نحوه. [الطهطاوى].

قال ابن حجر في حديث: «ولا يبع بعضكم على بيع بعض»: وكذلك يحرم السوم على سوم غيره، كما في رواية مسلم، والخطبة على خطبة الغير، كما في رواية الصحيحين، وكل ما في معنى ذلك مما ينفر القلوب ويورث البغضاء، إلا أن يرضى من له الحق، لأنه حقه، فله تركه، ولزوال علة التنافر حينئذ. والسوم المحرم هو أن يزيد في الثمن بعد استقراره صحيحا، أو يعرض على المشترى أرخص منه، وتحريمه بعد البيع وقبل لزومه الذى هو البيع على البيع أو الشراء على الشراء كما تقرر أشد، وقول ابن كسج من أصحابنا: يجوز ذلك إن رآه مغبونا، ضعيف، والوجه الحرمة مطلقا.

ومن هذه الحرف الدِّلالة، وتسمى السمسرة، روى مسلم عن طاوس عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتلقى الركبان وأن يبيع حاضر لباد، وروى البخارى قريبا منه، وقال: فقلت: يا ابن عباس، ما معنى قوله لا يبيع حاضر لباد؟ قال: لا يكون له سمسارا، أى لا يكون له دلالا، فالسمسار أو الدَّلال هو متولى البيع والشراء لغيره، أو الذى يجمع بين البيعين، وفى [طبقات المحترفين] مانصه: وأما السماسرة والدَّلاَّلون فقوم أجراء لا فى عدد التجار ولا فيمن له الحرف والصناعات، لا قيام لهم ولا قرار، ولا يسمع لهم ذكر فى أشعار.

وأما النساج فهو الذى يضم السُّدى إلى اللُّحمة، وحرفته النساجة، ويقال له الحائك، وحرفته الحياكة، وقد روى البخارى عن سهل بن سعد رضى الله تعالى عنه قال. جاءت امرأة ببردة ـ قال سهل: أتدرون ما البردة؟ فقيل له: نعم، فقال: هى الشملة منسوج فى حاشيتها [1] ـ قالت: يا رسول الله، إنى نسجت هذه بيدى، أكسوكها: فأخذها النبى ﷺ محتاجا، فخرج إلينا وإنها إزاره، فقال رجل من القوم: يا رسول الله، اكسنيها، فقال: نعم، فجلس رسول الله ﷺ فى المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت، سألته

---

(١) وقوله: هى الشملة منسوج فى حاشيتها، يعنى فإن لم يكن فى حاشيتها نسج فهى ثوب من عصب اليمن وشبه. [الطهطاوى].

إياها، لقد عرفت أنه لا يرد سائلا، فقال الرجل: والله ما سألته إلا لتكون كفني يوم أموت! قال سهل: فكانت كفنه.

وأما الخياط ففى [المعارف] لابن قتيبة: كان عثمان بن طلحة، الذى دفع إليه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة، خياطا، وروى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أن خياطا دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس: فذهبت مع رسول الله ﷺ إلى ذلك الطعام، فقرب إلى رسول ﷺ الله خبزا من شعير ومرقا فيه دبّاء (١) وقديد (٢)، فرأيت النبى ﷺ يتتبع الدبا من حول الصحفة فلم أزل أحب الدبا من يومئذ.

ومن الحرف التى فى عهده ﷺ حرفة النجارة، وقد وقع خلاف فى اسم من صنع المنبر لرسول الله ﷺ، فقيل صنعه غلام امرأة من الأنصار، واسمه مينا، وقيل صنعه باقوم، مولى العاص بن أمية، وكان قبطيا، وقيل صنعه ميمون النجار، وقيل صنعه صباح، غلام العباس بن عبد المطلب، وقيل صنعه غلام قبيصة المخزومى، قال بعضهم: فلعلهم كلهم اجتمعوا على عمله.

وأما ناحت الأقداح، فقد ذكر ابن إسحاق رحمه الله تعالى فى السير عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ قال: كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه، وكان الاسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت أنا، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم فكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر فبعث مكانه العاص بن هشام ابن المغيرة، فكانوا إذا تخلف رجل بعث مكانه رجلا، فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله وأخزاه، ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزا، قال: وكنت رجلا ضعيفا، وكنت أعمل الأقداح أنحتها فى حجرة زمزم، فوالله إنى لجالس فيها أنحت أقداحى وعندى أم الفضل جالسة وقد سرنا ما جاءنا من الخبر إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه بشر حتى جلس بجانب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهرى،

---

(١) أى قرع. [الطهطاوى].

(٢) هو ما قطع من اللحم طوالا وييبس وادخر. [الطهطاوى].

فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم ، فقال أبو لهب : هلم إليّ فعندك لعمري الخبر ، فجلس والناس قيام عليه ، فقال : يا ابن أخي ، أخبرني كيف كان أمر الناس؟ فقال : والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا! وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس! لقينا رجالا بيض على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما تليق [1] شيئا ولا يقوم لها شيء ، قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة بيدى ، ثم قلت : تلك والله الملائكة! فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهى ضربة شديدة ، قال : وثاورته ، فاحتملنى فضرب بى الأرض ، ثم برك عليّ يضربنى ، وكنت رجلا ضعيفا ، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فضربته به ضربة فلقت فى رأسه شجة منكرة ، وقالت : استضعفته أن غاب عنه سيده! فقام موليا ذليلا ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال اخترمه الله بالعدسة [2] فقتله . انتهى .

وأما الصياغة ، فالظاهر أنها كانت فى أول الإسلام حرفة اليهود ، ولم يكن أحد من المسلمين يحترف بها ، روى البخارى فى كتابه [الجامع الصحيح] (باب ما قيل فى الصواغ) وخَرَّج فيه عن على رضى الله عنه أنه قال : كان لى شارف [3] من نصيبى من المغنم ، وكان النبى ﷺ أعطانى شارفا من الخُمْس ، فلما أردت أن أبتنى بفاطمة بنت رسول الله ﷺ واعدت رجلا صواغا من بنى قينقاع [4] أن يرتحل معى فنأتى بإذخر [5] أردت أن أبيعه من الصواغين وأستعين به فى وليمة عرسى . وخَرَّج فيه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله حرم مكة فلم تحل لأحد قبلى ولا لأحد بعدى ، وإنما حلت لى ساعة من نهار ، لا يختلى خلاها ، ولا يعضد شجرها ، ولا ينفر صيدها ، ولا تلتقط لقطتها إلا

---

(١) بضم التاء ، من ألاق ، بمعنى أبقى ، أى لا تبقى شيئا . [الطهطاوى] .

(٢) والعدسة داء من الأدواء يخرج بالإنسان ، وربما قتل - وهو بفتح العين والدال - وقد سبق فى (الفصل الأول) من (الباب الأول) من (المقالة الخامسة) من أن العدسة بثر كانت تخرج على الناس تزعم العرب أنها تعدى ، شبيهة بالطاعون . [الطهطاوى] .

(٣) والشارف المسنة من النوق . [الطهطاوى] .

(٤) شعب من يهود المدينة . [الطهطاوى] .

(٥) الإذخر - بكسر الهمزة وسكون الذال وكسر الخاء - نبات طيب الرائحة .

لمعرّف»، قال العباس بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه: إلا الإذْخر لصاغتنا ولسقف بيوتنا، فقال إلا الإذْخِر، وقد سبق بعض ذلك فى غزوة فتح مكّة.

وأما صناعة الحداد، ويقال له القَيْن، فكانت فى عهد رسول الله ﷺ حرفة لبعض الصحابة، فقد روى البخارى رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبى سيف القين (1) وكان ظئرا لإبراهيم (2) فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمه، وفى رواية فى حديث أنس: فانطلق رسول الله ﷺ وانطلقت معه فصادفنا أبا سيف ينفخ فى كيره، وقد امتلأ البيت دخانا، فأسرعت فى المشى بين يدى رسول الله ﷺ فقلت: يا أبا سيف، أمسك، جاء رسول الله ﷺ، فأمسك، فدعا رسول الله ﷺ بالصبى فضمه إليه وقال ما شاء الله أن يقول، فلقد رأيته يكيد بنفسه (3) قال فدمعت عينا النبى ﷺ، فقال: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون». انتهى.

ومن الصناعات صنعة البنَاء، ويقال لصاحبها البَنَّاء وكان أول بَنَّاء فى الإسلام عمار بن ياسر رضى الله عنه، وقد شرف ﷺ هذه الصناعة حين أسس مسجد قباء حيث كان هو أول من وضع حجرا فى قبلته، ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه إلى حجر أبى بكر، ثم أخذ الناس فى البنيان، فأول من بنى مسجدا فى الإسلام رسول الله ﷺ، روى البخارى رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة فى حى يقال لهم بنو عمرو بن عوف، قال: فأقام فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى ملأ من بنى النجار فجاءوا متقلدى سيوفهم، وكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر رضى الله تعالى عنه ردفه وملأ بنى النجار حوله حتى ألقى بفناء أبى أيوب، قال: وكان يصلى حيث أدركته الصلاة، ويصلى فى مرابض الغنم، قال: ثم إنه إنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ بنى النجار فجاءوا، فقال: يا بنى النجار، ثامنونى

---

(1) واسمه البراء بن أوس. [الطهطاوى].

(2) أى أباه من الرضاع، لأن زوجته أم بردة أرضعته بلبنه. [الطهطاوى].

(3) يقال: كاد بنفسه عند الموت إذا عالج. [الطهطاوى].

بحائطكم هذا، فقالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، قال: فكان فيه ما أقول لكم، كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، قال فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه حجارة، قال: وجعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم يقول:

لاهم إن الخير خير الآخرة فاكرم الأنصار والمهاجره

وأجابوه رضي الله عنهم بقولهم:

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

انتهى.

قال ابن إسحاق: فعمل فيه رسول الله ﷺ ليرغب المسلمين فى العمل، فعمل فيه المهاجرون والأنصار، قال: وأقام رسول الله ﷺ ببيت أبى أيوب حتى بنى له مسجدا ومساكنه ثم انتقل إلى مساكنه من بيت أبي أيوب رضى الله تعالى عنه، وذكر ابن جماعة رحمه الله تعالى أن رسول ﷺ أمر ببناء المسجد فبنى باللَّبن، وجعلت عضادتاه بالحجارة، وسواريه جذوع النخل، وسقفه الجريد، وجعل طَوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، وفى الجانبين الآخرين مثل ذلك، فهو مربع، ويقال كان أقل من المائة، وجعل الأساس قريبا من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة ثم بنوه باللَّبن. وكان عمر، مع كثرة الفتوح فى أيامه وسعة بيت المال عنهده، لم يغيره عما كان عليه، وإنما احتاج إلى تجديد، لأن جريد النخل قد نخر فى أيامه، فكلم العباس فى بيع داره ليزيدها فيه فوهبها العباس لله وللمسلمين فزادها عمر فى المسجد، ثم كان عثمان، والمال فى زمانه أكثر، فحسنه بما لا يقتضى الزخرفة، ومع ذلك أنكر عليه بعض الصحابة.

وأول من زخرف المساجد الوليد بن عبد الملك، وكان فى أواخر عصر الصحابة، وسكت العلماء عن إنكار[1] ذلك خوف الفتنة، وقال ابن المنير لما شيد الناس بيوتهم

---

(١) فى الأصل: إنكاره

وزخرفوها ناسب أن يصنع ذلك بالمساجد صونا لها من الاستهانة، وقال بعضهم تجوز زخرفة المساجد إذا وقعت تعظيما للمساجد ولم يصرف عليها من بيت المال، وقد قال المتولى، من الشافعية، : تجوز الزخرفة، لأن فيها تعظيم المسجد وإعزاز الدين، وقد كان رسول الله ﷺ ينقل اللَّبن مع القوم فى بناء المسجد وهو يقول:

هذا الجمال لا جمال خيبر هذا أبرر بنا وأطهر

ثم بنى النبى ﷺ مساكنه إلى جانب المسجد باللَّبن وسقفها بجذوع النخل، وتقدم ذلك فى (الفصل الثانى) من (الباب الثالث) من (المقالة الخامسة) من (الجزء الثانى [1]) وبينما رسول الله ﷺ يبنى مسجده إذ وفد عليه قيس بن طلق الحنفى فشهده معه فوكَله [2] النبى ﷺ بعمل الطين، لأنه رآه محسنا فيه، فدل ذلك على أن الرجل إذا كان يحسن شيئا من أعمال البناء وغيره ينبغى أن يوكل بعمله. ومن جملة ما بنى لجلوسه ﷺ دكة، أى مصطبة، من طين، فقد روى عن أبى هريرة وأبى ذر رضى الله تعالى عنهما قالا: كان النبى ﷺ يجلس بين ظهرانى أصحابه، فيجىء الغريب ولا يدرى أيهم هو حتى يسأل، فطلبنا له أن نجعل له مجلسا يعرفه الغريب إذا أتاه، فبنينا له دكانا [3] من طين فكان يجلس عليه ونجلس بجانبيه.

ومن الصناعات شغل الخوص، أى ورق النخل، يعنى ما يصنع منه من قفاف وغيرها، ويقال لصاحبه خواص، ذكر ابن وهب وابن نافع عن مالك رحمهم الله تعالى قال: كان سلمان رضى الله تعالى عنه يعمل الخوص بيده فيتعيش منه ولا يقبل من أحد شيئا، ويحكى أنه دخل قوم على سلمان، وهو أمير على المدائن، وهو يعمل هذا الخوص، فقيل له: لِمَ تعمل هذا وأنت أمير يجبى لك رزق؟ فقال: إنى أحب أن آكل من عمل يدى.

ومن الحرف صيد البر والبحر، فأما صيد البر فهو الصيد بالكلاب وبالبزاة [4]

---

(١) انظره فى مكانه من هذا الجزء الرابع من هذه الأعمال.

(٢) بتخفيف الكاف، أى كفله به. [الطهطاوى].

(٣) أى دكة. [الطهطاوى].

(٤) واحده: باز، نوع من الصقور.

وبالرمح وبالسهام وبالمعراض وباليد، وغير ذلك من آلات الصيد، روى البخارى ومسلم رحمهما الله تعالى، والنص للبخارى، عن عدى بن حاتم الطائى: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: إنا قوم نتصيد بهذه الكلاب، فقال: «إذا أرسلت كلابك المعلمة، وذكرت الله، فكل مما أمسك عليك، إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل، فإنى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه، وإن خالطها كلب من غيرها فلا تأكل».

وأما التصيد بالبزاة، فقد روى الترمذى رحمه الله تعالى أيضا عن عدى بن حاتم رضى الله تعالى عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازى، فقال: «ما أمسك عليك فكل»، قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث مجاهد عن الشعبى، والعمل على هذا عند أهل العلم، لا يرون بصيد البزاة والصقور بأسا.

وأما الصيد بالرمح، فقد روى مسلم رحمه الله تعالى عن نافع مولى أبى قتادة رضى الله تعالى عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان ببعض طريق مكة تخلف عن أصحاب له محرمين وهو - (أى أبو قتادة) - غير محرم، فرأى حمارا وحشيا فاستوى على فرسه فسأل أصحابه أن يناولوه سوطه فأبوا، فسألهم رمحه فأبوا عليه، فأخذه ثم شد على الحمار فقتله، فأكل منه بعض أصحاب النبى ﷺ وأبى بعضهم، فأدركوا رسول الله ﷺ فقال: «إنما هى طعمة اطعمكموها الله»، وروى مسلم أيضا عن عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه رضى الله تعالى عنه أنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ وهم محرمون وأبو قتادة مُحلّ وساق الحديث، وفيه: فقال: «هل معكم منه شيء»؟ قالوا: معنا رجله، فأخذها رسول الله ﷺ فأكلها. انتهى.

ويقال لأبى قتادة: فارس رسول الله ﷺ، لقوله ﷺ: «خير فرساننا أبو قتادة، وخير رجّالتنا سلمة بن الأكوع»، قال ذلك ﷺ يوم غزوة ذى قَرَد [1] وهو يوم أغارت فيه بنو فزارة على سرح رسول الله ﷺ، ويقال له يوم الغابة أيضا، وفى السِّيَر أن الذى أغار يومئذ عيينة بن حصن، وفى صحيح مسلم أن الذى أغار

(١) بفتح القاف والراء، ماء على نحو يوم من المدينة مما يلى بلاد غطفان. [الطهطاوى].

عبد الرحمن الفزارى فغنموا ما وجدوه من لقاع وظَهْر فذهبوا به وتبعهم المسلمون، وأبلى يومئذ أبو قتادة وسلمة بن الأكوع بلاء حسنا، فقتل أبو قتادة فارسا منهم، وهو عبد الرحمن، على ما ثبت فى صحيح مسلم، ورماهم سلمة بالنبل وتبعهم حتى لحقت به فوارس رسول الله ﷺ وقد خلوا بينه وبين ما غنموه وألقوا أكثر من ثلاثين بردة وثلاثين رمحا يتخففون، فلذلك قال رسول الله ﷺ: «خير فرساننا أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة بن الأكوع».

وفى الصيد بالسهام روى مسلم رحمه الله تعالى عن عدى بن حاتم رضى الله تعالى عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن الصيد، قال: «إذا رميت سهمك فاذكر اسم الله، فإن وجدته قد قتل فكل، إلا إن وجدته فى ماء فإنك لا تدرى، الماء قتله أم سهمك؟».

وفى الصيد بالمعراض ـ الذى هو خشبة فى طرفها حديدة أو سهم لا ريش له يرمى به عرضا ـ فقد روى مسلم رحمه الله تعالى عن عدى بن حاتم، قال: سألت رسول الله ﷺ عن المعراض، فقال: «إذا أصاب بحده فكل، وإذا أصاب بعرضه فقتل فإنه وقيذ [1] فلا تأكل».

وأما الصيد باليد فقد روى مسلم رحمه الله تعالى عن أنس رضى الله تعالى عنه: مررنا فاستنفجنا [2] أرنبا بمر الظهران [3] فسعوا عليه فلغبوا، قال: فسعيت حتى أدركتها، فأتيت بها أبا طلحة رضى الله تعالى عنه فذبحها، فبعث بوركها وفخذيها إلى رسول الله ﷺ فقبلها. وفى [الشفاء] للقاضى عياض بسند بلغ به عائشة رضى الله تعالى عنه، قالت: كان عندنا داجن [4] فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ قر وثبت مكانه ولم يخف ولم يذهب، فإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب. انتهى.

---

(١) والوقيذ الميتة، من قوله عز وجل (والموقوذة) وهى المقتولة بعصا أو حجر أو ما لا حد له، يقال: وقذته إذا أثخنته ضربا. [الطهطاوى].

(٢) أى أسرناها فوثبت. [الطهطاوى].

(٣) وهو مكان على بريد من مكة. [الطهطاوى].

(٤) دواجن البيوت ما ألفها من الطير والشاء وغير ذلك. [الطهطاوى].

وأما الصيد بالآلات، قال ابن عطية في قوله تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ (المائدة: ٩٤): الظاهر أن الله عز وجل خص الأيدى بالذكر لأن بها معظم التصرف فى الاصطياد وفيها تدخل الحبالات وما عمل باليد من فخاخ وشباك. انتهى.

والآلات المتخذة للصيد على ضروب من الحيل، فمنها الشباك الظاهرة، والأشراك المستورة، والفخاخ، ومنها ما يدس فى أماكن متفرقة تحت التراب من الحديد للبقر والحمير الوحشية فإذا تخطت فيه حطت فيه أرجلها ونزعتها فرمحت فتقطع أعصابها حتى لا يكون بها حراك، وإياها عنى الشاعر بقوله:

فإن كنت لا أرمى الظباء فإننى ... أدس لها تحت التراب الدواهيا

ومنها الحُفَر، وغير ذلك.

وأما صيد البحر فقد جاء أيضا فى كتاب الله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ (المائدة: ٩٦) وقال تعالى: ﴿ **وما يستوى البحران هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها** ﴾ (الفرقان: ٥٣) قال ابن عطية: هذا حكم بتحليل صيد البحر، وهو كل ما صيد من حيتانه، ويراد بالصيد هنا المصيد وبالبحر الماء الكثير، مالحا كان أو عذبا، وطعامه، قال أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما وجماعة من الصحابة والتابعين من بعدهم، هو ما قذف به وطفا عليه، لأن ذلك طعام لا صيد، وهذا التأويل ينظر إلى قول رسول الله ﷺ: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته».

وقد صيد من البحر فى زمن رسول الله ﷺ وأكل منه، روى مسلم رحمه الله تعالى عن جابر رضى الله تعالى عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ فأمَّر علينا أبا عبيدة نتلقى عيرا لقريش، وزودنا جرابا من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه يعطينا تمرة تمرة فكنا نمصها كما يمص الصبى ثم نشرب عليها من الماء فيكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعضينا الخبط [1] ثم نبله بالماء فنأكله، قال

(١) أى ورق السمر. [الطهطاوى].

وانطلقنا على ساحل البحر فرفع لنا على ساحل البحر كالكثيب الضخم فأتيناه فإذا هى دابة تدعى العنبر، قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا، بل نحن رسل رسول الله ﷺ، وفى سبيل الله، وقد اضطررتم، فكلوا، فأقمنا عليها شهرا، ونحن ثلاثمائة، حتى سمنا، ولقد رأيتنا نغترف من وَقْب [1] عينها بالقلال الدهن ونقطع منه الغدد [2] كالثور - أو كغدد الثور - فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم فى وَقْب عينيه، وأخذ ضلعا من أضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها، وتزودنا من لحمه وشائق [3]، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له ذلك، فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شىء فتطعمونا؟» فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله.

وكان فى عهده ﷺ السقاء الذى يحمل الماء على ظهره، كما كان أيضا الحمل على الظهر مطلقا موجودا، روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى: ﴿**الذى يلمزون المطوعين**﴾ (التوبة: ٧٩) الآية، أن رسول الله ﷺ حض على الصدقة يوما فجاء عبد الرحمن بن عوف ببعض ماله أربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار، وأتى عاصم بن عدى بمائة وسق تمرا فلمزهما المنافقون [4] وقالوا: هذا رياء، فنزلت (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم). انتهى.

وكان أبو عقيل السقاء جاء بصاع من تمر فقال: ما لى غير صاعين، نقلت بهما الماء على ظهرى، حبست أحدهما لعيالى وجئت بالآخر، فلمزه المنافقون يقولهم: إن الله لغنى عن صاع هذا.

وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالصدقة فما يجد أحدنا شيئا يتصدق به حتى ينطلق إلى السوق فيحمل على ظهره فيجىء

---

(١) بفتح الواو وسكون القاف: حفرة العين فى عظم الوجه. [الطهطاوى].

(٢) أى القطع. [الطهطاوى].

(٣) أى شرائح. [الطهطاوى].

(٤) أى عابوهما. [الطهطاوى].

بالمدّ فيعطيه رسول الله ﷺ ، وإنى لأعرف اليوم رجلا له مائة ألف لم يكن له يومئذ درهم .

وأما اللّحّام، ويسمى أيضا الجزار والقَصَّاب، فقد روى البخارى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: جاء رجل من الأنصار يكنى أبا شعيب، فقال لغلام له قصاب: اجعل لى طعاما يكفى خمسة، فإنى أريد أن أدعو النبى ﷺ خامس خمسة، فإنى قد عرفت فى وجهه الجوع. وروى البخارى رحمه الله تعالى بسنده عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أن عليا رضى الله تعالى عنه أخبره أن النبى ﷺ أمره أن يقيم على بُدْنه [1] وأن يقسم بدنه كلها لحومها وجلودها وجَلالها [2] وأن لا أعطى أجرا لجازر منها، وقال: نحن نعطيه من عندنا.

وأما الطباخ، ففى [الشمائل] للترمذى رحمه الله تعالى عن أبى عبيد [3] رضى الله تعالى عنه، قال: طبخت للنبى ﷺ قدرا، وكان يعجبه الذراع، فناولته الذراع، ثم قال: ناولنى الذراع، فناولته الذراع، ثم قال: ناولنى الذراع، فقلت: يا رسول الله، وكم للشاة من ذراع؟ فقال: والذى نفسى بيده، لو سكت لناولتنى الذراع ما دعوت! وخرج النسائى رحمه الله فى (كتاب الوليمة) من سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ذبحت لرسول الله ﷺ شاة، قال: ناولنى الذراع، فناولته الذراع، ثم قال: ناولنى الذراع، فناولته الذراع، ثم قال: ناولنى الذراع، فقلت يا رسول الله، إنما للشاة ذراعان، قال: لو التمسته لوجدته. انتهى. فيحتمل أن يكون ما رواه هذان الإمامان قضيتين وقعتا فى وقتين مختلفين، أو أن يكون من وهم الرواة، فنسبها أحد لأبى عبيد، ونسبها الآخر لأبى هريرة، وإنما كان أبو عبيد خادم رسول الله ﷺ، وكان يطبخ له، وكان أبو رافع مولى رسول الله ﷺ شواء. روى النسائى رحمه الله تعالى عن أبى رافع رضى الله تعالى عنه قال: كنت أشوى لرسول الله ﷺ بطن الشاة، وقد توضأ للصلاة، فيأكل منه ثم يخرج للصلاة ولا يتوضأ.

---

(١) جمع بدنة، وهى ما جعل فى الأضحى والنذر وما أشبه ذلك. [الطهطاوى].

(٢) جمع جل، وهو ما يوضع على الدابة لتصان به. [الطهطاوى].

(٣) أبو عبيد، هو من موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم [الطهطاوى].

وأما الحفار للقبور، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما: لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ، وكان أبو عبيدة بن الجراح يضرح [1] لأهل مكة، وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذى يحفر لأهل المدينة فكان يلحد، فدعا العباس رضى الله عنه رجلين فقال لأحدهما: إذهب إلى أبى عبيدة بن الجراح، وقال للآخر: إذهب إلى أبى طلحة، اللهم اختر لرسول الله، فوجد صاحب أبى طلحة أبا طلحة فجاء به فلحد لرسول الله ﷺ. وأبو طلحة هو زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد مناه بن غنم بن عمرو بن مالك النجارى الأنصارى، وهو مشهور بكنيته، شهد العقبة ثم شهد بدرا وما بعدها من المشاهد، وهو القائل:

أنا أبو طلحة واسمى زيد وكل يوم فى سلاحى صيد

(١) أى يحفر الضريح، والضرح شق القبر قوسا واللحد فى الجانب. [الطهطاوى].

الفصل الثالث

(فى النساء المحترفات فيما يليق بهن، وهن: الماشطة، والقابلة، والخافضة، والغاسلة، والمغنية)

أما الماشطة، فهى التى تجمل المرأة وتصلح من أمرها لتعجب زوجها، وقد كانت ماشطة السيدة خديجة رضى الله عنها تسمة زفر، قال ابن فتحون فى [ذيل الاستيعاب] زفر: كانت ماشطة السيدة خديجة أم المؤمنين وسيدة نساء العالمين رضى الله تعالى عنها، كانت تأتى النبى ﷺ بعد ذلك فيكرمها، ويقول: إنها كانت تأتينا أيام خديجة.

ولما أعرس رسول الله ﷺ بصفية بنت حُيَىّ بن أخطب بخيبر، أو ببعض الطريق، كانت ـ كما قاله ابن إسحاق ـ التى جملتها لرسول الله ﷺ ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان، أخى أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه، فبات رسول الله ﷺ فى قبة له وفى [الاستيعاب] أن أم سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار، اختلف فى اسمها، فقيل سهلة، وقيل رملة، وقيل رميسة، وقيل مليكة، ويقال العميصاء والرميصاء، كانت تحت مالك بن النضر، أبى أنس بن مالك، فى الجاهلية، فولدت له أنس بن مالك، فلما جاء الله تعالى بالإسلام أسلمت مع قومها، وعرضت الإسلام على زوجها فغضب عليها وخرج إلى الشام فهلك هنالك، ثم خلفه عليها بعده أبو طلحة الأنصارى رضى الله تعالى عنه فخطبها وهو على دين قومه وعلم أنه

لا سبيل له عليها إلا بالإسلام فأسلم وتزوجها، وجاءت منه بعبد الله بن أبى طلحة الفقيه، وروت أم سليم رضى الله تعالى عنها عن النبى ﷺ أحاديث، وكانت من عقلاء النساء. انتهى بتصرف.

وأما القابلة، فكانت سلمى مولاة النبى ﷺ ابنة أبى رافع، قابلة مارية أم إبراهيم، ولدته بالعالية [(١)] فى المال الذى يقال له اليوم مشربة إبراهيم بالقُضب [(٢)] فبشر أبو رافع به النبى ﷺ فوهب له عبدا، وكانت أيضا قابلة فاطمة ابنة رسول الله ﷺ، وهى التى غسلت فاطمة رضى الله تعالى عنها بحضور أم عطية الخافضة، الآتى ذكرها، وشهدت سلمى هذه غزوة خيبر مع رسول الله ﷺ.

وأما الغاسلة، فقد تقدم أن سلمى مولاة النبى ﷺ ابنة أبى رافع، قابلة مارية أم إبراهيم، غسلت فاطمة بنت النبى ﷺ، وأن أم عطية كانت حاضرة معها.

وأما الخافضة فهى الخاتنة، فكانت [(٣)] فى عهد النبى ﷺ أم عطية هى التى تخفض البنات، روى أن رسول الله ﷺ قال لها: «اخفضى ولا تنهكى [(٤)]، فإنه أنضر للوجه وأحظى عند الزوج». وأول من ثقبت أذناها وخفضت من النساء هاجر أم إسماعيل عليه السلام، وذلك أن سارة غضبت عليها فحلفت أن تقطع ثلاثة أعضاء من أعضائها! فأمرها إبراهيم عليه السلام أن تبر قسمها بثقب أذنيها وخفاضها، فصارت سنة فى النساء! وكانت أم عطية رضى الله تعالى عنها من كبار نساء الصحابة تغزو كثيرا مع رسول الله ﷺ، تداوى المرضى والجرحى ولها عن النبى ﷺ أحاديث، وبعضهم لم يذكرها فى الصحابيات.

وأما المرضعة: فكانت أم بريدة بنت المنذر بن زيد بن لبيد بن خراش بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار هى التى أرضعت إبراهيم بن نبينا ﷺ دفعه رسول الله

---

(١) كل ما كان من جهة نجد من المدينة من قراها وعمائرها فهو العالية، وكل ما كان من دون ذلك من جهة تهامة فهو السافلة. [الطهطاوى].

(٢) بضم القاف، واد من أودية المدينة. [الطهطاوى].

(٣) فى الأصل: فكان.

(٤) أى لا تبالغى فى استقصاء الختان. [الطهطاوى].

ﷺ إليها ساعة وضعته أمه فلم تزل ترضعه حتى مات عندها، وهى زوج البراء بن أوس بن خالد النجار، وهو رضى الله عنه أبو إبراهيم من الرضاع، لأن زوجته أم بردة أرضعته بلبنه، ويقال لها أيضا أم سيف ولزوجها أبو سيف، وروى البخارى رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبى سيف القين، وكان ظئرا لإبراهيم فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمه. انتهى. وكما تكنى أم بردة فكنيتها أم سيف أشهر، وقد تقدم ذلك فى (الفصل الثانى) من (الباب الثانى عشر) من (المقالة الخامسة).

وأما المغنية فهى مشتقة من الغناء، بالمد، وأصله رفع الصوت بشىء والموالاة به مرة بعد أخرى، وأكثر ما شاق من صوت أو شجى من نغمة ولحن، فلذلك قيل: غنت الحمامة وتغنى الطائر، قال المجنون:

ألا قاتل الله الحمامة غدوة ... على الغصن ماذا هيجت حين غنت

وأنشد الفراء:

تغنّ بالشعر إذ ما أنت قائله ... إن الغناء لهذا الشعر مضمار

وليس كل من يتغنى بالشعر أو غيره بمغن، إلا من اتخذه صناعة، فمن ينشد من الجوارى وغيرهن من الرجال الأشعار فى شؤونهم فى خلواتهم ويترنمون به لا يقال له مغن، ويغلب اسم المغنية على القينة، وإن كانت القينة فى الأصل الأمة، مغنية أو غير مغنية، والجمع القيان، وفسر بعضهم اللهو فى قوله تعالى: ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث** ﴾ (لقمان: ٦)، بالغناء، قال القسطلانى فى (شرح البخارى): قال ابن مسعود، فيما رواه ابن جرير: هو الغناء، والله الذى لا إله إلا هو يرددها ثلاث مرات، وبه قال ابن عباس وجابر وعكرمة وسعيد بن جبير، وقال الحسن: أنزلت من الغناء والمزامير، وعند الإمام أحمد، عن وكيع، قال: حدثنا خلاد الصفار عن عبيد الله عن على بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن، هو أبو عبد الرحمن، مرفوعا: لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهن وأكل أثمانهن حرام، ورواه ابن أبى شيبة بالسند المذكور إلى القاسم عن أبى أمامة مرفوعا

بلفظ أحمد، وزاد: وفيه أنزلت هذه الآية (ومن الناس من يشترى لهو الحديث)، ورواه الترمذى من حديث القاسم بن عبد الرحمن عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن، ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن، وثمنهن حرام»، فى مثل هذا أنزلت هذه الآية (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) الآية، وقال: حديث غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه، قال: وسألت البخارى عن إسناد هذا الحديث فقال: عليّ بن يزيد ذاهب الحديث، ووثق عبيد الله والقاسم بن عبد الرحمن، ورواه ابن ماجه فى التجارات من حديث عبيد الله الإفريقى عن أبى أمامة قال: نهى رسول الله ﷺ عن بيع المغنيات وعن شرائهن وعن كسبهن وعن أكل أثمانهن، ورواه الطبرانى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثمن القينة سحت، وغناؤها حرام، والنظر إليها حرام، وثمنها من ثمن الكلب، وثمن الكلب سحت، ومن نبت لحمه من سحت فالنار أولى به» ورواه البيهقى عن أبى أمامة من طريق مثل رواية الإمام أحمد، وفى [معجم الطبرانى الكبير] من حديث أبى أمامة الباهلى أن رسول الله ﷺ قال: «ما رفع رجل بعقيرته غناء إلا بعث الله شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يسكت»، وقيل: الغناء مفسدة للقلب، منفدة للمال، مسخطة للرب، وفى ذلك الزجر الشديد للأشقياء المعرضين عن الانتفاع بسماع كلام الله، المقبلين على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب، وإضافة اللهو إلى الحديث للتبيين بمعنى من، لأن اللهو يكون من الحديث وغيره فبين بالحديث، أو للتبعيض، كأنه قيل ومن الناس من يشترى بعض الحديث الذى هو اللهو منه ليضل أى ليصد الناس عن سبيل الله، دين الإسلام والقرآن، وسقط لأبى ذر قوله: (ليضل عن سبيل الله) وقال بدلها: الآية. انتهى.

قال الغزالى: وأما شراء لهو الحديث بالدين استبدالا ليضل به عن سبيل الله، فهو حرام مذموم، وليس النزاع فيه، وليس كل الغناء بدلا عن الدين مشترى به ومضلا عن سبيل الله تعالى، وهو المراد فى الآية، ولو قرأ القرآن ليضل به عن سبيل الله كان حراما. انتهى.

ولعل القول بالتحريم مبنى على ما ينتج عن الغناء من التلاهى عن حقوق الله

وحقوق عباده، ولما يعرض فيه من فساد الأخلاق، ولما يصحبه من المنادمة والمحادثة عن شرب الخمور، لا نظرا للغناء فى حد ذاته مع الاقتصاد لترويح النفس، وكفاك فى صحة ذلك أن الغناء صار ديدنا لأكثر الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء والأغنياء والأغبياء، وأنه ألهاهم على مصالحهم الواجبة التأدية، وأنه قد تألف فى المغنيين والمغنيات طبقات وأى طبقات، وأطروا فى مدحهم، على ما عمت به البلوى من قبحهم، قال صاحب [طبقات المغنين] فى ترجمة حَبابة جارية يزيد بن عبد الملك:

أمة غلبت على الحرائر، وفتنت بإطرابها، وحسنت بين أترابها، وسفرت فراب البدور سفورها، وملأ الصدور سرورها، ووصلت إلى حجب يزيد، وكان حب شغفه لها يزيد، فكان لو خير بينها وبين الخلافة لاختارها، أو شهيها والشهد لترك الشهد واستأثرها، وكانت هى سبب الطعن عليه حتى أنفذته الرماح، ونبذته ملقى فى مهبات الرياح، وصارت إليه هى وسَلاّمة القَسّ، ونعم بهما طوال مدته مثل ليلة العرس، إلا أن هوى حَبابة سكن حبة قلبه، وأشغله حتى ذهب بلبه، ثم وهبها سلامة، ورضى بها ولم تسخطه ملامه، قال أبو الفرج: أول ما ارتفعت به منزلة حَبابة عند يزيد أنه أقبل يوما إلى البيت الذى هى فيه فقام من وراء الستر فسمعها تترنم وتغنى:

كان لى يا يزيد حبك حَيْنا[1] كاد يقضى علىّ لما التقينا

والشعر كان لأبى سفيان، فرفع الستر فرآها مضطجعة مقبلة على الجدار، فعلم أنها لم تعلم له، فألقى نفسه عليها، فخجلت منه.

قال بعضهم: لما ألح يزيد على الشرب وسماع الغناء أقبل مسلمة عليه يلومه ويقول له: إنك وليت بعقب عمر بن عبد العزيز وعدله، وقد تشاغلت بهذه الأمة عن النظر فى أمور المسلمين، والوفود ببابك وأصحاب الولايات والظلامات يضجون وأنت غافل عنهم، فقال: صدقت والله، وأعتبه، وهَمَّ بترك الشراب

---

(١) والحين - بفتح الحاء المهملة - الهلاك. [الطهطاوى].

أياما، ولم يدخل على حبابة مدة، فدست حَبابة إلى الأحوص [1] أن يقول بيتا فى ذلك، وقالت: إن رددته عن رأيه فلك ألف دينار، فدخل الأحوص على يزيد فاستأذنه فأذن له فقال:

بكيت الصبا جهدى فمن شاء لامنى ... ومن شاء آسى فى البكاء فأسعدا

وإنى وإن جديت فى طلب الصبا ... لأعلم أنى لست فى الحب أوحدا

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ... فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا

فما العشق إلا ما تلذ وتشتهى ... وإن لام فيه ذو الشنار وفندا

وحفظت حَبابة الأبيات، وعملت فيها لحنا، وكان يزيد قد أقام جمعة لا يدخل إليها، فلما كان يوم الجمعة قالت لبعض جواريها: إذا خرج أمير المؤمنين إلى الصلاة فأعلمينى، فلما أراد الخروج أعلمتها فتلقته والعود فى يديها فغنت البيت الأول، فغطى وجهه، وقال: مَه، لا تفعلى، ثم غنت الأبيات فلما بلغت إلى * فما العشق إلا ما تلذ وتشتهىٍ * عدل إليها وقال: صدقت والله، قبح الله من لامنى فيك! يا غلام، مر مسلمة فليصل بالناس، وأقام معها! وعاد إلى حاله. ويحكى عنها أنها أنشدت يوما يزيد بن عبد الملك:

لعمرك إننى لأحب سَلعا ... لرؤيتها ومن بجنوب سَلع

ثم تنفست شديدا، فقال لها: أنت فى ذمة أبى، لئن شئت لأقلعنه إليك حجرا حجرا، فقالت: وما أصنع به، ليس إياه أردت، إنما أردت ساكنه!

قال المداينى: كانت حَبابة إذا غنت وطرب يزيد قال: أطير، فتقول: إلى من تدع أمور المسلمين؟ فيقول: إليك! ويقال إن حَبابة غنت يوما فطرب يزيد ثم قال لها: هل رأيت أطرب منى؟ قالت: نعم، مولاى الذى غنى، تريد يوسف، فغاظه

---

[1] عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم الأنصارى (المتوفى سنة ٧٢٣م) شاعر هجَّاء من سكان المدينة، وفد الشام ثم أعيد إلى المدينة وجلد ونفى إلى «دهلك» بأمر الوليد بن عبد الملك، ثم أطلق سراحه فى عهد يزيد بن عبد الملك فعاد إلى دمشق ومات بها.

ذلك، فكتب في حمله مقيدا، فلما قدم أمر بإدخاله إليه، فأدخل يوسف في قيده وأمرها بالغناء فغنت:

فشط غدًا دار جيراننا وللدّار بعد غد أبعد

فوثب يوسف فألقى نفسه على الشمعة فأحرقت لحيته، وجعل يصيح: الحريق، الحريق! فضحك يزيد وقال: لعمرى إن هذا لأطرب منى، وأمر بحل قيوده ووصله بألف دينار، ووصلته حبابة بمثلها، وزودته إلى المدينة.

قال بعضهم: نزل يزيد بيت ديرانية بالشام ومعه حَبابة، فقال: زعموا أنه لا يصفو لأحد عيشه إلى الليل لا يكدره شيء، وسأجرب ذلك، ثم قال لمن معه: إذا كان الغد لا تخبروني بشيء، ولا تأتوني بكتاب، وخلا بحَبابة، فأتيا بما يأكلان، فأكلت رمانة فشرقت بحبة فماتت، فأقام لا يدفنها ثلاثة أيام حتى أنتنت، وامتنع عن الأكل والشرب وخطاب الناس، وجعل يشمها ويتر شفها، فعاتبه أقرباؤه وقالوا: قد صارت جيفة بين يديك، ولم يزالوا به حتى أذن لهم في دفنها، وأمر فأخرجت في نطع، وخرج لا يتكلم حتى جلس على قبرها، وقال: أصبحت والله كما قال كُثَير:

فإن تَسْلُ عنك النفس أو تدع الصبا فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد

وكل خليل زارني فهو قائل من أجلك هذا هامة اليوم أو غد

فما أقام إلا خمسة عشر يوما حتى مات ودفن إلى جانبها.

وروى المدايني أنه اشتاق إليها بعد ثلاثة أيام من دفنها فأمر بنبشها فنبشت، فكشف عن وجهها وقد تغير تغيرا قبيحا، فقيل له: اتق الله، ألا ترى كيف صارت؟! فقال: ما رأيتها قط أحسن من هذا اليوم، أخرجوها فجاءه مسلمة ووجوه قومه وأهله فلم يزالوا به حتى أزالوه عن ذلك ودفنوها. انتهى كلام [الطبقات] ببعض تصرف. وانظر الفرق بين يزيد بن عبد الملك ويزيد بن الوليد القائل لأصحابه ينصحهم: إياكم والغناء، فإنه ينقص الحياء، ويزيد الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعله السكر، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء. فإن الغناء داعية الهجر.

وبالجملة، فإذا رأيت الرجل ذوقه ووجده وتشوقه فى سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفى سماع الألحان دون سماع القرآن، فهذا أقوى دليل على أنه مغرور، ودليل أيضا على فراغ قلبه من محبة كلام الله.

فإن كان هذا حال الغناء والسماع، وما يترتب عليه من فساد الطباع، فكيف لا ينعقد على حرمته الإجماع. وبالجملة، فالحرمة فى اللعب من غناء وغيره معتبرة بما يترتب عليه من المحارم، وما ينتج عنه من الميل عن سنن المكارم.

وأما سماع أهل الله السادة الصوفية، المخلصون من شرك النفس وبقاياها، فلا يرد عليهم ما يرد على غيرهم من أهل الغفلة من الشهوة البشرية والميل النفسانى والخاطر الشيطانى، وإنما هو منشط ومُقوّلهم على السلوك إلى الله تعالى، وربما قطعوا به المسافات البعيدة فى السلوك التى لا يقطعونها فى زمن طويل، قالوا: وربما عرض للسالك عقبة فى سلوكه فلا يقطعها إلا بالسماع، وقال الشيخ زين العابدين البكرى الصديقى رضى الله عنه وعن أصوله:

هاتوا موالى وهاتوا منشداً قوّال　　　فكل ساعة طرب تنتج لنا أحوال

قال بعضهم: افتقار السماع إلى الوجد كافتقار الصلاة إلى النية، وكما لا تصح الصلاة إلا بالنية والقصد كذلك لا يباح السماع إلا بالوجد، فمن كانت حركته فى السماع طبيعية كانت نشوته حيوانية، ألا ترى أن كثيرا من الحيوان ينشأ له حال غير المعتاد عند سماع المطربات، وقوة حركة لسماع طيب النغمات، فمن كان هذا السماع الحيوانى فى ذلك أقصى أربه، كان مقصورا فيه على لهوه ولعبه، وهو سماع الطبيعة، فهو غير مباح، والسماع الذى اختلفت فيه الأقوال إنما هو سماع أهل المقامات والأحوال، فمنهم من أباحه على حكم الاختصاص، ومنهم من جعله من زلة الخواص، ومنهم من توقف ولم يجد إلى إقامة الدليل على كلا أمريه نشاطا، ورأى الاستغفار منه إذا قدر له الحضور فيه احتياطا، فهو متردد فى أمريه، فتركه لمثل ذلك أولى، ولم يعترض على من حضره من السلف، لكن لم ير نفسه لحضوره أهلا، وأنشد:

إذا حرك الوجد السماع إليكم   يباح وإلا فالسماع حرام

ومن هزه طيب السماع حديثكم   ومال من الأشواق ليس يلام

وقد يقال نظير ذلك فى الرقص، فإن كان للتواجد أبيح.

ومع هذا فينبغى أن لا يؤخذ ذلك على إطلاقه، فقد كان له وجود فى عهده ﷺ، روى مسلم رحمه الله تعالى عن عائشة رضى الله عنها قالت: جاء حبش يزفنون [١] فى يوم عيد فى المسجد، فدعانى النبى ﷺ فوضعت رأسى على منكبه، فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا التى انصرف عن النظر إليهم. وقيل إن الزفن هو رقص الحبشة، وهو لعبهم ونقزهم بحرابهم للمثاقفة [٢]، وإن قال بعضهم إنه الرقص بالدف، لأن هذا لا يصح فى المسجد، بخلاف النقز بالحراب للتدرب على الحروب فإنه لا يضر، وروى مسلم أيضا رحمه الله تعالى أن أبا بكر الصديق دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام منى تغنيان وتضربان بالدف، ورسول الله ﷺ مسجى بثوبه، فانتهرهما أبو بكرٍ رضى الله عنه، فكشف رسول الله ﷺ عنه فقال: دعها يا أبا بكر فإنها أيام عيد. انتهى.

والدف هو الذى يسميه الناس الطار، وهو المستعمل الآن عند المغنين فى الأعراس، وفيه قطع من الصفر مستديرة مركبة فى جانب دوره يسمع لها عند تحريكه وقرع بعضها بعضا تصويت وجلجلة، وقد كانت العرب تعمل فى دفوفها جلاجل، وأنشد الأصمعى فى كتابه فى [الخيل] للفرزدق يخاطب الحارث بن عبد الله بن ربيعة المعروف بالقُباع، وكان قد أمر صاحب شرطته عباد بن حصين بهدم داره مرتين، وكان عباد يلعب فى الأعراس:

أحارث دارى مرتين هدمتها   وأنت ابن أخت لا تخاف غوائله

أتحسب قلبى خارجًا من حجابه   إذا دف عباد تغنت جلاجله

وقد ذكر ذلك الإمام أبو حامد الغزالى فى (كتاب آداب السماع) من [كتاب

---

(١) أى يرقصون. [الطهطاوى].

(٢) المثاقفة هى اللعب بالسلاح.

الإحياء][1] عند ذكر الآلات التى يباح استعمالها فى الغناء، فعد فيها الدف، قال: «وإن كان فيه الجلاجل»، ولا يعلم هل الدفوف التى كانت الجوارى يضربن بها فى بيت النبى ﷺ فيها جلاجل أم لا، وإنما يحتمل من إجازة الغزالى استعمال ما فيه الجلاجل من الدفوف ثبوت استعمالها فى عهد النبى ﷺ، ولهذا أباح استعمالها. وروى مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: دخل على أبو بكر وجاريتان من جوارى الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث[2] فقالت: وليستا بمغنيتين[3] فقال أبو بكر: أبمزمار الشيطان فى بيت رسول الله ﷺ؟! وذلك فى يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر، لكل قوم عيد، وهذا عيدنا. انتهى.

وأخرج الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: كانت الحبش يزفنون، وفى رواية يرقصون، بين يدى رسول الله ﷺ ويقولون: محمد عبد صالح، فقال النبى ﷺ: ما يقولون؟ قالوا: محمد عبد صالح. وأخرج البخارى رحمه الله تعالى عن عائشة رضى الله عنها قالت: رأيت رسول الله ﷺ يسترنى بثوبه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد، فزجرهم عمر، فقال النبى ﷺ أمنا بنى أرْفَدة[4]، ونقل العلامة أبو الفرج ابن الجوزى رحمه الله تعالى فى كتابه [تنوير الغبش] عن أبى عوانة عن أبى بشر رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ، وأبا بكر مرا بالحبشة وهم يلعبون ويقولون شعرا:

يا أيها الضيف المعرج طارقًا لولا مررت بآل عبد الدار

لولا مررت بهم تريد قِراهم منعوك من جهد ومن إقتار

وأما من غنى فى وليمة النكاح، فقد روى البخارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال النبى ﷺ: «يا عائشة، ما كان

---

(١) انظر [إحياء علوم الدين] للغزالى، ص ١١٢٠ من طبعة الشعب.

(٢) يوم معلوم بين الخزرج والأوس، كان الظهور فيه للأوس. [الطهطاوى].

(٣) أى ليس الغناء صناعة لهما. [الطهطاوى].

(٤) يعنى من الأمن، قال الزركشى رحمه الله تعالى: أرفده ـ بفتح الهمزة وسكون الراء وفتح الفاء وكسرها ـ أشهر جد الحبشة، وفى [الصحاح] قال أبو عمر وبنو أرفده جنس من الحبوش، كذا فى [أزهار العروس] للعلامة السيوطى. [الطهطاوى].

معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو»، وروى النسائى عن جابر رضى الله تعالى عنه قال: أنكحت عائشة رضى الله تعالى عنها ذات قرابة لها رجلا من الأنصار، فقال رسول الله ﷺ: «أهديتم الفتاة، ألا بعثتم معها من يقول: أتيناكم أتيناكم، فحيانا وحياكم؟» وروى النسائى عن عامر بن سعيد قال: دخلت على قرظة بن كعب وأبى مسعود الأنصارى فى عرس، وإذا جوار يتغنين، فقلت: أنتم أصحاب رسول الله ﷺ، وأهل بدر، يفعل هذا عندكم؟ فقالوا: إن شئت فاجلس واستمع معنا، وإن شئت فاذهب، قد رخص لنا فى اللهو عند العرس.

وأما من غنى عند تلقى النبى ﷺ من السفر، فقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى فى (كتاب آداب السماع) من [الإحياء][1] قول الذين أباحوا الغناء وحججهم، قال: ويدل على هذا من النقل إنشادهم بالدف والألحان عند قدوم رسول الله ﷺ:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

قال الإمام الغزالى، ونقل أبو طالب المكى إباحة السماع عن جماعة، فقال: سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر، وابن الزبير، والمغيرة بن شعبة، وقال: قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح، صحابى وتابع بإحسان، وقال: لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع فى أفضل أيام السنة، وهى الأيام المعدودات التى أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق، ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا، فأدركنا أبا مروان القاضى وله جوار يسمعن الناس التلحين، قد أعدهن للصوفية. انتهى.

ولا يخفى أن عبد الله بن جعفر كان كريما جوادا حتى قيل إنه لم يكن فى الإسلام أسخى منه، وبهذا سمى بحر الجود، وكان ظريفا حليما عفيفا، حفظ عن رسول الله ﷺ وروى عنه، واشتهر عنه أنه كان لا يرى بسماع الغناء بأسا، وكان

---

(١) انظر [إحياء علوم الدين] ص ١١٣٥ وما بعدها.

إذا قدم على معاوية أنزله داره وأظهر له من بره وإكرامه ما يستحقه، فكان ذلك يغيظ فاختة زوجة معاوية، فسمعت ليلة غناء عند عبد الله بن جعفر فجاءت إلى معاوية فقالت: تعال فاسمع ما فى منزل هذا الرجل الذى جعلته بين لحمك ودمك! فجاء معاوية فسمع وانصرف، فلما كان فى آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله بن جعفر فجاء فأنبه فاختة وقال: اسمعى مكان ما أسمعتنى! انتهى.

ثم قال الإمام الغزالى بعد ذلك: ونقول: قد دل النص والقياس جميعا على إباحته، أما القياس فهو أن الغناء اجتمعت فيه معان ينبغى أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها، فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب، فالوصف الأعم أنه صوت طيب، ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره، والموزون ينقسم إلى المفهوم، كالأشعار، وإلى غير المفهوم، كأصوات الجمادات، وسائر الحيوانات، أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب فلا ينبغى أن يحرم، بل هو حلال بالنص والقياس، أما القياس فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصوص به، وللإنسان عقل وخمس حواس، ولكل حاسة إدراك وفى مدركات تلك الحاسة ما يستلذ، فللنظر لذة المبصرات الجميلة، كالخضرة والماء الجارى والوجه الحسن وسائر الألوان الجميلة، وهى فى مقابلة ما يكره من الألوان الكدرة القبيحة، وللشم الروائح الطيبة، وهى فى مقابلة الأنتان المستكرهة، وللذوق الطعوم اللذيذة، كالدسومة والحلاوة والحموضة، وهى فى مقابلة المرارة المستبشعة، وللمس لذة اللين والنعومة والملامسة، وهى فى مقابلة الخشونة والضراسة، وللعقل لذة العلم والمعرفة، وهى فى مقابلة الجهل والبلادة، فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة، كصوت العنادل والمزامير، ومستكرهة، كنهيق الحمير وغيرها، فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذتها.

وأما النص، فيدل على إباحة سماع الصوت امتنان الله على عباده إذ قال ﴿ **يزيد فى الخلق ما يشاء** ﴾ (فاطر: ١) فقيل: هو الصوت الحسن، وفى الحديث: «ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت»، وقال ﷺ: «لَلَّه أشد أذنًا للرجل الحسن

الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته»، وفى الحديث، وفى معرض المدح لداود عليه السلام: «إنه كان حسن الصوت فى النياحة على نفسه وفى تلاوة الزبور»، وقال ﷺ فى مدح أبى موسى الأشعرى: «لقد أعطى مزمارا من مزامير آل داود».

وقال بعض الحكماء: فضل الغناء كفضل النطق على الخرس والدينار المنقوش على القطعة من الذهب، ومن كلام بعضهم: الغناء يحرك الهوى الساكن ويسكن ألم الهوى المتحرك، وفى كلام بعضهم: الصوت المشجى يوصل إلى نعيم الدنيا والآخرة، لأنه يونس الوحيد، ويروح التعبان، ويسلى الكئيب، ويحض على الشجاعة واصطناع المعروف. قال أفلاطون: هذا العلم، يعنى علم الموسيقى، لم يضعه الحكماء للهو واللعب، بل للمنافع الذاتية، ولذة الروح الروحانية، وبسط النفس، وترطيب اليبوسات، وتعديل السوداء، وترويق الدم. انتهى.

وسميت الأنغام والألحان بالغناء لأن النفس تستغنى به عن الملاذ البدنية فى حال سماعه، وقال بعضهم:

غنى مغن بشجو	فزاد منه خشوعى
وحين أطرب سمعى	نَقَّطْتُه بدموعى

وقول الله تعالى: ﴿**إن أنكر الأصوات لصوت الحمير**﴾ (لقمان: ١٩) يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن، ولو جاز أن يقال: إنما أبيح ذلك بشرط أن يكون فى القرآن للزمه أن يحرم سماع العندليب، لأنه ليس من القرآن، وإذا جاز سماع صوت غفل لا معنى له فلم لا يجوز سماع صوت يفهم منه الحكمة والمعانى الصحيحة، وإن من الشعر لحكمة، فهذا نظر فى الصوت من حيث إنه طيب حسن.

ثم قال: السماع فى أوقات السرور تأكيد للسرور وتهيج له، وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحا، كالغناء فى أيام العيد وفى العرس وفى وقت قدوم الغائب وفى وقت الوليمة والعقيقة وعند ولادة المولود وعند ختانه وعند حفظه القرآن العزيز، وكل ذلك مباح لأجل إظهار السرور به، ووجه جوازه أن من الألحان ما يثير الفرح

والسرور والطرب، فكل ما جاز السرور به جاز إثارة السرور فيه، ويدل على هذا من النقل إنشاد النساء على السطوح بالدف والألحان عند قدوم رسول الله ﷺ : «طلع البدر علينا» الخ، فهذا لإظهار السرور بقدومه ﷺ ، وهو سرور محمود، فإظهاره بالشعر والنغمات والرقص والحركات أيضا محمود، فقد نقل عن جماعة من الصحابة أنهم حجلوا[1] في سرور أصابهم، وقد غنت جارية قوما اجتمعوا عند صاحب لهم، وسمع النبي ﷺ ولم ينكره عليهم، ذكر أبو عمر بن عبد ربه في [العقد الفريد]حديث عبد الله بن أبي أويس ابن عم مالك رحمه الله تعالى، قال: مر رسول الله ﷺ بجارية في ظل فارع[2] وهي تغني وتقول:

هــل عـلـيّ ويحكمـا إن لهـوت من حـرج

فقال ﷺ : «لا حرج، إن شاء الله»، وذكر الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري رحمه الله تعالى هذا البيت في رسالته، وزاد معه بيتين، وقال إن رجلا أنشد بين يدي رسول الله ﷺ :

أقـبلت فـلاح لهـا عـارضـان كـالسـبج[3]

أدبرت فـقلت لهـا والفـؤاد فـي وهـج

هـل عـليّ ويحـكـمـا إن لهـوت مـن حـرج

فقال رسول الله ﷺ :لا . وفي توجيه تشبيه العارضين بالسبج وجهان؛ الوجه الأول: أن يكون أراد عارضي نفسه، وأن المرأة لما رأت سوادهما استقبحته وشنأته فأدبرت، ويدل عليه قول الشاعر:

قـالت اسود عـارضـاك بشـعـر وبه تقـبح الوجـوه الحسـان

قلت أضـرمت في فـؤادي ناراً فـعلى عـارضيّ منه دخـان

---

(١) أي رقصوا. [الطهطاوي].

(٢) اسم أطم حسان بن ثابت، رضي الله تعالى عنه، سمي بذلك لعلوه وارتفاعه. والأطم - بضم الهمزة والطاء - الحصن. [الطهطاوي].

(٣) السبج: الخرز الأسود.

وبين أبو تمام [١] العلة فى ذلك بقوله :

أحلى الرجال من النساء مواقعًا ... من كان أشبههم بهن خدودا

والوجه الثانى : أن يكون أراد ما أرسلته هذه المرأة على عارضيها من شعر صدغيها ، فذكر العارضين وإنما يريد ما عليهما من الشعر ، ووصف ما يرسله النساء من شعر أصداغهن على عوارضهن بالسواد أمر معروف ، ولذلك شبهه الشعراء بالسبج ، فمن تشبيهه بالسبج قول الشاعر :

وجه كلعبة عاج صورت فترى ... على عوارضها صدغين من سبج

وقال بعضهم :

فى خدها ماء الشبيبة جائل ... مترقرق فى وجنة من نور

وكأن صدغيه على صفحاتها ... نونان من سبج على بلور

وأشار بتشبيههما بالنونين إلى تقعيبهما ، وقد يفعل ذلك فيهما كثيرا كما قال القاضى محيى الدين بن صاعد [٢] من شعراء الخريدة :

ولما التقى الياقوت والدر والسبج ... من الخد والأسنان والصدغ ذى العوج

أتاح لها البارى زمرد عينها ... فتم به عقد الملاحة وازدوج

وإنما جعل عينها من الزمرد لأنها كانت زرقاء ، وقد صرح بذلك فى قوله أيضا يمدح الزرقة فى العينين :

---

(١) أبو تمام الطائى ، حبيب بن أوس (٧٨٨- ٨٤٦م) شاعر عربى مبتكر ، تميز شعره بكثرة المديح ، كما تميز بإجادة وصف المعارك والبطولات ، وإلى جانب شعره المجموع فى ديوانه فإن له مختارات شعرية جمعها من شعر الشعراء القدماء والمحدثين . .

(٢) صاعد ين أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد ، الأندلسى (١٠٢٩- ١٠٧٠م) مؤرخ وبحاث ، أصله من قرطبة ومولده فى المرية ببلاد الأندلس ، ولى القضاء فى طليطلة إلى أن توفى . . ومن آثاره [جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم] و[صوان الحكم فى طبقات الحكماء] و [مقالات أهل الملل والنحل] و[إصلاح حركات النجوم] و[تاريخ الأندلس] و[تاريخ الإسلام] و[طبقات الأمم] . . وجدير بالذكر أن ابن صاعد هذا هو الذى تولى القضاء من بين الذين ذكرتهم كتب الطبقات تحت اسم «ابن صاعد» . .

مـا شـانهـا والله زرقـة عـينهـا بل صـار ذاك زيادة فى زينـهـا
كـادت أساود شـعـرها تسطو على عـشـاقـهـا لولا زمـرد عـينهـا

وأشار هنا إلى قول أصحاب الخواص: إن الحية إذا نظرت إلى الزمرد الفائق انفقأت عيناها، ومما جاء من تشبيهه بالعقارب قول بعضهم:

وغـانية لم تبق من جـسدى سـوى دمـاء ولا يبـقـى الدمـاء لما أرى
على وجنتـيـهـا عـقـربـان تقـابلا وفى مـقلتـيـهـا سـاحـران تظاهرا

وقول بعضهم:

ولما الـتـقـينا غـداة الـنوى وقـد أسـقط البـين مـا فى يدى
رأيت الهـوادج فـيـهـا البـدور عليـهـا البـراقع من عـسجـد
وتحت البـراقع مـقلوبهـا تـدب عـلى ورد خـد نـدى
تـسـالم مـن وطئـت خـده وتلـدغ قلب الـشـجى الأبـعـد
وتحـمى عـن الورد أن يُجْـتَـنَى فـقـد أمن الورد من مـعـتـدى

وقد غنت قينة أيضا بين يدى النبى ﷺ عن إذنه لتسمع أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها، روى النسائى رحمه الله تعالى عن السائب بن يزيد رضى الله تعالى عنه أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا عائشة، تعرفين هذه؟ قالت: لا يا نبى الله، قال: هذه قينة بنى فلان، تحبين أن تغنيك؟ فغنتها.

وقيل إن عطاء بن أبى رباح كان يأمر جواريه يسمعن أصحابه عند اجتماعهم، قال اليافعى: وأما ما نقل فى بعض كتب الفقه من أن فقيه الحجاز ذا الأوصاف الملاح أبا محمد عطاء بن أبى رباح، مولى قريش، كان يرى إباحة وطء الجوارى بإذن أربابهن، ومن أنه كان يبعث جواريه إلى ضيفانه، فقد قال بعض أهل العلم: الذى أعتقده أن هذا بعيد، فإنه لو رأى الحل كانت الغيرة تأبى ذلك، فكيف يظن هذا بمثل ذلك السيد الإمام؟ وينبغى أن يحمل على بعث الجوارى لسماع القول

منهن، على تقدير صحة ذلك، وقريب من هذا ما نقل عن بعض الصوفية، في باب السماع، أنه كان يأمر جواريه أن يسمعن أصحابه عند اجتماعهم، وفيه أيضا ما فيه، وإن صح فينبغي أن يحمل على ما إذا لم يخش منه فتنة بحضورهن وسماع أصواتهن، إذا قلنا إن صوت المرأة ليس بعورة، وكان في زمان بني أمية يأمرون في الحاج صائحا يصيح : لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح، وقال أبو حنيفة : ما رأيت أفقه منه، وقال ابن جريج : كان المسجد فراش عطاء عشرين سنة، وكان من أحسن الناس صلاة، وكان لا يفتر عن ذكر الله تعالى.

* * *

وهذا القدر من سيرته الشريفة ﷺ كاف في التبرك بذكره الشريف، وفي الدلالة على أنه ﷺ أفضل الخلق، وشريعته أفضل الشرائع، وأمته أكرم الأمم، وعلماؤها أكرم العلماء. وأما حصر فضائله ومعجزاته، وما خصه الله به في الدنيا والآخرة، وأعده له، فلا سبيل لأحد إليه، ولا يحوم طائر فكره عليه، ولا يعلمه إلا الله تعالى.

اللهم أدخلنا في شفاعته، وأمتنا على ملته، واحشرنا في زمرة علماء أمته، ووفقنا إلى العمل بطاعتك، ولا تمكر بنا عند الخاتمة، فإنا متوسلون بذلك إليك، ومتوكلون في غفران الذنوب عليك، إنك جواد كريم، رؤوف رحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء، الذي كان أشد حياء من العذراء، ولم ينطق بالسوء والفحشاء، وعلى آله وأصحابه، الذين تأدبوا بآدابه، واعتصموا بحبل الله وتمسكوا بكتابه.

ملحـــق

[كان المؤلف ـ رحمه الله ـ يرغب فى أن يضع جدولا يكثف فيه أبرز المعلومات عن الغـزوات التى غـزاها الرسـول ﷺ . . ولكن المنيـة لم تتح له فسـحـة الأجل اللازمة لذلك . . فنهض ابنه المرحوم «على فهمى رفاعة» بوضع هذا الجدول، من واقع الغزوات كما دونها المؤلف فى هذا الجزء من أعماله . . وضمنه المعلومات التى رغب والده أن يتضـمنها . . ونشره فى ثنايا الكتاب ـ [نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز] ـ ص ٢٥٩ ـ ٢٧١ ونحن نثبته هنا كملحق لهذا الجزء، لأنه مستخرج من أعمال الطهطاوى، ومحقق لرغبته . . وفى ذات الوقت نضعه فى نهاية هذا الجزء، لا فى ثناياه، لأنه من تصنيف ولده . . رحمهم الله . .]